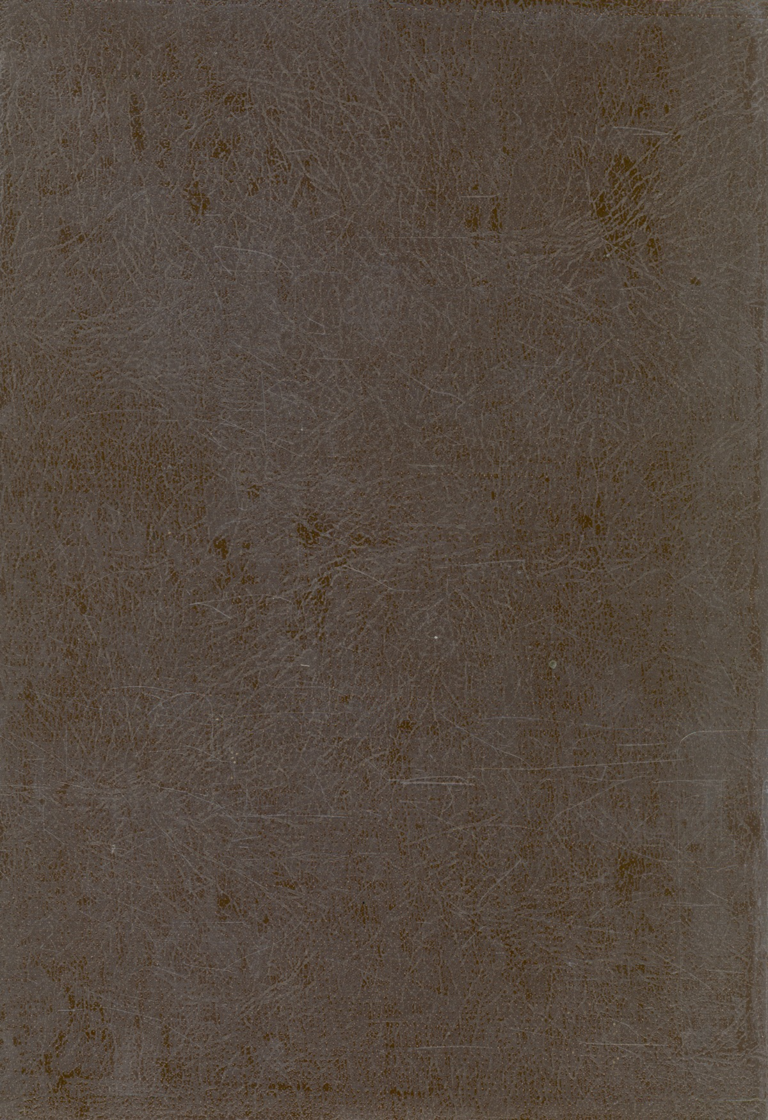



حياة محمد



إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ
يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

محمد حسين هيكل

الطبعة السابعة عشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهداء

إلى الذين يبتغون الحق لوجه الحق وحده

سجل المراجع
المراجع العربية

* القرآن الكريم .
* تفصيل آيات القرآن الحكيم ، لجول لابوم ، نظمه بالعربية محمد فؤاد عبد الباقى .
* كتب الحديث .
* تفسير الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٣٢٩ هـ) .
* أسباب النزول لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ، وبهامشه الناسخ والمنسوخ ، لأبى القاسم هبة الله بن سلامة أبى النصر (مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ) .
* الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم ، لأبى جعفر النحاس (مطبعة السعادة) .
* زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لشمس الدين أبى عبد الله الدمشقى المعروف بابن القيم الجوزى (المطبعة اليمنية بمصر سنة ١٣٢٤ هـ) .
* سيرة سيدنا محمد رسول الله ، المعروفة بسيرة ابن هشام ، لأبى محمد عبد الملك بن هشام (طبعة جتنجن سنة ١٢٧٤ هـ بعناية المستشرق وستنفلد).
* الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد كاتب الواقدى (بمطبعة برل بليدن سنة ١٣٢٢ هـ) . عنى بطبعه وتصحيحه إدورد سَخَوْ - Imp. Brill. Leiden
* المغازى ، لأبى عبد الله محمد بن عمر الواقدى (طبعة البعثة المعمدانية المسيحية بكلكتا سنة ١٨٥٥ م) .
* تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (مطبعة برل بليدن) . عنى به بارت ونلدكى .
* المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، لأحمد بن محمد بن أبى بكر الخطيب القسطلانى (مطبعة شاهين) .

* البداية والنهاية فى التاريخ ، لابن كثير الدمشقى (مطبعة السعادة) .
* الشفاء للقاضى عياض (نسخة خطية بمكتبة جعفر ولى) .
* الأصنام ، لابن الكلبىّ (مطبعة دار الكتب المصرية) .
* الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، لقطب الدين النهروانى (مطبعة برُكهاوس بليبزج .
* أخبار مكة ، لأبى الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى (مطبعة بركهاوس بليپزج Brockhaus, Leipzig) .
* فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين .
* فى الأدب الجاهلى ، للدكتور طه حسين .
* قصص الأنبياء ، للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .
* الوحى المحمدى ، للسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار .
* تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن ، عن الشيخ محمد عبده .
* الإسلام والنصرانية ، للشيخ محمد عبده (مطبعة المنار) .
* الرحلة الحجازية ، لمحمد لبيب البتانونى .
* اليهود فى بلاد العرب ، للدكتور إسرائيل ولفنسون .
* محمد المثل الكامل ، للأستاذ محمد أحمد جاد المولى .
* الإسلام الصحيح ، لمحمد إسعاف النشاشيبى .
* فتح العرب لمصر ، للدكتور ألفرد بتلر ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد (مطبعة دار الكتب المصرية) .
* مفتاح كنوز السنة لفنسنك ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى (مطبعة مصر) .
* الإسلام والتجديد فى مصر ، تأليف تشارلس آدمز وترجمة الأستاذ عباس محمود .
* دائرة معارف القرن العشرين ، للسيد محمد فريد وجدى .

المراجع الأجنبية

— *The Spirit of Islam,* by Sayed Ameer Aly.
— *Life of Mahomet,* by Washington Irving.
— *Life of Mohammed,* by Sir William Muir.
— *The Prophet of the Desert,* by Khaled Goba.
— *Mohammad,* by Margoliouth.
— *Heroes and Hero Worship,* by Thomas Carlyle.
— *La vie de Mahomet,* par Emile Dermenghem.
— *Essai sur l'Histoire des Arabes,* par Caussin de Perceval.
— *L'Islam,* par Lammens.
— *Les Grands Initiés,* par Edouard Schuré.
— *Dictionnaire Larousse,* Art. *Mahomet.*
— *Encyclopaedia Britannica;* Art *Mahomet.*
— *Historian's History of the World.*

تعريف بالكتاب

بقلم

المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

منذ وجد الإنسان على الأرض وهو مشوق إلى تعرّف ما فى الكون المحيط به من سنن وخصائص ، وكلما أمعن فى المعرفة ظهرت له عظمة الكون أكثر من ذى قبل ، وظهر ضعفه وتضاءل غروره . ونبىّ الإسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود . فقد جدّ العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلمسون نواحى العظمة الإنسانية فيه ، ويتلمسون مظاهر أسماء الله جلَّت قدرته فى عقله وخُلقه وعلمه . ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شىء من المعرفة ، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة ؛ وأمامهم جهاد طويل ، وبُعد شاسع ، وطريق لا نهاية له .

والنبوّة هبة الله لا تُنال بالكسب ؛ لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعدّ لها والقادر على حملها . الله أعلم حيث يجعل رسالته . ومحمد صلى الله عليه وسلم أعِدّ لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه ، أحمره وأسوده ، إنسه وجنه ، وأعِدّ لأن يحمل رسالة أكمل دين ، ولأن يختم به الأنبياء والرسل ، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم ، وتُبدّل الأرض غير الأرض والسموات .

عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحى قضية فرغ العلماء منها ؛ فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوّة واختيارهم لها . وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوّة لا مردّ لها . غير أن الوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم وفى كل قول يبدر منهم ؛ فهم عرضة للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرّهم على الخطأ بعد صدوره ، ويعاتبهم عليه أحياناً .

أُمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ عن ربه ، ولم تبين له الطرق التى يتبعها فى التبليغ وفى حماية الدعوة ، وتُرِك له أن يتصرف بعقله وعمله وفطنته ،

كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء . وجاء الوحى مفصلاً قاطعاً فى كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ؛ ولم يكن كذلك فيما يخص النظُم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول . فهناك مجال واسع للبحث عن عظمة النبى صلى الله عليه وسلم قبل الوحى ، وهناك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحى . فقد صار مبلغاً عن ربه داعياً إليه ، حامياً لتلك الدعوة ولحرّية الداعين ، مدافعاً عنهم ؛ وأصبح حاكم الأمة الإسلامية وقائدَ حربها ومفتيها وقاضيها ومنظِّم جميع الصِّلات والروابط فيها ، وبينها وبين غيرها من الأمم . وقد أقام العدلَ فى ذلك كله ، وألَّف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسيغ إمكان التأليف بينها ؛ وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوّة الحزم فى كل ما صدر عنه من قول أو فعل ، وتفجَّرت منه ينابيع العلم والمعرفة ، وينابيع البلاغة التى يطأطئ البلغاء رؤوسهم أمامها إجلالا وهيبة ؛ وفارق الدنيا وهو راض عن عمله مرضىّ من الله ومن المسلمين .

وكل هذه النواحى تستحق الدرس والتمحيص ، وليس فى مقدور شخص واحد أن يفيها حقها ، بل ليس فى مكنة شخص واحد أن يُوفى على الغاية فى ناحية من هذه النواحى .

وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله ، كسائر العظماء ، أضيف إليها ما ليس منها ، إما عن حب وهوى وحسن قصد ، وإما عن سوء قصد وحقد . غير أنها تمتاز عن سير العظماء جميعهم بأن منها شيئاً كثيراً ضمه الوحى الإلهى وضمن حفظه القرآن المطهر ، وشيئاً كثيراً رُوى على لسان الحفاظ الثقات من المحدّثين ، وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة ، وأن يستنبط العلماء منها حكمها وأسرارها ودقائقها ، وأن تحلل التحليل العلمى النزيه ، ملاحظاً فى ذلك ظروف الوسط وحال البيئة ونواحيها المختلفة من عقائد ونظم وعادات .

وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه « حياة محمد » فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويسّر لى أن أطَّلع على جزء منه قبل إتمام طبعه . والدكتور هيكل

معروف لقراء اللغة العربية ، غنىٌّ بآثاره فيها عن التعريف . وقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة ، ومكّنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة وأوفى منهما على حظ عظيم ، وناظر وجادل وهجم ودافع فى المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع وفى السياسة وغيرها ، فنضج عقله وكمل علمه واتّسع اطلاعه وامتدّ أفقه ، فأصبح ينافح عن آرائه بمنطق قوىّ وحجج باهرة وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته إليه . بهذه الثقافة وهذه القوّة نسج الدكتور كتابه وقال فى مقدّمته : « لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد ؛ بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة . وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوىّ . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته » .

أمّا أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ؛ فقد جعل العقل حكماً والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلّدين ، وأنّب من يتبع الظن وقال : « إن الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شيْئاً » وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن ، وهى معجزة عقلية . وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنّا بما تعيا العقول به   حِرصاً علينا ، فلم نَرْتَبْ ولم نَهِمِ

وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه . وقد ساير الدكتور غيره من العلماء فى هذا . ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة

علماء سلف المسلمين . انظر كتب الكلام ترهم يقرّرون أن أوّل واجب على المكلف معرفة الله ، فيقول آخرون : لا ، إن أوّل واجب هو الشك . ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان . وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدّماته قطعية حسية ، أو منتهية إلى الحس ، أو مدركة بالبداهة ، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام ، على ما هو معروف فى المنطق . وكل خطأ يتسرّب إلى إحدى المقدّمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان .

وقد جرى الإمام الغزالى على الطريقة نفسها . وقد قرّر فى أحد كتبه أنه جرّد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقدّر ، ورتب ووازن ، وقرّب وباعد ، وعرض الأدلة وهذبها وحللها ؛ ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق ، وإلى ما اهتدى إليه من الآراء . وقد فعل هذا ليجافى التقليد ، وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان ، ذلك الإيمان الذى لا يختلف المسلمون فى صحته ونجاة صاحبه .

وأنت واجد فى كتب الكلام فى مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد ، ثم البحث والنظر . فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة ، فليس هناك جديد عندنا ، ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق ، وبعد أن نشأ التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناضج وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة فى العلم جديدة .

هذا القانون العلمى فى البحث معروف قديماً وحديثاً . والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير . ولا يتفاوت الناس كثيراً فى معرفة القانون ، ولكنهم يتفاوتون جدّ التفاوت فى تطبيق القانون .

تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة ؛ لكن الإنسان الرازح تحت أحمال الوراثة فى دمه وعقله ، وأحمال البيئة فى البيت

والقرية والمدينة والدولة والمدرسة ، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات ، كيف يسهل عليه تطبيق القانون ؟ هذا هو موضع الداء قديماً وحديثاً وهو سبب تعدّد المذاهب والآراء وسبب تبدلها وتنقلها من قطر إلى قطر ، ومن أمة إلى أمة . والفلسفة والآداب تبدّل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدّل النساء أزياءها ، وقلّ أن تجد فيها شيئاً يصونه حرز أو يقيه حصن ؛ بل سرى التبدُّل إلى قواعد العلم التى لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعاً للشك . ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ما قام من يهدمها . والآراء فى الأمراض وأسبابها وطرق علاجها وفى التغذية لا تزال مطية للتبدّل والتحول . وهكذا إذا أنعمنا النظر لا نجد أماناً لما أنتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافراً فيه . ولكن ما نسبة هذه الأشياء التى يتوافر فيها البرهان إلى غيرها مما تمليه الظنون وتسطره الأوهام وتمجه الأذهان المريضة ، وتفرضه السياسة ؛ ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة فى مخالفة غيرهم وإحداث هذه المذاهب والآراء ! ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحده ، وتلويهم يوماً من الأيام إلى الدخول فى حمى الحق وحصن اليقين ؛ وهو الوحى الصادق ، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة .

نعود بعد هذا إلى الدكتور هيكل وكتابه .

يقول بعض علماء الكلام إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الإنسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلهى لدقائق الوجود . وأنا أقرّر أيضاً أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين ، وسيقرّب إلى العقل الإنسانى طريق فهم ما كان غامضاً مبهماً ، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا فِى الآفاق وفى أَنفُسِهِمْ حتَّى يتبيَّن لَهم أَنَّه الحَقُّ ، أَوَلم يَكْفِ بِرَبِّك أَنَّه على كلِّ شىءٍ شهِيدٌ﴾ .

والكهربا وما نشأ عنها من المخترعات قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوّة وتحوّل القوّة إلى مادة . وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئاً

كثيراً مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة فى طىّ الأبعاد ، وقد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الإسراء فأتى بشىء طريف .

ويطول بى القول إذا أنا عرضت لما فى كتاب الدكتور هيكل من حسنات ، وحسبى أن أنبه إلى تلك الحسنات إجمالا ، وسيدرك الناس جماله بأنفسهم ويستمتعون بلذة نتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة ، ويهديه المنطق الدقيق وتسعده الفطرة الصادقة ، وسيرون أن الدكتور كان مخلصاً الإخلاص كله للحقيقة ، عامر القلب بما فى الوحى المحمدى من هدى ونور ، وبما فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم من جمال وجلال وعظمة وعبرة ، مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن هذا الدين المحمدى سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة ، وينشلهم من ظلمة المادّة ويبصّرهم بنور الإيمان ، ويوجههم إلى النور الإلهى ، فيدركون به سعة رحمته التى وسعت كل شىء ، وعظمة مجده الذى تسبّح به السموات والأرض وكل شىء فيهما ، وعزّته التى تتضاءل أمامها الموجودات . ألا تراه يقول : « وأذهب أبعد مما تقدّم فأقول : إن هذا البحث جدير بأن يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى نلتمسها . وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد فى الإسلام ورسوله وتلتمس هذا النور فى « ثيوزوفية » الهند وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى ، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بأن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والإنصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق .

« فالتفكير الإسلامى على أنه تفكير علمى على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به ، هو من هذه الناحية واقعى بحت ، ينقلب تفكيراً ذاتيًّا حين يتصل الأمر بصلات الإنسان بالكون وخالق الكون » . ويقول : « لكن طلائع القضاء على الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص

لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره ، والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم كأثر من آثاره » .

وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع ؛ فإن ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق ، ومن عناية علمائه بدراسة الإسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأممه قديماً وحديثاً ، ومن إنصاف بعضهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وما أيدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب ؛ كل ذلك يرشدنا إلى أن الإسلام سينشر لواءه على العالم وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعاً عنه ، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله ، وكما نصره أول أمره الغرباء عن البيئة التى نشأ فيها ، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه . وقد بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء !

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وليس للعالم بعده هاد مرشد ، وكان دينه أكمل دين بنص الوحى القاطع ، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن ، ولا بد أن يمحو نوره نور غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب .

وقد وفِّق الدكتور فى تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض ، فجاء كتابه عقداً منضداً وسلسلة متينة محكمة الحلقات . وقد أبدع فى بيان الأسباب والأغراض والحكم بياناً قويًّا واضحاً يجعل القارئ مطمئن النفس رضىّ القلب يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره ببرد اليقين ، فيملك عليه أمره ، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفى على آخر ما بيده من البحث .

وفى الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة ، ولكنها اتصلت بها بسبب الإسهاب فى بيان أغراضها .

وأختم كلمتى هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل علىَّ غضبَك ، أو تحلّ بى سخطك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ولا حول ولا قوّة إلا بالله » .

محمد مصطفى المراغى

١٥ من فبراير سنة ١٩٣٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝

تقديم الكتاب

محمد عليه الصلاة والسلام

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه ، وله تهتز ملايين القلوب كل يوم مرَّات . وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتزّ منذ أربعمائة وألف سنة إلا خمسين . وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتزّ ملايين القلوب إلى يوم الدين . فإذا كان الفجر من كل يوم وتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، أهاب المؤذّن بالناس أنِ الصلاةُ خيرٌ من النوم ، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله ، فاستجاب له الألوف والملايين فى مختلفِ أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله متجلّيين فى مطلع كل نهار . وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذّن بالناس لصلاة الظهر ، ثم لصلاة العصر فالمغرب فالعشاء . وفى كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمداً عبد الله ونبيَّه ورسوله فى ضراعة وخشية وإنابة ، وهم فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تَجِفَ قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه . كذلك كانوا وكذلك سيكونون حتى يُظهر الله الدين القَيم ويتم نعمته على الناس أجمعين .

الإمبراطورية الإسلامية الأولى

ولم يك محمد فى حاجة إلى زمان طويل ليظهر دينه وينتشر فى الخافقين لواؤه ، فقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاته ، ويومئذ وضع هو خُطَّة انتشار الدين فبعث إلى كِسْرَىٰ وإلى هِرَقْل وإلى غيرهما من الملوك والأمراء كى يُسلموا ، ولم تمض خمسون ومائة سنة من بعد ذلك حتى كان علَمُ الإسلام خفاقاً من الأندلس فى غرب أوربا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين فى شرق آسيا ؛ وبذلك وصلت الشامُ والعراق وفارس وأفغانستان ، وقد أسلمت كلها ، ما بين بلاد العرب ومملكة ابن السماء ، كما وصلت مصرُ وبرقة وتونس والجزائر ومرَّاكُش ما بين أوربا وإفريقيَّة ومبعث محمد عليه السلام . ومن يومئذ إلى يومنا هذا بقى علم الإسلام مرفرفاً على هذه الربوع جميعاً ، خلا الأندلس التى أغارت النصرانية عليها فعذّبت أهلها وأذاقتهم ألواناً من الشدّة والبأس . ولم يُطق أهلها صبراً على

الحياة ، فعاد منهم من عاد إلى إفريقيَّة ، وردَّ الهول والفزع من ارتدَّ منهم عن دينه ودين أبيه إلى دين العُتاة والمعذِّبين .

على أن ما خسره الإسلام فى الأندلس من غرب أوربا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكَّنوا لدين محمد فيها . هنالك امتدَّت كلمته إلى البلقان كلها ، وانبلج نوره فى روسيا وفى بولونيا ، وخفقت أعلامه على أضعاف ما كانت تخفق عليه من أرض إسبانيا . ومن يوم انتشر الإسلام فى صولته الأولى إلى يومنا لم يتغلَّب عليه من الأديان متغلِّب ، وإن تغلَّب على أممه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشدَّ بالله إيماناً ، ولحكمه إسلاماً ، وفى رحمته وفى غفرانه أملاً ورجاء .

الإسلام والمسيحية

هذه القوَّة التى انتشر الإسلام بها سرعان ما وقفته وجهاً لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت . لقد تغلَّب محمد على الوثنية ، ومحا من بلاد العرب ، كما محا خلفاؤه الأوَّلون من بلاد الفرس والأفغان وطائفة كبيرة من بلاد الهند ، أثرها . ولقد تغلَّب خلفاء محمد على المسيحية فى الحيرة واليمن والشام ومصر إلى مهد المسيحية مدينة قسطنطين . أفقُدّر على المسيحية ما قُدّر على الوثنية من اضمحلال وهى دين كتاب من الأديان التى أشاد بها محمد ونزل الوحى بنبوّة صاحبها ؟ وهل قدّر لهؤلاء العرب ، عرب البادية الزاحفين من شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة ، أن يضعوا أيديهم على حدائق الأندلس وبزنطية وسائر البلاد المسيحية ؟ الموت ولا هذا ! واستمر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قروناً متتالية . ولم يقف القتال عند حرب الأسِنَّة والمدافع ، بل تعدَّاها إلى ميادين الجدل والنضال الكلامى ، جاء المقاتلون فيها بأسماء محمد وعيسى ، وجعل كل فريق يلتمس الوسيلة لتأليب السواد واستثارة حماسة الجماهير وتعصُّبها .

المسلمون وعيسى

على أن الإسلام حال بين المسلمين وبين الحط من مقام عيسى ، إنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا ، وجعله مباركاً أينما كان ، وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيًّا ، وبَرًّا بوالدته ولم يجعله جباراً شقيًّا فسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا . أمَّا المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم يعرّضون

بمحمد وينعتونه بأوصاف يبرأ منها المهذَّب من الرجال ، شفاءً لما فى نفوسهم من غِلّ ، واستفزازاً وحفزاً لشهوات الناس الدنيا . وعلى رغم ما يقال من أن الحروب الصليبية وضعت أوزارها منذ مئات السنين ظلّ تعصّب الكنيسة المسيحية على محمد على أشدّه إلى عصور قريبة . ولعله كذلك ما يزال إن لم يك أشدّ ، وإن كان خفيًّا يعمل فى ظلمات التبشير بالدون من الوسائل . ولم يقف الأمر عند الكنيسة بل تعدّاها إلى كتَّاب وفلاسفة فى أوربا وفى أمريكا لم تك تصلهم بالكنيسة صلة تذكر .

المسيحيون المتعصبون ومحمد

ولقد يعجب الإنسان أن يظل تعصب المسيحية على الإسلام بهذه الشدة فى عصر يزعمون أنه عصر النور والعلم ، وأنه لذلك عصر التسامح وسعة الأفق . ويزداد الإنسان عجباً إذ يذكر المسلمين الأوّلين وكيف كان اغتباطهم بانتصار المسيحية على المجوسية عظيماً حين ظفرت جيوش هِرقل بأعلام فارس وكسرت عسكرَ كسْرَى . فقد كانت فارس صاحبة النفوذ فى جنوب شبه جزيرة العرب منذ أخرج كسرَى الأحباش من اليمن . ثم إن كسرى وجَّه جيوشه – سنة ٦١٤ ميلادية – تحت إمرة قائد من قوّاده يدعى شَهْر بَراز(١) لغزو الروم ، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذْرِعات وبُصْرَى ، أدنى الشام إلى أرض العرب ، فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم . وكان العرب ، ولا سيما أهل مكة ، يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف وشغف ؛ فقد كانت القوَّتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذ ، وكانت بلاد العرب تجاورهما ، وتخضع بعض أجزائها لفارس وتتاخم الروم بعض أجزائها الأخرى . وشمِت كفار مكة بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم ؛ لأنهم أهل كتاب كالمسلمين ، وحاولوا أن يُلصقوا بدينهم عار اندحارهم . أمَّا المسلمون فشقّ عليهم أمر الروم لأنهم أهل كتاب مثلهم ،

---

(١) يذكر الدكتور بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) أن اسم هذا القائد خوريام ، وأن (شهربرز) و (شهربراز) و (شراوزية) وغيرها من الأسماء التى لقب بها فى الكتب المختلفة ليست إلا تحريفاً للاسم الفارسى (شهر – وزر) وهو لقب معناه (الخنزير البرى للملك) رمزاً للقوة الباسلة ، فكانت صورته ماثلة لذلك على خاتم فارس القديمة وكذلك على خاتم أرمينية . (راجع فتح العرب لمصر ص ٥٣) .

فكان محمد وأصحابه يكرهون أن يظهر المجوس عليهم . وأدّى هذا الخلاف بين مسلمى مكة وكفّارها إلى تنادر الفريقين وإلى تهكم الكفار بالمسلمين ، حتى أبدى أحدهم من السرور أمام أبى بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول : لا تعجَل بالمسرّة ، فسيأخذ الروم بثأرهم . وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعة النفس . فلما سمع الكافر قوله أجابه متهكماً : كذبت . فغضب أبو بكر وقال : كذبت أنت يا عدوّ الله ! وهذا رهان عشرة جمال على أن تغلب الروم المجوس قبل عام . وعرف محمد أمر هذا الرهان فنصح إلى أبى بكر أن يزيد فى الرهان وأن يطيل المدة . فزاد أبو بكر فى الرهان إلى مائة بعير إن هُزِمت الفرس قبل تسع سنين . وانتصر هِرَقْل سنة ٦٢٥ وهزم فارسَ واسترد منها الشام واستعاد الصليب الأعظم وكسَب أبو بكر رهانه . وفى النبوءة بهذا النصر نزل قوله تعالى فى صدر سورة الروم : (الٓم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

المبادئ الأولية فى الدينين

كان اغتباط المسلمين يومئذ بانتصار هرقل والنصارى عظيماً ، وظلّت صلة الإخاء بين الذين اتبعوا محمداً والذين آمنوا بعيسى عظيمة طوال حياة النبىّ وإن تكرر بين الفريقين ماكان من مجادلة ، على خلاف ماكان بين المسلمين واليهود من تهادن أوّل الأمر ثم عداوة استمرّت وكان لها من الآثار والنتائج الدامية ما أجلى اليهود عن شبه جزيرة العرب جمعاء . ومصداق ذلك قوله تعالى : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمنوا اليهودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمنوا الَّذين قالوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)(١)

ثم إنك لترى الدينين يصوّران الحياة والخُلُق صورةً تكاد تكون واحدة . وهما فى تصوير الإنسانية ومبدأ خَلْقها سواء : خلق الله آدم وحوّاء وأسكنهما

(١) سورة المائدة آية ٨٢ .

الجنة وأوحى إليهما ألاَّ يسمعا إلى نزغ الشيطان فيأكلا من الشجرة فيخرجهما من الجنة . والشيطان عدوّهما الذى أبى أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لمحمد ، والذى أبى أن يقدّس كلمة الله ، على رواية كتب النصارى المقدَّسة ، ووسوس الشيطان لحوَّاء وزيَّن لها ، فزيَّنت لآدم فأكلا من شجرة الْخُلْدِ فبدتْ لهما سوءاتهما ، فاستغفرا ربهما فبعثهما على الأرض بعض ذرّيتهم لبعض عدوّ ، يغريهم الشيطان فيضلّ قوم ويقاوم الهلاك آخرون . ولتقوى الإنسانية على حرب الغَوَاية بعث الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، وبعث مع كل رسول كتاباً بلسان قومه مصدّقاً لما بين يديه ليبيِّن لهم . . وكما يقوم فى صف الشيطان أنصاره من أرواحَ الشر ، تقوم الملائكة تسبِّح بحمد ربها وتقدّس له . وهؤلاء وأولئك يتنازعون أسباب الحياة والكون جميعاً حتى يوم البعث ، يوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت، ولا يَسْأل حميمٌ حميماً .

الخلاف بينهما التوحيد والتثليث

وإنك لتجد فى القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لهما وتقديمه إياهما ما تشعر معه حق الشعور بهذا الإخاء ، وما يجعلك تسائل : ما بال المسلمين والنصارى إذاً ظلوا على القرون خصوماً متقاتلين ؟ والجواب عن سؤالك أنَّ بين الإسلام والنصرانية خلافاً على مسائل أساسية كانت موضع جدل شديد فى عهد النبىّ ، وإن لم يتعدّ الأمر الجدل إلى العداوة والبغضاء . فالنصرانية لا تُقِرّ بنبوّة محمد كما يقرّ الإسلام بنبوّة عيسى ، والنصرانية تقول بالتثليث ، والإسلام ينكر كل ما سوى التوحيد أشد الإنكار . والنصارى يؤلهون عيسى ويتلمَّسون الدليل على ألوهيته فى أنه تكلّم فى المهد وأوتى من المعجزات ما لم يؤتَه غيره مما هو منْ عمل الخالق جلَّ شأنه . وهم كانوا أيَّام الإسلام الأولى يحاجون المسلمين فى ذلك بالقرآن ويقولون : أوَ ليس يقرُّ القرآن الذى نزل على محمد رأْينا حين يقول : (إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ ٱللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذٰلِكِ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَٱلإِنجيلَ . وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى

قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »(١) .

فالقرآن قد ذكر إذاً أنه يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين طيراً ، ويخبر بالغيب ، وكل هذه خصائص إلهيّة . هذا رأى نصارى عهد النبيّ الذين كانوا يحاجونه ويجادلونه ويذهبون إلى أن عيسى إله مع الله . ولقد ذهبت طائفة منهم إلى تأليه مريم أن ألقى الله إليها بكلمته . وكان أصحاب هذا الرأى من نصارى ذلك العهد يعتبرون مريم ثالث الثلاثة : الآب والابن والروح القدس . ولم يكن أصحاب هذا القول بألوهية عيسى وأمه إلا طائفة من طوائف النصرانية الكثيرة المتفرّقة يومئذ شيَعاً وأحزاباً .

مجادلة النصارى للنبى

كان نصارى شبه الجزيرة يجادلون محمداً على اختلاف نِحَلهم على أساس مذاهبهم . فكانوا يقولون إن المسيح هو الله ، ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة ، وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه . ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يُعْلَم ، وأنه تكلَّم فى المهد صبيًّا مما لم يقع لأحد من بنى آدم . ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول أمَرْنا وخلقنا وقضينا ، ولو كان واحداً لقال أمرت وخلقت وقضيت . وكان محمد يستمع لهم جميعاً ويجادلهم بالتى هى أحسن . وهو لم يكن فى جِدالهم يشتدّ شدّته فى جدال المشركين وعبّاد الأصنام ، بل كان يحاجُّهم بالوحى من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاء فيها : فالله تعالى يقول : (لَقَدْ كفرَ الذِينَ قالوا إن الله هو المَسِيحُ ٱبنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شيئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسِيحَ ٱبنَ مَرْيَمَ وأُمَّه وَمَنْ فى الأَرضِ جميعاً . ولِلهِ مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاءُ والله على كل شىءٍ قَدِيرٌ . وقالت اليَهُودُ والنَّصَارى نحن أَبناءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُه قل

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ٤٥ إلى ٤٩ .

فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكم بل أَنتم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَق يَغْفِرُ لِمَنْ يشاءُ ويعَذِّبُ مَنْ يشاء)(١)
وقال تعالى : (لَقَدْ كفَرَ ٱلذين قالوا إِنَّ الله هو المَسيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وقال المَسيحُ يا بَنِى إِسرائيلَ ٱعْبُدوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكم إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ باللهِ فقد حَرَّمَ الله عليْهِ الْجَنَّة وَمَأْواهُ النارُ وَمَا للظَّالمين مِنْ أَنْصَارٍ . لَقدْ كَفَرَ الَّذين قالوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثةٍ وما مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ إِلٰهٌ واحِدٌ وإِنْ لم يَنْتَهُوا عَمَّا يقولون لَيمَسَّنَّ الَّذِين كفروا مِنهم عذابٌ أَليم)(٢) وقال جلَّ شأْنه : (وإِذْ قال اللهُ يا عيسَى ٱبنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ للناسِ ٱتَّخِذُونى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دونِ اللهِ قال سُبْحَانَكَ ما يَكُونُ لى أَنْ أَقولَ مَالَيْسَ لى بِحَقٍّ إِنْ كنتُ قلته فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فى نَفْسِى ولا أَعْلَمُ ما فى نَفْسِك إِنَّك أَنتَ عَلامُ الْغُيوب . مَا قُلْتُ لهم إِلَّا ما أَمَرْتَنى به أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وكنتُ عليهِم شهِيداً مَا دُمتُ فيهم فلمَّا تَوَفَّيْتَنى كنت أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيهِمْ وأَنتَ عَلَى كلِّ شيءٍ شهيدٌ . إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فإِنَّهُمْ عِبادُك وإِن تَغْفِرْ لهمْ فإِنَّك أَنْتَ العزيزُ الحكيم) (٣)

تقول المسيحيَّة بالتثليث وبأن عيسى ابْنُ الله ، والإسلام يُنكر إنكاراً صريحاً باتّاً أَن يكون لله ولد . (قُلْ هُوَ اللهُ أَحدٌ . اللهُ الصَّمدُ . لم يَلِدْ ولم يُولَد . ولم يكُنْ له كُفُواً أَحدٌ)(٤) . (مَا كانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ ولدٍ سُبْحَانَه)(٥) . (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَه من تُرَابٍ ثم قال له كُنْ فيكون)(٦)

والإسلام دين توحيد فى أشدّ معانى التوحيد صفاءً وقوة ، وفى أشد معانى التوحيد بساطة ووضوحاً . وكل ما يمكن أن يُلقِى ظلا على فكرة التوحيد أَو صورته يُنكره الإسلام ويراه كفراً . (إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلِك لِمَنْ يَشاء)(٧) .

---

(١) سورة المائدة آيتا ١٧ ، ١٨ .
(٢) سورة المائدة آيتا ٧٢ و ٧٣ .
(٣) سورة المائدة الآيات من ١١٦ إلى ١١٨ .
(٤) سورة الإخلاص .
(٥) سورة مريم آية ٣٥ .
(٦) سورة آل عمران آية ٥٩ .
(٧) سورة النساء آية ٤٨ .

فهما يكن للصورة المسيحية فى التثليث من صلة تاريخية ببعض الأديان القديمة فهى ليست من الحق عند محمد فى شىء . إنما الحق هو الله وحده ، لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فلا عجب إذاً أن تكون بين محمد ونصارى عهده تلك المجادلة بالتى هى أحسن ، وأن يؤيد الوحى محمداً بما تلوت من الآيات .

مسألة صلب المسيح

ومسألة أخرى يختلف فيها الإسلام والنصرانية ، وكانت مثار جدل بينهما فى عهد النبىّ : تلك مسألة صلب عيسى ليفتدى بدمه خطايا الخَلْق . فالقرآن صريح فى نفى أَن اليهود قتلوا المسيح أَو صلبوه ، إِذ يقول : (وقَوْلِهِم إِنَّا قَتَلْنَا المسيحَ عيسَى ٱبنَ مَرْيم رَسُولَ اللهِ وما قَتَلوه وما صلَبوه ولكن شُبِّه لهم وإِنَّ ٱلَّذِين ٱختَلفوا فيه لفِى شَكٍّ مِنْه ما لَهُمْ به من علْمٍ إِلَّا ٱتِّباعَ ٱلظَّنِّ وما قَتَلُوه يقيناً . بل رَفَعَه اللهُ إِليه وكان اللهُ عزيزاً حكيماً)(١) .

ولئن كانت فكرة افتداء المسيح بدمه خطايا إخوته من بنى آدم جميلة لا ريب ويستحق ما كتب فيها دراسةً من نواحيه الشعرية والخُلقية والنفسية ، لقد كان المبدأ الذى قرّره الإسلام من أنه لا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرَى ، وأنّ كل امرئ يوم القيامة مجزىّ بأعماله إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ ، يجعل التقريب المنطقىّ بين العقيدتين غير ممكن ، ويجعل منطق الإسلام من الدقة بحيث لا تُجدى معه محاولات التوفيق ، مع التناقض الواضح بين فكرة الافتداء وفكرة الجزاء الذاتى . (لا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِه وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً)(٢) .

الروم والمسلمون

هل فكر أحد من نصارى يومئذ فى هذا الدين الجديد وفى إمكان التوفيق بين فكرة التوحيد فيه وبين ما جاء به عيسى ؟ نعم ، وآمن به منهم كثيرون . ولكن الروم الذين اغتبط المسلمون بنصرهم واعتبروه نصراً للأديان الكتابية ، لم يكلف سادتُهم أنفسهم مؤونة البحث فى الدين الجديد ، ولم يلبثوا أن نظروا إلى الأمر من ناحيته السياسية ، وفكروا فيما يصيب ملكهم إذا تمّ للدين الجديد

---

(١) سورة النساء آيتى ١٥٧ و ١٥٨ . (٢) سورة لقمان ٣٣ .

الغَلَب . لذلك بدءوا يأتمرون به وبأهله ، حتى أرسلوا جيشاً عرمرماً عِدَّته مائة ألف فى رواية ، ومائتا ألف فى رواية أخرى ، مما أدَّى إلى غزوة تَبُوك . وقد انسحب فيها الروم أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمد على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوّغه .

من يومئذ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية حالف النصر فيها المسلمين قروناً متتالية امتدَّت إمبراطوريتهم فى أثنائها إلى الأندلس غرباً وإلى الهند والصين شرقاً . وآمنت أكثر أجزاء هذه الإمبراطورية بالدين الجديد واستقرَّت فيها لغته العربية . فلما آن لدورة التاريخ أن تدور ، طرد النصارى المسلمين من الأندلس ، وحاربوهم الحروب الصليبية ، وأخذوا يطعنون فى دينهم ونبيهم طعناً كله فحش وكذب وافتراء ؛ ونسوا فى فحشهم ما بلَّغ محمد عليه السلام فى أحاديثه ، وما بلَّغ القرآن فى الوحى الذى نزل عليه ، من رفع مقام عيسى عليه السلام إلى المستوى الذى رفعه الله إليه .

كتَّاب المسيحية ومحمد

جاء فى موسوعة لاَروس الفرنسيَّة خلال العَرْض لآراء كتَّاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شرّ نيل ما يأتى : « بقى محمد مع ذلك ساحراً ممعناً فى فساد الْخُلُق ، لصّ نِياق ، كردينالاً لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية ، فاخترع ديناً جديداً ليَنتقم من زملائه . واستولى القصص الخيالى والخليع على سيرته . وسيرة باهوميه (محمد) تكاد تقيم أدباً من هذا النوع . وقصة محمد التى نشرها رينا وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصوّر لنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه . وفى القرن السابع عشر نظر بِيل فى تاريخ أبى القرآن نظرة تاريخية . مع ذلك ظلَّت مقرّراتٌ ظالمةٌ ثابتةً فى نفسه عنه . على أنه يعترف مع ذلك بأن النظام الخلقى والاجتماعى الذى أقامه لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدُّد الزوجات » .

وإن واحداً من المستشرقين الذين عرضوا لحياة محمد بشىء من الإنصاف ــ ذلك هو الكاتب الفرنسي إميل دِرْمِنْجِم ــ ليذكر بعض هذا الذى كتب

إخوانه فى الدين فيقول[1] : « لمَّا نَشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتَّسعت هوّة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدّةً . ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشدّ الخلاف . فمن البزنطيين من أوقروا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلّفوا أنفسهم – فيما خلا جان داماسيين – مؤونة دراسته . ولم يحارب الكتّاب والنظامون مسلمى الأندلس إلا بأسخف المثالب . فقد زعموا أن محمداً لص نياق ، وزعموه متهالكاً على اللهو ، وزعموه ساحراً ، رئيس عصابة من قطّاع الطرق ، بل زعموه قسًّا رومانيًّا مغيظاً مُحْنقاً أنْ لم يُنتخب لكرسى البابوية . . وحَسِبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرّب له عباده الضحايا البشرية . وإن جِبير دنوجَن نفسه ، وهو رجل جِدّ ، ليذكر أن محمداً مات فى نوبة سكر بيّن ؛ وأن جسده وجد ملقًى على كوم من الرَّوْث وقد أكلت منه الخنازير ، وذلك ليفسر السبب الذى من أجله حُرّم لحم ذلك الحيوان . وذهبت الأغنيات إلى حدّ أن جعلت محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الإسلامية برابىَ ملأى بالتماثيل والصور ! ! وقد تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم « ماحوم » مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفُسَيْفِسَاء . أمَّا أغنية رولان التى تصوّر فرسان شارلمان يحطّمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثاً مكوّناً من ترْفَاجان وما هوم وأبلون . وتحسب « قصة محمد » أن الإسلام يبيح للمرأة تعدّد الأزواج !

« وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فمنذ رُودُلْف دُلُوهَيْم إلى وقتنا الحاضر قام نِيكُولاَدِكِيز ، وفيفس ، ومَرَاتْشى ، وهُوتنْجَر وببيلْياندر ، وبريدو وغيرهم ، فوصفوا محمداً بأنه دجَّال ، والإسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها وأنه من عمل الشيطان ، والمسلمون بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيج من السخافات ، وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجد فى أمر هذا مبلغ سخافته . مع ذلك فإن بيير المحترم (ڤنرابل) مؤلف أول رسالة غربية ضد الإسلام قد ترجم القرآن فى القرن الثانى عشر إلى اللاتينية . وفى القرن

---

(١) راجع كتاب درمنجم (حياة محمد) ص ١٣٥ وما بعدها .

الرابع عشر كان بيير باسْكال من الذين توسَّعوا فى الدراسات الإسلامية . وقد وصف إنّوسان الثامن محمداً يوماً بأنه عدوّ المسيح . أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمداً إلا هرطيقاً . وكان لريمون ليون فى القرن الثامن عشر ، ولغليوم بَسْتِل فى القرن السادس عشر ، ولرولان وجانييه فى القرن الثامن عشر ، وللقسيس دبْرُجْلى ولرينان فى القرن التاسع عشر آراء وأحكام مختلفة . على أن الكونت بُولَنْفِلييه وشُولْ وكُوسَّان دبرْسفال ودوزى وسبرنجر وبَارْتلمى سانتيلير ودكاسْتّرى وكارلَيْل وغيرهم يُظهرون على وجه الإجمال إنصافاً للإسلام ونبيه ، ويُشيدون فى بعض الأحيان بهما . مع ذلك فإن دُرُوتى يتحدث فى سنة ١٨٧٦ عن محمد قائلا : « هذا الأعرابىّ المنافق القذِر » ، كما طعن عليه فُوسْتّر من قبل ذلك سنة ١٨٢٢ . وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون » .

أرأيتَ الحضيض الذى هوت إليه هذه الطائفة من كتَّاب الغرب ؟ أرأيت إصرارهم ، مع توالى القرون ، على الضلال وعلى إثارة العداوة والبغضاء بين أبناء الإنسانية ؟! ومِنْ هؤلاء مَنْ جاءوا فى العصور التى يسمونها عصور العلم والبحث والتفكير الحر وتقرير الإخاء بين الإنسان والإنسان . قد يخفف من أثر هذا الضلال قيام أولئك المنصفين إلى حدّ ما ، ممن أشار إليهم درمنجم ، ومنهم من يقرّ بصدق إيمان محمد بالرسالة التى عهد الله إليه تبليغها من طريق الوحى ، ومنهم من يُشيد بعظمة محمد الروحية وبسموّ خُلقه ورفعة نفسه وجمِّ فضائله ، ومن يصوّر ذلك فى أقوى أسلوب وأتمه روعة . وإن بقى الغرب مع ذلك ينال من الإسلام ونبيه أشدّ النيل ، ثم تبلغ منه الجرأة حتى يبث المبشرين فى أنحاء البلاد الإسلامية يذيعون مثالبهم الوضيعة ، ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحية .

سبب الخصومة بين الإسلام والمسيحية

يجب لذلك أن نبحث عن السبب الذى ترجع إليه هذه الخصومة الهوجاء وهذه الحرب العنيفة التى تثيرها المسيحية على الإسلام . وعندنا أن جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبى فى مقدّمة ما يدعو إلى هذه الخصومة . والجهل ولا ريب من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدّها استعصاء . ولقد تراكم هذا

الجهل والتعصب

الجهل على مرّ القرون وقامت له فى نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوّة الإسلام أول ظهوره ، على أنَّا نحسب أن ثمة سبباً غير الجهل هو الذى دفع أهل الغرب إلى هذا التعصب وإلى إثارة الحرب الضروس الشعواء التى أثاروها ويثيرونها على الإسلام وعلى المسلمين آناً بعد آن . وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخاطر من صروف السياسة وحب الظَّفر بالشعوب لاستغلالها : فتلك فى اعتقادنا نتيجة لا سببٌ لهذا التعصب المستعصى حتى على العلم وعلى بحوثه . أما السبب فى رأينا فيرجع إلى أن المسيحية ، وما تدعو إليه من الزهد فى الحياة واعتزال العالم ومن العفو والمغفرة ومن المعانى النفسانية السامية ، ليست مما يلائم طبيعة الغرب الذى عاش ألوف السنين على دين تعدّد الآلهة ، والذى يدعوه مركزه الجغرافى إلى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال . فإذا قضت الظروف التاريخية عليه بأن يدين بالمسيحية فلا مفرَّ له من أن يُسبغ عليها ثوب الكفاح ، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة ، وأن يُفسد فيها هذا التناسق الروحى الذى يجعل منها حلقة فى سلسلة الوحدة التى أتمها الإسلام : هذه الوحدة التى تؤاخى بين الروح والجسد ، وتزاوج بين العاطفة والعقل ، وتسلك الفرد والإنسانية جميعاً فى نظام الكون على أنهما بعض منه متَّسق وإياه فى لا نهاية الزمان والمكان . هذا فى رأينا هو مرجع السبب فى تعصُّب الغرب فى موقفه من الإسلام موقفاً تجافت الحبشة المسيحية عنه حين احتمى المسلمون بها أوَّل ما دعا النبى إلى دين الله .

المسيحية لا تلائم طبيعة الغرب

وإلى هذا السبب فى رأيى ، يرجع إغراق الغربيين وغلوّهم فى التدين وفى الإلحاد جميعاً ، إغراق تعصب وكفاح لا يعرف الهوادة ولا يعرف التسامح . وإذا كان التاريخ قد عرف منهم قِدّيسين احتذَوْا فى حياتهم مثال السَّيد المسيح والحواريين ، فإن التاريخ قد عرف كذلك أن حياة أمم الغرب كانت دائماً حياة نضال وكفاح وحروب دامية باسم السياسة أو باسم الدين ، وعرف أن بابوا الكنيسة وأرباب السلطة الزمنية كانوا فى نزاع دائم يغالب بعضهم بعضاً ، فيتغلَّب هذا يوماً ويتغلَّب ذاك يوماً آخر . ولمَّا كان الفوز فى القرن التاسع عشر قد تم للسلطة الزمنية ، حاولت هذه السلطة أن تقضى على الحياة الروحية باسم العلم ،

وأن تزعم أن العلم سيحل من الحياة الإنسانية محل الإيمان من الحياة الروحية . وها هى ذى عَرفت اليوم ، بعد جهاد طويل ، سوء رأيها ، وأن ما قصدت إليه مستحيل تحقيقه . والصيحة تعلو اليوم من جوانب الغرب المختلفة يريد أهله حياةً روحيَّة أضاعوها ، فهم يتلمَّسونها فى الثيوزوفيَّة وغير الثيوزوفية [١] . ولو أن المسيحية كانت تلائم غرائز الكفاح التى تنشأ بحكم الطبيعة كجزء من حياة أهل الغرب ، لرأيتهم ، وقد شَعروا بعجز الفكرة الماديَّة عن أن تُلهمهم المدد الروحىّ ، يعودون إلى الدين المسيحى الجميل دين عيسى بن مريم ، إن لم يهدهم الله إلى الإسلام ، ولمَا كانوا فى حاجة إلى هذه الهجرة إلى الهند وإلى غيرها يستمدّون منها حياةً روحية يشعر الإنسان بالحاجة إليها حاجته إلى التنفُّس لأنها بعض طبعه ، بل لأنها بعض نفسه وكيانه .

الاستعمار والدعوة ضد الإسلام

وقد عاون الاستعمار الغربى أهله على الاستمرار فى الحملة التى أثاروها على الإسلام وعلى محمد ، ودعاهم ليقولوا ما قال أهل مكة حين أرادوا أن يحملوا النصرانية عار هزيمة هرقل والروم أمام فارس ، فقد قالوا ولا يزال الكثيرون منهم يقولون إن الإسلام هو السبب فى انحطاط الشعوب الآخذة به وفى خضوعهم لغيرهم . وهذه فرية يكفى لإدحاضها أن يذكر قائلها أن الشعوب الإسلامية ظلَّت صاحبة الحضارة الغالبة وصاحبة السيادة على العالم المعروف كله قروناً متوالية ، وأنها كانت محطّ رجال العلم والعلماء ، وموئل الحرية التى لم يعرفها الغرب إلا من أمد قريب . فإذا أمكن أن يُنسب انحطاط طائفة من الشعوب إلى الدين الذى تؤمن به فلا يكون هذا الدينُ الإسلامَ ، وهو الذى حفَز بَدْوَ شبه جزيرة العرب وأثارهم ومكَّن لهم من حكم العالم .

(١) الثيوزوفية مذهب استنبطته مدام بلافاتسكى الأمريكية من أديان الهند ومن البوذية والبرهمية منها بنوع خاص ، ودعته دين الحكمة . وقد تأسست لهذا المذهب جمعية فى أمريكا كانت مدام بلافاتسكى رئيستها ، وتأسست فروع لهذه الجمعية فى بلاد أوربا المختلفة . على أن مدام بلافاتسكى ما كادت تموت حتى انقسمت الجمعية الثيوزوفية إلى ثلاث شعب . ومذهب هذه الجمعية يقوم على وحدة الحياة ، ويدعو إلى نوع من الرياضة الصوفية لبلوغ مرتبة (النرفانا) البوذية . وهذه المرتبة يبلغها صاحبها حين يصل من رياضته إلى الفصل التام بين الروح والتأثر بماديات الحياة ، وحين تسمو الروح بذلك إلى مكان من القدسية والطهر تتصل فيه بالأرواح العليا . ومذهب الثيوزوفية يدعو كذلك إلى إخاء الإنسانية إخاء عاماً تزول معه فوارق الجنس واللغة وكل ما يعتبره الناس عوائق دون هذا الإخاء .

الإسلام وما صارت إليه الشعوب الإسلامية

على أن لهؤلاء الذين يُحَمِّلون الإسلام وِزْر انحطاط الشعوب الإسلامية من العذر أن أضيف إلى دين الله شيء كثير لا يرضاه الله ورسوله ، واعتبر من صُلْب الدين ورُمِى من ينكره بالزندقة . وندع الدّين جانباً ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام . فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبى ما لا يصدّقه العقل ولا حاجة إليه فى ثبوت الرسالة ، وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون واعتمد عليه الطاعنون على الإسلام ونبيِّه وعلى الأمم الإسلامية واتخذوه تُكَأَتهم فى مطاعنهم المثيرة لنفس كل منصف . اعتمدوا عليه وعلى ما ابتدعوه من عندهم وما زعموا أنهم يكتبونه على الطريقة العلمية الحديثة ، هذه الطريقة التى تعرِض الحوادث والناس والأبطال فتُصدر بعد ذلك حكمها عادلاً إن هى رأت لإصدار حكم محلاً . فإذا أنت وقفت عند ما كتبه هؤلاء رأيته تمليه شهوة الجدل والتجريح ، مصوغاً فى عبارة لا تخلو من براعة تستهوى إخوانهم فى العقيدة إلى الظن بأن البحث العلمى المجرّد النزّاع إلى الحقيقة وحدها يريد أن يستشفَّها من وراء كل الحجب ، هو الذى وجَّه هؤلاء المتعصّبين من الكتَّاب والمؤرخين . على أن السكينة التى يُنزلها الله على نفوس الراضين من الناس ، كُتَّاباً وعلماء ، قد أدّت بآخرين من أحرار الفكر ومن المسيحيين ليكونوا أدنى إلى العدل وأحرص على النَّصفَة .

الجمود والاجتهاد عند المسلمين

ولقد قام بعض علماء المسلمين فى ظروف مختلفة فحاولوا إدحاض مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب . واسم الشيخ محمد عبده هو أنصع الأسماء فى هذا الصدد . لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التى زعم أولئك الكتَّاب والمؤرخون الأوربيون أنهم يسلكونها لتكون لحجتهم قوَّتها فى وجه خصومهم . ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين ، والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم ، قد اتهموا بالإلحاد والكفر والزندقة ، فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام . ولقد كان اتّهامهم هذا عميق الأثر فى نفوس شباب المسلمين المتعلمين .

أثر الجمود فى الشباب

شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق فى نظر جماعة من علماء المسلمين ، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد ، كما أن الإيمان قرين الجمود . لذلك جزِعت نفوسهم وانصرفوا يقرءون كتب الغرب يتلمَّسون

فيها الحقيقة ، اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين . وهم لم يفكروا فى كتب المسيحية والتاريخ المسيحى بطبيعة الحال ؛ إنما فزعوا إلى كتب الفلسفة يتلمَّسون فى أسلوبها العلمى رِىّ ما فى نفوسهم من ظمأ مُحرق للحق ، وفى منطقها ضياءً للجَذوة المقدّسة الكمينة فى النفس الإنسانية ، ووسيلةً إلى الاتصال بالكون وحقيقته العليا . وهم واجدون فى كتب الغرب ، سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب الفلسفى وكتب الأدب نفسه ، الشىء الكثير مما يُغْرى الإنسان بالأخذ به ، لروعة أسلوبها ودقة منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق . لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها ، حرصاً منهم على ألا تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها ، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحى بين الإنسان وعوالم الكون اتصالاً يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية .

انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير فى الأديان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها . وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعىّ والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقررانه من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل فى حيز التفكير العلمى ، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدىّ (الميتافيزيقى) ليس هو أيضاً من الطريقة العلمية فى شىء . ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحاً صريحاً فى البلاد الغربية ، ورأوا البلاد التى تقرّر دساتيرها أن مَلِكها هو حامى البروتستنتية أو الكثلكة ، أو تقرّر أن دين الدولة الرسمى المسيحية ، لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها ؛ فازدادوا انخراطاً فى هذا التفكير العلمى وحرصاً على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب . فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلى الحياة العملية ، شغلتهم هذه الحياة عن التفكير فى المسائل التى انصرفوا من قبلُ عن التفكير فيها ، وظل اتجاههم الفكرى فى تياره الأول ، ينظر إلى الجمود العقلى مشفقاً مزدرياً ، وينَهل من وِرْد التفكير الغربى والفلسفة الغربية ، فيجد فيهما لذّةً ويزداد بهما إعجاباً وعلى ما نهل صَدْرُ شبابه منهما حرصاً .

علم الغرب وأدبه

وليس ريب فى أن الشرق اليوم فى حاجة أشد الحاجة إلى النَّهَل من ورد الغرب فى التفكير وفى الأدب والفن . فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامى وماضيه قرون من الجمود والتعصب غَشَّت على تفكيره السليم القديم بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن بكل جديد . فلا مفرّ لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير فى العالم ، ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحىّ وثروة الماضى وتراثه العظيم .

جهود التجديد الإسلامى

ومن الحق علينا للغرب أن نقول : إن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة فى تاريخ الدراسات الإسلاميَّة والدراسات الشرقية ، قد مهد لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزيَّدوا من هذه البحوث فى تلك الدراسات وأن يكونوا أكبر رجاءً فى الاهتداء إلى الحق ؛ فهم أقرب بطبعهم إلى حسن إدراك الروح الإسلامى والروح الشرقىّ . وما دام التوجيه الجديد قد بدأ فى الغرب ، فواجب عليهم أن يتابعوه وأن يصححوا أغلاطه وأن يبثُّوا فيه الروح الصحيح الذى يعيده إلى الحياة ويصله بالحاضر ، لا على أنه مجرَّد دراسة وبحث ، بل على أنه ميراث روحى وعقلى يجب أن يتمثَّله الوارثون ، وأن يضيفوا إليه ، وأن يزيدوا سَنا ضيائه بما يزيد الحقيقة الكامنة فيه ضياء ونوراً .

وقد توفَّر منهم كثيرون على هذه البحوث يقومون اليوم بها على الطريقة العلمية الصحيحة ؛ والمستشرقون أنفسهم يقدرون لهم ذلك ويُشيدون بفضلهم فيه .

المبشرون والجامدون

وبينا يقوم هذا التعاون العلمى الجدير بأن يؤتى خير الثمرات ، إذا بنشاط رجال الكنيسة المسيحية لا يفتُر فى الطعن على الإسلام وعلى محمد طعناً لا يقلُّ عما تلوت منه فيما سبقت الإشارة إليه . والاستعمار الغربى يُؤيد بقوَّته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأى ، مع أن أصحاب هذه المطاعن قد أجْلَوا عن بلادهم وحِيل بينهم وبين ما يسمونه تثبيت الإيمان فى نفوس إخوانهم فى الدين . وهذا الاستعمار يؤيِّد كذلك دعاة الجمود من المسلمين . وكذلك تضافر عمل الاستعمار على تأييد مادُسّ على الإسلام مما يبرأ الإسلام منه ، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يُسيغها العقل ولا يقبلها الذوق ، وعلى تأييد الطاعنين على الإسلام وعلى محمد بما دُسّ على الإسلام وعلى سيرة الرسول .

كيف فكرت فى وضع هذا الكتاب

أتاحت لى ظروف حياتى العملية أن أرى ذلك كله فى مختلفِ بلاد الشرق الإسلامى ، بل فى البلاد الإسلامية كلها ، وأن أتبين ما يُقْصَد إليه من القضاء على الروح المعنوية فى هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأى وحرية البحث ابتغاء الحقيقة . وقد شعرت بأن علىَّ واجباً أقوم به فى هذا الموضوع لإفساد الغاية التى ترمى هذه الخُطة إليها ، والتى تضر الإنسانية كلها ولا يقف ضررها عند الإسلام والشرق . وأىّ أذًى يصيب الإنسانية أكبر من العُقْم والجمود يصيبان نصفها الأكبر والأعرق فى الحضارة على حِقَب التاريخ ! ولذلك فكرت فى هذا وأطلت التفكير ، وهدانى تفكيرى آخر الأمر إلى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الإسلامية وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى ، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة ، خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده .

بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ومغازى الواقدى ، وعدتُ إلى كتاب سيد أمير على (روح الإسلام) ، ثم حَرَصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين ، فقرأت كتاب دِرْمِنْجِم وكتاب وشنطن إرفنْج ، ثم انتهزت فرصة وجودى بالأقصر فى شتاء سنة ١٩٣٢ وبدأت أكتب . ولقد تردّدت يومئذ فى أن أجعل البحث الذى أطالع قرّائى به من وضعى أنا خيفةَ ما قد يقوم به أنصار الجمود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد علىّ ما أريد . لكن ما لقيت من إقبال وتشجيع من طائفة شيوخ المعاهد ، وما أبدى لى بعضهم من ملاحظات تدلّ على العناية بالبحث الذى أقوم به ، جعلنى أفكر تفكيراً جدّيًّا فى إنفاذ ما اعتزمت من كتابة حياة محمد على الطريقة العلمية الصحيحة كتابة مفصّلة ، ودعانى إلى التفكير فى أمثل الوسائل لتمحيص السيرة تمحيصاً علميًّا جهد ما أستطيع .

القرآن أصدق مرجع

ولقد تبّينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم فإن فيه إشارة إلى كل حادث من حياة النبىّ العربى يتخذها الباحث مناراً يهتدى به فى بحثه ، ويمحص على ضيائه ما ورد فى كتب السنّة وما جاء فى كتب السيرة المختلفة . وأردت جاهَداً أن أقف على كل ما ورد فى القرآن متصلاً بحياة النبى ، فإذا

معونة صادقة فى هذا الباب يقدّمها إلىّ الأستاذ أحمد لطفى السيّد الموظف بدار الكتب المصرية ، هى مجموعة وافية مبوّبة لآيات القرآن المتصلة بحياة من أوحى الكتاب الكريم إليه . وأخذت أدقق فى هذه الآيات ، فرأيت أن لا بدّ من الوقوف على أسباب نزولها وأوقات هذا النزول ومناسباته . وأعترف بأنى ، على ما بذلتُ فى ذلك من جهد ، لم أوفق لكل ما أردت منه . فكتب التفسير تشير أحياناً إليه وتهمل هذه الإشارة فى أكثر الأحايين . ثم إن كتاب « أسباب النزول » للواحدى ، وكتاب « الناسخ والمنسوخ » لابن سلامة ، إنما تناولا هذا الموضوع الجليل الجدير بكل تدقيق واستيفاء تناولاً موجزاً . على أننى وقفت فيهما وفيما رجعت إليه من كتب التفسير على مسائل عدّة استطعت أن أمحص بها ما ورد فى كتب السيرة ، ووجدت فيهما وفى كتب التفسير نفسها أشياء جديرة بمراجعة العلماء المتبحِّرين فى علوم الكتاب والسنَّة وتحقيقهم إياها من جديد تحقيقاً دقيقاً .

المشورة الصادقة

ولما تقدم بى البحث بعض الشيء ألفيت المشورة الصادقة تصل إلىَّ من كل صوب ، ومن ناحية الشيوخ أكثر من كل ناحية أخرى بطبيعة الحال . وكانت المعونة الكبرى معونة دار الكتب ورجالها الذين أمدُّونى من ألوان المعونة بما لا يفى الشكر بحسن تقديره . ويكفى أن أذكر أن الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب كان يكفينى مؤونة الذهاب إلى الدار فى كثير من الأحيان ويستعير لى ما أريد استعارته من الكتب مشمولاً بعطف مدير الدار وكبار القائمين بالأمر فيها ؛ وأن أذكر أنى فى كل مرة ذهبت إلى الدار كنتُ أجد أجمل العون فى البحث عما أريد البحثَ فيه من موظَّفى الدار كباراً وصغاراً ، مَن عرفتُ منهم ومن لم أعرف . ثم إنه كانت تستغلق علىَّ بعض المسائل أحياناً فأفضى إلى من آنس فيه المعرفة من أصدقائى بما استغلق علىَّ فأجد فى كثير من الأحيان خير العون . وجدت ذلك غير مرّة عند الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ووجدته عند صديقى الضليع جعفر (باشا) ولى الذى أعارنى عدّة كتب كصحيح مسلم وتواريخ مكّة ، ودلَّنى على غير مسألة من المسائل وهدانى إلى موضعها ، وقد أعارنى صديقى الأستاذ مكرم عبيد (باشا)

كتاب المستشرق السير وليم مُوِير «حياة محمد» وكتاب الأب لامَنْس «الإسلام» . هذا إلى ما وجدت من عون فى مؤلَّفات المعاصرين القيمة ككتاب «فجر الإسلام» للأستاذ أحمد أمين ، و «قصص الأنبياء» للأستاذ عبد الوهاب النَّجار، و «فى الأدب الجاهلى» للدكتور طه حسين ، و «اليهود فى بلاد العرب» لإسرائيل وِلْفِنْسُنْ ؛ وغير هذه من كتب المعاصرين كثير ذكرته فى بيان المراجع القديمة والحديثة التى استعنت بها على وضع هذا الكتاب .

ولقد كنت كلما ازددت توسعاً فى البحث أرى مسائل تنجم أمامى وتستدعى التفكير ومزيداً من البحث لحلها . وكما عاونتنى كتب السيرة وكتب التفسير فى الاهتداء إلى غاية من تفكيرى أطمئن إليها ، عاونتنى كذلك كتب المستشرقين فى الاهتداء إلى غاية أطمئن إليها . على أننى رأيتنى مضطرًا فى كل المواقف لأقصر بحثى فى حدود حياة محمد نفسه ما لم أضطرَّ إلى تناول مسائل أخرى متصلة بهذا البحث اضطراراً . ولو أننى أردتُ أن أبحث كل ما اتصل بهذه الحياة الفيَّاضة العظيمة ، لاحتاج الأمر إلى وضع مجلَّدات عدّة فى حجم هذا الكتاب . ويحسن أن أذكر أن كُوسَّانْ دِبِرْسفال وضع ثلاثة مجلَّدات بعنوان «رسالة فى تاريخ العرب» ، جعل المجلَّدين الأوَّلين منها فى تاريخ قبائل العرب وحياتها ، وجعل الثالث عن محمد وخليفتيه الأوَّلين أبى بكر وعمر . وطبقات ابن سعد تقع فى مجلَّدات كثيرة يتناول جزؤها الأوَّل حياة محمد ، وسائر أجزائها حياة أصحابه . ولم يكن غرضى أوَّل ما بدأت البحث ليتجاوز حياة محمد ، فلم أرِد فى أثنائه أن أتركه يتشعَّب فيحول ذلك بينى وبين الغاية التى إليها قصدت .

في حدود السيرة لا أتعداها

وشى آخر كان يُمْسكنى فى حدود هذه الحياة ؛ ذلك روعة جلالها وباهر ضيائها جلالاً وضياءً يتوارى دونهما كل ما سواهما . فما كان أعظم أبا بكر ! وما كان أعظم عمر إذ كان كل منهما فى خلافته عَلَماً يحجب سواه ! وما أشدَّ ما كان للسابقين الأوَّلين إلى صحبة محمد من عظمة ثبتت على الأجيال، وهى بعدُ مما تفاخر به الأجيال . لكن هؤلاء جميعاً كانوا يستظلُّون أثناء حياة النبى بجلال عظمته ويستضيئون بباهر لألائه . فليس من اليسير على من يبحث

فى سيرة الرسول أن يدعها لشىء سواها . وهو أشد شعوراً بذلك إذا تناول البحث على الطريقة العلمية الحديثة على نحو ما حاولت أن أفعل ؛ هذه الطريقة التى تجلو عظمة محمد على نحو يبهر العقل والقلب والعاطفة جميعاً ، ويغرس فيها من الإجلال للعظمة والإيمان بقوتها ما لا يختلف فيه المسلم وغير المسلم .

وأنت إذا طرحت جانباً أولئك المتعصّبين الحمقى الذى جعلوا النيل من محمد دأبهم كالمبشرين وأشباههم ، فإنك واجدٌ هذا الإجلال للعظمة والإيمان بقوّتها فى كتب العلماء المستشرقين واضحين جليين . عقد كارْليل فى كتابه « الأبطال » فصلاً عن محمد صوَّر فيه الجَذوة الإلهية المقدَّسة التى أوحت إلى محمد ما أوحت فصوَّر العظمة فى جلال قوَّتها . ومُوير ، وإرْفنج ، وسْبِرِنْجَر ، وفَيل ، وغيرهم من المستشرقين والعلماء قد صوَّر كل واحد منهم عظمة محمد تصويراً قويًّا وإن وقف هذا أو ذاك منهم عند مسائل اعتبرها مآخذ على صاحب الرسالة الإسلامية ، لغير شىء إلا أنه لم يمتحنها ولم يمحصها التمحيص العلمىّ الدقيق ، ولأنه اعتمد فيها على ما ورد فى بعض كتب السيرة أو كتب التفسير من الروايات المضطربة ، متناسياً أن أوّل كتب السيرة إنما كُتبَ بعد قرنين من عصر محمد دُسَّت أثناءهما فى سيرته وفى تعاليمه إسرائيليات كثيرة ، ووضعت أثناءهما ألوف الأحاديث المكذوبة . ومع أن المستشرقين يقرّرون هذه الحقيقة ، تراهم لا يأبَوْن مع ذلك تناسيها ليقرّروا أموراً يعتبرونها صحيحة مع أن أقل التمحيص ينفيها . من ذلك مسألة الغرانيق ، ومسألة زيد وزينب ، ومسألة أزواج النبىّ ، مما أتيح لى امتحانه وتمحيصه فى هذا الكتاب .

الكتاب بداءة البحث

لست مع ذلك أحسبنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد . بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة العلمية الحديثة ، وأن ما بذلت فى هذه السبيل من مجهود لا يُخرج هذا الكتاب عن أنه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية فى هذا الموضوع الجليل . وإذا كان جماعة من العلماء والمؤرخين قد انقطعوا لبحث عصر من العصور ، كما انقطع أولار فى فرنسا لبحث عصر الثورة الفرنسية ، وكما انقطع غيره من العلماء لبحث عصر أو عصور معيَّنة من التاريخ فى مختلف الأمم ،

فحياة محمد جديرة بأن ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعية أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها . وليس يساورنى شك فى أن الانقطاع والبحث العلمىّ ، فى هذه الفترة القصيرة من حياة بلاد العرب واتصالها بحياة الأمم المختلفة فى ذلك العصر ، تؤتى نتائجهُ العالمَ كله ، لا الإسلام والمسلمين وحدهم ، خيرَ الثمرات . فهى تجلو أمام العلم كثيراً من المسائل النفسية والروحية فضلاً عما تفيض عليه من ضياء فى نواحى الحياة الاجتماعية والخلقية والتشريعية لا يزال العلم يتردد أمامها متأثراً بهذا النزاع الدينى بين الإسلام والنصرانية ، وبهذه المحاولات العقيمة التى يُقْصَد منها إلى « تغريب » الشرقيين أو تنصير المسلمين ، مما ثبت على الأجيال إخفاقه واستحالته وسوء أثره فى علاقات أجزاء الإنسانية المختلفة بعضها ببعض .

فائدة البحث إنسانية عامة

وأذهب إلى أبعد مما تقدَّم فأقول : إن هذا البحث جدير بأن يهدى الإنسانية طريقَها إلى الحضارة الجديدة التى تتلمَّسها . وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد فى الإسلام ورسوله وتشيم هذا النور فى ثيوزوفية الهند وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى جميعاً خليقون أن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والإنصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق . فالتفكير الإسلامىّ – على أنه تفكير علمى الأساس على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعى بحت – ينقلب تفكيراً ذاتيًّا حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون وخالق الكون ، ويُبدع لذلك فى النواحى النفسية والنواحى الروحية آثاراً يقف العـــلم بوسائله حائراً أمامها ، لا يستطيع أن يُثبتها ولا أن ينفيها ، وهو لا يعتبرها حقائق علمية ، ثم هى تظل مع ذلك قوام سعادة الإنسان فى الحياة ومقوّمة سلوكه فيها . فما الحياة ؟ وما صلة الإنسان بهذا الكون ؟ وما حرصه على الحياة ؟ وما هى العقائد المشتركة التى تبعث فى الجماعات القوّة المعنوية التى تضمحل بضعف هذه العقائد المشتركة ؟ وما الوجود ؟ وما وحدة الوجود ؟ وما مكان الإنسان من الوجود ووحدته ؟ هذه مسائل خضعت للمنطق التجْريدىّ ووجدت منه أدباً مترامى الأطراف . لكنك تجد حلَّها فى حياة

محمد وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق التجريديّ الذى أفنى فيه المسلمون قروناً منذ العهد العباسى ، وأفنى فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر مما انتهى بالغرب إلى العلم الحديث على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى ، ثم وقف العلم فى الماضى كما أنه مهدَّد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية . ولا سبيل إلى دَرَك هذه السعادة إلا العود إلى حسن إدراك هذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود فى وحدته التى لا تتغيَّر سننُها ولا يعتبر للزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبى لحياتنا القصيرة . وحياة محمد هى لا ريب خير مثل لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسةً علمية لمن أراد ، ودراسةً عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال فى مراتب أوَّلية لبعد ما بينه وبين الصلة الإلهية التى أفاء الله على رسوله . وأكبر ظنى أن هاتين الدراستين خليقتان ، يوم يُتاح لهما التوفيق ، أن تُنقذا عالمَنَا الحاضر من وثنية تورَّط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية ؛ وثنيَّة جعلت المال وحده معبوداً ، وسخَّرت كل ما فى الوجودِ من علم وفن وخُلق ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده . قد يكون هذا التوفيق ما يزال بعيداً . لكن طلائع القضاء على هذه الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر ، وتوجه الحضارة الحاكمة فيه ، واضحة لكل من تتبَّع سيرة العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد النبى وتعاليمه وعصره والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم أثراً من آثاره . وإذا أتاحت الدراسة العلمية والدراسة الذاتية لقوى الإنسانية الكمينة مزيداً من اتصال بنى الإنسان بحقيقة الكون العليا ، كان ذلك الحجر الأوَّل فى أساس الحضارة الجديدة .

وهذا الكتاب ليس إلا محاولة بدائية فى هذه السبيل كما قدَّمت . وبحسبى أن يُقنع هذا الكتاب الناس بما فيه ، وأن يُقنع العلماء والباحثين بضرورة الانقطاع والتخصص لبلوغ الغاية من بحث موضوعه . ولو أنه أثمر أيًّا من هذين الأثرين أو كليهما ، لكان ذلك أكبر جزاء أرجو عن المجهود الذى بذلت فيه . والله يجزى المحسنين .

مُحمد حسين هيكل

تقديم الطبعة الثانية

نفدت طبعة هذا الكتاب الأولى بأسرع من كل ما قدّر لها . فقد صدر منها عشرة آلاف نسخة نفد ثلثها بالاشتراك فى الكتاب أثناء طبعه ، ونفد سائرها خلال ثلاثة أشهر من صدوره . ولقد دل الإقبال على اقتناء هذا الكتاب على عناية القرّاء بالبحث الذى يحتويه . لذلك لم يكن بد من التفكير فى إعادة طبعه ، وفى إعادة النظر فيه .

وموضوع الكتاب هو السبب الأوّل فى الإقبال عليه لا ريب . ولعل الطريقة التى عولج الموضوع بها كانت ذات أثر فى الإقبال عليه كذلك . وأيًّا كان السبب فقد سألت نفسى حين فكّرت فى أمر الطبعة الثانية : أفأعيدها صورة من الطبعة الأولى لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، أم أرجع إليها بالتنقيح والزيادة والتصحيح فيما تتّضح لى ضرورة تصحيحه أو تنقيحه أو الزيادة عليه ؟ ولقد أشار علىّ بعض من أقدرُ مشورتهم أن أجعل الطبعة الثانية صورة من الطبعة الأولى كيما تتحقق المساواة بين الذين يقتنون أيًّا من الطبعتين ، ولكى يتسع لى زمن المراجعة والتنقيح فيما بعد هذه الطبعة الثانية . وكدت آخذ بهذا الرأى . ولو أننى فعلت لكانت هذه الطبعة فى أيدى القرَّاء منذ أشهر . غير أنى تردّدت فى الأخذ بهذه المشورة ، ثم انتهيت إلى ضرورة التنقيح والزيادة لاعتبارات شتَّى .

ملاحظة على الكتاب

وكان أوّل هذه الاعتبارات بعض ملاحظات تفضّل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى بإبدائها لى حين أطلعته على ما تم طبعه من الكتاب قبل ظهور طبعته الأولى فتفضّل بوضع التعريف الذى صدّرت الكتاب به . فلما ظهر الكتاب تفضّل بعض الكُتّاب والعلماء بالتنويه به فى الصحف والمجلات وعن طريق الإذاعة ، وأبدَوْا ما عنّ لهم من الملاحظات عليه . وقد أُبديت هذه الملاحظات جميعاً بعد الثناء الجم على مجهود بذلته لست أحسبه جديراً بكل هذا التقدير ، وأُبديتْ حرصاً على ألاّ تشوب كتاباً عن النبىّ العربى هَنَةٌ من الْهَنَات ما دام مؤلفه قد وفِّق فى وضعه توفيقاً أرضاهم ونال تقديرهم . لذلك

لم يكن بدّ من أن أعير هذه الملاحظات ما هى جديرة به من عظيم العناية .

ولعل هذا الرضا والتقدير هما اللذان جعلا طائفة من هذه الملاحظات تَرِدُ على مسائل كمالية لا تتصل بجوهر الكتاب ولا بما ورد من الروايات فيه . فمنها ما يرجو أصحابه إيضاح بعض أمور رأوها فى حاجة إلى الإيضاح . ومنها ما يرمى إلى مزيد من التدقيق فى استعمال حروف الجرّ ، أو إلى اقتراح بعض ألفاظ بدل أخرى يعتقد الذين اقترحوها أنها أدق تعبيراً عن المعنى المقصود . على أن طائفة من الملاحظات انصبَّت على بعض مباحث الكتاب فدفعتنى إلى مزيد من التفكير والمراجعة . ولشدّ ما أحرص على أن تكون هذه الطبعة الثانية أدنى إلى إرضاء هؤلاء العلماء جميعاً ، وإن كنت لا أرى فى البحث كله ، كما ذكرت فى تقديم الكتاب ، إلا أنه بداءة بحث فى موضوعه باللغة العربية وضع على الطريقة العلمية الحديثة .

ومما أدّى بى كذلك إلى تناول الطبعة الأولى بالتنقيح والزيادة ، أننى عدت إلى تلاوة الكتاب بعدها . بعد أن وقفت على ما أبدى عليه من ملاحظات لم يغب أكثرها عنى أثناء وضع الكتاب ، فاقتنعت بضرورة الإفاضة فى تمحيص بعض ما وردت الملاحظات عليه لإقناع أصحاب هذه الملاحظات بوجهة نظرى وصواب حجتى . وقد هدتنى مراجعاتى التى قمت بها لهذه الغاية إلى مواضع للتأمل جديرة بأن يتناولها كل كاتب سيرة النبى العربى . ولئن اغتبطت لأننى تناولت فى الطبعة الأولى كل ما أشارت الملاحظات إليه ، لأنا اليوم أشد اغتباطاً بأن أفيض فى بعض المباحث إفاضة أعتبرها ضرورية فى هذه الدراسة التمهيدية لحياة أعظم إنسان عرفه التاريخ ، خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام .

وقد حاولت فى هذا التقديم لطبعة الكتاب الثانية تمحيص طائفة من الملاحظات التى أبديت على طريقة البحث فى الطبعة الأولى . وأضفت فى آخر الكتاب فصلين تناولت فيهما أموراً مررت بموضوعها لِماماً فى خاتمة الطبعة الأولى ، كما أنى نقحت وأضفت فى تضاعيف الكتاب ما رأيت تنقيحه أو إضافته بعد الذى هدتنى إليه مراجعاتى وتأمُّلاتى ، إتماماً للبحث وإجابة لأصحاب الملاحظات عن ملاحظاتهم .

أنصار المستشرقين والرد عليهم

وفى مقدّمة ما أتناوله بالتفنيد رسالة وردت إلىَّ من كاتب مصرى ذكر أنها ترجمة عربية لمقال بعث به إلى مجلة المستشرقين الألمانية نقداً لهذا الكتاب . ولم أنشر هذه الرسالة فى الصحف العربية لأن بها مطاعن لا سند لها ؛ ولذلك تركت لصاحبها أن يتحمل تبعة نشرها إن شاء . ولم أر أن أذكر اسمه فى هذا التقديم اقتناعاً منى بأنه سيعدل عن نسبتها إليه بعد أن يقرأ تفنيدها . وخلاصة هذه الرسالة أن البحث الذى قمت به فى « حياة محمد » ليس بحثاً علميًّا بالمعنى الحديث ؛ لأننى اعتمدت فيه على المصادر العربية وحدها ، ولم أرجع إلى مباحث المستشرقين الألمان من أمثال « فيل » و « جولدزهر » و « نولدكى » وغيرهم ولم آخذ بنتائج هذه البحوث ؛ ولأنى اعتبرت القرآن وثيقة تاريخية لا محل لريبة فيها ، مع أن مباحث هؤلاء المستشرقين تدل على أنه حُرِّف وبدِّل بعد وفاة النبى وفى الصدر الأول للإسلام ، واسم النبى بعض ما بدّل فيه ؛ فقد كان اسمه « قثم » أو « قثامة » ثم أبدل من بعد وصار « محمداً » ليتسنَّى وضع الآية : « وَمُبَشِّرًا برسولٍ يأْتِى مِنْ بَعْدِى اسمُه أَحمد » إشارة إلى ما جاء فى الإنجيل عن النبى الذى يجىء بعد عيسى . ويضيف الكاتب إلى أقواله هذه أن بحوث المستشرقين دلَّت كذلك على أن النبى كان يصاب بالصَّرْع ، وأن ما كان يسميه الوحى الذى ينزل عليه إنما كان أثراً لنوبات الصرع التى كانت تعتريه ، وأن أعراض الصرع كانت تبدو على محمد فكان يغيب عن صوابه ، ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجَات ، وتخرج من فيه الرغوة ، فإذا أفاق من نوبته ذكر أنه أوحى إليه وتلا على المؤمنين به ما يزعم أنه من وحى ربه .

ما يؤاخذوننى به

لم أكن لأعْنَى بهذه الرسالة ولا بتفنيد ما فيها لولا أن كاتبها مصرى مسلم ولو أنه كان مستشرقاً أو مبشراً لتركته ملقًّى حبله عِلى غاربه ، يقول ما تمليه عليه أهواؤه وما تنضح به شهواته . وحسبى ما ذكرت فى تقديم الكتاب وفى تضاعيفه إدحاضاً لأقوال هؤلاء وأولئك . لكن كاتب هذه الرسالة إنما هو مثل لطائفة من شباننا ورجالنا المسلمين الذين يتلقَّون كل ما يقوله المستشرقون بقبول حسن ، ويعتبرونه العلم الصحيح المعبّر عن الحقيقة الخالصة . وإلى هؤلاء أوجِّه القول هنا لأحذّرهم ما يقع المستشرقون فيه من خطأ . وبعض هؤلاء المستشرقين مخلص

أسباب خطأ المستشرقين

فى بحثه على رغم خطئه . لكن الخطأ يتسرّب إلى بحثه لعدم دقته فى إدراك أسرار اللغة العربية تارة ، ولما يشوب نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص على هدم مقرَّرات دين من الأديان ، أو على هدم مقرَّرات الأديان جميعاً ، تارة أخرى . وهذا وذاك إسراف كان يجمل بالعلماء أن يجتنبوه . ولقد رأينا مسيحيين دفعهم هذا الإسراف إلى إنكار أن عيسى وُجد على التاريخ ، ورأينا آخرين تخطوْا حدود الإسراف فكتبوا عن جنون عيسى . وإنما دعا إلى هذه النزعة فى أوربا ما بين الكنيسة والدولة من نزاع أدّى برجال العلم وبرجال الدين ، كلٌّ من ناحيته ، إلى الحرص على الغَلَب لاقتناص السلطان والحكم . أما والإسلام برىء من هذا النزاع فليتّق الباحثون من أبنائه سلطان هذه الشهوة التى يخضع لها رجال الغرب ، والتى تفسد على العلماء بحوثهم أكثر الأمر ، ويجب عليهم لذلك أن يأخذوا حذرهم حين يطّلعون على ما يصدر عن الغرب من مباحث دينية ، وأن يمحصوا كل ما يصوّره العلماء على أنه حق . فالكثير منه يتأثر بمقدار غير قليل بهذا الماضى الذى جعل الخصومة متصلة بين رجال الدين ورجال العلم قرونا متوالية .

الاعتماد على كتاب السيرة من المسلمين

وما ورد فى رسالة هذا المصرى المسلم مما لخصته هنا بالغ الدلالة على وجوب هذا الحذر . فأوّل ما يأخذه علىّ أننى اعتمدت على المراجع العربية والإسلامية واتخذتها أساساً لبحثى . ولست أنكر ذلك . على أننى قد رجعت إلى كتب المستشرقين ممن ذكرت فى سجل المراجع ، لكن المصادر العربية كانت دائماً الأساس الأوّل لهذا البحث الذى قمت به . وهذه المصادر العربية كانت الأساس الأوّل كذلك لمباحث المستشرقين جميعاً . وهذا طبيعىّ ؛ فهذه المصادر ، وفى مقدّمتها القرآن ، هى أوّل من تحدّث عن حياة النبى العربى . فلا جرم أن تكون العمدة والأساس لكل من يريد أن يكتب سيرته بأسلوب العصر وطريقته . و « نولدكى » و « جولدزهر » و « فَيل » و « شْپِرنْجَر » و « مُوير » وغيرهم من المستشرقين قد جعلوها عمدتهم فى بحثهم كما جعلتها عمدتى فى بحثى . وقد أبحث لنفسى فى تمحيصها ونقدها ما أباحوه لأنفسهم من حرية ، كما أننى لم أغفل بعض ما اعتمدوا عليه من كتب المسيحيين الأقدمين

وإن أملاها التعصب الديني للمسيحية ولم يُمْلِها النقد العلمي بحال ، فإذا لامني لائم لأنني لم أتقيد بالنتائج التي وصل بعض المستشرقين إليها ، أو لأنني أبحث لنفسي مخالفتهم ونقدهم ، فتلك دعوة إلى الجمود العلمي لا تقل رجعية ولا تأخراً عن أية دعوة إلى الجمود في الميادين العقلية والروحية جميعاً . وما أحسب أحداً من المستشرقين أنفسهم يوافق على هذه الدعوة إلى الجمود العلمي ، ولو أن أحدهم أقرّها لجاز إقرار الدعوة إلى الجمود الديني . وهذا وذاك مالا أرضاه لنفسي ولا أرضاه لأحد ممن يريدون الاشتغال بالبحوث التاريخية على وجه علمي صحيح . إنما أعمل وأطالب غيري أن يعمل على تمحيص ما يقع عليه من مباحث غيره . فإن اقتنع بها عن بينة وبعد أن يقوم لديه الدليل القاطع عليها فذاك ، وإلا فليعمل من ناحيته للوصول إلى الحقيقة حتى يقتنع بأنه وصل إليها . هذا ما أدعو إليه شبابنا ورجالنا المعجَبين ببحوث المستشرقين ، وهذا ما فعلت ؛ ولي أجر المصيب على ما أصبت فيه ، ولي عذر الباحث عن الحقيقة مع صدق القصد في توخّي السبيل إليها إن أخطأني التوفيق في شيء منه .

المستشرقون والمقررات الدينية

ومن الأدلة على تأثر بعض المستشرقين بحرصهم على هدم المقررات الدينية وإسرافهم في ذلك ما ذهب إليه كاتب الرسالة المصري المسلم من أن مباحث هؤلاء المستشرقين تدل على أن القرآن ليس وثيقة تاريخية لا محل لريبة فيها ، وأنه حُرِّف بعد وفاة النبي وفي صدر الإسلام ، وأضيفت إليه أثناء ذلك آيات لأغراض دينية أو سياسية . ولست أناقش صاحب الرسالة من ناحية إسلامية فأحاجُّه ، وهو مسلم ، بما يقرره الإسلام من أن القرآن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فهو يذهب مذهب المستشرقين من أن القرآن كتاب وضعه محمد ، عن إيمان منه بأن هذا الكتاب وحي الله في رأي طائفة من هؤلاء المستشرقين ، وحرصاً منه على إثبات رسالته بما يذكر من أن هذا القرآن وحي الله إليه في رأي الآخرين . فلأخاطبه إذاً بلغته على أنه من أحرار الفكر الذين لا يريدون أن يتقيدوا إلا بما يُثبته العلم إثباتاً يقينيًّا .

فرية تحريف القرآن

هو يعتمد على المستشرقين وما يقولونه . ومن المستشرقين طائفة تزعم بالفعل في أمر القرآن ما نقله عنهم . لكن زعمهم هذا يدلّ على أنهم إنما تدفعهم إليه

أغراض يبرأ منها العلم ولا تخفى على أحد . وحسبُك دليلا على ذلك قولهم : إن عبارة « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمُه أحمدُ » ، التى وردت فى الآية السادسة من سورة الصف ، إنما أضيفت بعد وفاة النبى لالتماس الدليل على نبوَّة محمد ورسالته من الكتب المقدّسة السابقة للقرآن ؛ فلو أن الذين قالوا هذا القول من المستشرقين كانوا يُخلصون للعلم حقًّا لما لجأوا إلى مثل هذا التدليل القائم عندهم على أن التوراة والإنجيل كتابان مقدّسان بالفعل . فلو أنهم كانوا يريدون العلم للعلم لسوَّوا بين القرآن والكتب المقدّسة التى سبقته ؛ فإمّا اعتبروه مقدّساً مثلها ، فذكره الكتب المقدّسة التى عرفها الناس قبله طبيعى لا محل لرفضه . وإمّا اعتبروا هذه الكتب كما اعتبروا القرآن وقالوا فى شأنها ما قالوه فى شأنه ، وقرّروا أن أصحابها وضعوها لأغراض دينية أو سياسية خاصة . ولو أنهم قالوا مثل هذا القول لقضى المنطق بفساد ما ذهبوا إليه من تحريف القرآن لأغراض سياسية أو دينية ، فما كان للمسلمين أن يلتمسوا الحجة من هذه الكتب بعد أن اطمأن ملكهم ودانت لهم الإمبراطورية المسيحية كما دان لهم غيرها من أمم الأرض ، وبعد أن دخل المسيحيون فى الإسلام أفواجاً بل أمماً كاملة . هذا هو المنطق الذى يقتضيه البحث العلمى النزيه . أمَّا اعتبار التوراة والإنجيل مقدّسين ، ونفى هذه الصفة عن القرآن فأمر لا يسوّغه العلم . وأمَّا القول بتحريفه التماساً للحجة من التوراة والإنجيل فهُرَاء لا يقره التاريخ ولا يرضاه المنطق .

والذين زعموا هذا الزعم الفاسد من المستشرقين هم قلة بين أشدّ المستشرقين تعصُّباً . أما كثرتهم فيقرون بأن القرآن الذى نتلوه اليوم هو بعينه القرآن الذى تلاه محمد على المسلمين أثناء حياته ، لم يحرَّف ولم يبدَّل . وهم يحرصون على أن يذكروا هذا وإن أضافوا إليه من عبارات النقد للنظام الذى جُمع القرآن به ولترتيب السور فيه ما لا يدخل تمحيصه فى نطاق هذا البحث . وقد تناول المشتغلون بعلوم القرآن من المسلمين أوجه النقد هذه ودفعوها . أما ما نحن الآن فى صدده فحسبنا فيه أن نقتطف بعض ما ذكره المستشرقون عنه ، لعله يقنع المصرى المسلم الذى نناقش ها هنا رسالته ، ولعله يُقنع الذين يفكرون على شاكلته .

موير ينكر هذه الفرية

وما أورده المستشرقون من ذلك كثير، نختار منه بعض ما كتبه السير وليم مُوير

فى كتابه « حياة محمد » . ليرى هؤلاء الذين أسرفوا على التاريخ وعلى أنفسهم شدَّة ما أسرفوا حين اطمأنوا إلى ما قيل عن تحريف القرآن وتبديله . وموير مسيحى شديد الحرص على مسيحيته والدعوة إليها ، شديد الحرص لذلك على ألا يدع موضعاً لنقد نبى الإسلام وكتابه دون الوقوف عنده ومحاولة دَعْمِه .

يقول سير وليم موير ، عند كلامه عن القرآن ودقة وصوله إلينا ، ما ترجمته :

« كان الوحى المقدس أساس أركان الإسلام فكانت تلاوة ما تيسر منه جزءاً جوهريًّا من الصلوات اليومية عامة أو خاصة ، وكان القيام بهذه التلاوة فرضاً وسنة يجزى من يؤديهما جزاء دينيًّا صالحاً . ذلك كان جماع الرأى فى السُّنة الأولى، وهو ما يستفاد كذلك من الوحى نفسه . لذلك وعت القرآن ذاكرة كثرة المسلمين الأولين إن لم يكونوا جميعاً . وكان مبلغ ما يستطيع أحدهم تلاوته بعضَ المميزات الجوهرية فى العهد الأول للإمبراطورية الإسلامية . وقد يسَّرَت عادات العرب هذا العمل ؛ فقد كانوا ذوى ولع بالشعر عظيم . ولما كانت الوسائل لتحرير ما يفيض عن شعرائهم فى غير متناول اليد ، فقد اعتادوا أن ينقشوا هذه القصائد كما كانوا ينقشون ما يتعلق بأنسابهم وقبائلهم على صفحات قلوبهم . بذلك نمت ملكة الذاكرة غاية النمو ، ثم تناولت القرآن بكل ما أدّت إليه يقظة الروح إذ ذاك من حرص وإقبال . ولقد بلغ بعض أصحاب النبىّ من قوة الذاكرة ودقتها ومن التعلق بحفظ القرآن واستذكاره حدًّا استطاعوا معه أن يعيدوا بدقة يقينية كل ما عرف منه إلى يوم كانوا يتلونه .

الذاكرة العربية

•

على الرغم من هذه القوة التى امتازت بها الذاكرة العربية فقد كنا فى حل من ألاّ نُولى ثقتنا مجموعةً ذلك كل مصدرها . لكن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن أصحاب النبى دوَّنوا أثناء حياته نسخاً شتى لأجزاء مختلفة من القرآن ، وأن هذه النسخ سجَّلت القرآن ، سجلته كله تقريباً . فقد كانت الكتابة معروفة على وجه عام بمكة قبل نبوّة محمد بزمن غير قليل . وكان النبى قد استعمل على تحرير الكتب والرسائل أكثر من واحد من أصحابه بالمدينة . وقد فَكّ إسار الفقراء من أسرى بدر مقابل قيامهم بتعليم أنصار المدينة الكتابة .

تحرير القرآن فى عهد النبى

ومع أن أهل المدينة لم يكونوا مثقفين ثقافة أهل مكة ، فقد عُرفت مقدرة الكثيرين منهم على الكتابة قبل الإسلام . ومن اليسير مع ثبوت هذه المقدرة على الكتابة ، أن نستنبط غير مخطئين أن الآيات التى وعتها الذاكرة بدقة قد سجلتها الكتابة بمثل هذه الدقة .

« ثم إنا نعرف أن محمداً كان يبعث إلى القبائل التى تدْخل فى الإسلام واحداً أو أكثر من أصحابه لتعليمهم القرآن وتفقيههم فى الدين . وكثيراً ما نقرأ أن هؤلاء المبعوثين كانوا يحملون معهم أوامر مكتوبة فى شأن الدين . ولقد كانوا يحملون ما نزل به الوحى بطبيعة الحال ، وخاصَّةً ما اتصل منه بشعائر الإسلام وقواعِده ، وما يتلى منه أثناء العبادة . والقرآن نفسه ينص على وجوده مكتوباً . وتنص كتب السيرة ، حين تذكر إسلام عمر ، على وجود نسخة من السورة المتمة للعشرين (سورة طه) فى حيازة أخته وأسرتها . وكان إسلام عمر قبل الهجرة بثلاث سنوات أو أربع . فإذا كان الوحى يُدَوَّن ويُتبادل فى العصر الأول ، حين كان المسلمون قليلين وحين كانوا يسامون العذاب ، فمن المقطوع به أن النسخ المكتوبة كثر عددها وتداولها حين بلغ النبى أوج السلطة وحين صار كتابه قانون العرب جميعاً .

الرجوع إلى النبى عند الخلاف

« كذلك كان شأن القرآن أثناء حياة النبىّ ، وكذلك كان شأنه إلى عام بعد وفاته : بقِى مسطوراً فى قلوب الذين آمنوا به مسجَّلة أجزاؤه المختلفة فى نسخ كانت تزداد كل يوم عدداً . وكان لزاماً أن يتطابق هذان المصدران تمام التطابق . فقد كان القرآن منظوراً إليه ، حتى فى حياة النبى ، برهبة اليقين بأنه كلام الله ذاته . لذلك كان كل خلاف على نصه يرجع فيه إلى النبىّ نفسه كى يزيله . ولدينا أمثلة من ذلك ؛ إذْ رجع إلى النبى عمرو بن مسعود وأُبَىّ بن كَعْب . فلما قُبض النبى كان يرجعُ عند الخلاف إلى النصوص المكتوبة ، وإلى ذاكرة أصحاب النبى الأقربين وكُتَّاب وحيه .

« فلمَّا فُرِغ من أمر مُسَيْلمة ، فى حروب الردَّة ، كانت مذبحة اليمامة قد أتت على كثير من المسلمين ومن بينهم عدد كبير من خير حُفَّاظ القرآن ، هنالك ساورت عمرَ المخاوفُ فى أمر الكتاب ونصوصه وما ربما يعلَق بها

من زيبة إذا أصاب المقدور من اختزنوه فى ذاكرتهم فماتوا جميعاً . إذ ذاك توجه إلى الخليفة أبى بكر بقوله : « أخشى أن يستحرّ القتل كرَّة أخرى بين حفَّاظ القرآن فى غير اليمامة من المغازى وأن يضيع لذلك كثير منه . والرأى عندى أن تسارع فتأمر بجمع القرآن » . وأقرّ أبو بكر هذا الرأى ، وأفضى برغبته فى إنفاذه إلى زيد بن ثابت كبير كتَّاب النبى وقال : « إنك رجل شابّ عاقل ولا نتَّهمك . كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبّع القرآن فاجْمعه » . وإذ كان هذا العمل حدثاً غير متوقع فقد اضطرب زيد بادئ الرأى ، وخامره الريب فى صلاحية الإقدام عليه ، بل فى مشروعيته . فلم يقم به محمد نفسه ولم يأمر أحداً بالقيام به . على أنه انتهى إلى النزول على ما أبدى أبو بكر وعمر من رغبة ملحَّة . وجَهد فى جمع السوَر وأجزائها من كل جانب ، حتى لقد جمع ما كان منها على ورق الشجر وعلى الحجر الأبيض وفى صدور الرجال . ويضيف بعضهم أنه جمع كذلك منها ما كان على الورق وعلى الجلد وعلى عظام الكتف والضلع من الإبل والماعز . وظفرت جهود زيد المتصلة خلال سنتين أو ثلاث بجمع هذه المادة كلها وترتيبها على النحو الذى هى عليه اليوم ، وعلى النحو الذى كان زيد يتلو عليه القرآن فى حضرة محمد فيما يقولون . فلما كملت النسخة الأولى عهد بها عمر إلى صيانة حَفْصة ابنته وزوج النبى . وظل هذا الكتاب الذى جمعه زيد قائماً طِيلَة خلافة عمر على أنه النص الصادق الصحيح .

الجمع الأول للقرآن

« على أن الخلاف لم يلبث أن بدأ فى طريقة التلاوة ، ناشئاً إما عن الخلاف السابق لنسخة زيد ، وإما عن تحريف تَسَرَّبَ إلى النسخ التى نقلت عن نسخته . وفزع العالم الإسلامى لذلك أيَّما فزع . فالوحى الذى نزل من السماء « واحد » فأين الآن وحدته ؟ ولقد حارب حُذَيْفة فى إرمينية وفى أذَرْبيجان ولاحظ اختلاف القرآن عند السوريين عنه عند أهل العراق ، فجزع لتعدُّد ذلك ولمبلغ ما بينه من خلاف ، إذ ذاك فزع إلى عثمان كيما يتدخَّل « ليقف الناس حتى لا يختلفوا على كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى » . واقتنع الخليفة . وليدفع الضرّ لجأ كرَّةً أخرى إلى زيد بن ثابت وعزَّزه بثلاثة من قريش .

مصحف عثمان

وجيء بالنسخة الأولى من حيازة حفصة ، وعرضت القراءات المختلفة من أنحاء الإمبراطورية ، وروجعت كلها بأتم عناية للمرة الأخيرة . ولقد كان زيد إذا اختلف مع زملائه القرشيين رجح صوت هؤلاء أن كان التنزيل بلسان قريش ، وإن قيل إن الوحى نَزَل على سبع لهجات مختلفة من لهجات العرب . وأرسلت نسخ من هذا المصحف بعدتمام جمعه إلى جميع الأمصار فى الإمبراطورية ، وجُمع ما بها من سائر النسخ بأمر الخليفة وأحرق . ورُدَّت النسخة الأولى إلى حيازة حفصة .

« ووصل إلينا مصحف عثمان . وقد بلغت العناية بالمحافظة عليه أنَّا لا نكاد نجد – بل لا نجد – أى خلاف بين النسخ التى لا عداد لها ، والمنتشرة فى أنحاء العالم الإسلامى الفسيحة . ومع ما أدى إليه مقتل عثمان نفسه بعد ربع قرن من وفاة محمد ، من قيام شيع مغضبة ثائرة زعزعت ولا تزال تزعزع وحدة العالم الإسلامىّ ، فإن قرآ ناً واحداً قد ظل دائماً قرآنها جميعاً . وهذا الإسلام منها جميعاً لكتاب واحد على اختلاف العصور حجة قاطعة ، على أن ما أمامنا اليوم إنما هو النص الذى جمع بأمر الخليفة السيئ الحظ . والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل ثلاثة عشر قرناً كاملاً بنصٍّ هذا مبلغ صفائه ودقَّته . والقراءات المختلفة قليلة إلى حدّ يثير الدهشة . وهذا الاختلاف محصور أكثر أمره فى نطق الحروف المتحركة أو فى مواضع الوقف ، وهذه مسائل أبدعت فى تاريخ متأخر ، فلا مساس لها بمصحف عثمان .

وحدة الإسلام فى عهد عثمان

« والآن ، وقد تبين أن القرآن الذى نتلو هو نص مصحف عثمان لم يتغير ، فعلينا أن نبحث : أهذا النص هو صورة مضبوطة لما جمع زيد بعد الاتفاق على إزالة ما كان فى التلاوة من أوجه خلاف قليلة العدد قليلة الخطر ؟ وكل ما لدينا مقنع تمام الإقناع بأن الأمر كذلك . فليس فى الأنباء القديمة أو الجديرة بالتصديق ما يُلقِى على عثمان أية شبهة بأنه قصد إلى تحريف القرآن لتأييد أغراضه . صحيح أن الشيعة ادّعوا من بعدُ أنه أغفل بعض آيات تزكى عليًّا . لكن العقل لا يسوغ هذا الزعم ؛ فلم يكن قدنجم أى خلاف بين الأمويين والعلويين حين أقرّ مصحف عثمان ، بل كانت وحدة الإسلام قائمة

حينذاك لا يهدّدها شيء . ثم إن عليًّا لم يكن قد صوّر مطالبه فى صورتها الكاملة ؛ فلم يكن غرض من الأغراض إذاً ليدفع عثمان إلى ارتكاب إثم ينظر إليه المسلمون بعين المقت غاية المقت . ولقد كان عددٌ كبير ممن وعت قلوبهم القرآن كما سمعوه حين تلاه النبى أحياء حين جمع عثمان المصحف . فلو أن آيات تزكى عليًّا كانت قد نزلت لَوُجِدَتْ نصوصها بين يدى أنصاره الكثيرين . وهذان السببان كانا كفيلين بالقضاء على كل محاولة لإغفال هذه الآيات . يضاف إلى ذلك أن شيعة علىّ استقلّوا بأمرهم بعد وفاة عثمان وبايعوا عليًّا بالخلافة . أفيقبـــــل العقل أنهم ، وقد وصلوا إلى السلطة ، يرضون عن قرآن مبتور ، ومبتور قصداً للقضاء على أغراض زعيمهم !؟ مع ذلك ظلّوا يتلون القرآن الذى يتلوه خصومهم ، ولم يثيروا أى ظل من الاعتراض عليه ؟ بل إن عليًّا قد أمر بأن تنشر نسخ كثيرة منه ، ويقال إنه كتب بخط يده عدداً منها . صحيح إن الثائرين قد جعلوا من أسباب انتقاضهم أن عثمان جمع القرآن وأمر بإهلاك ما سوى مصحفه من المصاحف . واعتراضهم إنما ينصبَ على إجراءات عثمان لذاتها ويعتبرونها محرّمة لا تجوز . لكن لم يشر أحد فيما وراء ذلك إلى تحريف فى المصحف أو إبدال ؛ فمثل هذا الزعم كان ظاهر الفساد يومئذ ؛ وإنما أبدعه الشيعة من بعدُ لأغراضهم .

دقة مصحف عثمان وكماله

« نستطيع أن نستنبط إذاً مطمئنين أنّ مصحف عثمان كان وما يزال صورة مضبوطة لما جمعه زيد بن ثابت ، مع مزيد فى التوفيق بين الروايات السابقة له وبين لهجة قريش ، ثم استبعاد سائر القراءات التى كانت منتشرة فى أنحاء المملكة . مع ذلك لا تزال أهمّ مسألة قائمة أمامنا ؛ هذه المسألة هى : **هل كان ما جمعه زيد صورة صادقة كاملة لما أوحى إلى محمد** ؟ والاعتبارات الآتية تبعث اليقين بأنه كان مجموعة صادقة بلغت من حيث إنها كاملة كل ما يمكن بلوغه يومئذ :

« أوّلا — تمّ الجمع الأول برعاية أبى بكر . وكان أبو بكر تابعاً صادق الإخلاص لمحمد كما كان مؤمنا كامل الإيمان بالمصدر القدسى للقرآن ؛ وكان اتصاله الحميم بالنبى خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته ، ومظهره فى الخلافة مظهر البساطة والحكمة والتنزه عن المطامع ، بحيث لا تدع موضعاً

لأى فرض آخر . وكان إيمانه بأن ما يوحى إلى صاحبه إنما يوحى إليه من الله ذاته ، مما يجعل أول أغراضه أن يكفل جمع هذا الوحى كله مطهراً كاملاً . ومثل هذا القول يصدُق على عمر ، وقد تمّ الجمع فى خلافته . وهذا القول يصدق كذلك على المسلمين يومئذ جميعاً ، لا تفاوت لديهم فيه بين الكاتبين الذين عاونوا على هذا الجمع وبين المؤمن الرقيق الحال الذى يحمل إلى زيد ما عنده من الوحى المكتوب على العظام أو على أوراق الشجر ؛ فقد كانوا جميعاً تتساوى رغبتهم الصادقة فى استظهار العبارات والألفاظ التى تلاها عليهم نبيهم على أنها رسالة من عند الله . وقد كان الحرص على الدقة قائماً بشعور الناس جميعاً ؛ لأنه لم ينغرس فى نفوسهم شيء ما انغرس هذا التقديس المرهب لما يعتقدونه كلمة الله . وفى القرآن نُذُرٌ للذين يفترون على الله الكذب أو يُخفون شيئاً من وحيه . ولسنا نستطيع أن نصدّق أن يجرؤ المسلمون الأوّلون ، فى حماستهم الأولى لدينهم وتقديسهم إياه ، على التفكير فى أمر ذلك مبلغه من مجافاة الإيمان .

« ثانياً — تمّ الجمع خلال سنتين أو ثلاث سنين بعد وفاة محمد ؛ وقد رأينا طائفة من أتباعه يحفظون الوحى كله عن ظهر قلب ، وأن كل واحد من المسلمين كان يحفظ طائفة منه ، وأن جماعة من القرّاء كانت تعيِّنهم الدولة وتبعث بهم إلى أنحاء المملكة الإسلامية لإقامة الشعائر ولتفقيه الناس فى الدين . من هؤلاء جميعاً تكوّنت حلقة اتِّصال بين ما تلا محمد من الوحى يوم تلاه وبين ما جمعه زيد . فالمسلمون لم يكونوا صادقى القصد فى جمع القرآن كله فى مصحف واحد فحسبُ ، بل كانت لديهم كذلك كل الوسائل التى تكفل تحقيق هذا الغرض ، وتكفل تحقيق ما اجتمع فى الكتاب الذى وضع بين أيديهم بعد جمعه من دقَّة وكمال .

« ثالثاً — ولدينا ضمان أوفى للدقة والكمال . ذلك ما كان موجوداً منذ حياة محمد من أجزاء القرآن المكتوبة ، والتى كثر لا شك عدد نسخها قبل جمع القرآن . وأكثر الأمر أن هذه النسخ كانت موجودة فى حيازة جميع الذين يستطيعون القراءة . أما ونحن نعرف أن ما جمعه زيد قد تداوله الناس وتلوه بعد

جمعه مباشرة . فمن المعقول أن نستنبط أنه تناول ما احتوته هذه الأجزاء المكتوبة جميعاً واتفق معها ؛ لذلك حلَّ محلَّها بإقرارهم جميعاً . فلم يتصل بنا أن الجامعين أغفلوا أجزاء أو آيات أو ألفاظاً ، أو أن شيئاً مما كان موجوداً من هذه اختلف عما حواه المصحف الذى جُمع . ولو أن شيئاً من ذلك كان ، للوحظ بلا ريب ولدُوّن فى هذه المساند القديمة التى احتوت أدقّ أعمال محمد وأقواله ، والتى لم تُغفل منها حتى ما كان قليل الخطر .

« رابعاً – محتويات القرآن ونظامه تنطق فى قوة بدقة جمعه ؛ فقد ضُمَّت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة لا تعمُّل ولا فنّ فيها . وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق . وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع ؛ فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها إلى جانب بعض .

« والنتيجة التى نستطيع الاطمئنان إلى ذكرها هى أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقاً فحسبُ ، بل كان ، كما تدلّ الوقائع عليه ، كاملاً ، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفال أىّ شىء من الوحى . ونستطيع كذلك أن نؤكد ، استناداً إلى أقوى الأدلَّة ، أن كل آية من القرآن دقيقة فى ضبطها كما تلاها محمد » .

* * *

أطلنا فى اقتطاف عبارات « سير وليم موير » كما وردت فى مقدمة كتابه « حياة محمد »(١) . على أنّ ما اقتطفناه يُغنينا عن ذكر ما كتبه « الأب لامَنْس » و « هون هامر » ومن يرون هذا الرأى من المستشرقين . هؤلاء جميعاً يقطعون بدقة القرآن الذى نتلوه اليوم ، وبأنه يحتوى كل ما تلاه محمد على أنه الوحى الذى تلقاه من ربه صادقاً كاملا . فإذا ذهبت بعد ذلك قلة من المستشرقين غير مذهبهم وزعموا أن القرآن حُرِّف ، غير آبهين لهذه الأدلة العقلية التى ساقها « موير » وكثرة المستشرقين ، والتى أخذوها عن التاريخ الإسلامى والعلماء المسلمين كان ذلك تجنياً على الإسلام لم يُمْله غير الحقد على الإسلام وعلى صاحب

(١) راجع موير « حياة محمد » ص XIV إلى XIXX

الرسالة الإسلامية . ومهما يبلغ المتجنون من البراعة فى صياغة تجنيهم فلن يستطيعوا أن يخلعوا عليه ثوب البحث العلمى النزيه ، ولن يستطيعوا أن يخدعوا به من المسلمين أحداً ، اللهم إلا الشبان الذين يتوهمون أن البحث الحرّ يقتضيهم أن ينكروا ماضيهم ، وأن يُفتَنوا عن الحق بما يُزيَّن لهم من الأباطيل وأن يؤمنوا بكل مطعن على هذا الماضى ، ولو لم يكن لهذا الطعن ما يسوّغه من حقائق العلم والتاريخ .

كنا نستطيع أن نسوق هذه الحجج التى ساقها « السير موير » وغيره من المستشرقين ، وأن نأتى بها من التاريخ الإسلامى ومما كتب علماء المسلمين ، وأن نردها إلى مراجعها فيها . لكنا آثرنا نقلها عن أحد المستشرقين لنظهر شبابنا المولع بكل آثار الغرب ، من غير تمحيص لها ، على أن الدقّة فى البحث العلمى وحسن القصد إلى الحق وحده جديران بهداية من يسلك سبيلهما مخلصاً للحقيقة المجرَّدة من كل زيف ، ونَدُلَّه على أن واجب المحقق أن يدقق فى بحثه حتى يصل من الحقيقة إلى غايته دون تأثر بهوًى أو شهوة ، ومن غير أن يقف به التقليد أو القصور عن بلوغ هذه الغاية . وقد وفّق المستشرقون للحق فى بعض الأحيان ، وقصر همهم دونه فى أحيان أخرى . وكذلك كان أكثرهم فى مسائل متصلة بحياة النبى العربى أتيح لنا تمحيصها فى هذا الكتاب .

الطريقة الصحيحة فى البحث

ويجمل بنا فى هذا المقام أن نذكر أن واجب الباحث ألاّ يُثبت مسألة من المسائل وألاّ ينفيها ، قبل أن يصل من تمحيصه وبحثه إلى الاقتناع الذاتى الصحيح بأنه اطمأن كل الطمأنينة إلى الوقوف فيها على الحقيقة كاملة غير مشوبة بشائبة . وشأن المؤرخ فى ذلك شأن العالم فى الأمور الطبيعية وفى غيرها من العلوم جميعاً ، وهذا واجبه ، تناوَلَ كتب المستشرقين أو تناوَل كتب العلماء المسلمين . وإذا أوجب قصد الحق والمعرفة علينا أن ننقد وأن نمحّص ما خلّف كتّاب العرب والكتّاب المسلمون فى الطب والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم ، فننفى منها ما لا يثبت أمام النقد العلمى ونُثبت ما تقرّه قواعد هذا النقد ، فقصد الحق والمعرفة يوجب علينا مثل هذه الدقة فى أمر التاريخ وإن تعلّق بسيرة النبى عليه الصلاة والسلام . فالمؤرخ ليس ناقلا فحسب ، بل هو أيضاً ناقد لما

ينقل ، ممحّص إياه لمعرفة ما ينطوى عليه من الحق . والنقد سبيل التمحيص . والعلم والمعرفة أساس هذا النقد والتمحيص .

أحسبنا ، بعد هذا التمحيص الذى نقلناه فى شأن القرآن ودقته ، فى حِلّ من إغفال ما جاء فى رسالة ذلك المصرى المسلم ، المؤمن بكل ما يكتب المستشرقون ، عن آيات يزعمون أنها أضيفت إلى القرآن أو عن اسم النبىّ وأنه لم يكن قُثَم أو قثامة ، فهذا كلام لم يُمْلِه الحق بل أملاه الهوى الذى أملى دعوى تحريف القرآن .

ونعود إلى تفنيد النقطة الأخيرة من رسالة ذلك المصرى المسلم . فهو يذكر أن مباحث المستشرقين دلّتهم على أن النبىّ كان يصاب بالصَّرْع وأن أعراضه كانت تبدو عليه ؛ إذ كان يغيب عن صوابه ، ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجات وتخرج من فمه الرّغوة ، حتى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول إنه وحى الله إليه ، فى حين لم يكن هذا الوحى إلا أثراً من نوبات الصرع .

فرية الصرع

وتصوير ما كان يبدو على محمد فى ساعات الوحى على هذا النحو خاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ . فنوبةِ الصرع لا تذر عند من تصيبه أى ذكر لما مرّ به أثناءها ؛ ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حلّ به خلالها ؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل . وهذه أعراض الصرع ، كما يثبتها العلم ، ولم يكن ذلك ما يصيب النبى العربى أثناء الوحى ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه . هذا ، ثم إن نزول الوحى لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحى غاية التنبه ، بل كان كثيراً ما يحدث والنبىُّ فى تمام يقظته العادية ، وحَسْبُنا أن نشير إلى ما أوردنا فى هذا الكتاب عن نزول سورةِ الفتح عند قفول المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد الحُدَيْبِية .

ينفى العلم إذاً أن الصرع كان يعترى محمداً ؛ ولذلك لم يقل به إلا الأقلون

من المستشرقين الذين افترَوْا على القرآن أنه حُرِّف . وهم لم يقولوا به حرصاً على حقيقة يتلمسونها ، وإنما قالوا به ظنًّا منهم أنهم يحطّون من قدر النبي العربي في نظر طائفة من المسلمين . أم حسبوا أنهم يُلقون بأقوالهم هذه ظلا من الريبة على الوحي الذي نزل عليه ، لأنه نزل عليه فيما يزعمون أثناء هذه النوبات ؟ إن يكن ذلك فهو الخطأ البين ، كما قدمنا ، وهو ما ينكره العلم عليهم أشد الإنكار .

ولو أن نزاهة القصد كانت رائد هؤلاء المستشرقين لما حمَّلوا العلم ما ينكره . وهم إنما فعلوا ذلك ليخدعوا به أولئك الذين لا يهديهم علمهم إلى معرفة أعراض الصرع ، والذين تُمسكهم طمأنينتهم الساذجة إلى أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب وعن الرجوع إلى كتبه . ولو أنهم فعلوا لما تعذر عليهم أن يكشفوا عن خطأ هؤلاء المستشرقين خطأ مقصوداً أو غير مقصود ، ولتبينوا أن النشاط الروحي والعقليّ للإنسان يختفي تمام الاختفاء أثناء نوبات الصرع ، ويذر صاحبَه في حالة آلية محضة يتحرّك مثل حركته قبل نوبته ، أو يثور إذا اشتدت به النوبة فيصيب غيره بالأذى ، وهو أثناء ذلك غائب عن صوابه ، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحلّ به ، شأنه شأن النائم الذي لا يشعر بحركاته أثناء نومه ؛ فإذا انقضى ما به لم يذكر منه شيئاً . وشتان ما بين هذا وبين نشاط روحيّ قوي قاهر يصل صاحبَه بالملأ الأعلى عن شعور تام وإدراك يقيني ، ليُبلغ من بعد ما أوحي إليه . فالصرع يعطل الإدراك الإنساني وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس . أما الوحي فسموٌّ روحيٌّ اختص الله به أنبياءه ليلقّي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس . وقد يصل العلم إلى إدراك بعض الحقائق ومعرفة سُنَنها وأسرارها بعد أجيال وقرون ، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهي مع ذلك حقائق يقينية تهتدي قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقتها ، على حين تظل قلوبٌ عليها أقفالُها جاهلة إياها لغفلتها عنها .

الرجوع إلى العلم

كنا نفهم أن يقول هؤلاء المستشرقون . إن الوحي ظاهرة نفسية شاذة في

قصور العلم أحياناً

تقدير علمنا وما وصل إليه حتى اليوم ؛ فمن المتعذر إذاً تفسيرها على طريقته . لكن هذا القول إنما يدل على أن علمنا – على ما انفسح مداه واتسع أفقه – لا يزال قاصراً عن تفسير كثير من الظاهرات الروحية والنفسية . ولا عيب على العلم فى هذا ولا عجب منه ؛ فعلمنا ما يزال قاصراً عن تفسير بعض الظاهرات الكونية القريبة منا ، وطبيعة الشمس والقمر وغيرهما من الأفلاك والكواكب لا يزال أمر العلم فيها عند الفروض والاستنباطات ؛ وهذه الأفلاك جميعاً بعض ما تشهده العين المجردة ، وما تكشف الآلات المقرّبة لنا عن كثير من خفاياها . وإلى قرن مضى كانت مخترعات كثيرة تعتبر بعض إبداع الخيال فلا سبيل إلى أن تتجسَّد أمامنا ، وها هى ذى تجسدت وصرنا نحسبها من البسائط . والظاهرات الروحية والنفسية هى اليوم موضع ملاحظة العلماء ، لكنها لم تخضع بعد لسلطان العلم كى يستنبط قوانينها الثابتة . وكثيراً ما نقرأ عن أمور شهدها العلماء وأثبتوها ثم أثبتوا معها أنهم لا يجدون لها فى السنن الكونية التى استنبطها العلم تأويلا تطمئن إليه قواعده . فعلم النفس ما يزال بوجه عام ، غير ثابت السنن فى كثير من الشئون التى تعرض له . فإذا كان هذا واقعاً فى الحياة العادية ، كان البدار إلى محاولة تفسير ظاهرات الحياة جميعها على الطريقة العلمية محاولة عقيمة وإسرافاً معيباً .

ولقد كان الوحى بعض ما شهد المسلمون أثناء حياة محمد ، وكان القرآن كلما ذكره لهم زادهم به إيماناً . وكان منهم أذكياء غاية الذكاء ، وكان منهم يهود ونصارى طال الجدال بينهم وبين النبى العربى ، ثم آمنوا برسالته ولم يُنكروا عليه من أمر الوحى شيئاً . ولقد حاول قوم من قريش أن يتهموه بالسحر والجنون ثم أقروا أنه ليس بساحر ولا بمجنون وتابعوه وآمنوا بما جاء به . أما وذلك ثابت يقيناً ، فما يأباه العلم وتتنزه عنه قواعده إنما هو إنكار حدوث الوحى ، والحط من قدر صاحبه ونعته بأوصاف ينكرها العلم ولا يقرها . والعالم النزيه القصد إلى الحق لا يستطيع أكثر من أن يقرّر أن ما وصل إليه العلم حتى هذا الزمان يقصُر دون تفسير الوحى على الطريقة العلمية ، ولكنه لا يمكنه أن ينكر بحال من الأحوال حدوث ظاهرات هذا الوحى مما وصف أصحاب النبى

وكتَّاب الصدر الأوَّل للإسلام ، فإن أنكرها وحاول تأويلها واتخذ العلم باطلاً وسيلة إلى ذلك كان مبطلا متعنتاً . والتعنت والعلم لا يتَّفقان .

ولئن دلَّ هذا العنت على شيء لَعلىٰ شدة حرص أصحابه على التشكيك فى الإسلام ، وهم لم يستطيعوا الطعن على هذا الدين وقد رأوه ديناً بلغ غاية السموّ مع بساطة ويسر هما مصدر قوَّته ؛ لذلك لجأوا إلى حجة العاجز حين يدع الأثر العظيم لا يعرض له بمطعن لأن المطاعن لا ترقى إليه ، فهو يتناول مَنْ صدر هذا الأثر عنه أو كان وسيلته إلى الناس فيجعله هدف مطاعنه ، وهذا عجز لا يلجأ إليه عالم ، وهو بعدُ مناقض لقانون الطبيعة الإنسانية . ففى طبيعة الناس أن يُعْنَوْا بالآثار لذاتها ، وأن يستمتعوا بثمراتها دون بحث لا طائل تحته فى مصدرها ووسيلة حدوثها ونموها . وهم لذلك لا يُعَنُّون أنفسهم بالبحث فى أصل الشجرة التى أنبتت الثمرة التى تُعجبهم ، ولا فى السماد الذى أدَّى إلى ازدهارها ، ما داموا لا يفكرون فى غرس شجرة مثلها أو شجرة أشهى منها ثمراً . وهم حين يبحثون فى فلسفة « أفلاطون » أو مسرحيات « شكسبير » أو عن « رفائيل » لا يتلمَّسون المطاعن فى حياة هؤلاء العظماء عنوان مجد الإنسانية وفخارها حين لا يجدون على هذه الآثار مطعناً ، فإذا تلمَّسوا المطاعن التى لا سند لها من الحق ، لم يبلُغوا من ذلك غايتهم وإن كشفوا عن سوء رأى وحقد يُسقط حجتهم ويحول دون الاستماع لهم . ولن يغيِّر من ذلك أن يُفْرَغ هذا الحقد فى قالب العلم ؛ فالحقد لا يعرف الحقيقة . وكبُرت الحقيقة أن يكون الحقد لها مصدراً . وهذا شأن مطاعن أولئك المستشرقين على النبى العربى خاتم المرسلين ؛ ولذلك هوت مطاعنهم إلى الحضيض .

الطعن فى محمد عجز عن الطعن فى رسالته

فرغت الآن من تفنيد رأى أولئك المستشرقين الذين استندت إليهم رسالة ذلك المصرى المسلم ، وأقمت الدليل على فساده ، فلأنتقل إلى طائفة أخرى من الملاحظات التى أبداها بعض المشتغلين بالعلوم الدينية من المسلمين بعد ظهور الطبعة الأولى .

وأكبر ظنى ألا تتكرر أمثال هذه المطاعن الوضيعة التى يأباها العلم وينكرها .

فربما كان لهؤلاء المستشرقين من العذر عن إسرافهم من قبلُ أنهم كانوا يحسبون أنهم يكتبون للأوربيين المسيحيين ، وأنهم كانوا يقومون لذلك بواجب قومى أو بواجب دينى تمليه عليهم عقيدتهم وتدفعهم إلى اتخاذ العلم بغياً وسيلتهم إلى أدائه . أمّا اليوم ، وقد توثّقت أسباب الاتصال بالبرق والإذاعة ، وبعد أن وثقت الصحافة والطباعة بين أجزاء العالم ، فقد أصبح ما ينشر وما يقال فى أوربا أو فى أمريكا يعرف ليومه أو لساعته فى بلاد الشرق جميعاً . فواجب على الذين يريدون الاضطلاع برسالة المعرفة والحقيقة أن ينتزعوا عن عيونهم وعن قلوبهم غشاوة الحواجز القومية أو الجنسية أو الدينية ، وأن يقدّروا أن ما يقولونه أو يكتبونه سرعان ما يصل علمه إلى الناس جميعاً فيتناولونه فى مختلف بلاد الأرض بالنقد والتمحيص . فلتكن الحقيقة غير المقيَّدة بأى قيد هى رائدنا جميعاً ، ولنوجه كل همنا إلى أن نربط ما بين ماضى الإنسانية ومستقبلها ، على أنها وحدة كبرى لا تُفرّق بينها القوميات ولا الجنسيات ولا الأديان برابطة ترمى إلى تحقيق أسمى غاية تطلعت إليها الإنسانية منذ نشأتها ، رابطة الإخاء الحرّ فى ظل الحق والجمال ؛ فتلك وحدها هى الرابطة التى تكفل هداية الإنسانية فى سيرها الحثيث نحو السعادة والكمال .

أصحاب الملاحظات من المشتغلين بالشئون الإسلامية

بَيْنَا يأخذ علينا غلاة المصدّقين لِما أسرف فيه المستشرقون أنا نعتمد على المصادر العربية ونستند إلى ما ورد فيها ، إذا بعض المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية يأخذون علينا أننا نرجع إلى أقوال المستشرقين ولا نأخذ بكل ما سجّلته كتب السيرة وما روته كتب الحديث متصلا بسيرة النبى العربى ، وأننا لا ننهج نهج هذه الكتب . . .

وعلى هذا الأساس أبدى بعضهم ملاحظات فى أكثرها رفق ومجادلة بالتى هى أحسن ابتغاء الوصول إلى الحق ، وفى بعضها عنت أو جهل لا يرضى أيهما لنفسه من أوتى حظًّا من العلم . أما الذين جادلوا فى رفق فتنصرف أكثر ملاحظاتهم إلى أننا لم نذكر ما ورد فى كتب السيرة والحديث من المعجزات ، بل قلنا فى خاتمة الطبعة الأولى :

« فحياة محمد حياة إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغ . ولقد

كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يقدّر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحَى إليه ، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن ، ويصارح أصحابَه بذلك » وقلنا عند الكلام عن قصة شق الصدر : « إنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث أن حياة محمد كانت كلها حياة إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه مَنْ سبقه من أصحاب الخوارق . وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبى العربى كلها ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر فى خلق الله وأن سُنَّة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعيير القرآن للمشركين أنهم لا يفقهون ، أن ليست لهم قلوب يعقلون بها . ومن هؤلاء المجادلين فى رفق من يأخذ علينا أننا أوردنا مطاعن المستشرقين على النبى مقدمة للرد عليها ؛ وإيراد هذه المطاعن لا يتفق مع ما يجب فى نظرهم ، للنبى عليه السلام من إكبار وإكرام . أما الذين لجئوا إلى العنت فقد ظهروا قبل أن تظهر طبعة الكتاب الأولى ، وقبل أن يجمع هذا البحث فى كتاب ، وأشد ما استطاعوا أن يأخذوه علىّ أننى جعلت عنوان بحثى « حياة محمد » ، من غير أن أردف هذا العنوان بالصلاة والسلام على رسول الله ، وإن ذكرتها غير مرة فى غضون البحث . وكنت أحسبهم يرجعون عن عنتهم بعد أن زيَّنت عنوان الطبعة الأولى بالآية الكريمة : (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً)[1] وبعد أن تناول الكتاب السيرة على الطريقة التى تناولها بها . لكنهم أصرّوا على ملاحظتهم ، فدلوا بذلك على تعنتهم وعلى جهلهم مع ذلك بحقائق الإسلام اكتفاء منهم باتباع ما وجدوا عليه آباءهم .

الصلاة على النبى

ونبدأ بدفع هذه الملاحظة الخاطئة آملين ألاّ يعود أصحابها وألاّ يعود غيرهم إلى إبدائها على أى كتاب يظهر وإنما ندفعها بالرجوع إلى كتب الأئمة من علماء المسلمين حتى يعرف الناس جميعاً سموّ الإسلام فوق القيود اللفظية

---

(١) سورة الأحزاب آية ٥٦ .

ويقدروا قيمة الحديث : « إنّ هذا الدين متينٌ فأوْغِل فيه برفْق ، فإن المَنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . فقد ذكر أبو البقاء فى « كليَّاته » أن « كتابة الصلاة فى أوائل الكتب قد حدثت فى أثناء الدولة العباسية ، ولهذا وقع كتاب البخارىّ وغيره عارياً عنها » . وكثرة الأئمة على أن الصلاة على النبي يكفى أن يذكرها المرء مرةً واحدة فى حياته . قال ابن نجيم فى « البحر الرائق » : « وأما مُوجَب الأمر فى قوله تعالى : (صَلُّوا عليه) فهو افتراضها فى العمر مرةً واحدة فى الصلاة أو خارجَها ؛ لأن الأمر لا يقتضى التكرار ، وهذا بلا خلاف » . والخلاف بين الشافعى وغيره على وجوب الصلاة على النبى أثناء الصلاة لا خارجها . والصلاة هى الدعاء : ومعناها فى الآية أن يترحم الله على النبي ويسلّم » . هذا ما أورده علماء المسلمين وأئمتهم فى هذا الموضوع . وهو يدلّ على إسراف الذين يزعمون وجوب الصلاة على النبى كلما ذكر اسمه وكلما كتب ، وعلى خطئهم خطأ ما كانوا يقعون فيه إذا عرفوا ما قدمنا وأن كبار المحدثين لم يكونوا يكتبون الصلاة فى أوائل الكتب .

دفع المطاعن وطريقته

أما الذين قالوا بأن مقام النبى الكريم يوجب عدم ذكر مطاعن المستشرقين والمبشرين عليه مقدمةً للرد عليها ، فلا سند لهم فى قولهم هذا إلا عاطفة إسلامية يحمدون عليها ؛ أما من الناحيتين العلمية والدينية فلا سند لهم ، والقرآن الكريم يذكر ما كان يقول المشركون عن النبى ويدفعه بالحجة البالغة . هذا ، وأدب القرآن أقوم أدب وأسماه ؛ فهو يذكر اتهام قريش محمداً بالسحر والجنون ، وهو يقول : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهم يقولون إنما يُعَلِّمُه بَشَرٌ لِسَانُ الذى يُلْحِدونَ إليه أَعْجَمِىٌّ وهذا لِسَانٌ عربىٌّ مُبِينٌ) (١) . وهو يجرى فى ذلك بالشىء الكثير . ثم إن الحجة لا تُدفع علميًّا إلا إذا ذُكرت ودوّنت بأمانة ودقة . ولقد قصدت من هذا الكتاب إلى البحث العلمى توخياً للحقيقة العلمية وحدها . وقصدت به إلى أن يقرأه المسلمون وغير المسلمين آمِلاً أن أقنعهم جميعاً بهذه الحقيقة العلمية . ولا تُبْلَغ هذه الغاية إلا إذا كان الباحث نزيهاً فى حرصه على الحقيقة ، لا يتقيد

(١) سورة النحل آية ١٠٣ .

باعتبار غير هذا الحرص ، ولا يتردد فى الاعتراف بالحق أيًّا كان مصدره .

كتب السيرة وكتب الحديث

ونعود إلى المأخذ الأول ، الذى أخذه علىّ بعض المشتغلين بالعلوم الدينية الإسلامية فى رفق ومجادلة بالتى هى أحسن . ذلك قولهم إننى لم آخذ بما سجلته كتب السيرة وكتب الحديث ، ولم أنهج فى التعبير عن مختلف الحوادث نهجها . ولقد كان يكفينى ردًّا على هذا أننى أجرى فى هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر ، وأننى أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة فى نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون . وما كان لى ، وذلك شأنى ، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها ، وبين هذين وبين النهج والأساليب فى عصرنا الحاضر بون عظيمٌ ؛ أيْسَرُه أن النقد فى الكتب القديمة لم يكن مباحاً بالقدر الذى يباح به اليوم ، وأن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية ، على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالنهج العلمى والنقد العلمى . كان يكفينى هذا تسويغاً للطريقة التى عالجت بها بحثى ودفعاً لكل اعتراض عليه ، لكنى رأيت من الخير أن أتبسَّط بعض الشىء فى بيان الأسباب التى دعت المفكرين من أئمة المسلمين فيما مضى ، وتدعوهم اليوم ، كما تدعو كل باحث مدقق ، إلى عدم الأخذ جزافاً بكل ما ورد فى كتب السيرة وفى كتب الحديث ، وإلى التقيّد بقواعد النقد العلمى تقيداً يعصم من الزلل ما استطاع الإنسان أن يعصم نفسه منه .

الخلاف بين هذه الكتب

وأوَّل هذه الأسباب ما بين هذه الكتب من خلاف فى رواية الكثير من الأمور المنسوبة إلى النبىّ العربىّ منذ مولده إلى وفاته ؛ فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روته من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء ، كان يزيد وينقص دون مسوّغ إلا اختلاف الأزمان التى وضعت هذه الكتب فيها . فقديمها أقل رواية للخوارق من متأخرها . وما ورد من الخوارق فى الكتب القديمة أقل بعداً عن مقتضى العقل مما ورد فى كتب المتأخرين . وهذه سيرة ابن هشام أقدم السير المعروفة اليوم تُغفل كثيراً مما ذكره أبو الفِداء فى تاريخه ، ومما ذكره القاضى عياض فى كتاب الشفاء ، ومما ذُكر فى كتب المتأخرين جميعاً .

وكذلك الشأن فى كتب الحديث واختلافها ؛ فبعضها يروى قصة من القصص ، وبعضها يُغفلها وبعضها يضعفها . فلا بدّ للباحث فى هذه الكتب جميعاً بحثاً علميًّا أن يضع مقياساً يعرض عليه ما اختلفت فيه وما اتفقت عليه . فما صدَّقه هذا المقياس أقرَّه الباحث ، وما لم يصدّقه وضعه موضع التمحيص إذا كان مما يقبل التمحيص .

وقد أخذ السلف بهذه الطريقة فى بعض الأمور وأغفلوها فى بعضها . من ذلك قصة الغرانيق التى تذهب إلى أن النبى لمَّا ضاق ذرعاً بسادات قريش تلا عليهم سورة النجم ، حتى إذا بلغ منها قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والعُزَّى . ومناة الثَّالثة الأُخْرَى)[1] قرأ : « تلك الغرانيقُ العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » ، ثم مضى فى قراءة السورة إلى آخرها وسجد فسجد المسلمون والمشركون معه . هذه القصة رواها ابن سَعْد فى طبقاته الكبرى ولم يعرض لها بنقد . ووردت فى الصحيح من بعض كتب الحديث مع اختلاف فى الرواية عن الغرانيق . أمَّا ابن إسحاق فروى هذه القصة وقال : إنها من وضع الزنادقة . وذكرها ابن كثير فى كتاب « البداية والنهاية فى التاريخ » فقال : « ذكروا قصة الغرانيق ، وقد أحببنا الإضراب عن ذكرها صفحاً لئلا يسمعها من لا يضعها فى موضعها . إلا أن أصل القصة فى الصحيح » ، ثم ذكر حديثاً عن البخارى فى أمرها وأردفه بقوله : « انفرد به البخارى دون مُسلم » . أما أنا فلم أتردد فى نفى القصة من أساسها والاتفاق مع ابن إسحاق فى أنها من وضع الزنادقة ؛ وسقت فى تفنيدها أدلَّةً لم أكتف فيها بما فى هذه القصة من نقض ما للرسل من عصمة فى تبليغ رسالات ربهم ، بل استعنت فيها كذلك بقواعد النقد العلمى الحديث .

وسبب آخر يوجب تمحيص ما ورد فى كتب السلف ونقده نقداً دقيقاً على الطريقة العلمية ، أن أقدمها كتب بعد وفاة النبى بمائة سنة أو أكثر ، وبعد أن فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب : فما بالك بالمتأخر مما كتب فى

العصر الذى كتبت فيه

---

(١) آيتا ١٩ ، ٢٠ .

أشد أزمان التقلقل والاضطراب ؟ وقد كانت المنازعات السياسية سبباً فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودوّنوا ما اعتقدوه صحيحاً منه من جهد وعنت أدّى إليهما حرص هؤلاء الجامعين على الدقة فى التمحيص حرصاً لا يتطرّق إليه ريب . ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخارى من مشاقّ وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع الحديث وتمحيصه ، وما رواه بعد ذلك من أنه ألفى الأحاديث المتداولة تربى على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف ، وهذا معناه أنه لم يصحّ لديه من كل مائة وخمسين حديثاً إلا حديث واحد . أمّا أبو داود فلم يصح لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة . وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث . وكثير من هذه الأحاديث التى صحّت عندهم كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم إلى نفى الكثير منها ، كما كان الشأن فى مسألة الغرانيق . فإذا كان ذلك شأن الحديث ، وقد جَهد فيه جامعوه الأوّلون ما جهدوا ، فما بالك بما ورد فى المتأخر من كتب السيرة ؟ وكيف يستطاع الأخذ به دون التدقيق العلمى فى تمحيصه !

أثر المنازعات السياسية الإسلامية

والواقع أن المنازعات السياسية التى حدثت بعد الصدر الأوّل من الإسلام أدّت إلى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها . فلم يكن الحديث قد دُوّن إلى عهد متأخر من عصر الأمويين . وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه ، ثم لم يجمع إلا فى عهد المأمون بعد أن أصبح « الحديث الصحيح فى الحديث الكذب كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود » على قول الدَّارَقُطْنِىِّ . ولعل الحديث لم يجمع فى الصدر الأوّل من الإسلام لِما كان يروى عن النبىّ أنه قال : « لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن . ومن كتب شيئاً غير القرآن فليَمْحُه » .

جمع الحديث

على أن أحاديث النبىّ كانت متداولة على الألسن من يومئذ ، وكانت الروايات تختلف فيها . ولقد أراد عمر بن الخطاب أثناء خلافته أن يتدارك الحال فى ذلك بأن يكتب السنن ، فاستفتى أصحاب النبى فى ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها . فطفق عمر يستخير الله شهراً ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له [1] فقال : « إنى

(١) أى خلق له أسباب العزم من القوة والصبر .

كنت أريد أن أكتب السنَن وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبداً » وعدل عن كتابتها ، وكتب فى الأمصار عنها : « من كان عنده شىء فليَمْحُه » . وظلّت الأحاديث بعد ذلك تتوالد وتتداول ، حتى جُمِع ما صح لدى الجامعين منها فى عهد المأمون .

ومع ما أبداه جامعو الحديث من حرص على الدقّة لا ريب فيه ، فقد جرّح بعض العلماء كثيراً من الأحاديث التى أثبتها جامعوها على أنها صحيحة . قال النووىّ فى شرح مسلم : « استدرك جماعة على البخارى ومُسْلِم أحاديث أخَلاَّ بشرطهما فيها ونزلت عن درجة ما التزماه » . ذلك أن الجامعين قد جعلوا مقياس السَّنَد والثقة بالرواية أساسهم فى قبول الحديث أو رفضه ؛ وهو مقياس له قيمته ؛ لكنه وحده غير كاف . وعندنا أنّ خير مقياس يقاس به الحديث ، وتقاس به سائر الأنباء التى ذكرت عن النبىّ ، ما روى عنه عليه السلام أنه قال : « إنكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله . . فما وافقه فنى ، وما خالفه فليس عنى » . وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى ، وما زال المفكرون منهم يأخذون به إلى يومنا الحاضر . قال ابن خلدون : « وإننى لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم صحابىّ يخالف ظاهر القرآن وإن وثَّقوا رجاله ؛ فرب راوٍ يُوثَّق للاغترار بظاهر حاله وهو سيئ الباطن . ولو انْتُقِدَت الروايات من جهة فحوى متنها ، كما تُنْتَقد من جهة سندها ، لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض . وقد قالوا : إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة فى الشريعة أو البرهان العقلى أو للحس والعيان وسائر اليقينيات » . وهذا المقياس الذى جاء فى حديث النبى ، والذى ذكره ابن خلدون فيما تقدّم ، يتفق مع قواعد النقد العلمى الحديث أدقّ اتفاق .

القياس الصحيح للحديث

ومن الحق أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبى حدًّا دعا الدعاة فيهم إلى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات . ومنذ قتل أبو لؤلؤة غلام المغيرة عمرَ بن الخطاب ، ومنذ تولّى عثمان بن عفان الخلافة ، بدأت الخصومة التى كانت بين بنى هاشم وبنى أمية قبل رسالة النبىّ العربى تظهر من

جديد . فلما قُتل عثمان وقامت الحرب الأهليَّة بين المسلمين وخاصمت عائشة عليًّا وأيَّدَ عليًّا من أيَّدَ ، بدأت الأحاديث الموضوعة تكثر إلى حد أنكره علىٌّ ابن أبى طالب ، حتى رُوى عنه أنه قال : « ما عندنا كتابٌ نقرؤه عليكم إلا ما فى القرآن وما فى هذه الصحيفة أخذتُها من رسول الله فيها فرائض الصّدقة » .
على أن ذلك لم يقف رُواة الحديث عن روايته ، ولم يقف قوماً عن وضع الحديث لِهوى يدعون الناس إليه ، أو لفضائل يزعمون أن الناس أحرص على اتباعها حين يُنسب إلى رسول الله حديثُها . فلما استتبَّ الأمر لبنى أميَّة جعل المحدثون المتصلون ببنى أمية يضعفون ما يروى عن علىّ بن أبى طالب وفضائله ، فى حين جعل أنصار علىّ وأهل بيت النبىّ يزيدون فى هذه الأحاديث ويحاولون إذاعتها بكل الوسائل ، كما جعلوا يُعرضون عما يروى عن عائشة أمّ المؤمنين .
ومن طريف ما يروى فى ذلك ما رواه ابن عَسَاكر عن أبى سعد إسماعيل ابن المُثَنَّى الإستراباذىّ ، إذ كان يعظ بدمشق فقام إليه رجل فسأله عن قول النبى : أنا مدينة العلم وعلىّ بابها . فأطرق إسماعيل لحظة ثم رفع رأسه وقال : نعم ، لا يعرف هذا الحديث عن النبى إلا من كان صدراً فى الإسلام ، إنما قال النبىُّ : أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسُها وعمر حِيطانها وعثمان سقفها وعلىٌّ بابها . وقد سُر الحاضرون بذلك وطلبوا إلى إسماعيل أن يذكر لهم إسناده فاغتمّ لعجزه . وكذلك كانت الأحاديث تلفق لأغراض سياسية ولأهواء عاجلة .
وقد كثرت هذه الأحاديث الموضوعة كثرةً راعت المسلمين ، لمنافاة الكثير منها لما فى كتاب الله . ولم تنجح المحاولات التى بُذلت لوقفها فى زمن الأمويين . فلما كانت الدولة العباسية ، وجاء المأمون بعد قرابة قرنين من وفاة النبىّ كان قد أذيع من هذه الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف ومئاتها ، وكان بينها من التضارب وفيها من التهافت مالا يخطر بالبال . إذ ذاك قام الجامعون بجمع الحديث وتولَّى كتَّاب السيرة كتابتها . فقد عاش الواقدى وابن هشام والمدائنى وكتبوا كتبهم أيام المأمون . وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة فى آرائه مخافة ما يحلّ بهم . لذلك لم يطبقوا ، بما يجب من الدقة ، هذا المقياس الذى رُوى عن النبى عليه السلام من وجوب عرض ما يروى عنه على القرآن فما وافق القرآن فمن الرسول وما خالفه فليس عنه.

جامعو الحديث فى عهد المأمون

ولو أن هذا المقياس طبق بما يجب من دقة لتغير بعض ما كتب هؤلاء الأعلام . فالنقد العلمى على الطريقة الحديثة لا يختلف عن هذا المقياس فى شيء . . . لكن أحوال العصر اقتضت هؤلاء الأعلام أن يطبقوا هذا المقياس على طائفة مما كتبوا ثم لا يطبقونه على طائفة أخرى . وقد ورث المتأخرون عن السلف هذه الطريقة فى كتابة السيرة لاعتبارات غير اعتباراتهم . ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبّقوا الحديث على سيرة النبيّ العربى فى جملتها وفى تفصيلها ، دون استثناء لأى نبأ رُوى عنها لا يتفق مع ما ورد فى القرآن الكريم ؛ فما لم يكن مما تجرى به سُنَّة الكون ولم يرد ذكره فى كتاب الله لم يثبتوه وما كان مما تجرى به سُنَّة الكون مَحَّصوه ، ثم أثبتوا منه ما ثبت لديهم بالدليل اليقينى ، وتركوا ما لم يقم الدليل عليه .

وقد أخذ بهذا الرأى جماعة من كبار الأئمة من سلف المسلمين ، وتابعهم عليه أئمة الإسلام إلى يومنا هذا . قال الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغىّ فى التعريف بهذا الكتاب ما يأتى : « لم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن ، وهى معجزة عقلية . وما أبدع قول البوصيرى :

لم يَمْتَحِنّا بما تعيـــا العقولُ به حرصاً علينا فلم نَرْتَبْ ولم نَهِم »

وقال المرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار (فى عددها الذى صدر فى ٣ من مايو سنة ١٩٣٥) ، ردًّا على الذين اعترضوا على كتابنا هذا ، ما نصه : « أهمّ ما ينكره الأزهريون والطُّرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات . وقد حررتها فى كتاب الوحى المحمدى من جميع مناحيها ومطاويها فى الفصل الثانى وفى المقصد الثانى من الفصل الخامس ، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالذات ، ونبوّة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته لا يمكن فى عصرنا إثبات آية إلا بها ، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة ؛ لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى ، وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل ، وبيَّنت سبب هذا الافتتان والفروق بين ما يدخل منها فى عموم السنن الكونية والروحية وغيره ».

وقال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى أول كتاب (الإســـلام والنصرانية) : « فالإسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى ؛ فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يُخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية . وقد اتفق المسلمون ، إلا قليلا ممن لا يعتد برأيهم فيه ، على أن الاعتقاد بالله مقدّم على الاعتقاد بالنبوّات ، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ، ولا من الكتب المنزلة ؛ فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله ، وبأنه يجوز أن يُنزل كتاباً أو يرسل رسولا » .

وأكبر ظنى أن الذين كتبوا السيرة كانوا يؤثرون هذا الرأى ، لولا أحوال العصر أيام المتقدّمين ، ولولا أن ظن المتأخرون فى ذكر ما لم يرد به القرآن من خوارق ومعجزات ما يزيد الناس إيماناً على إيمانهم ؛ لذلك حسبوا أن ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضرّ ، ولو أنهم عاشوا إلى زماننا هذا ، ورأوا كيف اتخذ خصوم الإسلام ما ذكروه منها حجة على الإسلام وعلى أهله ، لالتزموا ما جاء به القرآن ، ولقالوا بما قال به الغزالى ومحمد عبده والمراغىُّ وسائر المدققين من الأئمة. ولو أنهم عاشوا فى زماننا هذا ، ورأوا كيف تزيغ هذه الروايات قلوباً وعقائد بدلا من أن تزيدها إيماناً وتثبيتاً لكفاهم ذكر ما فى كتاب الله من آيات بينات وحجج دامغة .

الروايات التى لا يقرها العقل والعلم

أمّا ومضرّة الروايات التى لا يقرّها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة فمن الحق على كل من يعرِض لهذه الأمور أن يراعى جانب الدقة العلمية فى تمحيصها خدمة للحق وخدمة للإسلام ولتاريخ النبى العربى ، وتمهيداً لما يجلوه البحث فى هذا التاريخ العظيم من حقائق تنير أمام الإنسانية بسبيلها إلى حضارتها الصحيحة .

القرآن والمعجزات

ولو أننا عرَضنا كثيراً من الأمور التى ترويها كتب السيرة وكتب الحديث على ما فى القرآن لَمَا وَسِعنا إلا أن نأخذ برأى الأئمة المدققين . فقد كان

أهل مكة يطلبون إلى النبيّ أن يجرى ربه على يديه المعجزات إذا أرادهم أن يصدقوه ، فنزل القرآن يذكر ما طلبوا ويدفعه بحجج مختلفة . قال تعالى : (وقالوا لن نُؤمِنَ لك حتى تفجرَ لنا من الأرضِ يَنْبُوعاً . أو تكونَ لك جَنَّةٌ من نَخيل وعِنَب ٍفَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تفجيراً . أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفاً . أو تأْتِيَ بالله والملائكة قَبيلاً . أو يكونَ لك بيتٌ من زُخْرُفٍ . أو تَرْقَى فى السماء ولن نُؤمِنَ لرُقِيِّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نَقْرَؤُهُ قل سبحان رَبِّى هل كنتُ إلاَّ بَشَراً رسولا) (١)

وقال تعالى : (وَأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم لئنْ جاءتهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها قُلْ إنَّما الآياتُ عندَ الله وما يُشْعِرُكم أنَّها إذا جاءتْ لا يُؤْمِنون . ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأَبصارَهم كما لم يُؤْمِنوا به أولَ مَرة ٍونَذَرُهم فى طُغْيانهم يَعْمَهونَ . ولو أنَّنا نَزَّلْنا إليهم الملائكة وكلَّمَهُم الموتى وَحَشَرْنا عليهم كل شيءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيُؤْمنوا إلاَّ أن يشاءَ الله ولكنَّ أكثرهم يجهلون) (٢)

ولم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافةً ، على اختلاف عصورهم ، برسالة محمد إلا القرآن الكريم . هذا مع أنه ذكر المعجزات التى جرت بإذن الله على أيدى مَنْ سبق محمداً من الرسل ، كما أنه جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد وما وجِّه إليه الخطاب فيه . وما ورد فى الكتاب عن النبيّ العربىّ لا يخالف سُنَّة الكون فى شيء .

المعجزة الكبرى

أمَّا وذلك ما يجرى به كتاب الله وما يقتضيه حديث رسول الله ، فأىّ داعٍ دعا طائفة من المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم إلى إثبات خوارق مادية للنبى العربى ؟ إنما دعاهم إلى ذلك أنهم تلوا ما جاء فى القرآن عن معجزات مَنْ سبق محمداً من الرسل ، فاعتقدوا أن هذا النوع من الخوارق المادّية لازم لكمال الرسالة فصدَّقوا ما رُوى منها وإن لم يرد فى القرآن ، وظنوا

---

(١) سورة الإسراء من الآيات ٩٠ إلى ٩٣ .

(٢) سورة الأنعام الآيات من ١٠٩ إلى ١١١ .

أنها كلما ازداد عددها كانت أدلَّ على هذا الكمال وأدعى إلى أن يزداد الناس بالرسالة إيماناً . ومقارنة النبي العربي بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق . فهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهو مع ذلك أوّل رسول بعثه الله للناس كافةً ولم يبعثه إلى قومه وحدهم ليبين لهم . لذلك أراد الله أن تكون معجزة محمد معجزة إنسانية عقلية ، لا يستطيع الإنس والجن الإتيانَ بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . هذه المعجزة هي القرآن وهي أكبر المعجزات التي أذِن الله بها . وقد أراد جلَّ شأنه منها أن تُثبت رسالة نبيه بالحجة البينة والدليل الدامغ ، وأراد لدينه أن ينتصر بفضل منه في حياة رسوله ، ليرى الناس في انتصاره قوَّة سلطانه ولو أراد الله أن تكون المعجزة المادية وسيلةً إلى اقتناع من نزل الإسلام على رسوله بينهم ، لكانت وَلذكرها في كتابه . لكن من الناس من لا يصدّقون إلا ما يقرّه العقل ؛ لذلك كانت الوسيلة إلى إقناع الناس كافَّة برسالة محمد أوثق ما تكون اتصالا بقلوبهم وعقولهم ، فجعل الله القرآن ، حجته البالغة ، معجزة النبي الأميّ إليهم ، وجعل انتضار دينه وقوة الإيمان به آتيين من طريق الدليل اليقينيّ والاقتناع الصادق . والدين الذي يقوم على هذا الأساس أدعى إلى أن يؤمن الناس جميعاً به ، على كر العصور واختلاف الأمم وتباين اللغات .

ولو أن أمَّة غير مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين ولم تحتج إلى التصديق بمعجزة غير القرآن لتؤمن ، لَمَا طعَن ذلك في إيمانها ولا نقص من إسلامها . فما دام الوحي لم ينزل بها فلا جُناح على من يؤمن بالله ورسوله أن يجعل ما يتصل به من أمرها محلّ تمحيص ؛ فما ثبت بالحجة اليقينية أخذ به ، وما لم يثبت بها فله فيه رأيه ، ولا تثريب عليه . فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى معجزة ؛ ولا يحتاج إلى أكثر من النظر في هذا الكون الذي خلقه الله . والشهادة برسالة محمد ، الذي دعا الناس بأمر ربه إلى هذا الإيمان وجنَّبهم ما يزيغ قلوبهم عنه ، لا تحتاج إلى معجزة غير القرآن ، ولا تحتاج إلى أكثر من تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله إليه .

ولو أن أمَّة غير مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين من غير حاجة إلى التصديق

بمعجزة غير القرآن ، لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين : رجل لم يتلجلج قلبه ولم يتعثَّر فؤاده ، بل هداه الله إلى الإيمان أول ما دُعى إليه ، كما هدى أبا بكر ، فآمن وصدَّق من غير تردُّد ، وآخر لم يلتمس إيمانه فيما وراء سُنَّة الكون من خوارق ، بل التمسه فى خلق هذا الكون الفسيح الأرجاء الذى يقصُر تصوُّرنا دون إدراك حدوده فى الزمان أو فى المكان ، وتجرى أموره مع ذلك على سنن لا تحويل لها ولا تبديل ، فاهتدى من سُنَّة الله فى الكون إلى بارئه ومصوّره . سواء عند هذين أكانت الخوارق أم لم تكن ، بل هما لا يفكران فى هذه الخوارق إلا على أنها من آيات فضل الله . ومثل هذا الإيمان يراه الكثيرون من أئمة المسلمين مثلاً أسمى فى الإيمان ، ويذهب بعضهم كذلك إلى أن الإيمان الصحيح يجب ألاّ يكون مصدره خوفاً من عقاب الله أو طمعاً فى ثوابه ، بل يجب أن يكون إيماناً خالصاً بالله وفناء تامًّا فيه . إليه يرجع الأمر كله ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الإيمان عند أئمة المسلمين

مثل الذين يؤمنون اليوم بالله ورسوله من غير أن تحملهم المعجزات على الإيمان ، كمثل الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبىّ العربىِّ . فلم يذكر التاريخ أن المعجزات حملت أحداً منهم على أن يؤمن ؛ بل كانت حجةُ الله البالغة عن طريق الوحى على لسان نبيه ، وكانت حياة النبىّ ، فى سموّها البالغ غاية السمو ، هى التى دعت إلى الإيمان مَنْ آمن منهم . وإن كتب السيرة جميعاً لتذكر أن طائفة من الذين آمنوا برسالة محمد قبل الإسراء قد ارتدَّت عن إيمانها حين ذكر النبىّ أن الله أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله . ولم يؤمن سُراقة بن جُعْشُم ، لمَّا اتَّبع محمداً حين هجرته إلى المدينة ليأتى أهل مكة به حيًّا أو ميتاً طمعاً فى مالهم ، على رغم ما روت كتب السيرة من معجزة الله فى سراقة وفى جواده . ولم يذكر التاريخ أن مشركاً آمن برسالة محمد لمعجزة من المعجزات ، كما آمن سَحَرَةُ فرعون لمَّا لَقِفتْ عصا موسى ما صنعوا .

المؤمنون فى حياة النبى

ثم إن ما ورد فى كتب السيرة والحديث عن المعجزات قد اختلف فيه

الغرانيق وتبوك

أحياناً . وقد كان على الرغم من ثبوته فى كتب الحديث موضع النقد أحياناً أخرى وقد أشرنا إلى مسألة الغرانيق فى هذا التقديم وذكرناها مفصلة فى الكتاب . وقصة شق الصدر قد وقع الاختلاف فيها على ما روته حليمة ظئر النبى عنها لأمه ، كما وقع على الزمن الذى حدثت فيه من سنّ محمد . وما روت كتب السيرة وكتب الحديث عن قصة زيد وزينب مردود من أساسه ، للأسباب التى أبديناها عند الكلام عن هذه القصة فى أثناء الكتاب . وقد وقع مثل هذا الاختلاف على ما حدث أثناء مسيرة جيش العُسْرة إلى تَبُوك ؛ فقد روى مسلم فى صحيحه عن مُعَاذ بن جَبَل أنّ النبى قال لمن سار معه إلى تبوك : إنكم ستأتون إن شاء الله غداً عينَ تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يُضْحِى النهار : فمن جاءها منكم فلا يَمَسَّ من مائها شيئاً حتى آتى . فجئناها وقد سَبَقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تَبِضُّ بشىء من ماء . قال : فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل مَسِستما من مائها شيئاً ! قالا : نعم . فسبَّهما النبى صلى الله عليه وسلم وقال لهما ما شاء الله أن يقول . قال : ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شىء . قال : وغَسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر – أو قال غزير ، شك أبو علىّ أيهما قال – حتى استقى الناس . ثم قال : يُوشك يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنَاناً » [١] .

فأما كتب السيرة فتروى قصة تبوك على صورة أخرى لا يرد فيها ذكر المعجزة ، وإنّما تجرى فيها الرواية على نحو غير ما ورد فى صحيح مسلم . من ذلك ما رواه عنها ابن هشام إذ قال :

« قال ابن إسحاق : فلما أصبح الناسُ ولا ماء معهم شَكَوْا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء . قال ابن إسحاق : فحدَّثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لَبيد عن رجال من بنى عبد الأشهل ، قال : قلت لمحمود : هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم ؟ قال :

---

(١) صحيح مسلم ج ٧ ص ٦٠ طبعة الآستانة سنة ١٣٣٢ هـ .

نعم ! والله إن كان الرجل لَيعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفى عشيرته ثم يلبَس بعضُهم بعضاً على ذلك . ثم قال محمود : لقد أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سار ؛ فلما كان من أمر الماء بالحجر ما كان ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعا فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا أقبلنا عليه نقول : ويحك ! هل بعد هذا شيء ؟ قال سحابةٌ مارَّة » .

وهذا الاختلاف فى الوقائع يجعل تأكيدها والقطع بها أمراً غير ميسور فى نظر العلم ، ويقتضى الذين يمحصونها ألاّ يقفوا عند القول بالراجح والمرجوح قولاً لا يُثبت إحدى الروايتين ولا ينفى الأخرى ؛ وأقلُّ ما يجب عليهم إذا لم تثبت الرواية عندهم أن يُغفلوها ؛ فإذا عثر غيرهم من بعدُ على الأدلة اليقينية عليها فذاك ، وإلا بقيت غير ثابتة ثبوتاً علميًّا

طريقتى فى البحث

هذه هى الطريقة التى جريت عليها منذ بدأت هذا البحث فى حياة محمد صاحب الرسالة الإسلامية . وأنا منذ اعتزمت القيام بهذه الدراسة إنما أردتها دراسة علميَّة على الطريقة الحديثة خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده . ذلك ما قلت فى تقديم هذا الكتاب ، كما رجوت فى خاتمة طبعته الأولى أن أكون قد وفِّقت لتحقيق ما قصدت إليه ، وأن يكون البحث قد تم بحثاً علمياً لوجه الحقيقة العلمية وحدها ، وأن أكون قد مهَّدْت به السبيل إلى مباحث فى موضوعه أكثر استفاضة وعمقاً ، تجلو أمام العلم من المسائل النفسية والروحية ما يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى تلتمسها . وما أشك أن التعمُّق فى البحث يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل إلى تعليلها ، ثم إذا مباحثُ علم النفس تفسّرها وتجلوها واضحة للمتعقلين . وكلما وقعت الإنسانية على أسرار الكون الروحية والنفسية ازدادت صلة بالكون ، وازدادت سعادة بهذه الصلة ؛ كما أنها ازدادت استمتاعاً بما فى الكون لمَّا ازدادت اتصالا بأسرار القوّة والحركة الكمينة فيه حين عرفت الكهربا والأثير .

من أجل ذلك كان خليقاً بكل من يتصدّى للبحث فى مثل هذا الموضوع

أن يتوجَّه به إلى الإنسانية كلها لا إلى المسلمين وحدهم . فليست الغاية الصحيحة منه دينية محضة كما قد يظن بعضهم ، بل الغاية الصحيحة منه أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذى دلَّها محمد على طريقه . وإدراك هذه الغاية غير ميسور إذا لم يهتد الإنسان إلى هذه السبيل بمنطق عقله ونور قلبه ، راضىَ النفس بهذا المنطق ، منشرح الصدر إلى هذا النور ؛ لأن مصدرهما المعرفة الصحيحة والعلم الصحيح . فالتفكير الذى لا يعتمد على المعرفة الدقيقة ولا يتقيَّد مع ذلك بالطرائق العلمية ، كثيراً ما يعرِّض صاحبَه لأن يخطئ ويكبو ، وكثيراً ما ينأى لذلك به عن محجة الحق ، فطبيعتنا الإنسانية تجعل تفكيرنا يتأثَّر بِمزاجنا تأثراً عظيماً . وكثيراً ما يختلف المتساوون علماً فى تفكيرهم لغير سبب إلا اختلاف أمزجتهم مع إخلاصهم جميعاً فى القصد والغاية . فمن الناس العصبىُّ المِزاج ، الحاد التفكير ، السريعُ إلى الاندفاع فيه . ومنهم الصوفىُّ النزعة ، الرواقىُّ المزاج ، الزاهد فى المادَّة وآثارها . ومنهم المادىُّ الهوى ، المتأثر بماديته تأثراً يحول بين تفكيره وبين ما يحسّه من قُوًى تحيط به هى التى تسيطر على المادة . وغير هؤلاء كثيرون تختلف أمزجتهم ويختلف لذلك نظرهم إلى الأمور وتقديرهم إياها . وهذا الاختلاف نعمة كبرى على الإنسانية فى ميادين الفن وفى الحياة العلمية ، لكنه نقمة على العلم وعلى التفكير القائم على أساسه ابتغاء أمثال الحياة العُليا لخير الإنسانية جمعاء . ودراسة التاريخ يجب أن تكون غايتُها نِشْدَانَ الأمثال العليا من حقائق الحياة ، ويجب لذلك أن يتجنب من يدرس التاريخ سلطان الهوى وحكم المِزاج . ولا سبيل إلى تجنبها إلا أن يتقيَّد الإنسان بالطريقة العلمية أدق التقيد ، وألاّ يجعل من العلم والبحوث العلمية فى التاريخ أو غير التاريخ مطيَّة لإثبات هوى من أهوائه أو نزوة من نزوات مزاجه .

بحوث المستشرقين

ولقد تأثر كثير من المستشرقين فى بحوثهم التى صيغت صيغة العلم بأهواء أمزجتهم ، وكذلك فعل كثيرون من كتاب المسلمين ، وأعجب الأمر فى هؤلاء وأولئك أن يتخذ كلٌّ مما تزينه نزواتُ مزاج الآخر من الوقائع ما يقيمه أساساً لكتابة يزعمها علمية ابتغى بها وجهَ الحق ، فى حين هو يتأثر فيها بمزاجه وبهواه

أشد التأثر . ودليل ذلك أنه لو كلَّف نفسه بعض الجهد فى تمحيص ما كتب الآخر تمحيصاً نزيهاً لتداعت أمام نظره الوقائع التى أبدعها خيال صاحبه . ولو أنه فعل وتجرَّد جهد طاقته من هوى نفسه ، وتحصَّن بقواعد العلم وطرائقه ، لكانت كتابته أبقى فى النفوس أثراً على خلاف الكتابة التى يدفع إليها الهوى . وقد حاولت أن أبيّن شيئاً من أخطاء هؤلاء وأولئك ، فى هذا التقديم للطبعة الثانية ، متوخياً فى ذلك ما اقتضاه المقام من إيجاز غاية الإيجاز . ولعلّى وفقت لبعض ما قصدت إليه من نزاهة وإنصاف .

ليس من اليسير أن يقوم المستشرقون فى بحوثهم الإسلامية بكل هذه الدقة وهذا الإنصاف ، مهما تحسُن نيتهم ومهما يَتَحَرَّوا الدقة العلمية . فعسيرٌ عليهم أن يحيطوا بكل أسرار اللغة العربية وإن أحاطوا بعلومها . ثم إنهم متأثرون بالنصرانية الأوربية تأثراً يجعل أكثرهم ينظرون إلى الأديان نظرة تملؤها الريبة ، ويجعل الأقلين المستمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال ، فيخضعون فى بحوثهم الإسلامية لمثل ما خضع له أمثالهم فى بحوثهم المسيحية أو فى بحوثهم الدينية بوجه عام ، أقْصِدُ التأثر بهذا النضال الهدام . وهذا أمر لا يعاب به المستشرقون المنصفون ؛ فلن يستطيع أحد من الناس أن يتحرر من حكم بيئته الزمانية والمكانية . لكنه يجعل بحوثهم فى الأمور الإسلامية تشوبها شوائب تنأى عن الحق ولو بمقدار . ومن شأن ذلك أن يُلقِى على عاتق العلماء من أهل البلاد الإسلامية ، سواء منهم المشتغلون بالعلوم الدينية والمشتغلون بغيرها من العلوم ، هذا العبء الجليل العظيم ؛ عبء القيام بهذه المباحث الإسلامية بدقة ونزاهة فى حدود الطريقة العلمية ، فإذا هم فعلوا مستعينين بمعرفتهم أسرار اللغة العربية والحياة العربية ، فسيكون لبحوثهم من الأثر أن تعدل بالمستشرقين ، أو ببعضهم على الأقل ، عن كثير من الآراء وتقنعهم بالنتائج التى وصل إليها علماء البلاد الإسلامية عن طمأنينة نفس وطيب خاطر .

المسلمون وهذه البحوث

وليس الوصول إلى هذه النتائج بالأمر الهين ؛ فهو يحتاج إلى جَلَد ومثابرة فى البحث والموازنة والتفكير الحرّ ، لكنه ليس كذلك بالأمر المستحيل

ولا بالأمر العسير . وهو بعد أمرٌ جليل الخطر عظيم الأثر فى مستقبل الإسلام وفى مستقبل الإنسانية كلها . وعندى أن القيام به على وجه صالح يقتضى التفريق بين فترتين مختلفتين من تاريخ الإسلام : أولاهما من بدء الإسلام إلى مقتل عثمان . والثانية من مقتل عثمان إلى أن أقفل باب الاجتهاد ؛ فنى الفترة الأولى بقى اتفاق المسلمين تامًّا ؛ لم تغيّر منه روايات الاختلاف على الخلافة ، ولا غيَّرت منه حروب الردّة ولا فتح المسلمين للبلاد التى فتحوا . أمَّا بعد مقتل عثمان فقد دبّ الخلاف بين المسلمين ، وقامت الحروب الأهليَّة بين علىّ ومعاوية واستمرّت الثورات ، ظاهرة تارة خفية أخرى ، ولعبت الأهواء السياسية دوراً خطيراً فى الحياة الدينية نفسها . وحسبُ الإنسان ، ليقدر هذا الخلاف ، أن يوازن بين المبادئ التى ينطوى عليها خطاب أبى بكر بعد بيعته حين يقول : « أمَّا بُعد ، أيها الناس ، فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم فإن أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوىٌّ عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوىّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدعُ قومٌ الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ؛ فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » وخطاب المنصور العباسىّ بعد تسنُّمه ذروة العرش إذ يقول : « أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده ، وحارسُه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته ، وأعطيه بإذنه ؛ فقد جعلنى الله عليه قفلا ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقَسْم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى . . . » . حَسْبُ الإنسان أن يوازن بين هذين الخطابين ليرى مدى التغير العظيم فى القواعد الأساسية للحياة الإسلامية فى أقل من قرنين ، تغيُّراً نقلها من الشورى بين المسلمين إلى الحكم المطلق المستمدّ من الحق المقدّس .

ولقد كانت هذه الثورات ، وما أدّت إليه من انقلاب بعد آخر فى أُسُسِ الحكم سببَ ما آل إليه أمر الدولة الإسلامية من بعدُ من انحلال

وتقهقر . ومع ازدهار الإسلام والحضارة الإسلامية قرنين كاملين بعد مقتل عثمان ، ومع ما نشط إليه الإسلام من فتح الممالك وتدويخ الملوك على يد المغول وعلى يد السلاجقة بعد الانحلال الأوّل ، فإن الفترة الأولى التى انتهت بمقتل عثمان هى التى تقررت فيها القواعد الصحيحة للحياة الإسلامية العامة ؛ وهى لذلك وحدها التى يمكن الاعتماد الثابت اليقينى على ما وقع فيها لمعرفة هذه القواعد الصحيحة . أمَّا فيما بعد هذه الفترة ، فإنه – على الرغم من ازدهار العلم والمعرفة أيام الأمويين ، وخاصّة أيام العباسيين – قد اندست يد العبث بهذه القواعد الأساسية الصحيحة لتقيم مقامها قواعد تتنافى فى كثير من الأحيان مع روح الإسلام ، تحقيقاً لأغراض سياسية شعوبية فى أكثر أمرها . وقد كان الأعاجم وكان الذين تظاهروا بالإسلام من اليهود والنصارى هم الذين روَّجوا لهذه القواعد الجديدة ، غير متورّعين فى تأييدها عن اختراع الأحاديث ونسبتها إلى النبى عليه السلام ، ولا عن ادّعاء أشياء على الخلفاء الأولين لا تتفق مع سيرتهم ولا تلتئم مع مزاجهم .

هذه الفترة الأخيرة لا يمكن الاعتماد على ما دوّن فيها اعتماداً علمياً دون تمحيصه ونقده ، أدق التمحيص والنقد ، بغير تأثر بالأهواء أو بنزعات المزاج الذاتى . وأوّل ما يجب من ذلك أن نردّ مما وقع الخلاف عليه فيها كلّ مالا يتفق مع القرآن ، وإن نُسِب ما وقع عليه الخلاف إلى النبى العربى . أمَّا صدر الإسلام الأول إلى مقتل الخليفة الثالث فيمكن الاعتماد على ما يروى مباشرةً عنه ، ويمكن لذلك أن يتخذ أيضاً أساساً لتمحيص ما جاء بعده . وإنى لأحسبنا إذا فعلنا هذا كله بدقة علمية ، قديرين على أن نرسم صورةً صادقة من قواعد الإسلام الصحيحة ومن الحياة الإسلامية الأولى ؛ هذه الحياة العقلية والروحية التى بلغت من القوَّة والسموّ مبلغاً دفع عرب البادية من أهل شبه الجزيرة لينتشروا فى الأرض خلال بضعة عقود من السنين كى يقيموا فى مختلف الممالك أسمى المبادئ الإنسانية التى عرفها التاريخ . ولو أننا نجحنا فى هذا لكشفنا أمام الإنسانية أفقاً تصعد منه إلى معرفة أسرار الكون النفسيَّة والروحيَّة ، وتتصل به عن طريق هذه المعرفة اتصالا يهيئ للإنسانية أسباب نعمتها وسعادتها ، كما

أنها ازدادت استمتاعاً بما فى الكون حين ازدادت اتصالا بأسرار القوّة والحركة الكمينة فيه بعد أن عرفت الكهربا والأثير . ولو أننا نجحنا فى هذا لكان للإسلام من الفضل على الإنسانية اليوم ما كان له فى الصدر الأوّل ، حين خرج به العرب من شبه الجزيرة لينشروا مبادئه السامية فى العالم كله .

وفى مقدّمة ما يجب علينا من ذلك ، خدمة للحقيقة وللإنسانية ، أن نتعمق فى دراسة سيرة النبى العربى تعمّقاً يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة التى تنشدها . والقرآن أصدق مرجع لهذه الدراسة ؛ فهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل ولا تعلَق به الريبة ، وهو الكتاب الذى بقى ثلاثة عشر قرناً ، وسيبقى أبد الدهر معجزة الحياة فى طهارة نصوصه ، مصداقاً لقوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا له لَحَافِظُون)[1] ، كما كان وسيبقى معجزة محمد القائمة منذ أوحاه الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل ما تعلَّق بسيرة محمد يجب أن يعرض على القرآن ، فما وافقه كان حقًّا ، وما لم يوافقه لم يكن بحق . وقد حاولت من ذلك فى هذا البحث البدائى جهد طاقتى . فلما عدت إليه بعد طبعة هذا الكتاب الأولى شكرت لله توفيقه ورجوته أن يهيئ لمتابعة التعمق فيه تعمقاً علمياً من يحبوه هدايته ، ويمده بتسديده .

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ) .

---

(١) سورة الحجر آية ٩

تقديم الطبعة الثالثة*

لا تختلف هذه الطبعة الثالثة عن الطبعة الثانية فى شىء اللّهم إلا فى بعض ألفاظ غُيِّرت أو نُقِّحت لمزيد من الدقَّة فى الضبط العربى ، أو شدة فى الحرص على وضوح المقصود منها . وما حدث من ذلك قليل لا يكاد يحسه إلا من أراد الموازنة اللفظية بين الطبعتين . ولن يجد من يكلّف نفسه هذه المؤونة أى غناء فيها . ولم يكن الشعور بكمال الكتاب بعد طبعته الثانية هو الذى عدل بى عن تناول ما فيه بالتنقيح أو بالزيادة فى هذه الطبعة الثالثة . فأنا لا أفتأ أكرر ما قلته ، فى مقدمة الطبعة الأولى ، من أن هذا الكتاب لا يخرج عن أنه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية فى موضوعه الجليل . ولكننى فصَّلت كثيراً مما يتصل بهذا الموضوع فى كتابى « فى منزل الوحى » على أثر أدائى فريضة الحج وسيرى فى أثر الرسول بالحجاز وتهامة ؛ فلم يكن لى أن أعود لأجمل ها هنا ما فصّلته هناك . ثم إننى شغلت بعد ظهور « فى منزل الوحى » عن متابعة البحث فى سيرة الرسول وتعاليمه وسيرة أصحابه وخلفائه ، مما كنت قد شُغِلت به فى السنوات الثمانى الأخيرة ، فلم تتح لى الفرصة ولم يتح لى من فسحة الوقت ما أفصّل به ما أجملت فى خاتمة الطبعة الثانية . ولعل الله يوفقنى فأعود من بعدُ إلى هذا التفصيل فى كتاب مستقل . وأحسب القارئ يشاركنى فى هذا الدعاء بعد أن يتمَّ تلاوة المبحثين اللذين يكوّنان هذه الخاتمة .

وإنى ليسعدنى أن أختم هذا التقديم للطبعة الثالثة بشكر الله على ما لقى هذا الكتاب من تقدير الذين اطَّلعوا عليه من المسلمين وغير المسلمين ، ومن تنويه طائفة من الكتَّاب والمؤلفين فى الشرق والغرب به فى تقديم كتبهم وفى تضاعيف هذه الكتب . وأكبر أملى فى وجهه الكريم أن ييسر لمتابعة هذا البحث من يصل به إلى غايته ، ومن يخدم الحق بذلك خدمة كبرى .

---

* توالت طبعات هذا الكتاب بعد ذلك دون أى تغيير .

الفصل الأول

بلاد العرب قبل الإسلام

مهد الحضارة الأولى – اليهودية والمسيحية – الفرق المسيحية وتناحرها – مجوسية فارس – شبه جزيرة العرب – طريقا القوافل فيها – اليمن وحضارتها – بقاء شبه الجزيرة على الوثنية .

مهد الحضارة الإنسانية

ما يزال البحث فى تاريخ الحضارة الإنسانية وأين كان منشؤها متصلاً إلى عصرنا الحاضر . وكان هذا البحث قد استقرّ زمانًا طويلا عند القول بأن مصر كانت مهد هذه الحضارة منذ أكثر من ستة آلاف سنة مضت ، وأن ما قبل هذا الزمن يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ ؛ ولذلك يتعذّر الكشف عنه بطريقة علمية صحيحة . أما اليوم فقد عاد علماء الآثار ينقبون فى العراق وفى سوريا يريدون الوقوف على أصل الحضارة الآشورية والحضارة الفينيقية ، وتحقيق العصر الذى ترجع هاتان الحضارتان إليه : أهو سابقٌ عصر الحضارة المصرية الفرعونية مؤثر فيها ، أم هو لاحقٌ عصر هذه الحضارة متأثر بها . ومهما يُسفر تنقيب علماء الآثار عنه ، فى هذه الناحية من نواحى التاريخ ، فهو لا يغيّر شيئًا من حقيقة لم يكشف التنقيب فى آثار الصين والشرق الأقصى عما يخالفها ؛ هذه الحقيقة هى أن مهد حضارة الإنسان الأولى ، فى مصر كان أو فى فينيقيا أو فى آشور ، كان متصلا بالبحر الأبيض المتوسط ؛ وأن مصر كانت أقوى المراكز التى أصدرت الحضارة الأولى إلى اليونان وإلى رُومية ؛ وأن حضارة عالمنا ، فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، ما تزال وثيقة الصلة بتلك الحضارة الأولى ؛ وأن ما قد يكشف البحث عنه فى الشرق الأقصى من تاريخ الحضارة فى تلك الأقطار لم يكن له فى عصر ما أثرٌ بيّن فى توجيه الحضارات الفرعونية والآشورية والإغريقية ، ولم يغير من اتجاه تلك الحضارات وتطوّرها إلى أن اتصلت بها حضارة الإسلام ، فأثرت فيها وتأثّرت بها وتفاعلت وإياها تفاعلاً كانت الحضارة العالمية التى تخضع الإنسانية اليوم لسلطانها بعض أثره .

حوضا بحرى الروم والقلزم

وقد ازدهرت تلك الحضارات ، التى انتشرت على شواطئ البحر الأبيض

أو على مقربة منه فى مصر وآشور واليونان منذ ألوف السنين ، ازدهارًا ما يزال حتى اليوم موضع دهشة العالم وإعجابه . ازدهرت فى العلم والصناعة والزراعة والتجارة وفى الحرب وفى كل نواحى النشاط الإنسانى . على أن الأصل الذى كانت تصدر تلك الحضارات عنه وكانت تستمد قوّتها منه كان أصلا دينيًا دائمًا . حقًّا إن هذا الأصل اختلف ما بين التثليث المصرى القديم مصورًا فى أوزوريس وإيزيس وهورس مُشيرًا إلى وحدة الحياة فى بِلاَها وتجددها وإلى اتصال خلد الحياة من الآباء إلى الأبناء ، وما بين الوثنية اليونانية فى تصويرها للحق والخير والجمال تصويرًا مستمدًّا من مظاهر الكون الخاضعة للحس ، كما اختلف من بعد ذلك اختلافًا هوَى بهذا التصوير فى عصور الانحلال المختلفة إلى دنيا المراتب ؛ لكنه بقى دائماً أصل هذه الحضارات التى شكَّلت مصاير العالم ، كما أنه قوِىّ الأثر فى حضارة هذا العصر الحاضر ، وإن حاولت هذه الحضارة أن تتخلَّص منه وتقف فى وجهه وقوفًا ما يزال الحينَ بعد الحين يستدرجها إليه . ومن يدرى ! لعله سيدمجها فيه فى مستقبل قريب أو بعيد مرة أخرى .

فى هذه البيئة التى استندت حضارتها منذ ألوف السنين إلى أصل دينى ، نشأ أصحاب الرسالة بالأديان المعروفة حتى اليوم . فى مصر نشأ موسى ، وفى حِجر فرعون تُربى وهُذِّب ، وعلى يد كهنته ورجال الدين من أهل دولته عرَف الوحدة الإلهيَّة وعرف أسرار الكون . فلما أذِن الله له فى هداية قومه ببلد كان فرعون يقول لأهله : « أنا رَبكم الأعلى » وقف يجادل فرعونَ وسحرته ، حتى اضطرَّ آخر الأمر فهاجر ومعه بنو إسرائيل إلى فِلَسْطين . وفى فلسطين نشأ عيسى روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم . فلما رفع الله عيسى بن مريم إليه ، قام الحواريون من بعده يدعون إلى المسيحية التى دعا إليها . ولقى الحواريون ومن اتبعهم أشد العنت ؛ حتى إذا أذن الله للمسيحية أن تنتشر حَمل عَلَمَها عاهل الروم صاحبة السيادة على العالم يومئذ ، فدانت الإمبراطورية الرومانية بدين عيسى ؛ وانتشرت المسيحية فى مصر والشام واليونان ، وامتدت من مصر إلى الحبشة ، وظلت من بعدُ قرونًا يزداد سلطانها توطّدًا ، ويستظل بلوائها كل

من استظل بلواء الروم وكل من طمع فى مودتها وفى حسن العلاقة بها .

المسيحية والمجوسية

تُجاهَ المسيحية التى انتشرت فى ظلّ لواء الروم ونفوذها وقفت مجوسية الفرس تؤازرها قوى الشرق الأقصى وقوى الهند المعنوية . وقد ظلت آشور وظلت مدنية مصر الممتدة فى فينيقيا عصورًا طويلة حائلة دون انتطاح عقائد الغرب والشرق وحضارتيهما . على أن دخول مصر وفينيقيا فى المسيحية أذاب هذا الحائل ووقف مسيحية الغرب ومجوسيَّة الشرق وجهًا لوجه . وقد ظل الشرق والغرب عصورًا متصلة وفى نفس كلّ من الهيبة لدين الآخر ما أقام مكان ذلك الحائل الطبيعى الأول حائلا آخر معنويًّا ، اقتضى كلتا قوّتيه أن توجه جهودها وغزواتها الروحية فى ناحيتها ، وألا تفكر فى دعوة الأخرى إلى عقيدتها أو حَضارتها ، مع ما اتصل بينهما على مرِّ القرون من حروب . ومع أن فارس انتصرت على الروم وحكمت الشام ومصر ووقفت على أبواب بزنطية ، لم يفكر ملوكها فى نشر المجوسية أو إحلالها محل النصرانية . بل احترم الغزاة عقائد المحكومين ، وعاونوهم على تشييد ما خرَّبت الحرب من معابدهم ، وتركوا لهم الحرية فى إقامة شعائرهم . وكل ما صنع الفرس أن أخذوا الصليب الأعظم وأبقوه عندهم ، حتى دارت دائرة الحرب عليهم واسترده الروم منهم . وكذلك ظلت غزوات الغرب الروحية فى الغرب ، وغزوات الشرق فى الشرق ؛ وبذلك كان الحائل المعنوى فى مثل مَنَعة الحائل الطبيعى ، وكفل تكافؤ القوّتين من الناحية الروحية عدم تصادمهما .

بزنطية وارثة رومية

وظلت الحال كذلك إلى القرن السادس المسيحى . وفى هذه الأثناء اشتدت المنافسة بين رُومية وبزنطية . أما رومية ، التى أظلَّت أعلامها ربوع أوربا إلى الغال وإلى السلت فى إنكلترا أجيالا عدّة ، والتى فاخرت العالم وما زالت تفاخره بعهد يوليوس قيصر ، فقد بدأ مجدها ينزوى رويدًا رويدًا ، حتى انفردت بزنطية بالسلطان وأصبحت وارثة الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف . وبلغ من انحلال رومية من بعدُ أن أغار الفندال الهمج عليها وأخذوا بأيديهم مقاليد حكمها . وكان لهذه الأحداث أثرها الطبيعى فى المسيحية التى نشأت فى أحضان رومية ، وذاق الذين آمنوا بعيسى أكبر تضحياتهم هولاً فى ظِلالها .

الفرق المسيحية

بدأت هذه المسيحية تتعدّد مذاهبها وينقسم كل مذهب على توالى الزمن فرقًا وأحزابًا ؛ وسار لكل شيعة فى أوضاع الدين وأسسه رأى يخالف رأى الشيعة الأخرى . وتنكرت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها فى الرأى تنكرًا أنتج العداوة الشخصية التى تلمسها حَيْثما دبّ الضعفُ الخُلقى والذهنى إلى النفوس فجعلها سريعة إلى الخوف ، سريعة لذلك إلى التعصب الأعمى والجمود القتّال . كان من بين طوائف المسيحية فى تلك الأزمان من ينكرون أن لعيسى جسدًا يزيد على طيف يتبدَّى به للناس . وكان من بينها من يزاوجون بين شخصه ونفسه زواجًا روحيًا يحتاج إلى كثير من كدّ الخيال والذهن لتصوّره ، وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبدون مريم ، على حين كان ينكر غيرهم بقاءها عذراء بعد وضع المسيح . وكذلك كان الجدل بين أتباع عيسى جدل أيام الانحلال فى كل أمة وعصر : يقف عند الألفاظ والأعداد ، يسبغ على كل لفظ وكل عدد من المعانى ، ويُضفى عليه من الأسرار ، ويحيطه من ألوان الخيال بما يعجز عنه المنطق ولا تُسيغه إلاّ سفسطة الجدل العقيم .

قال أحد رهبان الكنيسة : « كانت أطراف المدينة جميعًا ملأى بالجدل ، ترى ذلك فى الأسواق ، وعند باعة الملابس ، وصيارفة النقود ، وباعة الأطعمة ، فأنت تريد أن تبدل قطعة من ذهب فإذا بك فى جدل عما خلق وعما لم يخلق ! وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله : الأب أعظم من الابن والابن خاضع له . وأنت تسأل عن حَمَّامك وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك : لقد خلق الابن من العدم » .

على أن هذا الانحلال الذى طرأ على المسيحية فجعلها أحزابًا وشيعًا ، لم يكن ذا أثر قوى فى كيان الإمبراطورية الرومانية السياسى ؛ بل ظلَّت هذه الإمبراطورية قوية متماسكة ، وظلَّت هذه الفرق تعيش فى كنفها فى نوع من النضال لم يتعد الجدل الكلامى ولم يتعدّ المؤتمرات اللاهوتية التى كانت تعقد لتبتّ فى مسألة من المسائل فلا يكون لقرار طائفة ما من السلطان ما يلزم الطوائف أو الفرق الأخرى . وأظلَّت الإمبراطورية هذه الفرق جميعًا بحمايتها ، ومدّت لها جميعًا فى حرية الجدل بما زاد فى سلطان الإمبراطور المدنى من غير أن

يضعف من هيبته الدينية . فقد كانت كل فرقة تعتمد على عطفه عليها ، بل تذهب إلى الزعم بأنها تعتمد على تأييده إياها ، وهذا التماسك فى كيان الإمبراطورية هو الذى طوع للمسيحية أن يظل انتشارها فى مسيره ، وأن تصل من مصر الرومانية إلى الحبشة المستقلة المحالفة للروم فتجعل لحوض البحر الأحمر من المكانة ما لحوض البحر الأبيض ، وأن تنتقل من الشام وفلسطين ، حيث دان بها أهلها ودان بها العرب الغساسنة الذين هاجروا إليها ، إلى شاطئ الفرات ليدين بها أهل الحيرة ويؤمن بها اللَّخْميون والمَنَاذِرةُ الذين ارتحلو من جدب الصحراء وباديتها ليستقرّوا فى هذه المدائن الخِصْبة العامرة وليكونوا مستقلين زمنًا لتحكمهم الفرس المجوسية من بعده .

انحلال المجوسية

ولقد أصاب المجوسية فى الفرس من أسباب الانحلال فى هذه الأثناء ما أصاب المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية . وإذا كانت عبادة النار قد ظلت الظاهرة المجوسية البادية للعيان ، فإن آلهة الخير والشر وأتباعها قد انقسمت كذلك عند المجوس فرقًا وطوائف ، ليس ها هنا مكان عرضها . مع ذلك ظلَّ كيان الفرس السياسى قويًا ، لم يؤثر فيه هذا الجدل الدينى حول صور الآلهة والأفكار المطلقة التى ترتسم وراء هذه الصور . واحتمت الفرق الدينية المختلفة بعاهل الفرس الذى أظلها جميعًا بلوائه ، والذى ازداد باختلافها قوة على قوة ، إذ جعل من اختلافها وسيلة لضرب بعضها ببعض كلما خيف أن تقوى شوكة إحداها على حساب الملك أوعلى حساب الفرق الأخرى .

بلاد العرب بين القوتين

هاتان القوّتان المتقابلتان : قوّة المسيحية وقوّة المجوسية ، قوّة الغرب وقوة الشرق ، ومعهما الدويلات المتصلة بهما والخاضعة لنفوذهما ، كانتا فى أوائل القرن السادس الميلادى تحيطان بشبه جزيرة العرب . لقد كان لكل واحدة منهما مطامع فى الاستعمار والتوسّع ، وكان رجال الدين فى كلتيهما يبذلون الجهود لنشر الدعوة إلى العقيدة التى يؤمنون بها ؛ مع ذلك ظلت شبه الجزيرة وكأنها واحة حصينة آمنة من الغزو إلا فى بعض أطرافها ، آمنة من انتشار الدعوة الدينية ، مسيحية أو مجوسيَّةً ، إلا فى قليل من قبائلها . وهذه ظاهرة قد تبدو فى التاريخ عجيبة ، لولا ما يفسرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها ،

وما للموقع والطبيعة من أثر فى حياة أهلها وفى أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم .

فشبه جزيرة العرب مستطيل غير متوازى الأضلاع ، شماله فلسطين وبادية الشام ، وشرقه الحيرة ودجلة والفرات وخليج فارس ، وجنوبه المحيط الهندى وخليج عَدَن ، وغربه بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) . فهو إذًا حصين بالبحر من غربه وجنوبه ، حصين بالصحراء من شماله ، وبالصحراء وخليج فارس من شرقه . وليست هذه المناعة هى وحدها التى عصمته من الغزو الاستعمارى أو الغزو الدينى ، بل عصمه كذلك ترامى أطرافه . فطول شبه الجزيرة يبلغ أكثر من ألف كيلومتر وعرضه يبلغ نحو الألف من الكيلومترات وعصمة أكثر من هذا جَدْبُه جدبًا صرف عين كل مستعمر عنه . فليس فى هذه الناحية الفسيحة من الأرض نهر واحد ، وليست لأمطارها فصول معروفة يمكن الاعتماد عليها وتنظيم الصناعة إياها . وفيما خلا اليمن الواقعة جنوب شبه الجزيرة والممتازة بخصب أرضها وكثرة نزول المطر فيها ، فسائر بلاد العرب جبال ونجود وأودية غير ذات زرع وطبيعةٌ جرداء لا تيسر الاستقرار ولاتجلب الحضارة وهى لا تشجّع على حياة غير حياة البادية وما تقضى به من الارتحال الدائم واتخاذ الجمل سفينة للصحراء وانتجاع مراعى الإبل ، والاستقرار عندها ريثما تأتى الإبل عليها ، ثم الارتحال من جديد انتجاعًا لمرعى جديد . وهذه المراعى التى ينتجعها بدو شبه الجزيرة إنما تدور حول عين من العيون ، تتفجر عن ماء المطر الذى يتسلل خلال أرض البلاد الحجرية ، فينبت تفجُّره الخضرة المنتثرة ها هنا وهناك فى واحات تحيط بهذه العيون .

موقع شبه الجزيرة الجغرافى

طبيعىٌّ فى بلاد هذه حالها أن تكون كصحراء إفريقية الكبرى لا يقيم بها مقيم ، ولا تعرف الحياة الإنسانية إليها سبيلا ، وطبيعى ألا يكون لمن يحلّ بهذه الصحراء غرض أكثر من ارتيادها والنجاة بنفسه منها ، إلا فى هذه النواحى القليلة التى تُنبت الكلأ والمرعى . وطبيعى أن تظلّ هذه النواحى مجهولة من الناس لقلة من يغامر بحياته لارتيادها . وقد كانت بلاد العرب فيما سوى اليمن مجهولة بالفعل من أهل تلك العصور القديمة .

لكن موقعها أنجاها من الإقفار وأمسك عليها أهلها . فى تلك العصور

القديمة لم يكن الناس قد أمنوا البحر ليتّخذوه مركبًا لتجارتهم أو لأسفارهم .
وما تزال أمثال العرب تحت أنظارنا تُنبئنا بما كان من خوف الناس البحر كخوفهم الموت ، فلم يكن بدٌّ إذًا للاتجار من أن تجد التجارة لها وسيلة انتقال غير هذا المركب الخطر المخوف . وكان أهم انتقال التجارة يومئذ بين الشرق والغرب : بين الروم وما وراءها ، والهند وما وراءها . وكانت بلاد العرب طريق هذه التجارة التى كانت تجتاز إليها عن طريق مصر أو عن طريق الخليج الفارسىّ متخطية البوغاز الواقع على مدخل خليج فارس . فكان طبيعيًّا إذًا أن يكون بدو شبه جزيرة العرب هم أمراء الصحراء كما أصبح رجال السفن فى العصور التى تلت والتى طغى الماء فيها على اليابسة هم أمراء البحر . وكان طبيعيًّا إذًا أن يرسم أمراء الصحراء هؤلاء طرق القوافل من أنحائها فيما لا يُخاف خطره ، كما يرسم رجال البحر خطوط سير السفن بعيدة عن شِعاب البحر ومخاطره . يقول هِيرْن : « لم يكن طريق القافلة شيئًا متروكًا للاختيار بل كان مقرّرًا بالعادة . فى هذه المراحل الفسيحة من الصحراء الرمليّة التى كان رجال القوافل يجتازونها ، حَبَتِ الطبيعة المسافرَ بضعة أماكن مبعثرة فى جدب البادية يتخذها موئلا لراحته . وهناك ، فى ظلال أشجار النخيل وإلى جانب المياه العذبة التى تجرى من حولها ، يستطيع التاجرِ ودابَّة حمله أن ينهَلا من صبِّيها ما أحوجهما إليه العنت الذى لقيا . وأصبحت منازل الراحة هذه مستودعات للتجارة ، وصار بعضها مُقامًا للهياكل والمحاريب ، يُتابع التاجر فى حمايتها تجارته ، ويلجأ الحاجّ إليها لالتماس العون منها »[1] .

شبه جزيرة العرب مجهولة خلا اليمن

أمراء الصحراء

طريقا القوافل

كانت شبه الجزيرة تموج بطرق القوافل . وكان منها طريقان رئيسيان . فأما احدهما فيتاخم الخليج الفارسىّ ، ويتاخم دجلة ، ويقتحم بادية الشام إلى فلسطين ؛ ويصح لمجاوَرته حدود البلاد الشرقية أن يسمى طريق الشرق . وأما الآخر فيتاخم البحر الأحمر ؛ ويصح لذلك أن يسمى طريق الغرب ، وعن هذين الطريقين كانت تنتقل مصنوعات الغرب إلى الشرق ومتاجر الشرق إلى الغرب ، وكانت تُجْبَى إلى البادية أسباب الرخاء والرفاهية . على أن ذلك لم يزد

(١) نقله موير فى كتابه (حياة محمد) ص XC

أهلَ الغرب معرفة بهذه البلاد التى تجتازها تجارتهم . فقد كان الذين يعبرونها من أهل الشرق والغرب قليلين ؛ لِمَا فى عبورها من مشقة لا يحتملها إلا الذين اعتادوها منذ نعومة أظفارهم ، والمجازفون الذين يستهينون بالحياة ، حتى أضاعها كثير منهم فى هذه المهامه والفَدَافِد عبثًا . وما احتمال رجل اعتاد بُلَهْنية الحضر لوعثاء هذه الجبال الجرداء التى تفصل تهامة بينها وبين شاطئ البحر الأحمر بفاصل ضيق ؛ فإذا بلغها المسافر فى تلك الأيام ، التى لم تعرف غير الجمل مطيَّة للسفر ، ظلَّ يصعّد بين قممها حتى تقذفه إلى هضاب نجد الصحراوية القليلة الغَناء ! وما احتمال رجل اعتاد النظام السياسى الذى يكفل للناس جميعاً طمأنينتهم لعَنَتِ هذه البادية التى لا يعرف أهلها نظامًا سياسيًّا بل تعيش كل قبيلة ، بل كل أسرة ، بل كل فرد وليس ما ينظم علاقاته بغيره إلا روابط عصبية الأسرة والقبيلة ، أو قوة الحِلف ، أو حِمَى الجوار يرجو الضعيف به رعاية قوىّ إياه ! فقد كانت حياة البادية فى كل العصور حياة خارجة على كل نظام عرفه الحضر ، مطمئنة إلى العيش فى حمى مبادئ القصاص ، ودفع العُدوان بالعدوان ، واغتيال الضعيف مالم يجد من يجيره . وليست هذه بالحياة التى تشجّع على التطلع إلى استكناه أخبارها والتحقق من تفاصيل نُظُمها . لذلك ظلَّت شبه الجزيرة مجهولة عند سائر العالم يومئذ ، إلى أن أتاحت لها الأقدار ، بعد ظهور محمد عليه الصلاة والسلام فيها ، أن يقصّ أخبارها من نزَح عنها من أهلها ، وأن يقف العالَم على كثير مما كان العالَمُ من قبل ذلك فى أتمّ الجهل به .

حضارة اليمن

لم يَنِدّ من بلاد العرب عن جهالة العالم سوى اليمن وما جاورها من البلاد المتاخمة للخليج الفارسى . وليس يرجع ذلك إلى متاخمتها الخليج الفارسى أو المحيط الهندى أو البحر وكفى ، ولكنه يرجع قبل ذلك وأكثر منه إلى أنها لم تكن كسائر شبه الجزيرة صحراوية جرداء لا تلفت العالم ولا تجعل لدولة من صداقتها فائدة ولا لمستعمر فيها مطمعًا ، بل كانت على الضّدّ من ذلك موطن خِصْب فى الأرض ومطر منتظم الفصول فى تهتانه ، ومن ثمّ موطنَ حضارة مستقرَّة ذات مدائن عامرة ومعابد قوية على نضال الزمان . وكان سكّانها من بنى حِمْير

ذوى فطنة وذكاء وعلم هداهم إلى حسن الاستفادة من الأمطار حتى لا تتسرّب إلى البحر فوق الأرض المنحدرة إلى ناحيته ؛ ولذلك أقاموا سدّ مأرب ، فحوّلوا اتجاه المياه الطبيعى تحويلا تقتضيه حياة الحضارة والاستقرار ، فقد كانت الأمطار ، إلى أن أقيم هذا السدّ ، تنزل بجبال اليمن المرتفعة ، ثم تنحدر فى أودية واقعة إلى شرق مدينة مأرب وكانت فى انحدارها الأوّل تنزل بين جبلين يقومان عن جانب هذه الأودية يفصل بينهما أربعمائة متر تقريبًا ؛ فإذا بلغت مأرب انفرج الوادى انفراجًا تضيع المياه فيه كما تضيع فى منطقة السدود بأعالى النيل . فلما هدى العلم والذكاء أهل اليمن إلى إقامة سدّ مأرب شُيد بالحجر عند مضيق الوادى ، وجُعلت له فتحات يمكن تصريف المياه منها وتوزيعها إلى حيث يشاء الناس لتروى الأرض وتزيدها خِصْبًا وإثماراً .

وإن ما كشف وما يزالُ يكشف عنه حتى اليوم من آثار هذه الحضارة الحميرية فى اليمن ليدلُّ على أنها بلغت فى بعضْ العصور مكانًا محمودًا ، وأنها ثبتتْ لقسوة الزمان فى عصورٍ قسا على اليمن فيها الزمان .

اليهودية والنصرانية فى بلاد اليمن

على أن هذه الحضارة وليدَة الخِصْب والاستقرار جلبت على اليمن من الأذى ما منع الجدبُ منه أواسط شبه الجزيرة . فقد ظلَّ مُلك اليمن فى بنى حمير يتوارثونه حينًا ويثب عليه حميرىٌّ من الشعب حينًا آخر حتى ملكهم ذى نواس الحِميرى . وكان ذو نواس هذا ميالا إلى دين موسى ، راغبا عن الوثنية التى تورَّط فيها قومه ، وكان قد أخذ هذا الدين عن اليهود الذين هاجروا إلى اليمن وأقاموا بها. وذو نواس الحميرى هذا هو ، فيما يذكر المؤرخون صاحب قصة أصحاب الأخدود التى نزل فيها قوله تعالى : (قُتِلَ أصحابُ الأخْدودِ. النَّار ذات الوقودِ . إذ هُمْ عليها قعودٌ . وهم عَلَى ما يَفْعلون بالمُؤْمنين شهودٌ . وما نَقَموا مِنهمْ إلاّ أن يؤمنوا بِالله العَزيزِ الحَميدِ)[1] . وخلاصة هذه القصة أن رجلا صالحًا من أتباع عيسى يدعى قيميون ، كان قد هاجر من بلاد الروم واستقرَّ بنجْران ، فاتَّبعه أهلها لِما رأوا من صلاحه وظل عددهم يزداد حتى استفحل أمرهم . فلمانمى خبرهم إلى ذى نوَاس سار إلى

(١) سورة البروج الآيات من ٤ إلى ٨ .

نجران ، ودعا أهلها إلى الدخول فى اليهودية أو يقتلوا . فلما أبَوا شقّ لهم أخدودًا أوقد فيه النار ثم ألقى بهم فيها ، ومن لم يمت بالنار قتل بالسيف ومُثِّل به . وقد هلك منهم ، على رواية كتب السيرة ، عشرون ألفًا . ثم إن أحد هؤلاء النصارى فرَّ من القتل ومن ذى نواس وسار حتى أتى قيصر الروم جوستنيان فاستنصره على ذى نُواس . ولما كانت الروم بعيدة عن اليمن كتب القيصر إلى النجاشى ليأخذ بالثأر من ملك اليمن . ويومئذ (فى القرن السادس الميلادى) كانت الحبشة والنجاشى على رأسها فى ذروة مجدها تجرى بأمرها على البحار تجارة واسعة ، ويمخر لها العُباب أسطولٌ قوى[1] يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذاها من البلاد ؛ وكانت حليفة الإمبراطورية البزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر ، كما كانت بزنطية رافعة علمها على البحر الأبيض . فلمّا بلغت النجاشى رسالة القيصر بعث مع اليمنى ، الذى حمل إليه هذه الرسالة ، جيشًا جعل على رأسه وفى جنده أبرهة الأشْرَم . وغزا أرْياط اليمن وملكها باسم عاهل الحبشة ، وظلّ على حكمها حتى قتله أبرهة وتولّى الأمر مكانه . وأبرهة هذا هو صاحب الفيل ، وهو الذى غزا مكة ليهدم الكعبة فأخفق ، على نحو ما سيرى القارئ فى الفصل الآتى[2] .

---

(١) هذه الرواية وردت فى أكثر الكتب والمراجع . سجلتها دائرة المعارف البريطانية وأخذ بها مورخو كتاب (Historian's History of the world) واعتمدها درمنجم فى كتاب « حياة محمد ». على أن الطبرى روى عن هشام بن محمد أنه لما ذهب اليمنى يستنجد النجاشى على ذى نواس وأنبأه بما فعل نصير اليهودية بالنصارى وأراه الإنجيل قد أحرقت النار بعضه ، قال له النجاشى : « الرجال عندى كثير وليست عندى سفن ، وأنا كاتب إلى قيصر فى البعثة إلى بسفن أحمل فيها الرجال . فكتب إلى قيصر فى ذلك و بعث إليه بالإنجيل المحرق ، فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة » . ويضيف الطبرى : « وأما هشام بن محمد فإنه زعم أن السفن لما قدمت على النجاشى من عند قيصر حمل جيشه فيها فخرجوا فى ساحل المندب » . (راجع الطبرى طبعة المطبعة الحسينية جزء ٢ ص ١٠٦ و ١٠٨) .

(٢) تجرى بعض كتب التاريخ برواية أخرى عن سبب غزو الحبشة اليمن . وهذه الرواية تذهب إلى أن التجارة كانت متصلة بين العرب المستعربة بالحجاز وبين اليمن والحبشة . وكانت الحبشة يومئذ ذات شواطئ ممتدة على البحر الأحمر وصاحبة أسطول للتجارة . وقد طمعت الروم فى طريق اليمن للاستفادة من ثروتها وخصبها ، فجهز إيلياس جالس ، حاكم مصر من قبل إمبراطور الروم ، لغزو اليمن وضمها إلى الإمبراطورية ، وركب الجيش البحر الاحمر إلى اليمن وغزاها وبلغ نجران ولكن الأمراض فتكت به ويسرت لأهل اليمن مقاومته فارتد عنها عائداً إلى مصر . ثم كانت بعد هذه =

وملك أبناء أبرهة اليمن من بعده وفشا فيها استبدادهم . فلما طال على الناس البلاء خرج سَيْف بن ذى يَزَن الحميرّى حتى قدم على ملك الروم ، فشكا إليه ما هم فيه ، وسأله أن يبعث إليهم من الروم من يكون له مُلْك اليمن . لكن حِلْف القيصر والنجاشى حال دون سماعه شكاية ابن ذى يَزَن ؛ فخرج من عند القيصر حتى أتى النعْمانَ بن المنذِر ، وهو عاملِ كسْرَى على الحيرة وما يليها من أرض العراق .

حكم فارس اليمن

فلما دخل النعمان على كِسْرَى أبَروِيز دخل سيف بن ذى يَزَن معه . وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه وقد جمع فيه أجزاء عرش دَارا . وكانت موشَّاة بصور نجوم المجرّة . فإذا كان فى مشتاه وُضعت هذه الأجزاء يحيط بها ستار من أنفس الفِرَاء تتدلَّى أثناءه ثريَّات من فضة وأخرى من ذهب ، ملئت بالماء الفاتر ونُصب فوقها تاجه العظيم ، يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة مشدودًا إلى السقف بسلسلة من ذهب . وكان يلبس نسيج الذهب ويتَّشح بحلىّ الذهب ؛ فما يلبث من يدخل إلى مجلسه أن تأخذه هيبته حين يراه . وكذلك كان شأن سيف بن ذى يزن . فلما تطامَنَ وسأله كسرى عن أمره وما جاء فيه قصّ عليه أمرَ الحَبشة وظلْمَها اليمن . وتردّد كسرى بادئ الرأى ، ثم بعث معه جيشًا على رأسه وَهْرِز من خير بيوت فارس وأكثرها فروسيَّة وشجاعة . وتغلب الفرس وأجلوا الحبشان عن اليمن بعد أن ملكوُها اثنتين وسبعين سنة . وظَلت اليمن فى حكم فارس حتى كان الإسلام ودخلت سائر البلاد العربية فى دين الله وفى الإمبراطورية الإسلامية .

حكم شيرويه فارس

على أن الأعاجم الذين تولَّوْا أمر اليمن لم يكونوا خاضعين مباشرة لسلطان ملك فارس . وكان الأمر كذلك بنوع خاص بعد أن قتل شيرويه أباه كسرى أبرويز وقام فى الملك مقامه ؛ فقد خيل إليه فى غرارته أن العوالم تسير على هواه ، وأن ممالك الأرض تعمل لملء خزانته ولتزيد فيما أغرق فيه نفسه من نعيم . ثم إن

= الغزوة غزوات قام بها الروم ضد العرب فى اليمن وفى غير اليمن ، ولكنها لم تكن أيمن من غزوة جالس حظاً ، إذ ذاك بدا لنجاشى الحبشة أن ينتقم من اليمن التى فشت فيها اليهودية للروم المسيحيين مثله فجهز جيش أرياط فغزا اليمن واستقر بها إلى آن أجلاه الفرس عنها .

هذا الملك الشاب انصرف عن كثير من شؤون الملك إلى مُتَعه وملذّاته ؛ فكان يخرج للصيد فى تَرَف لم تسمع بمثله أذن : كان يخرج يحيط به الشبّان الأمراء فى ثياب حمر وصفر وبَنَفْسَجيَّة ومن حولهم حَمَلة البُزاة والخدم يُمسكون الفُهود الأليفة بالكمامات : والعبيد حملة الطيب ومطاردو الذُّباب والموسيقيون . وليشعِر نفسه فى قُرّ الشتاء ببهاء الربيع ، كان يجلس وحاشيته على بساط فسيح صُوّرت عليه طرق المملكة ومزارعها وفيها الأزهار المختلفة الألوان من ورائها الأحراش والغابات الخضر والأنهار ذات اللون الفضىّ . ومع ما كان من انصراف شيرويه إلى مَسَرّاته ، ظلّت فارس محتفظة بمجدها ، وظلت المنافس القوىّ لسلطان بزنطية ولانتشار المسيحية ، وإن آذن اعتلاء شيرويه عرشَها بأفول هذا المجد ومهَّد للمسلمين من بعدُ غزوها ونشر الإسلام فيها .

انهيار سد مأرب

هذا النزاع الذى كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحى كان عميق الأثر فى تاريخ شبه جزيرة العرب من جهة توزيع سكانها : فلقد قيل إن سَدّ مأرب الذى غيَّر الحِمَيريون الطبيعة به لفائدة بلادهم ، قد طغى عليه سيل العرِم فحطمه ؛ لأن هذه المنازعات المستمرة صرفت الناس وصرفت الحكومات المتعاقبة عن تعهُّده والاستمرار فى تقويته ، فضعُف فلم يقوَ على صدّ هذا السيل . وقيل : إن ملك الروم لمَّا رأى اليمن موطن نزاع بينه وبين فارس ، وأن تجارته مهدّدة من جرّاء هذا النزاع ، جهز أسطولا يشقّ البحر الأحمر ما بين مصر وبلاد الشرق البعيدة ليجلب التجارة التى تحتاج إليها بزنطية ، ويستغنى بذلك عن طريق القوافل . ويذكر المؤرّخون واقعة يتفقون عليها ويختلفون فى السبب الذى أدّى إليها . هذه الواقعة هى هجرة أزْد اليمن إلى الشَّمال ؛ فكلهم يقول بهذه الهجرة ، وإن نسبها بعضهم إلى إقفار كثير من مدائن اليمن بسبب اضمحلال التجارة التى كانت تمرّ بها ، وعزاها آخرون إلى انقطاع سد مأرب واضطرار كثير من القبائل إلى الهجرة مخافة الهلاك . وأيًّا ما كانت الحقيقة فهذه الهجرة هى السبب فى اتصال اليمن بسائر العرب ، اتصال نسب واختلاط ما يزال الباحثون يحاولون اليوم تحديده .

نظام شبه الجزيرة الاجتماعى

إذا كان النظام السياسى قد اضطرب فى اليمن على نحو ما رأيت بسبب

الظروف التى مرّت بلاد الحميريين بها، والغزوات التى كانت تلك البلاد مَيْدانًا لها ، فقد كان هذا النظام السياسى غير معروف فى سائر بلاد شبه الجزيرة . وكل نظام يمكن أن يوصف بأنه نظام سياسىّ ، على المعنى الذى نفهمه نحن اليوم أو الذى كانت الأمم المتحضرة تفهمه فى تلك الأيام ، كان مجهولا فى ربوع تِهامة والحجاز ونَجْد وتلك المساحات الشاسعة التى منها كانت تتكون بلاد العرب . فقد كان أبناؤه ، كما لا يزال أكثرهم حتى اليوم ، أهل بادية لا يألفون الحضر ، ولا يطيب لهم المقام ولا الاستقرار بأرض ، ولا يعرفون غير دوام الارتحال والنقلة طلبًا للمرعى وإرضاء لهوى نفوسهم التى لم تعرف غير حياة البادية ولا تطيق حياة غيرها . وأساس حياة البادية ، حيث وُجدت من بقاع الأرض ، إنما هى القبيلة . والقبائل الدائمة التَّجول والتَّرحال لا تعرف قانونًا كالذى نعرف ، ولا تخضع لنظام كالذى نخضع له ، ولا تصبر على ما دون الحرّية كاملة للفرد وللأسرة وللقبيلة كلها . وأهل الحضر يرضَون النزول باسم النظام عن جانب من حريتهم للمجموع أو للحاكم المطلق مُقابل ما ينعَمون به من طمأنينة ورخاء . أمَّا رجل البادية الزاهد فى الرخاء ، البَرِم بطمأنينة الاستقرار ، فلا يخدعه عن شىء من حريته الكاملة رجاء فيما يفرَح به أهل المدن من جاه أو مال ، ولا يرضى بما دون المساواة الكاملة بينه وبين أفراد قبيلته جميعًا وبين قبيلته وغيرها من القبائل . وإنما ينتظم حياته ما ينتظم سائرَ الخلق من حب البقاء والحرص عليه والدفاع عنه ، على أن يكون ذلك كله متفقًا مع قواعد الشرف التى تمليها عليه حياة البادية الحرة لذلك لم يكن أهل هذه البادية يقيمون على ضيم يُراد بهم ، بل كانوا يدفعونه بقوتهم ، فإن لم يستطيعوا دفعه تخلوا عن مواطنهم وارتحلوا عن شبه الجزيرة كلها إذا لم يكن من هذا الارتحال بدٌّ . ولذلك لم يكن شىء أيسر عند هذه القبائل من القتال إذا نبت خلاف لم يتيسّر فى ظلال قواعد الكرامة والمروءة والشرف الفصل فيه .

الخلال البدو

من ثمَّ نجمت فى كثير من هذه القبائل خِلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند المقدرة ، وما إلى هذه من خلال تقوى فى النفس كلما

قاربت حياة البادية ، وتضعُف وتضمحلّ فيها كلما أوغلت فى أسباب الحضارة .
ولذلك ولِما قدّمنا من أسباب اقتصادية ، لم تطمَع بزنطية ، ولا طمعت فارس ، فيما سوى اليمن من بلاد شبه الجزيرة التى لم تكن لتخضع ، لأنها تؤثر على الخضوع هجرة الوطن ، ولأن أفرادها وقبائلها لا يدينون بالطاعة لنظام قائم ولا لهَيئة حاكمة تتسلَّط عليهم .

ولقد أثرت هذه الطبائع البدوية ، إلى حد كبير ، فى البلاد القليلة الصغيرة التى نشأت فى أنحاء شبه الجزيرة بسبب تجارة القوافل على نحو ما قدمناه ، والتى يأوى إليها التجّار يقطعون عندها متاعب رحلاتهم المضنية ، ويجدون بها هياكل عبادة يشكرون فيها الآلهة أن منَّت عليهم بالنجاة من أخطار الفلوات ، وأن جلبت تجارتهم سالمة إلى حيث وصلوا . من هذه البلاد مكَّة والطائف ويثرب ، وأشباهها من الواحات المنتثرة بين الجبال أو خلال رمال الصحراء . تأثرت هذه البلاد بطبائع البادية ؛ فكانت أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة فى نظام قبائلها وطوائفها ، وفى أخلاق أهلها وعاداتهم وفى شدّة نفورهم من كل حدّ لحريتهم ، وإن أكرهتهم حياة الاستقرار على نوع من الحياة غير ما اعتاد أهل البادية . وسترى شيئًا من تفصيل ذلك عند الكلام فى الفصول الآتية عن مكة وعن يثرب .

وثنية العرب وأسبابها

هذه البيئة الطبيعية وما ترتب عليها من هذه الأحوال الخُلقية والسياسية والاجتماعية كان لها أثرٌ مشابه فى الحال الدينية . فهل تأثرت اليمن ، بطبيعة اتصالها بمسيحية الروم ومجوسية الفرس ، بهذين الدينين وأثرت بهما فى سائر بلاد شبه الجزيرة ؟ هذا ما يتبادر إلى الذهن ؛ وهو كذلك بنوع خاص فى أمر المسيحية . فالمبشرون بدين عيسى كان لهم فى ذلك العصر ما لهم اليوم من نشاط فى الدعوة إلى دينهم والتبشير به . وفى طبيعة حياة البادية من تحريك المعانى الدينية فى النفس ما ليس فى طبيعة حياة الحَضر . فى حياة البادية يتَّصل الإنسان بالكون ويحس لا نهاية الوجود فى مختلف صورها ، ويشعر بضرورة تنظيم ما بينه وبين الوجود فى لا نهايته . أما رجل الحضر فمحجوب عن اللانهاية بمشاغله ، محجوب عنها بحماية الجماعة إياه لقاء نزوله للجماعة عن جانب من حريته .

نشاط المسيحية

وإذعانه لسلطان الحاكم كى ينال حمايته يقصُر به عن الاتصال بما وراء الحاكم من القوى الطبيعية القوية الأثر فى الحياة ، ويُضعف لذلك عنده روح الاتصال بعناصر الطبيعة المحيطة به . ولا شيء من ذلك يحول بين رجل البادية والمعانى الدينية التى تحركها حياةُ البادية فى النفس .

تُرى هل أفادت المسيحية الجمَّة النشاط منذ عصورها الأولى من هذه الظروف كلها فى سبيل ذيوعها وانتشارها ؟ ربما انتهى الأمر إلى ذلك لولا أمور أخرى حالت دونه ، وأبقت بلاد العرب كلها واليمن معها على الوثنية دين آبائها وأجدادها ، إلا قليلا كان من القبائل التى لانت للدعوة المسيحية .

المسيحية واليهودية

فقد كانت أقوى مظاهر الحضارة العالمية فى ذلك العصر تحيط ، كما رأيت ، بحوضَى البحر الأبيض (بحر الرُّوم) والبحر الأحمر (بحر القُلْزُم) . وكانت المسيحية واليهودية تتجاوران فى ذلك المحيط تجاوراً إلا يكن فيه عداء ظاهر فليست فيه مودَّة ظاهرة . وكان اليهود إلى يومئذ ، كما لا يزالون ، يذكرون ثورة عيسى بهم وخروجهم على دينهم ، فكانوا يعملون فى الخفية ما استطاعوا لصدّ تيار المسيحية التى أخرجتهم من أرض المَعَاد ، والتى استظلت بلواء الروم فى إمبراطوريتها الفسيحة المترامية الأطراف . وكان لليهود فى بلاد العرب جالياتٌ كبيرة يقيم أكثرها فى اليمن وفى يَثْرِب . ثم كانت مجوسية الفرس تقف فى وجه القوّات المسيحية حتى لا تعبر الفرات إلى فارس ، وتؤيِّد بقوّتها المعنوية أوضاع الوثنية حيثما وُجدت الوثنية . وكان سقوط رومية وزوال سلطانها بعد انتقال عاصمة حضارة العالم إلى بزنطية وما تلا ذلك من بوادر التحلّل ، قد أكثر الشيِّع فى المسيحية كثرةً جعلتها – كما قدَّمنا – تتناحر وتقتتل وتَهْوِى من عُليا مراتب الإيمان إلى الجدل فى الصور والألفاظ وَفى مبلغ قُدُس مريم وتقدّمها على ابنها المسيح أو تقدّمه عليها ، جدلاً هو النذير أنَّى وُجد بتدهور ما يجرى فى شأنه وما يحتدم من أجله ؛ ذلك بأنه يذر اللب ويأخذ بالقشور ، ويظل يكدّس من هذه القشور فوق اللب ما يخفيه وما يجعل من المحال على الناس إدراكه أو اختراق حجب القشور إليه .

تناحر الفرق المسيحية

وقد كان ما يحتدم جدل نصارى الشام حوله غيرَ ما يحتدم جدل أهل الحيرة

أو أهل الحبشة حوله . ولم يكن اليهود بطبيعة صلتهم بالنصارى ليعملوا على تهدئة هذا الجدل أو التسكين من حدته . لذلك كان طبيعيًّا أن يظل العرب الذين يتصلون بنصارى الشام وبنصارى اليمن فى رحلتى الشتاء والصيف وبمن يفدون عليهم من نصارى الحبشة بعيدين عن أن يتنصروا لفريق على فريق مطمئنين إلى وثنيتهم التى وُلدوا فيها وتابعوا آباءهم عليها . ولذلك ظلَّت عبادة الأصنام مزدهرة عندهم ، حتى امتدَّ شىء من أثرها إلى جيرانهم نصارى نَجْران ويهود يثرب الذين تسامحوا فى أمرها ثم احتملوها ثم اطمأنوا إليها ، أن كانت من صِلاَت التجارة الحسنة بينهم وبين هؤلاء العرب الذين يعبدونها لِتَقَرِّبَهم إلى الله زُلْفَى .

انتشار الوثنية

ولعل تناحر الفرق المسيحية لم يكن وحده السبب فى إصرار العرب على وثنيتهم ؛ فقد كانت الوثنيات المختلفة ما تزال لها بقايا فى الأمم التى انتشرت المسيحية فيها . كانت الوثنية المصرية والوثنية الإغريقية ما تزالان تتبدَّيان من خلال المذاهب المختلفة ، ومن خلال بعض المذاهب المسيحية نفسها ، وكانت مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ما تزال ذات أثر ، إن يكن أقلّ كثيرًا مما كان فى عهد البطالسة وفى أوَّل العهد المسيحى ، فقد كان على كل حال ما يزال متغلغلا فى النفوس ، وما يزال منطقه البرّاق المظهر ، وإن يكن سفسطائىّ الجوهر ، يُغرى الوثنية المتعددة الآلهة ، القريبة بآلهتها إلى سلطان الإنسان ، المحبَّبة لذلك إليه . وأكبر ظنى أن هذا هو ما يشدُّ النفوس الضعيفة إلى الحرص على الوثنية فى كل الأزمان ، وفى زماننا هذا . فالنفوس الضعيفة أعجز من أن تسمو حتى تتصل بالوجود كله كيما تدرك وَحْدته ممثلةً فيما هو أسمى من كل ما فى الوجود ، ممثَّلة فى الله ذى الجلال . وهى لذلك تقف عند مظهر من مظاهر هذا الوجود كالشمس أو كالقمر أو كالنار ، ثم تضعفُ عن السمو إلى تصوُّر ما يدلُّ هذا المظهر عليه من وحدة الوجود .

هذه النفوس الضعيفة تكتفى بوَثَنٍ يتمثَّل لها فى معنًى مبهم وضيع من الوجود ووحدته ، فتتصل بهذا الوثن وتخلع عليه من صور التقديس ما لا نزال نراه فى بلاد العالَم جميعًا ، مع ما يزعم هذا العالم من تقدُّم فى العلم وسمو فى

الحضارة . من ذلك ما يراه الذين يزورون كنيسة القِدّيس بطرس فى رومية ؛ فهم يرون قدَم التمثال المُقام بها للقِدّيس تَبريها قبلاتُ عِباده المؤمنين ، ثم تضطر الكنيسة إلى تغييرها كلما انبرت . وما نحسبنا ونحن نرى ذلك إلاّ نلتمس العذر لأولئك الذين لمّا يكن الله قد هداهم إلى الإيمان ، والذين كانوا يرون تناحر جيرانهم النصارى وبقاء أوضاع الوثنية بينهم ، حين يقيمون على عبادة الأوثان التى كان يعبد آباؤهم . وكيف لا نعذرهم وهذه الأوضاع متأصلة فى العالم باقية بقاءً لم ينقطع حتى اليوم وما أحسبه ينقطع أبدًا ؛ بقاء يفسر هذه الوثنية التى يرتضيها المسلمون اليوم فى دينهم ، وهو الذى جاء حربًا على الوثنية ، وهو الذى قضى على كل عبادة غير عبادة الله ذى الجلال .

عبادة الأصنام

ولقد كانت للعرب فى عبادة الأوثان أفانين شتَّى يصعب على باحث اليوم أن يحيط بها . فقد حطَّم النبى الأصنام وأمر أصحابه بتحطيمها حيثما ثَقِفوها ؛ وتناهى المسلمون عن التحدّث عنها بعد أن عَفَّوْا على آثارها وأزالوا من الوجود فى التاريخ وفى الأدبِ كل ما يتصل بها . على أن ما ورد من ذكرها فى القرآن وما تناقلته الروايات فى القرن الثانى للهجرة عنها ، بعد إذ أمن المسلمون فتنتها ، ينبئ عما كان لها قبل الإسلام من جليل المكانة وما كانت عليه من مختلف الصور ، ويدلّ على أنها كانت تتفاوت فى درجات التقديس . وقد كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة . وكانت هذه المعبودات الجاهلية تختلف ما بين الصنم والوَثَن والنصُب ؛ فالصنم ما كان على شكل الإنسان من معدن أو خشب . والوثن ما كان على شكله من حجر . أمَّا النصب فصخرةٌ ليست لها صورة معينة ، تجرى عليها قبيلة من القبائل أوضاع العبادة ، لما تزعمه من أصلها السماوىّ أن كانت حجرًا بركانيًّا أو ما يشبهه . ولعلّ أدقَّ الأصنام صنعاً ما كان لأهل اليمن . ولا عجب فحظهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز ولا عرفه أهل نجد وكِنْدة . على أن كتب الأصنام لا تُشير بالدقة إلى شىء من صور هذه الأصنام إلا ما قيل عن هبل من أنه كان من العقيق على صورة الإنسان ، وأن ذِراعه كسرت فأبدله القرشيون منها ذراعًا من ذهب . وهُبَل كان كبير آلهة العرب وساكن الكعبة بمكة ، فكان الناس يحجون إليه من كل فجّ عميق .

ولم يكن العرب ليكتفوا بهذه الأصنام الكبرى يقدّمون إليها صلواتهم وقرابينهم ، بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نُصُباً فى بيته ، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم فى السفر .

وهذه الأصنام جميعاً ، سواء منها ما كان بالكعبة أو حولها وما كان فى مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها ، كانت تعتبر الوسيط بين عبادها وبين الإله الأكبر . وكان العرب لذلك يعتبرون عبادتهم إياها زُلْفَى يتقربون بها إلى الله وإن كانوا قد نسوا عبادة الله لعبادتهم هذه الأصنام .

مكانة مكة

ومع أن اليمن كانت أرقى بلاد شبه الجزيرة كلها حضارةً بسبب خِصْبها وحسن تنظيم انحدار المياه إلى أرضها ، لم تكن مع ذلك مطمح النظر لأهل هذه البلاد الصحراوية المترامية الأطراف ، ولم يكن إلى معابدها حجهم ؛ وإنما كانت مكة وكانت كعبتها بيت إسماعيل مَثَابة الحاجٍّ ، إليها كانت تُشَدُّ الرحال وتشخص الأبصار ، وفيها أكثر من كل جهة سواها كانت تُرْعَى الأشهر الْحُرُم . لذلك ولمركزها الممتاز فى تجارة العرب كلها ، كانت تعتبر عاصمة شبه الجزيرة . ثم أراد القدر من بعدُ أن تكون مَسْقَطَ رأس محمد النبىّ العربى ، فتكون بذلك متَّجَهَ نظر العالم على توالى القرون ، ويظلّ لبيتها العتيق تقديسه ، وتبقى لقريش فيها المكانة السامية ، وإن ظلَّت وظلوا جميعاً أدنى إلى خشونة البداوة التى كانوا عليها منذ عشرات القرون .

الفصل الثانى

مكة والكعبة وقريش

موقع مكة – إبراهيم وإسماعيل – قصة الذبح والفداء – زمزم – زواج إسماعيل من جرهم – بناء الكعبة – ولاية جرهم أمر مكة – قصى وأولاده – اجتماع أمر مكة لقصى القرشى – هاشم وعبد المطلب – وظائف مكة الزمنية والدينية – الحج إلى الكعبة – قصة أبرهة والفيل – عبد الله بن عبد المطلب – قصة فـــــدائه .

موقع مكة

فى وسط طريق القوافل المحاذى للبحر الأحمر ما بين اليمن وفِلَسْطين ، تقوم عدّة سلاسل من الجبال تبعد نحو الثمانين كيلومترًا من الشاطئ . وهى تحيط بواد غير فسيح ، تكاد تحصره لولا مَنَافذ ثلاثة ، يصله أحدها بطريق اليمن ، ويصله الثانى بطريق قريب من البحر الأحمر (بحر القُلْزُم) عند مرفأ جُدّة ، ويصله الثالث بالطريق المؤدى إلى فلسطين . فى هذا الوادى المحصور بين الجبال تقوم مكة . ومن العسير معرفة تاريخ قيامها . وأكثرُ الظن أنه يرجع إلى ألوف من السنين خلتْ . والثابت أن واديها اتّخذ من قبل أن تبنى موئلا لراحة رجال القوافل ، بسبب ما كان به من بعض العيون ، وأن رجال القوافل هؤلاء كانوا يجعلون منها مضارب لخيامهم ، سواء منهم القادمون من ناحية اليمن قاصدين فلسطين والقادمون من فلسطين متجهين إلى اليمن . والراجح أن إسماعيل بن إبراهيم أوّل من اتخذها مُقاماً وسكنًا ، بعد أن كانت مجرد محلة للقوافل وسوقًا للتجارة يقع فيها التبادل بين الآتين من جنوب الجزيرة والمنحدرين من شمالها .

إبراهيم عليه السلام

وإذا كان إسماعيل أوّل من اتخذ مكة مقامًا وسكنًا فإن تاريخها فيما قبل ذلك غامض كل الغموض . وربما أمكن القول بأنها اتخذت مُقامًا للعبادة قبل أن يجىء إسماعيل إليها ويقيم بها . وقصة مجيئه إليها تدعونا إلى أن نلخِّص قصة أبيه إبراهيم عليهما السلام . فقد وُلد إبراهيم بالعراق لأب نجار كان يصنع الأصنام ويبيعها من قومه مَن يعبدونها . فلمَّا شبّ إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه ، ثم رأى قومه من بعد ذلك كيف يعبدونها وكيف يخلَعون على هذه القطع من الخشب التى مرّت بين يديه ويدى أبيه كل ذلك التقديس ، ساوره الشك

فى أمرها ، وسأل أباه كيف يعبدها وهى من صنع يده ؟ ! وتحدث إبراهيم بذلك إلى الناس ؛ فاهتم أبوه لأمره مخافة ما يجرّه من بوار تجارته . لكن إبراهيم كان يحترم عقله ، ويريد أن يحمل الناس بالحجة على الاقتناع برأيه ؛ فانتهز غفلة الناس فذهب إلى هذه الآلهة فكسرها إلا كبيرها ، فلما جىء به على أعين الناس قيل له : (أَأَنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ . قال بل فعَله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا يَنْطِقون)[١] . وإنما فعل إبراهيم هذا بعد إذ فكّر فى ضلال عبادة الأصنام وفيمن تجب له العبادة : (فَلما جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رأَى كوكبًا قال هذا رَبى فَلما أَفَل قال لا أُحِبُّ الآفِلين . فَلمَّا رَأَى القَمَرَ بازغًا قال هذا رَبِّى فلمَّا أَفَلَ قال لَئنْ لم يهْدِنِى رَبِّى لأَكونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ . فلمَّا رأَى الشَّمْسَ بَازغةً قال هذا رَبِّى هذا أَكْبَرُ فلما أَفلَتْ قال يَا قَوْم إِنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْركُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ للَّذِى فَطَرَ السَّموات والأَرْضَ حَنِيفًا وما أَنَا مِنَ المُشْركين)[٢] .

إبراهيم وسارة بمصر

ولم ينجح إبراهيم فى هداية قومه ، بل كان جزاؤه منهم أن ألقوه فى النار وأنجاه الله منها ، ففرّ إلى فلسطين مستصحبًا معه زوجه سارَة . ومن فِلَسْطين ارتحل إلى مصر . وبها يومئذ ملوك العماليق (الهكسوس) ؛ وكانت سارة جميلة وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات ؛ فأظهر إبراهيم أن سارة أخته خشية أن يقتله الملك ليتّخذها له زوجًا . وأراد الملك اتخاذها زوجًا ، فرأى فى المنام أنها ذات بعل ، فردَّها إلى إبراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تدعى هاجر . ولما كانت سارة قد سلخت السنين الطوال مع إبراهيم ولم تلد ، دفعته ليدخل بهاجر ، فدخل بها ، فلم تُبطئ أن ولدت له إسماعيل . وبعد أن شبّ إسماعيل وترعرع حملت سارة وولدت إسحاق .

يختلف الرواة ها هنا فى مسألة إقدام إبراهيم على ذبح إسماعيل والفداء ، وهل كانت قبل ميلاد إسحاق أو بعده ، وهل كانت بفلسطين أو بالحجاز .

---

(١) سورة الأنبياء آيتا ٦٢ و ٦٤ . (٢)سورة الأنعام الآيات من ٧٦ إلى ٧٩ .

وإن مؤرخي اليهود ليذهبون إلى أن الذبيح إنما كان إسحاق لا إسماعيل . وليس ها هنا مقام تمحيص هذا الخلاف . وفى رأى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجّار فى كتاب « قصص الأنبياء » أن الذبيح هو إسماعيل . ودليله من التوراة نفسها أن الذبيح وصف فيها بأنه ابن إبراهيم الوحيد . وكان إسماعيل هو الابن الوحيد إلى أن وُلد إسحاق . فلمّا ولدت سارة لم يبق لإبراهيم ابن وحيد أن كان له إسماعيل وإسحاق . والتسليم بهذه الرواية يقتضى أن تكون قصة الذبح والفداء بفلسطين . وكذلك يكون الأمر إذا كان الذبيح إسحاق ؛ فقد ظل إسحاق مع أمه سارة بفلسطين ولم يذهب إلى الحجاز . فأما الرواية التى تذهب إلى أن الذبح والفداء إنما كانا فوق مِنى فتجعل الذبيح إسماعيل . ولم يرد فى القرآن ذكر لاسم الذبيح مما جعل المؤرخين المسلمين يختلفون فيه .

قصة الفداء فى القرآن

وقصة الذبح والفداء أن إبراهيم رأى فى منامه أن الله يأمره بأن يقدّم ابنه قُرباناً فيذبحه ؛ فسار وابنه فى الصباح ، (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قال يا بُنَيَّ إني أَرَى في المَنَامِ أَني أَذْبَحكَ فانْظُرْ ماذا تَرَى قال يا أَبَتِ افْعَل ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابرينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وتَلَّه لِلجَبِين . ونَادَيْنَاه أَنْ يا إبراهيمُ قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا إنَّا كَذَلِكَ نَجْزى المُحْسنِين . إنَّ هذا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ . وَفَدَيْنَاه بِذِبحٍ عظيم)[1] .

القصة فى رواية التاريخ

وتصوّر بعض الروايات هذه القصة تصويراً شعرياً تدعونا روعته أن نقصّه هنا وإن لم يقتض الحديثُ عن مكة قَصَصَه ؛ ذلك أنّ إبراهيم لمّا رأى فى المنام أنه يذبح ابنَه وتحقق أن ذلك أمر ربّه ، قال لابنه ؛ يا بُنيَّ خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذه الهضبة لنحتطب لأهلنا . وفعل الغلام وتبع والده ، فتمثَّل الشيطان رجلا . فجاء أمَّ الغلام فقال لها : أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : ذهب به يحتطب لنا من هذا الشِّعْب . قال الشيطان : والله ما ذهب به إلاّ ليذبحه . قالت الأمُّ : كلا ؟ هو أشفق به وأشد حبًّا له . قال الشيطان : إنه يزعم أن الله أمره بذلك ، فأجابت الأم : إن كان الله قد

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١٠٢ إلى ١٠٧ .

أمره بذلك فليطع أمر ربّه . فانصرف الشيطان خاسئًا ، ثم لحِق بالابن وهو يتبع أباه ، وألقى إبليس عليه ما ألقى على أمه ، وأجاب الابن بما أجابت هى به . فأقبل الشيطان على إبراهيم يذكر له أن المنام الذى رأى خدْعةٌ من الشيطان ليذبح ابنه ثم يندَم ولات ساعة مَندَم ، فصرَفه إبراهيم ولعنه . فنكَص إبليس على عقبيه خَزيان مُحْنَقًا أن لم ينل من إبراهيم ولا من زَوجه ولا من ابنه ما أراد أن ينال منهم . ثم إن إبراهيم أفضى إلى ابنه برؤياه وسأله رأيه فى الأمر . قال يا أبت افْعَلْ ما تؤمر . ثم قال فى رواية القصة الشعرية : يا أبتاه ! إذا أردت ذبحى فاشددُ وَثاقى لئلا يصيبك شىء من دمى فينقص أجرى . وإن الموت لشديد ، ولا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسَّه ، فاشْحَذ شَفْرتك حتى تُجْهِز علىّ . فإذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكْبُبْنى على وجهى ولا تُضجعنى لجنبى ، فإنى أخشى إن أنت نظرتَ إلى وجهى أن تُدركك الرقَّة فتحول بينك وبين أمر ربك فىّ . وإن رأيت أن تردّ قميصى إلى أمى فإنه عسى أن يكون أسْلَى لها عنى فافعلْ . قال إبراهيم : نِعم العون يا بُنىَّ أنت على أمر الله ! ثم إنه همَّ بالتنفيذ ، فشد كِتافَ الغلام وتلَّه للجبين ليقتله ، فنُودى أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا ، وافتدى بكبش عظيم وجده إبراهيم على مقربة منه فذبحه وحرَّقه .

هذه قصة الذبح والفداء . وهى قصة الإسلام لأمر الله غاية الإسلام ، والتسليم لقضائه كل التسليم .

وشبّ إسحاق إلى جانب إسماعيل ، وتساوى عطف الأب على الاثنين ، فأغضب ذلك سارَة أن رأت هذه التسوية بين ابنها وابن هاجَر أمَتها غير لائقة بها . وأقسمت لا تساكن هاجر ولا ابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه . وأحسّ إبراهيم أن العيش لن يطيب وهاتان المرأتان فى مكان واحد . عند ذلك ذهب بهاجر وبابنها ميممًا الجنوب حتى وصل إلى الوادى الذى تقوم مكة اليوم به .

إبراهيم يذهب بإسماعيل وأمه إلى وادى مكة

وكان هذا الوادى ، كما قدَّمنا ، مَضْرَبَ خيام القوافل فى الأوقات التى تَفْصِل فيها القوافل من الشام إلى اليمن ، أو من اليمن إلى الشام ، ولكنه كان فيما خلا ذلك من أشد أوقات السنة خلاء أو يكاد . وترك إبراهيم إسماعيل وأمه وترك لهما بعض ما يتبلغان به . واتخذت هاجَرُ عريشًا أوَت إليه مع ابنها . وعاد إبراهيم أدراجَه من حيث أتى . فلما نفِد الماء والزاد جعلت هاجر تجيل طرفها فيما حولها فلا ترى شيئًا . فجعلت تُهرولَ حتى نزلت الوادى تلتمس ماء ، وهى - فيما يقولون - لا تنفك فى هرْولَتها بين الصَّفَا والمرْوَة ، حتى إذا أتمت السعى سبعًا عادت إلى ولدها وقد ملكها اليأس فألفته قد فحص الأرض بقدمه فنبع الماء من الأرض فارتوت وأروت إسماعيل معها . وحبست الماء عن السيل حتى لا يضيع فى الرمال وأقام الغلام وأمَّه ترد عليهم العرب أثناء رحلاتهم ، فينالان من الخير ما يكفيهم أسباب العيش إلى أن تمر بهم قوافل أخرى .

زمزم

استهوت زمزم وماؤها المتفجر بعض القبائل للمقام على مقربة منها . وجُرْهُم أولى القبائل التى أقامت والتى يقول بعض الرواة إنها كانت هناك قبل أن تجىء هاجَر وابنها ، على حين تذهب روايات أخرى إلى أنها لم تُقِمْ إلا بعد أن تفجَّرت زمزم وجعلت العيش فى هذا الوادى الأجرد مستطاعًا . وشبّ إسماعيل وتزوج فتاة من جُرهُم ، وأقام وإياها مع الجُرهميّين فى هذا المكان الذى شيّد به البيت الحرام ، وقامت مكة بعد ذلك من حوله . ويذكرون أن إبراهيم استأذن سارة يومًا فى زيارة إسماعيل وأمّه فأذنت له فذهب . فلما سأل عن بيت إسماعيل وعرفه قال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد ما نعيش به . فسألها أعندها ضيافة من طعام أو شراب ؟ فأجابت بأن ليس عندها شىء . فانصرف إبراهيم بعد أن قال لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له : غير عَتَبَةَ بيتك . فلما أخبرت إسماعيل بما ذكر أبوه سرَّحها وتزوَّج جُرْهميَّة أخرى بنتَ مُضَاض بن عمرو . وقد أكرمت وِفادة إبراهيم لمَّا جاء بعد ذلك بزمن . فلما انصرف طلب إليها أن تقرئ زوجها السلام وتقول له : الآن استقامت عتبةُ بيتك . ووُلد لإسماعيل من هذا الزواج اثنا عشر ولدًا ، هم

زواج إسماعيل

آباء العرب المسْتَعْرِبة ، وهم العرب الذين ينتمون من ناحية خؤولتهم فى جُرْهُم إلى العرب العاربة أبناء يَعْرُب بن قَحْطان ؛ فأما أبوهم إسماعيل بن إبراهيم فيمتّ من ناحية أمومته إلى مصر بأوثق نسب ، ومن ناحية أبوته إلى العْراق وإلى فلسطين وإلى حيث نزل إبراهيم من أرض الله .

مناقشة القصة

هذه القصة من قصص التاريخ يكاد ينعقد الإجماع على جملتها من ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة وإن وقع خلاف على التفاصيل . والذين يعرِضون لتفاصيل حوادثها بالنقد يروونها على أن هاجر ذهبت بإسماعيل إلى الوادى الذى به مكة اليوم ، وكانت به عيون أقامت جُرُهمْ عندها ، فنزلت هاجَر منهم أهلاً وسهلا لمَا جاء إبراهيم بها وبابنها . فلمَّا شبَّ إسماعيل تزوّج جُرْهميَّةً ولدت له أولاده . وكان لهذا التلاقح بين إسماعيل العِبرىّ المصرِىّ وبين هؤلاء العرب ما جعل ذريته على جانب من العزم وقوة البأس والجمع بين فضائل العرب والعِبْريين والمصريين . أما ما ورد عن حَيْرة هاجر لما نضَب الماء منها ، وعن سعيها سبعًا بين الصفا والمروة ، وعن زمزم وكيف نبع الماء منها ، فموضع شك عندهم .

ويرتاب وليم مُوير فى ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وينفى القصة من أساسها ، ويذكر أنها بعض الإسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشتراك فى أبوَّة إبراهيم لهم أجمعين ، أن كان إسحاق أبًا لليهود . فإذا كان أخوه إسماعيل أبا العرب فهم إذًا أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود ، وتيسر لتجارة اليهود فى شبه الجزيرة . ويستند المؤرّخ الإنكليزى فى رأيه هذا إلى أن أوضاع العبادة فى بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم لأنها وثنيَّة مُغْرقة فى الوثنية ، وكان إبراهيم حنيفًا مسلمًا . ولسنا نرى مثل هذا التعليل كافيًا لنفى واقعة تاريخيَّة . فوثنية العرب بعد موت إبراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة لا تدلُّ على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم إلى الحجاز وحين اشترك وإسماعيل فى بناء الكعبة . ولو أنها كانت وثنيَّة يومئذ لما أيَّد ذلك سير موير ؛ فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام وحاول هو هدايتهم فلم ينجح . فإذا دعا العرب إلى مثل ما دعا إليه

قومَه فلم ينجح وبقى العرب على عبادة الأوثان لم يطعن ذلك فى دهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة . بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ . فإبراهيم الذى خرج من العراق فارًا من أهله إلى فلسطين وإلى مصر ، رجل أَلِف الارتحال وألف اجتياز الصحارى ؛ والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقًا من القوافل منذ أقدم العصور ؛ فلا محلَّ إذًا للريبة فى واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها .

والسير وليم موير والذين ارْتأوا فى هذه المسألة رأيه يقولون بإمكان انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب واتصالهم وإياهم بصلة النسب . وما ندرى ، وهذا الإمكان جائز عندهم فى شأن أبناء إبراهيم وإسماعيل ، كيف لا يكون جائزًا فى شأن الرجلين بالذات ! وكيف لا يكون ثابتًا قطعًا ورواية التاريخ تؤكده ! وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب وقد ذكره القرآن وتحدَّثت به بعض الكتب المقدّسة الأخرى ! .

بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة

ورفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت الحرام . ﴿إِنَّ أَولَ بيتٍ وُضِع لِلنَّاس لَلَّذى بِبَكَّةَ مُبارَكا وَهُدًى لِلْعَالَمين . فِيه آياتٌ بَيِّناتٌ مَقَامُ إبراهيم وَمَنْ دَخَلَهُ كان آمِنًا﴾[1] . ويقول تعالى : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبيْتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَام ابراهِيمَ مُصَلًّى وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيل أَنْ طَهِّرَا بَيْتِى للطَّائِفِين والعاكفين والرُّكَع السُّجُودِ . وإِذْ قَال إبراهيمُ رَبِّ اَجْعَلْ هذا بَلَدًا آمِنًا وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرات مَنْ آمَنَ منهم بالله واليوم الآخرِ قَالَ ومَنْ كَفَر فأُمَتِّعُه قليلا ثم أَضْطَرُّهُ إلى عَذَاب النَّار وبئسَ المصيرُ . وإِذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ مِن البيتِ وإسماعيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّميع العليم﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران آيتا ٩٦ و ٩٧ .

(٢) سورة البقرة الآيات من ١٢٥ إلى ١٢٧

كيف رفع إبراهيم البيت مثابةً للناس وأمنًا ، ليتوجّه الناس فيه إلى الله مؤمنين به وحده ، ثم أصبح من بعد ذلك موئل الأصنام وعبادتها ؟ وكيف كانت أوضاع العبادة تؤدَّى فيه بعد إبراهيم وإسماعيل ، وفى أية صورة كانت تؤدَّى ؟ ومتى تغيَّرت هذه الأوضاع وتغلبت عليها الوثنية ؟ هذا ما لا يحدّثنا التاريخ المعروف عنه ، وكل ما هنالك فروض يحسبها أصحابها تصف ما كان واقعًا . فالصابئون من عُبَّاد النجوم كان لهم سلطان كبير فى بلاد العرب . وقد كان هؤلاء – فيما يقولون – لا يعبدون النجوم لذاتها وإنما كانوا فى بداءة أمرهم يعبدون الله وحده ، ويعظمون النجوم على أنها مظاهر خلقه وقدرته . ولما كانت كثرة الناس الكبرى أقصر من أن يحيط ذهنها بمعنى الألوهية السامى ، فقد اتخذوا من النجوم آلهة . وكانت بعض الأحجار البركانية يخال الناس أنها ساقطة من السماء منحدرةٌ لذلك من بعض النجوم ، ومن ثمّ اتخذت أوَّل أمرها مظاهر لهذه الآلهة الرفيعة وقُدّسَت بهذه الصفة ، ثم قُدّسَت لذاتها ، ثم كانت عبادة الأحجار ، ثم بلغ من إجلالها أن كان العربىّ لا يكفيه أن يعبد الحجر الأسود بالكعبة ، بل كان يأخذ معه فى أسفاره أى حجر من أحجار الكعبة يصلى إليه ويستأذنه فى الإقامة والسفر ، ويؤدّى إليه كل ما يؤدّى للنجوم وخالق النجوم من أوضاع العبادة . وعلى هذا النحو استقرت الوثنية وقُدّسَت التماثيل وقرّبت لها القرابين .

التطور الدينى فى بلاد العرب

هذه صورة يصوّرها بعض المؤرخين لتطوّر الأمر فى بلاد العرب من بناء إبراهيم البيت لعبادة الله ، وكيف آل أمره بعد ذلك فصار مستقر الأصنام . وقد ذكر هيرودوت ، أبو التاريخ المكتوب ، عبادة اللاّت فى بلاد العرب ، وذكر دُيودور الصّقلّى بيت مكة الذى يعظمه العرب ؛ فدل ذلك على قدم الوثنية فى شبه الجزيرة ، وعلى أنّ دين إبراهيم لم يستقر فيها طويلا .

الأنبياء العرب

ولقد قام فى هذه القرون أنبياء دعَوْا قبائلهم فى بلاد العرب إلى عبادة الله وحده ، فرفض العرب وأصرُّوا على وثنيَّتهم : قام هود فدعا عادًا ، وكانت تقيم فى شمال حَضْرَمَوْتَ إلى عبادة الله وحده فما آمن به إلا قليل ؛ فأمّا كثرة قومه فاستكبروا وقالوا له : (يا هُودُ ما جِئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلِهتنا

عن قَوْلك وما نَحن لك بمؤمنين) (١) . وأقام هود يدعوهم السنين ، فلا تزيدهم دعوته إلا عتوًّا فى الأرض واستكبارًا . وقام صالح يدعو للإيمان ثمود ، وكانت مساكنهم بالحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القُرَى فى الجنوب الشرقىّ من أرض مَدْيَنَ القريبة من خليج العقَبة ؛ ولم تثمر دعوة صالح ثمودَ أكثر مما أثمرت دعوة هود عادًا . وقام شُعَيْب فى شعب مَدْيَن ، وكانوا بالحجاز ، يدعوهم إلى الله ، فلم يسمعوا له فهلكوا ونزل بهم ما نزل بعاد وثمود . وغير هؤلاء من الأنبياء قصّ القرآن قصصهم ودعوتهم قومهم لعبادة الله وحده ، واستكبار قومهم وإقامتهم على عبادة الأوثان وعلى التوجه بقلوبهم لأصنام الكعبة وحَجِّهم إليها كل عام من كل صَوْب وَحَدَب فى بلاد العرب . وفى ذلك نزل قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِين حَتَى نَبْعَثَ رَسُولاً) (٢) .

مناصب الكعبة

أفكانت تحيط بالكعبة منذ إنشائها مناصب كالتى تولاَّها قُصَىّ بنِ كلاب فى منتصف القرن الخامس الميلادىّ حين اجتمع له ملك مكة ؟ فقد اجتمعت لقُصَى الحِجابة والسقاية والرِّفادة والنَّدْوة واللواء والقيادة . والحِجابة سِدانة البيت ، أى تولى مفاتيحه . والسقاية إسقاء الحَجيج الماء العذب الذى كان عزيزًا بمكة ، وإسقاؤهم كذلك نبيذ التمر . والرِّفادة إطعام الحاجّ جميعًا . والندوة رياسة الاجتماع كل أيام العام ، واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجَّهوا إلى عدوّ . والقيادة إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب ، وكانت هذه المناصب كلها معتبرة فى مكة وكأنها تحيط بالكعبة متَّجَه أنظار العرب جميعًا فى عباداتهم . وأحسبها لم تَنبت كلها دفعة واحدة منذ أقيم البيت ، بل نشأت الواحدة تلو الأخرى مستقلا بعضها عن الكعبة ومكانتها الدينية ، متصلا بعضها بالكعبة من طبعه .

مكة قبل قصى

لم تكن مكة حين بناء الكعبة ، على خير ما يمكن أن يصوّره خيالنا ، لِتَزيدَ على قبائل من العماليق ومن جُرْهُم ، فلما استقر بها إسماعيل ورفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم اقتضى تطوُّر مكة ، لتصير حَضراً أو ما يشبه الحضر ، زمانًا طويلا ونقول : ما يشبه الحضر أن ظلت مكة وما تزال فى

(١) سورة هود اية ٥٣ . (٢) سورة الإسراء آية ١٥ .

طباع أهلها بقايا متخلفة من معانى البداوة الأولى . ولا يأبى بعض المؤرخين أن يذكر أنها ظلّت على بداوتها إلى أن اجتمع أمرها لقصىّ فى منتصف القرن الخامس للميلاد . وعسيرٌ أن نتصوّر بقاء بلد له ما لمكة وبيتها العتيق من التقديس فى حالة البادية ، مع ما يُثبت التاريخ من أن أمر البيت بقى بعد إسماعيل فى يد جُرْهُم أخوال بنيه أجيالاً متعاقبة أقاموها حوله ، ومع أن مكة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام وإلى نجد ، كما كانت تتصل من البحر الأحمر القريب منها بتجارة العالم . عسيرٌ أن نتصوّر بقاء بلد له هذه المكانة من غير أن يُدنيه اتصالُه بالعالم من مراتب الحضارة . فمن الحق لذلك أن نقدر أن مكة ، وقد دعاها إبراهيمَ بلدًا ودعا الله له أن يكون آمنًا مطمئنًا ، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالاً طويلةً قبل قُصَىّ .

تغلب قريش

وظل أمر مكة لجرهم بعد أن غلبوا العماليق عليها إلى عهد مُضَاض بن عمرو بن الحارث . وقد راجت تجارة مكة خلال هذه الأجيال رواجًا أمَّر مُتْرَفيها وجعلوا يَنْسَوْن أنهم بوادٍ غير ذى زرع وأنهم فى حاجة لذلك إلى الدأب المتصل واليقظة الدائمة . وبلغ من نسيانهم أن نضب ماء زمزم وأن فكر عرب خُزَاعة فى الوثوب إلى مناصب الأمر فى البلد الحرام .

ولم يُجْدِ تحذير مُضاض قومه عاقبة ما انغمسوا فيه من ترف ، وأيقن أن الأمر زائل عنه وعنهم ؛ فعمد إلى زمزم فأعمق حفرها ، وإلى غزالتين من ذهب كانتا بالكعبة مع طائفة من الأموال التى كانت تهـــدى إلى البيت الحرام فدفعها بقاع البئر وأهال الرمال عليها ، آملاً أن يعود له الأمر يومًا فيفيد من الكشف عنها ، وخرج ومعه بنو إسماعيل من مكة . ووَليت خُزاعة أمرها . وظلّت تتوارثه حتى آل إلى قصىّ بن كلاب الجدّ الخامس للنبىّ .

وكانت أمّ قصىّ فاطمةُ بنت سعد بن سَهل قد تزوّجت من كلاب فولدت له زُهْرة وقُصَيًّا . ثم هلك كلاب وقصىّ طفل فى المهد . وتزوَّجت فاطمة من ربيعة بن حَرام ؛ فرحل بها إلى الشام وهناك ولدت له درّاجًا . وكبر قصىّ وهو لا يعرف لنفسه أبًا غير ربيعة . ووقع بينه وبين آل ربيعة شرّ فعيَّروه أنه فى جوارهم وأنه ليس منهم . وشكا قصىّ إلى أمه ما عُير إياه ، فقالت : يا بنىّ

إنك والله لأكرم منهم أبًا ، أنت ابن كلاب بن مُرَّة ، وقومك بمكة عند البيت الحرام .

قصى بن كلاب (سنة ٤٠٠ م)

وقدِم قصىّ مكة وأقام بها ، وعُرف عنه فيها من الْجِدِّ وحسن الرأى ما جعله موضع احترام أهلها وأهله فيها . وكانت سدانة البيت فى خُزاعة لحُلَيْل بن حُبْشِيَّة ، وكان رجلاً ثاقب النظر حسن التقدير ؛ فما لبث حين خطَب قصىّ إليه ابنته حُبَّى أن رحَّب به وزوّجه منها . واستمر دأب قصىّ فى السعى والتجارة ، فكثرت أمواله كما كثر أولاده وعظم بين قومه شرفه . ومات حُلَيْل بعد أن أوصى بمفتاح البيت الحرام لحبَّى زوج قصىّ ، واعتذرت حُبَّى عن ذلك وجعلت المفتاح لأبى غِبشان الخزاعي . وكان أبو غبشان سكِّيرًا ، فأعوزه الشراب يومًا فباع مفتاح البيت قصيًّا بزقّ خمر . وقدرت خُزاعة ما يصيب مكانتها بمكة إذا بقيت سدانة الكعبة لقصىّ بعد أن كثر ماله وبعد أن بدأت قريش تجتمع حوله ، فأنكروا أن يكون لغيرهم منصب من المناصب المتصلة بالبيت الحرام . وإستنفر قصىّ قريشًا ، ورأت بعض القبائل أنه أحكم المقيمين بمكة وأعظمهم قدرًا فانضموا له وأجلوْا خزاعةَ عن مكة ، واجتمعت مناصب البيت كلها لقصى ، وأقرَّ القوم له بالملك عليهم .

بناء منازل مكة

وذهب البعض ، كما قدمنا ، إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولَّى قصىّ أمرها . ويعللون ذلك بأن خُزاعة وجُرْهُمًا قبلها لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره ، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلَهم بالحرم بل يذهبون إلى الحِلّ . ويضيف هذا البعض أن قصيًّا لَما تمّ له أمر مكة جمع قريشًا وأمرهم أن يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا فى أمور بلدهم . فقد كان من عادتهم ألاّ يتم أمر إلا باتفاقهم ؛ فلم تكن تُنْكَح امرأة ولا يتزوَّج رجل إلا فى هذه الدار . وبنتْ قريش بأمر قصىّ حول الكعبة دورَها ، وتركوا مكانًا كافيًا للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقًا يُنفَذ منه إلى المَطَاف .

أبناء قصى

وكان عبد الدار أكبَر أبناء قصىّ ، ولكن أخاه عبدَ مَنَاف كان قد تقدَّم عليه أمام الناس وقد شرُف فيهم . فلما كبر قصىٌّ وضعُف بدنه ولم يبق قادرًا

على تولى أمور مكة جعل الحِجابة لعبد الدار وسلم إليه مفتاح البيت ، كما أعطاه السقاية واللواء والرّفادة . وكانت الرّفادة قسطًا تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه إلى قصيّ يصنع منه فى موسم الحج طعامًا ينال منه من الحاجّ من لم يكن ذا سعة ولا زاد . وكان قصيّ أوّل من فرض الرّفادة على قريش حين جمعهم واعتزّ بهم وأخرج وإياهم خزاعة من مكة . فرضها عليهم وقال لهم : « يا معشر قُريش ! إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حَرَمه ، وإن الحاجَّ ضيف الله وزوّار بيته ، وهم أحق الأضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدُروا عنكم » .

بنو عبد مناف

وتولّى عبد الدار مناصب الكعبة كأمر أبيه وتولاّها أبناؤه من بعده . لكن أبناء عبد مناف كانوا أشرف فى قومهم وأعظم مكانةً : لذلك أجمع هاشم وعبد شمس والمطَّلب ونَوْفَل بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدى أبناء عمومتهم ، وتفرّق رأى قريش : تنصُر طائفة هؤلاء وأخرى أولئك . وعقد بنو عبد مناف حِلْف المطيّبين ؛ لأنهم غمّسوا أيديهم فى طيب جاءوا به إلى الكعبة وأقسموا لا ينقضون حِلْفهم . وعقد بنو عبد الدار حِلْف الأحلاف . وكان هؤلاء وأولئك يوشكون أن يقتتلوا فى حرب تُذيب قريشًا لولا أن تداعى الناس إلى الصلح على أن يُعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تبقّى الحِجابة واللواء والنَّدوة لبنى عبد الدار . ورضى الفريقان بذلك ، وظل الأمر عليه إلى أن جاء الإسلام .

هاشم
(سنة ٤٦٤ م)

وكان هاشم كبير قومه ، وكان ذا يسار ، فولى السقاية والرّفادة ، ودعا قومه إلى مثل ما دعاهم إليه قصيّ جده . دعاهم إلى أن يُخرج كلٌّ منهم من ماله ما ينفقه هو فى إطعام الحاجّ أثناء الموسم . فزوّار بيت الله وحجاجه هم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيف الله . وكذلك كان يُطعم الحاجّ جَميعًا حتى يصدروا عن مكة .

ازدهار
الحياة بمكة

لم يقف أمر هاشم عند هذا ، بل اتصل برّه وكرمه بأهل مكة أنفسهم . أصابتهم سَنَةٌ (١) ، فجاء لهم من الطعام وثَرَد لهم الثريد بما جعلهم ينظرون

(١) السنة هنا : الجدب .



جبل الهندي
القرارة
الطريق إلى جدة
الطريق إلى اليمن
جبل أبي قبيس
شمال
خريطة
مكة المكرمة

من جديد إلى الحياة بوجه باسم . وهاشم هو كذلك الذى سنّ رِحْلتى الشتاء والصيف : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام وبهذه المظاهر كلها ازدهرت مكة وسمت مكانتها فى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً ، واعتبرت العاصمة المعترف بها . وطوّع هذا الازدهار لأبناء عبد مناف أن يعقدوا مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام : عقد هاشم بنفسه مع الإمبراطورية الرومانية ومع أمير غسّان معاهدة حسن جوار ومودّة وحصل من الإمبراطورية على الإذن لقريش بأن تجوب الشام فى أَمْن وطُمأنينة . وعقد عبد شمس معـــاهدة تجارية مع النجاشى ، كما عقد نَوْفَل والمطّلب حِلْفاً مع فارس ومعاهدةً تجارية مع الحِمْيَريين فى اليمن . وكذلك ازدادت مكة مَنَعة جاهٍ كما ازدادت يسارًا ؛ وبلغ أهلها من المهارة فى التجارة أن أصبحوا لا يدانيهم فيها مدان من أهل عصرهم . كانت القوافل تجىء إليها من كل صوب وتصدر عنها فى رحلتى الشتاء والصيف . وكانت الأسواق تُنْصب فيما حولها لتصريف هذه التجارة فيها ؛ ولذلك مهر أهلها فى النسيئة والربا وفى كل ما يتصل بالتجارة من أسباب المعاملات .

وظل هاشم تتقدّم به السنّ وهو فى مكانته على رياسة مكة لا يفكر أحد فى منافسته ، حتى خُيِّل لابن أخيه أميَّة بن عبد شمس أنه قد بلغ مكانًا يسوّغ له هذه المنافسة ، لكنه لم يقدر وغُلب على أمره ، وبقى الأمر لهاشم . وترك أميَّة مكة إلى الشام بعشر سنوات كاملة . وإن هاشمًا لفى رحلته يومًا عائدًا من الشام مارًّا بيثرب إذ رأى امرأة ذات شرف وحسب تُطلّ على قوم يتّجرون لها ؛ تلك سَلْمى بنت عمرو الخزرجيَّة . وقد أعجب هاشم بها ، وسأل : أهى فى عصمة رجل ؟ فلما عرَف أنها مطلقة وأنها لا ترضى زوجًا إلا أن تكون عصمتها بيدها ، خطبها إلى نفسها فرضيت لعلمها بمكانته من قومه . وأقامت معه بمكة زمنًا عادت بعده إلى المدينة حيث ولدت له ولدًا دعته شَيْبة ظلّ فى حضانتها بيثرب .

المطلب

ومات هاشم بعد سنين من ذلك بغزّة أثناء إحدى رحلات الصيف ، فخلّفه أخوه المطلب فى مناصبه . وكان المطلب أصغر من أخيه عبد شمس

ولكنه كان ذا شرف فى القوم وفضل . وكانت قريش تسميه « الفيض » لسماحته وفضله . وطبيعىٌّ ، وذلك مكان المطلب من قومه ، أن تبقى الأمور تسير سيرتهَا مطمئنة هانئة .

وفكر المطلب يومًا فى ابن أخيه هاشم ، فذهب إلى يثرب وطلب إلى سَلْمَى أن تدفع إليه الفتى وقد بلغ أشُدّه . وأردف المطَّلب الفتى على بعيره ودخل به مكة ، فظنته قريش عبدًا له جاء به ؛ فتصايحت : عبد المطلب . قال المطّلب ، وَيْحكم ، إنما هو ابن أخى هاشم قدِمت به من يثرب . على أن هذا اللقب غلب على الفتى فدعى به ونسى الناس اسم شيبة الذى دُعى به منذ وُلد .

عبد المطلب (سنه ٤٩٥ م)

وأراد المطلب أن يردّ على ابن أخيه أموال هاشم ، لكن نوفل أبى ووضع يده عليها . فلما اشتد ساعد عبد المطلب استعدى أخوالَه بيثرب على عمه كى يردُّوا عليه حقه . وأقبل ثمانون فارسًا من خَزْرَج يثرب لنصرته ، فاضطرَّ نوفل إلى ردّ ماله إليه . وقام عبد المطلب فى مناصب هاشم ، له السقاية والرِّفادة من بعد عمه المطلب . وقد لقى فى القيام بهذين المنصبين ، وبالسقاية بنوع خاص ، شيئًا غير قليل من المشقة ؛ فقد كان يومئذ وليس له من الأبناء إلا ولده الحارث . وكانت سقاية الحاجّ يؤتى بها ، منذ نَضِبت زمزم ، من آبار عِدَّة مبعثرة حول مكة ، فتوضع فى أحواض إلى جوار الكعبة . وكانت كثرة الولد عونًا على تيسير هذا العمل والإشراف عليه . أمَّا وقد ولى عبد المطلب السقاية والرِّفادة وليس له ولد إلا الحارث فقد عنَّاه الأمر وطال فيه تفكيره .

حفر زمزم

وكانتَ العرب ما تفتأ تذكر زمزم التى طمَّها مُضَاضُ بن عمرو الجُرْهُمى منذ قرون خلت ، وتتمنى لو أنها كانت لا تزال باقية . وكان عبد المطلب بطبيعة مركزه أكثرهم تفكيرًا فى هذا الأمر وأشدّهم تمنيًا أن يكون . ولقد ألحَّ الرجاء به حتى كان يهتف به الهاتف أثناء نومه يحضّه على أن يحفر البئر التى تفجرَّت تحت أقدام جَدّه إسماعيل . وألح الهاتف يدلّه على مظانٍّ وجودها ؛ وألحَّ هو باحثًا عن زمزم حتى اهتدى إليها بين الوثنين إساف ونائلة . وجعل يحفر مستعينًا

بابنه الحارث حتى نبع الماء وظهرت غزالتا الذهب وأسياف مُضَاض الجرهمىّ وأرادت قريش أن تشارك عبد المطلب فى البئر وفيما وُجد فيها . فقال لهم : لا ! ولكن هَلُمَّ إلى أمرٍ نَصَفٍ بينى وبينكم : نضرب عليهـــا بالقِداح بجعل للكعْبة قِدْحَين ، ولى قدحين ، ولكم قدحين ، فمن خرج قِدْحاه على شىء كان له ،ومن تخلَّف قدحاه فلا شىء له ؛ فارتضوا رأيه . ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذى يضرب بها عند هُبَل فى جوف الكعبة ، فتخلف قدحا قريش وخرجت الأسياف لعبد المطلب والغزالتان للكعبة . فضرب عبد المطلب الأسياف بابًا للكعبة ، وضرب فى الباب غزالتى الذهب حليةً للبيت الحرام . وأقام عبد المطلب فى سقاية الحاجّ بعد أن يسَّرتها زمزم له .

النذر والوفاء به

وأحس عبد المطلب قلة حَوْله فى قومه لقلة أولاده ، فنذر إن وُلد له عشرة بنين ثم بلغوا معه أن يمنعوه من مثل ما لقى حين حفَر زمزم لَيَنْحَرَنَّ أحدهم لله عند الكعبة . وتوافى بنوه عشرة آنس فيهم المقدرة على أن يمنعوه ؛ فدعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا . وفى سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قِدْح ، وأخذها عبد المطلب وذهب بها إلى صاحب القداح عند هُبَل فى جوف الكعبة . وكانت العرب كلما اشتدّت بها الْحَيرة فى أمر لجأت إلى صاحب القداح كى يستفتى لها كبير الآلهة الأصنام عن طريق القداح . وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبنائه وأحبَّهم لذلك إليه . فلمَّا ضرب صاحب القداحِ القِداحَ التى عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هُبل من بينها من ينحره أبوه ، خرج القِدْح على عبد الله ، فأخذ عبد المطَّلب الفتى بيده وذهب به لينحره حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين إساف ونائلة . إذ ذاك قامت قريش كلها من أنديتها تُهيب به أن لا يفعل ، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند هبل عذرًا . وتردَّد عبد المطّلب لدى إلحاحهم . وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهة ؟ قال المغيرة بن عبد الله المخزومى : إن كان فداؤه بأموالنا فديناه . وتشاور القوم واستقرَّ رأيهم على الذهاب إلى عرّافة بيثرب لها فى مثل هذه الأمور رأى . وجاءوا العرّافة ، فاستمهلتهم إلى الغد ثم قالت لهم كم الدّية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم

ثم تقرّبوا وقرّبوا عشرًا من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإنْ خرجت على صاحبكم : فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم . وقبلوا ، وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون فى الإبل حتى بلغت مائة ؛ عند ذلك خرجت القداح على الإبل . فقالت قريش لعبد المطلب ، وكان أثناء ذلك كله واقفًا يدعو ربه : قد رضى ربّك يا عبد المطلب . قال عبد المطلب : لا والله ، حتى أضرب عليها ثلاث مرّات . وفى المرّات الثلاث خرجت القداح على الإبل ؛ فاطمأن عبد المطلب إلى رضاء ربه ونحرت الإبل ، ثم تركت لا يُصَدُّ عنها إنسان ولا سبع .

بذلك تجرى كتب السيرة فتصف طرفًا من عادات العرب وعقائدها وأوضاع هذه العقائد ، وتدلّ فى الوقت نفسه على ما بلغت مكة فى بلاد العرب من مقام كريم ببيتها الحرام . ويروى الطبرى ، استدلالاً على قصة الفداء ، هذه ، أن امرأة من المسلمين نذرت إن فعلت كذا لتنحرنّ ابنها . وفعلت ذلك الأمر ، ثم ذهبت إلى عبد الله بن عمر فلم ير فى فُتياها شيئًا ، فذهبت إلى عبد الله بن العبَّاس فأفتاها بأن تنحر مائة من الإبل ، كما كان الأمر فى فداء عبد الله بن عبد المطلب ، فلما عرف ذلك مروان والى المدينة أنكره ، وقال : لا نَذْرَ فى معصية .

أدَّت مكانة مكة ومقام بيتها الحرام إلى إقامة بعض البلاد البعيدة معابد فيها لعلّها تصرف الناسَ عن مكة وعن بيتها . فأقام الغساسنة بيتًا بالحِيرة . وأقام أبْرَهة الأشرَم بيتًا باليمن . فلم يُغْنِ ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم عن البلد الحرام . وقد عُنى أبرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية ، وجلب له من فاخر الأثاث ما خيَّل إليه معه أنه صارفٌ العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه . فلمَّا رأى العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق ، ورأى أهل اليمن يدَعون البيت الذى بنى ولا يعتبرون حجَّهم مقبولا إلا بمكة ، لم يجد عامل النجاشى وسيلةً إلا هدم بيت إبراهيم وإسماعيل . وتهيأ للحرب فى جيش لجِب من الحبشة تَقَدّمَهَ على فيل عظيم ركبه . وسمعت العرب بذلك . فخافت العاقبة وعظُم عليها أن يُقدم رجل حبشىّ على هدم بيت حجهم ومقام أصنامهم .

عام الفيل (سنة ٥٧٠م)

وهبٌ رجل ، كان من أشراف أهل اليمن وملوكها يدعى ذا نَفَر ، فاستنفر قومَه ومن أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبْرَهة وصدّه عما يريد من هدم بيت الله . لكنه لم يستطع أن يثبت لأبرهة بل هُزم وأُخِذ أسيرًا . وهُزم كذلك نُفَيْل بن حبيب الخَثْعَمى حين جمع قومه من قبيلتى شهْران وناهِس وأُخِذ كذلك أسيرًا ، فأقام نفسه دليلاً لأبرهة وجيشه . فلما نزل أبرهة الطائف كلَّمه أهلُها بأن بيتهم ليس هو البيت الذى يريد ، إنما هو بيت الّلات ، وبعثوا معه من يدلهم على مكة .

فلما اقترب أبرهة من مكة بعث رجلاً من الجيش على فرسان له ، فساق إليه أموال أهل تِهامة من قريش وغيرهم وبينها مائة بعير لعبد المطَّلب بن هاشم . وهمَّت قريش ومن معهم من أهل مكة بقتاله ، ثم رأوا أن لا طاقة لهم به . وبعث أبرهة رجلا من رجاله يدعى حُنَاطةَ الحميرى سأل عن سيد مكة ، فذهبوا به إلى عبد المطلب بن هاشم ، فأبلغه رسالة أبرهة إليه ، أنه لم يأتِ لحرب وإنما جاء لهدم البيت ؛ فإن لم تحاربه مكة فلا حاجة به لدماء أهلها . فلمَّا ذكر له عبد المطلب أنهم لا يريدون حربًا سار به حُنَاطة ومع عبد المُطلب بعض أبنائه وبعض كبراء مكة حتى بلغوا معسكر الجيش . وأكرم أبرهة وفادة عبد المطلب وأجابه إلى ردّ إبله إليه . لكنه أبى إباءً تاماً كل حديث فى أمر الكعبة ورجوعه عن هدمها ، ورفض ما عرض عليه وفد مكة من النزول له عن ثلث ثروة تِهامة . وعاد عبد المطلب وقومه إلى مكة ؛ فنصح للناس أن يخرجوا منها إلى شعاب الجبل خيفة أبرهة وجيشه حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق .

أبرهة والكعبة

وكانت ليلة ليلاء تلك التى فكّر فيها القوم فى هجر بلدهم وما هو نازل به وبهم . ذهب عبد المطلب ومعه نفر من قريش فأخذ حلقة باب الكعبة وجعل يدعو ويدعون يستنصرون آلهتهم على هذا المعتدى على بيت الله . فلما انصرفوا وخلت مكة منهم وآن لأبرهة أن يوجّه جيشه ليُتِمَّ ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه إلى اليمن ، كان وباء الجُدَرىّ قد تفشى بالجيش وبدأ يفتِك به ؛ وكان فتكه ذريعًا لم يعهد من قبلُ قطّ . ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من

ناحية البحر ، وأصابت العدوى أبرهة نفسه ، فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة إلى اليمن . وفر الذين كانوا يدلّون على الطريق ومات منهم من مات . وكان الوباء يزداد كل يوم شدّة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب . وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض ، فلم يقم إلا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه . وبذلك أرَّخ أهل مكة بعام الفيل هذا ، وخلده القرآن بذكره : ﴿ أَلَم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾[١] .

مكانة مكة بعد الفيل

زاد هذا الحادث الفذّ العجيب فى مكانة مكة الدينية ، وزاد تبعًا لذلك فى مكانتها التجارية ، وزاد أهلها انصرافًا عن التفكير فى شىء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ومحاربة من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها .

وزاد المكيين حرصًا على مكانة مدينتهم ما كانت تُتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصوّرها للترف فى هذه الجهة الصحراوية البلقع الجرداء . فقد كان لأهلها غرامٌ بالنبيذ أىّ غرام ، وكانوا يجدون فى النشوة به نعيمًا أىَّ نعيم ؛ نعيمًا يسّر لهم أن يطلقوا لشهواتهم أعنّتها ، وأن يجدوا فى الجوارى والعبيد الذين يتّجرون فيهم والذين يشترونهم مُتَعًا تُغريهم بالمزيد منها ، ويغريهم ذلك بالحرص على حريتهم وحرية مدينتهم ، وباليقظة للذود عن هذه الحرية ودفع كل معتد أثيم تحدّثه نفسه بالعدوان عليها . ولم يكن شىء أشهى إليهم من أن يجعلوا سَمرهم وشرابَهم فى سُرَّة المدينة حول بناء الكعبة . وهناك إلى جانب ثلثمائة صنم أو تزيد ، لكل قبيلة من قبائل العرب بينها صنم أو أكثر ، كان أكابر قريش والمقدّمون من أهل مكة يجلسون ؛ يقصُّ كلٌّ منهم أمر ما اتَّصَل به من أخبار البادية واليمن وجماعة المناذرة فى الحيرة والغَسَاسنة فى الشام مما ترد به القوافل أو يتناقله سكان البادية . وكان

---

(١) سورة الفيل .

ذلك يصل إليهم على سبيل الرواية تتناقلها قبيلة عن قبيلة ، وكأن كل قبيلة لها مذيع وملتقط لاسلكى يتلقى الأنباء ويُذيعها . يقص كل ما اتصل به من أخبار البادية ويروى روايات جيرانه وأصحابه ويشرب نبيذه ويُعِدُّ نفسه بعد سمر الكعبة لسمر أكثر إشباعًا لأهوائه وإمتاعًا لشهواته . وتُطلّ الأصنام بعيونها الحجرية على مجالس السمر هذه ، وللسامرين فيها من الحماية أن جعلت الكعبة بيتًا حرامًا ومكة بلدًا آمنًا ، وللأصنام على السامرين ألاّ يدخل مكة كتابىّ إلا أن يكون أجيرًا لا يتحدّث بشىء من أمر دينه ومن أمر كتابه . ولذلك لم تكن ثمة جاليات من اليهود كما كانت بيثرب ، ولا من النصارى كما كانت بنجران . بل كانت كعبتها قُدس أقداس الوثنية تحميها من كل مجدّف فى أمرها ، وتحتمى بها من العُدوان عليها . وكذلك استقلّت مكة بنفسها كما كانت تستقلّ قبائل العرب بنفسها ،ولا ترضى لغيرها عليها سلطانا ، ولا ترضى من استقلالها بديلا ولا تُغْنَى من الحياة بغير هذا الاستقلال فى حمى أوثانها ؛ لا تُضَار قبيلة قبيلة أخرى ، ولا تفكر طائفة من القبائل فى الارتباط لتكون جماعةً قوية ، لها ما للروم أو للفرس من مطامع فى السيادة والغزو . ومن ثمّ ظلّت القبائل جميعًا ولا كيان لها غير كيان البداوة تنتجع فى ظلاله المرعى ، وتعيش فى كنفه عيشًا خشنًا ، يحبّبه إليها ما فيه من استقلال وحرية وأنفة وفروسية .

منازل أهل مكه

وكانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة ، تقترب منها أو تبتعد عنها تبعًا لما لكل أسرة وفخذ من جلال خَطَر وجليل مقام ؛ فكان القرشيونّ أقربهم إليها دارًا وأكثرهم بها اتصالا ، كما كانت لهم سِدانتها وسِقاية زمزم وكل ألقاب التشريف الوثنية التى قامت فى سبيلها حروب ، وانعقدت من أجلها أحلاف ، ووُضعت من أجلها بين القبائل معاهدات صلح كانت تحفظ فى الكعبة تسجيلاً لها ، وإشهادًا لآلهتهم على ما فيها حتى تنزل غضبها بمن يخلّ بتعهداتها . وفيما وراء منازل قريش كانت تجىء منازل القبائل التى تليها فى الخطر ، ثم تلى هذه منازل من دونهم ، حتى تكون منازل العبيد والخلعاء المستهترين . وكان النصارى واليهود بمكة عبيدًا ، كما قدّمنا ، فكان مقامهم بهذه المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء ؛ ولذلك كان ما يتحدثون به من

قصص دينية عن النصرانية واليهودية بعيدًا عن أن يتصل بسمع أمجاد قريش وأشراف أهل البلد الحرام . وأتاح لهم بُعْدُه أن يُصموا دونه آذانهم ؛ كما جعله بحيث لا يشغل بالهم ، وهم قد كانوا يسمعون مثله أثناء رحلاتهم كلما مرُّوا بدير من الأديار أو صومعة من الصوامع .

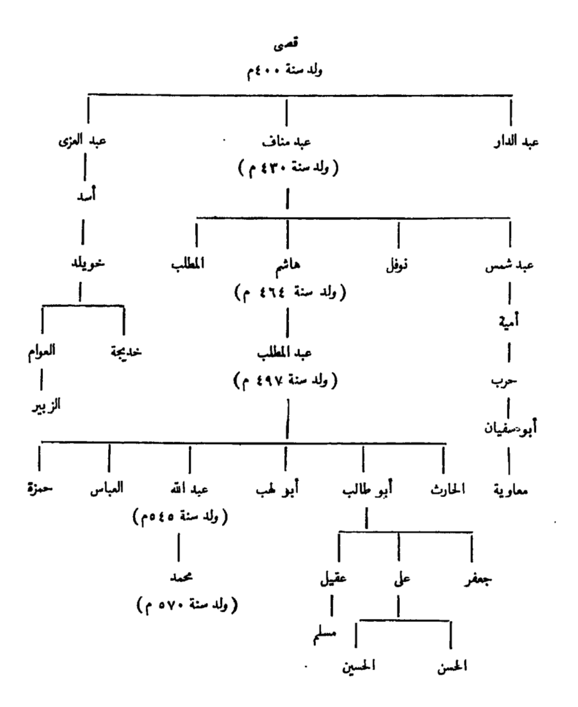
على أن ما بدأ يقال يومئذ عن نبيّ يظهر بين العرب قد أخذ يُقِضُّ بعض المضاجع . ولقد عتب أبو سفيان يومًا على أمَية بن أبي الصَّلْت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر . وربما كان من حق أبي سفيان يومئذ أن يقول لصاحبه : إن هؤلاء الرهبان إنما يتحدثون من ذلك بما يتحدثون لأنهم في جهل من أمر دينهم ، فهم في حاجة إلى نبيّ يدلُّهم عليه ؛ أما ونحن نتخذ الأصنام ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى فلا حاجة بنا إلى شيء من هذا ؛ ويجب علينا أن نحارب كل حديث من مثله . كان من حقه أن يقول هذا ؛ لأنه في تعصُّبه لمكة ووثنيَّتها لم يكن يقدّر أن ساعة الهدى بالباب ، وأن نبوة محمد عليه السلام اقتربت ، وأن من بلاد العرب الوثنيَّة المتدابرة سيضيء العالم كله نور التوحيد وكلمة الحق .

عبد الله بن عبد المطلب

وكان عبد الله بن عبد المطلب فتًى وسيمًا جميل الطلعة . وكانت أوانس مكة ونساؤها مُعجَبات لذلك به . وزادهن به إعجابًا حديث الفداء والمائة من الإبل التي لم يرضَ هُبَل بما دونها فداءً له ، لكن القدر كان قد أعدّ عبد الله لأكرم أبوّة عرفها التاريخ ، وأعَدَّ آمنة بنت وهب لتكون أمًّا لابن عبد الله ؛ لذلك تزوّجها ولم تك إلا أشهر بعد زواجه منها حتى مات ، لم يُنجه من الموت فداءٌ أيًّا كان نوعه . وبقيت آمنة من بعد لتلد محمدًا ولتموت وما يزال طفلا .

* * *

ونضع أمام نظر القارئ على الصفحة التالية شجرة النسب النبوى مبينًا عليها أقرب التواريخ لميلاد أصحابها .



قصى
ولد سنة ٤٠٠م
عبد الدار
عبد مناف
(ولد سنة ٤٣٠ م)
عبد العزى
أسد
خويلد
عبد شمس
نوفل
هاشم
(ولد سنة ٤٦٤ م)
المطلب
خديجة
العوام
الزبير
أمية
عبد المطلب
(ولد سنة ٤٩٧ م)
حرب
أبو سفيان
معاوية
الحارث
أبو طالب
أبو لهب
عبد الله
(ولد سنة ٥٤٥م)
العباس
حمزة
جعفر
على
عقيل
محمد
(ولد سنة ٥٧٠ م)
مسلم
الحسن
الحسين

الفصل الثالث

محمد : من ميلاده إلى زواجه

زواج عبد الله من آمنة – وفاة عبد الله – مولد محمد – رضاعه فى بنى سعد – قصة الملكين – مقامه خمس سنوات بالبادية – موت آمنة – كفالة عبد المطلب إياه – موت عبد المطلب – كفالة أبى طالب إياه – خروجه إلى الشام فى الثانية عشرة من عمره – حرب الفجار – رعية الغنم – خروجه فى تجارة خديجة إلى الشام – زواجه بخديجة .

زواج عبد الله من آمنة

كان عبد المطلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أَبْرَهَةُ مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق . وكان ابنه عبد الله فى الرابعة والعشرين من سنه . فرأى أن يزوِّجه ، فاختار له آمنة بنت وهْب بن عبد مناف بن زُهْرة سيد بنى زهرة إذ ذاك سنًّا وشرفًا . وخرج به حتى أتى منازل بنى زُهرة ودخل وإياه عند وهْب وخطب إليه ابنته . ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه إنما ذهب إلى أهيب عم آمنة ؛ لأن أباها كان هلك وكانت هى فى كفالة عمها . وفى اليوم الذى تزوّج عبد الله فيه من آمنة تزوج عبد المطلب من ابنة عمها هالة ، فأولدها حمزة عمّ النبىّ وضريبه فى سنه .

وأقام عبد الله مع آمنة فى بيت أهلها ثلاثة أيام ، على عادة العرب حين يتم الزواج فى بيت العروس . فلما انتقل وإياها إلى منازل بنى عبد المطلب لم يُقِمْ معها طويلا ، إذ خرج فى تجارة إلى الشام ، وتركها حاملا ، وتختلف الروايات فى أمر عبد الله وهل تزوج غير آمنة ، وهل عرضت عليه نساء غيرها أنفسهن . والوقوف لتقصّى أمثال هذه الروايات لا غناء فيه . وكل ما يمكن الاطمئنان إليه أن عبد الله كان شابًّا وسيمًا قويًّا ؛ فلم يكن عجبًا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه . فلمَّا بنى بها تقطَّعت بغيرها أسبابُ الأمل ولو إلى حين . ومَنْ يدرى ، لعلهن قد انتظرنَ أَوْبته من رحلته إلى الشام ليكنَّ زوجات له مع آمنة . ومكث عبد الله فى رحلته هذه الأشهر التى يقتضيها الذهاب إلى غَزَّة والعود منها ، ثم عرَّج على أخواله بالمدينة يستريح عندهم من وعثاء السفر ليقوم بعد

ذلك فى قافلة إلى مكة ؛ لكنه مرض عند أخواله فتركه رفاقه ؛ حتى إذا بلغوا مكة أخبروا أباه بمرضه . ولم يلبث عبد المطلب حين سمع منهم أن أوفد الحارث أكبر بنيه إلى المدينة ليعود بأخيه بعد إبلاله . وعلم الحارث حين بلغ المدينة أن عبد الله مات ودُفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى مكة ، فرجع أدراجه ينعى أخاه إلى أهله ويُثير من قلب عبد المطلب ومن قلب آمنة همًّا وشجنًا ، لفقد زوج كانت آمنة ترجو فى حياته هناءة وسعادة . وكان عبد المطلب عليه حريصًا حتى افتداه من آلهته فداءً لم تسمع العرب من قبلُ بمثله .

موت عبد الله وتركته

وترك عبد الله من بعده خمسةً من الإبل وقطيعًا من الغنم وجارية هى أم أيْمن حاضنة النبىّ من بعدُ . ربما لا تكون هذه الثروة مظهر ثراء وسعة ؛ لكنها كذلك لم تكن تدلّ على فقر ومَتْرَبة . ثم إن عبد الله كان فى مقتبل عمره ، فكان قديرًا على الكسب والعمل والبلوغ إلى السعة فى المال ؛ وكان أبوه ما يزال حيًّا فلم يؤل إليه شىء من ميراثه .

مولد محمد (سنة ٥٧٠ م)

وتقدّمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى . فلما تمّ لها الوضع بعثت إلى عبد المطلب عند الكعبة تخبره أنه وُلد له غلام . وفاض بالشيخ السرور حين بلغه الخبر ، وذكر ابنه عبد الله وقلبه مفعم بالغبطة لِخَلَفه ، وأسرع إلى زوج ابنه وأخذ طفلها بين يديه ، وسار حتى دخل الكعبة وسمَّاه محمدًا . وكان هذا الاسم غير متداول بين العرب ، لكنه كان معروفًا . وردّ الجَدّ الصبىّ إلى أمه وجعل وإياها ينتظر المراضع من بنى سعد لتدفع الأم بوليدها إلى إحداهن ، على عادة أشراف العرب من أهل مكة .

وقد اختلف المؤرخون فى العام الذى ولد محمد فيه ؛ فأكثرهم على أنه عام الفيل (٥٧٠ ميلادية) . ويقول ابن عبَّاس : إنه وُلد يوم الفيل . ويقول آخرون إنه وُلد قبل الفيل بخمس عشرة سنة : ويذهب غير هؤلاء إلى أنه وُلد بعد الفيل بأيام أو بأشهر أو بسنين ، يقدّرها قوم بثلاثين سنة ؛ ويقدرها قوم بسبعين .

واختلف المؤرخون كذلك فى الشهر الذى ولد فيه وإن كانت كثرتهم على أنه وُلد فى شهر ربيع الأول . وقيل : وُلد فى المحرّم . وقيل وُلد فى صفر وبعضهم يرجح رجباً ، على حين يرجح آخرون شهر رمضان .

كذلك اختلف فى تاريخ اليوم من الشهر الذى وُلد فيه ؛ فقيل : وُلد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوّل ، وقيل لثمانى ليال ، وقيل لتسع . والجمهور على أنه وُلد فى الثانى عشر من شهر ربيع الأوّل ، وهو قول ابن إسحاق وغيره . وكذلك اختلف فى الوقت الذى وُلد فيه أنهارًا كان أم ليلا . كما اختُلف فى مكان ولادته بمكة . ويرجّح كُوسَّان دبِرْسِفَال فى كتابه عن العرب أن محمدًا وُلد فى أغسطس سنة ٥٧٠ ، أى عام الفيل ، وأنه وُلد بمكة بدار جدّه عبد المطلب .

وفى سابع يوم لمولده أمر عبد المطلب بجزور فنُحرت ، ودعا رجالا من قريش فحضروا وطعِموا . فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمدًا سألوه لِمَ رغب عن أسماء آبائه ؟ فقال أردت أن يكون محمودًا فى السماء لله وفى الأرض لخلقه .

المراضع

انتظرت آمنة مجىء المَرَاضِع من بنى سعد لتدفع به إلى إحداهن كعادة أشراف العرب من أهل مكة . ولا تزال هذه العادة متبعة عند أشراف مكة ، إذ يبعثون أبناءهم إلى البادية فى اليوم الثامن من مولدهم ثم لا يعودون إلى الحضر حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة . ومن قبائل البادية مَنْ لها فى المراضع شهرة ، ومن بينها قبيلة بنى سَعْد . وفى انتظار المراضع دفعت آمنة بالطفل إلى ثُوَيْبة جارية عمه أبى لَهَب ، فأرضعته زمنًا ، كما أرضعت من بعدُ عمه حمزة ؛ فكانا أخوين فى الرضاع . ومع أن ثُويبة لم ترضعه إلا أيّامًا فقد ظل يحفظ لها خير الودّ ويصلها ما عاشت ؛ ولما ماتت فى السنة السابعة من هجرته إلى المدينة سأل عن ابنها الذى كان أخاه فى الرضاع ليصله مكانها ، فعلم أنه مات قبلها .

وجاءت مراضع بنى سعد إلى مكة يلتمسن الأطفال لإرضاعهم . وكنّ يعرِضن عن اليتامى لأنهن كنّ يرتجين البرّ من الآباء . أمّا الأيامى فكان الرجاء

فيهن قليلا ؛ لذلك لم تُقبل واحدة من أولئك المراضع على محمد ، وذهبت كلّ بمن ترجو من أهله وافر الخير .

حليمة بنت أبى ذؤيب

على أن حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية التى أعرضت عن محمد أوّل الأمر كما أعرض عنه غيرها لم تجد من تدفع إليها طفلها ؛ ذلك أنها كانت على جانب من ضعف الحال صرف الأمهات عنها . فلما أجمع القوم على الانطلاق عن مكة قالت حليمة لزوجها الحارث بن عبد العُزّى : والله إنى لأكره أن أرجع مع صواحبى ولم آخذ رضيعًا ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم ولآخذنه ! وأجابها زوجها : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . وأخذت حليمة محمدًا وانطلقت به مع قومها إلى البادية . وكانت تحدّث أنها وجدت فيه منذ أخذته أىّ بركة : سمنت غنمُها وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها .

وأقام محمد فى الصحراء سنتين ترضعه حليمة وتحضنه ابنتها الشَّيماء ؛ ويجد هو فى هواء الصحراء وخشونة عيش البادية ما يسرع به إلى النموّ ويزيد فى وَسامة خلقه وحسن تكوينه . فلما أتمّ سنتيه وآن فِصَالُه ذهبت به حليمة إلى أمه ثم عادت به إلى البادية ، رغبة من أمه ، فى رواية ، ومن حليمة فى رواية أخرى ؛ عادت به حتى يغلظ ، وخوفًا عليه من وباء مكة . وأقام الطفل بالصحراء سنتين أخريين يمرح فى جوّ باديتها الصحو الطلق لا يعرف قيدًا من قيود الروح ولا من قيود المادة .

قصة شق الصدر

فى هذه الفترة وقبل أن يبلغ الثالثة تقع الرواية التى يقصونها من أنه كان مع أخيه الطفل من سنّه فى بَهم لأهله خلف بيوتهم ؛ إذ عاد أخوه الطفل السعدىّ يعدو ويقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشىّ قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يَسوطانه[1] . ويروى عن حليمة أنها قالت عن نفسها وزوجها . « فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائمًا ممتقعًا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالَكَ يا بنىّ ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقّا بطنى فالتمسا فيه شيئًا لم أدر ما هو» . ورجعت حليمة ورجع أبوه إلى خِبائهما . وخشى الرجل أن يكون الغلام أصابته الجن .

(١) أى : يخوضانه ويقلبانه .

فاحتملاه إلى أمه بمكة . ويروى ابن إسحاق فى هذه الواقعة حديثًا عن النبىّ بعد بعثه . لكن ابن إسحاق يحتاط بعد أن يقص هذه القصة ويذكر أن السبب فى ردّه إلى أمه لم يكن حكاية الملكين وإنما كان ، على ما روته حليمة لآمنة ، أنّ نفراً من نصارى الحبشة رأوه معها حين رجعت به بعد فِطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلّبوه ثم قالوا : لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به إلى ملكنا وبلدنا ؛ فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره ؛ ولم تكد حليمة تنفلت به منهم . وكذلك يرويها الطبرى ، لكنه يُحيطها بالريبة ؛ إذ يذكرها فى هذه السنة من حياة محمد ، ثم يعود فيذكر أنها وقعت قُبيل البعث وسنّه أربعون سنة .

لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند . فالذى رأى الرجلين فى رواية كتّاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلا ، وكانت كذلك سن محمد يومئذ . والروايات تجمع على أن محمداً أقام ببنى سعد إلى الخامسة من عمره . فلو كان هذا الحادث قد وقع وسنّه سنتان ونصف سنة ، ورجعت حليمة وزوجها إذ ذاك به إلى أمه ، لكان فى الروايتين تناقض غير مقبول . ولذلك يرى بعض الكتّاب أنه عاد مع حَليمة مرة ثالثة . ولا يرضى المستشرق سير وليم موير أن يشير إلى قصة الرجلين فى ثيابهما البيضاء ويذكر أنه إن كانت حليمة وزوجها قد نَبِها لشىء أصاب الطفل فلعله نوبة عصبية أصابته ، ولم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه . ولعل آخرين يقولون : إنه لم يكن فى حاجة إلى من يشقّ بطنه أو صدره ما دام الله قد أعده من يوم خلقه لتلقى رسالته . ويرى دِرمِنْجِم أن هذه القصة لا تستند إلى شىء غير ما يفهم من ظاهر الآيات : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾[1] وأن ما يشير القرآن إليه إنما هو عمل روحىّ بحت ، والغاية منه تطهير هذا القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسيّة خالصًا ويؤدّيها مخلصًا تمام الإخلاص محتملا عبء الرسالة المضنى .

وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من

(١) سورة الإنشراح الآيات من ١ إلى ٣ .

ذلك الحديث أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه مَنْ سبقه من أصحاب الخوارق . وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبى العربىّ كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنَّة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن للمشركين أنهم لا يفقهون أن ليست لهم قلوب يعقلون بها .

محمد فى البادية

وأقام محمد فى بنى سعد إلى الخامسة من عمره ينهَل من جو الصحراء الطلق رَوْح الحرّية والاستقلال النفسىّ ، ويتعلَّم من هذه القبيلة لغة العرب مصفَّاة أحسن التصفية ، حتى لقد كان يقول من بعدُ لأصحابه : « أنا أعْرَبكم ، أنا قرشىٌّ واستُرضعت فى بنى سعد بن بكر » . وتركتْ هذه السنوات الخمس فى نفسه أجمل الأثر وأبقاه ، كما بقيت حليمة وبقى أهلها موضع محبَّته وإكرامه طَوالَ حياته . أصابت الناس سنةٌ [1] بعد زواج محمد من خديجة ؛ فجاءته حليمة فعادت من عنده ومعها من مال خديجة بعير يحمل الماء وأربعون رأساً من الغنم . وكانت كلما أقبلت عليه مدّ لها طرف ردائه لتجلس عليه سيما الاحترام . وكانت الشيْماء ابنتها بين من أسِر مع بنى هوازن بعد حصَار الطائف ، فلما جىء بها إلى محمد عرفها وأكرمها وردّها إلى أهلها كما رغبت .

فى كفالة جده عبد المطلب

وعاد إلى أمّه بعد هذه السنوات الخمس . ويقال : إن حليمة التمسته وهى مقبلة به على أهله فلم تجده ؛ فأتت عبد المطلب فأخبرته أنه ضلّ منها بأعلى مكة . فبعث من يبحث عنه حتى ردَّه عليه وَرقة بن نَوْفَل فيما يروون . وكفل عبد المطَّلب حفيدَهُ ، وأغدق عليه ، كل حبِّه وأسبغ عليه جمَّ رعايته . كان يوضع لهذا الشيخ ، سيد قريش وسيد مكة كلها ، فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش إجلالا لأبيهم ، فإذا جاء محمد أدناه عبدُ المطَّلب منه وأجلسه على الفراش معه وربَت على ظهره ، وأبدى من آيات عطفه ما يمنع أعمام محمد من تأخيره إلى حيث يجلسون .

اليتم

وزاد فى إعزاز الجدِّ لحفيده أنَّ آمنة خرجت بابنها إلى المدينة لِتُرِىَ

(١) السنة : هنا الجدب .

الغلامَ فيها أخوال جَدّه من بنى النجّار ، وأخذت معها أمَّ أيْمنَ الجارية التى خلّفها عبد الله من بعده . فلما كانوا بها أرَتِ الغلامَ البيتَ الذى مات أبوه فيه والمكان الذى دُفن به ؛ فكان ذلك أوَّل معنًى لليتم انطبع فى نفس الصبى . ولعل أمَّه حدَّثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذى غادرها بعد مُقامه معها أياماً معدودة ليجيئه بين أخواله أجلُه ، فقد كان النبىّ بعد هجرته إلى المدينة يقصّ على أصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمه ، حديث محبّ للمدينة محزون لمن تحوى القبورُ من أهله بها . ولما تمَّ مكثهم بيثرب شهراً اعتزمت آمنة العودة ، فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكة . فلما كانوا فى أثناء الطريق بين البلدين مرضت آمنة بالأبْواء[1]

موت آمنة

وماتت ودُفِنتِ بها ، وعادت أمُّ أيْمن بالطفل إلى مكة منتحباً وحيداً ، يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحشة وألماً . لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنّات الألم لفقد أبيه وهو ما يزالُ جنيناً ، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمَّه تذهب كما ذهب أبوه وتدع جسمه الصغير يحمل همَّ اليتم كاملا .

زاد ذلك فى إعزاز عبد المطَّلب إيَّاه . مع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمةً عميقة فى نفسه ، حتى وردت فى القرآن إذ يذكر الله نبيه بالنعمة عليه فيقول : ﴿ أَلَمْ يَجِدكَ يَتِيماً فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾[2] .

ولعل جوى هذه الذكرى كان يَخِفُّ بعض الشىء لو أن عبد المطلب

موت عبد المطلب

عُمِّر أكثر مما عُمر ، لكنه مات فى الثمانين من عمره ومحمد ما يزال فى الثامنة . وحزن محمد لموت جدّه حزنه لموت أمه . حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه إلى مقرّه الأخير ، وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك له ، مع ما لقى من بعدُ فى كفالة عمه أبى طالب من عناية ورعاية ، ومن حماية امتدَّت إلى ما بعد بعثه ورسالته ، ودامت إلى أن مات عمه . والحق أنّ موت عبد المطلب كان على بنى هاشم جميعاً ضربة قاسية ؛ فإنه لم يكن من أبنائه من كان فى مثل مكانته عزماً وقوّةَ أيْدٍ وأصالةَ رأى وكرماً وأثراً فى العرب جميعاً .

---

(١) الأبواء : قرية بين المدينة والجحفة بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلا .

(٢) سورة الضحى آيتا ٦ و ٨ .

ألم يكن يُطعم الحاجّ ويسقيهم ويَبُرُّ أهل مكة جميعًا إذا أصابهم شرٌّ أو أذى ! وها هم أولاء أبناؤه لم يصل أحد منهم إلى مكانته ، إذ كان فقيرهم عاجزًا عن مثل عمله ، وكان غنيّهم حريصًا على ماله . لذلك ما لبث بنو أمية أن تهيئوا ليأخذوا المكانة التى طمعوا فيها من قبلُ دون أن يخشوْا من بنى هاشم مزاحمة تُخيفهم .

في كفالة عمه أبي طالب

آلت كفالة محمد إلى أبى طالب وإن لم يكن أكبر إخوته سنًّا ؛ فقد كان الحارث أسنَّهم ، وإن لم يكن أكثرهم يسارًا . وكان العبَّاس أكثرهم مالاً ، لكنه كان على ماله حريصًا ؛ لذلك احتفظ بالسقاية وحدها دون الرِّفادة . فلا عجب أن كان أبو طالب على فقره أنبلَهم وأكرمهم فى قريش مكانة واحترامًا ، ولا عجب أن عهد إليه المطلب بكفالة محمد من بعده .

الرحلة الأولى إلى الشام

وقد أحبّ أبو طالب ابن أخيه كحب عبد المطَّلب له . أحبَّه حتى كان يقدّمه على أبنائه ، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبرّ وطيب النفس ما يزيده به تعلقًا : ولقد أراد أن يخرج يومًا فى تجارة له إلى الشام حين كان محمد فى الثانية عشرة من عمره ؛ ولم يفكر فى اصطحابه خوفًا عليه من وعثاء السفر واجتياز الصحراء . لكن محمدًا أبدى من صادق الرغبة فى مصاحبة عمه ما قضى على كل تردّد فى نفس أبى طالب . وصحب الغلامُ القافلة حتى بلغ بُصْرَى فى جنوب الشام ، وتروى كتب السيرة أنه التقى فى هذه الرحلة بالراهب بَحِيرَى ، وأن الراهب رأى فيه أمارات النبوّة على ما تدلّه أنباء النَّصرانية . وتذهب بعض الروايات إلى أن الراهب نصح إلى أهله ألاّ يوغلوا به فى بلاد الشام خوفًا عليه من اليهود أن يعرفوا منه هذه الأمارات فينالوه بالأذى .

فى هذه الرِّحلة وقعت عينا محمد الجميلتان على فسحة الصحراء ، وتعلقتا بالنجوم اللامعة فى سمائها الصافية البديعة . وجعل يَمُرّ بِمَدْيَن ووادى القُرَى وديار ثمود وتستمع أذناه المُرْهَفتان إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضى نَبَئِها . وفى هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند الحدائق الغنَّاء اليانعة التى أنسته حدائق الطائف وما يُروى عنها ، والتى تبدّت له جنات إلى جانب جَدْب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة . وفى الشام كذلك عرف محمد أخبار الروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم

وعن مناوأة الفرس من عبَّاد النار لهم وانتظارهم الوقيعة بهم . ولئن كان بعدُ فى الثانية عشرَة من سنّه لقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان العقل ودقة الملاحظة وقوّة الذاكرة وما إلى ذلك من صفات حباه القدر بها تمهيداً للرسالة العظيمة التى أعدّه لها ما جعله ينظر إلى ما حولِه نظرة الفاحص المحقق ، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى ، فيرجع إلى نفسه يسائلها : أين الحقّ من ذلك كله ؟

والراجح أن أبا طالب لم يُفدْ مالاً كثيرًا من رحلته تلك ، فلم يعد من بعدُ إلى رحلة مثلها ، بل قنع بحظه ، وأقام بمكة يكفل فى حدود ماله القليل أولاده الكثيرين . وأقام محمد مع عمه قانعًا بنصيبه ، يقوم من الأمر بما يقوم به مَنْ هُمْ فى مثل سنّه . فإذا جاءت الأشهر الحرُم ظلّ بمكة مع أهله ، أو خرج وإيَّاهم إلى الأسواق المجاورة لها بعكَاظ ومَجنة وذى المجَاز يستمع لإنشاد أصحاب المذهَّبات والمعلَّقات ، وتلتهم أذناه بلاغتهم فى غزَلهم وفخرهم وذكرهم أنسابهم ومغازيهم وكرمهم وفضلهم ، ثم يَعْرِض ذلك على بصيرته تلفِظ منه ما لا تسيغ وتُعْجَب بما تراه جديرًا بالإعجاب . ويستمع إلى خطب الخطباء ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا ينْقمون من إخوانهم العرب وثنيَّتهم ، ويحدّثونهم عن كتب عيسى وموسى ، ويدعونهم إلى ما يعتقدونه الحق ؛ ويزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيرًا من هذه الوثنية التى غرِق فيها أهله ، ولكنه لا يطمئن كل الطمأنينة إليه . وكذلك جعل القدر يوجه نفسَه منذ نعومة أظفاره الوجهة التى تُهيئه لذلك اليوم العظيم ، يوم الوحى الأوّل حين دعاه ربه لتبليغ رسالته : رسالة الهدى والحق للناس كافَّة .

حرب الفجار

وكما عرف محمد طُرق القوافل فى الصحراء مع عمه أبى طالب ، وكما استمع إلى الشعراء والخطباء مع ذويهِ فى الأسواق حول مكة أثناء الأشهر الحرُم ، عرف كذلك حمل السلاح ؛ إذ وقف إلى جانب أعمامه فى حرب الفِجَار . وحرب الفجار تلك كانت بعض ما يثُور ويتصل بين قبائل العرب من الحروب . وقد سُميت الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ، إذ تمتنع قبائل العرب عن القتال ويعقدون أسواق تجارتهم بعُكَاظ بين الطائف ونَخْلة وبمجنَّة

وذى المجَاز على مقربة من عرَفات ، لتبادل التجارة وللتفاخر والجدل ، وللحج بعد ذلك عند آصنامهم بالكعبة . وكانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهرة ، فيها أنشد أصحاب المعلَّقات معلقاتهم ، وفيها خطب قُسٌّ ، وفيها كان اليهود والنصارى وعبَّاد الأصنام يحدّث كلٌّ عن رأيه آمنًا ، لأنه فى الشهر الحرام .

على أن البَرَّاضَ بن قَيْس الكِنَانىّ لم يحترم هذه الحرمة حين غافل أثناءها عُرْوة الرّحال بن عُتبَةَ الهَوَازِنىّ وقتله . وسبب ذلك أن النعمان بن المُنْذِر كان يبعث كل عام قافلةً من الحيرة إلى عكاظ تحمل المسك وتجىء بديلا منه بالجلود والحبال وأنسجة اليمن المزركشة . فعرض البرّاض الكنانى نفسه عليه ليقود القافلة فى حماية قبيلته كنانة ؛ وعرض عُرْوة الهوازنىّ نفسه كذلك وأن يتخطَّى إلى الحجاز طريق نَجد . واختار النعمان عُرْوَة ؛ فأحفظ ذلك البرَّاض فتبعه وغاله وأخذ قافلته . ثم أخبرَ البرَّاض بِشرًا بن أبى خازم أنّ هَوَازن ستأخذ بثأرها من قُريش . ولحِقت هوازن بقرَيش قبل أن يدخلوا البيت الحرام فاقتتلوا ، وتراجعت قريش حتى لاذت من المُنْتصِرين بالحرم ، فأنذرتهم هوازن الحرب بعُكاظ العامَ المقبل . وقد ظلَّت هذه الحرب تنشَب بين الفريقين أربع سنوات متتابعة انتهت بعدها إلى صلح من نوع صلح البادية ذلك بأن يدفع من كانوا أقلَّ قتلى دِيةَ العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر . ودفعت قريش دية عشرين رجلاً من هوازن ، وذهب البراض مثلا فى الشقاوة .

لم يحقّق التاريخ سنّ محمد أيام حرب الفِجار ؛ فقيل كان ابن خمس عشرة سنة ؛ وقيل : كان ابن عشرين . ولعل سبب الخلاف أن هذه الحرب استطالت أربع سنوات تجعل حاضر أوّلها وهو فى الخامسة عشرة يلحق آخرَها فى جوار العشرين .

وقد اختُلف فيما قام به محمد من عمل فى هذه الحرب . فقال أناس : إنه كان يجمع السهام التى تقع من هوازن ويدفعها إلى أعمامه ليردُّوها إلى صدور خصومهم ، وقال آخرون : بل اشترك فيها ورمى السهام بنفسه . وما دامت

الحرب المذكورة قد امتدّت فتراتها فى سنوات أربع ، فليس ما يمنع صحة الروايتين ؛ فيكون قد جمع السهام لأعمامه أول الأمر ورمى من بعد ذلك . وقد ذكر رسول الله الفجار بعد سنوات من رسالته فقال : « قد حضرتُه مع عُمومتى ورميت فيه بأسهم ، وما أحِبّ أنى لم أكن فعلت » .

حلف الفضول

وقد شعرت قريش بعد الفِجار بأن ما أصابها وما أصاب مكة جميعا بعد موت هاشم وموت عبد المطَّلب من تفرّق الكلمة وحرص كل فريق على أن يكون صاحبَ الأمر ، قد أطمع فيها العرب بعد ما كانت أمنع من أن يطمع فيها طامع . إذ ذاك دعا الزُّبَيْر بن عبد المطَّلب ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهْرة ، وتيم ، فى دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنع لهم طعامًا ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقه ما بَلّ بحرٌ صُوفةً . وقد حضر محمد هذا الحلف الذى سَمَّاه العرب حلْف الفُضُول ؛ وكان يقول : « ما أحِبّ أنّ لى بِحلف حَضَرتُه فى دار ابن جُدْعان حُمْرَ النَّعَم ولو دُعيت به لأجبتُ » .

لم تكن حرب الفجار ، كما رأيت ، تستغرق إلا أيامًا من كل عام ؛ أمَّا سائر العام فكان العرب يرجعون فيه إلى أعمالهم يزاولونها دون أن تترك الحرب فى نفوسهم من المرارة ما يحول بينهم وبين التجارة والربا والشراب والتسرّى والأخذ من مختلف ألوان اللهو بأوفر نصيب . أفكان محمدٌ يشاركهم فى هذا ؟ أم كانت رِقَّة حاله وضيق ذات يده وكفالة عمه إيَّاه تجعله بمنأى عنها ينظر إلى التَّرَف نظرة المحروم والمشتهى ؟ أمَّا أنه نأى عنها فذلك ما يشهد به التاريخ . لكنه لم ينأ عنها عجزًا عن النيل منها ؛ فقد كان الخُلَعاء المقيمون بأطراف مكة والذين لا يجدون من أسباب الرزق إلا الضنك والإملاق يجدون الوسيلة إليها ، بل كان بعضهم أشدّ من أمجاد مكة وأشراف قريش إمعانًا فيها وإدمانًا لها . إنما كانت نفس محمد مشغوفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف . وكأن حرمانه من التعلم الذى يتعلَّمه بعض أنداده من أبناء الأشراف جعله أشدّ للمعرفة تشوقًا ، وبها تعلّقًا ؛ كما أن النفس العظيمة التى تجلَّت من بعدُ آثارها وما زال يغمر العالم ضياؤها ، كانت فى توْقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذى يصبو

إليه أهل مكة ، إلى نور الحياة المتجلى فى كل مظاهر الحياة لمن هداه الحقّ إليها ، ولاكتناه ما تدلّ هذه المظاهر عليه وما تحدّث الموهوبين به . ولذلك ظهر منذ الصّبا الأوّل مظهرَ الكمال والرجوليّة وأمانة النفس ، حتى دعاه أهل مكة جميعًا : « الأمين » .

رعيه الغنم

ومما زاده انصرافًا إلى التفكير والتأمل اشتغاله برَعْى الغنم سنى صِباه تلك ؛ فقد كان يرعى غنم أهله ، ويرعى غنم أهل مكة ، وكان يذكر رَعْيَه إياها مغتبطًا . وكان يقول : « ما بعث الله نبيًّا إلا راعى غنم » . . ويقول : « بُعِث موسى وهو راعى غنم ، وبُعث داود وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجْياد » . وراعى الغنم الذكىّ القلب يجد فى فسحة الجوّ الطلق أثناء النهار وفى تلألؤ النجوم إذا جَنّ الليل موضعًا لتفكيره وتأمله يسبح منه فى هذه العوالم ، يبتغى أن يرى ما وراءها ، ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيرًا لهذا الكون وخَلْقه ؛ وهو يرى نفسه ، ما دام ذكىّ الفؤاد عليم القلب ، بعضَ هذا الكون غيرَ منفصل عنه . أليس هو يتنفّس هواءه ولو لم يتنفّسْه قضى ! أليست تُحييه أشعَّة الشمس ويغمُرها ضياء القمر ويتّصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعًا . هذه الأفلاك والعوالم التى يرى فى فسحة الكون أمامه ، متصلا بعضُها ببعض فى نظام محكم ، لا الشمس ينبغى لها أن تُدْرِك القمر ولا اللَّيلُ سابقُ النَّهار ! ! وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضى انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضلّ إحداها فى مَهَامِهِ البادية ، فأىّ انتباه وأية قوَّة تحفَظ على نظام العالم كلّ إحكامه ! وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير فى شهوات الإنسان الدُّنيا والسموّ به عنها بما يبديان له من كاذب زُخْرُفها . لذلك ارتفع محمد فى أعماله وتصرفاته عن كل ما يمسّ هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكة وبقى له : « الأمين » .

يدلّ على ذلك كله ما حدَّث هو عنه ، من أنه كان يرعى الغنم مع زميل له ، فحدَّثته نفسه يومًا أن يلهو كما يلهو الشباب ، فأفضى إلى زميله هذا ذاتَ مساء أنه يودّ أن يهبِط مكة ، يلهو بها لهو الشباب فى جُنح الليل .

وطلب لذلك إليه أن يقوم على حراسة أغنامه . لكنه ما إن بلَغ أعلى مكة حتى استرعى انتباهَه عرس زواج وقف عنده ، ثم ما لبث أن نام . ونزل مكة ليلةً أخرى لهذه الغاية ، فامتلأت آذانه بأصوات موسيقية بارعة كأنما هى موسيقى السماء ، فجلس يستمع ثم نام حتى أصبح . وماذا عسى أن تفعل مُغريات مكة بقلب مهذَّب ونفس كلها تفكيرٌ وتأمل ! ماذا عسى أن تكون هذه المغريات التى وصفنا والتى لا يستريح إليها من يكون دون محمد سموًّا بمراحل كثيرة ! لذلك أقام بعيدًا عن النقص ، لا يجد لذّةً يذوقها أطيب لنفسه من لذة التفكير والتأمل .

حياة التفكير والتأمل

وحياة التفكير والتأمل وما يستريح إليه من عمل بسيط كرعى الغنم ، ليست بالحياة التى تُدِرّ على صاحبها أخلاف الرزق أو تفتح أمامه أبواب اليسار . وما كان محمد يهتم لذلك أو يعنَى به ، وقد ظلّ طول حياته أشدّ الناس زهدًا فى المادة ورغبة عنها . وما إقباله عليها وقد كان الزهد بعض طبعه ؟ ! وكان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم صُلبه ! أليس هو القائل : « نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » ! أليس هو الذى عُرِف عنه كلَّ حياته حرصُه على شَظَف العيش ودعوة الناس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة ؟ والذين يتوقون إلى المال ويلهثون فى طلبه إنما يبتغونه لإرضاء شهوات لم يعرف محمد طَوَالَ حياته شيئًا منها . واللذّة النفسيَّة الكبرى ، لذة الاستمتاع بما فى الكون من جمال ومن دعوة إلى التأمل ، هذه اللذّة العظيمة التى لا يعرفها إلا الأقلون ، والتى كانت لذة محمد منذ نشأته ومنذ أرتْه الحياة فى نعومة أظفاره ذكريات بقيت مطبوعة فى نفسه داعية إلى الزهد فى الحياة ، وأولاها موت أبيه وهو ما يزال جنينًا ، ثم موت أمه ، ثم موت جَدّه — هذه اللذة ليست فى حاجة إلى ثروة من المال وإن تكن فى حاجة إلى ثروة نفسية طائلة يعرف الإنسان معها كيف يعكُف على نفسه ويعيش بها وفى دخيلتها . ولو أن محمدًا تُرِك وشأنَه يومئذ لَما نازعته نفسه إلى شىء من المال ، ولظلَّ سعيدًا بهذا الحال ، حال الرُّعاة المفكرين الذين ينتظمون الكون فى أنفسهم ، والذين يحتويهم الكون فى حبَّة قلبه .

خديجة

لكن عمه أبا طالب كان ، كما قدَّمنا ، حليف فقر كثير عيال . لذلك رأى أن يجد لابن أخيه سببًا للرزق أوسع مما يجيئه من أصحاب الغنم التى يرعى . فبلغه يومًا أن خديجة بنت خوَيلد تستأجر رجالاً من قريش فى تجارتها ، وكانت خديجة امرأةً تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها يضاربون لها به بشىء تجعله لهم . ولقد زاد فى ثروتها أنها ، وكانت من بنى أسَد ، قد تزوَّجت مرَّتين فى بنى مخزوم مما جعلها من أوفر أهل مكة غِنًى . وكانت تقوم على مالها بمعونة أبيها خُوَيْلد وبعض ذوى ثقتها . وقد ردَّت خِطْبةَ الذين خطبوها من كبار قريش ؛ لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون إلى مالها ، واعتزمت أن تقف جهدها على تنمية ثروتها . وإذ علم أبو طالب أنها تجهز لخروج تجارتها إلى الشام مع القافلة نادى ابن أخيه ، وكان يومئذ فى الخامسة والعشرين من سنه ، وقال له : يا ابن أخى ، أنا رجل لا مالَ لى ، وقد اشتدّ الزمان علينا ، وقد بلغنى أن خديجة استأجرت فلانًا بَبكْرَين ، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك أن أكلمها ؟ قال محمد : ما أحببتَ ! فخرج أبو طالب إليها فقال لها : هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمدًا ؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانًا ببكرين ، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة بِكَار . وكان جواب خديجة : لو سألتَ ذلك لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألته لحبيب قريب ! وعاد العمّ إلى ابن أخيه يذكر له الأمرَ ويقول له : هذا رزقٌ ساقه الله إليك .

محمد فى تجارة خديجة

خرج محمد مع مَيْسِرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به . وانطلقت القافلة فى طريق الصحراء إلى الشام مارّة بوادى القُرَى ومَدْيَنَ وديار ثمود وبتلك البقاع التى مرّ بها محمد مع عمّه أبى طالب وهو فى الثانية عشرةَ من عمره . وأحيت هذه الرحلة فى نفسه ذكريات الرحلة الأولى ، كما زادته تأملا وتفكيرًا فى كل ما رأى وسمع من قبلُ عن العبادات والعقائد بالشام أو بالأسواق المحيطة بمكة . فلما بلغ بُصْرَى اتَّصل بنَصْرانية الشام وتحدَّث إلى رُهبانها وأحبارها وتحدّث إليه راهب نسطورىٌّ وسمع منه . ولعلَّه أو لعلّ غيره من الرهبان قد جادل محمدًا فى دين عيسى ، هذا الدين الذى كان قد انقسم يومئذ شِيَعًا وأحزابًا ، كما بسطنا من قبل . واستطاع محمد بأمانته ومقدرته أن يتَّجر

بأموال خديجة تجارة أوفر ربحًا مما فعل غيره من قبل ، واستطاع بحلو شمائله وجمال عواطفه أن يكسب محبَّة ميسرة وإجلاله . فلما آن لهم أن يعودوا ابتاع لخديجة من تجارة الشام كل ما رغبت إليه أن يأتيها به .

فلمَّا بلغت القافلة مرَّ الظَّهْران فى طريق عودتها ، قال ميسرة : يا محمد ، أسْرِعْ إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف ذلك لك . وانطلق محمد حتى دخل مكة فى ساعة الظَّهيرة ، وكانت خديجة فى عِلِّيَّةٍ لها ، فرأته وهو على بعيره ؛ ونزلت حين دخل دارها واستقبلته . واستمعت إليه يقص بعبارته البليغة الساحرة خبر رحلته وربح تجارته وما جاء به من صناعة الشام ، وهى تنصت مغتبطة مأخوذة . واقبل ميسرة من بعدُ فروى لها عنْ محمد ورقه شمائله وجمال نفسه ما زادها علماً به فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة . ولم يك إلا ردُّ الطرْف حتى انقلبت غبْطتها حُبًّا جعلها وهى فى الأربعين من سنّها ، وهى التى ردَّت من قبلُ أعظم قريش شرفاً ونسباً ، تود أن تتزوج من هذا الشابّ الذى نفذت نظراته ونفذت كلماته إلى أعماق قلبها . وتحدَّثت فى ذلك إلى أختها على قول ،وإلى صديقتها نُفيسة بنت مُنْيَةَ على قول آخر . وذهبت نفيسة دسيساً إلى محمد فقالت له : ما يمنعك أن تتزوَّج ؟ قال : ما بيدى ما أتزوَّج به . قالت : فإن كُفيتَ ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألاَ تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ أجابت نفيسة بكلمة واحدة : خديجة . قال محمد : كيف لى بذلك ؟ ! وكان قد انِس هو أيضاً إلى خديجة وإن لم تحدّثه نفسه بزواج منها لِمَا كان يعلم من ردّها أشراف قريش وأغنياءها . فلما قالت له نفيسة جواباً عن سؤاله : علىّ ذلك ، سارع إلى إعلان قبوله . ولم تبطئ خديجة أن حدَّدت الساعة التى يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج . وزوجها عمها عمرو بن أسد ، لأن خويلداً كان قد مات قبل حرب الفِجَار ، مما يكذّب ما يُروَى من أنه كان حاضراً ولم يكن راضياً هذا الزواج ، وأن خديجة سقته خمراً حتى أخذت فيه ، وحتى زوَّجها محمداً

وهنا تبدأ صفحة جديدة من حياة محمد : تبدأ حياة الزوجية والأبوة . الزوجية الموفقة الهنية من جانبه وجانب خديجة جميعاً ، والأبوّة التى تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف محمد فى طفولته لفقد الآباء .

الفصل الرابع
من الزواج إلى البعث

صفة محمد – بناء المكيين الكعبة – حكم محمد بينهم فى الحجر الأسود – حكماء قريش والوثنية – أبناء محمد وبناته – موت أبنائه – زواج بناته – ميل محمد للعزلة – تحنثه فى حراء – الرؤيا الصادقة – أول الوحى .

تزوج محمد من خديجة بعد أن أصدقها عشرين بكرة . وانتقل إلى بيتها ليبدأ وإياها صفحة جديدة من صفحات الحياة ، صفحة الزوجية والأبوّة ، وليبادلها من جانبه حبًّ شاب فى الخامسة والعشرين لم يعرف نزوات الشباب ولا طيشه ، ولا هو عرف هذا الحب الأهوج يبدأ كأنه الشعلة المتوهّجة لينطفئ من بعد ذلك سراجه ، وليرزق منها البنين والبنات ؛ فيحتسب ولديه القاسم وعبد الله الطاهر الطيب[1] بما يثير فى نفسه لاعج الحزن والألم ، وتبقى له بناته وهو بهنّ البر والشفقة ، وهنّ له الإكرام والإعزاز الخالص .

صفة محمد

وكان محمد وسيم الطّلْعة ، رَبْعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، ذا شعر رَجْلٍ شديد سواده ، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منوّنين متّصلين ، واسع العينين أدعجهما ، تشوب بياضهما فى الجوانب حمرة خفيفة وتزيد فى قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال حوالك ، مستوى الأنف دقيقه ، مفلّج الأسنان ، كَثّ اللحية ، طويل العنق جميله ، عريض الصدر رَحْب الساحتين ، أزهر اللون ، شَثْن الكفين والقدمين (أى غليظهما) ، يسير ملقيًا جسمه إلى الأمام مسرع الخطو ثابته ، على ملامحه سيما التفكير والتأمل ، وفى نظرته سلطان الآمر الذى يخضع الناس لأمره . فلا عجب وتلك صفته أن تجمع خديجة بين حبه والإذعان له ، ولا عجب أن تُعفيه من تدبير مالها لتقوم هى على هذا التدبير

---

(١) الذى عليه أكثر أهل النسب أن الأبناء الذكور للنبى صلى الله عليه وسلم من خديجة اثنان : القاسم وعبد الله ، ويلقب بالطاهر وبالطيب . وقيل : إن أبناءه الذكور منها ثلاثة ، وقيل أربعة .

كدأبها من قبل ، وأن تدع له ما شاء من فسحة الوقت ليفكر وليتأمل .

وأقام محمد وقد أغناه الله بزواج خديجة فى ذروة من النسب وسعة من المال ، وأهل مكة جميعًا ينظرون إليه نظرة غبطة وإكبار . وكان فى شغل عن نظرتهم بما أسبغه الله عليه من فضله ، وبما يبشره به خِصْب خديجة من عقب صالح . لكن ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب فى الحياة العامة على ما كان يفعل من قبلُ ، بل لقد زاده جاهًا بينهم ومكانة فيهم ، وزاده لذلك تواضعًا على جمٍّ تواضعه . فلقد كان على عظيم ذكائه وظاهر تبريزه حسَنَ الإصغاء إلى محدّثه لا يلوى عن أحد وجهه ، ولا يكتفى بإلقاء السمع إلى من يحدّثه ، بل يلتفت إليه بكل جسمه . وكان قليل الكلام ، كثير الإنصات ، ميَّالا للجِدِّ من القول ، وإن كان لا يأبى أن يشارك فى مفاكهة وأن يمزح ثم لا يقول إلا حقًّا . وكان يضحك أحيانًا حتى تبدو نواجذه . فإذا غضب لم يظهر عليه من أثر الغضب إلا نَفْرَة عرق بين حاجبيه . ذلك أنه كان يكظم غيظه ولا يريد أن يظهر غضبه ، لِما جُبل عليه من سعة الصدر وصدق الهمة والوفاء للناس ، ومن البر والجود وكرم العشرة ، وما كان عليه إلى جانب ذلك من ثبات العزيمة وقوة الإرادة وشدة الباس ومضاء التصميم مضاء لا يعرف التردد . وهذه الصفات مجتمعةً فيه كانت ذات أثر عميق فى كل من اتصل به ، فمن رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبّه . فما كان أعظم أثرها إذا فيما أتسَق بينه وبين خديجة الزوج الوفيَّة من مودة صادقة ووفاء كَامل !

إعادة بناء الكعبة

لم ينقطع محمد عن مخالطة أهل مكة والأخذ معهم بنصيب فى الحياة العامة ، وكانوا يومئذ فى شغل بما أصاب الكعبة ؛ فقد طغى عليها سيل عظيم انحدر من الجبال فصدع جدرانها بعد توهينها . وكانت قريش من قبل ذلك تفكر فى أمرها . فهى لم تكن مسقوفة وكانت لذلك عُرضة لانتهاب السارقين ما تحتوى من نفائس . لكن قريشًا كانت تخشى إن هى شيدت بنيانها ورفعت بابها وسقفتها أن يصيبها من ربّ الكعبة المقدَّسة شرٌّ وأذى . فقد كانت تحيط بها فى مختلف عهود الجاهلية اساطير تخيف الناس من الإقدام على تغيير شىء من امرها ، وتجعلهم يعتبرون ذلك بِدْعًا . فلما طغى عليها

السيل لم يكن بدٌّ من الإقدام ولو فى شىء من الخوف والتردد . وصادف أن رمى البحر إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر رومىّ اسمه باقوم فحطمها . وكان باقوم هذا بنَّاء على شىء من العلم بالنجارة . فلما سمعت قريش بأمره خرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى جُدَّة ، فابتاعوا السفينة من الرومى وكلَّموه فى أن يَقْدَم معهم إلى مكة ليعاونهم فى بناء الكعبة ؛ وقبل باقوم . وكان بمكة قبطىّ يعرف نجر الخشب وتسويته ؛ فوافقهم على أن يعمل لهم ويعاونه باقوم .

هدم الكعبة وبناؤها

ثم إن قريشًا اقتسمت جوانب أربعة ، لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه . ولقد تردّدوا قبل هدمها مخافة أن يُصيبهم أذى ، ثم أقدم الوليد بن المغيرة فى شىء من الخوف ، فدعا آلهته وهدم بعض الجانب من الركن اليمانى . وأمسى القوم ينتظرون ما الله فاعل بالوليد . فلما أصبح ولم يُصِبه شىء أقدموا يهدمون وينقلون الحجارة ، ومحمد ينقل معهم ، حتى انتهى الهدم إلى حجارة خُضْر ضربوا عليها بالمعول فارتدّ عنها ؛ فاتخذوها أساسًا للبناء فوقه ، ونقلت قريش أحجار الجرانيت الأزرق من الجبال المجاورة وبدأت فى البناء . فلما ارتفع إلى قامة الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدّس فى مكانه من الجانب الشرقىّ ، اختلفت قريش أيهم يكون له فخار وضع الحجر فى هذا المكان . واستحرّ الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنْشب بسببه . تحالف بنو عبد الدّار وبنو عَدِىّ أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم ؛ وأقسموا على ذلك جهْد أيمانهم . حتى قرّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا وأدخلوا أيديهم فيه توكيدًا لأيمانهم ، ولذلك سُموا « لَعَقَةَ الدم » . فلما رأى أبو أميَّة بن المغيرة المخزومىّ ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنَّهم وكان فيهم شريفًا مطاعًا ، قال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أوّل من يدخل من باب الصَّفا . فلما رأَوْا محمدًا أوّل من دخل قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه . وقصّوا عليه قصتهم ، وسمع هو لهم ورأى العداوة تبدو فى عيونهم ، ففكر قليلا ثم قال : هَلُمَّ إلىّ ثوبًا ، فأُتى به ؛ فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ، ثم قال : ليأخذ كبيرُ كلّ قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ؛ فحملوه جميعًا إلى ما يحاذى

حكم محمد فى أمر الحجر الأسود

موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه ، وبذلك انحسم الخلاف وانفضّ الشَّر . وأتمَّت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانى عشرة ذراعًا ، ورفعوا بابها عن الأرض ليُدخلوا مَنْ شاءوا ويمنعوا من شاءوا . وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفَّين ، وجعلوا فى ركنها الشآمى من داخلها دَرجًا يُصعد به إلى سطحها . ووُضِع هُبَلَ فى داخل الكعبة ، كما وضعت فى داخلها النفائس التى تعرضت من قبل بنائها وسقفها لمطامع اللصوص .

اختُلف فى سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش فى أمر الحجر ، فقيل : كان ابن خمس وعشرين ، وقال ابن إسحاق : كان ابن خمس وثلاثين . وسواء أصحت الأولى أم الأخرى من هاتين الروايتين فإن إسراع قريش إلى الرضا بحكمه أوَّلَ ما دخل من باب الصفا ، وتصرفه هو فى أخذ الحجر ووضعه على الثوب وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة ، يدُلّ على ما كان له من مكانة سامية فى نفوس أهل مكة ومن تقدير جمّ لما عُرف عنه من سموّ النفس ونزاهة القصد .

انحلال السلطة فى مكة وأثره

وهذا الخلاف بين القبائل ، وهذا التحالف بين لعقَة الدم ، وهذا الاحتكام لأوّل مُقْبِل من باب الصفا ، يدلّ على أن السلطة فى مكة كانت انحلَّت ، فلم يبق لرجل منها ما كان لقُصَىّ ولا لهاشم ولا لعبد المطلب من سلطان . ولقد كان لتنازع بنى هاشم وبنى أميّة السلطان بعد وفاة عبد المطلب أثره فى ذلك لا ريب . وكان الانحلال فى السلطة جديرًا بأن يجرّ على مكة الأذى ، لولا ما كان لبيتها العتيق فى نفوس العرب جميعًا من تقديس . وأدّى انحلال السلطان إلى نتيجته الطبيعية ؛ أدَّى إلى مزيد من حرية الناس فى التفكير والجهر بالرأى ، وإلى إقدام اليهود والنصارى ، ممن كانوا يخافون صاحب السلطان ، على تعيير العرب عبادة الأوثان . وانتهى ذلك بكثير من أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم إلى أن زال من نفوسهم تقديس الأصنام ، وإن ظلَّ أمجاد مكة وسادتها يُظهرون لها التقديس والعبادة . ولهؤلاء من العذر ما للذين يرون فى الدين القائم وسيلة من وسائل ضبط النظام وعدم تبَلْبل الأفكار ، وفى عبادة الأصنام

بالكعبة ما يحفظ على مكة مكانتها الدينية والتجارية . وقد ظلّت مكة بالفعل تَنْعَم من وراء هذه المكانة بالرخاء واتصال التجارة ، لكن ذلك لم يغير من زوال تقديس الأصنام فى نفوس المكّيين .

بدء انحلال الوثنية

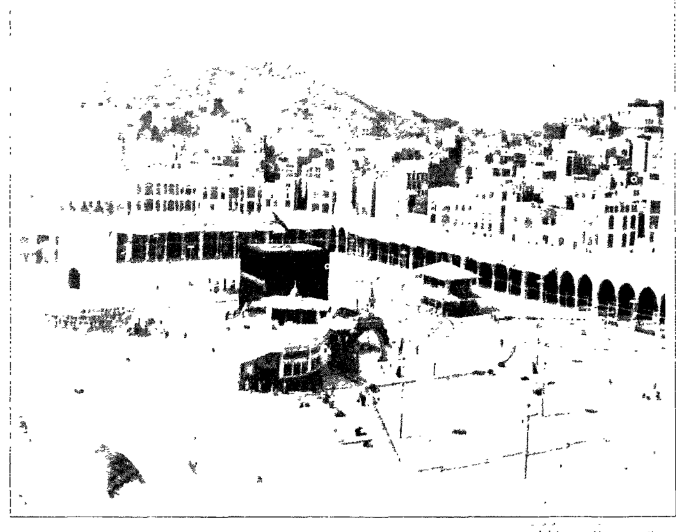
ذكروا أن قريشًا اجتمعت يومًا بنخلة تُحيي عيد العُزَّى ، فخلص منهم أربعة نجيًّا ، هم زيد بن عمرو ، وعثمان بن الحُوَيْرث ، وعبيد الله بن جَحْش وورقة بن نَوْفَل ؛ فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شىء وإنهم لنى ضلال . فما حجر نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرّ ولا ينفع ، ومن فوقه يجرى دم النحُور ! يا قوم التمسوا لكم دينًا غير هذا الدين الذى أنتم عليه » . أمَّا ورقة فدخل النَّصرانية ، وقيل : إنه نقل إلى العربية بعض ما فى الأناجيل . وأمَّا عبيد الله بن جحش فظلّ فيما هو فيه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، وهناك دخل فى النصرانية ومات عليها ، وأقامت امرأته أم حَبيبة بنت أبى سفيان على الإسلام حتى صارت من أزواج النبىّ وأمهات المؤمنين . وأمَّا زيد بن عمرو ففر من وجه زوجه ومن عمّه الخطاب ، وطوَّف فى الشام وفى العراق ثم عاد ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان ، وكان يقول وهو مستند إلى الكعبة : « اللهم لو أنى أعلم أىّ الوجوه أحبّ إليك لعبدتك به ، ولكنى لا أعلمه » . وأما عثمان بن الحويرث ، وكان من ذوى قرابة خديجة ، فذهب إلى بيزنطية وتنصر وحسنت مكانته عند قيصر ملك الروم ويقال : إنه أراد أن يُخضع مكة لحماية الرُّوم وأن يكون عاملَ قيصر عليها ، فطرده المكيون فاحتمى بالغسَاسِنة فى الشام ، وأراد أن يقطع الطريق على تجارة مكة ، فوصلت إلى الغساسنة هدايا المكيين ، فمات ابن الحويرث عندهم مسمومًا .

أبناء محمد

تعاقبت السنون ومحمد يشارك أهلَ مكة فى حياتهم العامة ، ويجد فى خديجة خير النساء حقًّا : الوَدود الوَلُود التى وهبت نفسها له ، والتى أنجبت له من الأبناء القاسم وعبد الله الملقب بالطاهر وبالطيب ، ومن البنات زينب ورُقيَّة وأم كلثوم وفاطمة . أمَّا القاسم وعبد الله فلم يعرف عنهما إلا أنهما

ماتا طفلين فى الجاهلية لم يتركا على الحياة أثراً يبقى أو يذكر ؛ لكنهما من غير شك قد ترك موتهما فى نفس أبويهما ما يتركه موت الابن من أثر عميق ، وترك موتهما من غير شك فى نفس خديجة ما جرح أمومتها جرحين دامبين . وهى لا ريب قد اتجهت عند موت كل واحد منهما فى الجاهلية إلى آلهتها الأصنام تسألها : ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها ، وما بالها لم ترحم قلبها من أن يهوَى به الثُّكْل ليتحطم على قرارة الحزن مرة فمرَّة ! وقد شعر معها زوجها لا ريب بالألم لوفاة ابنيه ، كما حزَّ فى قلبه هذا الألم الحىّ ممثلة صورته فى زوجه يراه كلما عاد إلى بيته وجلس إليها . وليس يتعذَّر علينا أن نقدر عمق هذا الحزن السحيق فى عصر كانت البناتُ يُوأدْنَ فيه ، وكان الحرص على العقب الذكر يوازى الحرص على الحياة بل يزيد عليه . وبحسبك مظهراً لهذا الألم أن لم يطق محمد على الحرمان صبراً ، حتى إذا جئ بزيد بن حارثة يُشترى ، طلب إلى خديجة أن تبتاعه ففعلت ، ثم أعتقه وتبناه ، فكان يدعى زيد بن محمد ، واستبقاه ليكون من بعد من خِيرة أتباعه وصحبه . ولقد حزن محمد من بعد حين مات ابنه إبراهيم أشد الحزن بعد أن حرَّم الإسلامَ وَأدَ البنات ، وبعد أن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات . فلا ريب إذاً أن قد كان لما أصاب محمداً فى بنيه ما هو جدير بأن يترك فى حياته وتفكيره أثره . ولا ريب فى أنه استوقف تفكيره ولفت نظره فى كل واحدة من هذه الفواجع ما كانت خديجة تتقرّب به إلى أصنام الكعبة ، وما كانت تنحر لهُبَل وللاَّت والعُزَّى ولمَناة الثالثة الأخرى ، تريد أن تتفادى ممَّا ألمَّ بها من ألم الثكل ، فلا تُفيد القرابين ولا تجدى النحور .

وأما البنات فقد عُنى محمد بتزويجهن من أكْفاء لهن : زوّج زينب كُبْراهن من أبى العاص بن الرَّبيع بن عبد شمس ، وكانت أمّه أختاً لخديجة ، وكان فتى مقدَّراً من قومه لاستقامته ونجاح تجارته . وكان هذا الزواج موفقاً على الرغم مما كان بعد الإسلام ، حين أرادت زينب الهجرة من مكة إلى المدينة ، من فُرقة بينهما سنرى من بعدُ تفْصيلها . وزوّج رُقَيَّة وأم كلثوم من عتبة وعُتَيْبة ابنى عمه أبى لهب . ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الإسلام ؛



جانب من المسجد الحرام

إذ أمر أبو لهب إبنيه بتسريحهما ، فتزوجهما عثمان واحدة بعد الأخرى . وكانت فاطمة ما تزال طفلة فلم تُزَوج من علىّ إلا بعد الإسلام .

حياةَ طمأنينة ودعة إذًا كانت حياةُ محمد فى هذه السنين من عمره . ولولا احتسابه بنيه لكانت حياة نَعْمة بمودّة خديجة ووفائها ، وبهذه الأبوة السعيدة الراضية . طبيعىٌّ لذلك أن يترك نفسه لسجيّتها ، سجية التفكير والتأمل ، وأن يستمع إلى قومه فيما كان حوارهم يقع عليه من أمور أصنامهم ، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم ، وأن يفكر ويتدبَّر وأن يكون أشدّ من كل قومه تدبرًا وتفكيرًا . فهذا الروح القوىّ الملهم ، هذا الروح الذى أعدّته الأقدار ليبلّغ الناسَ من بعدُ رسالاتِ ربه ويوجّه حياة العالم الروحية الاتجاه الحقّ ، لا يمكن أن يظل مطمئنًّا إلى ما غرِق الناس فيه إلى الأذقان من ضلال ، ولابد أن يلتمس فى الكون أسباب الهدى ، حتى يُعِدّه الله ليلقى عليه ما قدَّر فى الغيب من رسالته . ومع عظيم توجهه إلى هذه الناحية الروحية وشديد تعلقه بها ، لم يكن يريد لنفسه أن يكون من طراز الكهَّان ، ولا أراد أن ينصب نفسه حكيماً على نحو ما كان ورقة بن نوفل وأمثاله ؛ إنما كان يريد الحق لنفسه ، فكان لذلك كثير التفكير ، طويل التأمل ، قليل الإفضاء إلى غيره بما يجيش بنفسه من آثار تفكيره وتأمله .

التحنث

وقد كان من عادة العرب إذ ذاك أن ينقطع مفكروهم للعبادة زمنًا فى كل عام يقضونه بعيدًا عن الناس فى خلوة ، يتقربون إلى آلهتهم بالزهد والدعاء ، ويتوجهون إليها بقلوبهم يلتمسون عندها الخير والحكمة وكانوا يسمون هذا الانقطاع للعبادة التحنف والتحنث . وقد وجد محمد فيه خير ما يمكّنه من الإمعان فيما شُغِلت به نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة يتلمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة واستلهام ما فى الكون من أسبابها . وكان بأعلى جبل حراء – على فرسخين من شمال مكة – غار هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طول شهر رمضان من كل سنة يقيم به مكتفيًا بالقليل من الزاد يحمل إليه ممعنًا فى التأمل والعبادة ، بعيدًا عن ضجَّة الناس وضوضاء الحياة ، ملتمساً

فى غار حراء

الحق ، والحق وحده . ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما فى الحياة ؛ لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله ليس حقًّا . وهناك كان يقلّب فى صحف ذهنه كل ما وعى فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازورارًا .

التماس الحقيقة

وهو لم يكن يطمع فى أن يجد فى قصص الأحبار وفى كتب الرهبان الحق الذى ينشد ، بل فى هذا الكون المحيط به : فى السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفى الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء ، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعَّة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرّطب الندِى ، وفى البحر وموجه ، وفى كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود . فى هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا ، وكان ابتغاء إدراكها يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتّصل بهذا الكون وليخترق الحجب إلى مكنون سرّه . ولم يكن فى حاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشر قومُه من شؤون الحياة وما يتقرّبون به إلى آلهتهم ليس حقًّا . فما هذه الأصنام التى لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ، ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه ! وهبَل واللّات والعُزَّى ، وكل هذه الأنصاب والأصنام القائمة فى جوف الكعبة أو حولها ، لم تخلق يومًا ذبابة ولا جادت مكة بخير ! ولكن ! أين الحق إذًا ؟ أين الحق فى هذا الكون الفسيح بأرضه وسَماواته ونجومه ؟ أهو فى هذه الكواكب المضيئة التى تبعث إلى الناس النور والدّفء ، ومن عندها ينحدر ماء المطر ؛ فتكون للناس ، ولأهل الأرض كافةً من خلائق ، حياةٌ بالماء والنور والدفء ؟ كلا ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء . أهو فيما وراء هذه الأفلاك من أثير لا حد ولا نهاية له ؟ ولكن ما الأثير ؟ وهذه الحياة التى نحيا اليوم فتنقضى غدًا ، ما أصلها وما مصدرها ؟ ! أمصادفة تلك التى أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها ؟ لكن للأرض وللحياة سُننًا ثابتة لا تبديل لها ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها . ومايأتى الناسُ من خير أو شرّ ، أفيأتونه طوّاعية واختيارًا ، أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ فى هذه الأمور النفسية والروحية كان محمد يفكر أثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء ، وكان يريد أن يرى الحق فيها

وفى الحياة جميعًا . وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤادَه وضميره وكل ما فى وجوده ، ويشغله لذلك عن هذه الحياة وصبحها ومسائها . فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة وبه من أثر التفكير ما يجعلها تسائله تريد أن تطمئنّ إلى أنه بخير وعافية .

أفكان محمد يتعبَّد أثناء تحنثه ذاك على شرع بذاته ؟ هذا أمرٌ اختلف العلماء فيه . وقد روى ابن كثير فى تاريخه طَرَفًا من آرائهم فى الشرع الذى كان يتعبَّد عليه : فقيل شرع نوح ، وقيل إبراهيم ، وقيل موسى ، وقيل عيسى ، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتَّبعه وعمل به . ولعلّ هذا القول الأخير أقوم من كل ما سبقه ، فهو الذى يتَّفق وما شُغف محمد به من التأمل ومن التفكير على أساس هذا التأمل .

الرؤيا الصادقة

وكان إذا استدار العام وجاء شهر رمضان ذهب إلى حراء وعاد إلى تفكيره يُنضجه شيئًا فشيئًا وتزداد نفسه به امتلاء . وبعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه ، صار يرى فى نومه الرؤيا الصادقة تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوارُ الحقيقة التى ينْشُد ، ويرى معها باطل الحياة وغرور زُخْرفها . إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى ، وأن حياتهم الروحيَّة قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما إليها من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالاً وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما يُنقذ قومه من ضلالهم . ففيما يذكر هؤلاء وأولئك حقّ ؛ لكن فيه كذلك ألوانًا من الوهم ، وصورًا من الوثنية ، لا يمكن أن تتفق مع الحق المجرَّد البسيط الذى لا يعرف كل هذه المضاربات الجَدلية العقيمة مما يُمْعن فيه هؤلاء وأولئك من أهل الكتاب . وهذا الحق هو الله خالق الكون لا إله إلا هو . وهذا الحق هو أن الله رب العالمين . هو الرحمن الرحيم . وهذا الحق هو أن الناس مجزيون بأعمالهم . (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)[١] ، وأن الجنة حقّ والنار حق ، وأن الذين يعبدون من دون الله إلهًا آخر لهم جهنم ، وساءت مُستقرًّا ومُقامًا .

---

(١) سورة الزلزلة آيتا ٧ و ٨ .

وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى حراء يتحنث وقد امتلأت نفسه إيمانًا بما رأى فى رُؤاه الصادقة ، وقد خلَصت نفسه من الباطل كله ، وقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة ، وقد اتجه إلى الله بكل روحه أن يَهْدِيَ قومَه بعد أن ضربوا فى تَيْهاء الضلال . وهو فى تَوَجُّهه هذا يقوم ويُرْهف ذهنه وقلبه ، ويُطيل الصوم ، وتثور به تأملاته ، فينحدِر من الغار إلى طرق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له فى رؤاه . ولقد طالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسرَّ بمخاوفه إلى خديجة وأظهرها على ما يَرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوج المخلصة الوفيَّة ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يَدُرْ بخاطرها ولا بخاطره أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحى الأول ، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة .

أول الوحى
(سنة ٦١٠ م)

وفيما هو نائم بالغار يومًا جاءه ملك وفى يده صحيفة ، فقال له : اقْرأ . فأجاب مأخوذًا : ما أقرأ ! فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول له : اقْرَأ . قال محمد : ما أقرأ ! فأحس كأن الملك يخنقه كرّة أخرى ، ثم يُرسله ويقول : اقرأ . قال محمد – وقد خاف أن يُخْنَق مرَّة أخرى – ماذا أقرأ ؟ ! قال الملك : (اقْرَأْ باسْمِ رَبِكَ الذى خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرأ ورَبُّكَ الأَكْرمُ . الذى عَلَّمَ بِالْقلمِ . عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ) [١] فقرأَها وانصرف الملك عنه وقد نُقِشَتْ فى قلبه [٢] .

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ إلى ٥

(٢) كذلك روت كتب السيرة الأولى ، وعليه ابن إسحاق . وكذلك روى كثير من المحدثين . على أن بعضهم يرى أن بدء الوحى كان فى اليقظة وكان نهاراً ، ويذكر حديثاً على لسان جبريل طمأن به محمدا حين رأى روعه . وذكر ابن كثير فى تاريخه ما أورده الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتابه (دلائل النبوة) عن علقمة بن قيس أنه قال : « إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحى بعد » : وأضاف : « وهذا من قبل علقمة بن قيس نفسه ، وهو كلام حسن يؤيده ما قبله ويؤيد ما بعده » .

ولكنه ما لبث أن استيقظ فَزِعًا يسأل نفسه : أىَّ شىء رأى ؟ أتراه أصابه ما كان يخشى من جِنَّة ؟ وتلفَّت يَمْنةً ويَسْرةً فلم يَرَ شيئًا . ومكث برهة أصابته فيها رِعْدة الخوف وتولاه أشدُّ الوجل ، وخاف ما قد يكون بالغار ، ففر منه وكله حيرة لا يستطيع تفسير ما رأى . وانطلق هائمًا فى شعاب الجبل يُسائل نفسه عَمَّن دفعه ليقرأ . لقد كان إلى يومئذ يرى وهو فى تحنثه الرؤيا الصادقة تنبلج من خلال تأمله فتملأ صدره فتضىء أمامه وتدله على الحق أين هو ، وتُنير له حُجب الظلمات التى زَجَّت قريشًا فى وثنيتهم إلى عبادة أصنامهم . وهذا النور الذى أضاء أمامه وهذا الحق الذى هداه سبيله هو الواحد الأحد . فمن هذا المذكِّر به ،وبأنه الذى خلق الإنسان ، وبأنه الأكرم الذى علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم ؟ وتوسَّط الجبلَ وهو فى هذه الحال من فزع وخَشْية ومساءلة ، فسمع صوتًا يناديه ، فأخذه الرَّوْع ورفع رأسه إلى السماء ، فإذا الملك فى صورة رجل هو المنادى ، وزاد به الفزع ووقفه الرعب مكانه ، وجعل يصرف وجهه عما يرى ، فإذا هو يراه فى آفاق السماء جميعًا ويتقدم ويتأخَّر فلا تنصرف صورة الملك الجميل من أمامه . وأقام على ذلك زمنًا كانت خديجة قد بعثت أثناءه من يلتمسه فى الغار فلا يجده . فلما انصرفت صورة الملك رجع محمد ممتلئًا بما أوحى إليه ، وفؤاده يجفُ وقلبه يضطرب خوفًا وهلعًا . ودخل على خديجة وهو يقول زملونى ، فزمَّلته وهو يرتعد كأن به الحمَّى . فلما ذهب عنه الرَّوع نظر إلى زوجه نظرة المستنجد ، وقال : يا خديجة ! مالى ! ؟ وحدَّثها بالذى رأى ، وأفضى إليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرتُه أو أن يكون كاهنًا . وكانت خديجة ، كما كانت أيام تحنثه فى الغار ومخاوفه أن تكون به جِنَّة ، ملك الرحمة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف الوَجِل . لم تُبْد له أى خوف أو ريبة ، بل رَنَتْ إليه بنظرة الإكبار وقالت : أَبْشِر يا بن عمّ واثْبُتْ . فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىَّ هذه الأمة . ووالله لا يُخزيك الله أبدًا . إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديثَ وتحمل الكَلَّ ، وتَقرى الضيف ، وتُعِين على نوائب الحق » .

الفزع

خديجة وزير صدق

واطمأن روع محمد وألقى على خديجة نظرة شكر ومودة ثم أحسَّ جسمَه

متعبًا فى حاجة إلى النوم فنام . نام ليستيقظ من بعدُ لحياة روحية قوية غاية القوة ؛ حياة تأخذ بالأبصار والألباب ، ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والإنسانية . تلك رسالة ربه يبلغها ويدعو الناس إليها بالتى هى أحسن ، حتى يُتِمَّ الله نوره ولو كره الكافرون .

الفصل الخامس

من البعث إلى إسلام عمر

حديث خديجة وورقة بن نوفل – فتور الوحى – إسلام أبى بكر – المسلمون الأولون – دعوة محمد أهله للإسلام – إغراء قريش شعراءها بمحمد – ذكر محمد آلهة قريش بالسوء – سفارة قريش إلى أبى طالب – موقف محمد من عمه – تعذيب قريش المسلمين – هجرة المسلمين للحبشة – إسلام عمر .

نام محمد وحدقت فيه خديجة وقد امتلأ قلبها إشفاقاً وأملاً لهذا الذى سمعت منه . فلمَّا رأته استغرق فى نوم مطمئن هادئ ، تركته وخرجت تقلّب فى نفسها هذا الذى هز قلبها وأثار هواجسها ، وتفكّر فى الغد ترجوه خيراً ، وترجو أن يكون زوجها نبيّ هذه الأمة العربيَّة التى غرقت فى الضلال ؛ يهديها دينَ الحقّ ويدلها على الصراط المستقيم . ولكنها ، مع ذلك كانت تخشى هذا الغد أشد الْخَشية على هذا الزوج البار الوفى الحميم . وطفِقت تعرض أمام بصيرتها ما قص عليها ، وتتخيل المَلَك الجميل الذى تعرض له فى السماء بعد أن أوحى إليه كلمات ربه ، والذى ملأ عليه الوجود كله حينما كان يراه أينما صرف وجهه ، وتستعيد الكلمات التى تلا محمد بعد أن نُقشت فى صدره . جعلت تعرض ذلك كله أمام بصيرتها فتفترّ شفتاها طوراً عن ابتسامة الأمل ، وتنكمش أساريرها طوراً آخر خيفة ما قد يكون أصاب الأمين . ولم تطِق البقاء فى وحدتها طويلا ، تنتقل من الأمل الحلو الباسم إلى الريبة والإشفاق المخوف ، ففكرت بأن تفضى بما فى نفسها إلى من تعرف فيه الحكمة ومحض النصيحة .

حديث ورقة لخديجة

لذلك انطلقت إلى ابن عمها وَرَقة بن نَوفَل ؛ وكان كما قدَّمنا ، قد تنصَّر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية . فلمَّا أخبرته بما رأى محمد وسمع ، وقصت عليه كل ما حدثها به ، وذكرت له إشفاقها وأمَلَها ، أطرق مليًّا ثم

قال : قدُّوس قدُّوس ، والذى نفسُ ورقة بيده لئن كنت صَدقتِنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبُت » . وعادت خديجة فألفت محمداً ما يزال نائماً ، فحدقت فيه وكلها الحب والإخلاص ، وكلها الإشفاق والأمل . وفيما هو فى هدأة نومه إذا به اهتز وثَقُلَ تنفسه وبلل العرق جبينه يقوم ليستمع إلى الملك يوحى إليه : (يأَيُّها المُدَّثِّر . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فكَبِّرْ . وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ . والرُّجْزَ فَاهْجُرْ . ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ولِربِّكَ فاصْبِرْ)(١) .

ورأته خديجة كذلك فازدادت إشفاقاً ، وتقدَّمت إليه فى رقة وضراعة أن يعود إلى فراشه وأن ينام ليستريح . فكان جوابه – أوكما قال – انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أُنْذِر الناس وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته . فمن ذا أدعو؟ ومن ذا يستجيب لى ؟ فجهدت خَديجة تهوّن عليه الأمر وتثبته . وسارعت فقصت عليه نبأ ورقة وما حدثها به ، ثم أعلنت إليه فى شوق ولهف إسلامها له وإيمانها بنبوَّته .

وكان طبيعيًّا أن تسارع إلى الإيمان به ، وقد جربت عليه طول حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البر والرحمة ، رأته فى سنوات تحنثه كيف شغِلت نفسه بالحق وحده ، يطلبه مرتفعاً بقلبه وبروحه وبعقله فوق أوهام الناس ممن يعبدون الأصنام ويقرّبون لها القرابين ، وممن يرون فيها آلهة يزعمونها تضر وتنفع ، ويتوهمونها خليقة بالعبادة والإجلال . رأته فى سنوات تحنثه كما رأت كيف كان حاله أول عوده من حِرَاء بعد البعث وهو فى أشد الحيرة من أمره . ولقد طلبت إليه متى جاءه الملك أن يخبرها . فلما رآه أجلسته على فخذها اليسرى ثم على فخذها اليمنى ، ثم فى حجرها وهو ما يزال يراه ، فحسرت وألقت خمارها فإذا هو لا يراه ؛ فلم يبق ريب عندها فى أنه ملك وليس بشيطان .

ورقة ومحمد

وخرج محمد من بعد ذلك يوماً للطواف بالكعبة ، فلقيه ورقة بن نوفل .

(١) سورة المدثر الآيات من ١ إلى ٧ .

فلما قص عليه محمد أمره قال ورقة : « والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى . ولتُكَذَّبَن ، ولتُؤْذَيَنَّ ، ولتُخْرَجَنَّ ، ولتُقَاتَلَنَّ . ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصراً يعلمه » . ثم أدنى منه رأسه فقبَّل يافوخه . وشعر محمد بصدق ورقة فى قوله وبثقل ما أُلقى عليه ، وطفق يفكر كيف يدعو قريشاً إلى ما آمن به وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم ، حتى ليقاتلون فى سبيله ويُقْتلون ، وهم من بعدُ أهلُه وعشيرته الأقربون .

إنهم فى ضلال ، وإن ما يدعوهم إليه هو الحق . فهو يدعوهم إلى الارتفاع بقلوبهم وبأرواحهم لتتصل بالله الذى خلقهم وخلق من قبلُ آباءهم ، ليعبدوه مُخلصين له الدينَ طاهرةً نفوسهم . وهو يدعوهم ليتقرَّبوا إلى الله بالعمل الصالح وإيتاء ذى القربى حقَّه وابن السبيل ، ولينبذوا عبادة هذه الأحجار التى اتخذوا منها أصناماً يزعمون أنها تغفر لهم ما يمعنون فيه من لهو وفسوق ، ومن أكل الرِّبا ومال اليتيم ، فإذا عبادتها تُحيل نفوسهم وقلوبهم أشدَّ من الأصنام تحجراً وقسوة ! وهو يُهيب بهم أن ينظروا إلى ما فى السموات والأرض من خلق الله لتمتثل نفوسهم ذلك كله وتدرك ماله من خطر وجلال ، فتعْظُم بإدراكها سنَّةَ ما فى السموات وما فى الأرض ، ثم تعظم بعبادتها خالق الوجود كله وحده لا شريك له ، وتسمو لذلك عن كل وضيع ، وتتعالى عن كل دون ، وتأخذها الرحمة بكل من لم يهدِهِ الله وتعمل لهدايته ، وتكون البِرَّ لكل يتيم ولكل بائس أو ضعيف . نعم ! إلى هذا أمره الله أن يدعوهم . لكن هذه القلوب القاسية ، وهذه الأرواح الغِلاظ قد يبست على عبادة ما كان يعبد آباؤها . ووجدت فيه تجارة تجعل مكة مركز حَجيج عَبَدة الأصنام ! أفيتركون دين آبائهم ويعرّضون مكانة مدينتهم لما قد تتعرَّض له إذا لم يبق على عبادة الأصنام أحد ؟! ثم كيف تطهرُ هذه القلوب وتخلُصُ من أدران شهواتها ، والشهوة تهبط بها إلى إرضاء بَهيميَّتها ، فى حين هُو ينذر الناس أن يرتفعوا فوق شهواتهم وفوق أصنامهم ؟ وإذا هم لم يؤمنوا به فماذا عسى أن يفعل ؟ هذه هى المسألة الكبرى ؟

فتور الوحى

انتظر هداية الوحى إيَّاه فى أمره وإنارة سبيله ، فإذا الوحى يفتر ! وإذا جبريل لا ينزل عليه ، وإذا ما حوله سكينة صامتة جعلته فى وحدة من الناس ومن نفسه ، وردَّته إلى مثل مخاوفه قبل نزول الوحى . وقد رُوى أن خديجة قالت له : ما أرى ربك إلا قد قَلاك . وتولاه الخوف والوجل ، فهما يبتعثانه من جديد يَطوى الجبال وينقطع فى حراء يرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربّه يسأله : لم قلاه بعد أن اصطفاه ؟ ولم تكن خديجة أقلّ منه إشفاقاً ووجلا . ويتمنَّى الموت صادقاً لولا أنه كان يشعر بما أمر به فيرجع إلى نفسه ثم إلى ربه . ولقد قيل : إنه فكر فى أن يُلقى بنفسه من أعلى حراء أو أبى قُبَيْس . وأى خير فى الحياة وهذا أكبر أمله فيها يذوى وينقضى ! وإنه لكذلك تساوره هذه المخاوف إذ جاءه الوحى بعد طول فتوره ، ونزل عليه بقوله تعالى : (والضُّحَى والَّليل إذا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبكَ وما قَلَى . ولَلْآخِرَةُ خيرٌ لكَ مِنَ الأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجدْكَ يتيماً فآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنَى . فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فلا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)(١) .

نزول سورة الضحى

يالجَلال الله ! أيَّة سكينة للنفس ، وغبطة للقلب ، وبهجة للفؤاد ! انجابت مخاوف محمد وزال كل روعه ، وارتسمت على ثغره ابتسامة الرضا ، وافترّت شفتاه عن معانى الحمد وآى التقديس والعبادة ، لم يبق لما كانت تخشى خديجة من أن الله قلاه ولم يبق لفزعه وهلعه موضع ، بل تولاّه الله وتولاها برحمته ، وأزال كل خشية أو ريبة من نفسه . لا انتحار إذاً ، ولكن حياة ودعوة إلى الله ، وإلى الله وحده . إلى الله العلىّ الكبير تعنو له الجباه ويسجد له مَنْ فى السموات والأرض جميعاً . هو وحده الحقُّ وكل ما يدعون من دونه الباطلُ . إليه وحده يتوجَّه القلبُ ، وبه وحده يجب أن تتعلق النفس ، وفيه وحده يجب أن تفنى الرُّوح ، وللآخرة خير لك من الأولى . الآخرة التى تُحيط فيها النفس

الدعوة إلى الحق وحده

---

(١) سورة الضحى .

بكل الوجود فى كمال وحدته ، والتى يتناهى إليها المكان والزمان وتُنْسَى فيها اعتبارات هذه الحياة الوضيعة الأولى . الآخرة التى يصير فيها الضحى ولألاء شمسه الباهرة ، والليل ودُجاه الساجى ، والسموات والكواكب والأرض والجبال كُلاًّ واحداً تتصل به الروح الراضية المرضية . هذه هى الحياة التى يجب أن تكون إليها الغاية من سفر هذه الحياة . هذا هو الحق وكل ما دونه صور منه لا تغْنى عنه . هذا هو الحق الذى أضاء بنوره روح محمد والذى ابتعثه من جديد ليفكر فى الدعوة إلى ربِّه . وللدعوة إلى ربه يجب أن يطهر ثيابه ، وأن يهجر المنكر ، وأن يصبر على ما يلاقى من الأذى فى سبيل الدعوة إلى الحق ، وأن ينير للناس سبيل العلم بما لم يكونوا يعلمون ، وألاّ ينهر من أجل ذلك سائلا ، ولا يقهر يتيماً . حَسْبُه اختيار الله إياه لكلمته فليتحدث عنها . وحسبه أن الله وجده يتيماً فآواه فى كفالة جَدّه عبد المطلب وعمه أبى طالب ؛ وأنه وجده فقيراً فأغناه بأمانته ويسَّر له خديجة شريكة صباه ، شريكة تحنثه ، شريكة بعثه ، شريكة المحبة ، الناصحة الرءوف ؛ وأنه وجده ضالا فهداه برسالته . حسبُه هذا . وليدعُ إلى الحق جاهداً ما استطاع . ذلك أمر الله إلى نبيه الذى اصطفاه ، ما ودّعه وما قلاه .

الصلاة

وعلَّم الله نبيه الصلاة فصلَّى وصلَّت خديجة معه . وكان يقيم معهما غير بناتهما علىّ بن أبى طالب الذى كان صبيًّا لمَّا يبلغ الْحُلم . ذلك أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة ؛ وكان أبو طالب كثير العيال. فقال محمد لعمه العباس — وكان من أكثر بنى هاشم يساراً — : « إن أخاك أبا طالب كثير العيال ،وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة : فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله ، آخُذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه » . . . وكفل العباس جعفراً وكفل محمد عليًّا ، فلم يزل معه حتى بعثه الله . وفيما محمد وخديجة يصليان يوماً دخل عليهما علىٌّ مفاجأة ، فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسَّر مما أوحاه الله يومئذ من القرآن . فوقف الشابٌّ دَهِشاً حتى أتما صلاتهما ، ثم سأل : لمن تسجُدان ؟ فأجابه محمد — أو كما قال — : إنما نسجد لله الذى بعثنى نبيًّا وأمرنى أن أدعو الناس إليه . ودعا محمدٌ ابنَ عمه إلى عبادة الله

وحده لا شريك له ، وإلى دينه الذى بعث نبيَّه به ، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعُزَّى ، وتلا محمد ما تيسَّر من القرآن ، فأخِذ علىٌّ عن نفسه ، وسَحَره جمال الآيات وإعجازها واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه . ثم قضى ليله مضطرباً ، حتى إذا أصبح أعلن إليهما أنه اتبعهما من غير حاجة لرأى أبى طالب وقال : « لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله » . وكذلك كان علىٌّ أول صبى أسلم ، ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبى . وبذلك بقى الإسلام محصوراً فى بيت محمد : فيه وفى زوجته وابن عمه ومولاه . وظل هو يفكر كيف يدعو قريشاً إليه وهو يعلم ما هى عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادات آبائها وأصنامهم .

إسلام على بن أبى طالب

إسلام أبى بكر

وكان أبو بكر بن أبى قحافة التَّيْمى صديقاً حميماً لمحمد ، يستريح إليه ويعرف فيه النزاهة والأمانة والصدق . لذلك كان هو أول من دعاه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان ، وأول من أفضى إليه بما رأى وبما أوحى إليه : ولم يتردد أبو بكر فى إجابة محمد إلى دعوته وفى الإيمان بها . وأىُّ نفس تنشرح للحق تتردد فى ترك عبادة الأوثان لعبادة الله وحده ؟ وأىُّ نفس فيها شىء من السمو ترضى عن عبادة الله عبادة حجر أيًّا كانت صورته ؟ . أو أىّ نفس تقية تتردد فى طهر الثياب وطهر النفس وإعطاء السائل والبر باليتيم ؟ ! وأذاع أبو بكر بين أصحابه إيمانه بالله وبرسوله . وكان أبو بكر رجلا وسيماً « مَألَفاً لقومه مُحبَّباً سهلا ، وكان أنسبَ قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجراً ذا خُلق ومعروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته » .

المسلمون الأولون

وجعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ، فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عُبيد الله وسَعْد بن أبى وَقاص ، والزُّبير بن العوام ، ثم أسلم من بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة .

وكان أحدهم إذا أسلم ذهب إلى النبى فأعلن إليه إسلامه وتلقى عنه تعاليمه .

وكان المسلمون الأولون يستخفون لعلمهم بما تضمر قريش من عداوة لكل خارج على أوثانها ، فكانوا إذا أرادوا الصلاة انطلقوا إلى شعاب مكة وصلوا فيها . وظلوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الإسلام فيها انتشاراً بين أهل مكة ، ونزل على محمد فيها من الوحي ما زاد المسلمين إيماناً وتثبيتاً .

وكان مَثَل محمد خير ما يزيد الدعوة انتشاراً : كان بَرًّا رحيماً ، جَمَّ التواضع كامل الرجولية ، عذْب الحديث ، محبًّا للعدل ، يُعطى كل ذى حق حقه ، وينظر إلى الضعيف واليتيم وإلى البائس والمسكين نظرة كلها الأبوّة والحنان والعطف والمودّة . وكان تهجّده وسهره الليل وترتيله ما أنزل عليه ودوام نظره فى السموات والأرض والتماس العبرة من الوجود كله وكل ما فيه ، وفى توجهه الدائم لله وحده ، والتماسه حياة الكون كله فى أطواء نفسه ودخيلة حياته ، مثلا جعل الذين آمنوا به وأسلموا له أحرص على إسلامهم وأشدَّ يقيناً بإيمانهم ، على ما فى ذلك من إنكار ما كان عليه آباؤهم واحتمال تعرّضهم لأذى المشركين ممن لم يدخل الإيمان فى قلوبهم . آمن بمحمد من تجار مكة وأشرافها مَن عرفت نفوسهم الطهر والنزاهة والمغفرة والرحمة ، وآمن به كل ضعيف وكل بائس وكل محروم ، وانتشر أمر محمد بمكة ودخل الناس فى الإسلام أرْسالا رجالا ونساء .

قريش والمسلمون

وتحدَّث الناس عن محمد وعن دعوته . على أن أهل مكة من قُساة الأكباد ومَنْ على قلوبهم أقفالُها لم يعبئوا به أول أمره وظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قُسّ وأمية ووَرقة وغيرهم ، وأن الناس عائدون لا محالة إلى دين آبائهم وأجدادهم ، وأنَّ هُبل واللات والعُزى ، وإسافاً ونائلة اللذين كانا يُنحر عندهما ، ستكون آخر الأمر صاحبة الغلب ، ناسين أن الإيمان الصادق لا يغلبه غالب ، وأن الحق قد كتب له الفوز أبداً .

بعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظْهر ما خفى من أمره وأَنْ يَصْدَعَ بما جاءَ منه ، ونزل الوحى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ

جَنَاحَكَ لِمَنَ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمؤمِنِينَ . فَإنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إنِّي بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) (١)
(فاصْدَعْ بِمَا تُؤمَر وأَعْرِضْ عَنِ الْمشْرِكِينَ) (٢) .

عشيرته الأقربون

ودعا محمد عشيرته إلى طعام فى بيته ، وحاول أن يحدّثهم داعياً إياهم إلى الله ؛ فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا . ودعاهم محمد فى الغداة كَرَّةً أخرى ، فلما طعِموا قال لهم : ما أعلم إنساناً فى العرب جاءَ قومَه بأفضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه . فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟ فأعرضوا عنه وهمّوا بتركه – لكن عليًّا نهض ، وهو ما يزال صبياً دون الحلم . وقال : « أنا يا رسول الله عونك . أنا حربٌ على من حاربتَ » . فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم ، وجعل نظرهم ينتقل من أبى طالب إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين .

انتقل محمد بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً . صعد الصَّفا يوماً ونادى : يا معشر قريش ! قالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه يسألونه ماله ؟ قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسَفح هذا الجبل أكنتم تصدّقون ؟ قالوا : نعم ! أنت عندنا غير متهم وما جرّبنا عليك كذباً قطُّ . قال : فإنى نذيرٌ بين يدىّ عذاب شديد ، يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زُهْرة ، يا بنى تَيْم ، يا بنى مخزوم ، يا بنى أسَد ، إن الله أمرنى أن أنْذِر عشيرتِى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعةً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله ، أوكما قال . فنهض أبو لهب – وكان رجلاً بديناً سريع الغضب – فصاح : « تبًّا لك سائر هذا اليوم ! ألهذا جمعتنا ! » .

وأُرْتِجَ على محمد فنظر إلى عمه ، ثم ما لبث أن جاء الوحى بقوله تعالى :

---

(١) سورة الشعراء الآيات من ٢١٤ إلى ٢١٦ .
(٢) سورة الحجر آية ٩٤ .

(تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أَغْنَى عَنْه مَالُه وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَب)(١) .

الإسلام والحرية

لم يحُلْ غضب أبى لهب ولا خصومة غيره من قريش دون انتشار الدعوة إلى الإسلام بين أهل مكة . فلم يكن يوم إلا أسلم فيه بعضهم لله وجهه . وكان الزاهدون فى الدنيا أشدَّ على الإسلام إقبالا . أولئك لا تُلهيهم التجارة ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم الداعى إليه . وهم قد رأوا محمداً فى غنى من مال خديجة وماله ، وها هو ذا مع ذلك لا يعبأ بهذا المال ولا بالمزيد عليه والإكثار منه ، ويدعو إلى الحب والعطف والمودَّة والتسامح . بل ها هو ذا يجيئه الوحى بأن فى الإكثار من الثروة لعنةً للروح . أَليس يقول : (أَلْهَاكُم التَّكَاثُر . حَتَّى زُرْتُم الْمَقَابِر . كَلا سَوْفَ تَعْلَمونَ . ثُمَّ كلاَّ سَوْفَ تَعْلَمونَ . كَلاَّ لَوْ تَعْلَمونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينَ . لَتَرَونَّ ٱلجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَونَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيم)(٢) .

وأى شىء خير مما يدعو إليه محمد ! أليس هو يدعو إلى الحرية ! إلى الحرية المطلقة التى لا حدود لها ! إلى الحرية العزيزة على نفس العربى عزة حياته عليه ! نعم ! أليس يطلق الناس من التقيُّد بأية عبادة غير عبادة الله وحده ! أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال ! لا هُبَل ولا اللات ولا العُزّى ولا نار المجوس ولا شمس المصريين ولا نجوم عُبَّاد النجوم ولا الحوازيون ولا أحد من الإنس أو من الملائكة أو من الجان يحجب بين الله والإنسان . وأمام الله ، أمامه وحده لا شريك له ، يُسأل الإنسانُ عما قدَّم من خير أو شر . وأعمال الإنسان هى وحدها شفيعه . وضميره هو الذى يزن أعماله ، وهو وحده صاحب السلطان عليه ، وبه يُحَاسَب يوم تُجزَى كلُّ نفس بما كسبت . أيَّة حرية أوسع مدًى من هذه الحرية التى يدعو محمد إليها ؟ ! وهو يدعو أبو لهب وأصحابه إلى شىء من مثلها ؟! أم هم يدعون الناس لتظل نفوسهم فى رقّ وعبودية بما تكدّس عليها من خُرافات حجبت عنها نور الحق أو ضياء الهدى ؟

---

(١) سورة المسد من ١ إلى ٣ .

(٢) سورة التكاثر .

شعراء من قريش

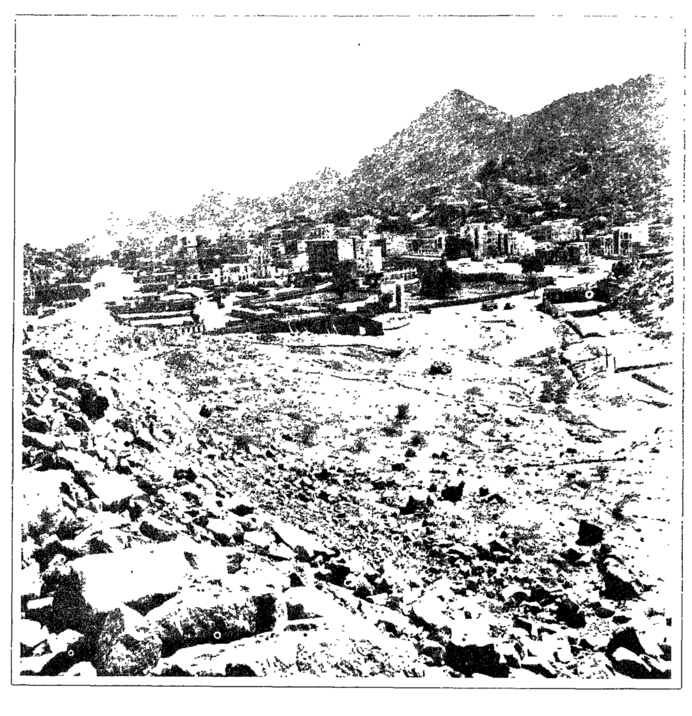
على أن أبا لهب وأبا سفيان وأشراف قريش وأمجادها ، وأشراف المال وأمجاد اللهو ، بدءوا يشعرون بما فى دعوة محمد من خطر على مكانتهم ، فرأوا بادئ الرأى أن يحاربوه بالحط من شأنه ، وبتكذيبه فيما يزعم من نبوّته. وكان أوّل ما صنعوا من هذا أن أغرَوْا به شعراءهم : أبا سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبد الله بن الزِّبَعْرَى ، يهجونه ويقارعونه . وتولّت طائفة من شعراء المسلمين الردَّ على هؤلاء من غير أن يكون محمد فى حاجة إلى مساجلتهم .

مطالبة محمد بالمعجزات

هنالك تقدّم غير الشعراء يسألون محمداً عن معجزاته التى يُثبت بها رسالته ؛ معجزات كمعجزات موسى وعيسى . فما باله لا يُحيل الصفا والمروة ذهباً ، ولا ينزل عليه الكتاب الذى يتحدَّث عنه مخطوطاً من السماء ! ولِمَ لا يبدو لهم جبريل الذى يطول حديث محمد عنه ! ولم لا يُحيي الموتى ولا يسير الجبال حتى لا تظلّ مكة حبيسة بينها ! ولِمَ لا يَفْجُر ينبوعاً أعذب من زمزم ماءً وهو أعلم بحاجة أهل بلده إلى الماء ! ولَمْ يقف أمر المشركين عند التهكم بالمسألة فى هذه المعجزات ، بل كانوا يزدادون تهكماً ويسألونه : لم لا يوحى إليه ربه أثمان السلع حتى يضاربوا على المستقبل . وطال بهم اللَّجاج ، فردَّ الوحى لجاجهم بما أُنزل على محمد من قوله تعالى : (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ ٱللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(١) .

نعم ! ما محمد إلا نذير وبشير . فكيف يطالبونه بما لا يقبل العقل وهو لا يطلب إليهم إلا ما يقبله العقل بل يُمليه ويحتمه ؟! وكيف يطلبون إليه ما تأنف منه النفس الفاضلة وهو لا يطالبهم إلا أن يستجيبوا لوحى النفس الفاضلة ؟! وكيف يطلبون إليه المعجزات وهذا الكتاب الذى يوحَى إليه ، والذى يهدى إلى الحق ، معجزة المعجزات ؟! وما لهم يطلبون إليه إثبات رسالته بالخوارق ليتردّدوا من بعد ذلك أيتبعونه أم لا يتبعونه ، وهذه التى يزعمونها آلهتهم ليست إلا حجارة أو خُشُباً مُسَنَّدَة أو أنصاباً قائمة فى عُرْض الفلاة

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨ .



منظر عام لمنى

لا تملك لهم نفعاً ولا ضرًّا ، وهم مع ذلك يعبدونها دون أن يطلبوا إليها ما يُثبت ألوهيتها ؟! ولو أنهم طلبوه لظلّت خشباً أو حجارة لا حياة فيها ولا حركة لها ، لا تستطيع لنفسها ضرًّا ولا نفعاً ، ولا تستطيع إذا حطمها محطم عن نفسها دفعاً .

طعن محمد على الأصنام

وبادأهُمْ محمد بذكر آلهتهم ، وكان من قبلُ لا يذكرها ، وعابها ، وكان من قبل لا يعيبها . هنالك عظم الأمر على قريش وحزّ فى صدورهم ؛ وبدءوا يفكرون التفكير الجدّ فى أمر هذا الرجل وما هو لاق منهم وما هم لاقون منه ، لقد كانوا إلى يومئذ يسخَرون من قوله ، وكانوا إذا جلسوا فى دار النَّدوة أو حول الكعبة وأصنامهم فجرى ذكره على ألسنتهم لم يُثر أكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم . أمَّا وقد حقَّر من شأن آلهتهم وسخر مما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم ، ونال من هُبَل ومن اللات والعُزّى ومن الأصنام جميعاً ، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخرية ، بل أصبح موضع جدّ وتدبير . أولو أتيح لهذا الرجل أن يؤلب عليهم أهل مكة وأن يصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول إليه تجارة مكة ؟ وماذا يكون مقامها الدينى ؟

لم يكن عمّه أبو طالب قد دخل فى دين الله ، لكنه ظلّ حامياً لابن أخيه قائماً دونه ، معلناً استعداده للدفاع عنه . لذلك مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب ، وفى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب ، فقالوا : « يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفَّه عنا وإما أن تخلىَ بيننا وبينه ؛ فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسَنَكفيكه » فردّهم أبو طالب ردًّا جميلا . ومضى محمد يشتدّ فى الدعوة إلى رسالته ، ويزداد لدعوته أعواناً . وائتمرت قريش بمحمد ومشوا إلى أبى طالب مرّةً أخرى ومعهم عُمارة بن الوليد بن المُغيرة ، وكان أنهدَ فتًى فى قريش وأجمله ، وطلبوا إليه أن يتخذه ولداً ويُسلمهم محمداً ، فأبى . ومضى محمد فى دعوته ومضت قريش فى ائتمارها . ثم ذهبوا إلى أبى طالب مرة ثالثة وقالوا له : « يا أبا طالب ، إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك

من ابن أخيك فلم تنه عنا . وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعَيْب آلهتنا حتى تكفَّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » .

وعظُم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يَطِب نفساً بإسلام ابن أخيه ولا خذلانه . ماذا تراه يصنع ؟ بعث إلى محمد فقصَّ عليه رسالة قريش ، ثم قال له : « فأبقِ علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

ما اتجاه التاريخ ؟

وأطرق محمد إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتاً لا يدرى بعدها ما اتجاهه . وفى الكلمة التى تفترّ عنها شفتا هذا الرجل حكمٌ على العالم : أهو يظلّ فى الضلال يُمَدّ له فيه ، فتطغى المجوسيَّة على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخَرِف الأفنِ . أم هو يُضىء أمامه نور الحقّ ، تُعْلن فيه كلمة التوحيد ، وتحرر فيه العقول من رقّ العبودية والقلوب من أسر الأوهام ، وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى ؟ وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه ، فهو خاذله ومُسْلمه . وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لا يَقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعُدَّة والعدد . إذاً لم يبق له دون الحق الذى ينادى الناس باسمه نصير ، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عُدَّة . ليكن ! إن الآخرة خير له من الأولى . فليؤدّ رسالته وليَدْعُ إلى ما أمره ربه . ولَخَيْرٌ له أن يموت مؤمناً بالحق الذى أوحى إليه من أن يخذله أو يتردّد فيه . لذلك التفت إلى عمّه ممتلئ النفس بقوّة إرادته وقال له : « ياعمّ ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

بنو هاشم يمنعون محمداً من قريش

يا لعَظَمة الحقّ وجلال الإيمان به ! اهتزّ الشيخ لما سمع من جواب محمد ، ووقف كذلك مبهوتاً أمام هذه القوّة القدسيَّة والإرادة السامية فوق الحياة وما فى الحياة . وقام محمد وقد خنقته العَبْرة ممَّا فاجأه به عمه وإن لم تَدُرْ بنفسه خلجةُ ريب فى السبيل الذى يسلُك . ولم تك إلا لحظة اهتز فيها وجود أبى طالب متحيراً بين غضْبة قومه وموقف ابن أخيه حتى نادى محمداً أن أقبلْ فلما أقبل قال له : اذهبْ يا ابن أخى فقل ما أحببتَ ، فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبداً ! وأفضى أبو طالب إلى بنى هاشم وبنى المطلب بقول ابن أخيه وبموقفه ،

وحديثه عنه يتدفّق بروعة ما شهد وجلال ما شعر به ، وطلب إليهم أن يمنعوا محمداً من قريش ؛ فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لهب فإنه صارحهم بالعداوة وانضمّ إلى خصومهم عليهم . وهم لا ريب قد منعوه متأثرين بالعصبية القوميّة وبالخصومة القديمة بين بنى هاشم وبنى أمية . لكنّ العصبية لم تكن وحدها التى حفزتهم إلى الوقوف هذا الموقف من قريش كلها فى أمر له من جلال الخطر ما للدعوة إلى نبذ دينهم والخروج على عقائدهم التى وجدوا عليها آباءهم ؛ بل كان موقف محمد منهم وشدّة إيمانه بينهم ودعوته الناس بالحسنى إلى عبادة الواحد الأحد ، وما كان شائعاً يومئذ بين قبائل العرب جميعاً من أن لله ديناً غير دينهم الذى هم عليه ممّا جعلهم يرون حقًّا لابن أخيهم محمد أن يعالن الناس برأيه كما كان يفعل أميّة بن أبى الصّلْت وورقة بن نوفل وغيرهما . فإن يكن محمد على الحق – وذلك ما لا ثقة لهم به – فسيظهر الحق من بعدُ وسيكون لهم من مجده نصيب ، وإلاّ يكن على الحق فسينصرف الناس عنه كما انصرفوا من قبلُ عن غيره ، ثم لن يكون لدعوته من الأثر أن يخرجوا على تقاليدهم وأن يُسلموه لخصومه كى يقتلوه .

اعتصم محمد بقومه من أذى قريش ، كما اعتصم بخديجة فى داره من همّ نفسه . فقد كانت له بصدق إيمانها وعظيم حبّها ، وزيرَ صدق تسرّى عنه كل همّه ، وتقوّى فيه كل عارض ضعف من أثر أذى خصومه وإمعانهم فى مناوأته وإيصال الأذى لأتباعه . وفى الحقّ أن قريشاً لم تنم ولم تَعُدْ لما عرفت من قبلُ من دَعَة النعيم ؛ بل وثبتْ كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، حتى ألقى أحدهم عبدَه الحبشىَّ بلالاً على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت ، لا لشىء إلا أنه أصرَّ على الإسلام ! ولم يزد بلال وهو فى هذه الحال على أن يكرّر كلمة : « أَحَدٌ أَحَدٌ » محتملا هذا العذاب فى سبيل دينه . وقد رآه أبو بكر يوماً يُعانى هذا العذاب فاشتراه وأعتقه . واشترى أبو بكر كثيراً من الموالى الذين كانوا يعذبون ، ومن بينهم جارية لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل إسلامه . وعذّبت امرأة حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها . وكان المسلمون من غير الموالى

إيذاء قريش المسلمين

يُضْرَبون وتُوَجَّه إليهم أشدّ صور المهانة . ولم يَسْلَم محمد ، مع منع بنى هاشم وبنى المطلب له ، من هذه الإساءات . كانت أمّ جميل زوج أبى لَهب تلقى النجس أمام بيته فيكتفى محمد بأن يزيله . وكان أبو جهل يلقى عليه أثناء صلواته رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام فيحتمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمة لتعيد إليه نظافته وطهارته . هذا إلى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهُجْر الكلام حيثما ذهبوا . واستمرّ الأمر على ذلك طويلاً ، فلم يزدادوا إلا حرصاً على دينهم وابتهاجاً بالأذى والتضحية فى سبيل عقيدتهم وإيمانهم .

صبر المسلمين على الأذى

هذه الفترة من فترات حياة محمد عليه السلام هى من أشدّ ما عرف التاريخ الإنسانىّ روعة فى العصور جميعاً . فما كان محمد والذين اتَّبعوه طلاّب مال ولا جاه ولا حكم أو سلطان ؛ إنما كانوا طلاّب حق وإيمان به . وكان محمد طالب هدى للذين يصيبونه بالأذى وتحرير لهم من ربقة الوثنية الوضيعة التى تنحدر بالنفس الإنسانية إلى خزى المذلَّة والهوان . فى سبيل هذه الغاية الروحيَّة السامية ، لا فى سبيل شىء آخر ، كان الأذى يصله ، وكان الشعراء يسبونه ، وكانت قريش تأتمر به حتى حاول رجل قتله عند الكعبة . وكان منزله يُرجم ، وكان أهله وأتباعه يُهدَّدون ، فلا يزيده ذلك إلا صبراً وإمعاناً فى الدعوة . وامتلأت نفوس المؤمنين الذين اتَّبعوه بقوله : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . وهانت عليهم جميعاً التضحيات الجسام ، وهان عليهم الموت فى سبيل الحق وهداية قريش له . وقد تَعْجَب لهذا الإيمان الآخذ بنفوس أولئك المكيين ولمَّا يكن الدين قد كمل ، ولمَّا يكن قد نزل من القرآن إلا القليل . وقد تحسب أن شخصية محمد ودماثة طبعه وجميل خُلقه وما عُرف من صدقه وما بدا من صلابة عوده وقوة عزمه وثبات إرادته ، كان السبب فى كل هذا . ولا ريب قد كان لهذا كله حظه ونصيبه ، لكن عوامل أخرى جديرة بالتقدير والاعتبار كان لها هى أيضاً نصيب فى ذلك غير قليل .

فقد كان محمد فى بلاد حُرَّة هى أشبه ما تكون بالجمهورية . وكان فى الذّروة والسنام منها حسباً ونسباً . وكان قد وصل من المال إلى ما يشاء . وكان إلى

ذلك من بنى هاشم . اجتمعت لهم سدانة الكعبة وسقَاية الحاجّ وما شاءوا من مجد الألقاب الدينيَّة . فلم يكن لذلك فى حاجة إلى المال أو الجاه أو المكانة السياسية أو الدينية . وكان فى ذلك على خلاف مَن سبقه من الرسل والأنبياء . فقد وُلد موسى فى مصر وفيها فرعون يدين له أهلها بالألوهية وينادى هو فيهم « أنا رَبكمُ الأعلَى » ، وتعاونه طائفة رجال الدين على سَوْم الناس ألوان الظلم والاستغلال والعسف ، فكانت الثورة التى قام بها موسى بأمر ربه ثورة نظام سياسىّ ودينى معاً . أليس يريد أن يكون فرعون والرجل الذى يرفع الماء بالشادوف من النيل أمام الله سيَّين ؟ إذاً فما هى ألوهيَّة فرعون وما هذا النظام القائم ! يجب أن يُحطم ذلك كله ، ويجب أن تكون الثورة سياسية أولا . لهذا لقيت الدعوة الموسويَّة منذ بداءتها حرباً من فرعون شعواء ، ولذلك آزرت المعجزاتُ موسى ليؤمن الناس بدعوته . ألقى عصاه فإذا هى حيَّة تسعى تَلْقَفُ ما صنع سحرة فرعون . ولم يُجْدِ ذلك موسى شيئاً ، فاضطُرَّ إلى مغادرة وطنه مصر ؛ وقد آزرته فى هجرته معجزة إنفلاق الطريق فى البحر خلال الماء . وقد وُلد عيسى فى النَّاصرة من أعمال فلسْطين ، وهى يومئذ ولاية رومانية خاضعة لحكم القياصرة ولظلم المستعمرين بها ولآلهة رومية ؛ فدعا الناس إلى الصبر على الظلم ، وإلى المغفرة للتائب المنيب ، وإلى ألوان من الرحمة اعتبرها القائمون بالأمر ثورة على تجبرهم ، فآزرت عيسى معجزاتُ إحياء الموتى وإبراء المرضى وسائر ما أيده به روح القُدُس من عنده . صحيح أن تعاليمهم تنتهى فى جوهرها إلى ما تنتهى إليه تعاليم محمد فى جوهرها ، مع خلاف فى التفاصيل ليس هنا موضع إيضاحه . لكنَّ هذه العوامل المختلفة ، والعامل السياسىّ فى مقدَّمتها ، وجَّهت دعوتهما اتجاهها . أمَّا محمد ، وكانت ظروفه ما قدّمنا ، فكانت رسالته عقليَّة روحيَّة ، أساسها الدعوة إلى الحق والخير والجمال ، دعوة مجرَّدة فى بَدْئها وفى غايتها . ولبعدها عن كل خصومة سياسية لم تزعج النظام الجمهورى الذى كان قائماً بمكة بأية صورة من صور الإزعاج .

دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة

وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوّى ؛ فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو

من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة لك فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدّمات العلمية . فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علميةً ما لم يثبت البحث العلمى تسرّب الخطأ إلى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته ، فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها ؟ نَزَعوا من نفوسهم كل عقيدة سابقة وبدءوا يفكرون فيما أمامهم . لقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم . فأى صنم هو الحق وأى صنم هو الباطل ؟ وكان فى بلاد العرب وفى البلاد التى تجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار ، وكان فيها الذين يعبدون الشمس فأىّ هؤلاء على الحق ، وأيهم على الباطل ؟ لنَذَرْ هذا كله إذاً جانباً ، ولْنَمْحُ أثره من نفوسنا ، ولنتجرد من كل رأى ومن كل عقيدة سابقة ولننظر . والنظر والملاحظة بطبيعة الحال سيّان . مما لا شبهة فيه أن لكل موجود بسائر الموجودات اتصالا ؛ فالإنسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأممه بعضها ببعض . والإنسان يتصل بالحيوان والجماد . وأرضنا تتصل بالشمس وبالقمر وبسائر الأفلاك . وذلك كله يتصل فى سنن مطَّردة لا تحويل لها ولا تبديل . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . ولو أن إحدى موجودات الكون تحوَّلت لتبدَّل ما فى الكون . فلو أن الشمس لم تُسْعد الأرض بالنور والحرارة ، على السنّة التى تجرى عليها منذ ملايين السنين ، لتبدَّلت الأرض غير الأرض والسماء . وما دام ذلك لم يحدُث ، فلابد لهذا الكل من روح يُمسكه ؛ منه نشأ ، وعنه تطوَّر ، وإليه يعود . هذا الروح وحده هو الذى يجب أن يخضع له الإنسان . أمَّا سائر ما فى الكون فهو خاضع لهذا الروح كالإنسان سواء . والإنسان والكون والزمان والمكان وحدة ، وهذا الروحُ جوهرها ومصدرها . وإذاً فلتكن لهذا الروح وحده العبادة . ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة . وفى الكون كله يجب أن نلتمس من طريق النظر والتأمل سُننه الخالدة . وإذاً فما يعبد الناس من دون الله أصناماً وملوكاً وفراعنة وناراً وشمساً إنما هو وهم باطل

جوهر الدعوة المحمدية

غير جدير بالكرامة الإنسانية ، ولا هو يتفق مع عقل الإنسان وما كرّم به من القدرة على استنباط سُنَّة الله من طريق النظر فى خلقه .

هذا جوهر الدعوة المحمدية على ما عرفها المسلمون الأوّلون . وقد أبلغهم الوحى إياها على لسان محمد فى آى من البلاغة كانت ولن تزال معجزة ؛ فجمع لهم بذلك بين الحق وتصويره فى كمال جماله . وهنالك ارتقت نفوسهم وسَمَتْ قلوبهم تريد الاتصال بهذا الروح الكريم ؛ فهداهم محمد إلى أن الخير هو طريق الوصول ، وأنهم مجزيُّون عن هذا الخير يوم يُتمون واجبهم فى الحياة بالتقوى ، ويوم تُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت . (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (١) .

أىُّ سموّ بالعقل الإنسانى أعظم من هذا السموّ ! وأى تحطيم لقيوده أشدُّ من هذا التحطيم !! حسبُ الإنسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليبلغ الذروة من مراتب الإنسان . وفى سبيل هذه المكانة تهون كل تضحية على من يؤمن بها .

إسلام حمزة

وقد كان من جلال موقف محمد ومن اتبعه أن ازداد بنو هاشم وبنو المطلب منعاً له ودفعاً للأذى عنه . مرَّ أبو جهل بمحمد يوماً فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتوهين من أمره ، فأعرض محمد عنه وانصرف ولم يكلمه . وكان حمزة عمه وأخوه من الرضاعة ؛ لا يزال على دين قريش ، وكان رجلاً قويًّا مخوفاً . وكان ذا ولع بالصيد ، فإذا رجع من صيده طاف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره . فلما جاء فى ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أذى أبى جهل ملأه الغضب ؛ وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلماً على أحد ممن كان عندها كعادته ، ودخل المسجد فألفى أبا جهل فقصد إليه ، حتى إذا بلغه رفع القوس فضربه بها فشجَّه شجة منكرة . وأراد رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسماً للشر ومخافة استفحاله معترفاً أنه سبَّ محمداً سبًّا

(١) سورة الزلزلة آيتا ٧ و ٨ .

قبيحاً ، ثم أعلن حمزة إسلامه ، وعاهد محمداً على نصرته والتضحية فى سبيل الله حتى النهاية .

سفارة عتبة ابن ربيعة

ضاقت قريش ذرعاً بمحمد وأصحابه إذ رأتهم يزدادون كل يوم قوّة ، ثم لا يثنيهم الأذى ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهر به ، وعن صلواتهم وأداء فرضها ؛ فخُيِّل إليهم أن يتخلَّصوا من محمد بما توهَّموا من إرضاء مطامعه ، ناسين عظمة الدعوة الإسلامية ونزاهة جوهرها الروحىّ السامى عن الخصومة السياسية . فقد رغبَ عُتْبة بن ربيعة ، وكان من سادات العرب ، إلى قريش وهم فى ناديهم أن يكلم محمداً وأن يعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فيُعطونه أيّها شاء ويكف عنهم . وكلم عتبة محمداً فقال : « يا بن أخى ، إنك منَّا حيث قد علمت من المكان فى النسب . وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم . فاسمع منى أعرِض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها . . . إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد تشريفاً سوَّدناك علينا ، فلا نقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً[1] تراه لا تستطيع ردَّهُ عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ » . فلما فرغ من قوله تلا محمد عليه سورة السجدة وعُتبة منصت يستمع إلى أحسن القول ويرى أمامه رجلا لا مطمع له فى مال ولا تشريف ولا فى مُلك ولا هو بالمريض ، وإنما يُدلى بالحق ، ويدعو إلى الخير ، ويدفع بالتى هى أحسن ، مع الإعجاز فى العبارة . فلما انتهى محمد انصرف عتبة إلى قريش مأخوذاً بجمال ما رأى وسمع ، مأخوذاً بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه . ولم يَرقْ قريشاً أمر عتبة ولا راقها رأيه أن تترك للعرب محمداً ، فإن تغلبت عليه استراحت قريش ، وإن تبعته فلها فخاره . فعادت تناوئ محمداً وتناوئ أصحابه وتصيبهم من البلاء مما كان هو فى منجاة منه بمكانته من قومه ومَنَعته بأبى طالب وبنى هاشم وبنى المطلب .

الهجرة إلى الحبشة

وزاد ما ينزل بالمسلمين من الأذى ، وبلغ منهم القتل والتعذيب والتمثيل ،

(١) الرئى : التابع من الجن .

هنالك أشار عليهم محمد أن يتفرّقوا فى الأرض . فلما سألوه أين نذهب ؟ نصح إليهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحيَّة « فإن بها مَلكاً لا يُظلَم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » . فخرج فريق من المسلمين عند ذلك إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم . وخرجوا فى هجرتين ؛ كانوا فى الأولى أحد عشر رجلا وأربع نساء تسللوا من مكة لواذاً ، ثم أقاموا فى خير جوار من النجاشى ، حتى ترامى إليهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش فعادوا ، كما سنقصُّه من بعدُ . فلما لَقوْا عَنَتَ قريش وأذاهم أبلغ مما كان عادوا إلى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم وأطفالهم ، وأقاموا بها إلى ما بعد هجرة النبى إلى يَثْرِب . وهذه الهجرة إلى الحبشة كانت أوّل هجرة فى الإسلام .

من حق من يؤرخ لمحمد أن يسأل : أكان كل القصد من هذه الهجرة ، التى قام بها المسلمون بأمره ورأيه ، الفرار من كفَّار مكة وما يُلحقون بهم من الأذى ؟ أم أنها كان لها كذلك غرض سياسىّ إسلامىّ رمى محمد من ورائه إلى غاية عُليا ؟ من حق مؤرخ محمد أن يسأل عن هذا بعد ما ثبت من تاريخ هذا النبىّ العربى فى أطوار حياته جميعاً أنه كان سياسيًّا بعيد الغور ، كما كان صاحب رسالة وأدب نفس لا يُدانيه فيهما فى السموّ والجلال والعظمة مُدان . ويدعونا إلى هذه المسألة ما تجرى به الرواية من أن أهل مكة لم يستريحوا إلى خروج من خرج من المسلمين إلى الحبشة ، بل بعثوا رجلين إلى النجاشى ومعهما الهدايا النفيسة ليقنعوه بأن يردّ المسلمين من مواطنيهم إليهم . والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى ، فليس تخشى قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتَّبعوا محمداً . فهل تراهم عُنُوا بالأمر وبعثوا يستردون المسلمين لأنهم رأوا أن حماية النجاشى إيَّاهم بعد سماعه أقوالَهم قد تكون ذات أثر فى إقبال أهل جزيرة العرب على دين محمد واتباعهم إياه ؟ أم هم خافوا ، إن بقى هؤلاء فى الحبشة ، أن تشتد شوكتهم ، فإذا عادوا بعد ذلك لمعونة محمد عادوا أقوياء بالمال والرجال ؟

سفيرا قريش إلى النجاشى

كان الرسولان عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة . وقد دفعا إلى النجاشى وإلى بطارقته بالهدايا كى يرد المهاجرين من أهل مكة إليها . ثم قالا :

أيها الملك إنه قد ضَوَى(١) إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بَعَثَنَا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم ؛ فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه » . وكان السفيران قد اتفقا مع بطارقة النجاشى بعد أن أتحفاهم بهدايا أهل مكة أن يعاونوهم على ردّ المسلمين إلى قريش دون أن يسمع النجاشى كلامهم ، فأبى النجاشى أن يفعل حتى يسمع ما يقولون ، وبعث فى طلبهم . فلما جاءوا سألهم :

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟

ردالمسلمين على السفيرين

فكان الذى كلَّمه جعفر بن أبى طالب ، قال :

« أيها الملك ، كنَّا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ويأكل القوىّ منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام — وعدّد عليه أمور الإسلام — فصدقناه به واتَّبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً . وحرَّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ؛ فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحلّ ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ؛ ورغبنا فى جوارك ورجونا ألاّ نُظْلَم عندك » . فقال النجاشى : « وهل معك مما جاء به عن الله من شىء تقرؤه علىّ ؟ » .

---

(١) ضوى : أتى .

قال جعفر : نعم ! وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى : ﴿ فأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكلمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبيًّا . قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبيًّا . وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بالصَّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيًّا . وَالسَّلامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[١] .

جواب النجاشى والبطارقة

فلما سمع البطارقة هذا القول مصدّقاً لما فى الإنجيل أُخذوا وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح . وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى لَيَخرُج من مشكاة واحدة . انطلقا والله لا أسلمهم إليكما . فلما كان الغد عاد ابن العاص إلى النجاشى فقال له : إن المسلمين يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه . فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبى طالب ؛ فيه نقول الذى جاء به نبيُّنا ، يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول . فأخذ النجاشى عوداً وخطّ به على الأرض وقال – وقد بلغت منه المسرّة أكبر مبلغ : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخطّ . وكذلك تبيَّن للنجاشى بعد سماع الفريقين أنّ هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويقرُّون النصرانية ويعبدون الله . ووجد المسلمون فى جوار النجاشى أمناً ودعة حتى رجعوا إلى مكة للمرة الأولى ومحمد ما يزال بها . حين بلغهم أن خصومة قريش هدأت . فلما رأوا المكّيين ما يزالون يُنزلون به وبأعوانه الأذى عادوا إلى الحبشة فى ثمانين رجلا غير نسائهم وأطفالهم . أفكانت هجرتاهم هاتان لمجرّد الفرار من الأذى ، أم كان لهما ، ولو فى تدبير محمد وحده غاية سياسية يجمُل بالمؤرّخ أن يجلوها ؟

المسلمون ونصرانية الحبشة

ومن حق مؤرّخ محمد أن يسأل : كيف أمن محمد على أصحابه هؤلاء أن يذهبوا إلى أرض الحبشة والنصرانية دين أهلها،دين كتاب ، ورسولها عيسى

---

(١) سورة مريم الآيات من ٢٩ إلى ٣٣ .

يقرُّ الإسلامُ رسالته ، ثم لا يخاف عليهم فتنة كفتنة قريش وإن تكن من نوع آخر ؟ وكيف أمن هذه الفتنة والحبشة بلاد بها من الخصب ما ليس بمكة ؛ فهى أشدّ من قريش فتنة ؟ ولقد تنصّر بالفعل أحد المسلمين الذين ذهبوا إلى الحبشة ، فدل تنصُّره على أن خوف هذه الفتنة كان جديراً بأن يُساور محمداً وقد كان لا يزال ضعيفاً ، ولا يزال الذين اتَّبعوه فى أشدّ الريب من قدرته على حمايتهم أو الانتصار به على عدوهم . وأكبر الظن أن يكون ذلك قد دار بخاطر محمد ، أن كانت سعة ذهنه وذكاء فؤاده وبعد نظره عدْلاً لسموّ روحه وكرم نفسه وحسن أدبه ورقة عاطفته . لكنه كان مطمئنًّا من هذه الناحية تمام الطمأنينة ؛ فقد كان الإسلام يومئذ ، وإلى يوم مات صاحب الرسالة ، فى صفاء جوهره لم تشب نقاءه ولا سموَّه شائبة . وكانت نصرانية الحبشة كنصرانية نجران والحيرة والشام قد اندسّ إليها من شوائب الخلاف بين مُؤَلّهى مريم ومؤلهى عيسى والمخالفين لهؤلاء وأولئك مالا يخشى معه على أولئك الذين كانوا ينهلون من نبع الرسالة المصفَّى .

وفى الحق أن أكثر الأديان ماكانت تتخطى على الزمان أجيالا معدودة حتى يندسّ إليها نوع من الوثنية ، إن لم يكن من هذا الطراز الوضيع الشائع يومئذ فى بلاد العرب فإنه وثنية على كل حال . والإسلام نزل عدوّ الوثنية اللَّدود فى جميع صورها وأوضاعها . ثم إن النصرانية تعترف من ذلك التاريخ لطائفة رجال الدين بمكانة خاصة لم يعرفها الإسلام قطّ ، وكان يومئذ أشدّ ما يكون عليها سموًّا ، ومنها براءة . ثم إنه كان يومئذ وبقى فى جوهره دينَ السمو بالنفس الإنسانية إلى الذروة العليا من السمو . فلم يدع صلة بين المرء وربه غير العمل الصالح والتقوى ، وأن يحبّ الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه . لم تبق أصنام ولم يبق كهنة ولم يبق عرَّافون ولم يبق شىء يحول دون أن تسمو الروح الإنسانية لتتَّصل بالوجود كله صلة خير ومعروف ، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافاً مضاعفة . والروح ! الروح الذى هو من أمر الله ! الروح المتَّصل بأزل الزمن وأبده ! هذا الروح ما عمل صالحاً فلا حجاب بينه وبين وجه الله ولا سلطان لغير الله . يستطيع الأغنياء والأقوياء والشريرون أن يعذّبوا الجسد وأن يحولوا

الروح فى الإسلام

بينه وبين ملاذه وشهواته وأن يُهلكوه ، لكنهم لن يصلوا إلى الروح مادام صاحبه يريد به سمواً فوق سلطان المادة وفوق سلطان الزمن واتصالاً بالوجود كله . إنما يُجزَى الإنسان عن أعماله يوم تُجزَى كلُّ نفس بما كسبت يومئذ لا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ، ويومئذ لا ينفع الأغنياء مالهم ، ولا الأقوياء قوّتهم ، ولا المتكلمين كلامهم ؛ إنما هى الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه . ويومئذ يقف هذا الوجود جميعاً متسقة وحدته مجتمعاً أزله وأبده ، لا يظلم ربك أحداً . ولا تُجزَوْن إلاّ ما كنتم تعملون .

كيف يخاف محمد الفتنة على من علمهم هذه المعانى ومن بثّها فى نفوسهم فحلَّت منهم فى سويداء القلب ومكان العقيدة والإيمان! ثم كيف يخاف عليهم الفتنة ومَثَلُه حاضرٌ أمامهم بشخصه المحبوب ، حتى ليحبّه أحدهم أكثر من حبّه نفسَه وبنيه وأهلِه . شخصه الذى يضع هذه العقيدة فوق ملك الأرض والسماء والشمس والقمر ويقول لعمه : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» . شخصه الذى يضىء بنور الإيمان والحكمة والعدل والخير والحق والجمال ، الممتلئ إلى جانب ذلك تواضعاً وبرًّا ومودة ورحمة . لذلك كان مطمئنًّا إلى هجرة أصحابه هؤلاء إلى الحبشة كل الاطمئنان. وكان أمْنُهم عند النجاشى وسكينتهم إلى دينهم بين قوم لا تربطهم بهم أواصر قربى أو عطف ، مما جعل قريشاً تشعر بما فى إيذائها للمسلمين ، وهم منهم وهم أهلوهم وأنسابهم ، من ظلم ومن عَنَت ومن إمعان فى الفجور ، ومن تحميل كل ألوان الأذى لهؤلاء الذين ارتفعت نفوسهم فوق الأذى ، فأصبح لا ينالهم سوء ، وأصبحوا يرون فى الصبر على البأساء قربى إلى الله ومغفرة منه .

إسلام عمر ابن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب يومئذ رجلا فى فتوَّة الرجولة ، بين الثلاثين والخامسة والثلاثين . وكان مفتول العضل ، قوىّ الشكيمة ، حاد الطبع ، سريع الغضب محبًّا للهو والخمر ، وفيه إلى ذلك برٌّ بأهله ورقة لهم . وكان من أشدّ قريش أذى للمسلمين ووقيعة فيهم . فلما رآهم هاجروا إلى الحبشة ورأى النجاشى حماهم ،

شعَر لفراقهم بوحشة ، وبما لفراقهم وطنهم من ألم يحزّ فى الكبد ويَفْرِى المهجة .

وكان محمد يوماً مجتمعاً مع أصحابه الذين لم يهاجروا فى بيت عند الصفا ، ومن بينهم عمّه حمزة وابن عمه علىّ بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قُحافة وغيرهم من سائر المسلمين . وعرف عمر اجتماعهم ، فقصد إليهم يريد أن يقتل محمداً كى تستريح قريش وتعود إليها وحدتُها بعد أن فرّق أمرَها وسفَّه أحلامها وعاب آلهتها ولقيه نعَيْم بن عبد الله فى الطريق وعرف أمره فقال له : « والله لقد غشتْك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمداً ؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ! » ، وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما . فلما عرف عمر من نُعَيْم أمْرهما كرّ راجعاً إليهما ودخل البيت عليهما ، فإذا عندهما من يقرأ عليهما القرآن . فلما أحسّوا دنوَّ داخل عليهم اختفى القارئ وأخفت فاطمة الصحيفة . وسأل عمر : ما هذه الهيْنمة التى سمعتُ ؟ فلما أنكرا صاح بهما : لقد علمتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بسعيد . فقامت فاطمة تحمى زوجها فضربها فشجَّها . فهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا به : نعمْ أسلمنا ، فاقض ما أنت قاضٍ . واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم ، وغلبه برُّه وعطفه ، فارعوى وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون . فلما قرأها تغيَّر وجهه وأحس الندم على صنيعه ، ثم اهتزَّ لما قرأ فى الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها وسموّ الدعوة التى ندعو إليها ، فزاد جانبُ البر غلبة عليه . وخرج وقد لان قلبه واطمأنت نفسه ؛ فقصد إلى مجلس محمد وأصحابه عند الصفا . فاستأذن وأعلن إسلامه ، فوجد المسلمون فيه وفى حمزة للإسلام منعَةً وللمسلمين حمًى .

وفتَّ إسلامُ عمر فى عَضُد قريش ، فأتمرت مرةً أخرى ما تصنع . والحقّ أن هذا الحادث عزَّز المسلمين بعنصر جديد قوىّ غاية القوة ، جعل موقف قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان ، واستتبع ما بين الطرفين سياسة جديدة مليئة بأحداث وتضحيات وقوًى جديدة أدّت إلى الهجرة وإلى ظهور محمد السياسىّ إلى جانب محمد الرسول .

الفصل السادس

قصة الغرانيق

عود مهاجرى الحبشة – الغرانيق العلا – تمسك المستشرقين بقصتها – أسانيدهم فى ذلك – ضعف هذه الأسانيد – القصة ظاهرة الكذب ينفيها التمحيص العلمى .

عود مهاجرى الحبشة

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر أسلم أثناءها عمر بن الخطاب . وعلم هؤلاء المهاجرون ما حدث على أثر إسلامه من رجوع قريش عن إيذائها محمداً ومن اتبعه ، فعاد كثير منهم فى رواية ، وعادوا كلّهم فى رواية أخرى إلى مكة . فلما بلغوها رأوا قريشاً عادت إلى إيذاء المسلمين وإلى الإمعان فى عداوتهم أشدّ مما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل ، فعاد إلى الحبشة من عاد ، ودخل مكة من دخل مستخفياً أو بجوار . ويقال : إن الذين عادوا استصحبوا معهم عدداً آخر من المسلمين أقاموا بالحبشة إلى ما بعد الهجرة وإلى حين استتباب الأمر للمسلمين بالمدينة .

أىّ داع حفَز مسلمى الحبشة إلى العودة بعد ثلاثة أشهر من مُقامهم بها ؟ هنا يرد حديث الغرانيق الذى أورده ابن سعد فى طبقاته الكبرى والطبرى فى تاريخ الرسل والملوك، كما أورده كثيرون من المفسرين المسلمين وكتاب السيرة ، والذى أخذ به جماعة المستشرقين ووقفوا يؤيدونه طويلا. وحديث الغرانيق أن محمداً لمَّا رأى تجنب قريش إيَّاه وأذاهم أصحابه تمنَّى فقال : ليته لا ينزل علىّ شىء ينفرهم منى ، وقارب قومَه ودنا منهم وَدَنَوْا منه فجلس يوماً فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾[1] . فقرأ بعد ذلك : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى . ثم مضى وقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها وهنالك سجد القوم جميعاً لم يتخلَّف منهم أحد . وأعلنت قريش رضاها

الغرانيق العلا

(١) آيتا ١٩ و ٢٠ .

عما تلا النبيّ ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده . أمَّا إذ جعلتَ لها نصيباً فنحن معك . وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم . وفشا أمر ذلك فى الناس حتى بلغ الحبشة ؛ فقال المسلمون بها : عشائرنا أحبُّ إلينا ، وخرجوا راجعين . فلما كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركباً من كِنانة فسألوهم ، فقالوا : ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتدّ عنها فعاد لشتم آلهتهم فعادوا له بالشرّ . وأتمر المسلمون ما يصنعون ، فلم يُطيقوا عن لِقاء أهلهم صبراً فدخلوا مكة .

وإنما ارتدّ محمد عن ذكر آلهة قريش بالخير ، فى مختلف الروايات التى أثبتت هذا الخبر ، لأنه كبُر عليه قول قريش : « أمَّا إذ جعلت لآلهتنا نصيباً فنحن معك » ، ولأنه جلس فى بيته ، حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض النبيُّ عليه سورة النجم، فقال جبريل أوَجئْتك بهاتين الكلمتين ؟! — مشيراً إلى « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتَجى » . قال محمد : قلتُ على الله ما لم يقل ! ثم أوحى الله إليه : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ إِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ [1] . وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر ويسبهم ، وعادت قريش لمناوأته وإيذاء أصحابه .

تهافت حديث الغرانيق

وهذا حديث الغرانيق ، رواه غير واحد من كتَّاب السيرة ، وأشار إليه غير واحد من المفسرين ، ووقف عنده كثيرون من المستشرقين طويلا . وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص . وهو بعدُ حديث ينقض ما لكل نبيّ من العصمة فى تبليغ رسالات ربه . فمن عجب أن يأخذ به بعض كتَّاب

حجج مؤيديه

السيرة وبعض المفسرين المسلمين : ولذلك لم يتردّد ابن إسحاق حين سئل عنه

---

(١) سورة الإسراء الآيات من ٧٣ إلى ٧٥ .

فى أن قال : إنه من وضع الزنادقة . ولكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تسويغه فاستندوا إلى الآيات : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ . .) ، وإلى قوله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ ٱللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللهُ آيَاتِهِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالمين لَفِى شقاقٍ بَعِيدٍ) [١] .

ويفسر بعضهم كلمة « تمنَّى » فى الآية بمعنى قرأ ، ويفسرها آخرون بمعنى الأمنية المعروفة . ويذهب هؤلاء وأولئك ، ويتابعهم المستشرقون ، إلى أن النبىَّ بلغ منه أذى المشركين أصحابَه ؛ إذ كانوا يقتلون بعضهم ويُلقون بعضاً فى الصحراء يلفَحهم لظى الشمس المحرقة ، وقد أوقروهم بالحجارة كما فعلوا ببلال ، حتى اضطر إلى الإذن لهم فى الهجرة إلى الحبشة . كما بلغ منه جفاء قومه إيَّاه وإعراضهم عنه . ولمّا كان حريصاً على إسلامهم ونجاتهم من عبادة الأصنام ، تقرَّب إليهم وتلا سورة النجم وأضاف إليها حكاية الغرانيق ، فلما سجد سجدوا معه ، وأظهروا له الميل لاتباعه ما دام قد جعل لآلهتهم نصيباً مع الله .

ويضيف سير وليم موير إلى هذه الرواية ، التى وردت فى بعض كتب السيرة وكتب التفسير ، حجة يراها قاطعة بصحة حديث الغرانيق . ذلك أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لم يك قد مضى على هجرتهم إليها غير ثلاثة أشهر ، أجارهم النجاشى أثناءها، وأحسن جوارهم . فلو لم يكن قد ترامى إليهم خبر الصلح بين محمد وقريش لمَا دفعهم دافع إلى العود حرصاً على الاتصال بأهلهم وعشائرهم . وأنى يكون صلح بين محمد وقريش إذ لم يسعَ محمد إليه ، وقد كان فى مكة أقلَّ نفراً وأضعف قوة ، وقد كان أصحابه أعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قريش ومن تعذيبهم إياهم !

---

(١) سورة الحج آيتا ٥٢ و ٥٣ .

دفع هذه الحجج

هذه هى الحجج التى يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرانيق ، وهى حجج واهية لا تقوم أمام التمحيص . ونبدأ بدفع حجة المستشرق موير ؛ فالمسلمون الذين عادوا من الحبشة إنما دفعهم إلى العود إلى مكة سببان : أولهما أن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل . وقد دخل عمر فى دين الله بالحميَّة التى كان يحاربه من قبلُ بها ، لم يُخف إسلامه ولم يستتر ، بل ذهب يعلنه على رؤوس الملأ ويقاتلهم فى سبيله . ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسللهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاة بعيدين عن أذى قريش ، بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . هنالك أيقنت قريش أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حرباً أهلية لا يعرف أحد مداها ولا على من تدور دائرتها . فقد أسلم من قبائل قريش وبيوتاتها رجال تثور لقتل أىّ واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه . فلا مفرّ إذاً من الالتجاء فى محاربة محمد إلى وسيلة لا يترتّب عليها هذا الخطر . وإلى أن تتفق قريش على هذه الوسيلة ، هادنت المسلمين فلم تنل أحداً منهم بأذى . وهذا هو ما اتّصل بالمهاجرين إلى الحبشة ، ودعاهم إلى التفكير فى العود إلى مكة .

أسباب عود المهاجرين من الحبشة

١ – إسلام عمر

٢ – ثورة الحبشة

وربما تردّدوا فى هذا العود لو لم يكن السبب الثانى الذى ثبَّت عزمهم ؛ ذلك أن الحبشة شبَّت بها يومئذ ثورة على النجاشى ، كان دينه وكان ما أبدى من عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من تهم وجهت إليه . ولقد أبدى المسلمون أحسن الأمانى أن ينصر الله النجاشى على خصومه ؛ لكنهم لم يكونوا ليشاركوا فى هذه الثورة وهم أجانب ، ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل . أما وقد ترامت إليهم أنباء الهدنة بين محمد وقريش ، هدنة أنجت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى ، فخير لهم أن يَدعوا الفتنة وراء ظهورهم وأن يلحقوا بأهليهم ؛ وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم . على أنهم ما كادوا يبلغون مكة حتى كانت قريش قد ائتمرت ما تصنع بمحمد وأصحابه ، واتّفقت عشائرها وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم مقاطعة تامة ؛ فلا ينْكِحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم . وبهذا الكتاب

عادت الحرب العوان بين الفريقين ، ورجع الذين عادوا من الحبشة ، وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم . وقد وجدوا هذه المرة عَنَتاً من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجرة .

ليس الصلح الذى يشير إليه المستشرق موير ، هو إذا الذى دعا المسلمين إلى العودة من بلاد الحبشة ؛ إنما دعاهم هذه الهدنة التى حدثت على إثر إسلام عمر وحماسته فى تأييد دين الله . فتأييد حديث الغرانيق إذاً بحجة الصلح تأييد غير ناهض .

الاحتجاج بالآيات مقلوب

أمَّا احتجاج المحتجين من كتاب السيرة والمفسرين بالآيات : ﴿ وإِنْ كَادُوا لَيَفتنونك ﴾ و ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فى أُمْنِيَّتِهِ . . ﴾ فهو احتجاج أشدُّ تهافتاً من حجة السير موير ويكفى أن نذكر من الآيات الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ لنرى أنه إن كان الشيطان قد ألقى فى أمنية الرسول حتى لقد كان يركن إليهم شيئاً قليلا فقد ثبَّته الله فلم يفعل ، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف الحياة وضعف الممات . وإذاً فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب . فقصة الغرانيق تجرى بأن محمداً ركن إلى قريش بالفعل . وأن قريشاً فتنته بالفعل فقال على الله ما لم يقل . والآيات هنا تفيد أن الله ثبَّته فلم يفعل . فإذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت لهذه الآيات موضعاً غير مسألة الغرانيق ، رأيت أن الاحتجاج بها فى مسألة تتنافى مع عصمة الرسل فى تبليغ رسالاتهم ، وتتنافى مع تاريخ محمد كله ، احتجاج متهافت ، بل احتجاج سقيم .

أما الآيات ﴿ ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسُولٍ . . . ﴾ فلا صلة لها بحديث الغرانيق البتة ، فضلا عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ويجعله فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، ويُحكِم الله آياته والله عليم حكيم .

تهافت القصة علمياً

وندع هذا إلى تمحيص القصة التمحيص العلمى الذى يُثبت عدم صحتها .

وأوّل ما يدل على ذلك تعدّد الروايات فيها ، فقد رويت ، كما سبق القول ، على أنها : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى . ورواها بعضهم : « الغرانقة العلا إن شفاعتهم ترتجى » . وروى آخرون : « إن شفاعتهم ترتجى » دون ذكر الغرانقة أو الغرانيق . وفى رواية رابعة : « وإنها لهى الغرانيق العلا » وفى رواية خامسة : « وإنهن لهن الغرانيق العلا . وإن شفاعتهم لهى التى ترتجى » وقد وردت فى بعض كتب الحديث روايات أخرى غير هذه الروايات الخمس . وهذا التعدُّد فى الروايات يدلّ على أن الحديث موضوع ، وأنه من وضع الزنادقة ، كما قال ابن إسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تبليغ محمد رسالات ربه .

تعدد الروايات فيها

ودليل آخر أقوى وأقطع ؛ ذلك سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسألة الغرانيق . فالسياق يجرى بقوله تعالى : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَى أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ الْأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدَى)(١) .

سياق سورة النجم يأباها

وهذا السياق صريح فى أن اللاّت والعزّى أسماء سمَّاها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان . فكيف يحتمل أن يجرى السياق بما يأتى : « أفرأيتم اللاّت والعزّى . ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرانيق العلا . إن شفاعتهنّ ترتجى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » إن فى هذا السياق من الفساد والاضطراب والتناقض ، ومن مدح اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى وذمها فى أربع آيات متعاقبة ، ما لا يسلِّم به عقل ولا يقول به إنسان ، ولا تبقّى معه شبهة فى أن حديث الغرانيق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم ، وصدّقه من يسيغون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسيغ العقل المنطقىّ .

---

(١) الآيات من ١٨ إلى ٢٣ .

الحجة اللغوية

وحجة أخرى ساقها المغفور له الأستاذ محمد عبده حين كتب يفنّد قصة الغرانيق . تلك أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم . وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائىّ أسود أو أبيض ، والشابّ الأبيض الجميل . ولا شىء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب .

صدق محمد يأبى صحة القصة

بقيت حجة قاطعة ، نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرانيق هذه من حياة محمد نفسه ؛ فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرّب عليه الكذب قط ، حتى سُمى الأمين ولمّا يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . وكان صدقه أمراً مسلماً به عند الناس جميعاً ، حتى لقد سأل قريشاً يوماً بعد بعثه : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقونى ؟ » فكان جوابهم : « نعم ! أنت عندنا غير متّهم وما جرّبنا عليك كذباً قط » . فالرجل الذى عُرف بالصدق فى صِلاته بالناس منذ نعومة أظفاره إلى كهولته كيف يصدّق إنسان أنه يقول على ربّه ما لم يقل ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه ! هذا أمر مستحيل . يُدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القويَّة الممتازة التى تعرف الصلابة فى الحق ولا تداجى فيه لأىّ اعتبار . وكيف ترى يقول محمد : لو وضعت قريش الشمس فى يمينه والقمر فى شماله على أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه مافعل ، ثم يقول على الله ما لم يوح إليه ، ويقوله لينقض به أساس الدّين الذى بعثه الله به هدًى وبشرى للعالمين !

ومتى رجع إلى قريش ليمدح آلهتهم ؟ بعد عشر سنوات أو نحوها من بعثه ، وبعد أن احتمل هو وأصحابه فى سبيل الرسالة من ألوان الأذى وصنوف التضحية ما احتمل ، وبعد أن أعزَّ الله الإسلام بحمزة وعمر ، وبعد أن بدأ المسلمون يصبحون قوَّة بمكة ، ويمتدّ خبرهم إلى بلاد العرب كلها وإلى الحبشة وإلى مختلف نواحى العالم . إن القول بذلك حديث خرافة وأكذوبة ممجوجة . ولقد شعر الذين اخترعوها بسهولة افتضاحها ، فأرادوا سترها بقولهم : إن محمداً ما كاد يسمع كلام قريش إذ جعل لآلهتهم نصيباً فى الشفاعة حتى كَبُر ذلك عليه .

وحتى رجع إلى الله تائباً أوّل ما أمسى ببيته وجاءه جبريل فيه . لكن هذا السَّتْر أحرى أن يفضحها . فما دام الأمر قد كبر على محمد منذ سمع مقالة قريش ، فما كان أحراه أن يراجع الوحى لساعته ! وما كان أحراه أن يُجْرِى الوحىُ الصواب على لسانه ؟ وإذاً فلا أصل لمسألة الغرانيق إلا الوضع والاختراع . قامت بهما طائفة الذين أخذوا أنفسهم بالكيد للإسلام بعد انقضاء الصدر الأول .

افتراء على التوحيد

وأعجب ما فى جرأة هؤلاء المفترين أنهم عرضوا للافتراء فى أمّ مسائل الإسلام جميعاً : فى التوحيد ! فى المسألة التى بعث محمد لتبليغها للناس منذ اللحظة الأولى ، والتى لم يقبل فيها منذ تلك اللحظة هوادة ، ولا أماله عنها ما عرضت عليه قريش أن يعطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكاً عليهم . وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتَّبعه من أهل مكة إلا عدد يسير . وما كان أذى قريش لأصحابه ليجعله يرجع عن دعوة أمرَه ربه أن يبلغها للناس . فاختيار المفترين لهذه المسألة التى كانت صلابة محمد فيها غاية ما عُرف عنه من الصلابة ، يدلّ على جرأة غير معقولة ، ويدلّ فى الوقت نفسه على أن الذين مالوا إلى تصديقهم قد خُدِعوا فيما لا يجوز أن يُخْدَع فيه أحد .

لا أصل إذاً لمسألة الغرانيق على الإطلاق ، ولا صلة البتة بينها وبين عودة المسلمين من الحبشة ، إنما عادوا ، كما قدَّمنا ، بعد أن أسلم عمر ونصرَ الإسلام بمثل الحميَّة التى كان يحاربه من قبلُ بها ، حتى اضطُرّت قريش لمهادنة المسلمين . وعادوا حين شبَّت فى بلاد الحبشة ثورة خافوا مغبَّتها . فلما علمت قريش بعودتهم ازدادت مخاوفها أن يعظُم أمر محمد بينهم ، فأتمرت ما تصنع . وقد انتهت بوضع الصحيفة التى قرَّروا فيها فيما قرروا ألا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم ، كما أجمعوا فيما بينهم أن يقتلوا محمداً إن استطاعوا .

الفصل السابع

مساءات قريش

إعلان عمر إسلامه وصلاة المسلمين عند الكعبة – صحيفة المقاطعة – جهود قريش فى محاربة محمد – سلاح الدعاية – سحر البيان – جبر النصرانى – تأثر قريش بالدعوة الجديدة – الطفيل الدوسى – وفد النصارى – ما منع قريشا أن تتابع محمداً : المنافسة ، الخوف على مكانة مكة ، الفزع من البعث .

فَتَّ إسلام عمر فى عضد قريش أن دخل فى دين الله بالحميَّة التى كان يحارب به من قبلُ بها . لم يُخْفِ إسلامه ولم يستتر ، بل ذهب يعلنه على رءوس الملأ ويقاتلهم فى سبيله ، ولم يرض عن استخفاء المسلمين وذهابهم إلى شعاب مكة يُقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش ، بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه . وأيقنت قريش أن ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى لن يحول دون إقبال الناس على دين الله ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحمزة أو بالحبشة أو بمن يقدر على حمايتهم ؛ فأتمرت من جديد ماذا تصنع ، واتَّفقوا فيما بينهم وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب مقاطعة تامَّة ، فلا يَنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، وعلَّقوا صحيفة هذا العقد فى جوف الكعبة توكيداً لها وتسجيلا . وكان أكبر ظنهم أن هذه السياسة السلبيَّة ، وسياسة التجويع والمقاطعة ستكون أفعل أثراً من سياسة الأذى والإعنات ، وإن لم ينقطعوا عن الإعنات ولا عن الأذى . وأقامت قريش على حصار المسلمين وحصار بنى هاشم وبنى عبد المطلب سنتين أو ثلاثاً ، كانت ترجو خلالها أن تصل من محمد إلى اعتزال قومه إيَّاه ، فيعود وحيداً ولا يبقى له ولا لدعوته من خطر .

فأمَّا محمد فلم يزده ذلك إلا اعتصاماً بحبل الله ، ولم يزد أهله والذين آمنوا به إلا ذوداً عنه وعن دين الله ، ولم يحُلْ دون انتشار الدعوة إلى الإسلام انتشاراً خرج بها من حدود مكة . وذاع أمر الدعوة بين العرب وقبائلها بما جعل الدين الجديد يفشو ذكره فى شبه الجزيرة بعد أن كان حبيساً بين جبال مكة ،

وما جعل قريشاً تزيد إمعاناً فى تفكيرها كيف تحارب هذا الذى خرج عليها وسبّ آلهتها ، وكيف تقف دون انتشار دعوته بين قبائل العرب ، هذه القبائل التى لا غنى لمكة عنها ولا غنى لها عن مكة فى التجارة المتصلة التى تصدر عن أمّ القرى وترِد إليها .

سلاح الدعاية

ولقد كان ما بذلت قريش من مجهود فى محاربة هذا الخارج عليها وعلى دينها ودين آبائها ، وما ثابرت وصابرت السنين الطوال للقضاء على هذه الدعوة الجديدة ، يعدو ما يتصوره العقل . هدّدت محمداً وهدّدت أهله وأعمامه . تهكمت به وبدعوته ، وسخرت منه وممّن اتّبعه . أرسلت شعراءها تهجوه وتفرى أديمه . نالته بالأذى ونالت من اتّبعه بالسوء والعذاب . عرضت عليه الرشوة ، وعرضت عليه الملك ، وعرضت عليه كل ما يطمع الناس فيه . شرّدت أنصاره عن أوطانهم ، وأصابتهم فى تجارتهم وفى أرزاقهم . أنذرته وأنذرتهم الحرب وأهوالها وما تجنى وما تدمّر . وها هى ذى تحاصرهم أخيراً لتميتهم جوعاً إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً . مع ذلك ظلّ محمد يشتدّ فى دعوة الناس بالحسنى إلى الحق الذى بعثه الله به للناس بشيراً ونذيراً . أفآن لقريش أن تُلقى سلاحها وأن تصدّق الأمين الذى عرفته منذ طفولته وكل صباه وشبابه أميناً ؟ أم أنها لجأت إلى سلاح غير ما قدّمنا من أسلحة النضال وخيّل إليها أنها مستطيعة به أن تكسب الموقعة ، وأن تستبقى لأصنامها مكانة الألوهية التى تزعمها ، وأن تستبقى بمكة مُتحفَ هذه الأصنام ومكانَ تقديسها ليبقى لمكة كلّ ما ينالها بسبب هذه الأصنام من تقديس ؟!

كلاّ ! لم يَأنِ لقريش أن تُذْعن وأن تُسلم وهى الآن أشدّ ما تكون خوفاً من انتشار دعوة محمد بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة . وقد بقى لديها سلاح لجأت إليه منذ الساعة الأولى ولا يزال لها فى قوّته وفى مَضائه مطمع ، ذلك سلاح الدعاية : الدعاية بكل ما تنطوى عليه من مجادلة وحجج ومهاترة وترويج إشاعات وتوهين لحجة الخَصْم ، واستعلاء بالدليل على دليله . الدعاية على العقيدة وعلى صاحب العقيدة واتّهامه فيها واتّهامها لذاتها . الدعاية التى لا تقف عند حدود مكة ، والتى لم تكن بحَاجة إليها كحاجة البادية وقبائلها

وشبه الجزيرة وسائر أهلها . كان التهديد والإغراء والإرهاب والتعذيب بعض ما يُغنى عن الدعاية فى مكة ، لكنها لم تكن لتُغنى عنها شيئاً عند الألوف الذين يفدون إلى مكة كل عام فى التجارة والحج ، والذين يجتمعون فى أسواق عُكاظ ومَجنَّة وذى المَجَاز ليحجّوا إلى الكعبة بعد ذلك مقرّبين إلى أصنامهم ، ناحرين عندها ، ملتمسين منها البركة والمغفرة . لذلك فكرت قريش منذ استحرّت الخصومة بينها وبين محمد فى تنظيم الدعاية عليه . وكانت فى تفكيرها هذا أشد إمعاناً منذ فكَّر هو فى مبادأة الحاجّ بدعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وهو قد فكر فى هذا بعد السنين الأولى من بعثه ؛ فهو قد بدأ نبيًّا منذ بعثه إلى أن جاءه الوحى أن ينذر عشيرته الأقربين . فلما أنذر قريشاً وأسلم منها من أسلمَ ، وألح فى الكفر والعناد مَن ألحّ ، ألقى عليه أن يدعو قومه والعرب جميعاً ليُلْقى عليه من بعد ذلك أن يدعو الناس كافة .

لمَّا فكر فى مبادأة الحاجّ من مختلف قبائل العرب بالدعوة إلى الله ، اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المُغيرة يتشاورون : ماذا عسى أن يقولوا فى شأن محمد للعرب القادمين إلى موسم الحج ، حتى لا يختلف بعضهم على بعض ويكذّب بعضهم بعضاً . واقترح بعضهم أن يقولوا : إن محمداً كاهن ؛ فردّ الوليد هذا الرأى أن ليس ما يقول محمد بزمْزَمَة[1] الكاهن ولا بسَجْعه . واقترح آخرون أن يزعموا أن محمداً مجنون ؛ فردَّ الوليد هذا الرأى بأنه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة . واقترح غيرهم أن يتهموا محمداً بالسحر ؛ فرد الوليد بأن محمداً لا ينفُث فى العُقَد ولا يأتى من عمل السَّحرة شيئاً . وبعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاجّ من العرب إن هذا الرجل ساحر البيان ، وإن ما يقوله سحر يفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . وكان لهم عند العرب من الحجة على قولهم هذا ما أصابهم فى مكة من فرقة وتخاذل وتناحر ، بعد أن كانت مكة مضرب المثل فى العصبية وفى قوّة الرابطة . وانطلقت قريش فى الموسم تحذّر الحاجَّ الاستماعَ إلى هذا

اتهام محمد بسحر البيان

(١) الزمزمة : الكلام الخفى .

الرجل وسحر بيانه ، حتى لا يصيبها ما أصاب مكة فتكون فتنة تصلَى نارَها جزيرة العرب جمعاء .

النضر بن الحارث

ولكن دعاية كهذه لا يمكن أن تقوم وحدها أو تقاوم سحر هذا البيان الذى يومئون إليه . فإذا جاء الحق فى هذا البيان الساحر فما يمنع الناس أن يؤمنوا به ؟ هل كان الاعتراف بالعجز وتبريز الخصم دعاية ناجعة فى يوم من الأيام ؟! فلتكن لقريش إلى جانب هذه الدعاية دعاية أخرى . ولتلتمس قريش هذه الدعاية عند النَّضْر بن الحارث . وقد كان هذا النَّضْر من شياطين قريش ، وكان قد قدِم الحيرة وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس وعباداتها وأقوالها فى الخير والشر وفى عناصر الكون . فأخذ كلما جلس محمد مجلساً يدعو فيه قومه إلى الله ، ويحذّرهم عاقبة مَنْ قبلهم من الأمم التى أعرضت عن عبادة الله يخلُف محمداً فى مجلسه ويقص على قريش حديث فارس ودينها ، ثم يقول : بماذا يكون محمد أحسن حديثاً منى ؟ أليس يتلو من أساطير الأولين ما أتلو ! وكانت قريش تذيع أحاديث النضر من طريق الرواية دعاية على ما ينذر محمد الناس به وما يدعوهم إليه .

جبر النصرانى

وكان محمد يُكثر من الجلوس عند المروة إلى مبيعة غلام نصرانى يقال له جبر ، فكانت قريش تزعم أن جبراً النصرانىّ هذا هو الذى يعلّم محمداً أكثر ما يأتى به ، فإذا كان لأحد أن يخرج على دين آبائه فالنصرانية أولى . وروّجت قريش لزعمها هذا ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ﴾[1] .

الطفيل بن عمرو الدوسى

بهذه الضروب وأمثالها من الدعاية جعلت قريش تحارب محمداً ترجو أن تبلغ بها منه أكثر مما يبلغ منه الأذى ومن اتَّبعه العذاب . على أن قوّة الحق فى الصورة الواضحة البسيطة التى صوِّر فيها على لسان محمد كانت تعلو على ما يقولون ، وما تفتأ لذلك تزداد كل يوم بين العرب انتشاراً . قدِم الطفَيْل بن

---

(١) سورة النحل آية ١٠٣ .

عمرو الدَّوْسى مكة ، وكان رجلا شريفاً شاعراً لبيباً ، فمشت إليه قريش تحذّره محمداً وأن قوله كالسحر ، يفرّق بين المرء وأهله ، بل بين المرء ونفسه ،وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة ، وأنّ الخير فى ألاّ يكلمه ولا يستمع إليه . وذهب الطفيل يوماً إلى الكعبة ، وكان محمد هناك ، فسمع بعض قوله فإذا هو كلام حسن ؛ فقال فى نفسه : «وَاثكْل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ! فإن كان حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته » واتّبع محمداً إلى بيته وأظهره على أمره وما دار بنفسه ؛ فعرض محمد عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، ورجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، فلبّاه بعضهم وأبطأ بعض ؛ وما زال الطفيل بهم يدعوهم سنين متعاقبة حتى أسلم أكثرهم ، وانضموا إلى النبىّ بعد فتح مكة وبعد أن بدأ النظام السياسىّ يأخذ فى الإسلام صورة معيَّنة .

وليس الطفيل الدَّوْسى إلاّ مثلا من كثير . ولم يكن عبَّاد الأصنام وحدهم هم الذين يستجيبون لدعوة محمد . قدِم عليه وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى حين بلغهم خبره . فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له ، فاستجابوا وآمنوا به وصدّقوه ، مما غاظ قريشاً حتى سبوهم وقالوا لهم : « خيَّبكم الله من رَكْبٍ ! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئنَّ مجالسُكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقتموه بما قال ! » . ولم تثْنِ مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة محمد ولم تردّه عن الإسلام ، بل زادتهم بالله إيماناً على إيمانهم إذ كانوا نصارى ، وكانوا من قبلِ أن يستمعوا إلى محمد لله مسلمين .

أبو سفيان وأبو جهل والأخنس

بل لقد بلغ من أمر محمد ما هو أعظم من هذا ؛ بدأ أشدّ قريش خصومة يسائلون أنفسهم : أحقًّا أنه يدعو إلى الدين القيم ، وأن ما يَعدِهم وما يُنذرهم هو الصحيح ؟ خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنَس بن شَرِيق ليلةً ليستمعوا إلى محمد وهو فى بيته ، فأخذ كلٌّ منهم مجلساً يستمع فيه وكلٌّ منهم لا يعلم بمكان صاحبه . وكان محمد يقوم اللَّيل إلا قليلا يرتل القرآن فى هدوء وسكينة ، ويردّد بصوته العذب آياته القدسيَّة على أوتار سمعه

وقلبه . فلما كان الفجر تفرَّق المستمعون وهم عائدون إلى منازلهم ؛ فجمعهم الطريق . فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ! فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمداً عليكم . فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم، فى مثل الموعد الذى ذهب فيه أمس ، كأنَّ رجليه تَحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضى ليله حيث قضاه أمس ، وليتسمع إلى محمد يتلو كتاب ربه . وتَلاَقَوْا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد ، فلم يَحُلْ تلاومهم دون الذهاب فى الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فَعلتهم، وإن ترك ما سمعوا من محمد فى نفوسهم أثراً جعلهم يتساءلون فيما بينهم عن الرأى فيما سمعوا ، وكلهم تضطرب نفسه ويخاف أن يضعُف وهو سيد قومه فيضعف قومه ويتابعوا محمداً معه .

ما منعهم أن يتابعوا محمداً ؟ إنه لا يريد منهم مالاً ولا فيهم سيادة ولا عليهم ملكاً أو سلطاناً ، وهو بعدُ رجلٌ جمّ التواضع شديد الحب لقومه والبرّ بهم والحرص على هداهم ، شديد حساب النفس ، حتى ليخشى إساءة المسكين والضعيف ، ويرى فى المغفرة لأذى يحتمله طمأنينة لقلبه وراحةً لضميره . ألم يقف مع الوليد بن المغيرة يوماً وقد طمع فى إسلامه ، والوليد سيد من سادات قريش ، فمرَّ به ابن أم مكتوم الأعمى وجعل يستقرئه القرآن ، وألح فى ذلك حتى شق على محمد إلحاحه ، لما شغله عما كان فيه من أمر الوليد ، فتولى عنه وانصرف عابساً ؛ فلما خلا إلى نفسه جعل يحاسبها على صنيعها ويسائلها أَأَخطأ ؟ حتى نزل عليه الوحى بهذه الآيات : (عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ ٱلْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ٱلذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ)(١) .

عبس وتولى

---

(١) سورة عبس الآيات من ١ إلى ١٦ .

فما دام ذلك أمره فما منع قريشاً أن يتابعوه ، وأن يعينوه على دعوته ، وخاصة بعد إذ لانت قلوبهم ، وإذ أنستهم السنون ما تدفع إليه المحافظة على القديم البالى من جمود النفس ، وإذ رأوا فى دعوة محمد جلالا وكمالا ؟!

النزوع إلى الكمال

ولكن ! أحقًّا أن السنين تُنسى النفوس جمودها ومحافظتها على القديم البالى ؟ إنما يكون ذلك عند الممتازين ومن فى قلوبهم نزوع دائم إلى الكمال ، هؤلاء ما يزالون حياتهم كلها يقلِّبون الحقائق التى آمنوا من قبل بها لينفوا ما يعلق بها من زيف بالغةً ما بلغت تفاهته . وهؤلاء كأن قلوبهم وعقولهم بوتقة دائمة الغليان ، تقبَل كل جديد من الرأى يُلْقى إليها ، فتصهره وتنفى خَبَثه وتستبقى ما فيه من خير وحق وجمال . وهؤلاء يلتمسون الحقّ فى كل شىء وفى كل مكان وعلى كل لسان . بَيْدَ أنهم فى كل أمة وعصرٍ هُم الصفوة المختارة ، وهم لذلك قلة أبداً . وهم يجدون الخصومة دائماً ناشئة على أشدّها بينهم وبين ذوى المال والجاه والسلطان ؛ لأن هؤلاء يخافون من كل جديد أن يجنى على مالهم أو جاههم أو سلطانهم ، وهم لا يعرفون غير هذه فى الحياة حقائق ملموسة . كل ما سوى هذه حقٌّ إذا هو أدّى إلى مزيد منها ، باطلٌ إذا بعث إلى أصحابها أيسر ظلّ من الريبة إزاءها : ربُّ المال يرى أن الفضيلة حق إذا زادت فى ماله ، باطلٌ إذا حرَمته إياه . وأن الدّين حق إذا عرف كيف يسخره لشهواته ، باطلٌ إذا وقف فى وجه هذه الشهوات وحطمها ، ورب الجاه ورب السلطان فى ذلك كربّ المال سواء . وهؤلاء فى خصومتهم لكل جديد يخافون منه ، يَسْتعدُون السواد الذى يفيد منهم رزقَه على المنادى بهذا الرأى الجديد ، وهم يستعدون السواد بتقديس الصروح القديمة التى نخر السوس فيها بعد أن فرّ الروح منها . وهم يقيمون هذه الصروح هياكل من الحجر ليزعموا للسواد البرىء أن الروح المقدّس ، الذى لَفوه هم فى أكفانه ، ما برح فى جلاله بين محبس هذه الهياكل . والسواد ينصرهم أكثر الأمر ؛ لأنه ينظر قبل كل شىء إلى رزقه ، ولا يسهل عليه أن يدرك أن أية حقيقة لا تطيق أن تبقى حبيسة بين جدران معبد من المعابد بالغاً ما بلغ جماله وجلاله ، وأن فى طبع الحقيقة أن تكون حرة طليقة تغزو النفوس وتغذوها ، لا تفرّق فيها بين نفس سيد ونفس عبد ، ولا يقف

نظام من النظم فى سبيلها بالغة ما بلغت قسوته وبطش أصحابه فى حمايته .

ما منعهم أن يتابعوا محمداً

فكيف تريد من هؤلاء الذين كانوا يتسللون لواذاً يستمعون إلى القرآن أن يؤمنوا به وهو يؤاخذهم فى كثير ممّا يرتكبون، وهو لا يفرّق بين الأعمى ومن استغنى بكثرة المال إلا بطهارة النفس ، وهو ينادى الناس جميعًا : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [1] . فإذا ظل أبو سفيان ومن معه على دين آبائهم فليس ذلك إيمانًا منهم به أو بحق يحتويه ، بل هو حرص على نظام قديم أقامه ثم أفاء الحظّ عليهم فى ظلّه من بسطة المال والجاه ما يحرِصون عليه ويحاربون الحياة كلها دونه .

الحسد والتنافس

وإلى جانب هذا الحرص كان يقوم الحسد والتنافس والتنازع مانعًا من إقبال قريش على متابعة النبيّ . كان أميّة بن أبى الصّلت ممن حدّثوا عن نبيّ يقوم فى العرب قبل ظهور محمد ، حتى طمع هو فى النبوّة ؛ وأكلت قلبه الغَيْرة حين لم ينزل الوحى عليه ، فلم يرض أن يتابع من ظنه منافسه مع غلبة الحكمة على شعره ، حتى قال عليه السلام يومًا وهذا الشعر يُروى أمامه : « أميَّة آمن شعره وكفر قلبه » . وكان الوليد بن المغيرة يقول : « أيُنزَّل على محمد وأترك أنا كبيرَ قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عَمْرو بن عُمَير الثقفىّ سيدّ ثقيف ونحن عظيما القريتين » وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحمةَ رَبِّكَ نحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فى الحيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [2] .

ولما استمع أبو سفيان وأبو جهل والأخنس إلى القرآن ثلاث ليال متتابعة فى القصة التى رويناها ، ذهب الأخنس إلى أبى جهل فى بيته فسأله : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعنا من محمد ؟ ! فكان جواب أبى جهل : « ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذينا الرُّكَب وكنا كفرَسىْ رِهان قالوا : منَّا نبىّ يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ ! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه » .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ . (٢) سورة الزخرف آيتا ٣١ و ٣٢ .

وللحسد والتنافس والتنازع فى هذه النفوس البدوية من عميق الأثر ما يخطئ الإنسان إذا هو حاول الإغضاء عنه أو لم يقدره حق قدره . ويكفى أن نذكر ما لهذه الشهوات على النفوس جميعاً من سلطان ، لنقدر أن التخلص من أثرها يجب أن يسبقه تهذيب طويل يصقل الفؤاد ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى ، ويسمو بالعاطفة وبالروح إلى مرقًى يجعلك ترى الحقيقة على لسان خَصْمك بل عدوِّك هى الحقيقة على لسان حميمك ووليك ، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك بمال قارون وجاه الإسكندر وملك قيصر . هذه مكانة قلّ من يصل إليها إلا من هدى الله قلبه للحقِّ . أمّا سائر الناس فتعميهم العاجلة من مال ونَشَب ، ويُعميهم الاستمتاع باللحظة التى يعيشون فيها ، عن الارتفاع إلى هذه المعانى . وهم فى سبيل هذه العاجلة واقتناص تلك اللحظة يحاربون ويقاتلون ، لا يحول شىء دون أن يُنْشب أحدهم أظفاره وأنيابه فى عنق الحقّ والخير والفضيلة ، وأن يدوس تحت أقدام دَنسِه أطهر معانى الكمال . ما بالك بهؤلاء العرب من قريش وهم يرون محمداً يزداد أنصاره كل يوم عدداً ، ويخْشوْن يوماً ما يكون فيه للحق الذى يعلنه السلطان عليهم وعلى من يدين لهم بالطاعة ، ويمتدّ من وراء ذلك إلى العرب فى مختلف أنحاء الجزيرة ! دون هذا قطُّ الرقاب إذا استطاعوا قَطَّها . ودون هذا الدعاية والمقاطعة والحصار والتعذيب والتنكيل يصبونه على هام خصومهم صبًّا .

الفزع من البعث والحساب

وسبب ثالث منع قريشاً من متابعة محمد . ذلك فزعهم من البعث ومن عذاب جهنم يوم الحساب ؛ فقد رأيتهم قوماً مكبِّين على اللّهو مسرفين فيه ، ويتَّخذون من التجارة ومن الرّبا إليه الوسيلة . ولا يرى الغنىُّ منهم فى شىء من الأشياء رذيلة يتجافى عنها ؛ ثم كان لهم من التقرب إلى أصنامهم ما يزعمون أنه يكفّر عن سيئاتهم وذنوبهم . بِحَسْبِ الرجل أن يضرب القداح عند هُبَل قبل أن يُقْدِم على أمر ليكون ما تشير به عليه القداح أمرَ هبل . وبحسبهِ أن ينحر للأصنام لتمحو الأصنام سيئاته وذنوبه ! هو فى حِلّ من أن يقتل وينهب ويرتكب الفحشاء ولا يَعِفّ عن الخنا ما دام قديراً على رشوة هذه الآلهة بالقرابين والنحور ! وهذا هو محمد يعلن إليهم فى آيات مُرهبة تنخلع من هَوْلها القلوب وتضطرب

الأفئدة أن ربَّهم لهم بالمرصاد ، وأنهم مبعوثون فى اليوم الآخر خلْقاً جديداً ، وأَن أَعمالهم هيَ وحدها الشفيع لهم . (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ)(١) . والصاخة تجىء : (يَوْمَ تَكُونُ ٱلسماءُ كَالْمُهْلِ وَتكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ . وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً . يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وأخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثم يُنْجِيهِ . كَلَّا إِنَّهَا لَظَى . نَزَّاعَةً لِلشَّوَى . تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى . وَجَمَعَ فَأَوْعَى) (٢). (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِى لم أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَه . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلعَظِيمِ . وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ ٱلمِسْكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ ٱليَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ)(٣) .

تصوير يوم الحساب فى القرآن

أتلوت هذا ! أسمعته ! ألم يأخذك الهول ويتولك الفزع ! وليس هذا إلا قليلا مما كان يُنذر محمد به قومه . وأنت تتلوه اليوم وقد تلوته وسمعته من قبلُ مرَّات . وأنت تعيد إلى ذهنك إذ تتلوه ما فى القرآن من تصوير جهنم : (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)(٤) ، (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ)(٥)

---

(١) سورة عبس الآيات من ٣٣ إلى ٤٢ . (٢) سورة المعارج الآيات من ٨ إلى ١٨ .
(٣) سورة الحاقة الآيات من ١٨ إلى ٣٧ . (٤) سورة ق آية ٣٠
(٥) سورة النساء آية ٥٦ .

يسيرٌ عليك وقد داخلك الروع أن تقدّر ما كان يتولى قريشاً والمترفين منها خاصّة ، إذ كانوا يستمعون إلى هذا القول بعد إذ كانوا من قبل ما ينذرُهم به من العذاب بنجوة فى حمى آلهتهم وأوثانهم . ويسيرٌ بعد ذلك أن تقدّر مبلغ حماستهم فى تكذيب محمد ومناوأته والتأليب عليه . فهم لم يكونوا يعرفون البعث ، ولم يكونوا يعترفون بما يسمعونه عنه . لم يكن أحدهم ليتوهم أنه مجزىٌّ عن عمل هذه الحياة بعد مفارقته الحياة . إنما كان خوفهم من المستقبل فى هذه الحياة . كان خوفهم من المرض ومن الإصابة فى الأموال والبنين وفى المكانة والجاه . كانت الحياة عندهم غاية الحياة ، فكان كلّ همهم منصرفاً لجمع أسباب الاستمتاع فيها ودفع كل ما يخشونه منها . وإذ كان المستقبل غيباً محجوباً أمامهم . وكانت نفوسهم تحسّ أن أعمالهم شرًّا قد يصيبهم الغيب من أجله بأذى ، فقد كانوا يتفاءلون ويتطيَّرون : كانوا يستقسمون بالقداح ، ويضربون بالحصى ، ويزجُرون الطير (١) ، وينحرون للأوثان ؛ كل ذلك يدّرعون به مما يخافون من هذا المستقبل القريب فى الحياة . أمَّا الجزاء بعد الموت ، أمَّا البعث والنشور يوم ينفخ فى الصور ، أما الجنة التى أعدّت للمتقين وجهنم التى أعدَّت للظالمين ، أما ذلك كله فلم يكن يدور بخواطرهم ، وذلك كله قد سمعوا به فى دين اليهود وفى دين النصارى ، ولكنهم لم يسمعوا عنه تصويراً قويًّا مخوفاً كالذى يُسمعهم الوحى على لسان محمد ، والذى يُنذرهم ، إن هم ظلّوا فيما هم فيه من لهو الحياة أو الاستكثار من المال بظلم الضعيف وأكل مال اليتيم وإهمال المسكين والغلو فى الرّبا ، بعذاب خالد فى درك سَقَر تصطك القلوب فزعاً من هوله لمجرّد سماع صورته ، ما بالك به محققاً تراه البصيرة جاثماً وراء الخطوة الضيّقة التى يتخطى الإنسان من جانب الحياة إلى ناحية الموت ، بعده البعث والنشور ، والرضا أو الثبور ! .

---

(١) زجر الطير : أن يرمى الإنسان الطائر بحصاة أو أن يصيح به ؛ فإن ولاه فى طيرانه ميامنه تفاءل به ، وإن ولاه مياسره تطير منه .

قريش والجنة

أمّا ما وعد الله المتقين من جنة عَرْضُها السموات والأرض لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ، فيها ما تشتهى الأنفس وتَلذّ الأعين ، فكانت قريش فى ريب منها . وكان يزيدها ريباً تعلقها بالعاجلة ، وحرصها على أن ترى هذا النعيم محققاً لها فى حياة هذا العالم ، وضيقها بالانتظار إلى يوم الجزاء ، على حين لم تكن هى تؤمن بيوم الجزاء .

معركة الخير والشر

ولقد يأخذ الإنسان العجب كيف أقفلت قلوب العرب دون تصوُّر الحياة الأخرى والجزاء فيها ، فى حين تدور رحى المعركة بين الخير والشرّ فى هذا العالم الإنسانى منذ الأزل ، لم تعرف يوماً هوادة ولا اطمأنت إلى سكينة . كان المصريون القدماء ، قبل ألوف السنين من بعث محمد ، يزوّدون الميت زاد الدار الآخرة ، ويضعون فى أكفانه كتاب الموتى بما فيه من أغنيات ونُذُر ، ويصوّرون على معابدهم صور الميزان والحساب والتوبة والعقاب . وكان الهنود يصورون رضا النفس الراضية فى « النرڤانا » وتناسخ روح المسىء فى صور من الخَلق تتعذّب أثناءها ألوف السنين وملايينها ، حتى تُلْهَم الحق فتطهر وتعود مرّة أخرى إلى الخير طمعاً فى بلوغ « النرڤانا » . ولم يكن مجوس فارس لينكروا معركة الخير والشر وآلهة الظلمة والنور . والموسوية والعيسوية تَصِفان حياة الخلد ورضا الله وغضبه . أفلم يبلغ هؤلاء العرب شىء من ذلك كله ، وقد كانوا أهل تجارة يتّصلون فى رحلاتهم وأسفارهم بأهل هذه النحَل جميعاً ؟! فكيف لا يبلغهم ؟ وكيف لا تكون لهم صورة خاصّة منه وهم أهل بادية أشدّ اتصالا باللانّهاية ، وأقرب إلى تصوّر ما يشتمل عليه هذا الوجود من أرواح تتبدّى فى لهب الظهيرة وفى غسق الليل ؟! أرواح خيرة وأخرى شرّيرة ! أرواح هى التى يحسبونها تسكن جوف الأصنام التى تقرّبهم إلى الله زلفى . لا ريب أنه كانت عندهم فكرة من هذا الغيب المحيط بهم . لكنهم وهم أهل تجارة كانت نفوسهم أكثر للواقع المحسوس قدراً ؛ ولأنهم أهل لهو وخمر كانوا أشد لجزاء الآخرة إنكاراً . فكانوا يحسبون ما يلقاه الإنسان فى هذه الحياة من خير أو شرّ جزاء عمله ، ولا جزاء عنه بعد الحياة . ولذلك كان أكثر ما نزل من الوحى نذيراً وبشيراً قد نزل بمكة فى أوّل

الرسالة ، حرصاً على الخلاص لأرواح هؤلاء الذين بُعث محمد بينهم . ولقد كان جديراً بأن ينبههم إلى ما هم فيه من غيّ وضلالة ؛ جديراً بأن يرتفع بهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد القهار .

في سبيل الخلاص

في سبيل هذا الخلاص الروحي لأهله وللناس كافة احتمل محمد ومن آمن به من ألوان الأذى وصور التضحية ، ومن آلام النفس والجسد . ومن الارتحال عن الوطن ، ومن عداوة الأهل والولد ، ما مرّ بك شيء منه . وكأنما كان محمد يزداد لأهله حبًّا وعلى خلاصهم حرصاً كلما ازدادوا إيذاءً له ومساءة . ويوم البعث والحساب كان آية الآيات التي يجب أن يتنبَّهوا لها لتنقذهم من شرِّ وثنيتهم ومن التورُّط في آثامهم . لذلك لم يكن الوحي في السنوات الأولى يفتُر عن إنذارهم بها وتفتيح عيونهم عليها ، مع أنهم كانوا يمعنون في إنكارها وفي الازورار عنها ، مما دعاهم إلى إشعال هذه الحرب الضَّرُوس التي لم تهدأ بينهم وبين محمد ثائرتها (١) ، حتى تمَّ للإسلام النصر ، وحتى أظهر الله دينه على الدين كله .

(١) ثائرة الحرب : شرها وهيجها .

الفصل الثامن

من نقض الصحيفة إلى الإسراء

فرار المسلمين من مكة إلى شعاب الجبل – عدم اختلاطهم بالناس إلا فى الأشهر الحرم – قيام زهير وأصحابه فى نقض الصحيفة – وفاة أبى طالب وخديجة – إيذاء قريش محمداً – ذهاب محمد إلى الطائف ورد ثقيف إياه – الإسراء والمعراج .

دعوة القبائل فى الأشهر الحرم

ظلت الصحيفة التى تعاقدت قريش فيها على مقاطعة محمد وحصار المسلمين نافذة ثلاث سنوات متتابعة ، احتمى محمد وأهله وأصحابه خلالها فى شِعْب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، يُعانون الحرمان ألواناً ، ولا يجدون فى بعض الأحايين وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم . ولم يكن يُتاح لمحمد ولا للمسلمين الاختلاط بالناس والتحدُّث إليهم إلا فى الأشهر الحرم ، حين يفد العرب إلى مكة حاجين ، وحين تضع الخصومات أوزارها ، فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام . فى هذه الأشهر كان محمد ينزل إلى العرب يدعوهم إلى دين الله ويبشرهم بثوابه وينذرهم عقابه . وكان ما أصاب محمداً من الأذى فى سبيل دعوته شفيعه عند كثيرين ؛ حتى لقد زادهم ما سمعوا من ذلك عليه عطفاً ، وعلى دعوته إقبالا . وهذا الحصار الذى أوقعته قريش واحتماله إياه صابراً فى سبيل رسالته ، كسب له كثيراً من القلوب التى لم تبلغ منها القسوة ما بلغت من قلب أبى جهل وأبى لهب وأمثالهما .

حصار المسلمين فى الشعب

على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت قريش ، وهم منهم إخوانهم وأصهارهم وأبناء عمومتهم ، جعل كثيرين يشعرون بفَدْح ما ارتكبوا من ظلم وقسوة . فلولا أن كان من أهل مكة رجال ، لديهم على المسلمين عطف ، يحملون إليهم الطعام فى الشعب الذى احتموا به لهلكوا جوعاً . وكان هشام ابن عمرو من أحسن قريش فى هذه البأساء عطفاً على المسلمين . كان يأتى بالبعير قد أوقره طعاماً أو بُرًّا فيسير به جوفَ الليل ، حتى إذا استقبل فم الشعْب خلع خِطامه ثم ضرب على جنبه فيدخل البعير الشعب عليهم . ولما ضاق بما يحتمل

نقض الصحيفة

محمد وأصحابه من الأذى صدراً، مشى إلى زهير بن أبى أميَّة ، وكانت أمه عاتِكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير ، أقد رَضِيت أن تأكل الطعام وتلبث الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت ، لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم ؟! أمَا إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوالَ أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً ؟ وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة ، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم به سرًّا . واتفق معهما المطْعم بن عَدِىّ وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام وزَمْعة ابن الأسود وأجمع الخمسة أمرَهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها .

وغدا زهير بن أميَّة فطاف بالبيت سبعاً ، ثم نادى فى الناس : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ! والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به كذبتَ والله لا تُشَقَّ ! فتصايح زمعة وأبو البختَرىّ والمطعم وهشام ابن عمرو كلهم يكذبون أبا جهل ويؤيدون زهيراً . وأدرك أبو جهل أن الأمر قضى بليل ، وأن القوم اتَّفقوا عليه ، وأن مخالفتهم قد تثير شرًّا ، فأوجس خيفةً وتراجع. وقام المطعم ليشقّ الصحيفة فوجد الأَرَضَة قد أكلتها إلا فاتحتها « باسمك اللهم » . وبذلك أتيح لمحمد وأصحابه أن يعودوا من الشعب إلى مكة ، وأن يبيعوا قريشاً ويبتاعوا منها ، وإن بقيت صلات الفريقين كما كانت وبقى كل منهم متحفزاً ليوم يستعلى فيه على صاحبه .

عصمة محمد فى التبليغ

ذهب بعض كتاب السيرة إلى أن الذين قاموا فى نقض الصحيفة ، ممن كانوا لا يزالون على عبادة الأوثان ، ذهبوا إلى محمد يسألونه ، منعاً للشر ، أن يتصالح وقريشاً على شىء ، كأن يُسَلِّم بآلهتهم ولو بطرف أصابعه . فمالت نفسه إلى شىء من هذا تقديراً لجميلهم ، وقال فيما بينه وبين نفسه : « وما علىَّ لو فعلت والله يعلم أنى بار » . أو إلى أن هؤلاء الذين نقضوا الصحيفة وجماعة معهم خلوا بمحمد ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه ويقولون له : أنت سيِّدنا ، يا سيِّدنا ؛ وأنهم مازالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون .

وهاتان الروايتان هما بعضُ ما حدَّث به سعيد بن جُبَير فى الأولى وقَتادة فى الثانية . ويذكرون أن الله عصم محمداً بعد ذلك وأنزل عليه قوله : ﴿ وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَ تَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً . إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لا تجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ [١] .

وهذه الآيات قد نزلت فى زعم أصحاب قصة الغرانيق ، فى تلك القصة المكذوبة كما قد رأيت ، وهذان المحدثان يردَّانها إلى قصة نقض الصحيفة . وقد نزلت هذه الآيات فى حديث عطاء عن ابن عباس فى وفد ثَقِيف ، إذ طلبوا إلى محمد أن يحرّم واديهم كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها ؛ فتردد النبي عليه السلام حتى نزلت . ومهما تكن الحقيقة الثابتة التى لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع التى نزلت الآيات فيها ، فإنها تصور ناحية من نواحى العظمة النفسية لمحمد ، كما تصور صدق إخلاصه تصويراً قويًّا . وهذه الناحية تصورها كذلك الآيات التى نقلنا من سورة « عبس » ويشهد بها تاريخ محمد كله . تلك أنه كان يصارح الناس بأنه بشرٌ مثلهم يُوحى ربه إليه لهدايتهم ، وأنه وهو بشر مثلهم معرض للخطأ لولا عصمة الله إياه . فهو قد أخطأ حين عبس لابن أم مكتوم وتولى عنه ، وهو قد كاد يخطئ فيما نزلت آيات الإسراء فى شأنه ، وكاد يفتن عن الذى أوحى إليه ليفترى غيره . فإذا نزل عليه الوحى ينبهه إلى ما صنع فى أمر الأعمى ، وفى أمر هذه الفتنة التى كادت قريش تدفعه إليها ، وصدق فى تبليغ هذا الوحى إلى الناس صدقه فى تبليغ رسالات ربه ولم يقف حائل من أنفة أوكبرياء ولا وقف اعتبار إنسانى ، حتى مما يسيغ الفضلاء ، دون إعلان هذا الحق فى أمر نفسه ؛ فالحق إذاً ، والحق وحده ، كان رسالته . وإذا كان احتمال أذى الغير فى سبيل ما نؤمن به بعض ما تطيق النفوس الكبيرة ، فإن إقرار العظيم بأنه كاد يُفْتَن ليس مما أَلِف الناس صدوره

---

(١) سورة الإسراء الآيات من ٧٣ إلى ٧٥ .

حتى من العظماء . إنما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمور ، ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حساباً عسيراً . فهو شيء إذاً أكبر من العظمة وأعظم من كل عظيم ذلك الذى يُتيح للنفس هذا السمو فتكشف عن الحق كله . ذلك الشيء الذى يسمو على العظمة ويفوق كل عظيم هو النبوة التى تملى على الرسول صدق الإخلاص فى إبلاغ رسالة الحق جل شأنه .

عاد محمد ومن معه من الشِّعب بعد تمزيق الصحيفة ، وجعل من جديد يذيع دعوته فى مكة وفى القبائل التى تجيء إليها فى الأشهر الحُرم . ومع ما ذاع من أمر محمد بين قبائل العرب جميعاً وما كان من كثرة الذين اتَّبعوه ، لقد ظلَّ لا يسلم أصحابه من أذى قريش ، ولا يستطيع هو لهم منعاً . ولم تمض إلا شهور على نقض الصحيفة حتى فجأت محمداً فى عام واحد فاجعتان اهتزت لهما نفسه ، هما موت أبى طالب وخديجة درَاكاً . وكان أبو طالب يومئذ قد نيَّف على الثمانين . فلما اشتكى وبلغ قريشاً أنه موف على ختام حياته ، خشيت ما يكون بينها وبين محمد وأصحابه من بعدُ ، وفيهم حمزة وعمر المعروفان بشدتهما وبطشهما ، فمشى أشرافها إلى أبى طالب وقالوا له : يا أبا طالب ، أنت منا حيث قد علمت وحضرك ما ترى وتخوَّفنا عليك . وقد علمتَ الذى بيننا وبين ابن أخيكَ ، فادعه فخذْ له منا وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدَعنا وديننا وندعه ودينه . وجاء محمد والقوم فى حضرة عمه . فلما عرف ما جاءوا فيه قال : نعمْ ! كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ! قال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات . قال . تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه . قال بعضهم : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ! ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ؛ وانطلقوا . وتوفى أبو طالب والأمر بين محمد وقريش أشدّ مما كان .

موت أبى طالب وخديجة

ومن بعد أبى طالب توفيت خديجة . خديجة التى كانت سند محمد بما تُوليه من حبها وبرها ، ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها . خديجة التى كانت تهوّن عليه كل شدة وتزيل من نفسه كل خشية ، والتى كانت مَلَك رحمة ، يرى

فى عينيها وعلى ثغرها من معانى الإيمان به ما يزيده إيماناً بنفسه . وتوفى أبو طالب الذى كان لمحمد حِمًى وملاذاً من خصومه وأعدائه . أى أثر تركت هاتان الفاجعتان الأليمتان فى نفس محمد عليه السلام !! إنهما لجديرتان بأن تتركا أقوى النفوس كَلِيمةً مضعضعة ، يدس إليها اليأس سموم الضعف ، ويدفع إليها الأسى والحزن من لواذع الهم المبرّح ما يجعلها تنهدّ أمامهما ولا تفكر فى شىء سواهما .

قريش يزداد أذاها

ما لبث محمد بعد أن فقد هذين النصيرين أن رأى قريشاً تزيد فى إيذائه ، وكان من أيسر ذلك أن إعترضه سفيه من سفهاء قريش فرمى على رأسه تراباً أفتدرى ما صنع ؟ دخل إلى بيته والتّراب على رأسه ؛ فقامت إليه فاطمة ابنته وجعلت تغسل عنه التّراب وهى تبكى . وليس أوجع لنفوسنا من أن نسمع بكاء أبنائنا ، وأوجع منه أن نسمع بكاء بناتنا . كل دمعة ألم تسيل من مآقى البنت قطرة حُمَم تهوى على قلبنا فينقبض انزعاجاً ، حتى لنكاد من شدة الانزعاج نصيح ألماً . وكل أنة حزن تثير فى الحشا وفى الكبد أنّات ما أقساها ، تختنق لها حلوقنا وتكاد تهْمِى بالدمع من وقعها عيوننا . وقد كان محمد أبرَّ أب ببناته وأحناه عليهن . فماذا نراه صنع لبكاء هذه البنت التى فقدت منذ قريب أمها ، ولبكائها هى من أجل ما أصاب أباها ؟ لم يزده ذلك كله إلا توجهاً بقلبه إلى الله وإيماناً بنصره إياه . قال لابنته وعينها تهمِى بالدمع : لا تبكى يا بنية ! فإن الله مانع أباك . ثم كان يردد : والله ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

خروج محمد إلى الطائف سنة (٦٢٨ م)

وكثرت مَساءات قريش من بعد ذلك لمحمد حتى ضاق بهم ذرعاً . فخرج إلى الطائف وحيداً منفرداً لا يعلم بأمره أحد ، يلتمس من ثَقِيف النصرة والمَنَعَة بهم من قومه ، ويرجو إسلامهم ، لكنه رجع منهم بشرِّ جواب . فرجاهم ألا يذكروا من استنصاره بهم شيئاً حتى لا يشمَت به قومه . ولم يسمعوا له بل أغرَوْا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به . ففر منهم إلى حائط لعُتْبة وشيبة ابنى رَبيعة فاحتمى به ، فرجع السفهاء عنه . وجلس إلى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ما هو فيه من شدة الكرب . فلما اطمأن رفع عليه

السلام رأسه إلى السماء ضارعاً فى شكاية وألم وقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلُنى ! إلى بعيد يتجهَّمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بكَ علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك أو تحلّ علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ؛ ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وطال تحديق ابنى ربيعة فيه ، فتحركت نفساهما رحمة له وإشفاقاً من سوء ما لَقِى ، وبعثا غلامهما النصرانىّ عدّاساً إليه بِقِطْف من عنب الحائط . فلما وضع محمد يده فيه قال : باسم الله ، ثم أكل . ونظر عدّاس دهشاً وقال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد ! فسأله محمد عن بلده ودينه ، فلما علم أنه نصرانىّ نينَوىّ قال له : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَى ، فسأله عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال محمد : ذاك أخى كان نبيًّا وأنا نبىّ . فأكبَّ عدّاس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه ، وعجب ابنا ربيعة لما رأيا وإن لم يصرفهما ذلك عن دينهما ولم يمنعهما من التحدث إلى عدّاس حين عاد إليهما يقولان : يا عدّاس ، لايصرِفنك هذا الرجل عن دينك فهو خير من دينه .

عداس النصرانى

وكأن ما أصاب محمداً من أذى خفَّفَ من سخط ثَقِيف وإن لم يغير من جمودهم عن متابعته . وعرفت قريش الأمر فازدادت لمحمد إيذاء ، فلم يصرفه ذلك عن الدعوة إلى دين الله . وجعل يَعْرِض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدّقوه . غير أن عمه عبد العُزى بن عبد المطَّلب أبا لهب لم يكن يدعه ، بل كان يتبعه أينما ذهب ويحرّض الناس ألا يستمعوا له . ولم يكتف محمد بعَرْض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج بمكة ، بل أتى كِندة فى منازلها ، وأتى كلباً فى منازلها ، وأتى بنى حَنيفة وبنى عامر بن صَعْصعة ، فلم يسمع منهم أحد ؛ وردّوه جميعاً ردًّا غير جميل ، بل ردّه بنو حنيفة ردًّا قبيحاً . أما بنو عامر فطمِعوا

محمد يعرض نفسه على القبائل

رد القبائل دعوته

إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده . فلما قال لهم : إن الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء لَوَوْا عنه وجوههم وردّوه كما ردّه غيرهم .

هل أصرت هذه القبائل على عناد محمد لمثل الأسباب التى أصرت قريش من أجلها على عناده ؟ لقد رأيت بنى عامر وكيف كانوا يطمعون فى الملك إذا هم انتصروا وإياه . أما ثقيف فكان لها رأى آخر . فالطائف فضلا عن أنها كانت مصيف أهل مكة لجمال جوّها وحلو أعنابها ، قد كانت مستقر عبادة اللات وكان لها هناك صنم يُعْبَد ويُحجّ إليه . فلو أنّ ثقيفاً تابعت محمداً لفقدت اللات مكانتها ، ولقامت بينها وبين قريش خصومة تترك لا ريب أثرها الاقتصادى فى موسم الاصطياف . وكذلك كانت لكل قبيلة علة محلية اقتصادية كانت أقوى أثراً فى إعراضها عن الإسلام من تعلقها بدينها ودين آبائها وبعبادة أصنامها .

محمد يخطب عائشة

زاد عناد هذه القبائل محمداً عزلة ، كما زاده إمعان قريش فى أذى أصحابه ألماً وهمًّا . وانقضى زمن الحداد على خديجة ، ففكر فى أن يتزوّج ؛ لعلّه يجد فى زوجه من العزاء ما كانت خديجة تأسو به جراحه . على أنه رأى أن يزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلى الإسلام متانة وقُرْبى ؛ فخطب إلى أبى بكر ابنته عائشة . ولمَّا كانت لا تزال طفلة فى السابعة من عمرها عقد عليها ولم يَبْنِ بها إلا بعد سنتين حين بلغت التاسعة . وفى هذه الأثناء تزوّج من سَوْدَةَ أرملة أحد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا إلى مكة وماتوا بها . وأحسب القارئ يلمَح ما فى هاتين الصلتين من معنى يزداد وضوحاً من بعدُ فى صلات زواج محمد ومصاهرته .

ويتزوج من سودة

الإسراء سنة (٦٢١ م)

فى هذه الفترة كان الإسراء والمعراج . وكان محمد ليلة الإسراء فى بيت ابنة عمه هند ابنة أبى طالب ، وكنيتها أم هانئ . وقد كانت هند تقول : « إنّ رسول الله نام عندى تلك الليلة فى بيتى فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا . فلما كان قبيل الفجر أهبّنا رسول الله ؛ فلما صلَّى الصبح وصلينا معه قال : يا أمَّ هانئ لقد صلّيْتُ معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئتُ

بَيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغَداة معكم الآن كما تَرَيْن فقلت له : يانبيّ الله لا تحدّث به الناس فيكذّبوك ويُؤذوك . قال : والله لأحَدّثنّهمُوه » .

الإسراء بالروح أم بالجسد

يستند الذين يقولون بأنَّ الإسراء والمعراج إنما كانا بروح محمد عليه السلام إلى حديث أم هانئ هذا ، وإلى ما كانت تقوله عائشة : ما فُقدَ جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه . وكان معاوية بن أبى سفيان إذا سئل عن مسرى الرسول قال : كانت رؤيا من الله صادقةً . وهم يستشهدون إلى جانب ذلك كله بقوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلناسِ) [1]

وفى رأى آخرين أن الإسراء من مكة إلى بيت المقدس كان بالجسد ، مستدلّين على ذلك بما ذكر محمد أنه شاهد فى البادية أثناء مسراه مما سيأتى خبره ، وأن المعراج إلى السماء كان بالروح . ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أن الإسراء والمعراج كانا جميعاً بالجسد . وقد كثرت مناقشات المتكلمين فى هذا الخلاف حتى كتبت فيه ألوف الصحف . ولنا فى حكمة الإسراء رأى نُبديه . ولسنا ندرى أسُبِقْنَا إليه أم لم نُسْبَق . لكنا قبل أن نبدى هذا الرأى ، بل لكى نبديه ، يجب أن نروى قصة الإسراء والمعراج على نحو ما جاءت به كتب السيرة .

تصوير الإسراء فى كتب السيرة

سرد المستشرق دِرْمَنْجم هذه القصة مستخلَصة من مختلف كتب السيرة فى عبارة طلية رائعة ، هذه ترجمتها : « فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله ، وصمتت فيه طيور الليل وسكتت الضوارى ، وانقطع خرير الغدران وصفير الرياح ، استيقظ محمد على صوت يصيح به : أيها النائم قم . وقام فإذا أمامه الملك جبريل وضَّاء الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج مُرْسَلا شعره الأشقر ، واقفاً فى ثيابه المزركشة بالدرّ والذهب ، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعَش ، وفى يده دابة عجيبة هى البُراق ، ولها أجنحة كأجنحة النَّسر انحنت

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٠ .

أمام الرسول ، فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة صوب الشمال . وصَحبه الملك فى هذه الرحلة ، ثم وقف به عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى ، ثم وقف به مرة أخرى فى بيت لَحْم حيث وُلد عيسى ، وانطلق بعد ذلك فى الهواء فى حين حاولت أصوات خفية أن تستوقف النبى الذى رأى فى إخلاصه لرسالته أن ليس لغير الله أن يستوقف حيث شاء دابته . وبلغ بيت المقدس ، فقيَّد محمد دابته وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى . ثم أتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليه صعد محمد سراعاً إلى السموات ، وكانت السماء الأولى من فضة خالصة علقت إليها النجوم بسلاسل من ذهب ، وقد قام على كل منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين إلى عَلْو عليها أو يستمع الجن منها إلى أسرار السماء . فى هذه السماء ألقى محمد التحية على آدم ، وفيها كانت صور الخلق جميعاً تسبح بحمد ربها . ولقى محمد فى السموات الست الأخرى نوحاً وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى . ورأى فيها ملك الموت عزرائيل ، بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم ، ومن سلطانه أن كان تحت إمرته مائة ألف فرقة ، وكان يسجل فى كتاب ضخم أسماء من يُولَدون ومن يموتون . ورأى ملك الدمع يبكى من خطايا الناس ، وملك النقمة ذا الوجه النحاسى المتصرف فى عنصر النار والجالس على عرش من لهب . وقد رأى كذلك ملكاً ضخماً نصفُه من نار ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تفتُر عن ذكر الله قائلة : اللهم قد جَمعت الثلج والنار ، وجمعت كل عبادك فى طاعة سنتك . وكان فى السماء السابعة مقرّ أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها ، له سبعون ألف رأس ، فى كل رأس سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان ، يتكلم كل لسان سبعين ألف لغة ، من كل لغة سبعين ألف لهجة ، وكلها تسبح بحمد الله وتقدّس له .

« وبينما هو يتأمل هذا الخَلْق الغريب إذا به ارتفع إلى قمَّة سدْرة المُنْتهى ، تقوم إلى يمين العرش وتُظلّ ملايين الملايين من الأرواح الملائكية . وبعد أن تخطى فى أقل من لمح البصر بحاراً شاسعة ومناطق ضياء يُعشى وظلمة قاتمة

وملايين الحجب من ظلمات ونار وماء وهواء وفضاء ، يفصل بين كل واحد منها وما بعده مسيرة خمسمائة عام ، تخطَّى حُجُب الجمال والكمال والسر والجلال والوحدة ، قامت وراءها سبعون ألف فرقة من الملائكة سُجَّداً لا يتحركون ولا يؤْذَن لهم فينطقون . ثم أحسّ بنفسه يرتفع إلى حيث المولى جلّ شأنه ، فأخذه الدَّهَش وإذا الأرض والسماء مجتمعتان لا يكاد يراهما ، وكأنما ابتلعهما الفناء فلم يبق منهما إلا حجم سمسمة فى مزرعة واسعة . وكذلك يجب أن يكون الإنسان فى حضرة مَلك العالم .

« ثم كان فى حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى ، يشهد الله بعين بصيرته ، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان . ومدّ العلىّ العظيم يداً على صدر محمد والأخرى على كتفه ، فأحسّ النبىُّ كأنه أثْلج إلى فَقَاره ، ثم بسكينة راضية وفناء فى الله مستطاب .

« وبعد حديث لم تحترم كتب الأثر المدققة قدسيته أمرَ الله عبدَه أن يصلى كل مسلم خمسين صلاة فى كل يوم . فلما عاد محمد يهبط السماء لقِى موسى ؛ فقال ابن عمران له :

« كيف ترجو أن يقوم أتباعُك بخمسين صلاةً فى كل يوم ؟! لقد بلوت الناس قبلك ، وحاولت مع بنى إسرائيل كل ما يدخل فى الطوق محاولته ؛ فصدّقنى وعُدْ إلى ربنا واطلب إليه أن ينقص الصلوات .

« وعاد محمد فنقص عددَ الصلوات إلى أربعين وجدها موسى فوق الطاقة ، وجعل يردُّ خليفته فى النبوّة إلى الله مرَّات عدّة حتى انتهت الصلوات إلى خمس .

« وذهب جبريل بالنبى فزار الجنَّة التى أعِدّت للمتقين بعد البعث . ثم عاد محمد على المعراج إلى الأرض ، ففكَّ البُراق وامتطاه وعاد من بيت المقدس إلى مكة على الدابة المجنَّحة » .

رواية ابن هشام عن الإسراء

هذه رواية المستشرق درمنجم عن قصة الإسراء والمعراج . وأنت تقع على ما قصّه منثوراً فى كثير من كتب السيرة ، وإن كنت تجد فيها جميعاً خلافاً بزيادة أو نقص فى بعض نواحيها . من ذلك مثلا ما روى ابن هشام على لسان

النبيّ عليه السلام بعد أن لقى آدم فى السماء الأولى أنه قال : « ثم رأيتُ رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار [١] ، يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم . فقلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة مال اليتامى ظلماً ، ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أرَ مثلها قطّ بسبيل آلِ فرعون يمرّون عليهم كالإبل المَهْيُومة [٢] حين يُعْرَضون على النار يطئونهم لايقدرون على أن يتحولوا عن مكانهم ذلك . قلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أَكَلَة الرّبا . ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحمٌ سمينٌ طيب إلى جانبه غثّ مُنْتن ، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيّب . قلت مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟قال هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله من النساء ويذهبون إلى ما حرَّم الله عليهم منهن . ثم رأيت نساء معلَّقات بثُدِيِّهن ، فقلت مَنْ هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم . . . ثم دخل بى الجنة فرأيت فيها جارية لَعْساء ، فسألتها لمن أنت ؟ – وقد أعجبتنى حين رأيتها – فقالت : لزيد بن حارثة . فبشَّر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة » .

وأنت واجد فى غير ابن هشام من كتب السيرة وفى كتب التفسير أموراً أخرى غير هذه . ومن حق المؤرخ أن يسائل عن مبلغ التدقيق والتمحيص فى أمر ذلك كله ، وما يمكن أن يُسند منه إلى النبيّ بسند صحيح ؛ وما يمكن أن يكون من خيال المتصوّفة وغيرهم . وإذا لم يكن المجال ها هنا متسعاً للحكم فى ذلك أو لاستقصائه ، وإذا لم يكن ها هنا مجال القول فى المعراج أو الإسراء أكانا بالجسم ، أم كان المعراج بالروح والإسراء بالجسم ، أم كان المعراج والإسراء جميعاً بالروح ، فما لا شك فيه أن لكل رأى من هذه الآراء سنداً عند المتكلمين ، وأنه لا جناح على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء . فمن شاء أن يرى أن الإسراء والمعراج كانا بالروح فله من السند ما قدّمنا وما تكرر فى القرآن وعلى لسان الرسول : ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ

---

(١) الأفهار . جمع فهر (بكسر فسكون) وهو من الأحجار بما يملأ الكف .

(٢) المهيومة التى بها هيام ، وهو داء يأخذ الإبل فى رءوسها مثل الجنون .

إِلٰهٌ وَاحِدٌ) [١] ، وأن كتاب الله هو وحده معجزة محمد ، و (إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) [٢] .

ولصاحب هذا الرأى أكثر من غيره أن يسأل عن حكمة الإسراء والمعراج ما هى ؟ وهنا موضع الرأى الذى نريد أن نبديه ولا ندرى أسُبِقْنا إليه أم لم نُسْبَق .

الإسراء ووحدة الوجود

فى الإسراء والمعراج فى حياة محمد الرّوحيَّة معنى سام غاية السمو . معنى أكبر من هذا الذى يصوّرون ، والذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمة الخصب حظٌّ غير قليل . فهذا الروح القوىّ قد اجتمعت فيه فى ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها. لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبيًّا محدوداً بحدود قُوانا المُحِسَّة والمدبِّرة ، والعاقلة . تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ، واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله إلى أبده ، وصوره فى تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق فى مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة .

وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية . فإذا جاء بعد ذلك ممن اتَّبعوا محمداً من عجز عن متابعته فى سمو فكرته وقوة إحاطته بوحدة الكون فى كماله وفى جهاده لبلوغ هذا الكمال ؛ فلا عجب فى ذلك ولا عيب فيه . والممتازون من الناس والموهوبون منهم درجات . وبلوغُنا الحقيقةَ معرَّض دائماً لهذه الحدود التى تعجز قُوانا عن تخطيها . وإذا كان من القياس مع الفارق أن نذكر ، لمناسبة ما نحن الآن بصدده ، قصة أولئك المكفوفين الذين أرادوا أن يعرّفوا الفيل ما هو ، فقال أحدهم : إنه حبل طويل لأنه صادف ذنبه ، وقال الآخر : إنه غليظ كالشجرة لأنه صادف رجله ، وقال ثالث : إنه مدبب كالرمح لأنه صادف سنَّه ، وقال رابع : إنه مستدير مُلْتَو

---

(١) سورة الكهف آية ١١٠ . (٢) سورة النساء آية ٤٨ .

كثير الحركة لأنه صادف خرطومه – فإن هذا المثل ، مقروناً إلى الصورة التى تتكون لدى المبصر من الفيل لأول ما يراه ، يسمح لنا بالموازنة بين إدراك محمد كنهَ وحدة الكون والوجود وتصويره فى الإسراء والمعراج حيث يتصل بأول الزمن من قبل آدم إلى آخره يوم البعث ، وحيث تنعدم نهائية المكان ، إذ يُطِل بعين البصيرة من لدن سِدْرة المنتَهى إلى هذا الكون يصبح أمامه سديماً ، وبين ما يستطيع الكثيرون إدراكه من حكمة هذا الإسراء والمعراج ؛ إذ يقفون عند تفاصيل ليست من وحدة الكون وحياته إلا كذرات الجسم ، بل كالذرَّات العالقة به من غير أن يتأثر بها نظامه . أين الواحدة من هذه الذرات من حياة هذا الجسم ومن نبض قلبه وإشراق روحه وضياء ذهنه وامتلائه بالحياة التى لا تعرف حدًّا ، لأنها تتصل من الوجود بكل حياة الوجود ؟

والإسراء بالروح هو فى معناه كالإسراء والمعراج بالروح جميعاً سموًّا وجمالاً وجلالاً . فهو تصوير قوىٌّ للوحدة الروحية من أزل الوجود إلى أبده . فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلم الله موسى تكليماً ، وعلى بيت لَحْم حيث وُلد عيسى ، وهذا الاجتماع الروحىُّ ضمَّت الصلاة فيه محمداً وعيسى وموسى وإبراهيم ، مظهر قوىٌّ لوحدة الحياة الدينية على أنها من قوام وحدة الكون فى مَوْره الدائم إلى الكمال .

الإسراء والعلم الحديث

والعلم فى عصرنا الحاضر يُقِرُّ هذا الإسراء بالرُّوح ، ويُقِرُّ المعراج بالروح ؛ فحيث تتقابل القوى السليمة يشعّ ضياء الحقيقة ؛ كما أن تقابل قوى الكون فى صورة معيَّنة قد طوَّع « لماركونى » ؛ إذ سلَّط تياراً كهربيًّا خاصًّا من سفينته التى كانت راسية بالبندقية ، أن يضىء بقوة الأثير مدينة سِدْنى فى أسترّاليا . وفى عصرنا هذا يُقِرُّ العلم نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوى عليه ، كما يُقِرُّ انتقال الأصوات على الأثير بالراديو ، وانتقال الصور والمكتوبات كذلك ، مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال . وما تزال القوى الكمينة فى الكون تتكشَّف لعلمنا كل يوم عن جديد . فإذا بلغ روح من القوّة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد ، فأسرى به الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله لِيُرِيَهُ من آياته ، كان ذلك مما يُقِرُّ العلم ، وكانت حكمة

ذلك هذه المعانى القوية السامية فى جمالها وجلالها ، والتى تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون فى نفس محمد تصويراً صريحاً ، يستطيع الإنسان أن يصل إلى إدراكه إذا هو حاول السموَّ بنفسه عن أوهام العاجلة فى الحياة ، وحاول الوصول إلى كنه الحقيقة ليعرف مكانه ومكان العالم كله منها .

ريبة قريش وارتداد بعض من أسلم

لم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا إدراك هذه المعانى ؛ لذلك ما لبثوا حين حدثهم محمد بأمر إسرائه أن وقفوا عند الصور المادية من أمر هذا الإسراء وإمكانه أو عدم إمكانه ، ثم ساور أتباعه والذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله . وقال كثيرون : هذا والله الأمر البين. والله إنَّ العِير لتَطَّرِد[1] شهراً من مكة إلى الشام مدبرةً وشهراً مقبلةً ، أيذهب محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! وارتدّ كثير ممَّن أسلم . وذهب من أخذتهم الريبة فى الأمر إلى أبى بكر وحدّثوه حديث محمد ؛ فقال أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . قالوا : بلى ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث الناس . قال أبو بكر : والله لئن كان قد قاله لقد صَدق ، إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . وجاء أبو بكر إلى النبىّ واستمع إليه يصف بيتَ المقدس ، وكان أبو بكر قد جاءه ، فلما أتم النبىّ صفة المسجد قال له أبو بكر : صدقت يا رسول الله . ومن يومئذ دعا محمد أبا بكر بالصديق .

القول بالإسراء بالجسد

ويدلِّل الذين يقولون إن الإسراء بالجسد على رأيهم بأن قريشاً لمَّا سمعت بأمر إسرائه سألته وسأله الذين آمنوا به عن آية ذلك ، فإنهم لم يسمعوا بشىء من مثله ؛ فوصف لهم عيراً مرّ بها فى الطريق ، فضلَّت دابَّة من العِير فدلَّهم عليها ، وأنه شرب من عِير أخرى وغطى الإناء بعد أن شرب منه ، فسألت قريش فى ذلك فصدَّقت العيران ما روى محمد عنهما . وأحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح فى هذا لما رأوا فيه عجباً بعد الذى عرف العلم فى وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسى للتحدُّث عن أشياء واقعة فى جهات نائيه . ما بالك بروح يجمع الحياة الروحية فى الكون كله ويستطيع بما حباه الله من قوة أن يتَّصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده ؟

---

(١) أى تتابع سيرها من غير انقطاع

الفصل التاسع

بيعتا العقبة

رد القبائل لمحمد ردا غير جميل – بشائر الفوز من ناحية يثرب – صلات اليهود بالأوس والخزرج – إسلام بعض اليثربيين – وقعة بعاث – بيعة العقبة الصغرى – مصعب بن عمير – عوده مع الحاج إلى مكة بعد عام – المسلمون من يثرب – بيعة العقبة الكبرى – أنباؤها عند قريش – ائتمار قريش بمحمد كي تقتله – إذن محمد لمسلمي مكة فى الهجرة إلى يثرب .

تضعضع المسلمين بعد الإسراء

لم تدرك قريش معنى الإسراء ، ولم يدرك كثير ممن أسلموا معناه الذى قدَّمنا ، لذلك انصرف جماعة من هؤلاء عن متابعة محمد بعد أن اتبعوه زمناً طويلا . ولذلك ازدادت مساءات قريش لمحمد وللمسلمين حتى ضاقوا بها ذرعاً . ولم يبق لمحمد رجاء فى نصرة القبائل إيَّاه بعد إذ ردَّته ثقيف من الطائف بشرِّ جواب ، وبعد إذ ردَّته كِنْدة وكَلْبٌ وبنو عامر وبنو حَنِيفة لمَّا عرض نفسه عليهم فى موسم الحج . وشعر محمد بعد ذلك كله بأنه لم يبق له مطمع فى أن يهدى إلى الحق من قريش أحداً . ورأت غير قريش ، من القبائل التى تجاور مكة والتى تجىء من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجَّة إليها ، ما صار إليه من عزلة ، وما أحاطته به قريش من عداوة تجعل كل نصير له عدوًّا لها وعوناً عليها ، فازدادت إعراضاً عنه . ومع اعتزاز محمد بحمزة وعمر ، ومع طمأنينته إلى أن قريشاً لن تنال منه أكثر مما نالت لمنعته بقومه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لقد رأى رسالة ربه تقف فى دائرة من اتبعه إلى يومئذ ممن يوشكون لقلتهم ولضعفهم أن يَبِيدوا أو أن يُفْتَنوا عن دينهم إذا لم يأتِهم نصر الله والفتح . وتطاولت الأيام بمحمد وهو يزداد بين قومه عزلة وقريش تزداد عليه حقداً . فهل ضعضعت هذه العزلة من نفسه أو أوهنت له عزماً ؟ !

ثبات محمد

كلا ! بل زاده الإيمان بالحق الذى جاءه من ربه سموًّا على هذه الاعتبارات التى تَفُتُّ فى عضد ذوى النفوس العادية ، ولا تزيد أصحاب النفوس الممتازة

إلا سموًّا وإيماناً . وظلّ محمد ، وأصحابه من حوله ، أشدَّ ما يكون فى عزلته ثقةً بنصر الله له وإعلاء دينه على الدين كله . لم تُزعزع منه أعاصير الحقد ، بل جعل يقيم بمكة طَوالَ عامه لا يَعنيه أن ذهب مال خديجة وماله ، ولا يضعضع من نفسه ضيق ذات يده ، ولا يتطلّع بروحه إلى شىء غير هذا النصر الذى لا ريب عنده فى أن الله مؤتيه إياه . فإذا جاء موسم الحج واجتمع الناس من أنحاء شبه الجزيرة بمكة ، بادأ القبائلَ فدعاها إلى الحق الذى جاء به ، غير آبه أن تُبْدِى هذه القبائل الرغبة عن دعوته والإعراض عنه ، أو تردَّه ردًّا غير جميل . ويتحرَّش به بعض سفهاء قريش حين إبلاغه الناس رسالة ربه وينالونه بالسوء ، فلا تغير مساءاتهم رضا نفسه وطمأنينتها إلى غده . إن الله ذا الجلال قد بعثه بالحق ، فهو لا ريب ناصر هذا الحق ومؤيده . وهو قد أوحى إليه أن يجادل الناس بالتى هى أَحسن ، ﴿ فإذا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَه عَدَاوَةٌ كأَنه وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[1] ، وأن يقول لهم قولا لَيناً لعلهم يَذكرون أو يَخْشَون . فليصبر على أذاهم ، إن الله مع الصابرين .

تباشير الفوز من يثرب

ولم يطل بمحمد الانتظار أكثر من بضع سنين حتى بدت له فى الأفق تباشير الفوز آتية طلائعُها من ناحية يَثْرِب . ولمحمد بيثرب علاقة غير علاقة التجارة ؛ له بها علاقة قُربى ، وله فيها قبر كانت أمّه تحج إليه قبل موتها فى كل عام مرّة . أمَّا ذوو قرباه فأولئك بنو النَّجَّار أخوال جده عبد المطلب . وأما ذلك القبر فقبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب . إلى هذا القبر كانت تحج آمنة الزوج الوفية ، وكان يحج عبد المطلب الأب الذى فقد ابنه وهو فى شَرْخ شبابه وريعان قوّته . وقد صحب محمد أمَّه إلى يثرب فى السادسة من عمره ، فزار معها قبر أبيه ثم قفلا عائدين ، فمرضت آمنة فى الطريق وماتت ودُفِنَت بالأَبْواء فى منتصف الطريق بين يثرب ومكة . فلا عجب أن تبدأ تباشير الفوز لمحمد من ناحية بلد له به هذه الصلة وإلى ناحيته كان يتجه حين يصلى جاعلاً قبلَته المسجد الأقصى ببيت المقدس ، مقام سَلفيه موسى وعيسى ،

---

(١) سورة فصلت آية ٣٤ .

ولا عجب أن تهيِّء المقادير ليثرب هذا الحظ ليتم لمحمد بها النصر ، وللإسلام بها الفوز والانتشار .

الأوس والخزرج واليهود

هيأت المقادير ليثرب هذا الحظ بما لم تهيئه لبلد آخر . فقد كان الأوس والخزرج من عباد الأوثان بيثرب يجاورون يهودها جواراً كثيراً ما شابته البغضاء وما تعدى البغضاء إلى القتال . وإن التاريخ ليروى أن المسيحيين فى الشام ، ممن كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقية ، وكانوا يمقتون اليهود أشد المقت لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونكلوا به ، قد أغاروا على يثرب ليقتلوا يهودها . فلما لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج على استدراجهم ، ثم قتلوا عدداً منهم غير قليل . وأنزل ذلك اليهود عن مكان السيادة الذى كان لهم ، ورفع عربَ الأوس والخزرج إلى مكانة غير مكانة العمال التى كانوا مقصورين من قبلُ عليها . وقد حاول العرب بعد ذلك أن يُوقعوا باليهود مرة أخرى ليزدادوا فى المدينة العامرة بالزراعة والماء سلطاناً ، فنجحوا فى كيدهم بعض النجاح ، ثم فطن اليهود لوقيعتهم بهم . بذلك تمكنت العداوة والبغضاء فى نفوس يهود يثرب لأوسها وخزرجها ، وفى نفوس الأوس والخزرج لليهود . ورأى أتباع موسى أن مقابلة القتال بالقتال قد تهوى بهم إلى الفناء إذا وجد الأوس والخزرج حلْفا من بنى دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء ، فسلكوا فى سياستهم خُطة غير خطة الغَلَبِ فى المعارك . لجئوا إلى سياسة الوقيعة والتفريق ، بأن دسوا بين الأوس والخزرج وأغروا بينهم بالعداوة والبغضاء حتى جعلوا كل فريق على أهبة مستمرة للقتل والقتال . بذلك أمن اليهود عدوانهم ، وجعلوا يزيدون فى تجارتهم وفى ثروتهم ويستعيدون ما فقدوا من سيادة ، ويستردون ما أضاعوا من دار ومن عقار .

الأثر الروحى لجوار اليهود

كان لجوار اليهود والعرب بيثرب ، فيما خلا هذا النزاع على السيادة والسلطان أثر آخر أعمق عند الأوس والخزرج مما كان عند سائر أهل جزيرة العرب ؛ ذلك هو الأثر الروحى . فقد كان اليهود ، وهم أهل كتاب ودعاة وحدانية ، يعيبون على جيرانهم الوثنيين اتخاذَهم الأوثان زُلْفَى إلى الله ، ويُنذرونهم بعث نبى يقضى عليهم ويشايع اليهود . ولم تصل هذه الدعوة إلى تهويد العرب لسببين :

أحدهما أن ما كان بين النصرانية واليهودية من حرب جعل يهود يثرب لا يطمعون فى أكثر من السلامة التى تهيئ لهم سعة التجارة . والآخر أن اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار ، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة ، وهم لذلك لا يدعون لدينهم ولا يرضونه يخرج من بنى إسرائيل . وعلى الرغم من قيام هذين السببين هيأ اتصال الجوار والتجارة ، بين اليهود والعرب أَوْسَ يثرب وخَزْرجَها ليكونوا أكثر استماعاً للحديث فى الشئون الروحية وفى سائر شئون الدين من غيرهم من العرب . يدلك على ذلك أن العرب لم تستجب لدعوة محمد الروحية مثلما استجاب أهل يثرب .

سويد بن الصامت

كان سُوَيْد بن الصَّامت من كبار أشراف يثرب ، حتى كان قومه يسمونه الكامل ، لجلده وشِعْره وشَرَفه ونسبِه . وفى هذه الفترة التى نتحدث عنها قدِم سُويد مكة حاجًّا ، فتصدى له محمد فدعاه إلى الله وإلى الإسلام . فقال له سُوَيد : لعل الذى معك مثل الذى معى ! قال محمد : وما الذى معك ؟ قال حِكْمة لُقمان . فطلب إليه محمد أن يعرضها عليه فعرضها ؛ فقال له محمد : إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل ؛ هو قرآن أنزله الله علىَّ هدى ونوراً . وتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام . فطاب سويد نفساً بما سمع وقال : هذا حسن . وانصرف يفكر فيه . وإنَّ قوماً ليقولون حين قتلته الخزرج : إنه مات مسلماً .

وليس سُوْيد بن الصامت هو المثل الوحيد الذى يدل على أثر تجاور اليهود والعرب بيثرب من الناحية الروحية . فقد كان بين الأوس والخزرج من العداوة التى بثَّ اليهودُ ما علمتَ ، وكان كل منهم يلتمس الحِلْف من قبائل العرب ليقاتل الآخر . وكان من ذلك أن قدِم أبو الحَيْسر أنسُ بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن مُعَاذ يلتمسون الحِلْفَ من قريش على قومهم من الخزرج . وسمع بهم محمد ، فأتاهم فجلس إليهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حَدَثاً : أى قومِ ! هذا والله خير مما جئتم فيه . وعاد القوم إلى يثرب لم يُسلم منهم غير إياس ، لأنهم كانوا فى شغل بالتماس الحلف استعداداً لوقعة بُعَاث التى اصطلى

إياس بن معاذ

الأوس والخزرج جميعاً بنارها بعد قليل من عود أبى الحيْسَر ومن معه إلى مكة . لكن كلام محمد عليه السلام ترك فى نفوسهم بعد هذه الوقعة من الأثر ما دعا الأوس والخزرج جميعاً ليلتمسوا فى محمد نبيًّا ورسولا وحليفاً وإماماً .

وقعة بعاث

كانت وقعة بُعَاث بعد قليل من عود أبى الْحيسَر ومن معه إلى يثرب ، واقتتل فيها الأوس والخزرج قتالا شديداً أملته عداوة متأصّلة ، حتى لكان كل قوم يتساءلون إذا هم انتصروا : أيُبقون على أصحابهم ، أم يستأصلونهم ويجهزون عليهم . وكان أبو أسَيْد حُضَيْر الكتائب على رأس الأوس ، وكان فى نفسه من الحقد على الخزرج أشدّه . فلما بدأ القتال دارت على الأوس الدائرة ، فولَّوْا فراراً نحو نجد ، فعيَّرتهم الخزرج . فلما سمع حُضَير تعييرهم طعن بسنان رمحه فخذَه ونزل وصاح : وَاعَقْراه ! والله لا أريم حتى أقتل ! فإن شئتم يا معشر الأوس أن تُسلمونى فافعلوا . فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم مما أصابهم ما جعلهم يستبسلون مستيئسين ، فيهزمون الخزرج شرّ هزيمة . وجعلت الأوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها ، حتى أجارها سَعْدُ بنَ مُعَاذ الأشْهلَى . وأراد حُضَير أن يأتى الخزرج قصراً قصراً ، وداراً داراً ، يقتل ويهدم لا يُبقى منهم أحدًا ، لولا أن منعه أبو قيس بن الأسْلَت إبقاءً على بنى دينهم ؛ « فجوارهم خير من جوار الثعالب » .

واستعادت اليهود بعد هذا اليوم مكانتها بيَثرب . ورأى المنتصر والمهزوم من الأوس والخزرج جميعاً سوء ما صنعوا ، وفكروا فى عاقبة أمرهم ، وتطلعوا إلى إقامة ملك عليهم . واختاروا لذلك عبد الله بن محمد من الخزرج المهزومة لمكانته وحسن رأيه . لكن تطوُّر الأحوال تطوُّراً سريعاً حال دون ما أرادوا . ذلك أن نفراً من الخزرج خرجوا إلى مكة فى موسم الحج ، فلقيهم محمد

بدء الإسلام بيثرب

فسألهم عن شأنهم وعرف أنهم من موالى يهود . وقد كان اليهود بيثرب يقولون لهم إذا اختلفوا وإياهم : إن نبيًّا مبعوثاً الآن قد أطل زمانُه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَمَ . فلما كلم النبىُّ أولئك النفر ودعاهم إلى الله ، نظر بعضهم إلى بعض وقالوا : والله إنه للنبى الذى تواعدكم به يهود ، فلا يسبِقُنّكم إليه . وأجابوا محمداً إلى دعوته وأسلموا ، وقالوا له : « إنَّا قد تركنا قومنا — أى الأوس

والخزرج – ولاقوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم ، فعسى أن يَجمَعَهُم الله بك . وإن يجمَعْهم عليك فلا رجل أعز منك » . وعاد هؤلاء النفر إلى المدينة ، ومن بينهم اثنان من بنى النجار أخوال عبد المطلب جد محمد الذى كفله منذ مولده ، فذكروا لقومهم إسلامهم ، فألفوا قلوباً منشرحة ونفوساً متلهفة لدين يجعلهم موحدين كاليهود ، بل يجعلهم خيراً منهم ، فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج جميعاً إلا فيها ذكر محمد عليه السلام .

العقبة الأولى

فلما استدار العام وعادت الأشهر الحرم وجاء موعد الحج لمكة ، أتى الموسم اثنا عشر رجلا من أهل يثرب فالتقوا هم والنبى بالعقبة ، فبايعوه بيعة العقبة الأولى . بايعوه على ألا يُشْرِك أحدهم بالله شيئاً ، ولا يسرق ولا يزنى ، ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ولا رجليه ولا يعصيَه فى معروف ، فإن وَفى ذلك فله الجنة ، وإن غَشِيَ من ذلك شيئاً فأمره إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر . وأنفذ محمد معهم مُصْعب بن عُمَير يُقْرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين . ازداد الإسلام بعد هذه البيعة بيثرب انتشاراً .

مصعب بن عمير

وأقام مصعب بين المسلمين من الأوس والخزرج يعلمهم دينهم ، ويرى مغتبطاً ازدياد الأنصار لأمر الله ولكلمة الحق . فلما آذنت الأشهر الحرم أن تعود ، لَحِق بمكة وقصَّ على محمد خبر المسلمين بالمدينة ، وما هم عليه من مَنَعة وقوة ، وأنهم سيجيئون إلى مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عدداً وأعظم بالله إيماناً .

دعت أخبار مصعب محمداً أن يفكر فى الأمر طويلا . ها هم أولاء أتباعه بيثرب يزدادون كل يوم عدداً وسلطاناً ، ولا يجدون من أذى اليهود ولا من أذى المشركين ما يجد زملاؤهم بمكة من أذى قريش . وها هى ذى يثرب بها من الرخاء أكثر مما بمكة ، بها زرع ونخيل وأعناب . أوَليس من الخير أن يهاجر المسلمون المكيون إلى إخوانهم هناك ليجدوا عندهم أمناً ، وليسلموا من فتنة قريش إياهم عن دينهم ! وذَكَر محمد أثناء تفكيره أولئك النَّفر من يثرب الذين كانوا أول من أسلم ، والذين ذكروا ما بين الأوس والخزرج من عداوة ، أنهم إذا جمعهم الله به فلا رجل أعزّ منه . أوَليس من الخير ، وقد جمعهم

الله به ، أن يهاجر هو أيضاً ! إنه لا يحبّ أن يردّ على قريش مساءاتها وهو يعلم أنه أضعف منها ، وأن بنى هاشم وبنى المطلب إن منعوه من الاعتداء عليه فلن ينصروه معتدياً ، ولن يمنعوا الذين اتَّبعوه من اعتداء قريش عليهم ومن إصابتها إياهم بأنواع المساءة . وإذا كان الإيمان أقوى سند يجعلنا نستهين بكل شيء ونضحى عن طيب خاطر فى سبيله بالمال والراحة والحرية والحياة ، وإذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الإيمان استعاراً ، فإن فى استمرار الأذى والتضحية ما يشغل المؤمن عن دقة التأمل التى تزيد فى أفق المؤمن سعة ، وفى إدراكه للحق قوَّة وعمقاً . وقد أمر محمد الذين اتَّبعوه من قبلُ أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية أن كانت بلاد صدق ، وكان بها ملك لا يُظْلَمُ عنده أحد ؛ فأولى بالمسلمين أن يهاجروا إلى يثرب وأن يتقوَّوْا بأصحابهم المسلمين فيها ، وأن يتآزروا بذلك على دفع ما يمكن أن يصيبهم من شرّ ؛ ليكون لهم بذلك من الحريَّة فى تأمل دينهم والجهر به ما يكفل إعلاء كلمته ، كما يكفل نجاح الدعوة إليه ؛ دعوة لا تعرف الإكراه ، بل أساسها الرفق والإقناع والمجادلة بالتى هى أحسن .

تفكير محمد فى الهجرة

وكان الحاجُّ من يثرب فى هذه السنة — سنة ٦٢٢ ميلادية — كثيرين بالفعل وكان من بينهم خمسة وسبعون مسلماً ، منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان . فلما عرف محمد مَقْدَمَهم ، فكَّر فى بيعة ثانية لا تقف عند الدعوة إلى الإسلا على نحو ما ظلَّ هو يدعو إليه ثلاث عشرة سنة متتابعة فى رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعاً ، بل تمتدُّ إلى ما وراء ذلك ، وتكون حِلفاً يدفع به هؤلاء المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان . واتَّصل محمد سرًّا بزعمائهم وعرف حسن استعدادهم ، فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة جَوْفَ الليل فى أوسط أيَّام التَّشْريق . وكتم مسلمو يثرب مَنْ معهم من المشركين أسرهم ، وانتظروا حتى إذا مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبىّ خرجوا من رِحالهم يَتَسللون تسلل القَطَا مُسْتَخْفِين حَذَرَ أن ينكشف سرُّهم . فلما كانوا عند العقبة تسلَّقوا الشعْبَ جميعاً وتسلقت المرأتان معهم ، وأقاموا ينتظرون مَقْدَم صاحب الرسالة .

بيعة العقبة الثانية أو الكبرى

وأقبل محمد ومعه عمه العبَّاس بن عبد المطلب ، وكان ما يزال على دين قومه ، لكنه عرف من قبلُ من ابن أخيه أن فى الأمر حِلْفاً ، وأن الأمر قد يجرُّ إلى حرب ، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بنى المطلب وبنى هاشم أن يمنعوا محمداً ، فليستوثِقْ لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثة يصلَى بنو هاشم وبنو المطلب نارها ، ثم لا يجدون من هؤلاء اليثربيين نصيراً . لذلك كان العباس أوَّل من تكلم فقال : يا معشر الخزرج ! إنّ محمداً منَّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عزّ من قومه ومَنَعة فى بلده . وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحمَّلتم من ذلك . وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه .

قال اليثربيون – وقد سمعوا كلام العباس :

– سمعنا ما قلتَ ، فتكلم يا رسول الله ، فخُذْ لنفسك ولربك ما أحببت .

فأجاب محمد بعد أن تلا القرآن ورغَّب فى الإسلام :

– أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

وكان البَرَاءُ بن مَعْرُورٍ سيد قومه وكبيرهم ، وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى وقام بكل ما يفرض الإسلام ، إلا أنه جعل قبلة صلاته الكعبة ، وكان محمد والمسلمون جميعاً يومئذ ما تزال قبلتهم المسجد الأقصى . ولما اختلف هو وقومه واحتكموا إلى النبىّ أول وصولهم إلى مكة ، رد محمد البَرَاء عن اتخاذ الكعبة قِبلته . فلما طلب محمد إلى مسلمى يثرب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، مد البراء يده على ذلك وقال :

الحوار قبل البيعة

– بايعنا يا رسول الله ! فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحَلْقة وَرِثناها كابراً عن كابر .

وقبل أن يتم البراء كلامه اعترض أبو الهَيْثم بن التَّيِّهان قائلا :

– يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال – أى اليهود – حبالا [١] ، نحن

---

(١) الحبال : العهود .

قاطعوها فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا ؟ ! فتبسم وقال :

– بل الدم الدم والهَدْم الهَدْمَ[١] أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وهمَّ القوم بالبيعة ، فاعترضهم العباس بن عُبَادة قائلا :

– يا معشر الخزرج ! أتعلمون عَلاَمَ تُبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهِكَت أموالكم مُصيبةً وأشرافكم قتلاً أسْلَمْتُموه فمن الآن فدعوه ؛ فهو والله إن فعلتم خِزْىُ الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجاب القوم : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ ورد عليهم محمد مطمئن النفس قائلا : الجنة .

مدُّوا إليه أيديَهم ، فبسط يده فبايعوه فلمَّا فرغوا من البيعة قال لهم النبي أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كُفَلاَء . فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فقال النبي لهؤلاء النقَبَاء : أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلاء ككفالة الحَوَارِيين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى . وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : بايَعنا على السمع والطاعة فى عُسْرِنا ويُسرنا ومَنْشَطنا ومَكْرَهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » .

البيعة

تم ذلك كله جَوْف الليل فى شِعب العقَبَة فِى عزلة من الناس والقوم على ثقة من أنه لا يطّلع عليهم إلا الله – لكنهم ما كادوا يُتمونه حتى سمعوا

(١) الهدم (بالسكون وبالتحريك) : إهدار دم القتيل . يريد إن طلب دمكم فقد طلب دمى وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمى ، لاستحكام الألفة بيننا . وهو قول معروف للعرب يقولون : دمى دمك وهدمى هدمك ؛ وذلك عند المعاهدة والنصرة .

صوتاً يصيح بقريش : إن محمداً والصّبَاءَ[1] معه قد اجتمعوا على حربكم . ذلك رجل خرج لبعض شأنه ، فعرف من أمر القوم قليلا اتصل بسمعه ، فأراد أن يُفسد عليهم تدبيرهم ، وأن يُدخل فى روعهم أن ما بيَّتوا بليل افتضح ، لكن الخزرج والأوس كانوا عند عهدهم ، حتى لقد قال العباس بن عُبَّادة لمحمد بعد أن سمع هذا المتجسِّس : « والله الذى بعثك بالحق إن شئت لَنَميلن على أهل مِنًى غداً بأسيافنا ! » فكان جواب محمد أن قال : « لم نُؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم » . فرجعوا إلى مضاجعهم وناموا حتى أيقظهم الصبح .

قريش وبيعة العقبة

على أن الصبح ما كاد يتنفس حتى علمت قريش بنبأ هذه البيعة فانزعجت . وغدت جِلتها على الخزرج فى منازلهم يُعاتبونهم ويقولون لهم : إنهم لا يريدون حربهم ، فما بالهم يحالفون محمداً على قتالهم ! وانبعث المشركون من الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء . أما المسلمون فاعتصموا بالصمت حين رأوا قريشاً مالت لتصديق شركائها فى الدين ، وعادت قريش لا تؤكد الخبر ولا تنفيه ، وأخذت تَتَنطسُ علها تقف على جليَّة الأمر فيه . واحتمل أهل يثرب رحالهم وعادوا قاصدين بلدهم قبل أن تثق قريش بشيء مما حصل . فلما عرفت أن الخبر حق ، وخرجت تطلب أهل يثرب ، فلم تلحَق منهم إلا بسعد بن عبادة ، فأخذوه وردُّوه إلى مكة وعذَّبوه حتى أجاره جُبَير بن مُطْعِم ابن عَدِىّ والحارث بن أمَيَّة ؛ لأنه كان يجير لهما من يخرجون فى تجارتهما إلى الشام حين مرورهم بيثرب .

لم تُبالغ قريش قطّ فى فزعها ولا فى تتبعها الذين بايعوا محمداً على قتالها ؛ فقد عرفته ثلاث عشرة سنة متتابعة منذ بدء نبوَّته ، ووقفت من الجهود للحرب السلبيَّة التى أعلنت عليه ما جَهَدَها وجَهَده ، ونال منها ونال منه . عرفت ذلك القوىّ بالله المستمسك برسالة الحق لا يلين فيها ولا يُداجى ، ولا يخاف فيها أذى ولا مساءة ولا قتلا . وقد خُيل إلى قريش بعد أن أرهقته ومن معه بألوان الأذى ، وبعد أن حاصرته فى الشعب ؛ وبعد أن أدخلت على أنفس أهل

(١) جمع صابئ وهو الخارج على دين قومه وجماعته .

مكة جميعاً من الرّوع ما صدّهم عن اتباعه ، أنها توشك أن تظفر به ، وأن تحصر نشاطه فى الدائرة الضيقة من الأتباع الذين ظلوا على دينه ، وأنه ومن معه لا يلبثون إلا قليلا حتى تُضنيهم العزلة فيعودوا إلى حكمها طائعين . أمّا اليوم وإزاء هذا الحِلْف الجديد ، فقد انفتح أمام محمد والذين معه باب الرجاء فى الغلَب ، أو على الأقل باب الرجاء فى حرية الدعوة إلى عقيدتهم ، والطعن على الأصنام وعُبَّادها . ومن يدرى ما يكون أمر القوم من بعد ذلك فى شبه جزيرة العرب كلها وقد نصرتهم يَثْرِب بأوْسها وخَزْرَجها ، وقد جعلتهم بمأمن من العدوان ، وفسحت لهم حرية القيام بفرائض دينهم ودعوة غيرهم إلى الانضمام إليهم ! فإذا لم تقض قريش على هذه الحركة فى مهدها فالخوف من المستقبل لن يزال يساورها وفوز محمد عليها لن يزال يَقِضُّ مَضْجَعها .

دقة موقف الجانبين

لذلك أمعنت تفكر فيما تفعل لتحبط ما قام به محمد ، ولتقضى على هذه الحركة الجديدة . ولم يكن هو من ناحيته أقل من قريش تفكيراً ؛ إن هذا الباب الذى فتح الله أمامه هو باب العزّة لدين الله ، والسمو لكلمة الحق . فالمعركة الناشبة اليوم بينه وبين قريش هى أشدّ ما وقع منذ بعثه ، وهى معركة حياة أو موت بالنسبة له ولها ، والغَلَب لا ريب للصادقين . فليُجْمِع أمره ، وليستعن بالله وليكن لما تكيد قريش أشد ازدراء مما كان فى كل ما سلف ، وليُقْدِمَ ولكن فى حكمة وأناة ودقة ؛ فالموقف موقف حنكة السياسىّ والقائد الدقيق المداورة .

وأمر أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب ، على أن يتركوا مكة متفرّقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم . وبدأ المسلمون يهاجرون فُرَادَى أو نفراً قليلا . لكنّ قريشاً فطنت للأمر ، فحاولت أن ترد كلّ من استطاعت ردَّه إلى مكة لتَفتِنه عن دينه أو لتعذّبه وتُنكل به . وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه إذا كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه ، وأنها كانت تحبس من تستطيع حبسه ممن لم يُطِعْها . لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك ، حتى لا تكون حربٌ أهليَّة بين مختلف قبائلها إذا هى همَّت بقتل واحد من أهل هذه القبائل . وتتابعت هجرة المسلمين إلى يثرب ومحمد

هجرة المسلمين إلى يثرب

مقيم حيث هو ، لا يعرف أحد هل اعتزم الإقامة أم قرَّر الهجرة . وما كانوا ليعرفوا وقد أذِن لأصحابه فى الهجرة إلى الحبشة من قبل وظل هو بمكة يدعو سائر أهلها إلى الإسلام . وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه فى الهجرة إلى يثرب ؛ فقال له : لا تَعْجَل لعل الله يجعل لك صاحباً ، ولم يزد على ذلك .

قريش وهجرة النبى

على أنَّ قريشاً كانت تحسب لهجرة النبى إلى يثرب ألف حساب . لقد كثر المسلمون فيها كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا . وها هم أولاء المهاجرون من مكة ينضمون إليهم فيزيدونهم قوَّة . فإذا لَحِق محمد بهم ، وهو على ما يعرفون من ثبات وحسن رأى وبُعد نظر ، خشوا على أنفسهم أن يَدْهَمَ اليثربيون مكة أو يقطعوا عليها طريق تجارتها إلى الشام ، وأن يُجيعوها كما حاولوا هم أن يجيعوا محمداً وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكرهوهم على أن يلزموا الشعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهراً .

وإذا بقى محمد بمكة وحاول الخروج منها ، فهم معرضون لمثل هذا الأذى من جانب اليثربيين دفاعاً عن نبيهم ورسولهم . فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الواصب[1] . لكنهم إن قتلوه طالب بنو هاشم وبنو المطلب بدمه وأوشكت الحرب الأهلية أن تفشو فى مكة فتكون شرًّا عليها مما يخشونه من ناحية يثرب . واجتمع القوم بدار الندْوة يفكرون فى هذا كله وفى وسيلة اتقائه . قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ومن مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم . لكن هذا الرأى لم يلق سميعاً . وقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ثم لا نُبالى بعد ذلك من أمره شيئاً . لكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة وأن يصيبهم ما يفرَقون منه . وانتهوا إلى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابًّا جليداً ، وأن يُعطوا كل فتى سيفاً صارماً بتاراً فيضربوه جميعاً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ، ولا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً ، فيرضوا فيه بالدِّية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدد

(١) الواصب : الدائم الثابت أو الموجع .

شملها وفرق قبائلها شِيعاً . وأعجبهم هذا الرأى فاطمأنوا إليه ، واختاروا فتيانهم وباتوا يحسبون أن أمر محمد قد فرغ منه ، وأنه بعد أيام سُيوارَى وتُوارى دعوته فى التراب ، وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم ، وتعود بذلك لقريش ولبلاد العرب وحدتها التى تمزَّقت ، ومكانتها التى تضعضعت أو كادت .

الفصل العاشر

هجرة الرسول

الأمر بالهجرة – علىّ فى فراش النبى – فى غار ثور – الخروج إلى يثرب – قصة سراقة بن جعشم – مسلمو يثرب فى انتظار الرسول – الإسلام بيثرب – دخول محمد المدينة .

الأمر بالهجرة

اتصل بمحمد نبأ ما بيتت قريش لقتله مخافة هجرته إلى المدينة واعتزازه بها ، وما قد يجر ذلك على مكة من أذى ، وعلى تجارتها مع الشام من بوار ، ولم يكن أحد يشك فى أن محمداً سينتهز الفرصة فيهاجر . على أن ما أحاط به نفسه من كتمان لم يجعل لأحد إلى سره سبيلا ، حتى أبو بكر ، الذى أعد راحلتين منذ استأذن النبى فى الهجرة فاستمهله ، قد بقى لا يعرف من الأمر إلا قليلا . ولقد ظل محمد بمكة حتى علم من أمر قريش ما علم ، وحتى لم يبق من المسلمين بها إلا القليل . وإنه لينتظر أمر ربه إذ أوحى إليه أن يهاجر . هنالك ذهب إلى بيت أبى بكر وأخبره بأن الله أذن له فى الهجرة ؛ وطلب الصدّيقُ أن يصحَبه فى هجرته فأجابه إلى ما طلب .

هنا تبدأ قصة من أجلِّ ما عرف تاريخ المغامرة فى سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوةً وروعةً . كان أبو بكر قد أعد راحلتيه ودفعهما إلى عبد الله بن أُرَيْقِط يرعاهما لميعادهما . فلما اعتزم الرجلان مغادرة مكة لم يكن لديهما ظلٌّ من ريب فى أن قريشاً ستتبعهما . لذلك اعتزم محمد أن يسلك طرقاً غير مألوفة ، وأن يخرج إلى سفره فى موعد كذلك غير مألوف . وكان هؤلاء الشبان الذين أعدّت قريش لقتله يحاصرون داره فى الليل مخافة أن يفر . ففى ليلة الهجرة أسرّ محمد إلى علىّ بن أبى طالب أن يتسجى بُرده الحضرَمىَّ الأخضر وأن ينام فى فراشه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدّى عنه الودائع التى كانت عنده للناس . وجعل هؤلاء الفِتيةُ من قريش ينظرون من فُرجة إلى مكان نوم النبىّ ، فيرون فى الفراش رجلا فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفرَّ . فلما

علىّ فى فراش النبى

كان الثلث الأخير من الليل خرج محمد فى غفلة منهم إلى دار أبى بكر وخرج الرّجلان من خَوْخة فى ظهرها ، وانطلقا جنوبًا إلى غار ثَوْر ؛ فاتجاههما نحو اليمن لم يكن مما يرد بالبال .

فى غار ثور

لم يعلم بمخبئهما فى الغار غير عبد الله بن أبى بكر وأختيه عائشة وأسماء ومولاهم عامر بن فُهَيْرة . أمّا عبد الله فكان يقضى نهاره بين قريش يستمع ما يأتمرون بمحمد ليقصّه ليلا على النبىّ وعلى أبيه . وأمّا عامر فكان يرعى غنم أبى بكر ، وكان إذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا . وإذا عاد عبد الله بن أبى بكر من عندهما تبعه عامر بالغنم فعفّى على أثره . وأقاما بالغار ثلاثة أيام كانت قريش أثناءها تجدُّ فى طلبهما غير وانية . وكيف لا تفعل وهى ترى الخطر محدقًا بها إن هى لم تُدرك محمدًا ولم تَحُلْ بينه وبين يثرب ! أمّا الرجلان فأقاما بالغار ومحمد لا يفتُر عن ذكر الله ، إليه أسلم أمره وإليه تصير الأمور ، وأبو بكر يُرهِف أذنه يريد أن يعرف هل الذين يَقْفُون أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحًا .

وأقبل فِتيان قريش ، من كل بطن رجل ، بأسيافهم وعِصيهم وهراواتهم يدورون باحثين فى كل اتجاه . ولقوا راعيًا على مقربة من غار ثور سألوه ؛ فكان جوابه :

— قد يكونان بالغار ، وإن كنت لم أر أحدًا أمّه .

وتصبّب أبو بكر عرقًا حين سمع جواب الرّاعى ، وخاف أن يقتحم الباحثون عنهما الغار ، فأمسك أنفاسه وبقى لا حَرَاك به وأسلم لله أمره . وأقبل بعض القرشيين يتسلّقون إلى الغار ، ثم عاد أحدهم أدراجَه . فسأله أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار؟ فقال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ، وقد رأيت حمامتين وَحْشيّتين بفم الغار فعرفت أن ليس أحد فيه . ويزداد محمد إمعانًا فى الصلاة ويزداد أبو بكر خوفًا ، فيقترب من صاحبه ويُلصق نفسه به ، فيهمس محمد فى أذنه : لا تحزن ! إن الله معنا .

وفى رواية كتب الحديث : أن أبا بكر لمّا شعر بدنوّ الباحثين قال هامسًا :

— لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا .

فأجابه النبىّ :

– يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما !

وزاد القرشيين اقتناعًا بأن الغار ليس به أحد أن رأوا الشجرة تدلت فروعها إلى فوهته ، ولا سبيل إلى الدخول إليه من غير إزالة هذه الفروع . إذ ذاك انصرفوا وسمع اللاجئان تَنَاديهم للأوبة من حيث أتَوْا ؛ فازداد أبو بكر إيمانًا بالله ورسوله ، ونادى محمد : الحمد لله ، الله أكبر .

معجزة الغار

نسيج العنكبوت والحمامتان والشجرة ، تلك هى المعجزة التى تقصّ كتب السيرة فى أمر الاختفاء بغار ثور . ووجهُ المعجزة فيها أن هذه الأشياء لم تكن موجودة ، حتى إذا لجأ النبىُّ وصاحبه إلى الغار أسرعت العنكبوت إلى نسيج بيتها تستر به من فى الغار عن الأعين ، وجاءت الحمامتان فباضتا عند بابه ، ونمت الشجرة ولم تكن نامية . وفى هذه المعجزة يقول المستشرق دِرْمِنْجِم :

« هذه الأمور الثلاثة هى وحدها المعجزة التى يقصُّ التاريخ الإسلامى الجِدّ : نسيج عنكبوت ، وهُوِىّ حمامة ، ونماء شجيرة ؛ وهى أعاجيب ثلاث لها كل يوم فى أرض الله نظائر » .

إغفال بعض السير إياها

على أن هذه المعجزةِ لم ترد فى سيرة ابن هشام ، بل كل ما أورد هذا المؤرخ فى سياق قصة الغار مايأتى : « عَمدا إلى غار بثور – جبل أسفل مكة – فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارَه ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامرَ بن فُهيْرة أن يرعى غنمه نهارَه ثم يُريحها عليهما إذا أمسى فى الغار . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يُصلحهما . . . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثًا . وجعلتْ قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم . وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره ومعهم ، يسمع ما يأتمرون به وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يرعى فى رُعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا

وذبحا . فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفّي عليه . حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس . أتاهما صاحبهما الذى استأجرا ببعيريهما وبعير له . إلخ . . . » . هذا ما ذكر ابن هشام عن قصة الغار نقلناه إلى حين خروج محمد وصاحبه منه .

وفى مطاردة قريش محمداً لقتله وفى قصة الغار هذه نزل قوله تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين) (١) وقوله عز وجلّ : (إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كفرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لم تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٢) .

الخروج إلى يثرب

وفى اليوم الثالث حين عرفا أن قد سكن الناس عنهما أتاهما صاحبهما ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بطعامهما . فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء فى رحالهما ، فشقّت نطاقها وعلّقت الطعام بنصفه وانتطقَتْ بالنصف الآخر ؛ فسميت لذلك « ذات النطاقين » . وامتطى كل رجل بعيره ، ومعهما طعامهما ومع أبى بكر خمسة آلاف درهم هى كل ماله . وزادهما اختفاؤهما بالغار وعلمهما بإمعان قريش فى تتبعهما حرصاً وحذراً فَتَخِذا إلى يثرب طريقًا غير الطريق الذى ألف الناس . سلك بهما دليلهما عبد الله بن أُرَيْقِط (أحد بنى الدُّئِل) ممعنًا إلى الجنوب بأسفل مكة ثم متَّجهًا إلى تهامة على مقربة من شاطئ البحر الأحمر . فلما كانا فى غير الطريق الذى ألف الناس اتجه بهما شمالا محاذيًا الشاطئ مع الابتعاد عنه ، متَّخذًا من السبل ما قلّ أن يطرقه أحد ، وأمضى الرجلان ودليلهما طيلةَ الليل وصدر النهار على رواحلهم ، لا يعبآن بمشقة ولا يضنيهما تعب . وأيّة مشقة أخوف مما يخافان من قريش لصدّهما عن الغاية التى يبتغيان بلوغها فى

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٠ .

(٢) سورة التوبة آية ٤٠ .

سبيل الله والحق ! . صحيح أن محمداً لا تساوره ريبة فى أن الله ناصره ولكن لا تُلقوا بأيديكم إلى التَّهْلكة . والله فى عون العبد مادام العبد فى عون نفسه ، وفى عون أخيه . لقد تخطَّيا فى أمان أيام الغار ، ولكن ما جعلته قريش لمن يردُّهما أو يدلُّ عليهما جدير بأن يستهوى نفوساً يغريها الكسب المادى ولو جاء عن طريق الجريمة . فما بالك وهؤلاء العرب من قريش يعتبرون محمداً عدوًّا لهم ! وفى نفوسهم من خُلُق الغِيلة ما لا يأنَف من الفتك بالأعزل والاعتداء على من لا يستطيع عن نفسه دفاعاً . فليكونا إذاً على أشدِّ الحذر ، وليكونا أعيناً ترى ، وآذاناً تسمع ، وقلوباً تشعر وتعِى .

قصة سراقة

ولم يخنهما حَدْسهما ؛ فقد أقبل على قريش رجل أخبرها أنه رأى رَكَبَةً ثلاثة مروا عليه يعتقدهم محمداً وبعض أصحابه ، وكان سُراقة بن مالك بن جُعْشُم حاضراً فقال . إنما هم بنو فلان ؛ ليضلل الرجل وليفوز بمغنم النوق المائة . ومكث مع القوم قليلا ثم عاد إلى بيته فتدجج بسلاحه ، وأمر بفرسه فأُرسل إلى بطن الوادى حتى لا يراه أحد ساعة خروجه ، وامتطاه ودفعه إلى الناحية التى ذكر ذلك الرجل ، وكان محمد وصاحباه قد أناخوا فى ظل صخرة ليقيلوا وليرفهوا عن أنفسهم بعض ما أرهقها من وَصب ، ولينالوا من الطعام والشراب ما لعلهم يستعيدون به قوَّتهم وصبرهم .

وبدأت الشمس تنحدر ، وبدأ محمد وأبو بكر يفكران فى امتطاء جمالهما إذ كانا من سُراقة قيدَ البصر . وكان جواد سراقة قد كبا به قبل ذلك مرَّتين لشدة ما جهدَه . فلما رأى الفارس أنه وشيكُ النجاح وأنه مُدرك الرجلين فرادُّهما إلى مكة أو قاتلهما إن حاولا عن نفسيهما دفاعاً ، نسى كبوَتَىْ جواده ولزه ليمسك بيده ساعة الظفر . ولكن الجواد فى قومته كبا كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج فى سلاحه . وتطير سراقة وألقى فى روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته ، وأنه معرّض نفسه لخطر داهم إذا همَّ مرة رابعة لإنفاذ محاولته . هنالك وقف ونادى القوم : أنا سُرَاقة بن جُعْشُم . انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرَهونه . فلما وقفا ينظرانه طلب إلى محمد أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه . وكتب أبو بكر بأمر النبى كتاباً على

عَظم أو خزَف ألقاه إلى سراقة ؛ فأخذه وعاد أدراجه ، وأخذ نفسَه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده .

لظى الطريق

وانطلق محمد وصاحبه يقطعان بطون تهامة فى قَيْظ مُحْرِق تتلظى له رمال الصحراء ، ويجتازان إكامًا ووهادًا ، ولا يجدان أكثر الأمر ما يتقيان به شُواظ الهاجرة ، ولا يجدان ملجأ من قسوة ما يحيط بهما ، وأمْنًا مما يتخوفان أن يفجأهما ، إلا فى صبرهما وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانهما بالحق الذى أنزل على رسوله . وظلا كذلك سبعة أيام متتاليةً يُنيخان فى حَمَّارة القيظ ويسريان على سفينة الصحراء الليلَ كله يجدان فى سكينته وفى ضوء النجوم اللامعة فى ظلمته ما يطمئن له قلباهما وتستريح له نفساهما . فلما بلغا مقام قبيلة بنى سَهْم وجاء إليهما شيخها بُرَيْدَة يحييهما زالت مخاوفهما واطمأنت لنصر الله قلوبهما وقد صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنى .

مسلمو يثرب فى انتظار الرسول

وفى فترة رِحلتهما هذه المضنية كانت الأخبار قد ترامت إلى يثرب بهجرة النبى وصاحبه ليلحقَا أصحابهما فيها . وكانت قد عرفت ما لقِيا من عَنَت قريش ومن تتبعها إياهما . لذلك ظل المسلمون جميعًا بها وهم ينتظرون مَقْدَم صاحب الرسالة بنفوس ممتلئة شوقًا لرؤيته والاستماع له . وكان الكثيرون منهم لمَّا يروه وإن كانوا قد سمعوا من أمره ومن سحر بيانه ومن قوة عزمه ما جعلهم لِلُقْياه أشدّ اشتياقًا ، وإلى رؤيته أشد تطلعًا . وإنك لتقدر مبلغ ما كانت تجيش به هذه النفوس حين تعلم أن من سادة يثرب من لم يروا محمدًا من قبل ، وإنما اتبعوه بعد أن سمعوا أصحابه الذين كانوا أشد المسلمين لدين الله دعوة ولرسول الله حبًّا . جلس سعد بن زُرَارَةَ ومُصْعَب بن عُمَيْر فى حائط من حوائط بنى ظَفَر واجتمع إليهما رجال ممَّن أسلموا ؛ فبلغ نبؤهما سعدَ بن مُعَاذ وأسَيْدَ بن حُضَيْر ، وكانا يومئذ سيدَى قومهما ؛ فقال سعد لأسيد : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفِّها ضعفاءنا ، فازجرهما ، وانههما ، فإن سعد بن زُرارة ابن خالتى ولا أجد عليه مَقْدَمًا . فذهب أسيد إليهما

انتشار الإسلام بيثرب

يزجرهما . فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرًا قبلتَه ، وإن كرِهته كُفّ عنك ما تكره ؟ قال أسيد : أنصفتَ وركَز حربتَه وجلس إليهما ،

وسمع إلى مصعب فقام مُسْلِمًا ، وعاد إلى سعد بوجه غير الوجه الذى تركه به . فغاظ ذلك سعدًا ، وقام هو إلى الرجلين ، فكان أمره كأمر صاحبه وكان من أثر ذلك أن ذهب سعد إلى قومه فقال :

يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا وأوصلُنا وأفضلنا رأيًا وأيْمَنُنا نَقيبةً .

قال : فإن كلام نسائكم ورجالكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

فأسلم بنوعبد الأشهل جميعًا رجالا ونساء .

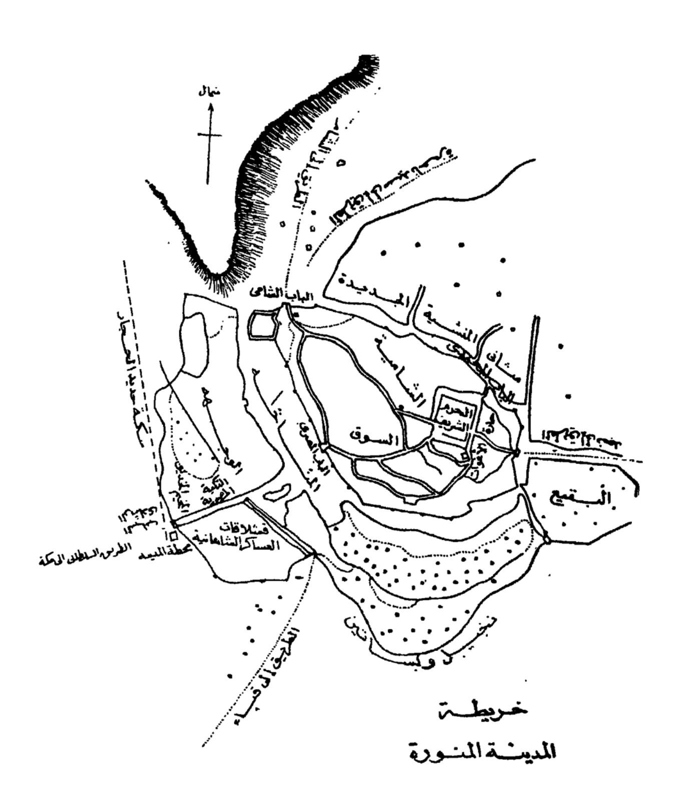
وبلغ من انتشار الإسلام بيثرب ومن بأس المسلمين فيها من قبل هجرة النبى إليها ما لم يحلم به مسلمو مكة ، وما طوَّع لبعض الشبان من المسلمين أن يعبثوا بأصنام المشركين من أهلهم . كان لعمرو بن الجَمُوح صنمٌ من خشب يدعوه مَنَاةَ ، قد اتخذه فى داره كما كان الأشراف يصنعون . وكان عمرو سيدًا من سادات بنى سَلَمَة وشريفًا من أشرافهم . فلما أسلم فتيان قومه كانوا يُريحون بالليل على صنمه فيحملونه فيكبونه على رأسه فى إحدى الحُفَر التى يخرج أهل يثرب لقضاء حاجاتهم بها . فإذا أصبح عمرو فلم يجد الصنم التمسه حتى يعثر به ، ثم غسله وطهره وردّه مكانه وهو يُبْرق ويُرْعد ويتهدّد ويتوعد . وكرَّر فتيان بنى سَلمةَ عبثَهم بمناةِ ابن الجموح ، وهو كل يوم يغسله ويطهره . فلما ضاق بهم ذَرْعًا علَّق على الصنم سيفه وقال له : إن كان فيك خير فامتنعْ ، فهذا السيف معك . وأصبح فالتمسه فوجده فى بئر مقرونًا إلى كلب ميت وليس معه السيف ، فلما كلمه رجال قومه أسلم بعد أن رأى بعينه ما فى الشرك والوثنية من ضلال يهوى بنفس صاحبه إلى درك لا يجمُل بإنسان .

يسيرٌ عليك أن تقدر ، مع ما بلغ الإسلام من علوِّ الشأن بيثرب ، تحرُّق أهلها شوقًا إلى مقدم محمد عليهم بعد إذ علموا بهجرته من مكة . كانوا يخرجون كل يوم بعد صلاتهم الصبح إلى ظاهر المدينة يتلمَّسونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال فى هذه الأيام الحارة من شهر يوليه . وبلغ هو قُباء

– على فرسخين من المدينة – فأقام أربعة أيام بها ومعه أبو بكر . وفى هذه الأيام الأربعة أسَّس مسجدها . وبينما هم بها وصل إليها علىّ بن أبى طالب الذى ردَّ الودائع التى كانت عند محمد لأصحابها من أهل مكة ثم غادرها يقطع الطريق إلى يثرب على قدميه ، يسير الليل ويستخفى بالنهار ، ويحتمل هذا الجهد المضنى أسبوعين كاملين ليلحَق بإخوانه فى الدين .

دخول محمد المدينة

وإن مسلمى يثرب لينتظرون يومًا كعادتهم إذ صاح بهم يهودىٌّ كان قد رأى ما يصنعون . « يا بنى قَيْلة ، هذا صاحبكم قد جاء » . وكان هذا اليوم يوم جمعة ، فصلاها محمد بالمدينة . وهناك فى المسجد الذى ببطن وادى رانُونا أقبل عليه مسلمو يثرب وكلٌّ يحاول أن يراه وأن يقترب منه ، وأن يملأ عينيه من هذا الرجل الذى لم يره من قبل ، والذى امتلأت مع ذلك نفسه بحبه وبالإيمان برسالته ، والذى يذكره كل يوم أثناء صلاته مرات . وعرَض عليه رجال من سادة المدينة أن يُقيم عندهم فى العدد والعُدّة والمنعة ؛ فاعتذر لهم وامتطى ناقته وألقَى لها خطامَها ، فانطلقت فى طرق يثرب والمسلمون من حولها فى حَفْل حافل يخلون لها طريقها ، وسائر أهل يثرب من اليهود والمشركين ينظرون إلى هذه الحياة الجديدة التى دبت إلى مدينتهم ، وإلى هذا القادم العظيم الذى اجتمع عليه من الأوْس والخَزْرَج من كانوا من قبلُ أعداء متقاتلين ، ولا يجول بخاطر أحدهم فى هذه البرهة التى اعتدل فيها ميزان التاريخ إلى وجهته الجديدة ، ما أعد القدر لمدينتهم من جلال وعظمة يَبقيان على الزمن ما بقِى الزمن وجعلت الناقة تسير حتى كانت عند مرْبَد لغلامين يتيمين من بنى النَّجار ، هنالك برَكت ، ونزل الرسول عنها ، وسأل : لمن المربد ؟ فأجابه مَعَاذ بن عَفْراء : إنه لسَهْل وسُهَيْل ابنى عمرو ، وهما يتيمان له وسيُرضيهما ، ورجا محمدًا أن يتخذه مسجدًا . وقبل محمد وأمر أن يُبنى فى هذا المكان مسجده وأن تُبنى داره .



شمال
الباب الشامي
الجديدة
المنشية
الشامية
الحرم الشريف
السوق
البقيع
قشلاقات العساكر الشاهانية
محطة المدينة
الطريق السلطاني الى مكة
الطريق الى قباء
خريطة
المدينة المنورة

الفصل الحادي عشر

أول العهد بيثرب

استقبال يثرب للمهاجر العظيم - بناء المسجد ومنزل النبي - تفكير محمد فى حرية العقيدة لأهل يثرب جميعاً - يهود المدينة - مؤاخاة محمد بين المهاجرين والأنصار - معاهدته مع اليهود لتقرير حرية الاعتقاد - زواج محمد بعائشة - الأذان للصلاة - مثل محمد وتعاليمه - قوة الدين الجديد وخوف اليهود منها - تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام - وفد نصارى نجران إلى المدينة - التقاء الأديان الثلاثة بيثرب - تفكير المسلمين فى موقفهم من قريش .

أسباب استقبال اليثربيين للنبي

خرج أهل يثرب لاستقبال محمد زَرافات ووُحدانا ، رجلاً ونساء ، بعد الذى ترامى إليهم من أخبار هجرته ومن ائتمار قريش به ، ومن احتماله أشدّ القيظ فى هذه الرحلة المضنية بين كثبان تهامة وصخورها التى تردُّ ضوء الشمس لظًى وسعيراً . وخرجوا يُثيرهم تطلعهم ، لما انتشر من خبر دعوته فى أنحاء شبه الجزيرة وما تقضى عليه هذه الدعوة من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم ، وكانت عندهم موضع التقديس . لكن خروجهم لم يكن راجعاً إلى هذين السببين وكفى ، بل كان راجعاً أكثر من ذلك إلى أنه هاجر من مكة إلى يثرب ليقيم بها . فكل طائفة وكل قبيلة من أهل يثرب كانت ترتب على هذا المقام ، من الناحية السياسية والاجتماعية ، آثاراً شتى ، هى التى استخفتهم أكثر مما استخفهم التطلع ليخرجوا فينظروا إلى هذا الرجل ، وليروا هل تؤيد سيماه حَدْسهم ، أو هى تدعوهم إلى تعديله . لذلك لم يكن المشركون ولا كان اليهود أقلَّ إقبالا من المسلمين ، مهاجريهم والأنصار ، على استقبال النبي . ولذلك أحاطوا به جميعاً وكلٌّ يخفقُ قلبه خفقاناً مختلفاً عن غيره باختلاف ما يجول بنفسه إزاء القادم العظيم . وقد اتبعوه إذ ألقى بخطام ناقته على غاربها فى شيء من عدم النظام أدى إليه حرص كلّ على أن يجتلى محيَّاه ، وأن يحيط نواحيه جميعاً بنظرة ترسُم فى نفسه صورة من هذا الذى عقد بيعة العقبة الكبرى مع من

بايعه من أهل هذه المدينة على حرب الأسود والأحمر من الناس ، والذى هجر وطنه وفارق أهله واحتمل عداوتهم وأذاهم ثلاث عشرة سنة متتابعة ، فى سبيل توحيد الله توحيداً أساسُه النظر فى الكون ، واجتلاء الحقيقة من طريق هذا النظر .

بناء المسجد ومساكن الرسول

بَركت ناقة النبى عليه السلام على مِرْبَد سَهْل وسُهَيْل ابنى عمرو ، فابتاعه ليبنيه مسجداً له . وأقام أثناء بنائه فى دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى . وعمل محمد فى بناء المسجد بيديه ، ودأب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته فى بنائه ، حتى أتمّوه وأقاموا من حوله مساكن الرسول . وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن ليُرهق أحداً وقد كانت كلها البساطة بما يتفق وتعاليم محمد . كان المسجد فناءً فسيحاً ، بُنيت جدرانه الأربعة من الآجر والتراب ، وسُقف جزء منه بسعف النخل وتُرك الجزء الآخر مكشوفاً وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكناً . ولم يكن المسجد يُضاء ليلا إلا ساعة صلاة العشاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها . وكذلك ظل تسع سنوات متتالية شُدت بعدها مصابيح إلى جذوع النخل التى كان يعتمد سقفه عليها . ولم تكن مساكن النبى أكثر من المسجد تَرَفا ، وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استتاراً .

بنى محمد مسجده ومساكنه ، وأوى من بيت أبى أيوب إليها . ثم جعل يفكر فى هذه الحياة الجديدة التى استفتح ، والتى نقلته ونقلت دعوته خطوة جديدة واسعة . فقد ألفى هذه المدينة وبين عشائرها من التنافر ما لم تعرف مكة ؛ لكنه ألفى قبائلها وبطونها تصبو إلى حياة فيها من السكينة ما يجنِّبها الخلاف والحزازات التى مزقتها فى الماضى شر ممزَّق ، وما يهيئ لها فى المستقبل طمأنينة تطمع معها أن تكون أوفر من مكة ثروة وأعظم جاهاً . وما كانت ثروة يثرب ولا كان جاهها أول ما يعنى محمداً وإن كان بعضَ ما يعنيه . إنما كان همه الأول والآخر هذه الرسالة التى عهد الله إليه فى تبليغها والدعوة إليها والإنذار بها . لقد حاربها أهل مكة من يوم بعثه إلى يوم هجرته أهولَ الحرب ، فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها وكل الأنفس إيماناً بها من خوف أذى قريش

كفالة حرية العقيدة

وعَنَتها . والأذى والعنت يحولان بين الإيمان والقلوب التى لما يدخل الإيمان فيها . فيجب أن يؤمن المسلمون وأن يؤمن غيرهم بأن من اتبع الهدى ودخل فى دين الله بمأمن من أن يصيبه الأذى ، ليزداد المؤمنون إيمانًا ، وليُقبل على الإيمان المتردد والخائف والضعيف . فى هذا كان يفكر محمد أول طمأنينته إلى مسكنه بيثرب ، وإلى هذا كانت تتجه سياسته ، وفى هذا الاتجاه يجب أن يُتَرْجَم لحياته . هو لم يكن يفكر فى ملك ولا فى مال ولا فى تجارة ؛ بل كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته ، وكفالة الحرية لهم فى عقيدتهم ككفالتها لغيرهم فى عقيدتهم . يجب أن يكون المسلم واليهودى والنصرانى سواء فى حرية العقيدة ، وفى حرية الرأى وحرية الدعوة إليه . فالحرية وحدها هى الكفيلة بانتصار الحق وبتقدم العالم نحو الكمال فى وحدته العليا ، وكل حرب على الحرية تمكين للباطل ونشر لجيوش الظلام لتقضى على جذوة النور المضيئة فى النفس الإنسانية ، والتى تصل بينها وبين الكون كله ، من أزله إلى أبدهُ ، صلة اتساق ومحبة ووحدة ، لا صلة نفور وفناء .

رغبة محمد عن القتال

هذه الوجهة فى التفكير هى التى نزل بها الوحى على محمد منذ الهجرة ، وهى التى جعلته جنوحًا للسلم ، راغبًا عن القتال ، مقتصدًا طول حياته أشد القصد فيه ، غير لاجئ إليه إلا لضرورة تقتضيه الدفاعَ عن الحرية دفاعًا عن الدين وعن العقيدة . ألم يقل له أهل يثرب ممن بايعوه فى العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش ينبهها لأمرهم : « والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منًى غدًا بأسيافنا » ، فكان جوابه : « لم نُؤمَر بذلك » ؟ أَلم تكن أول آية نزلت فى القتال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِموا وَإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ ﴾[1] . أَلم تكن الآية التى تلت هذه فى أَمر القتال قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتنةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّه للهِ ﴾[2]

فتفكير محمد إذًا إنما كان متجهًا إلى غاية واحدة عليا ؛ هى كفالة حرية

---

(١) سورة الحج آية ٣٩ . (٢) سورة الأنفال آية ٣٩ .

العقيدة والرأى كفالة فى سبيلها وحدها أحِلَّ القتال ، ودفاعًا عنها أبيح دفعُ المعتدى حتى لا يُفْتَن أحد عن دينه ، ولا يُظْلَمَ أحد بسبب عقيدته أو رأيه .

تفكير أهل يثرب

بينما كانت هذه وجهة محمد فى التفكير فى أمر يثرب وما يجب لكفالة الحرية فيها ، كان أهل هذه المدينة ممن استقبلوه يفكرون ، وإن كان كل فريق يفكر على نحو يخالف تفكير غيره . فقد كان بيثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار ؛ وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج ، وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت . ثم كان بها اليهود ، يقيم منهم بنو قَيْنُقَاع فى داخلها ، ويقيم بنو قُرَيْظَة فى فَدَك ، وبنو النَّضير على مقربة منها ، ويهود خَيْبَر فى شمالها . أما المهاجرون والأنصار فقد ألّف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط ، وإن بقيت فى نفس محمد بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يومًا ، مما جعله يفكر فى وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيرًا كان له من بعدُ أثره . وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج ، فقد ألْفَوْا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافًا نهكتهم الحروب الماضية ، فاتجه همهم للوقيعة بين هؤلاء وأولئك . وأمَّا اليهود فبادروا بادئ الرأى إلى حسن استقبال محمد ظنًّا منهم أن فى مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله فى حِلفهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجْلَت اليهود ، شَعْبَ الله المختار ، عن فلسطين أرض الْمَعَاد ووطنهم القومى . وانطلق كلٌ على أساس تفكيره يمهد أسباب النجاح لبلوغ غايته .

هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة محمد لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل . هنا يبدأ طور السياسىِّ الذى أبدى محمد فيه من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشًا ثم يطأطئ الرأس إجلالا وإكبارًا . كان أكبر همه أن يصل بيثرب ، موطنه الجديد ، إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبلُ فى سائر أنحاء الحجاز ، وإن كانت قد عرفت قبل ذلك بكثير فى بلاد اليمن . فتشاور هو ووزيراه أبو بكر وعمر ؛ فكذلك كان يسميهما . وقد كان أول ما انصرف إليه تفكيره بطبيعة الحال تنظيم صفوف

المؤاخاة بين المسلمين

المسلمين وتوكيد وحدتهم ، للقضاء على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بينهم . ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخَوْا فى الله أخَوَيْن أخَوين . فكان هو وعليّ بن أبى طالب أخوين . وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين . وكان عمر بن الخطاب وعِتْبان بن مالك الخزرجى أخوين . وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب ، بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكة فى أعقاب هجرة الرسول إياها ، مع واحد من الأنصار إخاءً جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب . وبهذه المؤاخاة ازدادت وحدة المسلمين توكيدًا .

وأظهر الأنصار من كرم الضيافة لإخوانهم المهاجرين ما تقبله هؤلاء أول الأمر مغتبطين . ذلك أنهم تركوا مكة ، وتركوا وراءهم ما يملكون فيها من مال ومتاع ، ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجدون قوتهم . ولم يكن منهم على جانب من الثراء والنعمة غير عثمان بن عفان ؛ أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكة شيئًا ينفعه . وقد ذهب حمزة عم الرسول يومًا يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به . وكان عبد الرحمن بن عَوْف وسعد بن الربيع أخوين ، ولم يكن عبد الرحمن يملك بيثرب شيئًا . فعرض عليه سعد أن يشاطره ماله ؛ فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدله على السوق ، وفيها بدأ يبيع الزُّبد والجبن ، واستطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة فى زمن قصير وأن يمْهَر إحدى نساء المدينة ، وأن تكون له قوافل تذهب فى التجارة وتجىء . وصنع كثيرٌ غير عبد الرحمن من المهاجرين صنيعه ؛ فقد كان لهؤلاء المكيين من الدراية فى شؤون التجارة ما قيل معه عن أحدهم : إنه ليُحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهبًا .

المشتغلون بالزراعة

أما الذين لم يشتغلوا بالتجارة ، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعليّ بن أبى طالب وغيرهم . فقد عملت أسرهم فى الزراعة فى أراضى الأنصار مُزارعة مع ملاكها . وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياة شدَّة وبأساء ؛ لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كَلاًّ على غيرهم ؛ فكانوا يجهَدون أنفسهم فى العمل أشد الجَهْد ، ويجدون فى ذلك من لذة الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم ما لم يكونوا

المشتغلون بالتجارة

يجدونه بمكة . على أن جماعة من العرب الذين وفدوا على المدينة وأسلموا ، كانوا فى حال من العَوَز والمتْرَبة ، حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه . هؤلاء أفرد محمد لهم صُفة المسجد (وهى المكان المسقوف منه) يبيتون بها ويأوون إليها ، ولذلك سُموا أهل الصُّفة ، وجعل لهم رزقًا من مال المسلمين والأنصار الذين آتاهم الله رزقًا حسنًا .

اطمأن محمد إلى وحدة المسلمين بهذه المؤاخاة . وهى لا ريب حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبعد نظر ، نتبين مقدارهما حين نقف على ما كان من محاولة المنافقين الوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لإفساد أمرهم . لكن العمل السياسى الجليل حقًّا والذى يدل على أعظم الاقتدار ، ذلك ما وصل به محمد إلى تحقيق وحدة يثرب وإلى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف . وقد رأيتَ اليهود كيف أحسنوا استقباله أملاً فى استدراجه إلى صفوفهم . وقد بادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها ، وإلى توثيق صلاته بهم ؛ فتحدث إلى رؤسائهم وتقرَّب إليه كبراؤهم ، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبار أنهم أهل كتاب موحدون . وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم ، وكانت قبلته فى الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومَثابة بنى إسرائيل جميعًا . وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهودَ به إلا مودة وقربى . كما أن سيرته ، وعظيم تواضعه ، وجميل عطفه ، وحسن وفائه ، وفيض برّه بالفقير والبائس والمحروم ، وما أورثه ذلك من قوَّة السلطان على أهل يثرب ؛ كل ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد . معاهدة هى ، فى اعتقادنا ، من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مرّ التاريخ . وهذا الطور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول . فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المعجزة ، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة بالمقدرة السياسية وبالدفاع عن حرية الناس فى الإيمان بها ، ولو

مودة محمد واليهود

دفاعًا مسلحًا فيه الحرب والقتال . انتشرت المسيحية على يد الحَوَاريين من بعد عيسى ، فظلوا ومن تبعهم يعذبون ، حتى جاء من الملوك من لاَنَ قلبه لهذا الدين فآواه ونشره . وكذلك كان أمر سائر الأديان فى شرق العالم وغربه . فأما محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه ، وأن يكون الرسولَ والسياسيَّ والمجاهدَ والفاتح ، كل ذلك فى سبيل الله ، وفى سبيل كلمة الحق التى بُعث بها . وهو قد كان فى ذلك كله عظيمًا ، وكان مَثَلَ الكمال الإنسانى على ما يجب أن يكون .

كتب محمد بين المهاجرين والأنصار كتابًا واعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم . وهذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحِق بهم وجاهد معهم . أنهم أمة واحدة من دون الناس . المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم (١) يتعاقلون بينهم وهم يَفْدُون عانِيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيهَا بالمعروف والقسط بين المؤمنين » . ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار : بنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جُشَم ، وبنى النجَّار ، وبنى عمرو بن عوف وبنى النبِيت ، إلى أن قال : وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا (٢) بينهم أن يُعطوه بالمعروف فى فداء أو عَقْل . ولا يحالفُ مؤمن مولى مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسِيعَة (٣) ، ظُلم أو إثم أو عُدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولدَ أحدهم ولا يَقتُل مؤمن مؤمنًا فى كافر ، ولا ينصُر كافرًا على مؤمن . وأن ذمَّة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم . وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض

---

(١) على ربعتهم ، أى على استقامتهم ، يريد على أمرهم الذى كانوا عليه .

(٢) المفرح : المثقل بالدين والعيال . (٣) دسيعة ظلم : طبيعته .

دون الناس . وأنه مَنْ تبعنا من يَهُودَ فإن له النصرَ والأسْوَةَ [١] غيرَ مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهم . وأن سَلْمَ المؤمنين واحدة لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعَدْل بينهم . وأن كل غازية غزتْ معنا يعقُب بعضها بعضًا . وأن المؤمنين يبئ [٢] بعضُهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وأنه لا يُجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن . وأنه مَن اعتبط [٣] مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قودٌ به إلا أن يرضى ولىُّ المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافةً ، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه . وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدِثًا [٤] ولا يؤويه وأنه مَنْ نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يُؤخذُ منه صَرْف ولا عَدْل . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مَرَدّه إلى الله وإلى محمد — عليه الصلاة والسلام — وأن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسِهم إلا من ظَلَم أو أَثِم فإنه لا يُوتغ [٥] إلا نفسهُ وأهلَ بيته . وأن لِيهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جُشَم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثَعْلَبة ولجَفْنَةَ ولبنى الشطَيْبة [٦] مثل ما ليهود بنى عوف . وأنّ موالى ثَعْلَبَةَ كأنفسهم . وأن بطانة يهود كأنفسهم . وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد — عليه الصلاة والسلام — وأنه لا يتحجز [٧] على ثأر جرحٌ . وأنه مَنْ فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم . وأن الله على أبرّ هذا . وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة

---

(١) أى المساواة فى المعاملة .

(٢) يقال : أبأت فلانا بفلان إذا قتلته به ، يريد أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم .

(٣) اعتبطه أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله .

(٤) محدثاً : جانياً . (٥) يوتغ . يهلك ويفسد

(٦) فى البداية والنهاية لابن كثير : « ولبنى الشطنة » .

(٧) يريد : لا يلتئم جرح على ثأر .

والبرَّ دون الإثم . وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه . وأن النصر للمظلوم . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وأنه لا تُجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَث أو اشتجار يُخاف فسادُه فإن مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأن الله على أتْقَى ما فى هذه الصحيفة وأبَرِّه . وأنه لاتجار قريش ولا مَنْ نَصرها . وأن بينهم النصر على من دَهِمَ يثرب ، وإذا دُعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبَسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه . وأنهم إذا دَعَوْا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا مَن حاربَ فى الدين . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلهم . وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة . وأن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه . وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبَرِه . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم . وأن من خرج آمنٌ ومن قعد آمنٌ بالمدينة إلا من ظَلَم وأثِم ، وأن الله جارٌ لمن برّ واتّقى » .

فتح جديد فى الحياة السياسية

هذه هى الوثيقة السياسية التى وضعها محمد منذ ألف وثلثمائة وخمسين سنة ، والتى تقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة . وهى فتح جديد فى الحياة السياسية والحياة المدنية فى عالم يومئذ ؛ هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد ، وتعيث فيه يد الظلم فساداً . ولئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قُرَيْظة وبنو النَّضِير وبنو قَيْنُقاع ، إنهم ما لبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم وبين النبى صُحُفًا مثلها . وكذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرماً لأهلها ؛ عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها ، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية .

زواج النبى من عائشة

طاب محمد نفساً بهذه النتيجة ، وسكن المسلمون إلى دينهم ، وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين ويقيمونها فُرادى ، لا يخافون أذًى ولا يخشون فتنة . إذ ذاك بنى محمد بعائشة بنت أبى بكر ، وكانت فى العاشرة أو الحاديةَ عشرةَ

من عمرها ، وكانت فتاة رقيقة حلوة القَسَمات محبَّبة العشرة ، وكانت تخطو دِراكًا من الطفولة إلى الصبا ، وكانت ذات ولع باللغب والمرح ، وكانت نامية نموًّا حسنًا . ووجدت فى محمد أول انتقالها إليه بمسكنها إلى جانب مسكن سَوْدَةَ فى جوار المسجد أبًا برًّا عطوفًا ، وزوجًا مشفقًا رفيقًا ، لا يأبى عليها أن تعبث وتلهو بألاعيبها ؛ وتسليه بذلك عن دائم تفكيره فى العبء العظيم الذى أُلقى عليه ، وفى سياسة يثرب التى بدأ يوجهها إلى خير وجهة .

فى هذه الفترة التى سكن فيها المسلمون إلى دينهم فرضت الزكاة وفرض الصيام وقامت الحدود ، وتمكنت بيثرب شوكة الإسلام . وكان محمد حين قدم المدينة إنما يجتمع إليه الناس للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ؛ ففكر فى أن يدعو للصلاة ببوق كالبوق الذى يدعو به اليهود لصلاتهم . لكنه كره البوق فأمر بالناقوس ، فنُحِت ليضرب به للصلاة ، كما تفعل النصارى . على أنه بعد مشورة عمر وطائفة من المسلمين على رواية ، وبأمر الله على لسان الوحى فى رواية

الأذان للصلاة

أخرى ، عدل عن الناقوس أيضًا إلى الأذان ، وقال لعبد الله بن زيد بن ثعلبة : « قم مع بلال فألقِها عليه – أى صيغة الأذان – فليؤذِّن بها فإنه أندى صوتًا منك » . وكان لامرأة من بنى النجار منزل إلى جانب المسجد أعلى منه ، فكان بلال يَرْقَاه فيؤذن عليه . وكذلك صار أهل يثرب جميعًا يسمعون منذ الفجر فى كل يوم دعوةً إلى الإسلام مرتلة ترتيلاً حسنًا بصوت رطب جميل يوجهها بلال مع كل ريح إلى كل النواحى ، ويُلقى فى أذن الحياة نداءه : « الله أكبر الله أكبر . ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمدًا رسول الله . حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله » .
وكذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمْنًا ، وأصبحت يثرب مدينة الرسول ، وأصبح غير المسلمين من أهلها يشعرون بقوة المسلمين قوة منبعثة من أعماق قلوب عرفت التضحية فى سبيل الإيمان وذاقت الأذى بسببه ألوانًا ، وها هى ذى اليوم تجنى ثمرة الصبر ، وتستمتع من حرية العقيدة بما قرر الإسلام من أن ليس لإنسان على إنسان سيادة ، ومن أن الدين لله وحده ، والعبودية له وحده ، والناس أمام وجهه الأكرم سَواسِية ، لا يُجزوْن إلا بأعمالهم وبالنية التى تصدر هذه الأعمال عنها .

وانفسح المجال أمام محمد ليعلن تعاليمه ، وليكون بذاته وبتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم ، وليصبح بذلك حجر الأساس للحضارة الإسلامية .

الإخاء أساس الحضارة الإسلامية

وحجر الأساس هذا هو الإخاء الإنسانى ، إخاء يجعل المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وحتى يصل به هذا الإخاء إلى غاية البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة . سأل رجل محمدًا : أى الإسلام خير ؟ فقال : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » . وفى أول خطبة ألقاها بالمدينة قال : « من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمر فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تُجزى الحسنةُ عشر أمثالها » . وفى خطبته الثانية قال : « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، واتقوه حق تقاه ، واصدقوا الله صالحَ ما تقولون ، وتحابوا بروح الله بينكم : إن الله يغضب أن ينتكثَ عهدُه » . بهذا وبمثله كان يحدّث أصحابه وكان يخطب الناس فى مسجده ، مستندًا إلى جذع من جذوع النخل التى يعتمد عليها سقفه ، حتى أمر فصنع له منبر من ثلاث درجات ، كان يقوم على درجته الأولى خطيبًا . وكان يجلس فى درجته الثانية .

إخاء محمد والمسلمين

ولم تكن أقواله وحدها دعامة الدعوة إلى هذا الإخاء الذى جعل منه حجر الزاوية فى حضارة الإسلام ، بل كانت أعماله وكان مَثَلُه هو هذا الإخاء فى أسمى صور كماله . كان رسولَ الله ؛ لكنه كان يأبى أن يظهر فى أىّ من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة الزمنية . كان يقول لأصحابه : « لا تُطْرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريم ؛ إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله » . وخرج على جماعة من أصحابه متوكئًا على عصًا فقاموا له ، فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا » . وكان إذا بلغ فى مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس . وكانَ يمازح أصحابَه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويُجلسهم فى حجره ويجيب دعوة الحر والعبد والأمَة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذرِ ، ويبدأ مَنْ لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان أطيب الناس

نفساً وأكثرهم تبسُّماً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظْ أو يخطب . وكان فى بيته فى مَهْنَة أهله يطهر ثوبه ويرقعه ويحلب شاته ، ويخصِفُ نعلَه ، ويخدم نفسه ، ويعقِل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين . وكان إذا رأى أحداً فى حاجة آثره على نفسه وأهلهِ ولو كان بهم خَصاصة . وكان لذلك لا يدخر شيئاً لغده ؛ حتى لقد توفى ودرْعه مرهونة عند يهودى فى قوت عياله . وكان جم التواضع ، شديد الوفاء ؛ حتى لقد وفد للنجاشى وفد فقام بخدمتهم ؛ فقال له أصحابه : يكفيك . فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مُكرِمين وإنى أحب أن أكافئهم . وبلغ من وفائه أنه ما ذُكِرت خديجة إلا ذكرها أطيب الذكر ؛ حتى كانت عائشة تقول : ما غِرتُ من امرأة ما غِرْتُ من خديجة لِما كنت أسمعه يذكرها . ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها ؛ فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وأن حسن العهد من الإيمان.وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يدَع بنى بناته يداعبونه أثناء صلاته . بل لقد صلى بأمامة ابنة بنته زينب يحملها على عاتقه ، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها .

رفق محمد بالحيوان

ولم يقف بالبرِّ والرحمة اللذين جعلهما دعامة الإخاء الذى قامت الحضارة الجديدة على أساسه عند الإنسان ، بل عدَّاهما إلى الحيوان كذلك ؛ كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهِرَّة تلتمس عنده ملجأ ، وكان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض ، وكان يمسح لجواده بكُمٍّ قميصه . وركبت عائشة بعيراً فيه صعوبة فجعلت تردّده ؛ فقال لها : عليك بالرفق . وكذلك شملت رحمته كل ما اتصل بها ، وأظلت كل من كان فى حاجة إلى تَفَيُّؤ ظلالها .

إخاء عدل ورحمة

وهى لم تكن رحمة ضعف ولا استكانة ، ولم تَشُبْها شائبة مَنٍّ ولا استعلاء إنما كانت إخاء فى الله بين محمد والذين اتَّصلوا به جميعاً . ومن ثَمَّ يفترق أساس حضارة الإسلام عن كثير من سائر الحضارات . الإسلام يضع العدل إلى جانب الإخاء ويرى أن الإخاءَ لا يكون إخاءً إلا به . (فَمَن اعْتَدَى

عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) [١] . (وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِى الأَلْبَابِ) [٢]

يجب أن يكون الدافع النفسانى وحده والإرادة الحرة المطلقة وابتغاء وجه الله دون أى اعتبار آخر مصدر الإخاء وما يدعو إليه من بر ورحمة . ويجب أن يصدر ذلك عن نفس قوية لا تعرف لغير الله إسلاماً ولا تضعف ولا تتهالك باسم الورع أو التقوى ، ولا يتسرَّب إليها خوفٌ أو وهْنٌ إلا عن معصية تجترحها أو إثم تقترفه . ولا تكون النفس قوية إذا كانت فى حكم غيرها ، ولا تكون قوية إذا خضعت لحكم أهوائها وشهواتها . وقد هاجر محمد وأصحابه من مكة حتى لا يكونوا فى حكم قريش ولا يُوهِنَ أذاها نفس أحد منهم . والنفس إنما تخضع لحكم الأهواء والشهوات إذا تحكم الجسد فى الروح وغلبت الشهوة العقلَ ، وأصبحنا نقيم للحياة الخارجة عنّا سلطاناً على حياتنا نحن ، على حين أنَّا فى غنًى عنها وأنَّا أصحاب السلطان عليها .

قوة محمد على الحياة

وكان محمد المثلَ الأعلى فى القوَّة على الحياة ، قوَّةً جعلته لا يأبى أن يعطى غيره كل ما عنده ؛ حتى قال أحدهم : إنَّ محمداً يعطى عطاء من لا يخشى فاقة . ولكى لا يكون لشىء مما فى الحياة سلطان عليه ، وليكون له هو كل السلطان عليها ، كان شديد الزهد فى مادَّتها ، على شدة رغبته فى الإحاطة بها وفى معرفة أسرارها ، وتوْقه إلى غاية الحقيقة من أمرها . بلغ من زهده فيها أن كان فى فراشه الذى ينام عليه أدَمًا حشوه ليف ، وأنه لم يشبَع قط ، ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين ، وكان السويق طعام أكلته الكبرى ، وكان التمر طعام سائر يومه . وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله . ولقد عانى الجوعَ غير مرة ، حتى كان يَشُدُّ على بطنه حجرًا يكظِم به على صيحات معدته . ذلك كان المعروفَ عنه فى طعامه ، وإن لم يمنعه ذلك من أن ينال فى بعض الأحايين من أطايب الرزق ، وأن يُعرَف عنه حبُّه زَنْد الخروف والقَرْعَ والعسلَ والْحلْوَى .

زهده فى الطعام واللباس

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤ . (٢) سورة البقرة آية ١٧٩ .

وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام . أعطته امرأة يومًا ثوبًا كان فى حاجة إليه ، فطلب إليه أحدهم ما يصلح كفنًا لميت فأعطاه الثوب . وكان معروف ثيابه القميص والكساء ، وكانا من صوف أو قطن أو تيل . على أنه فى بعض الأحيان لم يكن يأبى أن يلبس من أنسجة اليمن لباسًا فخمًا يناسب المقام إذا اقتضاه المقام ذلك . وكان يحتذى حذاء بسيطًا ، ولم يلبس خُفًّا إلا حين أهدى إليه النجاشى خُفَّين وسراويل .

لم يكن هذا الزهد ، ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفًا للتقشف ، ولا كانا من فرائض الدين ؛ فقد جاء فى القرآن : (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكم) (١) وجاء : (وَابْتَغِ فِيما آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ) (٢) .

وفى الأثر : « احرُث لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » . لكن محمدًا أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى فى القوة على الحياة قوة لا يتطرق إليها ضعف ، ولا يستعبد صاحبَها متاع أو مال أو سلطان أو أىٌّ مما يجعل لغير الله عليه سيادة . والإخاء الذى يستند إلى هذه القوة ويكون له من المظهر ما ضرب محمد له المثل الأعلى فيما رأيت ، إخاء محض بالغ غاية الإخلاص والسمو ، إخاء لا تشوبه شائبة ؛ لأن العدل يتضافر فيه مع الرحمة ، ولأن صاحبه لا يرضى أن تحمله عليه إلا إرادته الحرة المطلقة . لكن الإسلام إذ يضع العدل إلى جانب الرحمة يضع العفو إلى جانب العدل ، على أن يكون عفوًا عن مقدرة ؛ ليكون مظهر الرحمة صريحًا صحيحًا ، وليكون القصد منه إلى الإصلاح صادقًا .

سنّة محمد

هذا الأساس الذى وضعه محمد للحضارة الجديدة التى يقيمها يتلخص بصورة واضحة فيما رُوى عن علىّ بن أبى طالب أنه سأل رسول الله عن سنته فقال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مَرْكَبى ، وذكرُ الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ؛ والعلم سلاحى ،

---

(١) سورة البقرة آية ٥٧ .
(٢) سورة القصص آية ٧٧ .

والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حِرفتى ، واليقين قُوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حَسَبى ، والجهاد خُلُقى ، وقُرَّة عينى فى الصلاة » .

بدء مخاوف اليهود

تركت تعاليم محمد هذه وتلك مَثَله وقدوته فى النفوس أعمق الأثر ؛ حتى لقد أقبل كثيرون على الإسلام ، وازداد المسلمون فى المدينة شوكة وقوة . هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه . لقد عقدوا معه عهدًا ، وكانوا يطمعون فى أن يضموه إلى صفوفهم وفى أن يزدادوا به على النصارى مَنَعَة وقوة . وهذا هو أقوى من هؤلاء وأولئك جميعًا ، وهذه كلمته تزداد ثباتًا . بل ها هو ذا يفكر فى أمر قريش وإخراجها إياه وإخراجها المهاجرين من مكة ، وفتنتها من استطاعت فتنته من المسلمين عن دينه ، أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر وسلطانه الروحى يمتد ؛ مكتفين بالأمن فى جواره أمْنًا يزيد تجارتهم سعةً وثروتهم ربحًا ؟ لعلهم كانوا يقنَعون بهذا لو أنهم أمِنوا ألا تمتد دعوته إلى اليهود وألا تفشوا فى عامتهم ، على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى إسرائيل . لكن حبرًا عالمًا من كبار أحبارهم وعلمائهم ، هو عبد الله بن سَلاَم ، لم يلبث حين اتصل بالنبى أن أسلم ، وأمر أهل بيته فأسلموا معه . وخشى عبد الله أن يقول اليهود فيه إذا علموا بإسلامه ، غير ما اعتادوه . فطلب إلى النبى أن يسألهم عنه : ما شأنُه ؟ قبل أن يعرف أحد منهم إسلامه . قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبْرنا وعالمنا . فلما خرج عبد الله إليهم وتبينوا ما صنع ودعاهم هو إلى الإسلام ، خافوا عاقبة أمره ، فوقعوا فيه وأذاعوا عنه قالة السوء فى أحياء اليهود كلها ؛ وأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا لمحمد ويُنْكروا نبوته . وما كان أسرع أن اجتمع إليهم من بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن أسلم منهم نفاقًا ، جريًا وراء مغنم أو إرضاء لذى عُصْبة وبأس .

إسلام عبد الله ابن سلام

حرب الجدل بين محمد واليهود

وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشدّ لَدَدًا وأكبر مكرًا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة . وفى هذه الحرب اليثربية تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين . أقامتها

اليهود جميعًا صفوفًا متراصة يهاجمون بها محمدًا ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار . دسُّوا من أحبارهم من أظهر إسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى ، ثم ما لبث الحين بعد الحين أن يُبدى من الشكوك والريب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع فى أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحقّ التى يدعو إليها . وانضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقًا أيضًا ليسألوا وليُوقعوا بين المسلمين . وبلغ من تعنتهم أن اليهود منهم كانوا يُنكرون ما فى التوراة ، وأنهم جميعًا ، وكلهم يؤمنون بالله سواء منهم بنو إسرائيل والمشركون الذين يتخذون أصنامهم لتقربهم إلى الله زلفى ، كانوا يسألون محمدًا : إذا كان الله قد خلق الخلق فَمَن خلق الله ؟ ! وكان محمد يجيبهم بقوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد) (١)

محاولة الوقيعة بين الأوس والخزرج

وفَطِن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم . ورأوهم يومًا فى المسجد يتحدثون بينهم خافضين أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم محمد فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا . ولم يَنْهم ذلك عن كيدهم وسعيهم فى الوقيعة بين المسلمين . مرَّ أحدهم (شاس بن قيس) على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جَمعهم ؛ فغاظه صلاح ذاتِ بينهم وقال فى نفسه : قد اجتمع ملأ بنى قَيْلة بهذه البلاد ؛ وما لنا معهم إذا اجتمع مَلَؤُهم بها من قرار . وأمر فتى شابًّا من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصة يذكر فيها يوم بُعاث وما كان من انتصار الأوس فيه على الخزرج . وتكلم الغلام ، فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا ، وقال بعضهم لبعض : إن شئتم عُدنا إلى مثلها . وبلغ محمدًا الأمر ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه ، فذكرهم بما ألّفَ الإسلامُ بين قلوبهم وجعلهم إخوانًا متحابين . وما زال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضًا واستغفروا الله جميعًا .

بلغ الجدال بين محمد واليهود مبلغًا من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن

---

(١) سورة الإخلاص .

فيه . فقد نزل صدر سورة البقرة إلى الآية الحادية والثمانين منها ، ونزل قسم عظيم من سورة النساء ، وكله يذكر هؤلاء الكتابيين وإنكارهم ما فى كتابهم ويلعنهم لكفرهم وإنكارهم أشد اللعنة : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جاءَكُم رَسُولٌ بما لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكم اسْتَكْبَرتُم فَفَرِيقًا كَذَّبْتُم وَفَرِيقًا تَقْتُلون . وَقَالوا قُلوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكفرِهِم فَقَلِيلاً ما يؤْمِنُونَ . وَلَما جَاءَهُم كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وكانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحُون عَلَى الَّذين كَفَرُوا فلمَّا جاءَهُم ما عَرَفوا كَفَرُوا به فلعنة الله على الكافِرين) [١] .

قصة فنحاص

وبلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حدًّا كان يصل أحيانًا ، مع ما كان بينهم من عهد ، إلى الاعتداء بالأيدى . وحَسْبُك ، لتقدر هذا ، أن تعلم أن أبا بكر ، على ما كان عليه من دَماثة الخلق وطول الأناة ولين الطبع ، تحدث إلى يهودى يدعى فِنْحاص ، يدعوه إلى الإسلام ؛ فرد فنحاص بقوله : « والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا . وإنا عنه أغنياء وما هو عنا بغنى . ولو كان غنيًّا عنّا ما استقرضَنا أموالَنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرّبا ويُعطيناه ، ولو كان عنا غنيًّا ما أعطانا » وفنحاص يشير هنا إلى قوله : (مَنْ ذَا الَّذى يُقْرِضُ اللهَ قَرضًا حَسَنًا فَيُضاعِفهُ لَهُ أَضْعَافًا كثِيرَةً) [٢]

لكن أبا بكر لم يطق على هذا الجواب صبرًا ، فغضب وضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدو الله ! وشكا فنحاص أمره إلى النبى وأنكر ما قاله لأبى بكر فى الله : فنزل قوله تعالى : (لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قوْلَ الذين قالوا إنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٨٧ إلى ٨٩

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٥ .

أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قالوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (١) .

لم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج من هؤلاء ، ولم يكفهم فتنة المسلمين عن دينهم ومحاولة ردهم إلى الشرك دون محاولة تهويدهم ، بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنة محمد نفسه ؛ ذلك أن أحبارهم وأشرافهم وسادتهم ذهبوا إليه وقالوا : « إنك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وإنا إن اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، فنحتكم إليك فتقضى لنا فنتبعك ونؤمن بك » . فنزل فيهم قوله تعالى : (وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُون . أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (٢) .

ضاق اليهود ذرعًا بمحمد ، ففكروا فى أن يمكروا به ، وأن يُقنعوه بالجلاء عن المدينة كما أجلاه أذى قريش إياه وأصحابَه عن مكة ؛ فذكروا له أن مَن سبقه من الرسل ذهبوا جميعًا إلى بيت الْمَقْدِس وكان به مُقامهم ، وأنه إن يكن رسولا حقًّا فجديرٌ به أن يصنع صنيعهم ، وأن يعتبر المدينة وسطًا فى هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى . لكن محمدًا لم يحتج إلى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به . وأوحى إليه الله يومئذ ، على رأس سبعة عشر شهرًا من مُقامه بالمدينة ، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل ، فنزلت الآية : (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجوهَكُمْ شَطْرَهُ) (٣) .

صرف القبلة إلى الكعبة

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨١ .
(٢) سورة المائدة آيتا ٤٩ و ٥٠ .
(٣) سورة البقرة آية ١٤٤ .

وأنكر اليهود عليه ما فعل ، وحاولوا فتنته مرة أخرى بقولهم إنهم يتبعونه إذا هو رجع إلى قبلته ؛ فنزل قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [1] .

وفد نصارى نجران

فى هذا الوقت الذى اشتد فيه الجدال بين محمد واليهود وفد على المدينة وفد من نصارى نَجْران عدتهم ستون راكبًا ؛ من بينهم من شَرُف فيهم ودرس كتبهم وحسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرَّفوه وموَّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات . ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى مدينة النبىّ حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف ، طمعًا فى أن يزيد هذا الخلافَ شدّة حتى يبلُغ به العداوة ، فيريح النصرانية المتاخمة فى الشام وفى اليمن من دسائس اليهود وعُدوان العرب . واجتمعت الأديان الثلاثة الكتابيَّة بمجىء هذا الوفد وبجداله النبىَّ وبقيام مَلْحمة كلاميَّة عنيفة بين اليهودية والمسيحية والإسلام . فأمَّا اليهود فكانوا يُنكرون رسالة عيسى ومحمد إنكاراً فيه من العَنَت ما رأيت ، ويزعمون أن عُزَيْراً ابنُ الله . وأمَّا النصارى فكانوا يقولون بالتثليث وألوهية عيسى . وأمَّا محمد فكان يدعو إلى توحيد الله ، وإلى الوحدة الروحية تنتظم العالَم من أزله إلى أبده . كان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن بهم من الرسل فيقول : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [2] .

---

(١) سورة البقرة آيتا ١٤٢ و ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية ١٣٦ .

وكان ينكر عليهم أشدَّ الإنكار كل ما يُلقى أية شبهة على وحدة الله ، ويذكر لهم أنهم حرَّفوا الكلم مما فى كتبهم عن مواضعه وأنهم يذهبون إلى غير ما ذهب إليه النبيون والرسل الذين يُقرُّون لهم بالنبوة ، وأن ما جاء به عيسى وموسى ومن سبقهم لا يختلف فى شىء عما جاء هو به ؛ لأن ما جاءوا به إنما هو الحقيقة الأزليَّة الخالدة التى تتكشَّف فى جلال وضوحها وعظمة بساطتها لكل من نزَّه نفسه عن الخضوع لغير الله فى عظمة وحدته ، ونظر فى الكون على أنه وحدة متصلة نظرةً سامية فوق أهواء الساعة ومطامع العاجلة وشهوات المادة ، مجرَّدة من الخضوع الأعمى لأوهام العامة ولما وجد عليه آباءه وأجداده .

مؤتمر الأديان الثلاثة

أى مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذى شهدت يثرب ، تلتقى فيه الأديان الثلاثة التى تتجاذب حتى اليوم مصاير العالم ، وتلتقى فيه لأسمى فكرة وأجل غاية ! لم يكن مؤتمرًا اقتصاديًّا ، ولا كان مرماه أى غرض من هذه الأغراض المادية التى ينطح عالَمُنا اليوم عبثًا صخرتها ؛ إنما كان مرماه غاية روحية تقف من ورائها فى أمر النصرانية واليهودية مطامع السياسة ومآرب أرباب المال وذوى الملك والسلطان ، ويقف فيه محمد لغاية روحية إنسانية بحتة يُملى عليه الله فى سبيلها الصيغة التى يُلقى بها إلى اليهود والنصارى وإلى الناس كافة ، يقول لهم فيها : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

ماذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا فى هذه الدعوة : ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئًا ، ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله ! فأما الروح المخلصة الصادقة ، فأما النفس الإنسانية التى كرّمت بالعقل والعاطفة فلا تستطيع إلا أن تؤمن بهذا دون غيره . لكن فى الحياة الإنسانية إلى الجانب النفسانى جانبها المادى . فيها هذا الضعف الذى يجعلنا

تراجع وفد النصارى ورجوعهم

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ .

نقبل لغيرنا علينا سلطانًا بثمن يشترى به أنفسنا وأرواحنا وقلوبنا . فيها هذا الغرور القتّال للكرامة وللعاطفة ولنور النفس العاقلة . هذا الجانب المادى المصور فى المال وفى الجاه وفى كاذب الألقاب والرتب ، هو الذى جعل أبا حَارِثَة أكثر نصارى نَجْران علمًا ومعرفة يُدلى إلى رفيق له باقتناعه بما يقول محمد ، فلما سأله رفيقه : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا كان جوابه : يمنعنى ما صنع بنا هؤلاء القوم ؛ شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أَبَوْا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .

دعا محمد اليهود والنصارى إلى هذه الدعوة أو يلاعن النصارى ؛ فأما اليهود فكان بينه وبينهم عهد الموادعة . إذ ذاك تشاور النصارى ثم أعلنوا إليه أنهم رأوا ألاّ يلاعنوه وأن يتركوه على دينه ويرجعوا على دينهم . ولكنهم رأوا حرص محمد على العدل حرصًا احتذى أصحابه فيه مثاله ، فطلبوا إليه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم فى أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم . وبعث محمد معهم أبا عُبَيْدَة ابن الجَراح ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه .

التفكير فى أمر قريش ومكة

وجعل محمد يمكِّن للحضارة التى وضع حجر الأساس فيها بتعاليمه ومثله ؛ وجعل يفكر هو وأصحابه من المهاجرين فيما لم يفتهم التفكير لحظة فيه منذ هجرتهم من مكة : فيما يجب أن يكون موقفهم من قريش وأمرهم معهم . ولقد كان يدفعهم إلى هذا التفكير دوافع عدةٌ ؛ ففى مكة كانت الكعبة بيت إبراهيم ومكان حجهم وحج العرب جميعًا . أفتراهم ينقطعون عن هذا الواجب المقدس الذى كانوا يقومون به إلى يوم أخرجوا من مكة ! وفيها ما يزال لهم أهل تهوِى إليهم نفوسهم وتشفق من بقائهم على الشرك أفئدتهم وقلوبهم . وفيها بقيت أموالهم ومتاعهم وتجارتهم مما منعتهم قريش منه حين هجرتهم . ثم إنهم إذ حضروا المدينة كانت موبوءة بالحمَّى فأصابهم منها عَنَتٌ شديد ، وبلغت منهم حتى جُهِدُوا مرضًا وكانوا يصلون قعودًا ؛ فزاد ذلك فى تحنانهم إلى مكة . وهم قد أخرجوا من مكة كارهين ، فكأنهم خرجوا مغلوبين على أمرهم . وليس فى طبع هؤلاء القرشيين أن يصبروا على الضيم أو أن يذعنوا للغَلَب دون تفكير فى الثأر لأنفسهم منه . وإلى جانب هذه الدوافع جميعًا كان يحركهم الدافع الطبيعى

دافع الحنين إلى الوطن ، إلى هذا المكان الذى منه نبتنا وفيه نشأنا ولأرضه وسهله وجبله ومائه كان أول حديثنا وأوّل صداقتنا وأوّل وُدنا . هذه البقعة من الأرض نَمَّتْنَا صغارًا فإليها مَثْوانا كبارًا ، بها تتعلق قلوبنا وعواطفنا ، وعنها نذود بقوتنا وبمالنا ، ونضحى بمجهودنا وبحياتنا ، وفيها نود أن ندفن بعد موتنا لنعود إلى ترابها الذى خرجنا منه . هذا الدافع الطبيعى أذكى فى أنفس المهاجرين سائر الدوافع ، وجعلهم لا ينفكون يفكرون فى قريش وفيما يجب أن يكون موقفهم منها . لن يكون هذا الموقف موقف استسلام أو استخذاء وقد صبروا فيها على الأذى ثلاثة عشر عامًا سويًّا . والدين الذى احتملوا فيه هذا الأذى والذى هاجروا فى سبيله لا يقرّ الضعف ولا اليأس ولا الاستكانة . وإذا كان يمقُت الاعتداء وينكره ، ويقرّرالإخاء ويدعو إليه ، فإنه يفرض الدفاع عن النفس وعن الكرامة وعن حريَّة العقيدة وعن الوطن . ولهذا الدفاع أتم محمد مع أهل يثرب بيعة العقبة الكبرى . فكيف يؤدى المهاجرون هذا الفرض عليهم لله ولبيته الحرام ولوطنهم مكة المحبَّب إلى قلوبهم ؟ ! هذا ما ستتَّجه إليه سياسة محمد والمسلمين معه ، حتى يتم له فتح مَكة ، وحتى يعلو دين الله وتعلو كلمة الحق فيها .

الفصل الثانى عشر

السرايا[1] والمناوشات الأولى

تفكير محمد فى أمر قريش – إيفاد السرايا لتخويف قوافلهم – غزوة عبد الله بن جحش فى الشهر الحرام – الإسلام والقتال .

استقرّ للمسلمين المقام بالمدينة بعد أشهر من الهجرة ، فبدأ تحنان المهاجرين إلى مكة يزداد ، وبدءوا يفكرون فيمن تركوا وما تركوا بها ، وما أنزلت قريش بهم من الأذى . فماذا عساهم يصنعون ؟ تذهب الكثرة من المؤرخين إلى أنهم فكروا وفكر محمد على رأسهم فى الانتقام من قريش لأنفسهم ، وفى مبادأتهم بالعداوة والحرب . بل إن بعضهم ليذهب إلى أنهم فكروا فى هذه الحرب منذ مقدَمهم إلى المدينة ، وإنما منعهم من إشعال نارها أنهم كانوا فى شغل بإعداد مساكنهم وتنظيم وسائل معاشهم . ويستدل هذا البعض بأن محمداً إنما عقد بيعة العقبة الكبرى لحرب الأحمر والأسود من الناس . وطبيعىّ أن تكون قريش أوّل من يتجه إليها نظره ونظر أصحابه ، ممّا فطنت له قريش بُكْرَة العقبة ، فخرجت فى فزع تسأل الأوس والخزرج عنه .

سياسة المسلمين بالمدينة

ويؤيد هذا البعض قوله بما وقع بعد ثمانية أشهر من مُقام الرسول والمهاجرين بالمدينة ؛ إذ بعث محمد عمه حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار إلى شاطئ البحر من ناحية العِيصِ حيث لقى أبا جهل بن هشام فى ثلثمائة راكب من أهل مكة ؛ وبأن حمزة كان على أهبة مقاتلة قريش إلا أن حجز بينهم مَجْدِىُّ بن عمرو الْجُهَنِىّ ، وكان مُوادِعًا الفريقين جميعًا ، فانصرف بعض القوم عن بعض دون قتال ؛ وإذ بعث محمد عُبَيْدَةَ ابن الحارث فى ستين راكبًا من المهاجرين دون الأنصار ، فساروا إلى ماء بالحجاز بوادى رابغ ، فلقيهم به جمع من قريش يزيد على مائتين على رأسهم

السرايا الأولى

(١) السرية : طائفة مختارة من الجيش أقصاها أربعمائة .

أبو سُفْيان ، فانسحبوا من غير قتال ، إلا ما روى من أن سَعْد بن أبي وقَّاص رَمى يومئذ بسهم « فكان أوّل سهم رُمى به فى الإسلام » ؛ وإذ بعث سعدَ بن أبي وقَّاص فى ثمانية من المهاجرين على رواية ، وفى عشرين منهم على رواية أخرى ، فخرجوا إلى أرض الحجاز ثم عادوا بعد أن لم يصيبوا ما أرسلوا فيه .

خروج النبي بنفسه

ويزيد هذا البعض دليلَه تأييداً بأن النبيَّ خرج بنفسه على رأس اثنى عشر شهراً من مَقْدَمه إلى المدينة ، واستعمل عليها سعد بن عُبَادة ، وسار إلى الأبْواء حتى بلغ ودّان يريد قريشًا وبنى ضَمْرة ؛ فلم يَلْقَ قريشًا وحالفته بنو ضَمْرة ، وأنه بعد شهر من ذلك خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بُوَاط يريد قافلة يقودها أمَيَة بن خَلَف عِدتها ألفان وخمسمائة بعير يحميها مائة محارب فلم يدركها ، أن اتخذت طريقًا غير طريق القوافل المعبَّد . وأنه بعد شهرين أو ثلاثة من عودته من بواط من ناحية رَضوى استعمَل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسَد وخرج فى أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل العُشَيْرةَ من بطن يَنْبُع فأقام بها جُمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣ م) ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان ففاتته . وكَسب من رحلته هذه أن وادع بنى مُدْلج وحلفاءهم من بنى ضَمْرة ، وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليال حتى أغار كُرز بن جابر الفهرى ، من المتصلين بمكة وبقريش ، على إبل المدينة وأغنامها ، فخرج النبي فى طلبه ، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة ، وتابع مسيره حتى بلغ وادياً يقال له سَفَوَان من ناحية بَدْر ، وفاته كرز فلم يدركه . وهذه هى التى يطلق عليها كتَّاب السيرة اسم غزوة بدر الأولى .

راى المؤرخين فى الغزوات الأولى

أفلا يقوم هذا كله دليلا على أن المهاجرين فكروا وفكر محمد على رأسهم فى الانتقام من قريش لأنفسهم وفى مبادأتهم بالعداوة والحرب ؟ وهو على أقل تقدير – فى رأى هؤلاء المؤرخين – يشهد بأنهم قصدوا من إرسال سراياهم وغزواتهم المبدئية هذه إلى غايتين ؛ الأولى : الوقوع على قوافل قريش فى ذهابها إلى الشام أو عودتها منها حين رحلة الصيف ، واحتمال ما يمكن

احتماله من الأموال التى تذهب هذه القوافل وتعود بالتجارة فيها . والثانية : أخذ الطرق على قوافل قريش فى رحلتها إلى الشام بعقد المُوادعات والأحلاف مع القبائل المتَّصلة ما بين المدينة وشاطئ البحر الأحمر ، بما يسهّل على المهاجرين مهاجمة هذه القوافل دون أن تلقى فى جوار هاته القبائل ما يَحميها من محمد وأصحابه ، حماية تمنع أخذ المسلمين رجالهَا وما لها أَخْذَ عزيز مقتدر . وهذه السَّرَايا التى عقد النبى عليه السلام ألويتها لحمزة ولعُبَيْدة بن الحارث ولسعد ابن أبى وقاص وهذه المحالفات التى عقدها بنو ضمرة وبنو مدلج وغيرهم ، تؤيد الغاية الثانية وتشهد بأن أخذ طريق الشام على أهل مكة كان بعض ما قصد إليه المسلمون .

رأينا فى الغرض من السرايا

أما أنهم بهذه السرايا ، التى بدأت بعد ستة أشهر من مقامهم بالمدينة والتى اشترك فيها المهاجرون وحدهم ، كانوا يقصدون حرب قريش وغزو قوافلها ، فذلك ما يقف الإنسان منه موقف التردد والتفكير . فلم تكن سَرية حمزة لتزيد على ثلاثين رجلا من المهاجرين ، ولم تزد سَرية عبيدة على ستين ، وكانت سَرية سعد لا تتجاوز ثمانية نفر على قول ، وعشرين على قول آخر . وكان الموكلون بحماية قوافل قريش عادة أضعاف هذه الأعداد ، وقد زادتهم قريش عدداً وعدة منذ أقام محمد بالمدينة وبدأ يحالف القبائل التى بها والقريبة منها . ومهما يكن من بأس حمزة وعبيدة وسعد ممن كانوا يرأسون سرايا المهاجرين ، فإن عِدة من معهم لم تكن لتشجعهم على الحرب ، مما جعلهم يكتفون منها جميعاً بتهديد قريش دون قتالها إلا ما قيل عن السهم الذى رَمى به سعد .

تعرض تجارة قريش للخطر

ثم إن قوافل قريش كان يحميها من أهل مكة من يَصِلهم بالكثيرين من المهاجرين أواصر القربى وصلات الدم ؛ فلم يكن من اليسير عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يتعرض هؤلاء وأولئك لطلب الثأر ، وأن يعرّضوا مكة والمدينة جميعًا لحرب أهلية استطاع المسلمون والوثنيون اتقاءها بمكة ثلاث عشرة سنة متتابعة من يوم بعث محمد إلى يوم هجرته . والمسلمون كانوا يعلمون أن بيعة العقبة كانت بيعةً دفاعيَّة تعهد فيها الأوس والخزرج بحماية محمد ، ولم يعاهدوه

ولا عاهدوا أحداً ممن معه على العدوان . فليس من اليسير مع هذا كله التسليم مع المؤرخين ، الذين لم يبدءوا بكتابة تاريخ النبى إلا بعد قرابة قرنين من وفاته ، بأن هذه السرايا والرحلات الأولى كان يقصد بها القتال بالفعل . فلابد لها إذاً من تأويل أقرب إلى العقل وأكثر اتفاقًا مع سياسة المسلمين فى هذه الفترة الأولى من مقامهم بالمدينة ، وأدق تمشيًا مع سياسة الرسول التى كانت قائمة يومئذ على قواعد التفاهم والاتفاق مع مختلف القبائل ، لكفالة حرية الدعوة الدينية من ناحية ، وكفالة حسن المعاملة والجوار من ناحية أخرى .

والراجح عندى أن هذه السرايا الأولى إنما قصد بها إلى إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطُرُّوا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد تفاهمًا يقى الطرفين شرور العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين ، ولأهل مكة سلامة تجارتهم فى طريقها إلى الشام . وقد كانت هذه التجارة التى تبعث بها مكة والطائف جميعًا ، والتى كانت تجىء إلى مكة من بلاد الجنوب ، تجارة واسعة النطاق ، حتى لقد كانت بعض القوافل تسير فى ألفى بعير ، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار . كانت صادرات مكة السنوية ، على ما قدّرها المستشرق «سْپرِنْجرَ» تُوازى مائتين وخمسين ألفًا من الدنانير ، أى نحو مائة وستين ألف جنيه ذهبًا . فإذا أيقنت قريش تعرُّضَ هذه التجارة للخطر آتيًا من أبنائها من الذين هاجروا إلى المدينة دعاها ذلك إلى التفكير فى التفاهم معهم تفاهمًا طمع المسلمون فى أن يكفل لهم ما كانوا يطمحون إليه من حرية الدعوة إلى دينهم ، ومن حرية الدخول إلى مكة والطواف ببيتها العتيق . ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكنًا ما لم تقدر قريش قوة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بها وإيصاد طريق التجارة فى وجهها . وهذا هو ما يفسر عندى رجوع حمزة ومن معه من المهاجرين الذين لَقُوا أبا جهل بن هشام عند ساحل الجزيرة لأول ما حجز مَجْدىُّ بن عمرو الجُهَنى بينهما ، كما يفسر كثرة اتجاه المسلمين بسراياهم إلى طريق تجارة مكة فى عدد لا يسهل معه تصوُّرهم مُقْدمين على الحرب . وهذا كذلك هو الذى يفسر حرصَ النبىّ ، بعد ما بدا من صَلَف

قريش وعدم اعتدادها بقوة المهاجرين ، على موادعة القبائل المقيمة على طريق هذه التجارة ، والتحالف معها تحالفاً نمى خبره إلى قريش لعلها ترعوى وتعود إلى التفكير فى التفاهم والاتفاق .

الأنصار والغزو الهجومى

يَدْعَم هذا الرأى بأقوى سند أن النبى عليه السلام لمَّا خرج إلى بُواط وإلى العُشيرة كان من بين الذين صحبوه عدد غير قليل من الأنصار أهل المدينة . والأنصار إنما بايعوه ليدفعوا عنه لا ليهاجموا معه . وسنرى ذلك صريحاً حين غزوة بدر الكبرى ؛ إذ يتردد محمد دون القتال حتى يوافق أهلُ المدينة عليه . وإذا كان الأنصار لا يرون مخالفة لبيعتهم فى أن يعاهد محمد غيرهم من الناس ، فليس معنى هذا أن يخرجوا معه لحرب أهل مكة وليس بين الفريقين من أسباب الحرب ما تجيزه أخلاق العرب ، أو يجيزه نظام صِلاتهم بعضهم ببعض . ومهما يكن فى هذه الموادعات التى يعقدها محمد من تقوية المدينة ومن توهين ما تطمع تجارة قريش فيه من أسباب الحماية ؛ فشتان ما بين ذلك وبين إعلان الحرب أو السعى إليها . فالقول إذاً بأن حمزة أو عُبَيدة بن الحارث أو سعد بن أبى وقاص إنما خرجوا لحرب قريش . وتسمية سَرياتهم غَزَوات مرجوح عندنا فلا نكاد نسيغه . والقول كذلك بأن محمداً إنما خرج إلى الأبواء وبواط والعُشَيرة غازياً ، فيه تجوّز كبير وتَرِد عليه الاعتراضات التى قدمنا . ولا يفسِّر أخْذُ مؤرخى محمد به إلا أنهم لم يترجموا لمحمد إلا فى أواخر القرن الثانى للهجره ، وأنهم كانوا متأثرين بالمغازى التى حدثت بعد ذلك منذ بَدْر الكبرى ، فاعتبروا ما سبقها من مناوشات يقصد بها إلى غير الحرب مغازى تضاف إلى حروب المسلمين أيَّام النبى .

والظاهر أن كثيرين من المستشرقين قد فطنوا لهذا الاعتراض وإن لم يشيروا فى كتبهم إليه . وإنما يدعونا إلى الظن بفطنتهم له أنهم ، مع مجاراتهم مؤرخى المسلمين فى قصد المهاجرين ومحمد على رأسهم إلى حرب أهل مكة منذ الساعة الأولى من مُقامهم بالمدينة ، قد أشاروا إلى أن هذه السرايا الأولى إنما كان يقصد بها إلى نهب تجارة القوافل ، فإن النهب كان بعض طباع أهل البادية ، وإن أهل المدينة إنما أغرتهم الغنيمة والسَّلب باتباع محمد على

خلاف عهدهم فى العقبة ، وهذا كلام مردود ؛ لأن أهل المدينة كأهل مكة لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب والنهب ، وأنهم فوق ذلك كان فى طبعهم ما فى طبع من يعيشون على الزراعة من حب الاستقرار مما يجعلهم لا يتحركون إلى قتال إلا لدافع قوىّ . أمّا المهاجرون فكان من حقهم أن يستخلصوا من أيدى قريش ما أخذت من أموالهم ؛ لكنهم لم يستعجلوا ذلك قبل بدر ، فلم يكن هو الدافع لإرسال السرايا والغزوات الأولى . ثم إن القتال لم يُشرعْ فى الإسلام ولم يقم به محمد وأصحابه لهذه الغاية البدوية التى يتوهم المستشرقون ، وإنما شُرع وقام به محمد وأصحابه حتى لا يفتنهم عن دينهم أحد ، وحتى يكون لهم من حرية الدعوة ما يشاءون . وسنرى من بعدُ تفصيل هذا والدليل عليه . وعندئذ يزداد أمامنا وضوحاً أن محمداً إنما كان يرمى من المعاهدات التى عقد إلى تعزيز المدينة ، حتى لا يتطرق إلى قريش فيها مطمع ، فلا يحاولوا إعنات المسلمين فيها كما حاولوا من قبلِ إعادتهم من بلاد الحبشة ؛ وأنه كان لا يأبى فى الوقت نفسه أن يعاهد قريشاً على أن تترك حرية الدعوة لدين الله طليقة ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

طبيعة أهل المدينة

إرهاب اليهود

ولعل محمداً رمى من وراء هذه السرايا والرحلات المسلحة إلى غرض آخر . لعله رمى إلى إرهاب اليهود المقيمين فى المدينة وعلى مقربة منها . فقد رأيت أن هؤلاء اليهود بعد أن طمعوا أوّل وصول محمد إلى المدينة فى ضمه إليهم ، وبعد أن وادعوه وعاهدوه على حريَّة الدعوة للدين ، وعلى إقامة شعائره وفرائضه . لم يلبثوا ، حين رأوا أمر محمد يستقر ولواء الإسلام يسمو ويرتفع ، أن بدءوا يقلبون للنبىّ ظهر المِجَنّ ويعملون للوقيعة به . ولئن قعدوا عن مصارحته بالعداوة خشيةَ أن تتعرض مصالحهم التجارية للارتباك إذا نشبت بين أهل المدينة حرب أهلية ، أو محافظة على عهد موادعتهم ، لقد لجأوا إلى كل وسيلة للدس بين المسلمين ولإثارة البغضاء بين المهاجرين والأنصار ، ولإيقاظ الأحقاد الماضية بين الأوس والخزرج بذكر يوم بُعَاث ورواية ما قيل من الشعر فيه .

دسائس اليهود

وقد فطن المسلمون لدسّهم ولمبالغتهم فيه ، وبلغوا من ذلك أن حشروهم فى زمرة المنافقين ، بل اعتبروهم شرًّا منهم ، فأخرجوهم من المسجد إخراجاً

عنيفًا ، وأبَوْا عليهم أن يجلسوا إليهم أو أن يتحدّثوا معهم ؛ وانتهى النبيّ عليه السلام إلى الإعراض عنهم بعد إذ حاول إقناعهم بالحجة والدليل ، وطبيعيّ لو ترك حبل يهود المدينة هؤلاء على غاربهم ، أن يستفحل أمرهم ويثيروا الفتنة التى يسعَوْن لإثارتها . وليس يكفى فى عرف الدقّة السياسية التحذير منهم والتنبيه إلى كيدهم ، بل لابد من إشعارهم أن للمسلمين من القوة ما يمكنهم من إخماد أية فتنة تقوم ، ومن القضاء على أسبابها واجتثاث أصولها . وخير وسيلة لهذا الإشعار إرسال السرايا والقيام بالمناوشات الحربية فى مختلف الأنحاء على ألا تتعرّض قوّات المسلمين لهزيمة تطمع اليهود كما تطمع قريشاً فيهم . وهذه المداورة هى ما وقع ؛ ووقع من رجال كحمزة سريعين إلى الغضب لا تكفى لصدّهم عن القتال وساطة موادع يدعو إلى السلم ما لم تكن المناوشة الحربية ثم الإمساك عن القتال فى عزّة وكرامة ، سياسة مرسومة ، وخطة مبيتة يقصد بها إلى دَرَك غايات معينة ، هى ما ذكرنا من تخويف اليهود من ناحية ، والسعى من ناحية أخرى للاتفاق مع قريش على ترك الدعوة للدين وإقامة شعائره حرة مطلقة من غير حاجة إلى حرب أو قتال .

الإسلام والقتال

وليس معنى هذا أن الإسلام كان يومئذ ينكر القتال دفاعا عن النفس ودفاعاً عن العقيدة ، دفعًا لمن يريد فتنة صاحبها عنها . كلا ! بل إن الإسلام لَيفرض هذا الدفاع . وإنما معناه أن الإسلام كان يومئذ ، كما هو اليوم وكما كان دائمًا ، ينكر حرب الاعتداء : ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [1] . وإذا كان لدى المهاجرين يومئذ ما يبيح لهم اقتضاء ما حجزت قريش من أموالهم عند هجرتهم فإن دفع فتنة المؤمنين عن دينهم كان أكبر عند الله ورسوله ، وكان الغايةَ الأولى التى شرع من أجلها القتال .

سرية عبد الله ابن جحش

والحجة على ذلك ما نزل من الآيات فى سَرِيّة عبد الله بن جَحْش الأسَدِيّ ؛ فقد بعثه رسول الله فى رجب من تلك السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع إليه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً . وفتح عبد الله الكتاب

(١) سورة البقرة آية ١٩٠ .

بعد يومين ، فإذا فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نَخْلَةَ (بين مكة والطائف) فتَرَصَّدْ بها قريشًا وتَعَلَّمْ لنا من أخبارهم » . وعلم أصحابه بالأمر وبأنه لا يستكره أحداً منهم ، فمضوا معه جميعاً خلا سعد ابن أبى وَقَّاص الزُّهْرىّ وعُتْبة بن غَزْوان اللَّذين ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضل فأسَرتهما قريش . وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا نَخلة . هناك مرت بهم عِير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحَضْرَمى ؛ وكان يومئذ آخر شهر رَجَب . وذكر عبد الله بن جَحْش ومن معه من المهاجرين ما صنعت قريش بهم وما حجزت من أموالهم ، وتشاوروا وقال بعضهم لبعض : « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فليمتَنِعُنَّ منكم به . ولئن قتلتموهم لتقتُلُنَّهمْ فى الشهر الحرام » . وترددوا وهابوا الإقدام ، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم . ورمى أحدُهم عمرو بن الحضرمىّ بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من قريش .

الفتنة أكبر من القتل

وأقبل عبد الله بن جحش بالعِير والأسيرين حتى قدموا المدينة على الرسول وحجز القوم لمحمد من مَغْنَمهمْ الخمس . فلما رآهم قال لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ؛ ووقف العِير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا . وأسقط فى يد عبد الله بن جحش وأصحابه ، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا . وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية ونادت فى كل مكان : إن محمداً وأصحابه استحلّوا الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدّم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا الرجال . وأجاب المسلمون الذين كانوا بمكة أن إخوانهم فى الدين من المهاجرين إلى المدينة إنما أصابوا فى شعبان . ودخلت يهودُ تريد إشعال نار الفتنة ، إذ ذاك نزل قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا)[1] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ .

وسُرّى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر ، وقبض النبيّ العير والأسيرين فافْتَدَتْهُما منه قريش ؛ فقال : لا نُفديكُمُوهما [1] حتى يَقْدَمَ صاحبانا — يعنى سعد بن أبى وقّاص وعتبة بن غزْوان — فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم . وقدم سعد وعُتبة وأفداهما النبيّ من الأسيرين . فأما أحدهما الحَكم بن كَيْسَان فأسلم وأقام بالمدينة . وأما الآخر فرجع إلى مكة وظل بها حتى مات على دينه ودين آبائه .

جديرٌ بنا أن نقف عند سَرِية عبد الله بن جحش هذه والآية الكريمة التى نزلت فيها ؛ فهى فى رأينا مفترق طرق فى سياسة الإسلام . هى حادث جديد فى نوعه يدل على روح قوىّ فى سموّه ، إنسانىّ فى قوّته ، ينتظم نواحى الحياة المادية والمعنوية والروحية كأشد ما يكون النظام قوّة ورفعة وتوجهاً إلى الكمال . فالقرآن يجيب المشركين عن سؤالهم عن القتال فى الشهر الحرام أهو من الكبائر ، ويقرّهم على أنه كذلك أمر كبير . لكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر . فالصَّدُّ عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال فى الشهر الحرام ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال فى الشهر الحرام والقتل فيه . وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء والتعذيب أكبر من القتل فى الشهر الحرام وفى غير الشهر الحرام . وقريش والمشركون الذين ينعَوْن على المسلمين ما قَتَلوا فى الشهر الحرام لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردّوهم عن دينهم إن استطاعوا . فإذا كانت قريش وكان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعاً ، فيَصُدُّون عن سبيل الله ويكفرون به ويُخرجون أهل المسجد الحرام منه ويفتنونهم عن دينهم ، فلا جناح على من تقع عليه أوزارهم وكبائرهم هذه إن هو قاتلهم فى الشهر الحرام ، وإنما الكبيرة أن يقَاتَلَ فى الشهر الحرام من لا يجترح من هذه الأوزاروزراً .

القرآن والقتال

الفتنة أكبر من القتل . وحقٌّ بل واجب على من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه أو يصدّ عن سبيل الله أن يقاتل فى سبيل الله حتى لا يُفْتَن وحتى يُنْصَرَ دين الله . هنا يرفع المستشرقون والمبشرون عقائرهم صائحين : أرأيتم ! هذا محمد

(١) أفداه : قبل منه الفداء .

يدعو دينه إلى الحرب وإلى الجهاد فى سبيل الله ، أى إكراه الناس بالسيف على الدخول فى الإسلام . أليس هذا هو التعصب بعينه ! وهذا فى حين تنكر المسيحية القتال وتمقت الحرب وتدعو إلى السلام ، وتنادى بالتسامح وتربط بين الناس برابطة الإخاء فى الله وفى السيِّد المسيح . ولست أؤيد لكى أناقش هؤلاء ، أن أذكر كلمة الإنجيل : « ما جئت لألقى على الأرض سلاماً بل سيفاً . . . إلخ » . وما تنطوى عليه هذه الكلمة من المعانى ؛ فالمسلمون يُقِرُّون دين عيسى كما نزل به القرآن . وإنما أريد بادئ الرأى أن أردَّ قولهم . إن محمداً دعا دينُه إلى القتال لإكراه الناس بالسيف على الدخول فى الإسلام . فهذه فرية ينكرها القرآن فى قوله تعالى : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ﴾ [1] ، وفى قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [2] . وفى كثير غير هاتين الآيتين الكريمتين .

الجهاد فى سبيل الله

والجهاد فى سبيل الله معناه الصريح ، على نحو ما ورد فى الآيات التى ذكرناها والتى نزلت فى سَرية عبد الله بن جحش ، قتال الذين يَفْتِنُون المسلم عن دينه ويصدّون عن سبيل الله ، وهذا هو القتال فى سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه . وبعبارة تتمشى مع أسلوب عصرنا الحاضر : الدفاع عن الرأى بالوسائل التى يقاتل بها أصحاب الرأى . فإذا أراد أحد أن يفتن رجلا عن رأيه بالدعاية وبالمنطق دون أن يحمله على ترك هذا الرأى بالقوّة وبغير القوّة من وسائل الرشوة والتعذيب ، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلا بإدحاض حجته وتفنيد منطقه ، لكنه إذا حاول بالقوة المسلحة أن يصد صاحب رأى عن رأيه ، وجب دفع القوَّة المسلحة بالقوَّة المسلحة متى استطاع الإنسان إليها سبيلا . ذلك بأن كرامة الإنسان تتلخَّص فى كلمة واحدة : عقيدته .

الإنسان وعقيدته

فالعقيدة أثمن ، عند من يقدر معنى الإنسانية ، من المال ومن الجاه ومن السلطان ومن الحياة نفسها ؛ من هذه الحياة المادّية التى يشترك الإنسان والحيوان فيها ،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .   (٢) سورة البقرة آية ١٩٠ .

يأكلون ويشربون ، وتنمو أجسامُهم وتَقْوى عضلاتهم . والعقيدة هى هذه الصلة المعنوية بين الإنسان والإنسان ، والصلة الروحية بين المرء وربه . وهى هذا الحظ الذى يمتاز به الإنسان على سائر الحيوان مما فى الحياة ، والذى يجعله يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويؤثر البائس والفقير والمسكين على أهله ولو كان به وبهم خَصَاصة ، ويتَّصل بالكون كله ليعمل دائبًا كى يبلغ الكونُ ما قدّر الله له من كمال .

إذا ملكت هذه العقيدة إنسانًا فحاول غيره فتنته عنها ولم يستطع دفاعًا عن نفسه ، فعل ما فعل المسلمون قبل هجرتهم إلى المدينة ، فاحتمل المساءة والأذى وصبر على الهون والضيم ، ولم يصدّه جوع ولا حرمان أيًّا كان نوعه عن التمسك بعقيدته . وهذا الذى فعل المسلمون الأوّلون هو الذى فعل المسيحيون الأولون . لكن الصابرين لعقيدتهم ليسوا هم سواد الناس ولا جماعتهم ، وإنما هم الصفوة والمختارون ومن حباهم الله من قوّة الإيمان ما يصغر معه كل أذى وكل ضيم ؛ وما يدكُّ الرّواسى ، وما تقول معه للجبل انتقل من مكانك ينتقل ، على حدّ تعبير الإنجيل . لكنك إذا استطعت أن تدفع الفتنة بسلاح من يحاول الفتنة ، وأن تقف فى وجه من يصدّ عن سبيل الله بوسائله ، وجب عليك أن تفعل ، وإلا كنت مُزَعْزَع العقيدة ضعيف الإيمان . وهذا ما فعل محمد وأصحابه بعد أن استقرّ لهم الأمر بالمدينة ؛ وهذا ما فعل المسيحيون بعد أن استقرّ لهم السلطان فى رومية وفى بُزَنطية وبعد أن لانَ قلب بعض عواهل الروم لدين المسيح .

المسيحية والقتال

ويقول المبشرون : لكن روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه . ولست أقف لأبحث عن صحة هذا القول . لكن تاريخ المسيحية أمامنا شاهد عدل ، وتاريخ الإسلام أمامنا شاهد عدل . فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خُضّبت أقطار الأرض جميعًا بالدماء باسم السيد المسيح ؛ خضبها الروم وخضبتها أمم أوربا كلها . والحروب الصليبية إنما أذكى لهيبهَا المسيحيون لا المسلمون . ولقد ظلَّت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوربا خلال السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية ، تقاتل وتحارب وتُريق الدماء ، وفى كل مرة كان البابوات

خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المَقْدِسَ وعلى الأماكن النصرانية المقدّسة . أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هَرَاطِقة وكانت مسيحيتهم زائفة ؟ أم كانوا أدعياء جُهالاً لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ؟ أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتج على المسيحية بها ؟ إن يكن ذلك بعض ما قد يقولون ، فإن هذا القرن المتم للعشرين الذى نعيش فيه والذى يسمونه عصر الحضارة الإنسانية العليا ، قد رأى ما رأت تلك العصور الوسطى المظلمة . فقد وقف اللورد اللنبى ممثل الحلفاء : إنكلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وأمريكا ، يقول فى بيت المقدس فى سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه فى أخريات الحرب العالمية الأولى : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

القديسون فى الإسلام والمسيحية

إذا كان من بين المسيحيين قدّيسون أنكروا القتال فى مختلف العصور وسَمَوْا بذواتهم إلى الذروة من معنى الإخاء الإنسانى ، بل من معنى الإخاء بين عناصر الكون كله ، فمن بين المسلمين كذلك قِدّيسون سمت نفوسهم هذا السموّ واتصلوا بكل الوجود اتصال إخاء ومحبة وإشراق ملأ منهم النفوس بوحدة الوجود . لكن هؤلاء القِدّيسين ، من النصارى والمسلمين ، وإن صوّروا المَثل الأعلى ، لا يمثلون حياة الإنسانية أثناء تطوّرها الدائم وفى دأب جهادها إلى الكمال ، إلى هذا الكمال الذى نحاول تصوّره ثم يقعد بنا العقل ويقعد بنا الخيال دون شيء من الدقّة فى إدراكه ، وإن نحن جازفنا بتصويره تمهيداً لما نحاول من جهود فى سبيله . وهذه سبع وخمسون وثلثمائة وألف سنة قد انقضت منذ هجرة النبى العربى من مكة إلى يثرب والناس فى مختلف العصور يزدادون فى القتال افتناناً وفى صنع آلاته الجهنمية المدمّرة دقةً وإتقاناً . وما تزال كلمات نبذ الحرب وإلغاء التسلح والتحكيم لا تزيد على أنها كلمات تقال فى أعقاب كل حرب تُنْهِك الأمم ، أو على أنها دعايات تُلْقى فى جوّ الحياة من أناس لم يستطيعوا حتى اليوم – ومن يدرى ! فلعلهم لا يستطيعون يوماً – أن يحقّقوا منها شيئاً ، وأن يُحِلوا السلام الصحيح ، سلام الإخاء والعدل ، محلّ السلام المسلح نذير الحرب وطليعة ويلاتها .

الإسلام دين الفطرة

والإسلام ليس دين وهْم وخيال ، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده إلى الكمال ؛ إنما الإسلام دين الفطرة التى فُطِر الناس جميعًا عليها أفراداً وجماعات ، وهو دين الحق والحرية والنظام . وما دامت الحرب فى فطرة الناس ، فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدقّ الحدود الإنسانية هو غاية ما تحتمل فطرة البشر ، وما يحقق للإنسانية اتصال تطورها فى سبيل الخير والكمال . وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأى والدعوة إليه ، وأن تُرْعَى فيها الْحُرُمات الإنسانية تمام الرعاية . وهذا ما قرر الإسلام على ما رأينا وما سنرى من بعدُ . وهذا ما نزل به القرآن ، وضعناه وسنضعه تحت نظر القارئ فى الأحوال والمناسبات التى نزل فيها .

الفصل الثالث عشر

غزوة بدر الكبرى

خروج أبي سفيان إلى الشام – محاولة المسلمين قطع الطريق عليه – نجاته فى الذهاب – انتظارهم إياه فى أوبته – علم قريش بتجهيز المسلمين – خروجهم إلى بدر – نجاة أبى سفيان بتجارته – تردد قريش والمسلمين فى القتال – زوال التردد – موقف الفريقين فى بدر – حماسة المسلمين وانتصارهم .

كانت سَرِيَّة عبد الله بن جحش مفترق طرق فى سياسة الإسلام ، فيها رمى واقد بن عبد الله التميمىّ عمرَو بن الحَضْرَمىّ بسهم فقتله ، فكان أوّل دم أراق المسلمون . وفيها نزلت الآية التى قدّمنا ؛ وعلى أثرها شُرِع قتال الذين يَفْتِنون المسلمين عن دينهم ويصدّون عن سبيل الله . وكانت هذه السرّية مفترق طرق كذلك فى سياسة المسلمين إزاء قريش ، أن جعلت الفريقين يتناظران بأساً وقوّة . فقد جعل المسلمون يفكرون من بعدها تفكيراً جِدّيًّا فى استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم . ذلك بأن قريشاً حاولت إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد وأصحابه أن قَتلوا فى الشهر الحرام ؛ حتى لقد أيقن محمد أن لم يبق فى مصانعتهم أو فى الاتفاق معهم رجاء . وقد خرج أبو سفيان فى أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة يقصد الشام ، وهى التجارة التى أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبى عليه الصلاة والسلام إلى العُشَيْرة . لكنهم إذ بلغوها كانت قافلة أبى سفيان قد مرّت بها ليومين من قبل وصولهم إليها ؛ إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها فى عودتها . ولما تحيَّن محمد انصرافها من الشام بعث طَلْحة بن عُبَيْد الله وسعيد بن زيد ينتظران خبرها ، فسارا حتى نزلا على كَشْدٍ الجُهَنىّ بالحَوْراء وأقاما عنده فى خِباء حتى مرّت العِيرُ ، فأسرعا إلى محمد ليُفضيا إليه بأمرها وما رأيا منها .

تجارة أبى سفيان

على أن محمداً لم ينتظر رسوليه إلى الحوراء وما يأتيان به من خبر العِير ؛

فقد ترامى إليه أنها عيرٌ عظيمة ، وأن أهل مكة جميعاً اشتركوا فيها ، لم يبق أحد منهم من الرجال والنساء استطاع أن يساهم فيها بحظ إلا فعل ، حتى قُوِّم ما فيها بخمسين ألفاً من الدنانير . ولقد خشى إن هو انتظرها أن تفوته العِير فى عودتها إلى مكة كما فاتته فى ذهابها إلى الشام . لذلك ندب المسلمين وقال لهم : هذه عِير قريش ؛ فاخرجوا إليها لعل الله يُنفِّلُكُموها . وخفّ بعض الناس وثقُل بعض ، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا طمعاً فى الغنيمة ، فأبى محمد عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله .

خروج المسلمين إلى بدر

أمَّا أبو سفيان فكان قد اتصل به خروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام ، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن رَبِحت تجارته ، وجعل ينتظر أخبارهم . وكان الجهنىّ الذى نزل عليه رسولا محمد بالحوراء بعضَ من سأل . ومع أن الجهنىّ لم يصدُقه الخبرَ فقد بلغه من أمر محمد والمهاجرين والأنصار معه مثل ما ترامى إلى محمد من خبره ؛ فخاف عاقبة أمره أن لم يكن من قريش فى حراسة العِير إلا ثلاثون أو أربعون رجلاً . عند ذلك استأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفَارِىّ فبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم ، ويخبرهُم أن محمداً قد عَرَض لها فى أصحابه . ووصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادى فقطع أُذُنَىْ بعيره وجدَع أنفه وحوّل رحله ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وجعل يصيح . يا معشر قريش ! اللطيمة[1] اللطيمةَ ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها . الغَوْثَ الغَوْثَ ! وما لبث أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يَسْتنفرهم . وكان أبو جهل رجلا خفيفاً حديدَ الوجه حديد اللسان حديد النَّظر . ولم تكن قريش فى حاجة إلى من يستنفرها ، وقد كان لكل منهم فى هذه العِير نصيب .

رسول أبى سفيان إلى قريش

على أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظلّمت قريش المسلمين من أهلها حتى أكرهتهم على الهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة ، فكانت تتردد بين النفير للذود عن أموالها والقعود رجاء ألا يصيب العِير مكروه . وهؤلاء

---

(١) اللطيمة : المال والتجارة .

ثأر قريش وكنانة

كانوا يذكرون أن قريشًا وكنانة بينهما ثأر فى دماء تبادل الفريقان إراقتها . فإذا هى خفت إلى لقاء محمد لمنع عِيرها منه خافت بنى بكر (من كنانة) أن تهاجمها من خلفها . وكادت هذه الحجة تَرْجَح وتؤيد رأى القائلين بالقعود ، لولا أن جاء مالك بن جُعْشم المُدْلِجى ، وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه . إذ ذاك رجحت كفة أبى جهل وعامر بن الحَضْرمى والدُّعاة إلى الخروج لدفع محمد والذين معه ، ولم يبق لكل قادر على القتال عذر فى التخلف أو يرسلَ مكانه رجلا . ولم يتخلف من أشراف قريش إلا أبو لهب الذى بعث مكانه العاص بن هشام ابن المغيرة وكان لطّ[1] له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها . وكان أمية بن خَلَف قد أجمع على القعود ، وكان شيخًا جليلاً جسيماً ثقيلاً ، فأتاه بالمسيجد عُقْبة بن أبى مُعَيْط وأبو جهل ، ومع عقبة مِجْمَرة فيها بَخُور ومع أبى جهل مُكْحُلة ومِروَد فوضع عُقبة المِجمرة بين يديه وقال : يا أبا على استجْمِر فإنما أنت من النساء . وقال أبو جهل : اكتحل أبا على فإنما أنت امرأة . فقال أمية : ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى ، وخرج معهم ؛ فلم يبق بمكة متخلف قادر على القتال .

مسيرة جيش المسلمين

أما النبى عليه السلام فقد خرج فى أصحابه من المدينة ، لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، وجعل عمرو بن أم مكْتوم فيها على الصلاة بالناس ، ورد أبا لبابةَ من الرَّوْحاء واستعمله على المدينة . وكانت أمام المسلمين فى مسيرتهم رايتان سوداوان ، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يَعْتَقبونها[2] ، كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيراً ، وكان حظ محمد فى هذا كحظ سائر أصحابه ؛ فكان هو وعلىّ بن أبى طالب ومَرْثَد ابن أبى مَرْثَد الغَنَوى يعتقبون بعيراً . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً وكانت عدَّة مَن خرج مع محمد إلى هذه الغزوة خمسة وثلثمائة رجل ، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس

---

(١) لط الغريم بالحق : ما طل فيه ومنعه ، ولط حقه جحده .

(٢) الاعتقاب هنا : أن يركب الواحد البعير مدة ثم ينزل ليتبعه الآخر فيركبه .

والباقون من الخزرج . وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبو سفيان منهم ، وهم يحاولون حيثما مرّوا أن يقفوا على أخباره . فلما كانوا بعرْق الظبْية لَقُوا رجلا من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبراً . وانطلقوا حتى أتوْا وادياً يقال له ذَفِران نزلوا فيه ، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشاً قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم . إذ ذاك تغيَّر وجه الأمر . لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجروهم والأنصار أمام أبي سفيان وعِيره والثلاثين أو الأربعين رجلا معه ، لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه ؛ بل هذه مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها . فَهب المسلمين أدركوا أبا سفيان وتغلبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا واقتادوا إبلَه وما عليها ، فلن تلبَث قريش أن تدركهم ، يَحْفزها حرص على مالها والدفاع عنه وتُؤازرها كثرة عديدها وعُدَدها ، وأن توقع بهم وأن تستردّ الغنيمة منهم أو تموت دونها . ولكن إذا عاد محمد من حيث أتى طمعت قريش وطمعت يهود المدينة فيه ، واضطر إلى موقف المصانعة ، واضطر أصحابه إلى أن يحتملوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكة . وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلو كلمة الحق وأن ينصر الله دينه .

خروج قريش من مكة

استشار الناسَ وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش ؛ فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المقدَاد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » ، وسكت الناس . فقال الرسول : أشيروا عليَّ أيها الناس . وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم . فلما أحس الأنصار أنه يريدهم ، وكان سعد بن مُعَاذ صاحب رايتهم التفت إلى محمد وقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجَلْ . قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحقّ ، وأعطيْناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ؛ فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك لو استعرضت بنا

مقالة الأنصار

هذا البحرَ فَخُضْتَه لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تَلقَى بنا عدوّنا غداً . إنا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللِّقاء – لعل الله يريك منا ما تَقَر به عينك ، فسِرْ بنا على بركة الله » . ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه محمد بالمسرة وبدا عليه كل النشاط وقال : سيروا وأبشروا ؛ فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . وارتحلوا جميعاً ، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق محمد على بعيره حتى وقف على شيخ من العرب وسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه ، ومنه عرف أن عير قريش منه قريب .

تنطس الأخبار

إذ ذاك عاد إلى قومه ، فبعث علىّ بن أبى طالب والزُّبَيْر بن العوّام وسعد ابن أبى وقّاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتلمَّسون له الخبر عليه . وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان عرف محمد منهما أن قريشاً وراء الكَثيب بالعدْوةِ القُصْوَى . ولما أن أجابا أنهما لا يعرفان عدَّة قريش ، سألهما محمد كم ينحرون كل يوم ؟ فأجابا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فاستنبط النبى من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف . وعرف من الغلامين كذلك أن أشراف قريش جميعاً خرجوا لمنعه ، فقال لقومه : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبدها » إذاً فلابدَّ له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم فى العدد ثلاثة أضعاف أن يَشْحَذوا عزائمهم ، وأن يوطِّنوا على الشدة أفئدتهم ونفوسهم ، وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه .

وكما عاد علىّ ومن معه بالغلامين وبخبر قريش معهما ذهب اثنان من المسلمين حتى نزلا بدراً ، فأناخا إلى تلّ قريب من الماء وأخذا وعاء لهما يستقيان فيه . وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جاريةً تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيه لك . وعاد الرجلان فأخبرا محمداً بما سمعا . فأما أبو سفيان فسبق العير يتَنطَّس الأخبار حَذَرَ أن يكون محمد قد سبقه إلى الطريق . فلما ورد الماء وجد عليه مَجْدِىَّ بن عمرو ، فسأله : هل قد رأى أحداً ؟ وأجاب مَجْدِىٌّ بأنه

لم ير إلا راكبين أناخا إلى هذا التلّ ، وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين . فأتى أبو سفيان مُناخهُما فوجد فى روث بعيريهما نوًى عرفه من علائف يثرب ، فأسرع عائداً إلى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مُساحلاً البحر مسرعًا فى مسيره ، حتى بَعُد ما بينه وبين محمد ، ونجا .

انفلات أبى سفيان ونجاة عيره

وأصبح الغد والمسلمون فى انتظار مروره بهم ، فإذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم وأن مُقاتلَة قريش هم الذين ما يزالون على مقربة منهم ؛ فيذوى فى نفوس جماعة منهم ما كان يملؤها من أمل الغنيمة ، ويجادل بعضهم النبىَّ كى يعودوا إلى المدينة ولا يَلْقَوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم . وفى ذلك نزل قوله تعالى : (وإِذْ يَعِدُكُم اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِين)[1] .

أيكون قتال ؟

وقريش هم أيضًا ، ما حاجتهم إلى القتال وقد نجت تجارتهم ؟ أليس خيراً لهم أن يعودوا من حيث أتوا ، وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بِخُفَّىْ حنين ؟ كذلك فكر أبو سفيان وبذلك أرسل إلى قريش يقول لهم : إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجَّاها الله فارجعوا ، ورأى من قريش رأيه عددٌ غير قليل . لكن أبا جهل ما لبث حين سمع هذا الكلام أن صاح : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً فنُقيمَ عليه ثلاثًا ننحر الْجُزُر ، ونُطْعِم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها . ذلك أن بدراً كانت موسمًا من مواسم العرب ؛ فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسره العرب ، فيما رأى أبو جهل ، بخوفهم من محمد وأصحابه ، مما يزيد محمداً شوكةً ويزيد دعوته انتشاراً وقوة وخاصةً بعد الذى كان من سَرِيَّة عبد الله بن جحْش وقتل ابن الحَضْرَمِىِّ وأخذ الأسرى والغنائم من قريش .

وتردّد القوم بين اتباع أبى جهل مخافة أن يُتَّهموا بالجبن ، وبين الرجوع

---

(١) سورة الأنفال آية ٧ .

بعد أن نجت عيرهم ، فلم يرجع إلا بنو زُهرة الذين اتبعوا مشورة الأخْنَس بن شريق ، وكان فيهم مطاعاً . واتبعت سائرُ قريش أبا جهل حتى ينزلوا منزلا يتهيئون فيه للحرب ثم يتشاورون بعد ذلك . ونزلوا بالعُدوة القُصْوى خلف كثيب من الرمل يحتمون به . أمَّا المسلمون الذين فاتهم الغنيمة فقد أجمعوا أن يثبتوا للعدو إذا أجمع على محاربتهم ، لذلك بادروا إلى ماء بدر ، ويَسّر لهم مطر أرسلته السماء مسيرتَهم إليها . فلما جاءوا أدنى ماء منها نزل محمد به .

نزول المسلمين بدراً

وكان الحُبَاب بن المنْذِر بن الجَمُوح عليما بالمكان ؛ فلما رأى حيث نزل النبيّ قال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ؛ فانهضْ بالناس حتى تأتيَ أدنى ماء من القوم فتنزلَ ثم نُغَوّر ما وراءه من القُلُب[1] ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتلَ القوم فنشربَ ولا يشربون . ولم يلبث محمد حين رأى صواب ما أشار به الحُبَاب أن قام ومن معه واتَّبع رأى صاحبه ، معلنًا إلى قومه أنه بشرٌ مثلهم وأن الرأى شُورَى بينهم وأنه لا يقطع برأى دونهم ، وأنه فى حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم .

بناء العريش للنبى

ولما بَنَوا الحوض أشار سعد بن مُعاذ قائلا : « نبى الله ، نبنى لك عريشًا تكون فيه وتُعدُّ عندك ركائبك ثم نَلْقَى عدوَّنا ؛ فإن أعزّنا الله وأظهَرَنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحِقت بمن وراءنا من قومنا ؛ فقد تخلَّف عنك أقوام يا نبيّ الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقَى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » . وأثنى محمد على سعد ودعا له بخير ، وبنى العريش للنبى ، حتى إذا لم يكن النصر فى جانبه وجانب أصحابه لم يقع فى يد عدوّه واستطاع اللَّحاق بأصحابه فى يثرب .

---

(١) القلب : جمع قليب ، وهو البئر . يذكّر ويؤنث . وتغويرها : كبسها بالتراب حتى ينضب ماؤها .

صدق إيمان المسلمين

هنا موضع لوقفة إعجاب بصدق وفاء المسلمين وعظيم محبّتهم لمحمد وإيمانهم برسالته . فها هم أولاء يعلمون أن قريشًا تفوقهم فى العدد وأنها ثلاثة أمثالهم ، ومع ذلك اعتزموا الوقوف فى وجهها وقتالها . وها هم أولاء يرون الغنيمة فاتتهم فلم يصبح الكسب المادى هو الذى يحفزهم للقتال ، ومع ذلك قاموا إلى جانب النبىّ يؤيدونه ويعزّزونه . وها هم أولاء تتردّد نفوسهم بين الطمع فى النصر وخوف الهزيمة . ومع ذلك فكروا فى حماية النبىّ وتَوْقيته أن يظفر به عدّوه ، ومهدوا له سبيل الاتصال بمن ترك بالمدينة . فأىّ موقف أدعى للإعجاب من هذا الموقف ؟ وأىّ إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان !

ونزلت قريش منازل القتال ، ثم بعثوا من يقصّ لهم خبر المسلمين فجاءهم بأنهم ثلثمائة أو يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولا كمين لهم ولا مورد ؛ ولكنهم قوم ليس لهم مَنْعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله . ولمَّا كانت صفوة قريش قد خرجوا فى هذا الجيش ، خشى بعض ذوى الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكة مكانة . لكنهم خافوا حدّة أبى جهل ورميه إيَّاهم بالجبن والخوف ، وإن لم يمنع ذلك عُتْبة بن رَبيعة من أن يقف بينهم قائلا : « يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئًا . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته . فارجعوا وخلوا بيْن محمد وسائر العرب ؛ فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك لم نتعرّض منه لما تكرهون » . فلمَّا بلغت أبا جهل مقالة عتبة استشاط غيظًا وبعث إلى عامر بن الحضرمىّ يقول له : « هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانْشُدْ مقتلَ أخيك » . وقام عامر فصرخ : وَاعَمْراه ! فلم يبق بعد ذلك من الحرب مفرّ . وأعجل القتالَ أن اندفع الأسْوَد بن عبد الأسد المَخْزومىّ من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذى بنوا ؛ فعاجله حمزة بن عبد المطَّلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دمًا ، ثم أتبعها حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض . ولا شىء أرهف لظُبَا السيوف من منظر الدم ؛ ولا شىء أشدّ إثارةً

حمزة يقتل ابن عبد الأسد

لعواطف القتال والحرب فى الإنسان من مرأى رجل مات بيد العدوّ وقومه وقوف ينظرون .

وما إن سقط الأسود حتى خرج عُتْبة بن رَبيعة بين أخيه شَيْبة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة . وخرج إليه فتيةٌ من أبناء المدينة . فلما عرفهم قال لهم : ما لنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا . ونادى مناديهم : يا محمد أخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا . وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلىّ بن أبى طالب وعُبَيْدة بن الحارث . ولم يُمْهل حمزةُ شَيْبَةَ ولا أمهل علىٌّ الوليد أن قتلاهما ، ثم أعانا عُبَيدة وقد ثبت له عُتْبَة . فلما رأت قريش من ذلك ما رأت ، تزاحف الناس ، والتَقَى الجمعانِ صبيحة الجمعة لسبع عشر خلت من شهر رمضان .

التقاء الجمعين

وقام محمد على رأس المسلمين يعدل صفوفهم . فلما رأى كثرة قريش وقلّة رجاله وضعف عُدتهم إلى جانب عُدّة المشركين عاد إلى العريش ومعه أبو بكر ، وهو أشد ما يكون خوفًا من مصير ذلك اليوم ، وأشد ما يكون إشفاقًا مما يصير إليه أمر الإسلام إذا لم يتم للمسلمين النصر . واستقبل محمد القبلة واتجه بكل نَفْسه إلى ربه ، وجعل ينشُده ما وعده ويهتف به أن يُتم له النصر . وبالغ فى التوبة والدعاء والابتهال وجعل يقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخُيلائها تحاول أن تكذّب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم إن تَهلك هذه العصابةُ اليوم لا تُعبد » . وما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه ؛ وجعل أبو بكر من ورائه يرد على منكبيه رداءه ويُهيب به : يا نبىَّ الله ، بعض مناشدتك ربَّك ؛ فإن الله منجزٌ لك ما وعدك . ولكن محمداً ظلَّ فيما هو فيه أشدَّ ما يكون توجهًا وأشد ما يكون تضرُّعًا وخشية واستعانة بربه على هذا الموقف الذى لم يتوقعه المسلمون ولم يتخذوا له عُدته ، حتى خفَق خَفْقَة من نُعاس رأى خلالَها نصرَ الله ، وانتبه بعدها مستبشراً ، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابراً محتسبًا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

دعاء محمد وابتهاله

وسَرَت من نفسه القوية ، أمدها الله من لدنه بما سَما بها فوق كل قوّة ،

إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته قوّةٌ ضاعفت عزمهم ، وجعلت كلَّ رجل منهم يعدِل رجلين بل يعدل عشرة رجال . ويسيرٌ عليك أن تقدر هذا إذا ذكرت ما لازدياد القوّة المعنوية من أثر فى النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوّة المعنويَّة فيهَا . فدافع الوطنية يزيدها . وهذا الجندى الذى يقف مدافعًا عن وطنه المهدد بالخطر مُمْتلئ النفس بالعاطفة الوطنية ، تتضاعف قوّته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به ، وبمقدار تخوُّفه من الخطر الذى يتهدد العدوُّ الوطنَ به . ولهذا تغرِس الأمم فى نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حبَّ الوطن والاستهانة بالتضحية فى سبيله . والإيمان بالحق وبالعدل وبالحرية وبالمعانى الإنسانية السامية يزيد القوّة المعنوية فى النفس بما يضاعف القوّة المادية فيها . والذين يذكرون ما قام به الحلفاء فى الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان ، أساسُها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق ويحاربون فى ألمانيا الجندية المسلحة ويمهدون لعهد سلام ونور ، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوّة فى نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف فى أكثر أمم العالم . وما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب ما كان محمد يدعو إليه ! إلى اتصال الإنسان بالوجود كله اتصالا يندمج به فيه ويصبح قوّة من قوى الكون الموجه له إلى سبيل الخير والنعمة والكمال ! نعم ما الوطنية وما قضيَّة السلام إلى جانب الوقوف فى جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه ، والذين يصدّون عن سبيله . والذين ينزلون بالإنسان إلى دَرَك الوثنية والإشراك . إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوّة بمقدار ما فى الوطن كله من قوّة ، ويزيدها حب السلام للإنسانية كلها قوّة بمقدار ما فى الإنسانية من قوّة ، فما أكثرَ ما يزيدها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوّة ! ! إنه ليجعلها قديرةً أن تُسيِّر الجبال ، وتحرّك العوالم ، وتهيمن بسلطانها المعنوى على كل من كان أقلّ منها فى هذا الأمر إيمانًا . وهذا السلطان المعنوى يزيد قوتها أضعافًا مضاعفة ، فإذا لم يصل هذا السلطان المعنوى إلى غاية كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الموقعة ، لم تبلغ القوّة المادية كل ما تطمح إلى بلوغه ، وإن هى زادت بفعل هذا الإيمان الذى ازداد قوّة بتحريض

القوة المعنوية

محمد أصحابه فعوَّضهم بذلك عن قلَّة عددهم وعُدَّتهم . وفى حال النبى وأصحابه هذه نزلت الآيتان : (يأَيها النَّبىُّ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ . اَلآن خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُم ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُم أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [1]

تحريض محمد المؤمنين

ازداد المسلمون قوة بتحريض محمد إيَّاهم ووقوفه بينهم ودَفْعِهم لمقاتلة العدوّ والصيحة بهم أن الجنّة لمن أحسن البلاء منهم ومن غَمس يده فى العدوّ حاسراً . ووجَّه المسلمون أكبر همهم إلى سادات قريش وزعمائها يريدون استئصالهم جزاء وِفاقاً لما عذّبوهم بمكة ، ولما صدّوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله . رأى بلال أميَّة بن خَلَف وابنه ، ورأى بعض المسلمين الذين عرفوه بمكة حوله . وكان أميَّة هو الذى عذّب بلالاً إذ كان يُخرجه إلى رَمْضاء مكة فيُضجعه على ظهره ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليفتِنه عن الإسلام ، فيقول بلال : أحَدٌ أحَدٌ – رأى بلالٌ أمية فصاح به : أميَّة رأس الكفر لا نجوتُ إن نجا ! وحاول بعضُ المسلمين من حول أميَّة أن يحولوا دون قتله وأن يأخذوه أسيراً . فصرخ بلال بأعلى صوته فى الناس : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خَلَف ! لا نجوت إن نجا . واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قُتل أمية . وقتل معاذ بن عمرو بن الجَمُوح أبا جهل بن هشام . وخاض حمزة وعلىّ وأبطال المسلمين وطيسَ المعركة وقد نَسى كلٌّ منهم نفسه ونسى قلة أصحابه وكثْرة عدوّه ، فثار النقع وامتلأ الجو بالغبار ، وجعلت هام قريش تطير عن أجسادها والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوَّة ويصيحون مهللين : أحدٌ أحدٌ ، وقد كشِفتْ أمامهمْ حُجُبُ الزمان والمكان وأمدّهم الله بالملائكة يبشّرونهم ويزيدونهم تثبيتاً وإيماناً ، حتى لكأن الواحد

بلال يقتل أمية ابن خلف

---

(١) سورة الأنفال آيتا ٦٥ و ٦٦ .

محمد وسط المعمعة

منهم إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوّه إنما تحرك قوة الله يده . ووقف محمد وسط هذا الوطيس يتمشّى خلالَه ملك الموت يَقُطُّ رقبة الكفر ، فأخذ حفنةً من الحصباء فاستقبل بها قريشًا وقال : شاهتِ الوجوه ! ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال : شُدُّوا . وشدّ المسلمون وما يزالون أقل من قريش عددًا ، لكن كل واحد منهم امتلأت بنفحة من أمر الله نفسه ، فلم يكن هو الذى يقتل العدوّ ، ولا كان هو الذى يأسِر من يأسر ، لولا هذه النفحة التى ضاعفت قوته المعنويَّة بما ضاعفت قوَّته المادية . وفى ذلك نزل قوله تعالى : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (١) ، وقوله تعالى : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (٢)

لمَا آنس الرسول أن الله أنجزه وعده وأتمَّ على المسلمين النصر عاد إلى العريش . وفرّت قريش فطاردهم المسلمون يأسِرون منهم من لم يُقْتَلْ ولم يساعفه حسن فِراره بالنجاة .

هذه غزوة بدر التى استقرَّ بها الأمر للمسلمين من بعدُ فى بلاد العرب جميعًا ، والتى كانت مقدمة وَحْدة شبه الجزيرة فى ظلال الإسلام ، ومقدمة الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف ، والتى أقرَّت فى العالم حضارة لا تزال ولن تزال ذات أثر عميق فى حياته . ولقد تعجَب إذ تعلم أن محمداً ، على ما كان من تحريضه أصحابه وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوه ، قد طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا بنى هاشم وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش ، مع أنهم اشتركوا فى قتال المسلمين ، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله . ولا تحسب أنه فى ذلك أراد أن يحابى أهله أو أحدًا ممن يَمُتّون إليه بآصرة القربى ، فنفس محمد أسمى من أن تتأثر بمثل هذا ، وإنما ذكر لبنى هاشم مَنْعَهم إياه مدى ثلاثة عشر

المسلمون لا يقتلون من أحسنوا إلى المسلمين

---

(١) سورة الأنفال آية ١٢ . (٢) سورة الأنفال آية ١٧ .

عاماً من يوم بعثه إلى يوم هجرته ، حتى كان عمه العباس معه ليلة بيعة العقبة .
وذكر لغير بنى هاشم من قريش جميل مَنْ قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة ، التى اضطرَّته بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب ، بعد أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة . فهذا المعروف الذى تقدَّم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنةً يُجْزَى مَنْ قدَّمها بمثلها ، بل يُجزَى بعشر أمثالها ، لذلك كان شفيعًا لهؤلاء عند المسلمين ساعة القتال ، وإن أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البَخْتَرِى أحد الذين قاموا فى نقض الصحيفة ، فقد أبى وقُتل .

ولَّى أهل مكة الأدبار كاسفًا بالهم ، خاشعة من الذل أبصارهم ، لا يكاد أحدهم يلتقى نظره بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلا من سوء ما حلَّ بهم جميعًا . أمَّا المسلمون فأقاموا ببدر إلى آخر النهار ، ثم جمعوا الذين قتلوا من قريش فحفروا لهم قَلِيبًا فدفنوهم فيه . وقضى محمد وأصحابه تلك الليلة فى الميدان فى شغل بجمع الغنيمة والسهر على الأسرى . وإذا جنّ الليل جعل محمد يفكر فى نصر الله المسلمين على قلَّة عددهم ، وخذلانه المشركين الذى لم يكن لهم من قوة الإيمان عضدٌ تعتزُّ به كثرتهم . جعل يفكر فى هذا ، حتى سمعه أصحابه جَوْفَ الليل وهو يقول : « يأهل القليب ! يا عتبة بن ربيعة ، ويا شَيْبة بن ربيعة ! ويا أميَّة بن خلف ! ويا أبا جهل بن هشام ! — واستمر يذكر من فى القليب واحدًا بعد واحد — يأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا » . قال المسلمون : يا رسول الله ، أتنادى قومًا جيَّفوا [1] ! قال عليه السلام : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » . ونظر رسول الله فى وجه أبى حُذَيْفَة بن عُتْبة فألفاه كئيبًا قد تغيَّر لونه . فقال : « لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟ قال أبو حذيفة : لا والله يا رسول الله ! ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام . فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما كان

أهل القليب

(١) جيفوا : أنتنوا .

عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزننى أمره » فقال له رسول الله خيرًا ودعا له بخير .

اختلاف المسلمين على الفيء

ولما أصبح الصبح وآن للمسلمين أن يرتحلوا قافلين إلى المدينة ، بدءوا يتساءلون فى الغنيمة لمن تكون ، قال الذين جمعوها : نحن جمعناها فهى لنا . وقال الذين كانوا يطاردون العدوّ حتى ساعة هزيمته : نحن والله أحقّ بها ، فلولانا لما أصبتموها . وقال الذين يحرسون محمدًا مخافة أن يرتدّ إليه العدوّ : ما أنتم ولاهم أحق بها منا ، وكان لنا أن نقتل العدوّ ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكنَّا خِفْنا على رسول الله كرّة العدو فقمنا دونه . فأمر محمد الناس أن يردّوا كل ما فى أيديهم من الغنائم ، وأمر بها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه .

قسمته بينهم على السواء

وبعث محمد إلى المدينة عبد الله بن رَوَاحة وزيد بن حارثة بشيرين يُلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر . وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعه الأسرى وما أصاب من المشركين من غنيمة جعل عليها عبد الله ابن كعب . وسار القوم ، حتى إذا تخطَّوْا مَضِيقَ الصَّفَراء نزل محمد على كثيب فقسم هناك النَّفَل الذى أفاء الله على المسلمين ، بين المسلمين على سواء . يقول بعض المؤرخين إنه قسمه بينهم بعد أن أخذ منه الخمس ، لقوله تعالى : (وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[1] .

ويذهب الأكثرون من كتَّاب السيرة ، والمتقدمون منهم خاصة ، أن هذه الآية نزلت بعد بدر وبعد قَسْم فيئها ، وأن محمدًا جعل القسمة بين المسلمين على سواء ، وأنه جعل للفرس مثل ما للفارس ، وجعل للورثة حصة من استُشهد ببدر ، وجعل حصَّةً لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد بدرًا ما كان قائمًا فيها بعمل المسلمين ، ومن حرَّضه حين الخروج إلى بدر وتخلّف لعذر قبله الرسول .

(١) سورة الأنفال آية ٤١ .

وكذلك قسم الفىء بالقسط . فلم يشرك المقاتل وحده فى الحرب والنصر ، بل اشترك فى الحرب والنصر كل من كان لعمله فى الفوز حظ أيًّا كان هذا العمل ، وفى ميدان القتال كان أو بعيدًا عنه .

قتل أسيرين

وبينما المسلمون فى طريقهم إلى مكة قُتل من الأسرى رجلان : أحدهما النَّضْر بن الحارث ، والآخر عُقْبة بن أبى مُعَيْط . ولم يكن محمد ولا كان أصحابه إلى هاته اللحظة قد وضعوا للأسرى نظامًا يكون على مقتضاه قتلهم أو فِداؤهُم أو استرقاقهم . لكن النضر وعُقْبة كانا من المسلمين أيام مُقامهم بمكة شرًّا مستطيرًا ، وكانا لا ينفكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعان . قُتل النَّضْرُ حين عُرض الأسرى على النبي عليه السلام عند بلوغهم الأُثَيْل ، فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها الأسير وقال لرجل إلى جنبه : محمد والله قاتلى ! لقد نظر إلىَّ بعينين فيهما الموت . قال الذى إلى جنبه : ما هذا والله منك إلا رعب . وقال النضر لمُصْعَب بن عُمَيْر ، وكان أقرب مَنْ هناك به رحمًا : كلِّم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه ، فهو والله قاتلى إن لم تفعل . فكان جواب مصعب : إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا ، وكنت تعذِّب أصحابه . قال النضر : لو أسرتك قريش ما قتلتك أبدًا وأنا حىّ . قال مُصْعَب : والله إنى لا أراك صادقًا ، ثم إنى لست مثلك ، فقد قطع الإسلام العهود . وكان النضر أسير المِقْداد ، وكان يطمح أن ينال افتداء أهله إياه مالاً كثيرًا . فلما رأى الحديث حول قتله صاح : النضر أسيرى . قال النبي عليه السلام : اضرب عنقه ، واللَّهمَّ أغن المقداد من فضلك . فقتله علىٌّ بن أبى طالب ضربًا بالسيف .

ولمَّا كانوا فى طريقهم بعِرْق الظُّبْيَة أمر النبىُّ بقتل عُقْبة بن أبى مُعَيط فصاح عقبة : فمَنْ للصبية يا محمد ؟ ! قال : النار . وقتله علىّ بن أبى طالب أو قتله عاصم بن ثابت ، على اختلاف فى الرواية .

أنباء النصر بالمدينة

وقبل أن يصل النبي والمسلمون المدينة بيوم وصلها رسولاه زيد بن حارثة وعبد الله بن رَوَاحة ، وَدخل كل واحد من ناحية منها ؛ فجعل عبد الله ينادى على راحلته يبشر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه ، ويذكر لهم مَنْ قُتل من

المشركين . وجعل زيد بن حارثة يصنع صنيعة وهو ممتط القصْواء ناقة النبى . وسُرّ المسلمون واجتمعوا وخرج من كان منهم فى داره وانطلقوا يهللون لهذا النصر العظيم . أما الذين بقوا على الشرك ، وأما اليهود ، فقد كُبتوا لهذا النبأ ، وحاولوا أن يقنعوا أنفسهم وأن يقنعوا الذين أقاموا فى المدينة من المسلمين بعدم صحته ، فصاحوا : إن محمداً قُتل وأصحابه هُزموا ، وهذه ناقته نعرفها جميعاً لو أنه انتصر لبقيت عنده ، وإنما يقول زيد ما يقول هذياناً من الفزع والرعب . لكن المسلمين ما لبثوا حين تثبتوا من الرسولين واطمأنوا إلى صحة الخبر أن زاد بهم السرور لولا حادث طرأ خفف من سرورهم . ذلك الحادث هو موت رُقية بنت النبى ، وكان تركها عند ذهابه إلى بدر مريضة ، وترك معها زوجها عثمان بن عفان يمرّضها . ولما أيقن المشركون والمنافقون بنصر محمد أسقط فى أيديهم ، ورأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف هوان ومذلة ، حتى قال أحد زعماء اليهود : بطنُ الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .

اليهود والمشركون بالمدينة

ودخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم ، فلما جيء بهم ورجعت سَوْدَة بنت زمْعة زوج النبىّ من مناحة ابنى عفراء وكانت بها ، رأت أبا يزيد سهَيْل بن عمرو أحد الأسرى مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلم تملك نفسها أن توجّه إليه الكلام قائلة : أى أبا يزيد ! أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم ، ألاَ مِتم كراماً ! فناداها محمد من البيت : يا سَوْدة ! أعلى الله عزّ وجل وعلى رسوله تحرّضين ! فأجابت : يا رسول الله ! والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت . وفرّق محمد الأسارى بين أصحابه وقال لهم : استوصوا بهم خيراً . وطفِق من بعد ذلك يفكر فيما يصنع بهم : أفيقتلهم أم يأخذ منهم الفِداء ؟ إن منهم لأشدّاء فى الحرب أقوياء فى النضال ، ومَن امتلأت بالحقد والضغينة نفوسهم بعد الذى كان من هزيمتهم ببدر وما لحقهم من عار الأسر ؛ فإن هو قبل الفِداء كانوا عليه حرباً وألْباً ، وإن هو قتلهم أثار فى نفوس أهليهم من قريش ما ربما هدأ لو أنهم افتدوهم .

أسرى بدر

وعرض الأمر على المسلمين يستشيرهم ويترك لهم الخِيار . وكان المسلمون قد آنسوا من الأسرى طمعًا فى الحياة واستعدادًا لفدية عظيمة . فقال هؤلاء : لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة وعطفًا ، ولا نعلم أحدًا آثر عند محمد منه . وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له : أبا بكر ، إن فينا الآباء والإخوان والعمومةَ وبنى العم وأبعدنا قريب . كلِّم صاحبك يَمُنّ علينا أو يُفَادِنا . فوعدهم خيرًا ، وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم ، فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبى بكر ، فنظر إليهم شَزْرًا . وذهب وزيرا محمد إليه فجعل أبو بكر يُلِينه ويَفْثَؤه [1] ويقول يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ! قومُك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان وأبعدهم منك قريب . فامْنُنْ عليهم منّ الله عليك ، أو فادِهم يَستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما أخذتَ قوةً للمسلمين ، فلعلَّ الله أن يُقْبِل بقلوبهم . وسكت محمد فلم يجبه ، فقام فتنحَّى . وجاء عمر فجلس مجلسه وقال : يا رسول الله ، هم أعداء الله ، كذّبوك ، وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب رقابهم ؛ هم رءوس الكفر وأئمَّة الضلالة يوطئْ الله بهم الإسلام ويُذلّ بهم أهلَ الشرك . ولم يجب محمد . فعاد أبو بكر إلى مقعده الأوّل وجعل يتلطف ويستعطف ، ويذكر القرابة والرّحم ، ويرجو لهؤلاء الأسرى الهدى إن هم أبْقِى على حياتهم ؛ وعاد عمر مثال العدل الصارم لا تأخذه فيه هوادة ولا رحمة . ولما فرغ أبو بكر وعمر من كلامهما ، قام محمد فدخل قُبَّته فمكث فيها ساعة ثم خرج والناس يخوضون فى شأنهم ، يّقف بعضهم فى صفّ أبى بكر ، ويقف آخرون فى صف عمر . فشاورهم فيما يصنع ، وضرب لهم فى أبى بكر وفى عمر مثلا . فأمَّا أبو بكر فى الملائكة كمثل ميكال ينزل برضا الله وعفوه عن عباده ، ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم ، كان ألين على قومه من العسل . قدّمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال : (أُفٍّ لَكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ [2] وأن قال : (فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّه مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [3] ،

مقالتا أبى بكر وعمر فى الأسرى

حديث النبى فيهم إلى المسلمين

(١) يفثؤه : يكسر غضبه ويسكنه . (٢) سورة الأنبياء آية ٦٧ .
(٣) سورة إبراهيم آية ٣٦ .

ومثله فى الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول : (إِنْ تُعذِّبْهمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعزيزُ الحكِيم) [١] . ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله . ومثله فى الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّارًا) [٢] وكمثل موسى إذ يقول : (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قلوبهمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ) [٣] . ثم قال : وإن بكم عَيْلَةً ؛ فلا يفوتنَّكم رجل من هؤلاء إلا بِفداء أو ضربة عنق . وتشاور القوم فيما بينهم وكان من بين الأسرى شاعر ، هو أبو عزّة عمرو بن عبد الله بن عُمَيْر الجُمَحِيّ ، رأى خلاف القوم واستعجل النَّجاة فقال : لى خمس بنات ليس لهنّ شيء فتصدّق بى عليهنّ يا محمد ، وإنى لمعطيك موثقًا لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبدًا . فأمَّنه النبيّ وأرسله من غير فداء ، وكان هو وحده الأسير الذى ظفر بهذا الأمان . على أنه ما لبث أن نكث عهده ، وأن عاد فقاتل بعد عام فى أحُد . فأسِر وقُتِل . وظلَّ المسلمون فى تشاورهم زمنًا انتهوا بعده إلى قبول الفداء . وفى قبولهم نزلت هذه الآية الكريمة : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [٤] .

جدال المستشرقين

يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل النَّضْر وعُقبة ويتساءلون : أليس فى ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدم ظمأ لولاه لما قتِل الرجلان ، ولكان أكرم للمسلمين بعد أن كسبوا الموقعة أن يردّوا الأسرى وأن يكتفوا بالفىء الذى غنموا ؟ وذلك تساؤل الذى يريد أن يُثير فى النفوس عوامل إشفاق لم يكن له يومئذ موضع ، ليكون له بعد ألف سنة من هذه الغزوة وما تلاها من غزوات وسيلة للنَّيْل من الدين ومن صاحب الدين . على أن هذا التساؤل ما يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنَّا بين

---

(١) سورة المائدة آية ١١٨ .
(٢) سورة نوح آية ١٢٦ .
(٣) سورة يونس آية ٨٨ .
(٤) سورة الأنفال آية ٦٧ .

مقتل النضر وعقبة ، وما يجرى اليوم وما سيجرى دائمًا ما دامت الحضارة الغربية ، التى تتّشح بوشاح المسيحية ، متحكمة فى الأرض . فهل تراه يوازى شيئًا إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها ! وهل تراه يوازى شيئًا إلى جانب ما وقع من مجازر الحرب الكبرى ؟ ! ثم هل هو يوازى شيئًا مما حدث أثناء الثورة الفرنسية الكبرى ، وأثناء الثورات المختلفة التى وقعت وتقع فى أمم أوربا المختلفة ؟ !

الثورة على الوثنية

وليس ريب فى أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قوية من محمد بعثه الله ليقوم بها فى وجه الوثنية والمشركين من عُبّادها . ثورة قامت أول أمرها بمكة ، واحتمل محمد وأصحابه من أجلها ألوان العذاب ثلاثة عشر عامًا سويًّا . ثم انتقل المسلمون إلى المدينة وحشدوا جموعهم وقوّاتهم بها ، وما تزال مبادئ الثورة قائمة على أشدّها فى نفوسهم وفى نفوس قريش جميعًا . وانتقال المسلمين إلى المدينة ، وموادعتهم اليهود من أهلها ؛ وما قاموا به من مناوشات سبقت بدرًا ، وغزوة بدر هذه – ذلك كله كان سياسة الثورة ولم يكن مبادئها . كان السياسة التى قرر القائم بهذه الثورة وأصحابُه أن يتّبعوا لإقرار أسمى المبادئ – التى جاء الرسول بها . وسياسة الثورة شىء ومبادئها شىء آخر . والخُطَّةُ التى تتّبعُ قد تختلف تمام الاختلاف عن الغاية المقصودة من هذه الخطة . أما وقد جعل الإسلام الأخوّة أساس الحضارة الإسلامية ، فيجب أن يسلك للنجاح سبله وإن اقتضى ذلك من العنف والشدّة ما لا مفرّ منه .

مجزرة سان بارتلمى

وهذا الذى صنع المسلمون بأسرى بدر آية فى الرحمة وفى الحسنى إلى جانب ما يقع فى الثورات التى يتغنّى أهلها بمعانى العدل والرحمة . وهو لا شىء إلى جانب المجازر الكثيرة التى قامت باسم المسيحية من مثل مجزرة سان بارْتلمى ، هذه المجزرة التى تعتبر سبّة فى تاريخ المسيحيّة لا شىء من مثلها قطّ فى تاريخ الإسلام . هذه المجزرة التى دُبِّرت بليل ، وقام فيها الكاثوليك يذبحون البروتستنتيين فى باريس وفى فرنسا غدرًا وغيلة فى أحط صور الغدر وأبشع صور الغيلة . فإذا قتل المسلمون اثنين من أسرى بدر الخمسين لأنهم كانوا قُساة على المسلمين ، مدى الأعوام الثلاثة عشر التى احتمل المسلمون فيها صنوف

الأذى بمكة ، فقد كان فى ذلك من مزيد الرحمة ومن اعتبار الفائدة العاجلة ما نزلت معه الآية : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [1] .

النذير إلى مكة

بينما كان المسلمون فى فرحهم بنصر الله وما أفاء عليهم من المغانم كان الحَيسُمان بن عبد الله الخُزَاعِيّ يحثُّ الطريقَ إلى مكة ، حتى كان أول من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها فى كبرائها وأشرافها وسادتها . وقد ذهلت مكة أول الأمر فلم تصدّق الخبر . وكيف لا تذهل وهى تسمع أخبار هزيمتها ومقتل السادة الأشراف منها ! لكن الحيسمان لم يكن يهذى وكان يؤكد ما يقول وهو أشد من قريش جزعًا لما أصابهم . فلما استوثقوا من روايته خرُّوا صَعِقين ، حتى لقد حُم أبو لهب ومات بعد سبعة أيام . وتشاورت قريش ما تصنع فأجمعت على ألا تنوح على قتلاها مخافة أن يبلغ محمد وأصحابه فيشمتوا بهم ، وألا تبعث فى أسراها حتى لا يأرَب [2] عليها محمد وأصحابه ويغلوا فى الفداء . وانقضى زمن وقريش صابرة على محنتها ، حتى سنحت فرصة افتدائها أسراها . إذ ذاك قدم مِكْرَز بن حفص فى فداء سُهَيل بن عمرو .

موت أبى لهب

افتداء الأسرى

وكأنما عز على عمر بن الخطاب أن يُفْتَدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه ، فقال : يا رسول الله ، دعنى أَنزِعْ ثَنِيَّتَىْ سُهَيْلُ بن عمرو فَيَدْلَعْ لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن أبدًا . فكان جواب النبى هذا الجواب البالغ غاية السمو : لا أُمَثِّل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيًّا .

افتداء أبى العاص ابن الربيع وإسلامه

وبعثت زينب ابنة النبى تفتدى زوجها أبا العاص بن الربيع ، وكان فيما بعثت قلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بَنى بها . فلما رآها النبى رق لها رقة شديدة ، فقال إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا . ثم إنه اتفق فيما بينه وبين أبى العاص على أن يفارق زينب وقد فرّق الإسلام بينه وبينها . وبعث محمد زيد بن حارثة وصاحبا معه فجاء بها إلى المدينة . على أن أبا العاص ما لبث بعد مدة إساره أن خرج إلى الشام

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ .
(٢) لا يأرب عليها : لا يتشدد عليها .

فى مال قريش ؛ حتى إذا كان على مقربة من المدينة لقيته سَرِية لمحمد فأصابوا ما معه . فانحدر تحت الليل إلى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته ، وردّ المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمنًا إلى مكة فلما رده لأصحابه من قريش قال : يا معشر قريش ! هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ! جزاك الله خيرًا فقد وجدناك وفيًّا كريمًا . قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت . وعاد إلى المدينة ورد عليه النبى زينب . واستمرت قريش تفتدى أسراها . وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف ، إلا من لا شىء عنده فقد مَنّ عليه محمد بحريته .

بكاء قريش قتلاها

لم يهوِّن ذلك على قريش مُصابها ، ولا هو دعاها إلى أن تهادن محمدًا أو أن تنسى هزيمتها ؛ بل ناحت نساء قريش من بعد ذلك على قَتْلاها شهرًا كاملا ، فجززن شعر رءوسهن ، وكان يؤتَى براحلة الرجل أو بفرسه فَيَنُحْن حولها ؛ ولم يخالف فى هذا إلا هند بنت عُتْبَة زوج أبى سفيان . ولقد

هند وأبو سفيان

مشى نساء منهن يومًا إليها فقلن : ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ ! فقالت : أنا أبْكيهم فيبلغ محمدًا وأصحابه فيشْمَتوا بنا ويشمت بنا نساء الخزرج ! لا والله حتى أثأر من محمد وأصحابه ! والدُّهن علىَّ حرام حتى نغزو محمدًا ! والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت ، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قَتَلة الأحبة . ومكثت لا تقرَب الدهن ولا تقرَب فراش أبى سفيان وتحرض الناس حتى كانت وقعة أحُد . أما أبو سفيان فنذَر بعد بَدْر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا .

الفصل الرابع عشر

بين بدر وأُحد

المسلمون واليهود – غزوة بنى قينقاع – جلاء اليهود عن المدينة – قريش تتحرك – غزوة السويق – القبائل تتحرك فتفر – هزيمة صفوان بن أمية.

أثر بدر بالمدينة (يناير سنة ٦٢٤ م)

تركت بدرٌ بمكة من عميق الأثر ما رأيت . تركت الحرص على الثأر من محمد والمسلمين يوم تتهيأ فرصة الثأر . لكن أثرها بالمدينة كان أوضح وأكثر اتصالا بحياة محمد والمسلمين معه . فقد شعر اليهود والمشركون والمنافقون بعد بدر بمزيد قوّة المسلمين ؛ ورأوا هذا الرجل الأجنبيّ الذى وفد عليهم منذ أقلّ من عامين فارًّا مهاجراً من مكة ، يزداد سلطاناً وبأساً ، ويكاد يكون صاحب الكلمة فى أهل المدينة جميعاً لا فى أصحابه وحدهم . وكان اليهود ، على ما رأيت ؛ قد بدأ تذمرهم من قبل بدر وبدأت مناوشاتهم المسلمين ، حتى لكأن ما بين الفريقين من عهد الموادعة هو الذى حال فى أكثر من حادث دون الانفجار . لذلك ما كاد المسلمون يعودون من بدر معتزين بالنصر حتى جعلت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتأتمر ، وحتى بدأت تُغرى بهم وترسل الأشعار فى التحريض عليهم . بذلك انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة ، وانتقل من الدين إلى السياسة . فلم تبق دعوة محمد إلى الله هى وحدها التى تُحارَب ، بل كان كذلك سلطانه ونفوذ أمره موضع الرهبة والخوف ، وكان لذلك سبب الائتمار به والتفكير فى اغتياله . ولم يكن محمد لتخفى عليه من ذلك كله خافية ؛ بل كان يقع على أخباره جميعاً ويتصل بعلمه كل ما يدبَّر ضدّه ، وجعلت النفوس من جانبى المسلمين واليهود تمتلئ بالغِلّ والضغينة شيئاً فشيئاً ، رويداً رويداً ، وجعل كل فريق يتربص بصاحبه الدوائر .

اليهود يأتمرون

قتل المسلمين أبا عفك وعصماء

وكان المسلمون إلى حين نصرهم الله ببدر يخشون مُواطنيهم من أهل المدينة ، فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدى على مسلم منهم . فلما عادوا

منتصرين أخذ سالم بن عُمَيْر نفسَه بالقضاء على أبى عفك (أحد بنى عمرو ابن عوف) ؛ لأنه كان يُرسل الأشعار يطعن بها على محمد وعلى المسلمين ، ويحرّض بها قومه على الخروج عليهم ؛ وظل كذلك بعد بدر يُغرى بهم الناس . فذهب إليه سالم فى ليلة صائفة كان أبو عفك نائماً فيها بفناء داره ، فوضع سالم السيف على كبده حتى خشَّ فى الفراش . وكانت عَصْماء بنت مروان (من بنى أميَّة بن زيد) تعيب الإسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه ، وظلت كذلك إلى ما بعد بدر فجاءها يوماً عُمَير بن عوف فى جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفرٌ من ولدها نيام ومنهم من تُرْضعه ؛ وكان عمير ضعيف البصر ، فجسَّها بيده فوجد الصبى ترضعه فنحَّاه عنها ، ثم وضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها . ورجع عمير من عند النبى بعد أن أخبره الخبر ، فوجد بنيها فى جماعة يدفنونها ، فأقبلوا عليه فقالوا : يا عمير أنت قتلتَها ؟ قال : « نعم ! فكيدونى جميعاً ثم لا تُنظِرون . فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى حتى أموتَ أو أقتلكم » . وقد كان من أثر جرأة عمير هذه أن ظهر الإسلام فى بنى خَطمة ، وكانت عصماء زوجَ رجل منهم ، فأظهر منهم من كان يُخفى إسلامه وانضم إلى صف المسلمين وسار معهم .

مقتل كعب ابن الأشرف

ويكفى أن نضيف إلى هذين المثلين مَصْرَع كعْب بن الأشْرَف ، وهو الذى قال حين علم بمقتل سادات مكة : « هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبَطْنُ الأرض خيرٌ من ظهرها » وهو الذى ذهب إلى مكة لما تيقن الخبر يحرّض على محمد ويُنشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب ؛ وهو الذى رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يشبِّب بنساء المسلمين . وأنت تعرف طبائع العرب وأخلاقها ، وتعرف مبلغ تقديرهم للعِرْض وثورتهم من أجله . وقد بلغ غيظ المسلمين أنهم أجمعوا على قتل كعب ، واجتمع فى ذلك عدة منهم ؛ وذهب إليه أحدُهم يستدرجه بالطعن على محمد إذ يقول له : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءً من البلاء ، عادتْنا العرب ورَمَوْنا على قوس واحدة ، وقُطِعَت عنا السبُلُ حتى ضاع العيال وجُهدت الأنفس . ولمَّا أنس إلى كعب وأنس إليه كعب طلب إليه مالاً لنفسه ولجماعة

من أصحابه على أن يَرْهَنُوه دروعهم ؛ ورضى كعب على أن يجيئوه من بعدُ . وإنه لفى داره على بعد من المدينة إذ ناداه صَدْرَ الليل أبو نائلة (أحد المؤتمرين به) فنزل إليه على رغم تحذير عروسه إيَّاه النزول فى مثل هذه الساعة من الليل . وسار الرجلان حتى التقيا بأصحاب أبى نائلة وكعبٌ آمنٌ لا يخافهم . وخرج القوم يتماشون حتى مشَوْا ساعة بَعدُوا بها عن دار كعب وهم يتجاذبون أطراف الحديث ، ويذكرون من حالهم وما وصلوا إليه من شدّة ما يزيد فى طمأنينة كعب . وفيما هم يسيرون كان أبو نائلة يضع يده فى رأس كعب ويشمُّها ويقول : ما رأيت كالليلة طِيباً أعطرَ قطُّ . ولما لم تبق لدى كعب شبهة فيهم ، عاد أبو نائلة فوضع يده على شعر كعب ثم أخذ بفَوْديه وقال : اضربوا عدوَّ الله فضربوه بأسيافهم حتى مات .

مخاوف اليهود وعدوانهم

زاد هذا الحادث فى مخاوف اليهود ، فلم يبق منهم إلا من يخاف على نفسه . مع ذلك لم يسكتوا عن محمد ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أىَّ فيض . قدمت امرأة من العرب إلى سوق اليهود من بنى قَيْنُقَاع ومعها حلية جلست إلى صائغ منهم بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى من خلفها فى سرّ منها فأثبت طَرَف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت ؛ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ ، وكان يهوديًّا ، فقتله وشدَّدت اليهود على المسلم فقتلوه . فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع . وطلب محمد إلى هؤلاء أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش . فاستخفّوا بوعيده وأجابوه : « لا يغرَّنَّك يا محمد أنك لقيتَ قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنَّا نحن الناس » . لم يبق بعد ذلك إلاّ مقاتلتهم أو يتعرّض المسلمون ويتعرّض سلطانهم بالمدينة للتداعى ، ثم يصبحوا أحدوثة قريش وقد جعلوا قريشاً بالأمس أحدوثة العرب .

حصار بنى قينقاع

وخرج المسلمون فحاصروا بنى قينقاع فى دُورهم خمسة عشر يوماً متتابعة لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد ، حتى لم يبق لهم إلا

النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه . وسلموا ، فقرّر محمد ، بعد مشورة كبار المسلمين ، قتلَهم جميعاً فقام إليه عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول ، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً ، فقال : يا محمد أحْسنْ فى مواليّ .

رجاء عبد الله ابن أبى ألا يقتلوا

فأبطأ عليه النبيُّ فكرَّر الطلب ، فأعرض النبيّ عنه فأدخل يده فى جيب درع محمد ، فتغيَّر محمد وقال له : أرْسلْنى ؛ وغضب حتى رأوا لوجهه ظُلَلاً ، ثم أعاد وأثر الغضب فى نبرات صوته : « أرسلْنى ويْحك ! » . قال ابن أبى : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى مواليَّ ! أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصُدهم فى غداة واحدة ! إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . وكان عبد الله لا يزال ذا سلطان فى المشركين من الأوس والخزرج ، وإن كان هذا السلطان ضعُف بقوة المسلمين . فرأى النبيُّ فى إلحاحه ما جعله يعود إلى سكينته ، وخاصَّةً بعد إذ جاء عُبَادَة بن الصَّامت يحدّثه بحديث ابن أَبَى ؛ إذ ذاك رأى أن يُسدى هذه اليد إلى عبد الله وإلى المشركين موالى يهود جميعاً حتى يصبحوا مدينين لإحسانه ورحمته ؛ على أن يجلو بنو قينقاع عن المدينة جزاءً لهم على صنيعهم . وقد حاول ابن أبى أن يحدَّث مرة أخرى إلى محمد فى بقائهم ومُقَامهم . لكن أحد المسلمين حال دون ابن أبىّ ولقاء محمد واشتجرا حتى شجّ عبد الله . فقالت بنو قينقاع : والله لا نقيم ببلد تشَجُّ فيه يابن أبى ولا نستطيع عنك دفاعاً . وعلى ذلك سار بهم عُبَادة بعد الذى كان من تسليمهم وإذعانهم تاركين المدينة ، تاركين وراءهم السلاح وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغون ، حتى بلغوا وادى القرَى . هناك أقاموا زمناً ، ومن هناك احتملوا ما معهم ، وساروا صَوْب الشمال حتى بلغوا أذْرِعات على حدود الشام ، وبها أقاموا . ولعلهم إنما استهوتهم إلى الشمال أرض المَعَاد التى كانت وما تزال تَهْوِى إليها أفئدة اليهود .

إجلاؤهم عن المدينة

الوحدة السياسية فى المدينة

ضعُفت بالمدينة شوكة اليهود بعد جلاء بنى قينقاع عنها . فقد كان أكثر اليهود المنتسبين إلى المدينة يقيمون بعيداً عنها بخَيْبر وبأمّ القُرَى . ولهذه النتيجة كان يقصد محمد من إجلائهم . وهذا تصرف سياسىّ آية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر . وهو مقدّمة لم يكن منها بدّ للآثار السياسية التى ترتّبت

بعد ذلك على خُطة محمد ؛ فليس شىء أضرّ على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها . وإذا كان نضال هذه الطوائف لا بدّ منه فهو لا بدّ منته، إلى تغلب طائفة على سائرها غلبةً تنتهى إلى سيادتها . وقد تحدّث بعض المؤرخين منتقداً تصرّف المسلمين إزاء اليهود ، زاعماً أن حكاية المسلمة التى ذهبت إلى الصائغ كان من اليسير إنهاؤها ما دام قد قُتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل ، وقد نستطيع دفع هذا القول بأن مقتل اليهودىّ والمسلم لم يمحُ ما لَحق من إهانة فى شخص المرأة التى عبث اليهودىّ بها ، وأن مثل هذه المسألة عند العرب ، أكثر منها عند غيرهم من الأمم ، جديرة أن تثور لها الثائرات ، وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة . وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطلعون على هذا التاريخ . ولكنَّ هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتباراً آخر أقوى منه . فحادث المرأة كان من حصار بنى قَيْنُقاع وإجلائهم عن المدينة ما كان مقتل ولىّ عهد النمسا بسيراجيفو سنة ١٩١٤ من الحرب الكبرى التى اشتركت فيها أوربا جميعاً . هو إنما كان الشرارة التى ألهبت ما تؤجّجُ به نفوس المسلمين واليهود جميعاً لهباً أدَّى إلى انفجارها وإلى كل ما يُحدث الانفجار من آثار . والحقَّ أن وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين بالمدينة وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة ، قد جعل المدينة ، من الناحية السياسية ، على بُرْكان لا مفرّ له من أن ينفجر ؛ وقد كان حصار بنى قينقاع وإجلاؤهم عن المدينة أول مظاهر هذا الانفجار .

كان طبيعيًّا أن ينكمش غير المسلمين من أهل المدينة بعد إجلاء بنى قينقاع عنها ، وأن تبدو من الهدوء والسكينة فى المظهر الذى يعقب كل عاصفة وكل إعصار . وعلى هذا الهدوء ظلّ الناس شهراً كاملا كان جديراً أن تتلوه أشهر لولا أن أبا سفيان لم يُطق البقاء بمكة ، قابعاً تحت خزْى هزيمة بدر ، دون أن يعيد إلى أذهان العرب بشبه الجزيرة أن قريشاً ما تزال لها قوّتها وعصبيَّتها ومقدرتها على الغزو والقتال . لذلك جمع مائتين ، وقيل أربعين ، من رجال مكة وخرج فيهم مُسْتَخْفين ؛ حتى إذا كانوا على مقربة من المدينة خرجوا

غزوة السويق

سَحَراً فأتَوْا ناحية يقال لها العُرَيْض ، فوجدوا رجلا من الأنصار وحليفاً له فى حَرْث لهما فقتلوهما ، وحرّقوا بيتين بالعريض ونخيلا . ثم رأى أبو سفيان أنّ يمينه بغزو محمد بَرَّت ، فانكفأ هارباً خائفاً أن يطلبه النبىّ وأصحابه . وندَب محمد أصحابه فخرجوا فى إثره وهو على رأسهم حتى بلغوا قَرْقَرة الكُدْر ، وأبو سفيان ومن معه جادّون فى الفرار يتزايد خوفهم فيلقون ما يحملون من زادهم من السَّويق ، فإذا مر المسلمون به أخذوه . ولمَّا رأى محمد أن القوم أمعنوا فى الفرار عاد وأصحابه إلى المدينة . وقد انقلب فرار أبى سفيان عليه بعد أن كان يحسب الغزوة ترفع رأس قريش من مصاب بدر . وبسبب السَّوِيق الذى ألقت قريش سُميت هذه الغزوة من غزوات محمد غزوةَ السَّوِيق .

استفاضت أنباء محمد هذه بين العرب جميعاً . أمَّا القبائل البعيدة عنه فظلت فى مأمنها لا تُعْنَى إلا قليلا بأمر هؤلاء المسلمين الذين كانوا إلى يوم بدر — أى إلى أشهر قليلة خلت — أذلَّة يلتمسون بالمدينة ملجأ ، والذين أصبحوا اليوم يقفون فى وجه قريش ، ويُجلون بنى قينقاع ، ويُرسلون الرعب إلى رُوع عبد الله بن أبىّ ، ويطاردون أبا سفيان ، ويظهرون مظهراً لم يكن من قبل مألوفاً . فأمَّا القبائل القريبة من المدينة فقد بدأت ترى ما يتهدّد مصيرَها من قوّة محمد وأصحابه ، ومن تَعَادُلِ هذه القوة وقوّة قريش بمكة تعادلا تخشى نتائجه . ذلك بأن طريق الشاطئ إلى الشام هى الطريق المُعَبَّدة المعروفة . وتجارة مكة فى مرورها بها تفيد هذه القبائل فائدة اقتصادية تذكر . وقد عاهد محمد كثيرا من القبائل التى تتاخم الشاطئ ، فهدد هذا الطريق وعرَّض رحلة الصيف لمخاطر قد تضطر معها قريش إلى العدول عن متاخمة الشاطئ . فما عسى أن يصيب هذه القبائل إذا انقطعت تجارة قريش ؟ وكيف تراهم يحتملون شظف الحياة فى هذه البقاع الشديدة الشظف بطبعها ؟ فمن حقها إذاً أن تفكر فى مصيرها وفيما عسى أن يصيبها من أثر هذا الموقف الجديد الذى لم يُعْرَفْ قبل هجرة محمد وأصحابه إلى يثرب ، والذى لم يصل إلى ما وصل إليه من تهديد حياة هذه القبائل قبل بدر وانتصار المسلمين فيها .

تهديد طريق الشاطئ إلى الشام

فزع العرب من المسلمين

لكن بدراً أدخلت الرعب فى قلوب هذه القبائل . أفتراها تُغير على المدينة وتحارب المسلمين ، أم ماذا تراها تصنع ؟ بلغ محمداً أن جمعاً من غَطَفَان وسُلَيم اعتزم الاعتداء على المسلمين ؛ فخرج إلى قَرْقَرة الكُدْر ليأخذ عليهم الطريق . فلما وصل إلى ذلك المكان رأى آثار النَّعَم ولم يجد فى المجال أحداً ، فأرسل نفراً من أصحابه فى أعلى الوادى وانتظر هو فى بطنه . فلقى غلاماً اسمه يَسَار ، فسأله فعلم منه أن الجمع ارتفع إلى الماء ؛ فجمع المسلمون ما وجدوا من نَعَم فاقتسموه بعد أن أخذ محمد الخمس ، كنص القرآن . قيل : وكان ما غنموا خمسمائة بعير أخرج النبى خمسها وقسم الباقى فأصاب كلّ رجل بعيران . وبلغ محمداً أن جمعاً من بنى ثَعْلَبَة ومُحَارِب بذى أَمَرَّ قد تجمعوا يريدون أن يُصِيبوا من أطرافه . فخرج عليه السلام فى أربعمائة وخمسين من المسلمين ، فلقى رجلا من ثَعْلَبَة فسأله عن القوم ، فدلَّه الرجل على مكانهم وقال له : إنهم يا محمد إن سمعوا بمسيرك هربوا فى رءوس الجبال ، وأنا سائر معك ودالُّك على عورتهم . فما لبث المغيرون حين سمعوا باقتراب محمد منهم أن فرُّوا فوق الجبال . وبلغه أن جمعاً كبيراً من بنى سُلَيم ببَحْران تهيئوا لقتاله ؛ فخرج فى ثلثمائة رجل فأغذُّوا السير ، حتى إذا كانوا دون بَحْران بليلة لقيهم رجل من بنى سُلَيم ؛ فسأله محمد عنهم فأخبره أنهم تفرَّقوا وعادوا أدراجَهم . وكذلك كان هؤلاء الأعراب فى فزع من محمد وفى قلق على مصيرهم ، ما يكادون يفكرون فى الكيد لمحمد وفى السير لملاقاته حتى تنخلع قلوبهم لمجرد سماعهم بسيره لملاقاتهم .

فزع اليهود

وفى هذه الأثناء وقع مقتل كعب بن الأشرف على نحو ما قدّمنا ، فأصاب اليهودَ كذلك من الفزع ما جعلهم يلزمون دورهم لا يخرج أحد منهم مخافة أن يصيبه ما أصاب كعباً . وزاد فى فزعهم أن أهدر محمد دماءهم بعد الذى كان من أمر بنى قينقاع مما أدّى إلى حصارهم . فجاءوا إلى محمد يشكون إليه أمرهم ويذكرون له مقتل كعب غيلةً بلا جُرْم ولا حدث علموه . فكان جوابه لهم : إنه آذانا وهجانا بالشعر ولو قرَّ كما قرَّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما أصابه شرّ . وبعد حديث طال بينهم دعاهم إلى أن يكتب معهم كتاباً يحترمونه .

وخافت اليهود وذلّت وإن بقى فى نفسها من محمد ما بدا من بُعد أثره .

قريش تسلك طريق العراق إلى الشام

ماذا تصنع قريش بتجارتها إلى الشام وقد أخذ محمد عليها طريقها ؟ إن مكة تعيش من التجارة، فإذا لم تجد الوسيلة إليها تعرّضت لشرّ ما تتعرّض له مدينة مثلها . وهذا محمد أراد حصارها والقضاء فى نفس العرب على مكانتها . وقف صَفْوان بن أميَّة يوماً فى قريش وقال لهم : « إن محمداً وأصحابه قد عَوَّروا علينا مَتْجَرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامَّتهم معه فما ندرى أين نسكن . وإن قمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء » . قال له الأسود بن عبد المطلب : تَنكبِ الطريق على الساحل وخذ طريق العراق . ودلَّه على فُرات بن حَيَّان من بنى بكر بن وائل يدلُهم على الطريق . وقال لهم فُرات : طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب محمد ، فإنما هى أرضٌ نَجْدٌ وفَيافٍ . لم يَخَفْ صفوان الفيافى أن كان الفصل شتاء وحاجتهم إلى الماء قليلةٌ ، وتجهَّز صفوان من الفضة والبضائع بما قيمته مائة ألف درهم . وكان بمكة حين تدبير قريش خروج تجارتها يَثْربىّ (هو نُعَيْم بن مَسعود الأشْجَعىّ) عاد إلى المدينة وجرى على لسانه ذكر حديث قريش وما صنعت لأحد المسلمين .

فيغزوها المسلمون

فأسرع هذا فنقل الخبر إلى محمد . وما لبث النبىّ أن بعث زيد بن حارثة فى مائة راكب اعترضوا التجارة عند القَرْدة (ماء من مياه نجد) ففرّ الرجال وأصاب المسلمون العير ؛ فكانت أوّل غنيمة ذات قيمة غنمها المسلمون ، وعاد زيد ومن معه ؛ فَخَمَّسها محمد وقسم ما بقى على رجاله . وجىء بفرات بن حَيَّان فعرض عليه أن يسلم لينجو ، فأسلم ونجا .

هل اطمأن محمد بعد هذا كله إلى أن الأمر قد استقر له ؟ هل خدعه يومه عن غده ؟ وهل خيَّل له فزعُ القبائل منه وما غنم من قريش أن كلمة الله وكلمة رسوله قد اطمأنت ولم يبق للخوف عليها محلّ ؟ وهل جعله إيمانه بنصر الله إيَّاه يُلقى حبالَ الأمورِ على غواربها علماً منه بأن الأمر كله لله ؟ كلا ؟ فالأمر كله حقًّا لله ؛ لكنكَ لن تجد لسنة الله تبديلا . وما ركَّب الله فى النفوس

من سلائق لا سبيل إلى إنكاره وقريش لها سيادة العرب ، وهي لا يمكن أن تنى عن الأخذ بثأرها . وما أصاب قافلة صفوان بن أميَّة لن يزيدها على الثأر إلا حرصاً ، وفى التهيؤ للأخذ به إلا شدة . وما كان شىء من هذا ليغيب عن محمد وبعد نظره وسلامة سياسته فلا بدّ له إذاً من أن يزيد المسلمين به تعلقاً وارتباطاً ، ومهما يكن الإسلام قد شدّ من عزائمهم وجعلهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، فإن حسن رعايتهم تزيد عزائمهم شدّة وتضامنهم قوّة. ومن حسن رعايتهم أن يزيد محمد رابطته بهم . لهذا تزوّج من حَفْصة بنت عمر بن الخطاب، كما تزوّج من عائشة بنت أبى بكر من قبلُ . وكانت حفصة من قبله زوج خُنيس أحد السابقين إلى الإسلام ، وقد مات عنها قبل زواج محمد بسبعة أشهر . وكما تزوج من حفصة فزاد عمر بن الخطاب به تعلقاً ، زوَّج ابنته فاطمة من ابن عمه علىّ أشد الناس محبة للنبىّ وإخلاصاً له منذ طفولته . ولمَّا كانت رُقيَّة ابنته قد اختارها الله إلى جواره ، فقد زوج عثمان بن عفَّان بعدها ابنته أم كُلْثوم . وكذلك جمع حوله برابطة المصاهرة أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا ، وجمع بذلك أربعة من أقوى المسلمين الذى كانوا معه ، بل أقواهم إن شئت . بهذا كفل للمسلمين مزيداً من القوَّة ، كما كفل لهم بما غنموا فى مغازيهم إقداماً على الحرب يجمع فيها الرجل بين الجهاد فى سبيل الله والغنم من المشركين . وهو فى هذه الأثناء يتتبع بدقَّة كل الدقة أخبار قريش وما تُعدّ . فقد كانت قريش تعدّ للثأر ولتفتح لنفسها طريق التجارة إلى الشام ، حتى لا تهوى مكانة مكة التجارية ومكانتها الدينية إلى حيث لا تقوم لها من بعد ذلك قائمة .

زواج النبي من حفصة بنت عمر

الفصل الخامس عشر

غزوة أُحد

استعداد قريش بمكة – خروجها للغزو – كيف علم به محمد – تشاور المسلمين فى التحصن بالمدينة أو الخروج لملاقاة العدو – انتصار المسلمين ثم هزيمتهم – خروج النبى من المدينة غداة أحد ليلحق بالمنتصرين فيغزوهم – عودة أبى سفيان وقريش إلى مكة .

تحين قريش للثأر من بدر

لم يهدأ منذ بدر لقريش بال ، ولم تغنها غزوة السويق شيئاً ، وزادتها سرية زيد بن حارثة التى أخذت تجارتهم حين سلوكها سبيل العراق إلى الشام حرصاً على الثأر وادّكاراً لقتلى بدر . وكيف لقريش نسيانُهم وهم أشراف مكة وساداتها وذوو النخوة والكرامة من كبارها ! وكيف لها نسيانُهم وما تزال نساء مكة تذكر كلٌّ منهن فى القتلى لها ابناً أو أخاً أو أباً أو زوجاً أو حميماً ، فهى له تتوجَّع وعليه تبكى وتُوَلْوِل ! هذا ، وكانت قريش – منذ قَدِم أبو سُفْيان بن حَرْب بالعير التى كانت سبب بدر من الشام وعاد الذين شهدوا بدراً وسلموا من القتل فيها – قد وقفت العيرَ بدار الندوة ، واتَّفق كبراؤها : جبَيْر بن مُطْعم وصَفْوان بن أمية وعكْرِمة بن أبى جهل والحارث بن هشام وحُوَيْطب بن عبد العُزَّى وغيرهم ، على أن تباع العير وأن تعزل أرباحها وأن يجهَّز بها جيش لقتال محمد ، جرّار فى عَدَدِه وعُدَّته ، وأن تُسْتَنْفَرَ بها القبائل ليشاركوا قريشاً فى أخذهم بالثأر من المسلمين . وقد استنفروا معهم أبا عَزَّة الشاعر الذى عفا عنه النبىُّ من أسرى بدر ، كما استنفروا معهم مَنِ اتَّبعهم من الأحابيش . وأصرّت النسوة من قريش على أن يَسِرْن مع الغُزاة . فتشاور القوم ؛ فمن قائل بخروجهن ، « فإنه أقمَنُ أن يُحْفظكم [1] ويذكّركم قتلى بدر ، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه » . ومن قائل : « يا معشر قريش ! هذا ليس برأى أن تعرضوا حُرُمَكم

---

(١) يحفظكم : يغضبكم .

لعدوّكم ، ولا آمن أن تكون الدَّبْرةُ[1] عليكم فتفضحوا فى نسائكم » . وبينما هم يتشاورون صاحت هند بنت عُتْبة زوج أبى سُفيان بمن يعترض خروج النساء : « إنك والله سَلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك . نعم نخرج فنشهد القتال ، ولا يردّنا أحد كما رُدّت الفتيات فى سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجُحْفة[2] فقُتلت الأحبَّة يومئذ أن لم يكن معهم من يحرّضهم » . وخرجت قريش ومعها نساؤها وعلى رأسهن هند وهى أشدهن على الثأر حرقة ، أن قُتل يوم بَدْر أبوها وأخوها وأعزّ الناس عليها — خرجت قريش تقصد المدينة فى ثلاثة ألوية عُقدت فى دار النَّدوة ، وعلى اللواء الأكبر منها طَلْحة بن أبى طلحة ، وهم ثلاثة آلاف ، ليس بينهم غير مائة رجل من ثَقيف ، وسائرهم من مكة سادتها ومواليها وأحابيشها . وقد أخذوا معهم من العُدّة والسلاح الشىء الكثير ، وقادوا مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير ، ومن بينهم سبعمائة دارع .

تهيؤ قريش للقتال

تهيأ القوم للمسير بعد أن أجمعوا عليه والعبَّاس بن عبد المطلب عم النبىّ بينهم واقف على أمرهم مطَّلع على كل دقيق وجليل من شأنهم . وكان العباس على حرصه على دين آبائه ودين قومه يحسّ لمحمد شعور العصبيَّة وشعور الإعجاب ، ويذكر له حسن معاملته إياه يوم بدر . ولعل الإعجاب والعصبية اللذين جعلاه يشهد مع محمد بيعة العقبة الكبرى ويخاطب الأوس والخزرج بأنهم إن لم يكونوا مانعى ابن أخيه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه إلى أهله يذودون عنه ذيادهم من قبل ، هما اللذان دفعاه حين أجمعت قريش المسير فى هذا العدد العظيم إلى أن يكتب كتاباً يصف فيه صنيعهم وجمعهم وعُدّتهم وعديدهم ، ويدفع به إلى رجل غفَارىّ يسير به إلى النبىّ حتى يبلغ المدينة فى ثلاثة أيام فيدفعه إليه . فأمَّا قريش فسارت حتى بلغت الأبْواء ، ومرّت بقبر آمنة بنت وَهْب ، فدفعت الحميَّة بعض الطائشين منها إلى التفكير فى نبشه .

مسيرة قريش إلى المدينة

---

(١) الدبرة (بفتح الباء وتسكن) هنا الهزيمة . وتكون أيضاً بمعنى النصر .

(٢) الجحفة : موضع على طريق المدينة من مكة على ثلاث أو أربع مراحل من مكة ، وهى ميقات أهل مصر والشام .

ولكن زعماءها أبوا عليهم هذه الفعلة ، حتى لا تكون سنَّة عند العرب ، وقالوا لا تذكروا من هذا شيئاً ؛ فلو فعلنا نَبَشت بنو بكر وبنو خُزاعة موتانا . وتابعت قريش مسيرها حتى بلغت العَقيق ، ثم نزلت عند السفوح من جبل أُحُد على خمسة أميال من المدينة

رسول العباس إلى النبي

وبَلغ الغفَارى الذى بعثه العبَّاس بن عبد المطلب بكتابه المدينة ، فوجد محمداً بقُباء ، فذهب إليه فألفاه على باب المسجد هناك يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب ، فقرأه عليه أبى بن كعب ، فاستكتمه محمد ما فيه وعاد إلى المدينة فقصد إلى سعد بن الرَّبيع فى داره فقصّ عليه ما بعث العباس به إليه واستكتمه أيضاً إيَّاه . على أن زوج سعد كانت بالمنزل وكانت تسمع ما دار فلم يبق سرًّا . وبعث محمد ابنى فضَالَة أَنَساً ومُؤنِساً يتنطسان خَبَرَ قريش ، فألفياها قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها . وبعث محمد من بعدهما الحُبَابَ بن الْمنذِر بن الجَمُوح . فلمَّا جاءه من خبرهم بالذى أخبره العباس أخذته عليه السلام الحيرة . وخرج سَلَمة بن سَلاَمَة ، فإذا طليعة خيل قريش تقارب المدينة وتكاد تدخلها ، فعاد فخبَّر قومه بما رأى . فخشى الأوس والخزرج وأهل المدينة جميعاً عاقبة هذه الغزوة التى أعدّت لها قريش خير ما أعدت فى تاريخ حروبها ؛ حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد خوفاً على النبىّ ، وحُرِسَت المدينة كلها طيلة الليل . فلما أُصبحوا جمع النبىّ أهل الرأى من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام – أو المنافقين على ما كانوا يُدْعون يومئذ وما نُعتوا فى القرآن وجعلوا يتشاورون ، كيف يَلْقَوْن عدوّهم .

تشاور النبي وأهل المدينة

القائلون بالتحصن بالمدينة

رأى النبىّ عليه السلام أن يتحصَّنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشاً خارجها ، فإذا حاولوا اقتحامها كانوا أهلَها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلُّب عليهم . ورأى عبد الله بن أبَىّ بن سَلول رأى النبىّ وقال : « لقد كنَّا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصَّياصِى ونجعل معهم الحجارة ، ونَشْبِك المدينة بالبنيان ، فتكون كالحصن من كل ناحية، فإذا أقبل العدوّ رمته النسوة

والأطفال بالحجا ة وقابلناه بأسيافنا فى السكك . إن مدينتنا يا رسـول الله عذراء ما فُضَّت علينا قطّ ، وما دخل علينا عدوّ فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منها إلا أصاب منا ، فدَعْهم يا رسول الله وأطعنى فى هذا الأمر ؛ فإنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى منهم » .

وكان كلام ابن أُبَىّ هذا هورأى الأكابرمن أصحاب الرسول من المهاجرين ومن الأنصار ، كما كان رأى الرسول عليه السلام . لكن فِتياناً ذوى حميّة لم يشهدوا بدراً ، ورجالاً شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها وملأ الإيمان قلوبهم أن ليس لقوّة أن تغالبهم أو تتغلّب عليهم ، أحبّوا الخروج إلى العدوّ وملاقاته حيث نزل ، مخافة أن يظن أنهم كرهوا الخروج وتحصّنوا بالمدينة جُبْناً عن لقائه . ثم إنهم إلى جانب المدينة وعلى مقربة منها أقوى منهم يوم كانوا ببدر لا يعرف أهلوهم من أمرهم شيئاً . قال قائل منهم : « إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون حصرنا محمداً فى صَيَاصى يثرب وآطامها فتكون هذه مُجرِّئة لقريش . وها هم هؤلاء قد وطئوا سَعَفَنَا فإذا لم نَذُبّ عن عِرْضِنا[1] لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومَنْ تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يُكلَمُوا ! لئن فعلنا لازدادوا جرأةً ، ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ، ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ، ثم لقطعوا الطريق علينا » . وتعاقب الدُّعاة إلى الخروج يتحدّث كلٌّ حديثَه ، ويذكرون جميعاً أنهم إذا أظفرهم الله بعدوهم فذلك الذى أرادوا ، وذلك الذى وعد الله رسوله بالحق ، وإن هم انهزموا واستُشهدوا كانت لهم الجنة .

والقائلون بالخروج للقاء العدو

حديث الشجاعة والاستشهاد

وهز حديث الشجاعة وحديث الاستشهاد القلوب ، واستنفر روحُ الجماعة الأنفُسَ لتجرى كلها فى هذا التيار ، ولتتحدث كلها على هذه النغمة ، فلم يبق تلك اللحظَة أمام الجمع الماثل فى حضرة محمد الممتلئ القلب بالإيمان بالله ورسوله وكتابه وحسابه ، إلا صورة الظفر بهذا العدوّ المعتدى تفرّقه سيوفهم

(١) العرض (بكسر العين وسكون الراء) : هنا كل واد فيه شجر .

أيدى سبا ، ويبعثه بأسهم بَدَداً شَذَرَ مَذَرَ ، وتستولى أيديهم على مغانمه ومحارمه ؛ وصورة الجنة أعدّت للذين قُتلوا فى سبيل الله ، فيها ما تشتهى الأنفس وتَلَذّ الأعين يَلقوْن فيها أحبتهم الذين شهدوا بدرا واستُشهدوا فيها ، (لا يَسْمَعُون فيها لَغْواً وَلا تأْثِيما . إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً) (١) .

قال خيْثَمة أبو سعد بن خيثمة : « عسى الله أن يُظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة . لقد أخطأتنى وقعةُ بدر وكنت عليها حريصاً ، حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمتُ ابنى فى الخروج ، فخرج سهمه فرُزِق الشهادة . وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : الحَقْ بنا ترافقنا فى الجنَّة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا . وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنَّة ؛ وقد كبِرتْ سنِّى وَرَقّ عظمى وأحببت لقاء ربى » فلمَّا ظهرت الكثرة واضحة فى جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدوّ وملاقاته قال لهم محمد : إنى أخاف عليكم الهزيمة ؛ فأبوا مع ذلك إلا الخروج . فلم يكن له إلاّ أن ينزل على رأيهم . وقد كانت الشورى أساس نظامه لهذه الحياة ، فلم يكن ينفرد بأمر إلا ما أوحى إليه من عند الله .

تغلب القائلين بالخروج

وكان اليوم يوم جمعة ، فصلَّى النبيّ بالناس ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبَروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوّهم . ودخل محمد بيته بعد صلاة العصر ودخل معه أبو بكر وعمر فعمماه وألبساه درعه وتقلَّد سيفه ، والناس أثناء غيبته هذه فى جدل يتحاورون . قال أسيْد بن حُضَيْر وسعد بن مُعاذ ، وكانا ممن أشاروا بالتحصّن بالمدينة ، للذين رأوا الخروج منها : « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة ، فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره ، فرُدّوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم له فيه هوًى أو رأياً فأطيعوه » . ولاَنَ الداعون للخروج لِما سمعوا ، وحسبوا أنهم خالفوا الرسول إلى شىء قد يكون لله فيه آية . فلما خرج النبى إليهم لابساً درعه متقلداً سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون

النظام مع الشورى

(١) سورة الواقعة آيتا ٢٥ ، ٢٦ .

الخروج فقالوا : « ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك ؛ والأمر إلى الله ثم إليك » . قال محمد : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم . و ما ينبغى لنبى إذا لبس لأْمَتَه أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما آمركم به فاتّبعوه ، والنصر لكم ما صبَرتم » . وكذلك وضع محمد إلى جانب مبدأ الشورى أساس النظام . فإذا تمّ للكثرة رأى بعد بحث ، لم يكن لها أن تنقضه لهوى أو لغاية ، بل يجب أن ينفذ الأمرُ على أن يُحسن من يتولى تنفيذه ويوجهَه إلى حيث يتحقق نجاحه .

خروج المسلمين

وتقدّم محمد بالمسلمين متّجهاً إلى أُحُد ، حتى نزل الشيْخَيْن[1] . وهناك بصُر بكتيبة لا يعرف أهلها ، فسأل عنها فقيل : هؤلاء حلفاء ابن أَبى من يهود قال عليه السلام : لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يُسلموا

عودة اليهود وابن أبى إلى المدينة

فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة . إذ ذاك جعل حلفاء ابن أَبى يقولون له : لقد نصحته وأشرت عليه برأى من مضى من آبائك فكان رأيه مع رأيك ، ثم أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه . وصادف حديثهم هوًى من نفس ابن أبىّ ؛ فلما أصبحوا انخذل مع كتيبة من أصحابه . وبقى النبىّ ومعه المؤمنون حقًّا وعِدّتهم سبعمائة ، ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشى من أهل مكة كلهم موتور من يوم بدر ، وكلهم على ثأره حريص .

تنظيم النبى للصفوف

وسار المسلمون مع الصبح حتى بلغوا أُحُداً ، فاجتازوا مسالكه وجعلوه إلى ظهورهم . وجعل محمد يَصُفُّ أصحابه ، وقد وضع منهم خمسين من الرماة على شِعْب فى الجبل وقال لهم : « اِحْمُوا لنا ظهورنا فإنانخاف أن يجيئونا من ورائنا . والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تُعينونا ولا تدافعوا عنا . وإنما عليكم أن ترشقُوا خيلهم بالنَّبْل ؛ فإن الخيل لا تقْدِم على النبل » ؛ ثم نهى غير الرماة أن يقاتل أحد حتى يأمر هو بالقتال .

قريش ونساؤها

فأمَّا قريش فصفَّت صفوفها ، وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى

---

(١) الشيخان : موضع ، كان به فى الجاهلية أطمان فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان فسمى المكان الشيخين لذلك .

الميسرة عِكْرِمة بن أبى جهل ، ودفعت اللواء إلى عبد العُزَّى طلحة بن أبى طلحة .
وجعلت نساء قريش يمشين خلال صفوفها يضربن بالدفوف والطبول ، فيكنّ تارةً فى مقدمة الصفوف وتارة فى مؤخّرتها ، وعلى رأسهن هند بنت عُتْبة زوج أبى سفيان وهنّ يقلن :

ويْهاً بنى عبـد الدَّارْ ويهاً حُمـاةَ الأدبارْ
ضرباً بكل بَتَّار

ويقلن :

إن تُقْبِلوا نُعانِقْ ونَفرُش النَّمارِقْ
أو تُدبروا نُفارِق فِراق غيرِ وامِقْ

واستعدّ الفريقان للقتال وكلٌّ يحرّض رجاله . فأما قريش فتذكر بدراً وقتلاها . وأما المسلمون فيذكرون الله ونصره . ومحمد يخطب ويحض على القتال ، ويَعد رجاله النصر ما صَبروا . مدّ يده بسَيف فقال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقّه ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دجَانةَ سِمَاكُ ابن خَرَشةَ أخو بنى ساعدة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ فقال : أن تضرب به فى العدوّ حتى ينحنى . وكان أبو دجانة رجلا شجاعاً له عصابة حمراء ، إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيُقاتل وأنه أخرج عصابة الموت . فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصَب بها رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفَّين على عادته إذ يختال عند الحرب . فلمَّا رآه محمد يتبختر قال : « إنها لمشيةٌ يُبغضها الله إلا فى هذا الموطن » .

أبو دجانة وعصابة الموت

وكان أوّل من أنشب الحرب بين الفريقين أبو عامر عبد عمرو بن صيفىّ الأوْسىّ ، وكان قد انتقل من المدينة إلى مكة يحرّض قريشاً على قتال محمد ، ولم يكن شهد بدراً ، فخرج فى أُحُد فى خمسة عشر رجلا من الأوس ، وفى عبيد أهل مكة ؛ وكان يزعم أنه إذا نادى أهلَه المسلمين من الأوس الذين يحاربون فى صفّ محمد ، استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً . فخرج فنادى : يا معشر الأوس : أنا أبو عامر . فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم

الله بك عيناً يا فاسق ! ثم نشِب القتال بينهم . وحاول عبيد قريش وحاول عِكْرِمة بن أبى جهل ، وكان على الميسرة ، أن يأخذوا المسلمين من جناحهم ، ولكن المسلمين رشقوهم بالحجارة حتى ولّى أبو عامر ومن معه مدبرين . هنالك صاح حمزة بن عبد المطلب صيحة القتال يوم أحُد : « أمِتْ ، أمِتْ » واندفع إلى قلب جيش قريش . وصاح طلحة بن أبى طلحة حامل لواء أهل مكة : مَنْ يبارز ! فبرز له علىّ بن أبى طالب والتقيا بين الصفَّين ، فبادره علىٌّ بضربة فَلَقَتْ هامته . واغتبط النبىُّ وكبَّر المسلمون وشدّوا واندفع أبو دُجَانة وفى يده سيف النبىّ وعلى رأسه عصابة الموت ، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله حتى شقّ صفوف المشركين ، فرأى إنساناً يَخمِش[1] الناس خمشاً شديداً ، فحمل عليه بالسيف فوَلْوَلَ ، فإذا هند بنت عُتْبة فارتدَّ عنها مُكْرِماً سيف الرسول أن يضرب به امرأة .

حمزة وأبو دجانة وعلى وبلاؤهم

واندفعت قريش إلى القتال يثور فى عروقها طلب الثأر لمن مات من أشرافها وسادتها منذ عام ببدر . ووقفت بذلك قوّتان غير متكافئتين فى العدد ولا فى العُدَّة ، يحرّك الكثرة العظيمة ثأر لا يهدأ منذ بدر فى النفوس ثائره ، ويحرك الفئة القليلةَ عاملان : الدفاع عن العقيدة وعن الإيمان وعن دين الله ، والدفاع عن الوطن وعما يشتمل عليه هذا الوطن من مصالح . فأمَّا المطالبون بالثأر فكانوا أعزّ نفراً وأكثر جنداً ، وكان من ورائهم الظُّعْن يحرّكنهم ، وقد أعدّت غير واحدة منهن مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لها ممن فجعها ببدر فى أب أو أخ أو زوج أو عزيز . كان حمزة بن عبد المطلب ، من أعظم أبطال العرب وشجعانهم ، وكان قد قتل يوم بدر عُتْبة أبا هند ، كما قتل أخاها ونكَّل بكثير من الأعزّة عليها . وكان يوم أحد كما كان يوم بدر أسدَ الله وسيفه البتار . قتل أرْطَاة بن عبد شُرَحبيل . وقتل سِبَاع بن عبد العُزَّى الغُبْشانى . وجعل يهذّ[2] كل من لقى بسيفه فتسيل من جسده روحه . وكانت هند بنت عُتبة قد وعدت وحْشِيًّا الحبشىّ مولى جُبَيْر خيراً كثيراً إن هو قتل حمزة ، كما

(١) خمش فلاناً : ضربه وقطع عضواً منه . ويقال : خمش وجه فلان إذا خدشه ولطمه .

(٢) يهذ : يقطع .

قال له جبير بن مُطْعم مولاه وكان عمه قد قُتِل ببدر : إن قتلت حمزه عم محمد فأنت عتيق . روى وحشيّ قال : « فخرجت مع الناس ، وكنت رجلا حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلَّما أخطئ بها شيئاً . فلمَّا التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصَّره ، حتى رأيته فى عُرْض الناس مثل الجمل الأَوْرَق[1] يهدّ الناس سيفه هدًّا ، فهززت حربتى ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه فوقعت فى ثُنته[2] حتى خرجت من بين رجليه ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت إلى المعسكَر وقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة . إنما قتلته لأعتق . فلمَّا قدِمت مكة أعتقت » .

مقتل حمزة سيد الشهداء

أما المدافعون عن الوطن فكان لهم مثلٌ فى قُزْمان أحد المنافقين الذين أظهروا الإسلام . تخلَّف عن الخروج يوم خرج المسلمون لأحُد . فلما أصبح عيَّره نساء بنى ظَفَر فقلن : يا قزْمان ، ألاَ تستحى لما صنعت ! ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك فبقيت فى الدار . فدخل قزمان بيته مَغِيظاً مُحْنَقاً فأخرج فرسه وجَعبته وسيفه ، وكان يعرف بالشجاعة ، فخرج يعدو حتى كان عند الجيش والنبى يسوّى صفوف المسلمين ، فتخطاها حتى كان فى الصفّ الأوّل منها ، وكان أول من رمى بنفسه من المسلمين ، وجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ، فلمَّا كان آخر النهار فضل الموت على الفرار وقتل نفسه بعد أن أصاب من قريش سبعة رجال فى سُوَيْعَة غير من قتل منهم بَدء المعركة . ومرّ به أبو الغَيْدَاق وهو يُسلم الروح ، فقال له : « هنيئاً لك الشهادة يا قُزمان ! » . قال قزمان : « إننى والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين . ما قاتلتُ إلا على الحِفَاظ أنْ تسير قريش إلينا فتقتحم حَرَمنا وتطأ سَعَفنا ، ووالله إن قاتلتُ إلا عن أحساب قومى ، ولولا ذلك ما قاتلت » .

أمَّا المؤمنون حقًّا ، وكان عددهم لا يزيد على سبعمائة يقاتلون ثلاثة آلاف فقد رأيت من فِعال حمزة وأبى دُجانة ما يصور لك صورة من قوتهم المعنوية ؛ قوة انثنت أمامها صفوف قريش وكأنها الخيزران ، وتراجع أمامها أبطال قريش

(١) الأورق من الإبل : الآدم ، وقيل ما فى لونه بياض إلى سواد .

(٢) الثنة : ما بين السرة والعانة من أسفل البطن .

وكانوا بين العرب مضرب المثل فى الإقدام والشجاعة . وكان لواؤهم لا يسقط من يد حامله حتى يأخذه خلفه . حمل عثمان بن أبى طلحة اللواء بعد أن قتل علىّ طلحة بن أبى طلحة ، فلقى مصرعه على يد حمزة . وحمله أبو سعد بن أبى طلحة وصاح : أتزعمون أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار ! والله إنكم لتكذبون . ولو كنتم تؤمنون حقًّا فليقدم منكم من يقاتلنى . وضربه علىّ أو سعد ابن أبى وقّاص بسيفه ضربة فَلَقَتْ هامته . وتعاقب حَمَلَةُ اللواء من بنى عبد الدار حتى قُتِل منهم تسعة ، كان آخرهم صُؤاب الحبشىّ غلام بنى عبد الدار ، وقد ضربه قزمان على يده اليمنى ، فتناول اللواء باليسرى ، فقطعها قزمان بسيفه ، فضم صؤاب اللواء بذراعيه إلى صدره ثم حنى عليه ظهره وهو يقول : يا بنى عبد الدار ، هل أعذرت ؟ وقتله قزمان أو قتله سعد بن أبى وقاص ، على خلاف فى الرواية . فلمَّا قُتِل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شىء حتى أحيط بنسائهم ، وحتى وقع الصنم الذى احتملوا يتيامنون به من فوق الجمل الذى كان يحمله ومن خلال الهودج الذى كان يحتويه .

ظفر المسلمين صبيحة أحد

والحقّ أن ظفرَ المسلمين فى صبيحة يوم أحد كان معجزةً من معجزات الحرب ، قد يفسّرها بعضهم بمهارة محمد فى وضعه الرُّماة فى شِعب الجبل يصدّون الفرسان بالنبل فلا يتقدَّمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم . وهذا حقٌّ . ولكن من الحق أيضاً أنَّ ستَّ المائة من المسلمين الذين هاجموا عدداً يوازى خمسة أمثالهم ، وعُدَّة فى مثل هذه النسبة ، إنما دفعهم إلى معجزات البطولة التى أتوا شىء أعظم من مهارة القيادة : ذلك هو الإيمان ، الإيمان الصادق بأنهم على الحق . ومن آمن بالحق لم تزعجه قوّة مادية مهما عظمت ، ولم تضعضع من عزمته كل قوّات الباطل وإن اجتمعت . وهل رأيت مهارة القيادة وحدها كانت تُغنى والرُّماة الذين وضعهم النبىّ فى الشعب لم يكونوا إلا خمسين ، فلو أن مائتين أو ثلثمائة رجل هاجموهم مستقتلين لما ثبتوا ولا صبروا أمامهم . لكن القوّة الكبرى ، قوة الفكرة ، قوّة العقيدة ، قوّة الإيمان الصادق بالحق العلى الأعلى ، هذه القوة لا غالب لها ما أراد صاحبها وجه الحق وحده . ولذلك تمزَّقت

قوة العقيدة والإيمان

قريش فى ثلاثة آلاف من فرسانها أمام هجمات ستمائة مسلم ، وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسرى ذليلات . وتبع المسلمون عدوهم يضعون السلاح فيه حيث شاءوا حتى بَعُد عن معسكره ؛ فجعل المسلمون ينتهبون الغنيمة ، وما أكثر ما كانت ! وصرفهم ذلك عن اتباع عدوهم ابتغاء عَرَض الدنيا .

اشتغال المسلمين بالغنيمة

ورآهم الرُّماة الذين أمرهم الرسول ألّا يبرحوا الشعب ولو رأوه وأصحابه يقتلون فقال بعضهم لبعض وقد سال لمرأى الغنيمة لُعابهم : « لِم تقيمون ههنا فى غير شيء وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين » قال قائل منهم : « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا ؟ ! » قال الأولون ! « لم يُرِدْ رسولُ الله أن نبقى بعد أن أذلّ الله المشركين » . واختلفوا فخطبهم أميرهم عبدُ الله بن جُبَيْر أن لا يخالفوا أمر الرسول ، فعصاه أكثرهم وانطلقوا ولم يبق معه إلا نفر دون العشرة . واشترك المنطلقون فى النهب وشُغِلوا كما شُغل سائر المسلمين به .

مخالفة الرماة أمر النبي وأخذ خالد ابن الوليد مكانهم

إذ ذاك اهتبل الفرصةَ خالد بن الوليد ، وكان على فرسان مكة ، فشد برجاله على مكان الرُّماة فأجلاهم . ولم يفطن المسلمون لفعله لأنهم شُغلوا عنه وعن كل شيء بهذه الغنائم يَعُبُّون منها ، حتى ولم يبق رجل منهم وقع فى يده شيء إلا أخذه . وإنهم لكذلك إذ صاح ابن الوليد صيحة أدركت قريش معها أنه دار برجاله وراء جيش المسلمين . عند ذلك عاد منهم كل منهزم فأثخنوا فى المسلمين ضرباً وقتلا . وهناك دارت الدائرة ؛ فألقى كل مسلم ما كان بيده مما انتهب وعاد إلى سيفه يسلّه ليقاتل به . ولكن هيهات هيهات ! لقد تفرَّقت الصفوف وتمزّقت الوحدة وابتلع البحر اللجى من رجال قريش هذه الصفوة من المسلمين كانت إلى ساعة تقاتل بأمر ربها تَنْضج عن إيمانها ، وهى الساعة تقاتل لتنجو من براثن الموت ومخالب المذلّة . وكانت تقاتل متراصة متضامنة ، وهى الآن تقاتل مبعثرة متناكرة . وكانت تقاتل تحت قيادة قوية حازمة حكيمة ، وهى الآن تقاتل ولا قيادة لها . فلم يكن عجباً أن ترى مسلماً يضرب مسلماً بسيفه وهو لا يكاد يعرفه . وصاح صائح بالناس : إن محمداً قد قُتل ، فازدادت الفوضى وعظمت البلبلة ، واختلف المسلمون وصاروا يقتتلون ويضرب بعضهم

الدائرة تدور على المسلمين

بعضاً وهم لا يشعرون لما هم فيه من العجلة والدهش . قتل المسلمون مُوَاطِنَهم المسلم حُسَيْل بن جابر أبا حُذَيْفة وهم لا يعرفونه . وكان أكبرهَم كلّ مسلم أن ينجو بنفسه إلا من عصم الله.من أمثال علىّ بن أبى طالب .

ما أصاب رسول الله

على أن قريشاً ما لبثت حين سمعت بمقتل محمد أن تدافعت تدافع السيل إلى النّاحية التى كان فيها ، وكلٌّ يريد أن يكون له فى قتله أو التمثيل به ما يفاخر الأجيال به . هنالك أحاط المسلمون القريبون بنبيهم يدافعون عنه ويحمونه ، وقد عاد الإيمان فملأ نفوسهم وملك قلوبهم وحبب إليهم الموت وهون عليهم الحياة الدنيا . وزادهم إيماناً واستماتة أن رأوا الحجارة التى تقذفها قريش قد أصابت النبىّ فوقع لِشقه فأصيبت رَبَاعِيَتُه ، وشُجَّ فى وجهه ، وكُلِمت شَفَتُه ، ودخلت حلقتان من المِغْفَرِ الذى يستر به وجهه فى وجْنته . وكان رامى الحجر الذى أصابه عُتْبَةَ بن أبى وقاص . وتمالك الرسول وسار وأصحابه من حوله ، فإذا به يقع فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون . هنالك أسرع إليه علىّ بن أبى طالب فأخذ بيده ورفعه طلحة بن عُبيد الله حتى استوى وجعل يسير وأصحابه ، متسلقين أُحُداً ناجين من العدوِّ واتّباعه إيَّاهم .

استماتة المؤمنين فى الدفاع عن الرسول

وفى لحظة قاموا كان قد اجتمع حولهم من المسلمين من استماتوا فى الدفاع عن رسول الله استماتة لا يُقْهَر صاحبُها أبداً . كانت أمُّ عمارة الأنصارية قد خرجت أول النهار ومعها سقِاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تَسقى منهم من استسقى . فلما انهزم المسلمون ألقت سِقاءها واستلّت سيفاً وقامت تباشر القتال تذبّ عن محمد بالسيف وترمى عن القوس ، حتى خلَصت الجراح إليها . وترّس أبو دُجانة بنفسه دون رسول الله ، فحنى ظهره والنبل يقع فيه . ووقف سعد بن أبى وقاص إلى جانب محمد يرمى بالنبل دونه ومحمد يناوله النبل ويقول له : ارم فِداك أبى وأمى . وكان محمد قبل ذلك يرمى بنفسه عن قوسه حتى اندقت سيتُها . هذا ، فأمّا الذين ظنوا محمداً قد مات ومن بينهم أبو بكر وعمر فانتحوا الجبل وألقوا بأيديهم . فرآهم أنس بن النَّضْر فقال : ما يجلسكم قالوا : قتل رسول الله . قال : فما تصنعون بالحياة بعد ! قوموا فموتوا على ما مات

عليه ؛ ثم استقبل القومَ فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاء منقطع النظير ، حتى إنه لم يقْتَلْ إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة ، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه .

زعم قريش موت النبي

وفرحت قريش بما اعتقدت من موت محمد ، فراح أبو سفيان يفتقده فى القتلى ؛ ذلك بأن الذين كانوا ينضحون عنه عليه السلام لم يكذّب أحد منهم خبر قتله إطاعةً لأمره حتى لا تتكاثر عليهم قريش فتغلبهم دونه . على أن كعب بن مالك أقبل إلى ناحية أبى دُجانة ومن معه فعرف محمداً حين رأى عينيه تَزْهَرَان تحت المِغْفَر فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا ! هذا رسول الله ؛ فأشار النبىّ إليه ليسكت . لكن المسلمين ما لبثوا حين عرفوا أن نهضوا بالنبىّ ونهض هو معهم نحو الشعب ، ومن حوله أبو بكر وعمر وعلىّ بن أبى طالب والزبير بن العوام ورهط غيرهم . وكان لصيحة كعب عند قريش كذلك أثرها . صحيح أن أكثرهم لم يصدّقها وحسبها صيحة أريد بها شدّ عزائم المسلمين . إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد والذين ساروا معه . وقد أدركهم أُبَى بن خَلَف وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا ! . فطعنه الرسول بحربة الحارث بن الصّمة طعنة جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجَه ليموت فى الطريق . فلما انتهى المسلمون إلى فَم الشعب خرج علىٌّ فملأ دَرَقته ماء ، فغسل محمد به الدم عن وجهه وصبَّ منه على رأسه ؛ ونزع أبو عبيدة بن الجراح حَلْقتى المِغْفَر من وجه الرسول فسقطت ثَنِيتاه . وإنهم لكذلك إذ علا خالد ابن الوليد على رأس فرسان معه الجبل ، فقاتلهم عمر بن الخطاب ورهط من أصحاب الرسول فردُّوهم . وازداد المسلمون فى الجبل تصعيداً وقد نهكهم التعب وهدَّهم الجهد ، حتى صلى النبىُّ الظهر قاعداً من الجراح التى أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً .

نجاة الرسول ومن معه

التمثيل بقتلى المسلمين

فأمَّا قريش فطارت بنصرها سروراً ، وحسبت نفسها انتقمت لبدر أشدَّ الانتقام ؛ حتى صاح أبو سفيان : « يومٌ بيوم بدر والموعد العام المقبل » . وأمَّا هند بنت عُتْبَة زوجُه فلم يَكفِها النصر ، ولم يكفها قتل حمزة بن عبدالمطلب ، بل انطلقت هى والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من المسلمين يَجْدَعنَ الآذان

والأنوف ، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطاً ، ثم إنها بقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها . وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعلت النسوة ممن معها ، بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع ، أن تبرأ أبو سفيان من تَبِعتها ، وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه ، بل قال يخاطب أحد المسلمين : « إنه قد كان فى قتلاكم مثْلٌ ، والله ما رَضِيتُ وما سخِطتُ وما نهيتُ وما أمرتُ » .

حزن محمد على حمزة

وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها ؛ وعاد المسلمون إلى الميدان لدفن قتلاهم . وخرج محمد يلتمس عمَّه حمزة . فلما رآه قد بُقِرَ بطنُه ومُثِّل به حَزِن من أجله أشدَّ الحزن وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً . ما وقفتُ موقفاً قطُّ أغيظ إليَّ من هذا » . ثم قال : « والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمَثلن بهم مُثْلة لم يمثلها أحد من العرب » . وفى هذا نزل قوله تعالى :(وَإِنْ عاقبْتم فعَاقِبُوا بمِثْل مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَخيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا باللهِ وَلَا تحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يمكُرُونَ)[1] فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المُثلة ، وسجَّى حمزة ببُرْده وصلى عليه . وجاءت أخته صفية بنت عبد المطلب ، فنظرت إليه وصلَّت عليه واستغفرت له . ودُفِن حمزة ، وأمر النبيُّ بالقتلى فدُفنوا حيث لقُوا مصارعَهم . وانصرف المسلمون إلى المدينة ومحمد على رأسهم ، تاركين وراءهم سبعين من القتلى ؛ يحزُّ فى نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمة من بعد نصر ، ومن مذلة وهوان بعد ظفر لا ظفر مثله ؛ وذلك كله لعصيان الرُّماة أمرَ النبيّ واشتغال المسلمين عن العدو بغنائمه .

دفن القتلى والعودة إلى المدينة

لا بد من استرداد هيبة المسلمين

ودخل النبيّ إلى بيته وجعل يفكر . ها هم أولاء أهل يثرب من اليهود والمنافقين والمشركين يُظهرون السرور أشدّ السرور لما كان من هزيمته وهزيمة أصحابه . وهذا سلطان المسلمين بالمدينة كان قد استقرَّ فلم يَبْقَ لأحد أن ينازع فيه ، وها هو يُوشك أن يضطرب ويتزعزع . وهذا عبد الله بن أبى بن سلول قد

---

(١) سورة النحل آيتا ١٢٦ و ١٢٧ .

خرج على الجماعة وعاد من أحُد ولم يشترك فى القتال بدعوى أن محمداً لم يسمع رأيه ، أو أن محمداً غضب على مواليه من اليهود . فلو أنَّ هزيمة أحُد بقيت الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش لهان أمر محمد وأصحابه على العرب ، ولتضعضع سلطانهم بيثرب ، ولكانوا عرضة لاستخفاف قريش بهم وإرسالها دعاية السخر والاستهزاء منهم فى أنحاء شبه الجزيرة جميعاً . ولئن حدث هذا لجاء فى أثره اجتراء المشركين وعُبَّاد الأوثان على دين الله فتكون الطامَّة الكبرى . فلا بدّ إذاً من ضربة جريئة تخفف من وقع هزيمة أحُد وتردُّ إلى المسلمين قوَّتهم المعنوية ، وتُدخل إلى رُوع اليهود والمنافقين الرَّهبةَ وتعيد إلى محمد وأصحابه سلطانهم بيثرب قويًّا كما كان .

الخروج فى الغد إلى العدو

فلمَّا كان الغد من يوم أحُد ، وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوَّال ، أذَّن مؤذِّن النبيّ فى المسلمين بطلب العدوّ واستنفرهم لمطاردته ، على ألاّ يخرج إلا من حضر الغزوة . وخرج المسلمون ، فوقع فى رُوع أبى سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم . وبلغ محمد حَمْراء الأَسَد(١) ، وكان أبو سفيان وأصحابه بالرَّوْحاء فمرَّ به معبد الخُزَاعىُّ ، وكان قد مرَّ بمحمد ومن معه ، فسأله عن شأنهم فأجابه معبد – وكان لا يزال على الشرك – : « إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قطّ ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلَّف عنه ، وكلهم أشدُّ ما يكون عليكم حَنْقاً ومنكم للثأر طلباً » . على أن أبا سفيان فكر فيما يكون لفراره من محمد ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه بأحُد من الأثر . أفلا تقول العرب فى قريش ما كان يودُّ هو أن تقوله فى محمد وأصحابه ؟ ولكن هَبْه رجع إلى محمد فهزمه المسلمون ، إذاً ليكوننّ ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً . فلجأ إلى الحيلة ، فبعث مع ركب من عبد القيس يقصدون المدينة أن يَبلغوا محمداً أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيَّتهم . فلمَّا أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحمراء الأسد لم يتضعضع عزمه ولم تَهن قوَّته ، بل ظلَّ فى مكانه يوقد النار طِيلَة الليل ثلاثة أيام متتابعة ، ليدلَّ

---

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة

قريشاً على أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم . وأخيراً تزعزعت (١) همَّة أبي سفيان وقريش ، وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة . ورجع محمد إلى المدينة وقد استردَّ كثيراً من مكانة تزعزعتْ على أثر أحُد ، وإن كان المنافقون قد بدءوا يرفعون رءوسهم ضاحكين من المسلمين يسألونهم : إذا كانت بَدْرٌ آية من الله برسالة محمد فماذا عسى أن تكون آية أحُد وماذا تكون دلالتها ؟!

---

(١) تزعزعت : تفرقت .

الفصل السادس عشر

آثار أُحد

ائتمار القبائل المجاورة بالمسلمين – غزوة بنى أسد – أمر الهذلى – مقتل خبيب وأصحابه بالرجيع – مقتل المسلمين ببئر معونة – إجلاء بنى النضير عن المدينة – غزوة بدر الآخرة – غزوة دومة الجندل

عاد أبو سفيان من أحُد إلى مكة ، وقد سبقته إليها أخبار النصر ، ممتلئ النفس غبطة وسروراً بما زال عن قريش من عار بَدْر . ولم يلبث حين بلغها أن قصد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته ، وبها رفع إلى كبير آلهتهم هُبَل آى الثناء والحمد ؛ ثم حَلق لمتَّه ورجع إلى داره مُوفياً نذره ألا يقربَ زوجه حتى ينتصر على محمد . أمَّا المسلمون فألْفَوْا المدينة وقد تنكَّر لهم الكثير من أمرها ، على رغم مطاردتهم عدوهم وثباتهم له ثلاثة أيام سويًّا من غير أن يجترئ على الرجعة إليهم وهو المنتصر قبل أربع وعشرين ساعة عليهم . ألْفوا المدينة وقد تنكَّر لهم الكثير من أمرها وإن بقى سلطان محمد فيها السلطان الأعلى ، وشعر عليه السلام بدقة الموقف وحرج المركز ، لا فى المدينة وحدها ، بل كذلك عند قبائل العرب ممن كان الرعب منه قد داخل نفوسها ؛ فقد ردّت أحُد إليها من السكينة ما سمح لها أن تفكر فى معارضته ومناوأته . لذلك حرص على أن يقف من أخبار أهل المدينة ومن أخبار العرب جميعاً ، على ما يمكنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبتهم فى النفوس .

سياسة محمد بعد أحد

سرية أبى سلمة ابن عبد الأسد

وكان أول ما بلغه بعد شهرين من أحُد أن طُلَيْحَة وسَلَمة ابنى خُوَيْلد ، وكانا على رأس بنى أسد ، يحرّضان قومهما ومن أطاعهما يريدان مهاجمة المدينة والسير إلى محمد فى عقْر داره ليصيبوا من أطرافه وليغنموا من نَعَم المسلمين التى ترعى الزروعُ المحيطة بمدينتهم . وإنما شجعهم على ذلك اعتقادهم أن محمداً وأصحابه لا يزالون مضعضعين من أثر أحُد . فما لبث النبىُّ حين اتصل به الخبر أن دعا إليه أبا سَلَمة بن عبد الأسد وعقَد له لواء سريَّة تبلغ عدّتها

مائة وخمسين ، منهم أبو عُبيدة بن الجرَّاح ، وسعد بن أبى وقَّاص ، وأَسَيْدُ ابن حُضَير ، وأمرهم بالسير ليلا والاستخفاء نهاراً وسلوك طريق غير مطروق حتى لا يطَّلع أحد على خبرهم ، فيَفْجَئوا العدوَّ بالإغارة عليه على غرَّة منه . ونفَّذ أبو سَلَمة ما أُمر به حتى جاء القومَ ولم يستعدّوا لنضال ، فأحاط بهم فى عَمَاية الصبح ، وحضَّ رجاله وحرَّضهم على الجهاد ؛ فلم يستطع المشركون أن يثبتوا لهم ، فوجَّه لواءين فى طلبهم وطلب الغنيمة ، وأقام هو ومن معه حتى عاد المطاردون بما غنموا ، فنحَّوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل ، واقتسموا الباقى ورجعوا إلى المدينة ظافرين وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئاً مما ضيَّعت أُحُد . على أن أبا سلمة لم يَعشْ بعد السرية طويلا ؛ فقد كان جُرِح بأحد ولم يكن التئام جرحه إلا ظاهراً . فلما جَهد نفسَه نَغَرَ الجرح[١] وظل به حتى قضى عليه .

سرية عبد الله ابن أنيس

واتَّصل بمحمد من بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهُذَلىّ مقيم بنَخْلة أو بعُرَنَة ، وأنه يجمع الناس ليغزوه ؛ فدعا إليه عبد الله بن أُنَيْس وبعثه يتجسَّس حتى يقف على جليَّة الخبر ، وسار عبد الله حتى لَقِى خالداً وهو فى ظُعُن يرتاد لهن منزلا . فلما انتهى إليه سأله خالد : مَن الرجل ؟ فأجابه : أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك . فلم يُخْفِ خالد أنه يجمع الجمع ليغزو المدينة . ولمَّا رآه عبد الله فى عزلة من الرجال وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للمسير معه ، حتى إذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله ، ثم ترك ظعائنة منْكبَّات عليه يبكينه ، وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر . وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمها زمناً ، ثم فكَّرت تحتال لتثأر له .

يوم الرجيع (سنة ٦٢٥ م)

فى هذا الحين وَفَد رهط من قبيلة تُجاورهم إلى محمد يقولون له : إن فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن . وكان محمد يبعث من أصحابه كلما دُعى إلى ذلك ليؤدّوا هذه المهمة الدينية السامية، وليدعوا الناس إلى الهدى ودين الحق ، وليكونوا لمحمد وأصحابه عوناً على خصومهم

(١) نغر الجرح : سال منه الدم .

وأعدائهم ، على نحو ما رأيت من ذلك كله فيمن بعثهم إلى المدينة على أثر العقبة الكبرى . لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط وساروا معهم . فلمَّا كانوا جميعاً على ماء لهُذَيْل بالحجاز بناحية تدعى الرَّجيع ، غدروا بهم واستصرخوا عليهم هُذَيلاً . ولم يَرُعِ المسلمين الستة وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهم ؛ فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا . لكن هُذَيلاً قالت لهم : إنَّا والله ما نريد قتلكم ؛ ولكنا نريد أن نُصيب بكم مكة ، ولكم عهدُ الله وميثاقه ألاّ نقتلكم . ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض وقد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكة فُرادَى إنما هو المذلَّة والهوان وما هو شرّ من القتل ، فأبوا ما وعدت هذيل ، وانبروا لقتالها ، وهم يعلمون أنهم فى قلة عددهم لا يُطيقونه . وقتلت هُذيل ثلاثة منهم ولاَنَ الثلاثة الباقون ، فأمسكت بتلابيبهم وأخذتهم أسرى ، وخرجت بهم إلى مكة تبيعهم فيها . فلمَّا كانوا فى بعض الطريق انتزع عبد الله بن طارق أحد المسلمين الثلاثة يده من غُلّ الأسْر ثم أخذ سيفه ؛ فاستأخر عنه القوم وطفقوا يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه أمَّا الأسيران الآخران فقدمت بهما هذيل مكة وباعتهما من أهلها . باعت زيد بن الدثنَّة لصَفْوان بن أميَّة الذى اشتراه ليقتله بأبيه أميَّة بن خَلَف ؛ فدفع به إلى مولاه نَسْطاس ليقتله . فلما قُدّم سأله أبو سفيان : أنشُدك الله يا زيد ، أتحبُّ أن محمداً الآن عندنا فى مكانك تُضرب عنقُه وأنت فى أهلك ؟ قال زيد . والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى ! فعجب أبو سفيان وقال : ما رأيت من الناس أحداً يحبّه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً . وقتل نَسطاس زيداً ، فذهب شهيد أمانتّه لدينه ولنبيه ، أمَّا خُبَيْب فَحُبس حتى خرجوا به ليصلبوه ؛ فقال لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا ؛ فأجازوه فركع ركعتين أتمَّهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم وقال : أمَا والله لولا أن تظنوا أنى إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . ورفعوه إلى خشبة ؛ فلمَّا أوثقوه إليها نظر إليهم بعين مُغْضَبة وصاح : « اللهم أحْصِهم عدداً ، واقتلهم بَدَداً ، ولا تغادر منهم أحداً » ؛ فأخذت القومَ الرجفة من صيحته ، واستلقوا

قتل زيد وخبيب

إلى جنوبهم حَذَرَ أن تصيبهم لعنتُه ، ثم قتلوه . وكذلك استُشهد خُبَيْب كما استشهد زيد فى سبيل بارئه وسبيل دينه ونبيه . وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران وكان فى استطاعة صاحبيهما أن يستنقذهما من القتل إن رضيا الردة عن دينهما لكنهما فى يقينهما بالله وبالروح وبيوم البعث ، يوم تُجْزَى كل نفس بما كسبت ولا تَزِر وازرةٌ وِزْر أخرى ، رأيا الموت ، وهو غاية كل حىّ ، خيرَ ما يكون غايةً للحياة فى سبيل العقيدة وفى سبيل الإيمان بالحق ؛ ولكنهما آمنا بأن دمهما الزكىّ الطهور الذى أريق على أرض مكة سيدعو إليها إخوانهم المسلمين يدخلونها فاتحين يحطمون أصنامها ، ويطهرونها من رِجْس الوثنيَّة والشرك ، ويردون فيها إلى الكعبة بيت الله ما يجب لبيت الله من تقديس وتنزُّه عن أن يذكر فيه اسم غير اسم الله .

لا يقف المستشرقون من هذا الحادث وقوفهم عند أَسيرى بدر اللذين قتلهما المسلمون ، ولا يحاولون أن يستنكروا هذا الغدر برجلين بريئين لم يؤخذا فى حرب وإنما أُخذا خداعاً ، وسارا بأمر الرسول ليعلّما من غدروا بهما ومن أَسلموهما إلى قريش بعد أن قتلوا زملاءهم غيلة وبغياً . وهم لا يستنكرون ما صنعت قريش بالرجلين الأعزلين ، مع أن ما صنعته بهما شرّ مثل للجبن وللعدوان الدنىء . ولقد كانت أولى مبادئ الإنصاف تقتضى المستشرقين ، الذين أنكروا ما فعل المسلمون بأسيرَىْ بدر ، أن يكونوا أشدَّ استنكاراً لغدر قريش وغدر الذين أسلموا إليها الرجلين لقتلهما ، بعد أن قتلوا الأربعة الرجال الذين جاءوا وإياهم إجابة لطلبهم ليدلوهم على الحق ويفقهوهم فى الدين .

حزن المسلمون وحزن محمد لما أصاب أصحابهم الستة الذين استشهدوا فى سبيل الله بغدر هُذَيل بهم ، وأرسل حسَّان بن ثابت أشعاره يرثى فيها خُبَيْباً وزيداً أحرَّ الرثاء . وازداد محمد تفكيراً فى أمر المسلمين وخشى إن تكرّرت مثل هذه الأمور أن تستخف العرب بشأنهم . ولا شىء أقتل لهيبتك من استخفاف غيرك بشأنك . وإنه لفى تفكيره إذ قدم عليه أبو بَرَاء عامر بن مالك مُلاعب الأسنَّة ؛ فعرض محمد عليه أن يُسلم فلم يقبل ، ولكنه لم يظهر للإسلام عداوة ، بل قال : يا محمد ، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى

أهل نجد فدعَوْهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك . فخاف محمد على أصحابه من أهل نجد وخشى أن يغدروا بهم كما غدرت هذيل بخبيب وأصحابه . ولم يقتنع ولم يجب طلب أبى براء ، حتى قال : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا إلى أمرك . وكان أبو بَرَاء رجلا مسموع الكلمة فى قومه لا يخاف من أجاره عاديةَ أحد عليه . وبعث محمد المنذِرَ بن عمرو أخا بنى ساعدة فى أربعين رجلا من خيار المسلمين . فساروا ونزلوا بئر مَعُونة بين أرض بنى عامر وحَرّة بنى سليم ، ومن هنالك بعثوا حَرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب محمد فلم ينظر عامر الكتاب بل قتل الرجل واستصرخ بنى عامر كى يقتلوا المسلمين . فلما أبوا أن يخفْروا ذمة أبى براء وجواره استصرخ عامر قبائل أخرى أجابته وخرجت معه حتى أحاطوا بالمسلمين فى رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم لم يَنْجُ منهم إلا كعب بن زيد ؛ إذ تركه ابن الطفيل وبه رمق ، فعاش ولحق بالمدينة ، وإلا عمرو بن أميَّة الذى أعتقه عامر بن الطفيل عن رقبة زعم أنها كانت على أمّه . ولقى عمرو رجلين فى الطريق حين عودته بعد انطلاقه ، فحسبهما من القوم الذين عَدَوْا على أصحابه ، فأمهلما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما ، وتابع مسيره حتى بلغ المدينة ، فأخبر الرسول عليه السلام بما صنع فإذا الرجلان عامريَّان من قوم أبى بَرَاء ، وإذا معهما عقد جوار من رسول الله اقتضاه أن يؤدِّى دِيتَهما .

يوم بئر معونة (سنة ٦٢٥ م)

وجِدَ محمد لقتلى بئر مَعُونة أشدّ الوجد ، وحزن من أجلهم أعمق الحزن ، وقال : هذا عمل أبى براء ، لقد كنت كارهاً متخوّفاً وشق على أبى بَرَاء إخفار عامر بن الطفيّل إيَّاه ، حتى لقد ذهب ابنه ربيعة فطعن عامراً بالرمح انتقاماً منه لأبيه . وبلغ من حزن محمد أنه ظلّ شهراً كاملا يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قتَلَتهم . وتأثَّر المسلمون جميعاً لهذه الكارثة التى أصابت إخوانهم فى الدين . وإن آمنوا بأنهم جميعاً استُشهدوا ، وبأنهم جميعاً لهم الجنة .

يهود المدينة ومنافقوها

ووجد أهل المدينة من المنافقين واليهود فيما أصاب المسلمين بالرَّجيع وبئر

معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش بأحُد ، وما أنساهم نصر المسلمين على بنى أسد ، وما أضعف فى نفوسهم من هيبة محمد وأصحابه . وفكَّر النبىُّ عليه السلام فى هذه الحالة تفكير سياسىّ دقيق النظر بعيد مرامى الرأى . فليس شىء أشدّ على المسلمين يومئذ خطراً من أن تضعُف فى نفوس مُساكنيهم بالمدينة هيبتهم ، وليس شىء يُطمع قبائل العرب فيهم مثل أن تشعر بهذا الانقسام الداخلى يوشك أن يُثير حرباً أهليَّة إذا غزا المدينة غاز من جيرانها . ثم إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربَّصون به الدوائر ؛ فقدّر أن لا شىء خير من أن يستدرجهم لتتَّضح نيَّاتهم . ولمَّا كان اليهود من بنى النَّضير حلفاء لبنى عامر ، فقد ذهب إلى مَحلَّتهم على مقربة من قُباء ، فى عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلىّ ، وطلب إليهم معاونتهم فى دية القتيلين اللذين قتل عمرو بن أميَّة خطأً ، ومن غير أن يعلم أن محمداً أجارهما .

ائتمار اليهود بمحمد

فلمَّا ذكر لهم ما جاء فيه أظهروا الغبطة والبشر وحسن الاستعداد لإجابته . لكنه ما لبث أثناء تبسط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون ، ويذهب أحدهم إلى ناحية ، ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف ، ويدخل أحدهم (عمرو بن جِحَاش بن كعب) البيت الذى كان محمد مستنداً إلى جداره . إذ ذاك رابه أمرهم ، وزاده ريبةً ما كان يبلغه من حديثهم عنه وائتمارهم به . لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركاً أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره . أمَّا اليهود فقد اختلط عليهم الأمر ولم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب محمد ولا ما يصنعون بهم . فإن هم غدروا بهم فمحمد لا ريب منتقم منهم شرّ انتقام . وإن هم تركوهم فلعل ائتمارهم بحياة محمد وأصحابه لا يكون قد افتضح فيظلّ ما بينهم وبين المسلمين من عهد قائماً . وحاولوا أن يقنعوا ضيوفهم المسلمين بما يزيل ما قد يكون رابهم من غير أن يشيروا إلى شىء منه . لكن أصحاب محمد استبطئوه فقاموا فى طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة عرفوا منه أن محمداً دخلها وأنه قصد توًّا إلى المسجد فيها ، فذهبوا إليه . فلمَّا ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به وتنبهوا

إلى ما كانوا رأوا ، آمنوا بنفاذ بصيرة الرسول وما أوحى إليه . وبعث النبى يدعو إليه محمد بن مسلمة وقال له : « اذْهَبْ إلى يهود بنى النضير وقل لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلتُ لكم بما هممتم به من الغدر بى . لقد أجَّلْتُكم عشراً ، فمن رُئى بعد ذلك ضُربت عنقُه » . وأبلست [1] بنو النَّضير ، فلم يجدوا لهذا الكلام دَفْعاً ولم يحيروا عنه جواباً إلاّ أن قالوا لابن مسلمة : « يا محمد ، ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس » . وذلك إشارة إلى تحالفهم وإياهم من قبل فى حرب الخزرج . فكان كلّ ما أجاب به ابن مسلمة : « تغيَّرت القلوب » .

إنفاذه إلى بنى النضير بالجلاء

ومكث القوم على ذلك أيّاماً يتجهزون وإنهم لكذلك إذ جاءهم رسولان من عند عبد الله بن أبَىّ يقولان : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا فى حصونكم ؛ فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يُوصل إليكم . وتشاورت بنو النضير فى مقالة ابن أبىّ وهم أشدَّ ما يكونون حيرةً ؛ فمنهم من لم يكن له بابن أبىّ أية ثقة . ألم يَعد بنى قَيْنقاع من قبلُ مثل ما يعد بنى النَّضير اليوم ، فلمَّا جدّ الجدّ تخلَّى عنهم وولّى مدبراً ؟ وهم يعلمون أن بنى قُرَيظَة لا ينصرونهم لِما بينهم وبين محمد من عهد . ثم إنهم إن جلوا عن ديارهم إلى خَيبَر أو إلى مَحَلَّة قريبة ، استطاعوا أن يعودوا حين يثمر نخيلهم إلى يثرب ، يجنون ثمره ويعودون أدراجهم فلا يكونون قد خسروا كثيراً . قال كبيرهم حُيَىّ بن أخْطب : كلا بل أنا مرسل إلى محمد : إنَّا لانخرج من ديارنا وأموالنا ، فليصنع ما بدا له ، وما علينا إلا أن نُرمَّ حصوننا نَدخل إليها ما شئنا ، وندرّب أزّقتنا وننقل الحجارة إليها ، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ، ولن يحصرنا محمد سنة كاملة . وانقضت الأيَّام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم .

ابن أبى يحرض اليهود

فأخذ المسلمون السلاح وساروا إليهم فقاتلوهم عشرين ليلةً ، وكانوا أثناءها إذا ظهروا على الدرب أو الديار تأخر اليهود إلى الديار التى من بعدها بعد

حصار بنى النضير

---

(١) أبلست : يئست وتحيرت .

تخريبهم إيَّاها . ثم أمر محمد أصحابه أن يقطعوانخل اليهود وأن يحرّقوه حتى لا تبقى اليهود فى شدّة تعلقها بأموالها تتحمَّس للقتال وتُقدم عليه . وجزع اليهود ونادوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ ! وفى ذلك نزل قوله تعالى : (مَا قطعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِىَ الفَاسِقِين) [1] .

وعبثاً انتظر اليهود نصر ابن أُبَىّ أو تقدُّم أحد من العرب لنجدتهم ، حتى لم يبق لديهم ريبة فى سوء مصيرهم إذا أصروا على متابعة القتال . فلمَّا ملأ اليأس قلوبهم رعباً ، سألوا محمداً أن يؤمّنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة . فصالحهم محمد على أن يخرجوا منها ، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ، وليس لهم غيره . واحتمل اليهود وعلى رأسهم حُيَىّ بن أخْطَب ، فنزل خَيْبَر منهم من نزل وسار آخرون إلى أذْرِعات بالشام ، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلثمائة وأربعين سيفاً ، ثم كان ما خلَّت اليهودُ من الأرض التى كانوا يملكون خيرَ ما غنم المسلمون . على أنّ هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب ، ولذلك لم تُقْسَم بين المسلمين ، بل كانت لرسول الله خاصَّة يضعها حيث يشاء . وقد قسمها على المهاجرين الأوَّلين دون الأنصار بعد أن استبقى قسما خصصت غَلَّته للفقراء والمساكين . وبذلك أصبح المهاجرون فى غنًى عن معونة الأنصار ، وأصبح لهم مثل ثروتهم . ولم يشترك فى القسمة من الأنصار إلا أبو دُجانة وسهل بن حُنَيْف ؛ فقد ذكرا فقراً فأعطاهما محمد كما أعطى المهاجرين . ولم يُسلم من يهود بنى النَّضير غير رجلين أسْلَما على أموالهما فأحرزاها .

جلاء اليهود عن المدينة

ليس من العسير أن يقدّر الإنسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بنى النَّضير عن المدينة بعد الذى قدّمنا من تقدير الرسول عليه السلام لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة ، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رءوسهم كلما أصاب المسلمين شر ، ومن التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء .

---

(١) سورة الحشر آية ٥ .

وفى جلاء بنى النضير نزلت سورة الحشر ، وفيها : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يقُولُونَ لإِخْوَانهمُ الذينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكم وَلاَ نُطِيعُ فِيكم أَحَداً أَبداً وإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكم وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُم لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمّ لاَ يُنْصَرُونَ . لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فى صُدُورِهم مِنَ اللهِ ذلِك بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُون)[١]

وتجرى السورة بعد ذلك بذكر الإيمان وسلطانه ؛ الإيمان بالله وحده لا تعرف النفس الإنسانية التى تعرف قيمتها وكرامتها لغيره سلطاناً : (هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبَارِئُ المصَوِّرُ لَهُ الأَسماءُ الحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ مَافِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْض وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيم)[٢] .

كاتب سر النبى

كان كاتبُ سرّ النبىّ ، إلى حين إجلاء بنى النَّضير عن المدينة ، من اليهود ؛ ليتسنَّى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانيَّة ما يريده . فلمَّا جلا اليهود خاف النبىُّ أن يستعمل فى أسراره غير مسلم ، فأمر فتعلَّم زيد بن ثابت من شبَّان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين ، وأصبح كاتبَ سرّ النبىّ فى كل شئونه . وزيد بن ثابت هذا هو الذى جمع القرآن فى خلافة أبى بكر ، وهو الذى عاد فراقب الجمع حين اختلفت القراءات فى خلافة عثمان ، فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف .

اطمأنَّت المدينة بعد إجلاء بنى النضير عنها ، فلم يعد المسلمون يخشون المنافقين فيها واغتبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود ؛ واغتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم ؛ وتنفسوا جميعاً الصُّعداء ، وكانت فترة سكينة وهدوء وطمأنينة استراح إليها المهاجرون والأنصار جميعاً . وظلوا كذلك ، حتى إذا استدار العام منذ أُحُد ذكر محمد عليه السلام قولة أبى سفيان : « يوم بيوم

---

(١) سورة الحشر الآيات من ١١ إلى ١٣ .

(٢) سورة الحشر من ٢٢ إلى ٢٤ .

بدر والموعدُ العام المقبل » ، ودعوته محمداً للقائه ببدر مرَّة أخرى . وكان العام عام جدب . وكان أبو سفيان يودّ لو يُؤَجِّل اللقاء إلى عام آخر ، فبعث نُعَيْماً إلى المدينة يقول للمسلمين إن قريشاً جمعت جيشاً لا قِبَل لجيش فى العرب بمواجهته لتحاربهم به حتى تقضى عليهم قضاء لا يُعَدُّ ما تم بأحد إلى جانبه شيئاً . وبدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطرَ ، فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض والسير لبدر . لكن محمداً غضِب لهذا الضعف والتراجع ، وصاح بهم مُقْسماً أنه ذاهب إلى بدر ولو ذهب وحده .

بدر الآخرة

لم يبق بعد هذه الغَضْبة العظيمة إلا أن يذوب كلّ تردّد ويزول كل خوف وأن يحمل المسلمون سلاحهم وأن يذهبوا إلى بدر . واستعمل النبى على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبىّ بن سَلول ، ونزل المسلمون بدراً ينتظرون قريشاً مستعدّين لقتالها . وخرجت قريش مع أبى سفيان من مكة فى أكثر من ألفى رجل . لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع بعد مسيرة يومين ،فنادى فى الناس : يا معشر قريش ، إنه لا يُصلحكم إلا عام خصيب ، وإن عامكم هذا جدب وإنى راجع فارجعوا . ورجع الناس . وأقام محمد فى جيش المسلمين ينتظرهم ثمانية أيام متتابعة اتَّجر المسلمون ببدر فيها فربحت تجارتهم ، ثم عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل من الله ونعمة . وفى بدر الآخرة هذه نزل قوله تعالى : (الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِين قُتِلُوا فى سَبيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بمَا آتاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِين لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُون بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا للهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِين أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . ٱلَّذِين قالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إِيمَاناً وَقالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللهِ وَٱللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمُ ٱلشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فلا تخافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [1]

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٦٨ إلى ١٧٥ .

وكذلك محت غزوة بدر الآخرة أثر أحُد محواً تاماً ، ولم يبق لقريش إلا أن تنتظر عاماً آخر ، رازحة تحت عار من جبنها لا يقل وطأة عن عار هزيمتها في بدر الأولى .

وأقام محمد بالمدينة مستريحاً إلى نصر الله إياه ، مطمئناً إلى ما عاد للمسلمين من هيبتهم ، حَذِراً دائماً غدرة العدوّ ، باثاً عيونه فى كل النواحي .

غزوة ذات الرقاع

وإنه لكذلك إذ اتَّصل به أن جماعة من غَطَفان بنجد يَجمعون له يريدون حربه . وكانت خُطَّته أن يأخذ عدوَّه على غِرّة قبل أن يُعِدّ العدّة لدفعه . لذلك خرج فى أربعمائة من رجاله حتى نزل ذات الرِّقاع حيث اجتمع بنو مُحارب وبنو ثَعْلبة من غَطَفان . فلمَّا رأوه طلع عليهم فى عُدة حربه مهاجماً مساكنهم ، تفرَّقوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم . واحتمل المسلمون ما استطاعوا ، وعادوا أدراجَهم إلى المدينة ؛ على أنهم خافوا رجعة العدو عليهم فتناوبوا الحِراسة ليل نهار . وجعل محمد يصلّى بهم أثناء ذلك صلاة الخوف ؛ فكان جماعة منهم يظلون مستقبلين العدو مخافة لحاقه بهم فى حين يصلّى الآخرون مع محمد لله ركعتين . ولم يبدُ للعدو أثر وعاد النبي وأصحابه إلى المدينة بعد غيابهم خمسة عشر يوماً عنها وهم بظفرهم جد فرحين .

غزوة دومة الجندل

وخرج النبي بعد قليل من ذلك إلى غزوة أخرى هي غزوة دُومة الجَنْدَل . ودومة الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام ، تقع فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس . ولم يقابل محمد القبائل التى أراد مقاتلتها هناك والتى كانت تغير على القوافل ؛ لأنها ما لبثت حين سمعت باسمه أن أخذها الفزع وولَّت مُدْبِرَةً ، وتركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم . وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافى لدومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ محمد وأصحابه ، وما بلغ إليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إيَّاهم ؛ كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب فى غزواتهم ، مستهينين بالقيظ والجَدْب وقلَّة الماء ، مستهينين بالموت نفسه ، يحركهم إلى هذا النصر والظفر شيء واحد هو سبب قوَّتهم المعنوية : الإيمان بالله وحده لا شريك له .

آن لمحمد من بعد ذلك أن يطمئن بالمدينة عدة أشهر متتابعة ، ينتظر فيها موعد قريش لعامه القادم – سنة خمس من الهجرة – ويقوم بأمر ربه ، بإتمام التنظيم الاجتماعى للجماعة الإسلامية الناشئة تنظيماً كان يتناول عدة ألوف يومئذ ليتناول الملايين ومئات الملايين من بعد ذلك ، ويقوم بإتمام هذا التنظيم الاجتماعى فى دقة وحسن سياسة ، يوحى إليه ربه منه ما يوحى ، ويُقِر هو ما يتفق مع أمر الوحى وتعاليمه، ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ ، وما ظل من بعد ذلك قائماًعلى الأجيال والدهور ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الفصل السابع عشر

أزواج النبى

زينب بنت خزيمة وأم سلمة – قصة زينب بنت جحش
وكلام المستشرقين فيها – وقائعها كما يرويها التاريخ الصحيح .

صيحة المستشرقين فى مسألة زينب بنت جحش

فى الفترة التى وقعت فيها حوادث الفصلين السابقين تزوّج محمد زينب بنت خُزَيْمة ، ثم تزوج أمَّ سَلَمة بنت أبى أميَّة بن المُغِيرة ، ثم تزوج زينب بنت جَحْش بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، وزيد هذا هو الذى تبنَّاه محمد وأعتقه منذ اشتراه يَسار لخديجة . ها هنا يصيح المستشرقون ويصيح المبشرون : انظروا ! لقد انقلب محمد الذى كان بمكة داعية قناعة وزهد وتوحيد ورغبة عن شهوات هذه الحياة الدنيا ، رجلَ شهوة يُسيل منظرُ المرأة لُعابه ، ولا يكفيه ثلاث نسوة فى بيته ، بل يتزوج أولئك الثلاث اللائى ذكرنا ، ويتزوّج من بعدهن ثلاثاً أخْريات غير رَيْحانة . وهو لا يكفيه أن يتزوج ممن لا بُعُولة لهن ؛ بل هو يُشْغَف حبًّا بزينب بنت جحش وهى تحت زَيد بن حارثة مولاه ؛ لغير شىء إلا أنه مرَّ ببيت زيد وهو غائب فاستقبلته زينب ، وكانت فى ثياب تُبدى محاسنها ، فوقع منها فى قلبه شىء لجمالها ، فقال : سبحانَ مقلب القلوب ! ثم كرّر هذه العبارة ساعة انصرافه ، فسمعتها زينب ورأت فى عينيه وهج الحب ، فأعجبت بنفسها وأبلغت زيداً ما سمعتْ فذهب من فوره إلى النبي يذكر لهُ استعداده لتسريحها ؛ فقال له : أَمْسك عليك زوجك واتّق الله. لكن زينب لم تُحسن من بعد عشرتَه فطلقها ؛ وأمسك محمد عن زواجها وقلبه فى شغل بها حتى نزل قوله تعالى : (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا

لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللهِ مَفْعُولًا)[1] . إذ ذاك تزوَّجها فأطفأ بزواجها لاذعَ حبه ومتوهج غرامه . فأىّ نبىّ هذا ! وكيف يُبيح لنفسه ما حرّمه على غيره ! وكيف لا يخضع للقانون الذى يقول إن الله أنزله عليه ! وكيف يخلق هذا « الحريم » الذى يثير فى النفس ذكر الملوك المترفين بدل أن يثير فيها ذكر الأنبياء الصالحين المصلحين ! ثم كيف يبلغ منه الخضوعُ لسلطان الحبّ فى شأن زينب حتى يصل بمولاه زيد إلى تطليقها ثم يتزوجها من بعده . وكان ذلك محرَّماً فى الجاهليَّة ، فأباحه نبىٌّ المسلمين إرضاءً لهواه ، واستجابة لداعى حبه .

بنت جحش كما يصورها المستشرقون

ويطلق المبشرون والمستشرقون لخيالهم العِنان حين يتحدَّثون من تاريخ محمد فى هذا الموضوع ، حتى لَيُصوِّر بعضهم زينب ساعة رآها النبىّ وهى نصف عارية أو تكاد ، وقد انسدل ليـــل شعرها على ناعم جسمها الناطق بما يكنّه من كل معانى الهوى ، وَلِيَذْكُرَ آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفة زينب وكانت ممدَّدة على فراشها فى ثياب نومها ، فعصف منظرُها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها ، فكتم ما فى نفسه وإن لم يُطق الصبر على ذلك طويلا ! ! وأمثال هذه الصورة التى أبدعها الخيال كثيرٌ ، تراه فى مُوير وفى دِرْمِنْجمُ وفى واشِنْطُنْ إرْفنجْ وفى لاَمَنْس وغيرهم من المستشرقين المبشرين . ومما يدعو إلى أشدّ الأسف أن هؤلاء جميعاً اعتمدوا فى روايتهم على ما ورد فى بعض كتب السيرة والكثير من الحديث ، ثم أقاموا على ما صوّروا قصوراً من الخيال فى شأن محمد وصلته بالمرأة ، واستدلوا على ذلك بكثرة أزواجه حتى بلغن تسعاً فى القول الراجح ، وحتى بلغن أكثر من ذلك فى بعض الروايات .

العظماء لا يخضعون لقانون

كان فى مقدورنا أن نَجْبَه هذه الأقوال جميعاً بقولنا : فلتكن صحيحة ؛ فماذا فيها مما يطعن على عظمة محمد أو على نبوّته ورسالته ؟ ! إنَّ القوانين التى تجرى على الناس لا سلطان لها على العظماء ، فأولى ألاّ يكون لها سلطان على المرسلين والأنبياء . ألم ير موسى عليه السلام خلافاً بين رجلين هذا من شيعته وهذا

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

من عدوّه ، فوكز الذى من عدوّه فقضى عليه ، وهذا قَتْلٌ محرّم فى غير حرب ولا شبه حرب ، وهذا مخالف للقانون . مع ذلك لم يخضع موسى للقانون ولم يطعن ذلك فى نبوّته ولا فى رسالته ، ولم يطعن فى عظمته . وشأن عيسى فى مخالفة القانون أكبر من شأن موسى ومن شأن محمد ومن شأن الأنبياء والمرسلين جميعاً . فليس يقف أمره عند بسطة فى القوة أو الرغبة ، بل خرج بمولده وبحياته على قوانين الطبيعة وسُنَنها جميعاً . تمثّل لأمّه مريم روحُ الرحمن بشراً سويًّا ، لِيَهبَ لها غلاماً زكيًّا ، فعجبت وقالت : أنَّى يكون لى غلامٌ ولم يَمْسَسْنِي بشرٌ ولم أكُ بغيًّا ! قال الرسول : إن الله يريد أن يجعله آية للناس ، فلمَّا جاءها المخاض قالت : يا ليتنى مِتُّ قبل هذا وكنت نَسياً منسيا . فناداها من تحتها أن لا تَحْزَنى قد جعل ربك تحتك سَرِيًّا . وأتت به قومها تحمله ، فقالوا : لقد جئت شيئاً فريًّا . فحدثهم عيسى فى مهده قال : إنى عبد الله . . . إلى آخر ما قال . ومهما يكن من إنكار اليهود لهذا كله ، ومن نسبتهم عيسى إلى يوسف النَّجار نسبة لا يزال بعض العلماء من أمثال رينان يأخذون اليوم بها . فقد كانت عظمة عيسى ونبوَّته ورسالته دليل معجزة الله فيه وخرقه لنواميس الكون وسُنَن الطبيعة وقوانين الخلق من أجله . فمن عجب أن يدعو المسيحيون المبشْرون إلى الإيمان بهذا الخروج على سنة الكون فى أمر عيسى ، وأن يأخذوا محمداً بما هو دونه ، وما لا يزيد على أنه سموّ من الخضوع لقانون المجتمع يُسْمَح به لكل عظيم ، ويسمح به للملوك ورؤساء الدول الذين تقدّسهم الدساتير وتجعل ذواتهم مصونة لا تمسّ .

فساد تصوير المستشرقين

كان فى مقدورنا أن نَجْبَه هذه الأقوال جميعاً بهذا الردّ ، وكان فيه من غير شك ما يُسقط حجة المبشرين ومن ينهجون نهجهم من المستشرقين . لكنا فى هذا كنا نجنى على التاريخ ونجنى على عظمة محمد وجلال رسالته . فهو لم يكن ، كما صوّر هؤلاء وأولئك ، رجلا يأخذ بعقله الهوى ، وهو لم يتزوج مَنْ تزوّج من نسائه بدافع من شهوة أو غرام . وإذا كان بعض الكتَّاب المسلمين فى بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول ، وأن يُقدّموا لخصوم الإسلام عن حسن نية هذه الحجة ، فذلك لأنهم انحدر بهم التقليد

إلى المادية ، فأرادوا أن يصوّروا محمداً عظيماً فى كل شىء ، عظيماً حتى فى شهوات الدنيا . وهذا تصوير خاطئ ينكره تاريخ محمد أشد إنكار ، وتأبى حياته كلها أن تُقرّه .

إلى الخمسين لم يتزوج غيرخديجة

فهو قد تزوج خديجة وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، وهو فى شرخ الصّبا وريعان الفتوة ووَسامة الطلعة وجمال القَسمات وكمال الرجولية . مع ذلك ظلّت خديجة وحدها زوجه ثمانياً وعشرين سنة حتى تخطّى الخمسين ، هذا على حين كان تعدد الزوجات أمراً شائعاً بين العرب فى ذلك العهد . وعلى حين كان لمحمد مندوحة فى التزوّج على خديجة ، أن لم يعش له منها ذكر ، فى وقت كانت توأد فيه البنات ، وكان الذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفاً . وقد ظل محمد مع خديجة سبع عشرة سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده وهو لا يفكر قط فى أن يُشرك معها غيرها فى فراشه . ولم يُعْرَفْ عنه فى حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مَفاتن النساء فى وقت لم يكن فيه على النساء حجاب ، بل كانت النساء يتبرّجن فيه ويبدين من زينتهنّ ما حرم الإسلام من بعدُ . . . فمن غير الطبيعى أن تراه وقد تخطى الخمسين ينقلب فجأةً هذا الانقلاب الذى يجعله ما يكاد يرى بنت جحش ، وعنده نساء خمس غيرها من بينهنّ عائشة التى أحب وظل يحب طوال حياته ، حتى يُفتَنَ بها وحتى تستغرق تفكيرَه ليله ونَهاره . وليس من الطبيعى أن تراه ، وقد تخطّى الخمسين ، يجمع فى خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفى سبع سنوات تسع زوجات ، وذلك كله بدافع من الرغبة فى النساء ، رغبة صوَّرها بعض كتاب المسلمين ، وحذا الإفرنج حذوهم ، تصويراً لا يليق فى ضعته برجل مادّى بَلْه عظيماً استطاعت رسالته أن تنقل العالم وأن تغيّر مجرى التاريخ ، وما تزال على استعداد لأن تنقل العالم مرّة أخرى وتغير مجرى التاريخ طوراً جديداً .

خديجة وحدها التى أعقبت

وإذا كان هذا عجيباً وكان غير طبيعى ، فمن العجيب كذلك أن نرى محمداً تلد له خديجة ما ولدت من بنيه وبناته إلى ما قبل الخمسين ، وأن نرى ماريّة تَلد له إبراهيم وهو فى الستين ، وألاّ تلد غير هاتين من نسائه ، وكلهنّ

بين شابَّة فى مقتبل العمر لا يمنع من ناحيتها ولا من ناحيته أن تحمل وأن تلد ، وبين امرأة كملت لها أنوثتها فتخطَّت الثلاثين أو تخطَّت الأربعين وكان لها ولدٌ من قبل . فكيف تفسَّر هذه الظاهرة العجيبة من ظاهرات حياة النبىّ . هذه الظاهرة التى لاتخضع للقوانين الطبيعية فى تسع نسوة جميعاً ؟ ! هذا وقد كانت نفس محمد ، باعتبار أنه إنسان ، تميل من غير ريب إلى أن يكون له ولد ، وإن كان مقام النبوّة والرسالة قد جعله من الناحية الروحية أباً للمسلمين جميعاً .

زواج سودة بنت زمعة

ثم إن التاريخ ومنطق حوادثه أصدق شاهد بكذب رواية المبشرين والمستشرقين فى شأن تعدّد زواج النبى . فهو كما قدّمنا ، لم يُشرك مع خديجة أحداً مدى ثمان وعشرين سنة . فلما قبضها الله إليه تزوَّج سَوْدَةَ بنت زَمْعة أرملة السكران بن عمرو بن عبد شمس . ولم يَرْو رَاو أن سودة كانت من الجمال أو من الثروة أو المكانة بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثراً فى زواجه منها . إنما كانت سودة زوجاً لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتملوا فى سبيله الأذى والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبىُّ بالهجرة وراء البحر إليها . وقد أسلمت سودة وهاجرت معه ، وعانت من المشاقّ ما عانى ، ولقيت من الأذى ما لَقِى . فإذا تزوَّجها محمد بعد ذلك ليعولها وليرتفع بمكانتها إلى أمومة المؤمنين ، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير وأجلّ الحمد .

أمَّا عائشة وحفصة فكانتا ابنتى وزيريه أبى بكر وعمر . وهذا الاعتبار هو الذى دعا محمداً أن يرتبط وإياهما برابطة المصاهرة بالتزوج من ابنتيهما ، كما دعاه أن يرتبط بعثمان وبعلى برابطة المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما . وإذا صح القول فى عائشة وفى حبه إيَّاها ، فإنما ذلك حبٌّ نشأ بعد الزواج لا حينه . فهو قد خطبها إلى أبيها وما تزال فى التاسعة من عمرها ، وقد بقيت سنتين قبل أن يبنى بها . فليس مما يرضاه المنطق أن يكون قد أحبَّها وهى فى هذه السنّ الصغيرة . يؤيد ذلك زواجه من حفصة بنت عمر فى غير حبّ بشهادة أبيها نفسه . قال عمر : « والله إنْ كنا فى الجاهليَّة ما نَعُدُّ للنساء أمراً حتّى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . قال : فبينما أنا فى أمر آتمره إذ قالت لى

امرأتى : لو صنعتَ كذا وكذا ! فقلت لها : وَمالك أنت ولما ها هنا وماتكلفك فى أمر أريده ! فقالت لى : عجباً لك يا ابن الخطاب ! ما تريد أن تُراجَع أنت وإنَّ ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلَّ يومه غضبان ! قال عمر : فآخُذُ ردائى ثم أخرجُ مكانى حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : يا بنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلّ يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنَّا لنراجعه فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنيَّة لا يغرنك هذه التى قدأعجبها حسنها وحبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إيَّاها . . . وقال : والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك » . أفرأيت إذاً أنَّ محمداً لم يتزوج من عائشة ولم يتزوج من حفصة لحب أو لرغبة ، وإنما تزوج منهما ليمتّن أواصر هذه الجماعة الإسلامية الناشئة فى شخصَى وزيريه ، كما تزوج من سَوْدَة ليعْلم المجاهدين من المسلمين أنهم إذا استشهدوا فى سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوةً وذرية ضعافاً يخافون عليهم عَيْلَة .

يقطع فى ذلك زواجه من زينب بنت خزيمة ومن أمّ سلَمة . فقد كانت زينب زوجاً لعبيدة بن الحارث بن المطلب الذى استشهد يوم بدر ، ولم تكن ذات جمال ، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقبت أمّ المساكين ؛ وكانت قد تخطَّت الشباب ، فلم يك إلا سنة أو سنتان ثم قبضها الله ؛ فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبيّ التى تُوفيت قبله . أمَّا أمّ سَلَمة فكانت زوجاً لأبى سَلَمة وكان لها منه أبناء عِدَّة ، وقد سبق القول : إن أبا سلمة جُرح فى أحُد ثم بَرَأ جرحه ، فعقد له النبى لحرب بنى أسد فشتَّتهم وعاد إلى المدينة بما غنم ؛ ثم نَغَر عليه جرح أُحُد وما زال به حتى قضى عليه . وقد حضره النبى وهو على فراش موته ، وظل إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات فأسبل عينيه . وبعد أربعة أشهر من وفاته خطب محمد أمَّ سلمة إلى نفسها ؛ فاعتذرت بكثرة العيال وبأنها تخطَّت الشباب ، فما زال بها حتى تزوّج منها وحتى أخذ نفسه بالعناية بتنشئة أبنائها . أبعد ذلك يزعم المبشرون والمستشرقون أن أم سلمة كانت ذات جمال هو الذى دعا محمداً إلى التزوّج منها ! إن يكن ذلك فقد كانت

غيرها ، من بنات المهاجرين والأنصار ، مَنْ تفوقها جمالاً وشباباً وثروة ونضْرةً ومن لا يَبْهَظُه عبء عيالها . لكنه إنما تزوَّج منها لهذا الاعتبار السامئ الذى دعاه ليتزوج زينب بنت خُزَيمة ، والذى زاد المسلمين به تعلقاً وجعلهم يرون فيه نبيّ الله ورسوله ، ويرون فيه إلى جانب ذلك أباً لهم جميعاً : أباً لكل مسكين ومحروم وضعيف وبائس وعاجز ، أباً لكل من فقد أباه شهيداً فى سبيل الله .

التمحيص التاريخى وما يستنبطه

ماذا يستنبط التمحيص التاريخى النزيه مما تقدم ؟ يستنبط أن محمداً نصح بالزوجة الواحدة فى الحياة العادية . هو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضربه فى حياة خديجة ، وبه نزل القرآن فى قوله تعالى : ﴿ فانْكِحُوا مَا طابَ لكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فإن خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ ﴾[1] ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَو حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلوا كُلَّ المَيْل فتذَرُوهَا كالْمُعَلَّقَةِ ﴾[2] . ولقد نزلت هذه الآية فى أخريات السنة الثامنة للهجرة بعد أن كان قد بنى بأزواجه جميعاً ، ونزلت لتحدّد عدد الزوجات بأربع وقد كان إلى حين نزولها لا حدّ له ، مما يسقط قول القائلين بأن محمداً أباح لنفسه ما حرّم على الناس . ثم نزلت لتُشيد بفضل الزوجة الواحدة وتامر بها لمجرد الخوف من عدم العدل ، ومع التأكيد بأن العدل غير مستطاع . على أنه رأى فى ظروف حياة الجماعة الاستثنائية إمكان الحاجة للتعدد إلى أربع على شرط العدل . وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضرب أيام غزوات المسلمين واستشهاد من استشهد منهم . ولَعَمْرُك هل تستطيع أن تقطع بأن الاقتصار على الزوجة الواحدة ، حين تحصد الحروب أو الأوبئة أو الثورات ألوف الرجال وملايينها ، خير من هذا التعدد الذى أبيح على طريق الاستثناء ؟ ! وهل يستطيع أهلُ أوربا ، فى هذا العصر الذى عَقب الحرب الكبرى ، أن يقولوا بأن نظام الزوجة الواحدة نظام نافذ بالفعل إن استطاعوا أن يقولوا إنه نافذ بالقانون ؟ أوَلا يعود سبب الاضطراب الاقتصادى والاجتماعى الذى عقَب

---

(١) سورة النساء آية ٣ . (٢) سورة النساء آية ١٢٩

الحرب إلى عدم التعاون المشروع بين الجنسين بالزواج تعاوناً قد كان من شأنه أن يُعيد إلى الحال الاقتصادية شيئاً غير قليل من التوازن ؟ ! إننى لا أريد أن أقطع بالحكم لكنى أترك الأمر لتفكير المفكر وتدبير المدبر ، مع القول دائماً بأنه متى عادت الحياة العادية فخيرُ ما يكفل سعادة الأسرة وسعادة الأمة اقتصار الرجل على زوجة واحدة .

قصة زينب بنت جحش

أمَّا زينب بنت جحش ، وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووَلَه ؛ فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر محمد ، وأنه ، وهو المثل الكامل للإيمان ، قد طبَّق فيها حديثه الذى معناه : لا يكمل إيمان المرء حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه ؛ وقد جعل نفسَه أول من يضرب المثل لما يضع من تشريع يمحو به تقاليد الجاهليَّة وعاداتها ، وُيقِرّ بهِ النظام الجديد الذى أنزل الله هدى ورحمة للعالمين . ويكفى لهدم كل القصة التى قرأت عنها من أساسها أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أمَيمة بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله عليه السلام ، وأنها ربيت بعينه وعنايته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مَفَاتن أم ليست كذلك قبل أن تتزوج زيداً . وأنه شهدها فى نموّها تحبو من الطفولة إلى الصّبا وإلى الشباب ، وأنه هو الذى خطبها على زيد مولاه . إذا عرفتَ ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه ، فرأى زينب فبهره حسنُها وقال : سبحان مقلب القلوب ! أو أنه لمَّا فتح باب زيد عبث الهواءُ بالستار الذى على غرفة زينب ، فألفاها فى قميصها ممددة وكأنها « مدام رِكامْييه ! » فانقلب قلبه فجأة ونسى سَوْدَة وعائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأم سَلَمة ونسى كذلك ذكر خديجة التى كانت عائشة تقول : إنها لم تجد فى نفسها غيرةً من أحد من نساء النبىّ ما وجدت من ذكر خديجة . ولو أن شيئاً من حبها علِق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد . وهذه الصِّلة بين زينب ومحمد ، وهذا التصوير الذى صوَّرناها به ، لا يَدَعان بعدهما لتلك القصة الخيالية التى يروون أىّ أساس من الحق أو أىَّ حظّ فى البقاء .

قرابة محمد من زينب

خطبته إياها على زيد وإباؤها

وماذا يُثبت التاريخ أيضاً ؟ يثبت أن محمداً خطب ابنة عمته زَينب على مولاه زيد ؛ فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون أخته وهى قرشيَّةٌ هاشميَّةٌ وهى فوق ذلك ابنة عمة الرسول ، تحت عبد رِقّ اشترته خديجة ثم أعتقه محمد ، ورأى فى ذلك على زينب عاراً كبيراً . وكان ذلك عاراً حقًّا عند العرب كبيراً . فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوَّجن من مَوَال وإن أعتقوا . لكن محمداً يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبيّة وحدها ، وأن يُدرك الناس جميعاً أن لا فضل لعربىّ على أعجمى إلا بالتقوى . ﴿ إنَّ أكرَمَكم عِنْد اللهِ أتْقَاكم ﴾[1] . وهو لا يرى أن يستكره لذلك امرأة من غير أهله . فلتكن زَينبُ بنتُ جحش بنتُ عمته هى التى تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب ، وهذا الهدْم لعاداتها ، معرِضة فى ذلك عما يقول الناس عنها مما تخشى سماعه . وليكن زيد مولاه الذى تبنَّى ، والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه سواء ، هو الذى يتزوّجها فيكون مستعداً للتضحية التى أعدّ الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتَّخذوا أبناء . وليُبْدِ محمد إصراره على أن تقبل زينب ويقبل أخوها عبد الله ابن جحش زيداً زوجاً لها ؛ وليتنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وما كانَ لِمُؤْمِنٍ ولاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبيناً ﴾[2]

لم يبق أمام عبد الله وأخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الإذعان ؛ فقالا : رضينا يا رسول الله . وبنى زيد بزينب بعد أن ساق النبىّ إليها عنه مهرها . فلمَّا سارت زينب إلى زوجها لم يَسْلَسْ له قيادُها ولا لاَنَ إباؤها ، بل جعلت تؤذى زيداً وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجر عليها رِقٌّ . واشتكى زيد إلى النبىّ غير مرَّة من سوء معاملتها إياه ، واستأذنه غير مرَّة فى تطليقها ، فكان النبى يجيبه : « أمسك عليك زوجك واتقِ الله » . لكنَّ زيداً لم يُطق معاشرة زينب وإباءها عليه طويلا فطلقها .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

وكأن الشارع الحكيم قد أراد أن يُبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ، ومن إعطاء الدعيّ جميع حقوق الابن ، ومن إجرائهم عليه أحكامه حتى فى الميراث وحرمة النسب ، ولا يجعل للمتبني واللصق إلا حقّ المولى والأخ فى الدين . فنزله قوله تعالى : (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذلِكُم قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ واللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيل)[1] .

ومعنى هذا أنه يجوز للمدعى أن يتزوّج ممن كانت زوجاً لمن ادّعاه ، ويجوز للمتبنِّى أن يُتزوَّج ممن كانت زوجاً لمتبنَّاه . ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا ؟ ومَنْ مِن العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة جميعاً ؟ إن محمداً نفسه ، على قوّة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله فى أمره ، قد وجد على نفسه الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوّج زينب بعد تطليق زيد إيَّاها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة القديمة المتأصّلة فى نفوس العرب ؛ وذلك ما يريده تعالى فى قوله : (وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه)[2] .

كيف تزوج محمد من زينب

لكن محمداً كان القدوة فى كل ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلغه للناس ؛ فلا يخشى ما يقول الناس فى تزوّجه من زوج زيد مولاه ، فخشية الناس ليست شيئاً إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره ، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقرّرة للتبنى ، والادّعاء . وفى ذلك قوله تعالى : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِين حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولا)[3] .

هذه رواية التاريخ الصحيح فى أمر زينب بنت جحش وزواج محمد منها . فهى ابنة عمّته يراها ويعرف مبلغ جمالها قبل أن تتزوج زيداً ، وهو الذى

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤ . (٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

خطبها على زيد ، وهو كان يراها بعد أن تزوّجت زيداً أن لم يكن الحجاب معروفاً يومئذ . على أنه كان من شأنها ، بحكم صلة القرابة من ناحية ، وأنها زوج دعيّه زيد من ناحية أخرى ، أن تتّصل به لمصالحها ولتكرار شكوى زيد منها .

والآن ما رأى المستشرقين فى قصة بنت جحش

وقد نزلت هذه الأحكام جميعاً ، فأيدها ما حصل من زواج زيد لزينب وتطليقه إيّاها وزواج محمد منها بعد ذلك ؛ هذه الأحكام التى ترفع المعتَق إلى مكانة الحرّ الشريف، والتى تُبطل حقوق الأدعياء وتقضى عليها بصورة عملية لا محل للبس ولا لتأويل بعدها . أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكرّرها المستشرقون والمبشرون ، ويردّدها مُوير وإرْفنج وسبرِنْجَر وفَيْل ودِرْمِنْجم ولامنْس وغيرهم ممن تناولوا كتابة حياة محمد ؟ ! ألاَ إنها شهوة التبشير المكشوف تارةً والتبشير باسم العِلم أخرى ، والخصومة القديمة للإسلام خصومةً تأصّلت فى النفوس منذ الحروب الصّليبيّة ، هى التى تملى على هؤلاء جميعاً ما يكتبون وتجعلهم فى أمر أزواج النبى ، وفى أمر زواجه من زينب بنت جحش خاصة ، يتجنّون على التاريخ ، ويتلمّسون أضعف الروايات فيه مما دُسّ عليه ونُسِب إليه .

ولو أنّ ما ذكروا كان صحيحاً ، لكان فى مقدورنا أن نَجْبَهه بأن العظمة لا تخضع لقانون ، وبأن موسى وعيسى ويونس من قبلُ ، قد سَمَوْا فوق نواميس الطبيعة وسُنن الاجتماع ، بعضهم بمولده ، وبعضهم فى حياته ، فلم يطعن ذلك فى عظمتهم . لكن محمداً كان يضع سنن الاجتماع بوحى ربه ، وكان ينفّذها بأمر ربه ، وكان بذلك المثل الأسمى ، والأسوة الحسنة ، فى تنفيذ ما أمَر ربه . أفكان أولئك المبشرون يريدونه على أن يطلّق أزواجه فلا يزيد على الأربع كما شرع للمسلمين من بعد زواجه منهنّ جميعاً ؟ وهل كانوا يومئذ يُعفونه من نقدهم ؟ ! على أن معاملة محمد لأزواجه معاملة بلغت من السمو ما رأيت شيئاً منه فى حديث عمر بن الخطاب الذى سقنا ، وسترى كثيراً منه خلال فصول هذا الكتاب ، ستكون المثل الناطق على أنه لم يحترم المرأة أحد ما احترمها محمد ، ولم يسمُ بها إلى المكان اللائق بها ما سما محمد .

سمو محمد بمكانة المرأة

الفصل الثامن عشر

غزوتا الخندق وبنى قُرَيظة

حيي بن أخطب وتأليبه العرب جميعاً على المسلمين – عشرة آلاف مقاتل يقصدون المدينة – سلمان الفارسى يشير بحفر الخندق حولها – حصار قريش وغطفان إياها – نقض بنى قريظة عهدهم مع المسلمين – ضياع الثقة بين العرب واليهود – انسحاب العرب عن المدينة – محاصرة بنى قريظة القضاء عليهم بالقتل . . .

آن للمسلمين بعد إجلائهم بنى النَّضير عن المدينة ، وبعد بدر الآخرة ، وبعد غزوتى غَطَفَان ودُومة الجندل ، أن يركنوا إلى شىء من الطمأنينة إلى الحياة بالمدينة . وذهبوا ينظِّمون عيشهم ، وكان من بعدُ أقلَّ شظفاً بما غنموا فى غزواتهم هذه ، وإن كانت قد صرفتهم فى كثير عن الزرع والتجارة . وكان محمد على طمأنينته حَذِراً دائماً غدرة العدوّ ، باثًّا دائماً عيونه وأرصاده فى أنحاء شبه الجزيرة ينقلون إليه من أخبار العرب وما يأتمرون به ما يمهد له دائماً فرصة الأهبة لدفاع المسلمين عن أنفسهم . ومن اليسير عليك أن تقدر ضرورة الحذر والحيطة بعد كل الذى رأيت من غَدَرات قريش وغير قريش بالمسلمين ، ومن أن بلاد العرب كلها كانت فى ذلك الحين ، وكانت من بعد ذلك فى أكثر أطوار تاريخها ، أشبه بمجموعة جمهوريات مستقلة كل واحدة منها عن سائرها ، تتخذ كل واحدة منها نظاماً هو أقرب ما يكون إلى نظام القبائل ، وتضطر لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألفها تصورنا فى الأمم المنظمة . وكان محمد أشدّ ما يكون حذراً أن كان عربيًّا بقدر ما ركِّب فى الغريزة العربية من الحرص على الثأر . وقد كانت قريش وكان يهود بنى قَيْنُقَاع ويهود بنى النضير وعرب غَطَفَان وهُذَيْل والقبائل المتاخمة للشام ، تتربص كل واحدة منها بمحمد وأصحابه الدوائر ، وتودّ كل واحدة منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لإدراك ثأرها من هذا الرجل الذى فرق العرب فى دينها شِيَعاً ، والذى خرج من مكة مهاجراً لا حول له ولا قوّة إلا ما يملأ نفسه الكبيرة من

الغريزة العربية وحذر محمد

الإيمان ، وها هو ذا فى خمس سنوات قد أصبح له من الحول ومن القوّة ما جعله مرهوب الجانب من أشدّ مدائن العرب ومن أشدّ قبائلها حولاً وقوّة .

شدة خصومة اليهود

ولقد كان اليهود أبصر خصوم محمد بتعاليمه و بمصير دعوته ، وكانوا أكثرهم تقديراً لما يصيبهم بانتصاره . فهم كانوا فى بلاد العرب دعاة التوحيد ، وكانوا ينافسون المسيحيين فى سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلب عليهم . ولعلهم كانوا على حق أن كانت الساميَّة أميل بطبعها إلى فكرة التوحيد ، على حين كان التثليث المسيحىُّ مما لا يسهل على هذه النفس الحاميَّة مساغه . وهذا محمد من صميم العرب ومن صميم الساميين ، يدعو إلى التوحيد بعبارات قويَّة نفاذة تأخذ بمجامع الفؤاد ، وتصل إلى أعماق القلب ، وتسمو بالإنسان إلى ما فوق نفسه . وها هو ذا قد بلغ من القوَّة حتى أخرج بنى قينُقاع من المدينة ، وحتى أجلى بنى النَّضير عن ديارهم ؟ فهل يتركونه وشأنه منصرفين إلى الشام و إلى وطنهم الأوَّل بيت المقدس فى أرض المَعَاد ، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه ؟

رسل اليهود إلى قريش

كانت فكرة تأليب العرب هى الفكرة التى اختمرت فى نفوس أكابر بنى النَّضِير . وتنفيذاً لها خرج نفر منهم ، ومن بينهم حُيَىُّ بن أخْطَب وسَلاّم ابن أبى الحُقَيْق وكنانة بن أبى الحُقيق ، ومعهم نفر من بنى وائل هَوْذَةُ بن قَيْس وأبو عَمَّار ، حتى قدِموا على قريش مكة . فسأل أهلُها حُيَيًّا عن قومه ، فقال : تركتهم بين خَيْبر والمدينة يتردَّدون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه . وسألوه عن قُرَيْظَة ، فقال : أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد ، حتى تأتوهم فيميلوا معكم . وتردَّدت قريش أتُقدِم أم تُحجِم ؛ فليس بينها وبين محمد خلافٌ إلا على الدعوة التى يدعو إلى الله . أليس من الممكن أن يكون على حقّ ما دامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموًّا ؟ ! وقالت قريش لليهود : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأوَّل وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفدينُنا خير أم دينه ؟ ! قالت اليهود : بل دينُكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ

اليهود يفضلون الوثنية على الإسلام

إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ ٱللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً) [١] .

رأى اليهود في ذلك

وفى موقف اليهود هذا من قريش وتفضيلهم وثنيّتهم على توحيد محمد يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون فى كتابه (تاريخ اليهود فى بلاد العرب) : «كان من واجب هؤلاء ألاّ يتورّطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش ، وإلاّ يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلاميّ ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم ؛ لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدّة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نُكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتَّى من الأدوار التاريخية ، كان من واجبهم أن يضحّوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين . هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبّاد الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام وبالوقوف منهم موقف الخصومة » .

اليهود يؤلبون سائر العرب

لم يَكْفِ حُيَيَّ بن أخطب واليهودَ الذين معه هذا الذى قالوا لقريش فى تفضيل وثنيّتها على توحيد محمد حتى تنشَط لمحاربته ، وأن يأخذوا وإيّاهم لذلك بعد أشهر موعداً ، بل خرج أولئك اليهود إلى غَطَفان من قيس عَيْلاَنَ ، ومن بنى مُرّةَ ، ومن بنى فَزَارَةَ ، ومن أشجع ، ومن سُلَيم ومن بنى سعد ، ومن أسد ، ومن كل من لهم عند المسلمين ثأر ، وما زالوا بهم يحرّضونهم على الأخذ بثأرهم ويذكرون لهم متابعة قريش إياهم على حرب محمد ويحمدون لهم وثنيّتهم ، ويَعِدُونهم النصر لا محالة . وخرجت الأحزاب التى جمع اليهود لحرب محمد وأصحابه : خرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان فى أربعة آلاف مجند وثلثمائة جواد وخمسمائة وألف ممتط بعيره . وعقد اللواء فى دار الندوة لعثمان بن طلحة الذى قُتل أبوه وهو يحمل لواء قريش فى أحُد . وخرجت بنو فزارة وعلى رأسها

---

(١) سورة النساء آيتا ٥١ و ٥٢

عُيَيْنة بن حصن بن حُذَيفة فى رجال كثيرين وألف بعير . أمَّا أشجع ومُرَّةُ فجاء كلٌّ منهما فى أربعمائة محارب ، يتزعَّم الحارثُ بن عوف مُرَّةَ ، ويتزعَّم مِسْعَر ابن رُخَيْلَةَ أَشجَع . وجاءت سُلَيْم أصحابُ بئْر مَعونة فى سبعمائة رجل . واجتمع هؤلاء وانحاز إليهم بنو سعد وأسد ، فصاروا فى عشرة آلاف رجل أو نحوها ، وساروا جميعاً تحت إمرة أبى سُفْيان قاصدين المدينة . فلمّا بلغوها تداول زعماء هذه القبائل الزعامة أثناء الحرب كلٌّ يوماً على التوالى .

فزع المسلمين

واتَّصل نبأ هذا السير بمحمد والمسلمين معه فى المدينة ففزعوا . ها هى ذى العرب كلها قد أجمعت أمرها لَتَسْحَقَنَّهُمْ ولَتقضينّ عليهم ولَتَسْتَأْصلَنَّهم . وها هى ذى قد جاءت فى عُدّة وعديد ما لها فى حروب العرب جميعاً من قبلِ مثل . وإذا كانت قريش قد انتصرت فى أحُد عليهم لما خرجوا من المدينة وكانت دون هذه الأحزاب بمراحل فى العدد والعدة ، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة الألوف المؤلَّفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة ؟ ! لم يكن سبيلٌ إلى غير التحصن بيثرب العذراء ، على ما وصفها عبد الله بن أُبَىّ . ولكن أيكفى هذا التحصن أمام تلك القوّة الساحقة ؟ ! وكان سَلْمان الفارسى يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفاً فى بلاد العرب ، فأشار بحفر الخَنْدَق حول المدينة وتحصين داخلها . وسارع المسلمون إلى تنفيذ نصيحته ، فحُفِر الخندق وعمل فيه النبىّ عليه السلام بيديه ، فكان يرفع التراب ويشجّع المسلمين بذلك أعظم التشجيع ، ويدعوهم إلى مضاعفة الجهد . وأخذ المسلمون آلات الحفر ، من مَسَاح وكرازين ومَكاتل[1] من قُرَيْظَةَ : اليهود الذين بقُوا على ولائهم . وبهذا الدأب والجهد المتَّصل تمَّ حفر الخندق فى ستة أيام . وفى هذه الأثناء كذلك حُصّنت جدران المنازل التى تواجه العدو والتى بينها وبين الخندق نحو فرسخين . وعند ذلك أخليت المساكن التى ظلت فيما وراء

حفر الخندق حول المدينة

(١) المساحى : جمع مسحاة وهى المجرفة التى يسحى بها الطين أى يجرف . والكرازين الفؤوس . واحدها كرزون وكرزين . والمكاتل : جمع مكتل ، وهو الزنبيل (المقطف) الذى يحمل فيه التراب وغيره .

الخندق ، وجيء بالنساء والأطفال إلى هذه المنازل التى حُصّنت ووُضعت الأحجار إلى جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحاً يُرْمَى به عند الحاجة إليه .

دهش قريش للخندق ومواقع عسكرها أمامه

وأقبلت قريش وأحزابها وهى ترجو أن تلقى محمداً بأُحُد ، فلم تجد عنده أحداً . فجاوزته إلى المدينة حتى فاجأها الخندق ، فعجبت أن لم تكن تتوقّع هذا النوع من الدفاع المجهول لها . وبلغ منها الغيظ حتى زعمت أن الاحتماء وراءه جبنٌ لا عهْد للعرب به . وعسكرت قريش ومن تابعَها بمجتمع الأسيال من رُومَةَ ، وعسكرت غَطَفان ومن اتبعها من أهل نجد بذَنَب نَقَمَى . أمَّا محمد فخرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فجعل ظهره إلى هضبة سَلْع ، وجعل الخندق بينه وبين أعدائه ، وهناك ضرب عسكره ونُصبت له خيمته الحمراء . ورأت قريش والعرب معها أن لا سبيلَ إلى اجتياز الخندق فاكتفت بتبادل الترامى بالنبال عدّة أيام متتابعة .

تردد العرب فى البقاء والشتاء قارس

وأيقن أبو سفيان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخندقها طويلا دون أن يستطيعوا اقتحامها . وكان الوقت آنئذ شتاءً قارساً برده ، عاصفة رياحه ، يُخْشَى فى كل وقت مطره . وإذا كان من اليسير أن يحتمى أهل مكة وأهل غَطَفَان من ذلك كله بمنازلهم فى مكة وفى غطفان ، فالخيام التى ضربوا أمام يثرب لا تحميهم منه فتيلا . وهم بعد قد جاءوا يرتجون نصراً ميسوراً لا يكلفهم غير يوم كيوم أُحُد ، ثم يعودون أدراجَهم يتغنَّون بأناشيد الفوز ويستمتعون باقتسام الغنائم والأسلاب . وماذا عسى أن يُمسك غطفان عن أن تعود أدراجَها وهى إنما اشتركت فى الحرب لأن اليهود وعدتها متى تم النصر ،ثمارَ سنة كاملة من ثمار مزارع خَيْبَر وحدائقها ، وها هى ذى ترى النصر غير ميسور ، أو هو على الأقل غير محقق ، وهو يحتاج من المشقة فى هذا الفصل القارس إلى ما يُنسيها الثمار والحدائق ! فأما انتقام قريش لنفسها من بدر ومما لحقها بعد بدر من هزائم ، فأمره مدرك على الأيام ما دام هذا الخندق يحول دون إمساك محمد بالتلابيب ، وما دامت بنو قُرَيظة تمدُّ أهل يثرب بالمؤونة إمداداً يطيل أمد مقاومتهم شهوراً وشهوراً . أفليس خيراً للأحزاب أن يعودوا أدراجَهم ؟ !

نعم ! لكن جمع هؤلاء الأحزاب لحرب محمد مرّة أخرى ليس بالأمر الميسور . وقد استطاع اليهود ، وحيٌّ بن أخطب على رأسهم ، أن يجمعوها هذه المرّة للانتقام لأنفسهم من محمد وأصحابه عما أوقع بهم وببنى قينقاع من قبلهم . فإن أفلتت الفرصة فهيهات هيهات أن تعود ، وإن انتصر محمد بانسحاب الأحزاب فالويل ثم الويل لليهود .

خوف حيي من انسحاب الأحزاب

قدر حُيَيّ بن أخطب هذا كله ، وخاف مغبّته ، ورأى أن لا مفرَّ من أن يقامر بآخر سهم عنده . فأوحى إلى الأحزاب أنه مقنعٌ بنى قُريظة بنقض عهد موادعتهم محمداً والمسلمين والانضمام إليهم ، وأن قريظة متى فعلت انقطع المدد والميرة عن محمد من ناحية ، وفتح الطريق لدخول يثرب من ناحية أخرى . وسُرَّت قريش وغطفان بما ذكر حيّ ، وسارع هو فذهب يريد كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة . وقد أغلق كعب دونه باب حصنه أول ما عرف مَقْدَمَه عليه ، مقدّراً أن غدر قريظة بمحمد ونقضها عهده وانضمامها إلى عدوه قد يفيده ويفيد اليهود إذا دارت الدوائر على المسلمين ، لكنه جدير بأن يمحوها محواً إذا هُزمت الأحزاب وانصرفت قواتها عن المدينة . غير أن حُيَيًّا ما زال به حتى فتح له باب الحصن ثم قال له : « ويحك يا كعب ! جئتك بعز الدهر وببحر طام . جئتك بقريش وبغَطَفان مع قادتها وسادتها ، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه » وتردد كعب وذكر وفاء محمد وصدقه لعهده ، وخشى مغبَّة ما يدعوه حُيَيّ إليه . لكن حييًّا ما زال به يذكر له ما أصاب اليهود من محمد وما يوشك أن يصيبهم منه إذا لم تنجح الأحزاب فى القضاء عليه ، ويصف له قوة الأحزاب وعُدتها وعددها ، وأنها لم يمنعها غير الخندق أن تقضى فى سويعة على المسلمين جميعاً ، حتى لانَ كعب له ، فسأله : وماذا يكون إذا ارتدّت الأحزاب ؟ هنالك أعطاه حُيَيّ موثقاً إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه فى حصنه فيَشْركه فى حظه . وتحركت فى نفس كعب يهوديته فقبل ما طلب ونقض عهده مع محمد والمسلمين وخرج من حياده .

محاولته كسب قريظة

قريظة تنقض عهدها

رسل محمد إلى قريظة

واتّصل نبأ انضمام قريظة إلى الأحزاب بمحمد وأصحابه ، فاهتزّوا له وخافوا مغبّته . وبعث محمد سعد بن مُعاذ سيّد الأوس وسعد بن عُبَادة سيّد الخزرج ومعهما عبد الله بن رَوَاحة بن جُبَيْر ليقفوا على جلية الأمر ، على أن يَلْحَنُوا [1] به عند عودتهم إن كان حقًّا حتى لا يَفُتُّوا فى أعضاد الناس . فلمَّا أتى هؤلاء الرسل أَلْفَوْا قُريظة على أخبث ما بلغهم عنهم . فلمَّا حاولوا رَدّهم إلى عهدهم طلب كعب إليهم أن يردوا إخوانهم يهود بنى النَّضير إلى ديارهم . وأراد سعد بن مُعاذ ، وكان حليف قريظة ، أن يُقنعها مخافة أن يحلَّ بها ما حلَّ ببنى النضير أو ما هو شرّ منه ؛ فانطلقت اليهود ووقعوا فى محمد عليه السلام : وقال كعب : مَنْ رسولُ الله ! ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . وكاد الفريقان يتشاتمان .

نفسية الأحزاب تقوى

رجع رسل محمد إليه بما رأوا . هنالك عظم البلاء واشتد الخوف ، ورأى أهل المدينة طريق قُرَيْظة وقد فُتح للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم . ولم يكن ذلك محض خيال ووهم ؛ فهم رأوا قريظة تقطع المدد والميرة عنهم ، ورأوا قريشاً وغَطَفان ، منذ عاد حُيَيّ بن أخْطَب ينبئهم بانضمام قريظة إليهم ، قد تغيَّرت نفسيَّتهم وأخذوا يعدون أنفسهم للقتال . وذلك أن قريظة استمهلت الأحزاب عشرة أيام تُعِدُّ فيها عدتها على أن تقاتل الأحزابُ المسلمين فى هذه الأيام العشرة أشدّ القتال . وذلك ما فعلوا . فقد ألفوا ثلاث كتائب لمحاربة النبيّ ؛ فأتت كتيبة ابن الأعور السلَميَّ من فوق الوادى ، وأتت كتيبة عُيَيْنَة بن حِصْن من الجنب ، ونصب له أبو سفيان من قبل الخندق. وفى هذا الموقف نزلت هذه الآيات :

فزع أهل يثرب

(إِذْ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِين فِى قُلُوبهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً .

---

(١) اللحن هنا : الإشارة والتعريض .

وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَام لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَاراً) [١]

ولأهل يثرب أبلغ العذر إن هم بلغ منهم الفزع وزُلزلَت قلوبهم . ولمن قال منهم العذر فى أن يقول : كان محمدٌ يَعِدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وللذين زاغت أبصارهم العذر فى أن تزيغ . وللذين بلغت قلوبهم الحناجر العذر فى أن تبلغها . أليس هو الموت الذى يرون آتياً تقدح بالشرر عينه ، مصوّرة فى بريق هذه السيوف تلمع فى أيدى قريش وفى أيدى غطفان ، وتدبُّ إلى القلب مخافته متسللة من منازل بنى قريظة الغَدَرة الخائنين ! ألاَ ويلٌ لليهود ! ما كان أجدر محمداً بأن يقضى على بنى النَّضير وأن يستأصلهم بدل أن يذرهم يرتحلون موفورين ، وأن يذر حُيَيًّا والذين معه يؤلبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم . ألاَ إنها الطامَّة الكبرى والفزع الأكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

الذين اقتحموا الخندق

وسمت روح الأحزاب المعنوية ، حتى دفعت بعض فوارس من قريش ، منهم عمرو بن عبد وُدٍّ ، وعِكرمة بن أبى جهل ، وضِرار بن الخطاب ، أن يقتحموا الخندق ، فتيمموا مكاناً منه ضيقاً فضربوا خيلهم فاجتازته فجالت بهم فى السَّبْخَة بين الخندق ، وسَلْع . وخرج علىّ بن أبى طالب فى نفر من المسلمين فأخذوا عليهم الثغرة التى اقتحمت منها خيلهم ، وتقدم عمرو بن عبد وُدٍّ ينادى . مَنْ يبارز ؟ ولمَّا دعاه ابن أبى طالب إلى النزال قال فى صَلَف : لِمَ يا بن أخى ! فوالله ما أحبّ أن أقتلك . قال علىٌّ : لكنى أحب والله أن أقتلك . فتنازلا فقتله علىٌّ ؛ وفرَّت خيل الأحزاب منهزمة ، حتى اقتحمت الخندق من جديد مولّية الأدبار لا تلوى على شىء . وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له بعد ما غربت الشّمس يريد أن يجتاز الخندق ، فهوَى هو والفرس فيه فصُرِعا وتحطَّما . وأرسل أبو سفيان يعرض دية جثته مائة من الإبل ،

(١) سورة الأحزاب الآيات من ١٠ إلى ١٣ .

فرفض النبى عليه السلام وقال : خذوه فإنه خبيثٌ خبيثُ الدّية .

استهانة قريظة بالمسلمين

وأعظمت الأحزاب نيرانها مبالغة فى تخويف المسلمين وإضعافاً لروحهم ، وبدأ المتحمسون من قُرَيْظَة ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينة القريبة منهم ، يريدون إرهاب أهلها . كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان ، فمرَّ بهم يهودى يُطيف بالحصن . فقالت صفية مخاطبة حسان : إن هذا اليهودى يطيف ياحسَّان بالحصن كما ترى ، وإنى والله ما آمنه أن يدلّ على عورتنا مَنْ وراءنا من اليهود ، ورسول الله وأصحابه قد شُغِلوا عنا ، فانزل إليه فاقتله . قال حسَّان : يغفر الله لك يا بنة عبد المطلب ! والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا . فأخذت صفيَّة عموداً ونزلت من الحصن وضربت به اليهودىّ حتى قتلته . فلما رجعت قالت : يا حسانُ انزل إليه فاسلُبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال حسان : مالى يا بنت عبد المطلب بسَلَبه من حاجة !

وظلّ أهل المدينة فى فزعهم وزلزال قلوبهم ، على حين جعل محمد يفكر فى الوسيلة إلى الخلاص ، ولم تكن الوسيلة مواجهة العدوّ بطبيعة الحال . فلتكن الحيلة إذًا . فبعث إلى غَطَفَان يَعِدها ثلثَ ثمار المدينة إن هى ارتحلت . وكانت غَطَفَان قد بدأت تملُّ ، فأظهرت امتعاضاً من طول هذا الحصار وما لقوا من العنت أثناءه لغير شىء إلا إجابة حُيَىّ بن أخطب واليهود الذين معه . ثم إن نُعيم بن مسعود ذهب بأمر الرسول إلى قريظة ، وكانت لا تعرف أنه أسلم ، وكان لها نديماً فى الجاهلية ، فذكّرهم بما بينه وبينهم من مودَّة ، ثم ذكر لهم أنهم ظاهروا قريشاً وغطفان على محمد ، وقريشٌ وغطفان ربما لا تطيقان المقام طويلا فترتحلان فتُخليان ما بينهم وبين محمد فينكّل بهم ، ونصح لهم ألا يقاتلوا مع القوم حتى يأخذوا منهم رُهُناً يكونون بأيديهم حتى لا تتنحَّى قريش وغَطَفَان عنهم . واقتنعت قريظة بما قال . ثم ذهب إلى قريش فأسرَّ لهم أن قُريظة ندِموا على ما فعلوا من نكث عهد محمد ، وأنهم عاملون لاسترضائه وكسب مودَّته بأن يقدموا له من أشراف قريش من يضرب أعناقهم . ولذلك نصح لهم

دسيسة نعيم بين الأحزاب وقريظة

إن بعثت إليهم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألا يبعثوا منهم أحداً . وصنع نُعَيم مع غطفان ما صنع مع قريش وحذَّرهم مثل ما حذرهم . ودبَّت الشبهة من كلام نعيم إلى نفوس قريش وغطفان فتشاور زعماؤهم ، فأرسل أبو سفيان إلى كعب سيد بنى قريظة يقول له : قد يا كعب طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل ، وقد رأيت أن تعمدوا إليه فى الغد ونحن من ورائكم فعاد رسول أبى سفيان إليه بقول زعيم قريظة : إن غداً السبت ، وإنا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت . فغضب أبو سفيان وصدق حديث نعيم ، وأعاد الرسول يقول لقريظة : اجعلوا سبتاً مكان هذا السبت ، فإنه لا بد من قتال محمد غداً ؛ ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لَنبرأن من حلْفكم ولنبدأنَّ بكم قبل محمد . فلما سمعت قريظة كلام أبى سفيان كررت أنها لا تتعدَّى السبت ، وقد غضب الله على قوم منهم تعدوه فجعلهم قردةً وخنازير . ثم أشاروا إلى الرهائن حتى يطمئنوا لمصيرهم . فلما سمع ذلك أبو سفيان لم يبق لديه فى كلام نعيم ريبة ، وبات يفكر ماذا عسى أن يصنع ؛ وتحدث إلى غَطَفَان فإذا هى تتردَّد فى الإقدام على قتال محمد متأثرة بما كان قد بدأها به من وعدها ثلث ثمار المدينة وعداً لم يتمّ أن اعترضه سعد بن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله .

العاصفة تقتلع خيام الأحزاب

فلما كان الليل عصفت ريح شديدة ، وهطل المطر غزيراً ، وقصف الرعد ، ولمع البرق ، واشتدت العاصفة فاقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب إلى نفوسهم ، وخُيِّل إليهم أن المسلمين انتهزوا فرصة ليعبُروا إليهم وليوقعوا فيهم . فقام طُلَيْحة بن خُوَيلد فنادى : إن محمداً قد بدأكم بشرّ فالنجاة النجاةَ . وقال أبو سفيان : «يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام . لقد هلك الكُرَاع[1] والْخُفّ ، وأخلفنا بنو قريظة وبَلَغَنا منهم ما نكره ، ولقينا من شدّة الريح ما ترون فارْتحلوا فإنى مرتحل » .

---

(١) الكراع : اسم جمع للخيل ، وقيل الكراع : الخيل والبغال والحمير . والخف : الجمل المسن ، والمراد هنا الإبل التى يرحلون عليها .

رحيل الأحزاب

فاستخفّ القوم ما استطاعوا حمله من متاع وانطلقوا وما تزال الريح تعصف بهم ، وفرّوا وتبعتهم غَطَفَان والأحزاب . وأصبح الصبح ولم يجد محمد أحداً ، فانصرف راجعاً إلى منازل المدينة والمسلمون معه ، يرفعون أكفّ الضراعة إلى الله شكراً أن كشف الضرّ عنهم وأن كفى المؤمنين القتال .

* * *

عاد محمد بعد رحيل الأحزاب يفكر فى موقفه . لقد أذهب الله عنه عدوّه الذى كان يهدّده . لكن اليهود قادرون على أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلا من السنة غير الشتاء القارس الذى كان من جند الله فى هزيمة عدوّه . ثم إن قريظة لولا ارتحال الأحزاب ولولا ما وقع فى صفوفهم من شقاق وانقسام ، كانت على أهبة النزول إلى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاونة على استئصالهم . لا تقطعَنّ إذاً ذَنَبَ الأفعى وتتركها . ولا بدّ من القضاء على بنى قريظة بما فعلوا .وأمر عليه السلام مُؤذّناً فأذّن فى الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة ؛ وقدّم عَليًّا برايته إليها . ومع ما كان عليه المسلمون من نَصَب بعد طول حصار قريش وغطفان إيَّاهم ، فقد خفّوا لهذا القتال الذى لم يكن لديهم أىّ شك فى نتيجته . صحيح أن بنى قريظة يقيمون فى حصون محصّنة كالتى كانت لبنى النَّضير ، لكنّ هذه الحصون إن أغنتهم فى الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم فى مهاجمة المسلمين . والميرة قد أصبحت فى متناول أيدى أهل المدينة بعد جلاء الأحزاب عنها . لذلك خفّ المسلمون فرحين وراء علىّ ، حتى أتوا بنى قريظة ، فإذا بهم ومعهم حيىّ بن أخطب النَّضيرىّ يقعون فى محمد بأقبح مقالة ، يكذّبونه ويطعنون عليه وينالون من أعراض نسائه . وكأنما شعروا بعد انخذال الأحزاب عن المدينة بما هُيئ لهم . ولمَّا جاء الرسول لقيه علىّ وطلب إليه ألاّ يدنو من حصون اليهود . فسأله محمد : ولم ؟ أظنّك سمعت منهم لى أذًى ؟ قال : نعم . قال رسول الله : لو رأونى لما قالوا من ذلك شيئاً . فلما دنا من حصونهم ناداهم : يا إخوان القرَدة ! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ! قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا . وجعل المسلمون بقيَّة نهارهم يتوافدون على بنى قريظة حتى اجتمع جمعهم عندها ، فأمرهم محمد بحصارها .

غزوة قريظة

استطالة زمن الحصار

ظلّ هذا الحصار خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالَها إلا بعض تراشق بالنَّبل والحجارة ، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام طول مدّة الحصار مرّة واحدة . فلما جَهدوا وأيقنوا أن لن تغني عنهم حصونهم من الهلاك شيئاً ، وأنهم لا بدّ أن يقعوا في قبضة المسلمين وإن طال أمد الحصار ، بعثوا إلى الرسول أن ابعث إلينا أبا لُبابة لنستشيره في أمرنا . وكان أبو لُبابة من الأوس حلفائهم . فلما رأوه قام إليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء ، حتى رقّ لهم . فقالوا له : أترى يا أبا لُبابة أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم – وأشار بيده إلى حلقه – إنه الذبح إن لم تفعلوا . وقد ندم أبو لُبابة على إشارته هذه فيما روت السِيَر . فلما انصرف أبو لبابة عنهم عرض كعب بن أسد أن يتابعوا محمداً على دينه وأن يُسلموا فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم

استشارة أبي لبابة

فرفض أصحاب كعب أن يسمعوا هذا الكلام منه وصاحوا به : لا نفارق حكم التوراة ، ولا نستبدل به غيره . فعرَض عليهم أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم وأن يخرجوا إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصْلِتِين السيوفَ غير تاركين وراءهم ثقلاً حتى يحكم الله بينهم وبين محمد . فإن هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلاً يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء ، فرفضوا هذا العرض أيضاً قائلين : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ! . قال لهم كعب : لم يبقَ إذاً إلا أن تنزلوا على حكم محمد وقد سمعتم ما أعدّ لكم . وتشاور القوم فيما بينهم وقال قائل منهم : إنهم لن يكونوا أسوأ من بني النَّضير مصيراً ، وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشرّ ، وإنهم إن عرضوا أن يرتحلوا إلى أذْرِعات بالشام لم يجد محمد بأساً من قبول عرضهم .

وبعثت قريظة إلى محمد تعرض عليه الخروج إلى أذرِعات تاركة وراءها ماتملك ، فأبى ذلك عليها إلا أن تنزل على الحكم . فأرسلت إلى الأوس تقول لهم ألا تأخذون لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم ! فمشى جماعة من الأوس إلى محمد فقالوا : يانبيّ الله ، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذى قبلت من حلفاء الخزرج ؟ ! قال محمد : يا معشر الأوس ، ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلا منكم ؟ ! قالوا : بلى . قال : فقولوا لهم فليختاروا من

تحكيم سعد ابن معاذ

شاءوا . فاختار اليهود سعد بن مُعاذ ، وكأنما أعماهم القدر عما كتب لهم فى لوح حظهم ، فأنساهم مَقْدَمَ سعد إليهم أوّل نقضهم عهدهم ، وتحذيره إيّاهم ، ووقوعهم فى محمد أمامه ، وسبّهم المسلمين بغير حق . وأخذ سعدٌ المواثيق على الفريقين أن يُسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به . فلمّا أعطوه المواثيق ، أمر ببنى قريظة أن ينزلوا وأن يضعوا السلاح ، ففعلوا ، فحكم فيهم أن تُقتَل المُقَاتلة ، وتقسم الأموال ، وتُسْبَى الذرّية والنساء . فلمّا سمع محمد هذا الحكم قال : والذى نفسى بيده لقد رضى بحكمك هذا الله والمؤمنون وبه أمرت . ثم خرج إلى سوق المدينة فأمر فحُفِرَت بها خنادق ثم جيء باليهود أرْسالاً فضربت أعناقهم ، وفى هذه الخنادق دفنوا . ولم يكن بنو قريظة يتوقعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم . بل كانوا يحسبونه يصنع بهم ما صنع عبد الله بن أُبَىّ مع بنى قينقاع . ولعل سعداً ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لما كان أمام المسلمين إلا أن يُسْتأصلوا وأن يُقتلوا وأن يمثّل بهم . فجزاهم بمثل ما عرَّضوا المسلمين له .

حكمه بقتل اليهود

جلد اليهود للقتل

وقد أظهر اليهود من الجلَد أمام القتل ما ترام فى حديث حُيَىّ بن أخطب حين قُدّم لضرب عنقه ، فقد نظر إليه النبى وقال : ألم يخزك الله يا حُيَىّ ، فأجاب حُيَىّ : « كل نفس ذائقة الموت ، ولى أجل لا أعدوه ولا ألوم نفسى على عداوتك » . ثم التفت إلى الناس فقال : « أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتابٌ وقدرٌ وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل » . ثم إن الزبير بن باطَا القُرَظىّ كان قد منّ على ثابت بن قيس يوم بُعَاث بأن خلَّى سبيله بعد أسره ، فأراد ثابت أن يجزيه ، بعد حكم ابن معاذ على اليهود ، عن يده ، فذكر لرسول الله مِنَّة الزبير عليه واستوهبه دمه ، وأجاب رسول الله طَلِبته . فلمّا عرف الزبير ما فعل ثابت قال له : شيخٌ كبير مثلى لا أهل له ولا ولد ماذا يصنع بالحياة ؟ ! فاستوهب ثابتٌ رسولَ الله دم امرأته وأولاده فوهبه له ، ثم استوهبه ماله فوهبه له كذلك . فلما اطمأن الزبير إلى أهله وولده وماله سأله عن كعب بن أسد وعن حُيَىّ بن أخطب وعن عزّال بن سَمَوْءل وعن زعماء بنى قريظة ، فلمّا علم أنهم

قُتلوا قال : إنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله فَتلةَ دلْوِ ناضح[1] حتى ألقى الأحبَّة . وكذلك ضُربت عنقه بمشيئته . وكان المسلمون لا يقتلون فى غزواتهم النساء والذّرارى ، ولكنهم يومئذ قتلوا امرأة طرحت الرّحا على مسلم فقتلته . وكانت عائشة تقول : والله ما أنسى عجباً منها طيبَ نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفتْ أنها تقتل . وأسلم يومئذ من اليهود أربعة فَنجَوْا من القتل .

دم بنى قريظة فى عنق حيي ابن أخطب

وفى رأينا أن دم بنى قريظة معلّق فى عنق حيَىّ بن أخطب وإن كان قد قُتل معهم . فهو قد حنِث فى العَهد الذى عاهد قومه من بنى النضير حين أجلاهم محمد عن المدينة ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحداً . وهو بتأليبه قريشاً وغطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد جسّم العداوة بين اليهود والمسلمين ، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بنى إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه . وهو الذى حمل بنى قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها ، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشرّ شىء . وهو الذى دخل حصن بنى قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم ، ولو أنهم نزلوا على حكم محمد منذ اليوم الأوّل واعترفوا بخطئهم فى نقض عهدهم ، لَمَا أُهدرت دماؤهم وضُربت أعناقهم . لكن العداوة بلغت من التأصّل فى نفس حُيَىّ وانتقلت منه إلى نفوس بنى قريظة حدًّا جعل سعد بن معاذ نفسه ، وهو حليفهم ، يؤمن بأنهم إن أبقى على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلّبوا الأحزاب من جديد ، وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين ، وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظَفِروا بهم . فالحكم الذى أصدره على قسوته إنما أصدره متأثراً بالدفاع عن النفس ، معتبراً بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين .

قسمة أموال بنى قريظة

وقسم النبىّ أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج منها الخمس . قسمها بأن كان للفارس سهمان ، ولفرسه سهم ، وللراجل

---

(١) أى مقدار هوى الدلو فى البئر.

سهم . وكانت الخيل يوم قريظة ستة وثلاثين فرساً . ثم بعث سعد بن زيد الأنصاريّ بطائفة من سبايا بنى قريظة إلى نجد ، فابتاع بها خيلاً وسلاحاً زيادةً فى قوّة المسلمين الحربية .

وكانت ريْحانةُ إحدى سبايا بنى قُريظة قد وقعت فى سهم محمد ، فعرض عليها الإسلام فأصرّت على يهوديتها ، وعرض عليها أن يتزوّجها فقالت : بل تتركنى فى ملكك فهو أخفّ علىّ وعليك . ولعل حرصها على اليهودية ورفضها الزواج يرجعان إلى عصبيتها لقومها ، وما كان باقياً فى نفسها من كراهية للمسلمين ولنبيّهم . ولم يتحدّث أحد عن جمال ريحانة ما تحدَّثوا عن جمال زينب بنت جحش ، وإن ذكر بعضهم أنها كانت جميلة وسيمة . وقد اختلفت السير فيها : أضُرِب عليها الحجاب كما ضرب على نساء النبىّ ، أم أنها ظلَّت كسائر نساء العرب يومئذ لم يضرب عليها حجاب . وبقيت ريحانة فى ملكه حتى ماتت عنده .

وطَّدت غزوة الأحزاب ، ووطَّد القضاء على بنى قريظة ، للمسلمين فى المدينة ، فلم يبق للمنافقين فيها صوت قطّ . وذهبت العرب كلها تتحدث بقوّة المسلمين وسلطانهم ، وبمقام محمد وقوّته ورهبة جانبه . ولكن الرسالة لم تكن للمدينة وحدها بل كانت للعالم بأسره . فما يزال على النبىّ وأصحابه إذاً أن يمهّدوا لكلمة الله ، وأن يدعوا الناس لدينه الحق ، وأن يصدّوا عنه كل معتد عليه . وهذا ما فعلوا .

الفصل التاسع عشر
من الغزوتين إلى الحديبية

المرأة والرجل فى الإسلام – غزوة بنى لحيان – قتل
عيينة والأقرع – غزوة بنى المصطلق – حديث الإفك

تنظيم الجماعة العربية

استتبَّ الأمر لمحمد والمسلمين بعد غزوة الخندق والقضاء على بنى قريظة استتبابا جعل العرب تخافهم أشد الخوف ، وجعل الكثيرين من قريش يفكرون : أليس خيراً لقريش لو أنها هادنت محمداً وصافته وهو منها وهى منه ، والمهاجرون معه بينهم كبراؤها وساداتها ! واستراح المسلمون بعد الذى اطمأنوا إليه من القضاء على اليهود بجوار المدينة قضاء لا تقوم لهم قائمة بعده . ومكثوا بالمدينة لذلك ستة أشهر يباشرون من تجارة الحياة ما يستمتعون معه بشىء من نعمة الحياة ، ويزدادون برسالة محمد إيماناً ولتعاليمه امتثالا ، ويسيرون وإياه فى طريق تنظيم الجماعة العربية تنظيماً لم يكن مألوفاً عندها من قبل ، ولكنه لم يكن منه بدٌّ فى جماعة منظمة ذات كيان ووحدة كالجماعة التى كانت تتكون تحت سلطان الإسلام رويداً رويداً . فقد كانت العرب فى الجاهلية لا تعرف لها نظاماً ثابتاً إلا ما أقرّته عاداتها ولم يكن لها فى أمر الأسرة ونظامها ، والزواج وحدوده ، والطلاق وقيوده ، وصلات الزوجين والأبناء ، إلا ما تمليه طبيعة ذلك الجوّ الذى يغلو فى الإباحة تارة ليصل من الجمود والتقيد إلى حدود الرقّ وعسفه تارة أخرى . فلينظم الإسلام الجماعةَ الإسلامية الناشئة التى لمَّا تتكوّن تقاليدها ، وليمهدها فى وقت قصير لتضع نواة حضارة تنتظم من بعد ذلك حضارةَ الفرس والروم والمصريين ، وتطبعها بطابَعها الإسلاميّ الذى يتدرّج رويداً رويداً حتى يصل إلى كماله يوم ينزل قوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِيناً﴾ (١) .

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

ومهما يكن الرأى فى حضارة العرب قبل الإسلام وبداوتها ، وهل كانت القرى من أمثال مكة والمدينة ذات حضارة لا تعرفها البادية ، أو أنها كانت أيضًا فى أوليات مراتب الحضارة ، فإنّ صِلات الرجل والمرأة فى هذه الجماعة العربية كلها لم تكن تعدو ، بشهادة القرآن وبشهادة ما بقى من آثار ذلك العهد ، صلات الذكورة والأنوثة ، مع تفاوت تمليه مراتب الطوائف والعشائر لا يبعد عن هذا الوضع القريب من مراتب الإنسان الأوّل . ولذلك كان النسوة يتبرّجن فى الجاهليَّة الأولى ويُبدين من زينتهن ما لا يقف أمره عند بعولتهن ، وكنّ يخرجن فُرادَى ومَثْنَى وزرافات لحاجتهن يقضينها فى غوطة الصحراء فيلقاهن الشبَّان والرجال وهن يتهادين فى جماعتهن ، فلا يأبى هؤلاء ولا أولئك أن يتبادلوا أشهى النظرات ومعسول الحديث مما يستريح إليه الذكَر وتطمئن إليه الأنثى . وبلغ من أمر هذه الصلة وما وَقرت فى النفوس ، أن لم تأب هند زوج أبى سفيان أن تقول فى أشد مواقف الجد والشدة ، وهى تحثُّ قريشًا حين الحرب يوم أُحُد :

صلات الرجل والمرأة

إن تُقبلوا نُعانِقْ ونَفرِش النمارقْ
أو تُدْبروا نُفارِقْ فراقَ غير وامقْ

ولم يكن الزنا يومئذ بالجريمة ذات الخطر والشأن فى بعض القبائل . وكان الغزل بعض معروف العرب جميعًا . ولقد ذكر الرواة عن هند هذه ، على ما كان لأبى سفيان من مكانة وخطر ، أحاديث غرام وهوًى لم تغير من مكانتها فى قومها ولا بين أهلها . ثم إن المرأة كانت إذا ولدت ، ولم يعرف لمولودها أب ، لم تأبَ أن تذكر من لامسها من الرجال لينسب مولودها إلى أيّهم كان أقرب إليه شبهًا . ولم يكن إلى ذلك الوقت لتعداد الزواج ولا للرق حدٌّ أو قيد . كان للرجل أن يتزوّج ما شاء ، وأن يتسرى ما شاء ، وكان لهؤلاء ، ولأولئك أن يلدوا ما شاءوا . وكان الأمر فى ذلك لا خطر له إلا أن يتضح وتُخشَى مَعَرّته ، وما قد يجر وراءه من أهَاجِىّ تتبادل لا يدرى أحد ما ينجُم عنها من خصومة وقتال . هنالك يتبدَّل الأمر غير الأمر ، وترى ما كانت المودّة قد سترت من قبلُ من ملاحم الهوى ووَثبات الغرام ، قد هتكته الخصومة فجعلته سببًا لملاحم

أحاديث الهوى ووثبات القتال

القتال ووثبات النزال . وإذا شبت الخصومة فلكلّ أن يتقوّل ما شاء وأن يزعم ما يريد . وخيال العربى خِصْبٌ ، بطبيعة عيشه تحت السماء ، وتجواله الدائم فى طلب الرزق ، واضطراره إلى المغالاة وإلى الكذب أحيانًا فى شؤون التجارة . والعربىّ مُولَعٌ بالفراغ الذى يغريه بالغزل ويزيد خياله فى السِّلْم والحرب خصبًا . فإذا وقف زيد فى السِّلْم يحادث هندًا حديث هوًى لم يزد على شهىّ اللفظ تساقطه لآلئ الثنايا العِذَاب ، رأيت زيدًا هذا حين الخصومة والحرب يرفع عقيرته بهند ، وقد لقيها أمامه متجرّدة ، يقول فى نحرها وصدرها ونهدها وخصرها وعجيزتها وما دون ذلك ما شاءت له أفانين الخصومة ، واهتياج الخيال الذى لا يعرف فى المرأة غير الأنثى وغير ما تفرش من النمارق . ومع ما قضى الإسلام على هذه النفسيَّة فقد بقى من آثارها ما نقرؤه فى مثل شعر عمر بن أبى ربيعة ، وما تأثّر به شعر الغزل فى العربية إلى عصور كثيرة ، وما لا يزال له أثره ، ولو إلى حدٍّ قليل ، فى شعر عصرنا الحاضر .

ربما بدا هذا التصوير للقارئ الْمُعْجَب بالعرب وحضارتهم ، وللمعجَب حتى بعرب الجاهليَّة ، مشوبًا بشىء من الغلوّ . وللقارئ العذر من ذلك ، إذ يوازن بين هذه الصورة التى وضعنا أمامه ، وما هو واقع بالفعل فى عصرنا الحاضر وما نرجو أن تصل إليه صلات الرجل والمرأة فى الزواج والطلاق وصِلات الزوجين والأبناء . لكن موازنةً كهذه مخطئة جديرة أن تجرّ إلى أفحش الضلال . إنما يجب أن يُوَازَنَ بين الجماعة العربية التى صورنا إحدى نواحيها فى القرْن السابع المسيحى ، والجماعات الإنسانية فى ذلك العصر . وما أحسبنا نغالى إذا قلنا : إن الجماعات العربية كانت ، مع ما وصفنا من أمرها ، خيرًا بكثير من الجماعات المعاصرة لها فى آسيا وفى أوربا . ولسنا نقف عندما كان من ذلك فى الصين أو فى الهند ، فما لدينا من المعلومات عنه قليل لا غَناء فيه . لكن أوربا الشمالية وأوربا الغربية كانت يومئذ فى ظلمات تُبيح لك أن تصوّر من نظام الأسرة فيها ما تريد مما يقرب من أوليات مراتب الإنسانية . وكانت الروم ، وهى صاحبة الشرع يومئذ وصاحبة الغَلَب والسيادة والمنافس الوحيد القوىّ للفرس ، تجعل المرأة من الرجل فى مكانة دون مكانة المرأة العربية من

المرأة عند العرب وأوربا فى ذلك العصر

المرأة فى الشرع الرومانى

الرجل حتى فى البادية . كانت المرأة فى شرائع الروم يومئذ معتبرةً متاعاً مملوكًا للرجل يتصرّف فيه كيف يشاء ، ويملك من أمره ما يريد حتى الحياة والموت . كانت تعامل معاملة الرق سواء ، لا فارق بينها وبينه فى نظر الشرع الرومانى . كانت مملوكة لأبيها ، ثم لزوجها ، ثم لابنها ، وكان ملكهم إيَّاها تامًّا كملكهم الرقيق وكملكهم الحيوان والجماد . وكان يُنْظَر إلى المرأة على أنها مثار الشهوة ، وعلى أنها لا سلطانَ لها على أنوثتها الحيوانية ، حتى لم يكن بدٌّ من اصطناع نطاق العفَّة ومن التمسك بذلك قرونًا متوالية ، بعد هذا العصر الذى نصف فيه أحوال جزيرة العرب . ومع أن السيّد المسيح عليه السلام كان بَرًّا بالنساء عطوفًا عليهن . حتى لقد قال حين أظهر بعضُ رجاله العجب لحسن معاملته مريم المَجْدَلية : « من لم يكن منكم ذا خطيئة فليَرْمِها بحجر » . مع هذا ظلَّت أوربا المسيحية ، كما كانت أوربا الوثنية من قبل ، تزدرى المرأة شرَّ ازدراء . ولم تكن تنظر إلى صلاتها بالرجل على أنها صِلات الذكورة والأنوثة وكفى ، بل على أنها صلة عبودية ورقّ ومهانة مما طوَّع لبعض المتكلمين فى عصور مختلفة أن يتساءلوا : أللمرأة روحٌ وأنها ستحاسب ، أم أنها كالحيوان لا روح لها ولا تعرف عند الله حساباً وليس لها فى ملكوت الله متسع !

محمد والإصلاح الاجتماعى

وكان محمد يقدر ، بما أوحى إليه ، أن لا صَلاَحَ للجماعة إلاّ بتعاون الرجل والمرأة ، باعتبار أنهما أخوان متضامنين تضامن مودّة ورحمة ، وأن للنساء مِثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة . لكن الأخذ فى ذلك بالطفرة لم يكن أمرًا ميسورًا . ومهما يكن من إيمان العرب الذين اتَّبعوه به ، فإن أخْذَهم باليسير من الأمر وعَدَمَ تعريضهم للحرج ، أدْعَى إلى مزيد إيمانهم ، وإلى ازدياد أنصاره . وكذلك كان الشأن فى كل إصلاح اجتماعى فرضه الله على المسلمين .

بل كذلك كان الشأن فى فروض الدين ذاتها ، فى الصلاة والصوم والزكاة والحج . وكذلك كان الشأن فى المحرمات كالخمر والميسر ولحم الخنزير وما إليها . وقد بدأ محمد ، فى شأن الإصلاح الاجتماعى ، وتقرير

صلات ما بين الرجل والمرأة ، بالمثل يضرب به فيما بينه وبين أزواجه مما كان المسلمون جميعًا يرونه . فالحجاب لم يُفْرَضْ على نساء النبي إلى ما قبيل غزوة الأحزاب كما لم يُفرَض تحديد الزوجات بأربع مع شرط العدل إلى ما بعد غزوة الأحزاب ، بل إلى ما بعد غزوة خَيْبَر بأكثر من سنة . فكيف يصل النبيُّ إلى توطيد علاقات الرجل والمرأة على أساس صالح ، تمهيدًا لهذه المساواة التى انتهى الإسلام إليها مساواة تجعل للنساء مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ؟

الإسلام ينهى عن التبرج

كانت صِلات الرجل والمرأة عند المسلمين ، كما كانت عند سائر العرب ، على ما وصفنا ، مقصورة على صِلات الذكورة والأنوثة . وكان التبرّج وإبداء الزينة بصورة تدعو إلى تحرُّش الرجال بالنساء ، كلما وجدوا الفرصة لذلك بعض ما يُذكى عواطف الجنس عند الرجل والمرأة على سواء ، وما يحول لذلك دون التقريب بينهما تقريبًا أساسُه المعنى الإنسانىّ السامى ، وأساسُه الاشتراك الروحى فى العبودية لله وحده . وقد نشأ عن قيام طوائف اليهود والمنافقين فى المدينة ، وخصومتهم لمحمد وللمسلمين أن بلغ تحرّش هذه الطوائف بالمسلمات حدًّا أدّى إلى حصار بنى قَيْنُقَاع كما رأيت ، وإلى إيصال الأذى للمسلمات ، مما كانت تنشأ عنه مشاكل لا ضرورة لها . فلو أنّ المسلمات لم يُبدين زينتهن أثناء خروجهن ، لكان ذلك أدنى أن يُعرَفن فلا يُؤْذَيْنَ ، ولَوَفَّر ذلك هذه المشاكل ، ولكان بدءًا حسنًا لهذه المساواة التى يريد الإسلام تحقيقها بين الجنسين ، من غير أن يشعر المسلمون ، رجالا ونساء بانتقال فى الفكرة لم يمهّدوا له . وفى هذه الظروف نزل قوله تعالى : ﴿وَالَّذِين يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ بغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَد احتَمَلُوا بُهْتَانًا وإِثْماً مُبيناً . يَاأَيُّهَا النبيُّ قُلْ لأَزْوَاجكَ وَبَنَاتِكَ ونِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهن ذلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً . لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالذِينَ فِى قُلوبهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بهِمْ ثُم لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا . مَلْعُونِين أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا .

سُنَةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبلُ وَلَنْ تَجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا) (١) .

بهذا التمهيد سهُل على المسلمين أن يُقلعوا عن عادات العرب الأولى . كما أنّ ما قصد إليه شارع الإسلام ، من تنظيم الجماعة على أساس الأسرة طاهرةً من أدران الدخيلة مما جعل الزنا جريمة كبرى قد يَسَّرَ لكلّ مسلم أن يقدّر ما فى تبرُّج الأنثى تتبدى به للذكر من عيب ومعرَّة ، ما لم تكن صلة ما بين الرجل والمرأة تسمح بهذا التبرج . وذلك قوله تعالى :

وينهى عن إبداء الزينة

(قُلْ للْمُؤْمنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصارهِمْ وَيحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِن اللهَ خَبيرٌ بمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجهُنّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا ما ظَهَرَ مِنهَا ولْيَضرِبْنَ بِخُمرهِنَّ عَلَى جُيُوبهن وَلاَ يُبْدِينَ زينَتَهُنّ إلا لِبُعُولَتِهنّ أَوْ آبائِهنّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهنّ أَوْ أَبْنَائهنّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولتِهن أَو إِخْوَانِهنّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهنّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهنّ أَوْ نِسَائِهنّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُنّ أَو التّابعِين غَيْر أُولِى الإِرْبَةِ مِن الرجَال أَو الطِّفْل الذِين لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَات النِّسَاءِ ، وَلاَ يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهن وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ لَعَلكمْ تُفْلِحُونَ)(٢) .

وكذلك عمل الإسلام ، فتدرّجت صلة ما بين الرجل والمرأة إلى غير ما كانتْ فلم تبق صلة ذكورة وأنوثة إلا حيث تُخْشَى الفتنةُ من مثل هذه الصلة ؛ فأمَّا فى سائر شؤون الحياة وفى علاقات الرجال والنساء جميعًا ، فالكل سواسية ، والكل عباد الله ، والكل متضامنون للخير ولتقوى الله . فإذا فرَط من أحدهم أو من إحداهن ما يذكى فى النفس معانى الجنس فذلك إثمٌ يجب على من فرط منه أن يتوب إلى الله إنه هو التواب الرحيم .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات من ٥٨ إلى ٧٢ .

(٢) سورة النور آيتا ٣٠ و ٣١ .

لكن ذلك كله لم يكن كافياً لينقل النفس العربية فى أعوام قلائل من اعتباراتها الأولى ليغيرها فى هذا الشأن ، كما غيرها فى الإيمان بالله وعدم الشرك به ؛ نفساً جديدة . وذلك طبيعىّ ؛ فالمادة إذا تكيفت على صورة ما ، لم يكن من اليسير تحولها إلا رويداً رويداً ؛ ومهما تحولها فلن تحولها إلا قليلا . ذلك شأن حياة الإنسان المادّية . تطبَعه العادات المتوارثة ، وتطبعه تقاليد البيئة فى شئون حياته ، فإذا أريد به أن يتغير فقد وجب أن يتدرج فى انتقاله وتغيره ، ثم إنه لن يستطيع هذا التدرج إلا إذا غيَّر ما بنفسه . وقد يستطيع الإنسان أن يغير جانباً من جوانب نفسه بإزالة ما أمامها من حوائل تعوق تمددها وانتشارها لتمتثل الكون كله . وهذا ما فعل الإسلام بالمسلمين فى شأن توحيد الله والإيمان به وبرسوله وباليوم الآخر . لكن كثيراً من جوانب النفس العربية لم تُحَطَّمْ أمامه العوائق ، وخاصة فى شئون الحياة المادية ، فبقّى المسلمون فيه قريبين مما كانوا قبل إسلامهم ، وذلك كان شأنهم فيما طبعتهم عليه حياة الصحراء من تلكؤ ، وفيما درَجوا عليه من حب التحدث إلى النساء .

بيت النبى ونساؤه

ومع هذا الذى أسلفنا من تعديل الدين الجديد نظرتَهم لصِلات ما بين الرجل والمرأة ، فقد ظلوا فيما سوى ذلك كما كانوا من قبلُ أو على مقربة منه . وكثيراً ما كان أحدهم يحب أن يدخل على النبى بيته ، وأن يمكث عنده وأن يتحدث إليه وأن يتحدث إلى نسائه ، وقد كانت مهامّ النبوة العظمى أكبر من أن تدع محمداً يشغل نفسه بحديث هؤلاء الذين يجيئون إليه ، والذين يتحدثون إلى نسائه وما ينقل نساؤه إليه من أحاديثهم ، لذلك أراد الله أن يُخلى نبيه من هذه المشاغل الصغرى ، فأنزل عليه الآيات : (يـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبىِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِين إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُم فَادْخُلُوا فإِذَا طَعِمْتُمْ فانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لحدِيثٍ إِن ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النبىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنْكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُن مِنْ وَرَاءِ حِجَاب ذَلِكُمْ أَطهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وقُلُوبِهِنْ وَمَا كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ

تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً) (١).

وكما نزلت هذه الآية حديثاً للمؤمنين وإرشاداً لهم إلى واجبهم إزاء النبيّ وأزواجه ، نزلت الآيتان الآتيتان كذلك موجهتين إلى أزواج النبى فى هذا الشأن نفسه . قال تعالى : (يَا نسَاءَ النّبى لَسْتُن كأَحَدٍ منَ النسَاءِ إن اتقَيْتُن فَلاَ تَخضَعْنَ بالْقَوْل فيَطمَعَ الذى فى قلبه مَرَضٌ وَقُلن قولا مَعْروفاً . وَقرْن فى بُيُوتكُن وَلا تبَرَّجْنَ تبَرُّجَ الْجاهلية الْأُولى . وَأَقمْنَ الصلاة وَآتينَ الزكاة وَأَطعْنَ الله وَرَسوله إنمَا يريد اللهُ ليذهب عَنكمُ الرجْسَ أَهْلَ الْبَيْت ويُطَهِّركُم تَطْهيرًا) (٢) .

التمهيد الاجتماعى للجماعة الإسلامية

هذا هو التمهيد الاجتماعى الجديد الذى أراده الإسلام للجماعة الإنسانية . أقام أساسه على تغيير نظرة الجماعة إلى ما بين الرجل والمرأة من صلات ، وأراد أن يمحو من النفوس تسلّط فكرة الجنس واعتبارها وحدها المتغلبة على كل اعتبار ، وأراد بذلك أن يوجه الجماعة وجهتها الإنسانية العليا التى لا تُنكر على الإنسان استمتاعه بالحياة استمتاعًا لا يُضعف من حرّيته فى أن يريد – ومن باب أولى لا يسلُبه هذه الحرية فى أن يريد – والتى تجعل من الإنسان صِلة ما بين الكائنات جميعًا ، فيرتفع به من مراتب زراعة الأرض ومن الصناعة ومن تجارة الحياة أيًّا كانت ، لتسمو به إلى مجاورة القِدّيسين والاتّصال بالملائكة المقرَّبين . وقد جعل الإسلام من الصوم والصلاة والزكاة وسائل لهذا السموّ ؛ بما تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وبما تطهر النفس والقلب من شوائب الخضوع لغير الله ، وبما تقوّى من أسباب الأخوّة بين المؤمنين ، ومن الاتّصال بين الإنسان وسائر ما فى الكون .

* * *

(١) سورة الأحزاب آية ٥٣ .

(٢) سورة الأحزاب آيتا ٣٢ و ٣٣ .

هذا التنظيم للحياة الاجتماعية رويدًا رويدًا ، تمهيدًا للانتقال العظيم الذى أعدَّ الإسلام له الإنسانية ، لم يمنع قريشًا والعرب أن تتربَّص بمحمد الدوائر ، ولم يمنع محمدًا أن يكون دائم الحذر ، سريعًا إلى النشاط لإلقاء الرعب فى قلوب خصومه عند الحاجة . من ذلك أنه ، بعد ستة أشهر من القضاء على بنى قُريظة — شعر بشىء من الحركة فى ناحية مكة ، ففكر فى أن ينتقم لخُبَيْب بن عَدِى وأصحابه ممن قتل بنو لِحْيان عند ماء الرَّجيع منذ سنَتين . على أنه لم يجهر بقصده خيفة أن يتَّخذ العدو الحيطة لنفسه . فأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرَّة ، فأخذ قوّاته ويمَّم بها شمالاً . فلما اطمأنّ إلى أن قريشًا وجيرانها لم يبق منهم من يفطن لمقاصده ، انتقل راجعًا إلى ناحية مكة وأغذّ السير مسرعًا حتى بلغ منازل بنى لِحْيان بُعرَانِ . لكن قومًا رأوه أوّل انحداره إلى الجنوب فعرف منهم بنو لحيان قصدَه إيَّاهم ، فاعتصموا برءوس الجبال هم ومتاعهم . وفات النبىّ أن يصيبهم ، فبعث أبا بكر فى مائة راكب حتى بلغوا عُسفان على مقربة من مكة . ثم كرّ رسول الله قافلا إلى المدينة فى يوم قائظ بلغ من قيظه أن كان النبىّ يقول : « آئبون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

غزوة بنى لحيان

غزوة بنى قرد

ولم يكد محمد يقيم بالمدينة ليالى بعد أوبته إليها حتى أغار عُيَيْنَةَ بن حِصْن على أطرافها ، وكان بظاهرها إبل ترعى يحرُسها رجل وامرأته فقتل عُيينة وأصحابه الرجل وساقوا الإبل واحتملوا المرأة وانصرفوا يحسبون أنهم من اللَّحاق بمَنجاة . لكن سَلَمة بن عمرو بن الأكْوع الأسلمى قد غدا يريد الغابة متوشحًا قوسه ونَبْله ؛ فلما مرَّ على ثنيَّة الوَداع وأشرف على ناحية من سَلَع ، وأبصر القوم قد اقتادوا الإبل واحتملوا المرأة ، فصاح : واصَبَاحاه ! وجعل يشتدّ فى أثر القوم حتى إذا اقترب منهم رماهم بالنبل ، وهو فى أثناء ذلك لا ينفك يصيح . وبلغ محمدًا صياح سلمة . فنادى فى أهل المدينة : الفزعَ الفزعَ ؛ فترامى الفرسان إليه من مختلف النواحى ، فأمرهم فانطلقوا فى أثر القوم ، وجهز هو قوّاته وسار على رأسها يتبعهم حتى نزل بالجبل من ذى قَرَد . كان عيينة ومن معه قد أغذُّوا السير مسرعين يريدون

اللحاق بَغَطفان نجاةً من المسلمين . ولكن فرسان المدينة أدركوا مؤخَّرتهم واستخلصوا شطر الإبل منهم ولحق بهم محمد فأعانهم ؛ ونجت المرأة المؤمنة التى كان العرب قد احتملوها . وأراد جماعة من أصحاب النبى أخذت منهم الحماسة كل مأخذ أن يتأثروا عُيينة ، فردّهم رسول الله ، أن علم أن عيينة وأصحابه قد أدركوا غطفان واحتموا بهم . ورجع المسلمون إلى المدينة ، وجاءت امرأة الحارس فى آثارهم على ناقة المسلمين . وكانت المرأة قد نَذَرت إن أنجتها الناقة لتنحرنَّها قرباناً إلى الله ، فلما أخبرت النبى بنذرها قال : « بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجَّاك بها ثم تنحرينها . إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين » .

غزوة بنى المصطلق

وأقام محمد بالمدينة بعد ذلك قرابة شهرين . ثم كانت غزوة بنى المصْطلِق بالمرَيْسِيع ، هذه الغزوة التى يقف عندها كل كاتب وكل مؤرّخ لسيرة النبىّ العربىّ ؛ لا لأنها غزوة ذات قيمة ، أو لأن المسلمين أو عدوَّهم أبلوا فيها بلاء خارقًا للعادة ، بل لأن الشقاق كاد يفشو بعدها فى صفوف المسلمين ، فحسمَه الرسول بأحسن ما يكون عزيمة وحزماً ، ولأن من أثرها أن تزوَّج الرسول من جويرية بنت الحارث ، ولأن هذه الغزوة أثمرت حديث الإفك عن عائشة حديثاً كان موقفها منه ، وهى لمَّا تزل فى السادسة عشرة ، موقف إيمان وقوة تحطَّمت على جَنَباتهما وعَنَت لجلالهما كل الوجوه .

فقد بلغ محمداً أن بنى المصطلق ، وهم فرع من خُزَاعةَ ، يجمعون فى حيهم على مقربة من مكة ، وأنهم يحرّضون عليه يريدون قتله وعلى رأسهم قائدهم الحارث بن أبى ضِرَار . ووقف محمد من أحد البدو على سرّ جمعهم فأسرع فى الخروج ليأخذهم على غِرّة ، كعادته فى أخذ أعدائه . وجعل لواء المهاجرين لأبى بكر ، ولواء الأنصار لسعد بن عُبَادة . ونزل المسلمون على ماء قريب من بنى المصطلق يقال له المُرَيْسِيع ، ثم أحاطوا ببنى المصطلق ففرَّ من جاءوا لنصرتهم . وقد قُتل من بنى المصطلق عشرة ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل يقال له هشام بن صُبَابة ، أصابه رجل من الأنصار وهو يحسبه خطأ من العدو . ولم يجد بنو المصطلق ، بعد قليل من التراشق بالنبال ، مفرًّا من التسليم

تحت ضغط المسلمين القويّ السريع ، فأخذوا أسرى هم ونساؤهم وإبلهم وماشيتهم .

وكان لعمر بن الخطاب فى الجيش أجير يقود فرسه ، فازدحم بعد انتهاء الموقعة مع أحد رجال الخزرج على الماء فاقتتلا فتصايحا ، يقول الخزرجى : يا معشر الأنصار ، ويقول أجير عمر : يا معشر المهاجرين . وسمع عبد الله بن أبىّ النداء ، وكان قد خرج مع المنافقين فى هذه الغزوة ابتغاء الغنيمة ، فثار ما فى نفسه على المهاجرين وعلى محمد من حفيظة ، وقال لجلسائه : « لقد كاثَرنا المهاجرون فى ديارنا والله ما أعُدُّنا وإياهم إلا كما قال الأول : « سَمِّن كلبك يأكلك » . أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجن الأعزُّ منها الأذلَّ » . ثم قال لمن حضر من قومه : « هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . أمَا والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم » . ومشى بحديثه هذا ماش إلى رسول الله بعد فراغه من عدوّه ، وكان عنده عمر بن الخطاب ، فهاج عمر لما سمع وقال : مُرْ به بلالا فليقتله . هنا ظهر النبى كدأبه مظهر القائد المُحَنَّك والحكيم البعيد النظر . إذ التفت إلى عمر وقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ؟

فتنة عبد الله أبن أبى

لكنه قدر فى الوقت نفسه أنه إن لم يتخذ خُطَّة حازمة فقد يستفحل الأمر . لذلك أمر أن يؤذّن فى الناس بالرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها ، وترامى إلى ابن أبىّ ما بلغ النبى عنه ، فأسرع إلى حضرته ينفى ما نُسب إليه ، ويحلف بالله ما قاله ولا تكلَّم به . ولم يغير ذلك من قرار محمد الرحيل شيئاً ، بل انطلق بالناس طيلةَ يومهم حتى أمسوا ، وطيلة ليلتهم حتى أصبحوا ، وصَدْرَ يومهم الثانى حتى آذتهم الشمس . فلما نزل الناس لم يلبثوا حين مسَّت جنوبهم الأرض أن وقعوا من فرط تعبهم نياماً ، وأنسى التعب الناس حديثَ ابن أبى وعادوا بعد ذلك إلى المدينة ومعهم ما حملوا من غنائم بنى المصطلق وأسراهم وسَبْيهم ، ومعهم جُوَيْرية بنت الحارث بن أبى ضِرَار قائدِ الحى المهزوم وزعيمه .

حقد ابن أبى على النبى

بلغ المسلمون المدينة ، وأقام ابن أبىّ بها ، لا تهدأ له نفس حسداً لمحمد

وللمسلمين ، وإن تظاهر بالإسلام بل بالإيمان ؛ وإن أصر على إنكار ما نُقِل عنه لرسول الله عند المريسيع . أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين وفيها قوله تعالى : (هُمُ الذينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفضُّوا ولله خَزَائنُ السَّمَوات وَالْأَرْض ولَكنَّ المُنَافقينَ لاَ يَفْقَهُونَ . يقُولُونَ لَئن رَجَعْنَا إِلى المَدينَة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منْها الأَذَلَّ وَلله العزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَللمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [1]

مأساة نفسية بالغة

هنالك حسب قوم أن فى هذه الآيات قضاء على ابن أبىّ ، وأن محمداً لا ريب آمر بقتله . فذهب عبد الله بن عبد الله بن أبىّ ، وكان مسلماً حسن الإسلام ، فقال : « يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبىّ فيما بلغك عنه ، فإن كنتَ فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان بها من رجل أبرّ بوالده منى . وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس ، فأقتله فأقتل رجلاً مؤمنًا بكافر فأدخل النار» . كذلك قال عبد الله بن عبد الله بن أبىّ لمحمد . وما أحسب عبارة أبلغ من عبارته على إيجازها فى قوة التعبير عن حالة نفسية تضطرب فيها أقوى العوامل فى النفس أثرًا : تضطرب فيها عوامل البرّ بالأب وصدق الإيمان والنخوة العربية والحرص على سكينة المسلمين حتى لا تتواتر الثارات بينهم ! فهذا ابنٌ يرى أباه سيقتل ، فلا يطلب إلى النبىّ ألاّ يقتله ، لأنه يؤمن بأن النبىّ إنما يصدَع بأمر ربه ، ويُوقن بكفر أبيه . وهو ، من خيفة ما يقتضيه البرّ بأبيه وما تقتضيه الكرامة والنخوة أن يثأر له ممّن قتله ، يريد أن يحمل على نفسه وأن يقتل هو أباه ، وأن يحمل هو بنفسه إلى النبىّ رأسه ، وإن قَطّع ذلك قلبه وفرى كبده ! وهو يجد فى إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذى يكلف نفسَه ، مخافة أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذى يأمره النبىّ بقتل أبيه . أىّ جلاد بين الإيمان والعاطفة والخُلُق أشدّ من هذا الجلاد ! وأية مأساة نفسيَّة أفتك بصاحبها من هذه المأساة ! أفتدرى بم أجاب النبى

عفو النبى عن ابن أبى

(١) سورة المنافقون آيتا ٧ ، ٨ .

عبدَ الله بعد أن سمع قوله : « إنَّا لا نقتله بل نترفَّق به ونُحسن صحبته ما بقى معنا » .

يا لَروعة العفو وجلاله ! محمد يترفَّق بهذا الذى يؤلب أهل المدينة عليه وعلى أصحابه ، فيكون رفقه ويكون عفوه أبعد أثرًا من عقوبته لو أنه أنزلها به . فقد كان عبد الله بن أبى بعد ذلك إذا أحدَث الحدَثَ يعاتبه قومه ويعنفونه ويشعرونه أن حياته بعض هِبَات محمد له . وتذاكر النبى مع عمر يومًا شؤون المسلمين وجاء ذُكر ابن أبى وما يعاتبه قومه وما يعنفونه ؛ فقال محمد : كيف تَرى يا عمر ! أمَا والله لو قتلته يوم قلت لى اقتْله لأرْعِدَتْ له آنُفٌ لو أمرتُها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله عَلِمتُ لأمْر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

عائشة مع النبى فى بنى المصطلق

حدث ذلك كله بعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ومعهم ما معهم من السَّبْى والغنائم . على أن أمرًا حدث لم يترك بادئ الرأى أثرًا ، كان له بعد ذلك حديث طويل . ذلك أنَّ النبىّ كان إذا غزا أقرع بين نسائه ، فأيُّهن خرج سهمها خرج بها معه . وخرج سهم عائشة عشيَّة غزوة بنى المصطلق فخرج بها . وكانت عائشة نحيفة خفيفة ، فكانوا إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه فأخذ الرجال به فشدّوه إلى ظَهر البعيرّ وهم لا يكادون يشعرون بها لخفَّة زِنتها . ولمَّا فرغ النبىُّ من سفره وسار ومن معه مسيرتهم الطويلة المضنية التى ذكرنا ، اتَّجه بعد ذلك إلى المدينة ، حتى إذا كان قريبًا منها نزل منزلاً بات به بعضَ الليل ثم أذَّن فى الناس بالرحيل. وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبى لبعض حاجتها والهودج موضوع أمام الخيمة فى انتظار دخولها فيه . وكان لعائشة عقد انسل من عنقها وهى فى بعض حاجتها ، فلما قامت عائدة إلى الرحيل التمست العقد فلم تجده فرجعت أدراجَها تبحث عنه . ولعلَّها بحثت عنه طويلا حتى وجدته . ولعلها أغفت أثناء ذلك لفرط ما نالها من التعب بعد مسيرتهم المجهدة . ورجعت إلى المعسكر لتستقلَّ هودجها ، فإذا القوم قد شدّوه إلى ظهر البعير وهم يحسبونها فيه ، وارتحلوا وهم يحسبون أنهم حملوا معهم أشدَّ أمهات المؤمنين حظوة عند النبى . ولم تجد هى فى المعسكر داعيًا ولا مجيبًا .

تتخلف عن الركب فلا يحسونها

فلم يساورها الخوف وأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها ؛ فخيرٌ لها أن تبقى مكانها من أن تضرب فى الصحراء على غير هدى فتضلَّ السبيل . ولم يُساورها الخوفُ فالتفَّت فى جلْبابها واضطجعت مكانها منتظرةً دعوة الباحث عنها . وإنها لفى ضجعتها إذ مرّ بها صفْوان بن الْمُعَطَّل السَّلَمِىّ ، وكان قد تخلَّف عن العسكر لبعض حاجاته وكان يراها قبل أن يُضرب الحجاب على نساء النبى ، فلما بُصر بها على هذه الحال تراجع دَهِشًا وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما خلَّفك رحمك الله ؟ فلم تجبه فقرَّب هو لها البعير واستأخر عنه وقال : اركبى ، فركبت . وانطلق بالبعير سريعًا يطلب الناس فلم يدركهم ، أن كانوا يُعجلون سيرهم يريدون المدينة ليستريحوا بها من عناء السير الذى أمر به رسول الله إطفاءً للفتنة التى كادت تقوم بسبب حديث ابن أُبَىّ . ودخل صفوان المدينة فى وضح النهار بأعين الناس وعائشة على ظهر بعيره . حتى إذا كانت عند منزلها بين منازل نسوة الرسول دلَفت إليه . ولا يجول بخاطر أحد أن يُحدّث فى أمرها قولا أو يثير حول تأخرها عن الركب شبهة ، ولا يدور بخاطر الرسول ظِنَّة سوء فى ابنة أبى بكر أو فى صفوان المؤمن الحسن الإيمان .

عودها إلى المدينة مع صفوان

وما كان لحديث أن يدور ، وها هى ذى تدخل المدينة بأعين الناس فى أعقاب العسكر الذين جاءوا لم يمض بين مجيئهم ومجيئها وقت يحمل على ظِنَّة أو يبعث إلى نفس ريبة ؛ وها هى تدخل بأعين الناس صافية الجبين مشرقة الوجه ، ليس فى شىء من مظهرها ما يريب . فلتَجْرِ إذاً شؤون المدينة كما هى وليقتسم المسلمون الأسلاب والغنائم والسبايا مما أسَروا من بنى المصطلق ، ولينعَموا بهذه الحياة الرخيَّة التى تزداد على الأيام رخاء كلما زادهم إيمانهم على عدوّهم عِزًّا ، وكلما أظفرتهم به عزيمتهم الصادقة واستهانتهم بالموت فى سبيل الله وفى سبيل دينه وفى سبيل حرية العقيدة ، حرية كان العرب من قبلُ يأبونها عليهم .

جويرية بنت الحارث

وكانت جُوَيْرِيةُ بنت الحارث من سبايا بنى المصطلق ، وكانت امرأةً حلوة مُلاَحَةً وقد وقعت فى سهم أحد الأنصار ، فأرادت أن تفتدى نفسها

منه ، فأغلى الفِداء علماً منه بأنها ابنة زعيم بنى المصطلق ، وأن أباها على أداء ما طلب قدير . وخشيت جويرية أثر شططه ، فذهبت إلى النبيِّ وكان فى دار عائشة فقالت : « أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضِرَار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فوقعتُ فى سهم فلان فكاتبته على نفسى ، فجئتُك أستعينُك على كِتابتى » . قال : فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : أقضى كتابتك وأتزوّجك . فلمَّا بلغ الناسَ الخبر أطلقوا مَنْ بأيديهم من أسْرَى بنى المصطلق إكراماً لصهر رسول الله إيَّاهم ، حتى لكانت عائشة تقول عن جويرية : ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركةً منها .

النبى يتزوجها

هذه رواية ، وتجرى رواية أخرى بأن الحارث بن أبى ضِرَار جاء إلى النبى بفداء ابنته ، وأنه أسلم بعد أن آمن برسالة النبىّ ، وأنه أخذ ابنته جويرية فأسلمت كما أسلم أبوها فخطبها محمد إليه فزوّجه إيَّاها ، وأصدقها أربعمائة درهم .

وفى رواية ثالثة : أن أباها لم يكن راغباً فى هذا الزواج ، بل لم يكن راضياً عنه ، وأن أحد أقارب جويرية هو الذى زوَّجها من النبىّ على غير إرادة أبيها .

تزوّج محمد من جويرية ، وبنى لها منزلاً إلى جانب منازل نسائه فى جوار المسجد ، وأضبحت بذلك من أمهات المسلمين . وبينما هو فى شغله بها كان قوم قد بدءوا يتهامسون : ما بال عائشة قد تأخَّرت عن المعسكر وجاءت مع صفوان على بعيره ، وصفوان شاب وسيم الطلعة مكتمل فتوَّة الشباب ؟ ! وكانت لزينب بنت جَحْش أخت تدعى حَمْنة ، وكانت تعلم ما لعائشة عند محمد من حُظوة تقدّمها على أختها فجعلت حمنة هذه تُذيع ما يهمس به الناس من أمر عائشة ، وكانت تجد من حسَّان بن ثابت عوناً ، ومن علىّ بن أبى طالب سميعاً . فأمَّا عبد الله بن أبَىّ فوجد فى هذا الحديث مرعى خصيباً لشفاء ما فى نفسه من غِلّ وجعل يُذيعه جهد طاقته . ولكن جماعة الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشة ، وقد كانت مضرب المثل فى الطهر وسمو

حديث الإفك

النفس . وكاد الحديث يؤدى إلى فتنة فى المدينة .

حيرة النبى

وبلغت هذه الأخبار محمداً فاضطرب لها . ماذا ؟ ! عائشة هذه تخونه ! هذا مستحيل . إنها الأنفة والإباء ، وإن لها من حبه إياها وشدّة عطفه عليها ما يجعل مجرّد ظنّ كهذا إثمًا دونه كل إثم . نعم ! ولكن أفّ للنساء ! من ذا يستطيع أن يَسْبُرَ غورهنّ أو يصل إلى قرارة ما فى نفوسهنّ ! وعائشة بعدُ طفلة يافعة ! وأىّ شىء هذا العِقْد الذى فقدته فذهبت تلتمسه جوفَ الليل ؟ وما بالها لم تُحْدِث له وهم ما يزالون فى المعسكر من أمره ذكراً ؟ ! وتقلّب النبىّ على أشواك الحيرة ، ما يدرى أيصدّق أم يكذّب .

مرض عائشة

أمَّا عائشة فلم يجرؤ أحد على أن يبلّغها من كل هذا الذى يقول الناس شيئًا ، وإن أنكرت من زوجها جفاء لم تعرفه منه ولم يتّفق فى شىء مع لطفه بها وحبِّه إياها . ثم إنها مرضت من بعد ذلك مرضًا شديدًا ، فكان إذا دخل عليها وأمّها تمرضها لم يزد على قوله : « كيف تيكم ؟ » . ووجَدت عائشة فى نفسها لما رأت من جفاء النبىّ إياها ، وجعلت تحدّث نفسها : ألاّ تكون جُوَيرِية قد حلَّت من قلبه محلَّها ! وبلغ من ضيق ذَرْعها بجفاء محمد إيَّاها أن قالت له يومًا : لو أذِنْتَ لى فانتقلت إلى أمى فمرّضتنى ! وانتقلت إلى أمها وفى نفسها من الدهشة لهذا التفريط فى أمرها ما آذاها وآلمها . وظلَّت فى مرضها بضعة وعشرين يومًا حتى نَقِهَت ، وهى لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئًا . أمَّا محمد فقد بلغ من تأذّيه بترامى هذه الأخبار إليه أن قام يومًا فى الناس يخطبهم فقال : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عنى غير الحق ! والله ما علمتُ منهم إلا خيرًا . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمتُ منه إلا خيرًا ، وما يدخل بيتًا من بيوتى إلا معى » .

أذى الرسول من حديث الناس

فقام أُسَيْد بن حُضَيْر فقال : يا رسول الله ، إن يكونوا من إخواننا الأوس نكْفِيكَهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمُرْنا بأمرك . فوالله إنهم لأهلٌ أن تُضْرَبَ أعناقهم . وردَّ عليه سعد بن عُبادة بأنه إنما تقدم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من الأوس ما قالها . وتَشَاور الناسُ وكادت تقوم الفتنة لولا حكمة الرسول وحسن مداخلته .

الخبر يبلغ عائشة

وانتهى الخبر آخر الأمر إلى عائشة ، حدّثتها به امرأة من المهاجرين . فلمّا عرفته كاد يُغْشَى عليها من هوله . وانطلقت تبكى لا يحبس دمعها حابسٌ حتى شعرت كأن كبدها تتصدَّع . وذهبت إلى أمّها وقد أثقل الهمُّ كاهلها حتى كاد ينوء بها ، وقالت لها والعَبْرةُ تخنقها : يغفر الله لك يا أمَّاه ! تحدّث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا ! ورأت أمّها الهمَّ الذى بها ، فحاولت تخفيف أثره فى نفسها فقالت : أى بُنَيَّة ، خفّفى عليك الشأن فوالله لقلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثَّرن وكثَّر الناس عليها . ولكن عائشة لم تتعزَّ بهذا القول ، وزادها ألماً أن ذكرت جفاء النبى إيَّاها بعد الذى كان من لطفه بها ، وأن شعرت بأنه قد وقع فى نفسه من هذا الحديث أثر وقامت بنفسه منه ريبة . لكن ماذا عساها تستطيع أن تفعل ؟ ! أتفاتحه فى القول وتذكر له الخبر وتقسم له أنها بريئة ؟ ! هى إذاً تتهم نفسها ثم تدفع التّهمة بالأيمان والتوسُّلات . أفتُعْرِض عنه كما أعرض عنها وتجفوه كما جفاها ؟ لكنه رسول الله وهو قد اصطفاها على نسائه ، وليس من ذنبه أن تحدث الناس عنها بسبب تأخرها عن العسكر وعودها مع صفوان . ربَّاه ؟ ألْهِمهما فى هذا الموقف الدقيق مخرجًا يتَّضح لمحمد معه الحق فى أمرها ليعود إلى مثل ما كان من حبّها والعطف عليها واللطف بها .

معاتبتها أمها

حيرتها

محمد يشاور أسامة وعلياً

ولم يكن محمد خيراً منها مكانًا ؛ فقد آذاه ما يتحدّث به الناس ، حتى اضطرَّ آخر الأمر إلى أن يتشاور مع خُلصائه ماذا يصنع . فذهب إلى بيت أبى بكر ودعا إليه عليًّا وأسامة بن زيد فاستشارهما ، فأمَّا أسامة فنَفى كل ما نُسِب إلى عائشة على أنه الكذب والباطل ، وأن الناس لا يعرفون كما لا يعرف النبىّ عنها إلاّ خيراً . وأمَّا علىّ فقال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير . ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلَّها تصدقه . ودُعيت الجارية وقام لها علىّ فضربها ضربًا مُوجعًا وهو يقول : اصدُقى رسول الله ، والجارية تقول : والله ما أعلم إلا خيراً ، وتنعى عن عائشة قالةَ السوء . أخيراً لم يبق أمام محمد إلا أن يواجه زوجه وأن يطلب إليها أن تعترف . ودخل عليها وعندها أبواها وامرأة من الأنصار ، وهى تبكى والمرأة تبكى معها . وقد هوى الأسى بنفسها إلى أعمق

مواجهة محمد عائشة

قرارات الحزن من هول ما ترى من ريبة محمد بها . من ريبة هذا الرجل الذى تحبُّ وتقدّس ؛ والذى به تؤمن وفيه تَفْنَى . فلمَّا رأته كفكفت دمعها وسمعت إليه وهو يقول : « يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتَّقى الله إن كنت قد قارفت سوءاً مما يقولون ، فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده » .

ثورة عائشة

فما إن أتمّ حديثه حتى ثار فى عروقها دمها ، وجفَّ من عينيها دمعها ، وتلَّفتت إلى ناحية أمّها وإلى ناحية أبيها تنظر بما يُجيبان . لكنهما سكتا فلم يَنْبِسَا بكلمة . فازدادت ثورةُ نفسها وصاحت بهما : ألاَ تُجيبان ؟ ! وقالا : والله ما ندرى بم نجيب . وعادا إلى وجومهما . وهنالك لم تملك نفسها دون النَّشيج بالبكاء ؛ وساعفتها دموعها لتهدئ من الثورة المضطرمة بين ضلوعها تكاد تحرقها . ثم وجَّهت الكلام إلى النبى وهى تبكى فقالت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ! إنى لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس والله يعلم أنى بريئة لأقولنّ ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت لا تصدّقونى . ثم سكتت هنيهة وعادت تقول : إنما أقول كما قال أبو يوسف : « صَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى ما تصِفُونَ » .

نزول الوحى ببراءة عائشة

فترةُ سكوت تلت هذه الثورة لم يعرف حاضروها أطالت أم قصرت . علىّ أن محمداً لم يبرح مجلسه حتى تغشَّاه من الوحى ما كان يتغشاه ، فسجِّى بثوبه ووُضعت وسادة من أدم تحت رأسه . قالت عائشة : أما أنا فوالله ما فزعت ولا باليت حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فقد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى . وأما أبواى فما سُرّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننتُ لتخرجنّ نفساهما فَرَقًا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس . فلما سُرّى عن محمد جلس يتصبب عرقًا ، فجعل يمسحه عن جبينه ويقول : أبشرى يا عائشة ! قد أنزل الله براءتك . قالت عائشة : الحمد لله ! وخرج محمد إلى المسجد فألقى على المسلمين هذه الآيات التى نزلت : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (١) .

---

(١) سورة النور آية ١١ وما بعدها

إلى قوله تعالى : (وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بهذا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ . ويُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ الَّذِين يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرةِ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) . وفى هذه المناسبة كذلك نزلت عقوبة رمى المحصَنات : (وَالذِينَ يَرْمُونَ الْمحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون) (١) .

رمى المحصنات وتنفيذ حكمه فى رماة عائشة

وتنفيذاً لحكم القرآن أمر بِمسْطَح بن أثاثة وحسَّان بن ثابت وحَمْنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ، فضُرب كل منهم ثمانين جلدة . وعادت عائشة إلى مثل مكانها الأوّل من بيت محمد ومن قلبه .

يقول السير وليم موير تعليقًا على هذا الحادث ما ترجمته : « إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردُّد فى إدحاض أية شبهة أثيرت حولها » .

جمال العفو

وقد استطاع حسَّان بن ثابت من بعدُ أن يعود إلى رضا محمد وعطفه عليه ، كما طلب محمد إلى أبى بكر لاَّ يحرم مِسْطحًا عطفَه الذى عوّده إيَّاه . ومن ثم انقضى هذا الحادث ولم يبق له فى المدينة كلها أثر . وأسرع النقه إلى عائشة وعادت إلى دارها من مساكن الرسول ، وإلى مكانتها من قلبه ، وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسلمين جميعًا . وبذلك فرغ النبيُّ إلى رسالته وإلى سياسة المسلمين استعداداً لعهد الحُدَيْبية يفتح الله به على المسلمين فتحًا مبينًا .

---

(١) سورة النور آية ٤ .

الفصل العشرون

عهد الحديبية

بعد ست سنوات بالمدينة – دعوة محمد الناس للحج – لا قتال ولا حرب – قريش تقرر الحيلولة بين المسلمين ودخول مكة – مفاوضات الصلح – أناة محمد وسياسته – عهد الحديبية فتح مبين

انقضت ست سنوات منذ هجرة النبيّ وأصحابه من مكة إلى المدينة ، وهم فيما رأيت من جهاد مستمر متصل ، بينهم وبين قريش تارة ، وبينهم وبين اليهود أخرى . والإسلام فى أثناء ذلك يزداد انتشاراً ويزداد قوّة ومنعة . ومنذ السنة الأولى من الهجرة عدل محمد بقبلته عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، وجعل المسلمون وجهتهم بيت الله الذى بنى إبراهيم بمكة ، والذى تجدّد بناؤه بعد ذلك ومحمد ما يزال فى فتوة الشباب ، وقد رفع إذ ذاك حجره الأسود إلى مكانه من جدار هذا البيت ، وذلك قبل أن يرد بخاطره أو بخاطر أحد من الناس ما سيُلقى الله عليه من رسالة .

صد المسلمين عن المسجد الحرام

وكان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلت وجهة العرب فى عبادتهم ، يحجّون إليه كل عام فى الأشهر الحرم ، فمن دخله كان آمنًا . فإذا التقى المرء بأشدّ الناس له عداوة لم يستطع عنده أن يجرّد سيفًا أو يسفك دمًا . لكن قريشًا آلت على نفسها منذ هاجر محمد والمسلمون معه أن يصدوهم عن المسجد الحرام ، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب . وفى ذلك نزل قوله تعالى منذ السنة الأولى للهجرة : (يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فيه قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمسْجِدِ الحَرَامِ وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ)[1] . ونزل كذلك قوله تعالى من بعد غزوة بدر : (وَمَالَهُمْ أَلاَّ

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ .

يُعَذِّبَهُمْ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمسْجدِ الحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . إِنَّ الذين كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُون . والَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) (١) .

وفى هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرة متتابعة فى هذا المسجد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمْنًا . لكن قريشًا كانت ترى محمداً والذين معه كفروا بآلهة هذا البيت : هُبَل وإساف ونائلة وسائر الأصنام ، ولذلك كانت ترى حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة واجبًا عليها حتى يثوبوا إلى آلهة آبائهم .

شوق المسلمين إلى مكة

والمسلمون أثناء ذلك يذوقون ألم الحرمان من أداء الواجب الدينى المفروض عليهم ، كما كان مفروضاً من قبل على آبائهم . والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك همًّا واصبًا وألماً لذّاعاً : ألم النفى ، وهمَّ الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه . وهؤلاء وأولئك كانوا فى ثقتهم بنصر الله رسوله ونصرِه إياهم وإعلاء دينهم على الدين كله ، يؤمنون بأن يوماً قريباً لابدَّ آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليطوفوا بالبيت العتيق ، وليؤدوا فريضة فرضها الله على الناس جميعًا . وإذا كانت السنة تمر تلو السنة فتُساجل الغزوة الغزوة ، وتكون بدرٌ ثم أحد ثم الخَنْدَق ثم سائر الغزوات والأعمال ، فإن هذا اليوم الذى يؤمنون به لا ريب آت . وما أشدَّهم لهذا اليوم شوقاً ! وما أشد ما يشاركهم محمد فى شوقهم وما يؤكد لهم أن هذا اليوم قريب !

العرب والكعبة

والحق أن قريشًا ظلموا محمدًا وأصحابه بمنعهم من زيارة الكعبة وأداء فرائض الحج والعمرة . فلم يكن هذا البيت العتيق ملكًا لقريش ، ولكنه كان ملكًا للعرب جميعًا . وإنما كانت فى قريش سِدَانة الكعبة وسِقاية الحاجّ

(١) سورة الأنفال الآيات من ٣٤ إلى ٣٦ .

وما إلى ذلك من العناية بالبيت ورعاية زائريه . ولم يكن اتجاه قبيلة بعبادتها إلى صنم دون آخر ليُبيح لقريش منعها من زيارة الكعبة والطواف بها والقيام بما تفرضه عبادة هذا الصنم من شعائر . فإذا جاء محمد ليدعو الناس إلى نبذ عبادة الأصنام وإلى التطهُّر من رجس الوثنيَّة والشرك ، وإلى السموّ بالنفس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والارتفاع فى سبيل ذلك فوق كل نقص ، والارتقاء بالروح إلى حيث تستطيع إدراك وحدة الوجود والتوحيد بالله ، وكان من فرائض ذلك حجُّ البيت والعمرة ، فمن العدوان مَنْعُ أصحاب الدين الجديد من أداء هذه الفريضة . ولكن قريشًا خافت إن جاء محمد ومن حوله المؤمنون بالله وبرسالته ، وهم من صميم أهل مكة ، أن يتعلَّق سواد المكّيين بهم وأن يشعروا بما فى بقائهم بعيدين عن أهليهم وأبنائهم من ظلم . فيكون ذلك نواة حرب أهليَّة . ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكة ، لم ينسوا لمحمد والذين معه أنهم حطموا تجارتهم وحالوا بينهم وبين طريقهم المعبَّدة إلى الشام ، وأنهم أثاروا بذلك فى نفوسهم من الحقد والبغضاء ما لا يخفف منه أن البيت لله وللعرب جميعًا ، وأنهم لا يملكون من أمره إلا العناية به ورعاية زائريه .

المسلمون والكعبة

انقضت ست سنوات منذ الهجرة والمسلمون يتحرَّقون شوقًا يريدون زيارة الكعبة ويريدون الحجَّ والعمرة . وإنهم لمجتمعون بالمسجد ذاتَ صباح إذ أنبأهم النبيُّ بما أُلهم فى رؤياه الصادقة : أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رءوسَهم ومُقَصّرين لا يخافون . فما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم ، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف . ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام ؟ أفيحاربون فى سبيله ؟ أفيُجْلون قريشًا عنه عنوةً ؟ ! أم ترى تفتح قريش لهم طريقه مذعنة صاغرة .

أذان محمد فى الناس بالحج

كلا ! لا قتال ولا حرب . بل أذن محمد فى الناس بالحج فى شهر ذى القعدة الحرام ، وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك وإيَّاه فى الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين . وحرصَ محمد فى الوقت نفسه على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع . وحكمته فى ذلك أن تعلم

العرب كلها أنه خرج فى الشهر الحرام حاجًّا ولم يخرج غازيًا ، وأنه أراد أداء فريضة فرضها الإسلام كما فرضتها أديان العرب من قبل ، وأنه أشرك العرب معه ممن ليسوا على دينه فى أداء هذه الفريضة . فإن أصرّت قريش مع ذلك على مقاتلته فى الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن العرب على اختلاف آلهتهم به ، لم تجد قريش من العرب من يؤيّدها فى موقفها ولا من يُعينها على قتال المسلمين ، وكانت بإمعانها فى الصدّ عن المسجد الحرام تصرف الناس عن دين إسماعيل وعن مِلَّةِ أبيهم إبراهيم . بذلك يأمن المسلمون أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبلُ ، ويزداد دينهم رفعةً على رفعته عند العرب الذين لا يؤمنون به . وما عسى أن تقول قريش لقوم جاءوا مُحْرِمين ، لا سلاح معهم إلا سيوفهم فى غمودها ، يتقدَّمهم الهَدْى الذى ينحرون ، ولا هَمّ لهم إلا أن يؤدُّوا بتطواف البيت فريضة تؤديها العرب جميعًا !

استنفار غير المسلمين للحج

أذن محمد فى الناس بالحج ، وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه ، فأبطأ كثير من الأعراب . وخرج فى أوّل ذى القعدة أحد الأشهر الحُرُم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، يتقدَّمهم على ناقته القَصْواء ، فكانت عدّة الذين خرجوا ألفًا وأربعمائة . وساق محمد معه الهَدْى سبعين بَدَنة ، وأحرم بالعمرة ، ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا ، وأنه إنما خرج زائراً بيت الله الحرام معظمًا له . فلما بلغ ذا الحُلَيْفَة [1] عقص الناس الرءوس ، ولبَّوْا بالعمرة ، وعزلوا الهدى ومازوا جوانبها اليمنى ومن بينها بعير أبى جهل الذى أخذوا ببدر . ولم يحمل أحد من هذا الحاجّ سلاحًا إلا ما يحمل المسافر من سيف مُغْمَد . وكانت أمُّ سلمة زوج النبيّ معه فى هذه الرحلة .

قريش وحج المسلمين

وبلغ قريشًا أمر محمد ومن معه وأنهم يسيرون قِبَلَهم حاجين ، فامتلأت نفس قريش بالمخاوف وجعلوا يُقَلبون هذا الأمر على وجوهه ، يحسبونه حيلة أراد محمد أن يحتال بها على دخول مكة بعد أن صدَّهم والأحزاب معهم

(١) ذو الحليفة : قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة ، وهى ميقات أهل المدينة الذى يحرمون عنده للحج .

عن دخول المدينة ، ولم يَثْنِهم ما علموا من إحرام خصومهم بالعمرة وإذاعتهم فى أنحاء الجزيرة كلها أنهم لا تحرِّكهم إلا العاطفة الدينية لقضاء فرض يقره العرب جميعًا ، عن أن يقرروا الحيلولة بين محمد ودخول مكة ، بالغًا ما بلغ الثمن الذى يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا . لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعِكْرِمة بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين ، وتقدّم هذا الجيش حتى يحول بين محمد وأم القرى . وبلغ من تقدُّمه أن عسكر بذى طوى .

معسكران يلتقيان

أما محمد فتابع مسيرته ، حتى إذا كان بعُسْفان [1] لقيه رجل من بنى كعب سأله النبى عما قد يكون لديه من أخبار قريش ، فكان جوابه : « قد سمعت بمسيرك فخرجوا ، وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذى طوًى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدَّموها إلى كُرَاع الغميم [2] » . قال محمد : « يا ويح قريش ! لقد أهلكتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلَّوْا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ! فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السَّالفة [3] » . ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع . إنه لم يخرج من المدينة غازيًا ، وإنما خرج مُحرمًا يريد بيت الله يؤدى عنده إلى الله فرضه . وهو لم يتَّخذ للحرب عُدَّتها ؛ فلعله إن حارب فلم ينتصر جُعلت قريش من ذلك موضع فخارها ، بل لعلها إنما أوفدت ابن الوليد وعكرمة قَصْد إدراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلا .

حرص محمد على السلم

وبينما كان محمد يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر ، يدلّ مرآها على أنه لا سبيل للمسلمين إلى دَرَك غايتهم إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحامًا ، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها

(١) عسفان : قرية أو منهلة بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة .

(٢) كراع الغميم : واد أمام عسفان بثمانية أميال .

(٣) السالفة : صفحة العنق ، وكنى بانفرادها عن الموت لأنها لا تفرد عما يليها إلا به .

وعن وطنها ؛ معركة لم يُرِدْها محمد ، وإنما حملته قريش عليها حمْلاً وألزمته خوض غمارها إلزامًا . إن المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية ، وقد تكفيهم سيوفهم إذا جردت من غمودها لدفع عدوان المعتدى ؛ لكنه يفوت بذلك قصده وقد يجعل لقريش عند العرب حجة عليه ، وهو أبعد من هذا نظراً وأكثرُ حُنْكة وأدق سياسة . إذاً . . . نادى فى الناس قائلاً مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ وكذلك ظل مستقرًّا رأيه على سلوك سياسة السلم التى رسم منذ خرج من المدينة ومنذ اعتزم الذهاب إلى مكة حاجًّا . وخرج رجل يسلك بهم طريقًا وعراً بين شعاب مُضنية وجد المسلمون فى سلوكها مشقَّة أى مشقة ، حتى أفضت بهم إلى سهل عند مُنْقطع الوادى الذى سلكوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنيَّة المُرار مهبط الْحُدَيْبيةَ من أسفل مكة . فلما رأت خيل قريش ما صنع محمد وأصحابه ركضوا راجعين أدراجهم ليقفوا مدافعين عن مكة إذا دهمها المسلمون . ولمَّا بلغ المسلمون الْحُديْبيةَ بركت القَصْواء (ناقة النبى) وظن المسلمون أنها جُهدت . فقال رسول الله : « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش إلى خُطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » . ثم دعا الناس إلى النزول . فقالوا له : « يا رسول الله ، ما بالوادى ماء ننزل عليه » . فأخرج هو سهمًا من كنانته فأعطاه رجلاً نزل به إلى بئر من الآبار المنثورة فى تلك الأنحاء ، فغرزه فى الرمال من قاع البئر فجاش الماء ، فاطمأن الناس ونزلوا .

تفكير المعسكرين

نزلوا ، ولكن قريشًا بمكة لهم بالمرصاد ، وهى تؤثر الموت على أن يدخلها محمد عليهم عنوةً . فهل يُعدون لقريش عُدَّة النزال فيحاربوها حتى يحكم الله بينهم وبينها وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ؟ ! فى هذا فكر بعضهم وفى احتماله فكرت قريش . لئن حدث ذلك وانتصر المسلمون لقد قُضى على قريش عند العرب كلها قضاء أخيراً ، وقد تعرّضت قريش لأن ينزع منها سدَانة الكعبة وسقاية الحاجّ وكل ما تفاخر به العربَ من مراسم ومناسك دينية . ماذا تصنع إذاً ؟ وقف المعسكران يفكر كلٌّ فى الخُطَّة التى يتَّبع ؛ فأمَّا محمد فظلَّ على خُطَّته التى رسم منذ أخذ للعمرة عُدّته ، خطة السلم والجنوح

عن القتال إلا أن تهاجمه قريش أو تغدر به ، وهنالك لا يبقى من انتضاء السيف مفرّ . وأمّا قريش فترددت ثم رأت أن توفد إليه من رجالها من يتعرّف قوّته من ناحية ، ومن يصدّه عن دخول مكة من ناحية أخرى . وجاءه بُدَيْل ابن وَرْقاء فى رجال من خُزَاعة يسألونه ما الذى جاء به . فلمّا اقتنعوا من حديثه بأنه لم يأت يريد حربًا وإنما جاء زائراً للبيت معظمًا لحرمته ، رجعوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليُخلُّوا بين الرجل وأصحابه وبين البيت العتيق . لكن قريشًا اتّهموهم وجبهوهم وصاحوا بهم : وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخل علينا عنوةً أبداً ولا تتحدّث بذلك عنّا العرب . ثم بعثت قريش رسولاً لم يسمع إلا ما سمع مَنْ قبله ، ولم يغامر بأن يتّهم عند قريش .

رسل قريش إلى محمد

وكانت قريش تعتمد فيما أعدّت من قتال محمد على حلفائها من الأحابيش [1] ، ففكرت أن توفد سيدهم لعله إذا رأى أن محمداً لا يسمع له ولا يتفاهم وإياهم ، ازداد لقريش نصرةً فزادَهم على محمد قوة . وخرج الحُلَيْس سيد الأحابيش قاصداً معسكر المسلمين . فلمّا رآه النبيّ مقبلاً أمر بالهَدْى أن تطلق أمامه ، لتكون تحت نظره دليلاً ماديًّا على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجين معظمين البيت ، ورأى الحلَيْس الهَدْى سبعين بَدَنَةً تسيل عليه من عرض الوادى قد تأكلت أوبارها ؛ فتأثر لهذا المنظر وثارت فى نفسه ثائرات دينية ، وأيقن أن قريشًا ظالمة هؤلاء الذين لا يريدون حربًا ولا عدوانًا . فانقلب إلى قريش دون أن يلقى محمداً وذكر لهم ما رأى . فلمّا سمعوا حديثه غاظهم وقالوا له : اجلس ، فإنما أنت أعرابىّ لا علم لك . وغضب الحليس لمقالتهم وأنذرهم أنه ما حالفهم ليصدّ عن البيت مَنْ جاء معظمًا إيّاه . وأنهم إن لم يُخلُّوا بين محمد وما جاء به نَفَرَ بالأحابيش من مكة . وخشيت قريش عاقبة غضبه ، فاسترضوه وطلبوا إليه أن يُنْظرهم حتى يفكروا فى أمرهم .

سفارة عروة ابن مسعود

ثم رأوا أن يُوفدوا حكيمًا يطمئنون إلى حكمته ، فتحدّثوا فى ذلك إلى عُرْوَةَ بن مَسْعُود الثقفىّ . فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء مقابلتهم

[1] الأحابيش : أحياء من القارة (قوم من العرب رماة) سموا بذلك لاسودادهم ، أو لتجمعهم أو نسبة إلى حُبْشى (بضم الحاء وسكون الباء) جبل بأسفل مكة .

لمن سبقه من رسلهم . فلمَّا اعتذروا له وأكدوا أنه عندهم غير متهم وأنهم يطمئنون إلى حكمته وحسن رأيه ، خرج إلى محمد وذكر له أن مكة بَيْضته ، وأنه إن يَفْضُضْها على أهله المقيمين بها بمن جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه ، كان العارَ الخالد لقريش عاراً لا يرضاه محمد وإن اتَّصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتَّصلت . فصاح أبو بكر بعُرْوة منكراً أن ينصرف الناس عن رسول الله . وكان عروة يتناول لحية محمد وهو يكلمه ، وكان المغيرة بن شُعْبة واقفاً على رأس الرسول يضرب يد عُرْوة كلما تناول لحية محمد ، مع علمه بأن عروة هو الذى دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قتلى كان المغيرةُ قتلهم . ورجع عروة بعد أن سمع من محمد مثل ما سمع الذين سبقوه من أنه لم يأت يريد حربًا وإنما جاء معظماً البيت مؤدِّيًا فرض ربه . فلما كان عند قريش قال لهم : «يا معشر قريش ، إنى جئت كِسْرَى فى ملكه ، وقَيْصَرَ فى ملكه ، والنجَاشِىّ فى ملكه ، وإنى والله ما رأيتُ مَلكًا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه . لا يتوضّأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وإنهم لن يُسلموه لشىء أبداً ، فَرَوْا رأيكم » .

سفارة محمد إلى قريش

وطالت المحادثات على النحو الذى قدَّمنا . ففكر محمد فى أن رسل قريش ربما لم يكن لديهم من الإقدام ما يُقنعون به قريشًا بالرأى الذى يرى ، فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه . لكنهم عقَروا جمل هذا الرسول ، وأرادوا قتله لولا أن منعته الأحابيش فخلَّوْا سبيله . وقد دلّ أهل مكة بتصرُّفهم هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء مما قلِق له صبر المسلمين ، حتى لقد فكر بعضهم فى القتال . وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق ، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون ليلاً يرمون عسكر النبىّ بالحجارة ؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلا يومًا ليصيبوا من أصحاب النبى ، فأخذوا أخذاً وجىء بهم إليه . أفتدرى ماذا صنع ؟ عفا عنهم وخلَّى سبيلهم تشبثًا منه بخطَّة السلم واحترامًا للشهر الحرام أن يسفك فيه دم فى الْحُدَيْبية وهى من حرم مكة . وبُهِت قريش حين عرفوا هذا ، وسقطت

كل حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أن محمداً يريد حربًا ، وأيقنوا أن كل اعتداء من جانبهم على محمد لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدرٌ دنىء ، لمحمد الحقُّ فى أن يدفعه بكل ما أوتى من قوة .

سفارة عثمان ابن عفان

ثم إنه عليه السلام حاول أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى بإرسال رسول يفاوضهم ؛ فدعا إليه عمر بن الخطاب كى يبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له .

قال عمر : « يا رسول الله إنى أخاف قريشًا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عَدِىٍّ بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إيَّاها وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعزُّ بها مِنِى : عثمان بن عفان » . فدعا النبىّ عثمان زوج ابنته وبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش . فخرج عثمان فى رسالته ، فلقيه لأوّل ما دخل مكة أبَانُ بن سعيد فأجاره الزمنَ الذى يفرغ فيه من رسالته . وانطلق عثمان إلى سادة قريش فأبلغهم رسالته . قالوا : يا عثمان ، إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُفْ . قال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ؛ إنما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظم حرمته ولنؤدى فرض العبادة عنده . وقد جئنا بالهَدْىِ معنا ، فإذا نحرناها رجعنا بسلام . وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوةً . وطال الحديث وطال احتباس عثمان عن المسلمين ، وترامى إليهم أن قريشًا قتلته غيلةً وغدراً . ولعل سادة قريش كانوا فى هذه الأثناء يبحثون مع عثمان عن صيغة توفقّ بين قَسَمهم ألا يدخل محمد هذا العام مكة عنوة ، وبين حرص المسلمين على أن يطوفوا بالبيت العتيق ويؤدُّوا إلى رب البيت فرضه . ولعلهم قد أنسُوا إلى عثمان وكانوا فى هذه الأثناء يبحثون وإيَّاه عن تنظيم علاقاتهم بمحمد وتنظيم علاقات محمد بهم .

بيعة الرضوان

مهما يكن من الأمر فقد قلق المسلمون بالحديبية على عثمان أشدّ القلق ، وتمثَّل أمامهم غدر قريش وقتلهم إيَّاه فى هذا الشهر الذى لا تُجيز فيه أديان العرب جميعًا لعدوّ أن يقتل فى حرم الكعبة ولا فى حرم مكة عدوه ، وتمثل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم فى رسالة سلم وموادعة ، ووضع كلٌّ منهم يده على قبضة

سيفه ؛ سمة النذير وسمة البطش والغضب . ودخل فى روع النبى عليه السلام أن قريشاً قتلت عثمان فغدرت فى الشهر الحرام فقال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . ودعا أصحابه إليه وقد وقف تحت شجرة فى هذا الوادى فبايعوه جميعًا على ألا يَفرُّوا حتى الموت . بايعوه وكلهم ثابت الإيمان ، قوىّ العزيمة . ممتلئ حماسة للانتقام ممن غدر وقتل . بايعوه بيعة الرضوان التى نزل فيها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [1] .

فلمَّا أتمَّ المسلمون البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعةً لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان . وبهذه البيعة اهتزت السيوف فى غمودها ، وتبدّى للمسلمين جميعًا أن الحرب آتية لا ريب فيها ، وجعل كلٌّ ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد بنفس راضية وفؤاد مرتاح وقلب مطمئن . وإنهم لكذلك إذ ترامى إليهم أن عثمان لم يُقتل ، ثم لم يطل بهم الأمر حتى جاء عثمان بنفسه إليهم . على أن بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك ، كبيعة العقبة الكبرى ، علمًا فى تاريخ المسلمين كان محمد يستريح إلى ذكره لما كشف عنه من متانة الروابط بينه وبين أصحابه ، ولما دل عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون ، ومَنْ أقدمَ على مخاطر الموت خافه الموت وعنت له جبهة الحياة وكان من الفائزين .

رسالة قريش إلى محمد

عاد عثمان فأبلغ محمداً ما قالت قريش . فهم لم تبق عندهم ريبة فى أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجين معظّمين للبيت . وهم يقدّرون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة فى الأشهر الحرم . وهم مع ذلك قد خرجوا من قبلُ تحت راية خالد بن الوليد لقتاله وصدّه عن دخول مكة ، وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات . فإذا هم بعد الذى حدث تركوه يدخل مكة تحدّثت العرب بأنهم انهزموا أمامه ، فتضعضعت فى نظر العرب مكانتهم وسقطت هيبتهم . لذلك هم يصرّون على موقفهم منه هذا العام إبقاءً

(١) سورة الفتح آية ١٨ .

على هذه الهيبة واستبقاء لتلك المكانة . فليفكر وإيَّاهم ، وهذا موقفه وموقفهم ، لعلهم جميعًا يجدون من هذا الموقف مخرجًا ، وإلاّ فليس إلا الحرب يدخلونها طوعًا أو كرهًا . بل إنهم لها لكارهون فى هذه الأشهر ، تقديراً لحرمتها الدينية من ناحية ، ولأنها من ناحية أخرى ، إذا لم تحترم اليوم حرمتها ووقعت الحرب فيها ، لم يأمن العرب فى مستقبل أيَّامهم أن يجيئوا إلى مكة وأسواقها مخافة انتهاك الأشهر الحرم مرّة أخرى ، فيجنى ذلك على تجارة مكة وعلى أرزاق أهلها .

المفاوضات بين الفريقين

واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين كرة أخرى . وأوفدت قريش سُهَيْل بن عمرو وقالوا له : ائت محمداً فصالحْه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنَّا عامَه هذا . فوالله لا تُحَدِّثُ العرب عنا أنه دخلها علينَا عنوةً أبداً . فلمَّا انتهى سهيل إلى الرسول جرت محادثات طويلة للصُّلح وشروطه كانت تنقطع فى بعض الأحيان ، ثم يعيد اتصالهَا حرصُ الجانبين على النجاح . وكان المسلمون من حول النبىّ يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صبراً ، لتشدّد سهيل فى مسائل يتساهل النبى فى قبولها . ولولا ثقة المسلمين المطلقة بنبيهم ، ولولا إيمانهم به ، لما ارتضوا ما تمَّ الاتفاق عليه ، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى . فقد ذهب عمر بن الخطَّاب فى أعقاب المحادثات إلى أبى بكر ودار بينهما الحديث الآتى :

أبو بكر وعمر

عمر — أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ !

أبوبكر — بلى ؟ !

عمر — أولسنا بالمسلمين ؟ !

أبوبكر — بلى !

عمر — فَعلاَمَ نُعْطَى الدَّنيَّة فى ديننا ؟ !

أبوبكر — يا عمر الزم غَرْزَك [1] ، فإنى أشهد أنه رسول الله !

عمر — وأنا أشهد أنه رسول الله !

---

(١) الغرز : الرحل .

وانقلب عمر بعد ذلك إلى محمد وتحدّث وإيّاه بمثل هذا الحديث وهو مَغيظٌ مُحْنق . لكن ذلك لم يغيِّر من صبر النبيّ ولا من عزمه ؛ وكلُّ الذى قاله فى ختام الحديث لعمر : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيّعنى » ثم كان بعد ذلك من صبر محمد حين كتابة العهد ما زاد فى حفيظة بعض المسلمين فقد دعا علىَّ بن أبى طالب وقال له : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : « أمْسكْ ، لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللّٰهم » قال رسول الله : « اكتب باسمك اللّٰهم » . ثم قال : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْلَ بن عمرو » . فقال سهيل : « أمْسك ، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك » . قال رسول الله : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » . . . ثم كتبت العهدة بين الطرفين وفيها أنهما تهادنا عشر سنين ، فى رأى أكثر كتّاب السيرة ، وسنتين فى قول الواقدى ، وأن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردّوه عليه ، وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جُناح عليه ، ومن أحبَّ مخالفة قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامَهم هذا على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه فيدْخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قُرُبها ولا سلاح غيرها .

عهد الحديبية
مارس ٦٢٨ م

تنفيذ هذا العهد

وما كاد هذا العهد يوقَّع حتى حالفت خُزاعة محمداً وحالفت بنو بكر قريشاً . وما كاد هذا العهد يوقع حتى أقبل أبو جَنْدَل بن سُهَيْل بن عمرو على المسلمين يريد أن ينضم إليهم ويسير معهم . فلما رأى سهيل ابنه ضرب وجهه وأخذ بتَلْبيبه وجعل يجرّه ليرده إلى قريش ، وأبو جندل يصيح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ! أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ! وزاد ذلك فى قلق المسلمين وعدم رضاهم عن العهد الذى عقد الرسول مع سهيل . لكن محمداً وجه إلى أبى جندل قوله : « يا أبا جَنْدَل ، اصبر واحتسبْ فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المُسْتَضعَفين مخرجًا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذاً لعهد النبيّ ووعده ، وقام سهيل راجعًا إلى مكة . وأقام محمد مضطربًا مما رأى من شأن مَنْ حوله ، ثم صلى واطمأن ثم قام إلى هَدْيه فنحره ، ثم جلس فحلق رأسه إيذانًا بالعمرة . وقد امتلأت نفسه بالسكينة والرضا . فلمَّا رأى الناس صنيعه ورأوا سكينته تواثبوا ينحرون ويحلقون ، وإن منهم من حلق ومنهم من قصَّر . قال محمد : يرحم الله المحلقين . فتنادى الناس فى قلق : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : يرحم الله المحلِّقين . فتنادى الناس فى قلق : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : والمقصرين . قال بعضهم : فلم ظاهرتَ يا رسول الله الترحم للمحلِّقين دون المقصرين ؟ فكان جوابه : لأنهم لم يَشُكوا .

لم يبق للمسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة فى انتظار أن يعودوا إلى مكة العامَ المقبل . وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض ، ولا يهوّنها على نفسه إلا أنها أمر الرسول ؛ فهم ليس لهم عادة بهزيمة ولا تسليم من غير قتال ، وهم فى إيمانهم بنصر الله رسوله ودينَه لم تخالجهم ريبة فى اقتحام مكة لو أنّ محمداً أمر باقتحامها . وأقاموا بالحديبية أيَّامًا ، منهم من يتساءلون فى حكمة هذا العهد الذى عقد النبى ، ومنهم من تحدثه نفسه بالشك فى حكمته ، ثم تحملوا وقفلوا راجعين . وأنهم لفى طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل الوحى على النبى بسورة الفتح . فتلا النبيُّ على أَصحابه قوله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً . لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطًا مُسْتَقِيمًا) إلى آخر السورة .

سورة الفتح

لم يبق إذاً ريب فى أن عهد الحديبية فتحٌ مبين . وهو قد كان كذلك . وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبُعْدُ نظر كان لهما أكبر الأثر فى مستقبل الإسلام وفى مستقبل العرب كله . فقد كانت هذه أول مرة اعترفت قريش فيها بمحمد لا على أنه ثائر بها خارج عليها ، ولكن على أنه نِدُها وعِدْلها : فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها . ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت ، وإقامة شعائر الحج ، اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر

معترف به من أديان شبه الجزيرة . وهدنة السنتين ، أو السنوات العشر ، قد جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش ، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشاراً . أفليست قريش ألدَّ أعدائه وأشد محاربيه قد انتهت بالإذعان لما لم تكن تذعن له من قبلُ قطُّ ! وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشاراً أسرع أضعافًا من انتشاره من قبل . كان الذين جاءوا إلى الحديبية ألفًا وأربعمائة ؛ فلما كان بعد عامين اثنين وجاء محمد لفتح مكة جاء فى عشرة آلاف . وأشدُّ ما اعترض عليه من ساورتهم الشكوك فى حكمة عهد الحديبية ما نص عليه العهد من أن مَنْ أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا من المسلمين لم ترده على محمد . وكان رأى محمد فى هذا أن من ارتد عن الإسلام ولجأ إلى قريش لم يكن جديراً بأن يعود إلى جماعة المسلمين ، وأن من أسلم وحاول اللحاق بمحمد فسيجعل الله له مخرجاً . وقد صدَّقت الحادثات رأى محمد فى ذلك بأسرع ما كان يظن أصحابه ، ودلت على أن الإسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب ، ومهد لِما جاء بعد ذلك بشهرين اثنين من بدء محمد مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام .

الحديبية فتح مبين

قصة أبي بصير

صدّقت الحادثات رأى محمد بأسرع مما كان يظن أصحابه . فقد وفَدَ أبو بَصِير من مكة إلى المدينة مسلماً ينطبق عليه العهد بردّه إلى قريش لأنه خرج بغير رأى مولاه . فكتب أزهْر بن عوف والأخنَس بن شريق إلى النبيّ كى يردّه ، وبعثا بكتابهما مع رجل من بنى عامر ومعه مولى لهم . قال النبيّ : يا أبا بصير : إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصحّ لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا ، فانطلق إلى قومك . قال أبو بصير : يا رسول الله ، أتردُّنى إلى المشركين يفتنوننى فى ديني ! فكرّر عليه النبى قوله ، فانطلق مع الرجلين ؛ حتى إذا كان بذى الحُلَيْفة سأل أخا بنى عامر أن يُريه سيفه ؛ وما إن استوت قبضته فى يده حتى علا به العامرى فقتله ، فخرج المولى يعدو ناحية المدينة حتى أتى النبى ، فلما رآه قال : إنّ هذا رجل قدْ رأى فزعًا . ثم قال للرجل : ويحك ! مالك ؟ قال :

قتل صاحبك صاحبي . ثم ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً السيف موجهاً الحديث إلى محمد وهو يقول : يا رسول الله ، وفت ذمّتك وأدى الله عنك . أسلمتني بيد القوم وقد امتنعتُ بديني أن أفتَن فيه أو يُعْبَث بي . ولم يُخْفِ الرسول إعجابه وتمنّيه لو كان معه رجال . ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيصَ على ساحل البحر فى طريق قريش إلى الشام ، وكان عهد محمد وقريش أن تُترك هذه الطريق للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش . فلما ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره وبما كان من إعجاب الرسول به فر منهم نحو سبعين رجلا اتخذوه لهم إماماً وجعلوا وإياه يقطعون على قريش طريقها ، وكانوا لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها . هنالك رأت قريش أنها أكبر خسارة بحرصها على هؤلاء المسلمين أن يظلّوا بمكة ؛ وقدَّرت أن الرجل الصادق الإيمان ، محاولةُ حبسه شرٌّ من إطلاق سَراحه ، فهو لابدّ منتهز فرصة الفرار ، مقيم على الذين حاولوا حبسه حرباً عواناً هم فيها الأخسرون . وكأنما ذكرت قريش محمداً حين هاجر إلى المدينة وقطع عليهم طريق القوافل ، وخشيت أن يكرر أبو بصير هذا الصنيع فبعثت إلى النبي تسأله بأرحامها إلاّ آوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمناً . ونزلت قريش بذلك عما أصر عليه سُهيْل بن عمرو من ردّ المسلمين من قريش إلى مكة إذا ذهبوا إلى محمد بغير رأى مواليهم . وسقط بذلك الشرط الذى أحفظ عمر بن الخطاب والذى كان سبباً فى ثورته التى ثار على أبى بكر . وآوى محمد أصحابَه وعاد طريق الشام آمناً .

المهاجرات المسلمات

أمَّا المهاجرات من قريش إلى المدينة فكان لمحمد فيهن رأى آخر . خرجت أمّ كُلْثوم بنت عُقْبَة بن أبى مُعَيْط من بعد الهدنة ، فخرج أخواها عُمارة والوليد يطلبان إلى رسول الله أن يردّها عليهما بحكم عهد الحديبية . لكن النبيّ أبى ورأى أن هذا العهد لا ينسحب على النساء حكمه ، وأن النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن . ثم إن المرأة إذا أسلمت لم تُصبح حلاً لزوجها المشرك فوجب التفريق بينه وبينها . وفى ذلك نزل قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ

فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُم وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [١] .

وكذلك صدّقت الحادثات حكمة محمد وبعد نظره ودقّة سياسته ، وأثبتت أنه إذ عقد عهد الحديبية وضع حجراً لا يُنْقَضُ فى سياسة الإسلام وانتشاره ، وهذا هو الفتح المبين .

ما صنع محمد

اطمأنّت العلاقات بعد الحديبية بين قريش ومحمد أعظم الطمأنينة ، وأمِن كلٌّ جانبَ صاحبه . واتجهت قريش كلها إلى التوسع فى تجارتها ، لعلها تستعيد من طريقها ما فقد أيّام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها ، وحين سُدَّت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرَّضة للضياع . أمّا محمد فاتجه بفكره إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعًا فى مشارق الأرض ومغاربها ، ووجّه نظره إلى تمهيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين فى شبه الجزيرة . وهذا وذاك هو ما صنع بإرسال الرسل إلى الملوك فى مختلف الدول ، وبإجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب إجلاء تامًّا بعد غزوة خَيْبَر .

(١) سورة الممتحنة آية ١٠ .

الفصل الحادى والعشرون
خيبر والرسل إلى الملوك

الإسلام والتنظيم الاجتماعى – تحريم الخمر – رسل محمد إلى الملوك والأمراء – المسلمون واليهود – غزوة خيبر – القضاء الأخير على سلطة اليهود – رد الملوك على رسل النبي – فى انتظار عمرة القضاء .

عاد محمد والمسلمون معه من الحُدَيْبِيَةِ قافلين إلى المدينة بعد ثلاثة أسابيع من تمام الصلح بينهم وبين قريش على ألا يدخلوا مكة هذا العام ، وأن يدخلوا العام الذى يليه . عادوا وفى نفوسهم من أمر هذا الصلح شيء ، أنِ اعتبره بعضهم غير متفق مع كرامة المسلمين ، حتى نزلت سورة الفتح وهم فى الطريق وتلاها النبىّ عليهم . وجعل محمد يفكر أثناء مُقامهم بالحديبية وبعد عودهم منها ماذا عساه يصنع للمزيد من تثبيت أصحابه ولزيادة انتشار دعوته . وانتهى به التفكير إلى إرسال رسله إلى هِرَقْل وكِسْرَى والمُقَوْقِس وَنَجَاشِي الحبشة وإلى الحارث الغَسَّانىّ وإلى عامل كسرى فى اليمن ، كما انتهى به إلى ضرورة القضاء قضاء أخيراً على شوكة اليهود فى شبه جزيرة العرب .

نضج الدعوة الإسلامية

والحقّ أن الدعوة الإسلامية كانت قد بلغت يومئذ من النُّضْج ما يجعلها دين الناس كافَّة . فهى لم تقف عند التوحيد وما يقتضيه التوحيد من عبادات ، بل انفرج ميدانها وتناولت من صور النشاط الاجتماعى كلّها ما يوازى بينها وبين سمو فكرة التوحيد وما يجعل صاحبهما أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الإنسانىّ وإلى تحقيق المثل الأعلى فى الحياة . ولذلك نزلت الأحكام فى كثير من أمور الاجتماع .

تحريم الخمر

اِختلف مؤرّخو السيرة فى تحريم الخمر متى كان ، وذهب بعضهم إلى أنه كان فى السنة الرابعة للهجرة ، ولكن أكثرهم على أنه كان عام الحُدَيْبِيَةِ .

والفكرة فى تحريم الخمر اجتماعية غير متصلة بالتوحيد من حيث هو التوحيد . ولا أدلّ على ذلك من أن التحريم لم ينزل به القرآن إلا بعد انقضاء عشرين سنة أو نحوها على بعث النبىّ ، وأن المسلمين ظلُّوا يشربونها إلى أن نزل التحريم . ولا أدلّ على ذلك من أن التحريم لم ينزل مرَّة واحدة ، بل نزل على فترات جعلت المسلمين يخفّفون منها ، حتى كان التحريم فانتهَوْا عن شربها . فقد رُوى عن عمر بن الخطاب أنه سأل عن الخمر وقال : اللهم بيِّن لنا فيها ؛ فنزلت الآية : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) [1] .

فلمَّا لم يكفّ المسلمون بعد هذه الآية ، وكان بعضهم يقضى ليله متوفراً على شرابه حتى كان إذا ذهب إلى صلاته لا يعلم ما يقول فيها ، عاد عمر فقال : اللهم بين لنا فى الخمر ، فإنها تُذْهب العقل والمال ؛ فنزلت الآية : (يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) [2] .

ومن يومئذ كان منادى الرسول ينادى وقت الصلاة : لا يقرَبنّ الصلاة سكران . وعلى رغم ما كان يقضى هذا الأمرُ من الإقلال من الشراب ، وما كان له فى هذه الناحية من أثر بالغ جعل الكثيرين يُقلون من الخمر ما استطاعوا ، عاد عمر بعد زمن يقول : اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا فإنها تُذْهب العقل والمال . وقد كان عمر فى حِلٍّ من قولها أن كان العرب ، والمسلمون من بينهم ، يصل بهم الشراب إلى حد يجعلهم يعربدون ، يأخذ بعضهم بِلحية بعض ، ويَهوى بعضهم على رأس بعض . دعا بعضهم جماعة إلى طعام وشراب ، فلما ثَملوا ذكروا المهاجرين والأنصار ، فأبدى أحدهم التعصب للمهاجرين فأخذ متعصِّب للأنصار بعظمة من عظام رأس الجزور التى نأكلونها فجرح بها أنف المهاجرىّ . وثمل حيَّان فتشاجرا فشجَّ بعضهم بعضاً فوقعت فى أنفسهم الضغائن ، وكانوا من قبل ذلك أحبة متصافين . إذ ذاك نزل

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٩ . (٢) سورة النساء آية ٤٣ .

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (١) .

وقد كان أنس الساقى يوم حرّمت الخمر ، فلمّا سمع المنادى بتحريمها بادر فأراقها — ولكن أناساً لم يرقهم هذا التحريم فقالوا أتكون الخمر رجساً وهى فى بطن فلان وفلانٌ قُتِلَ يوم أحد ، وفى بطن فلان وفلانٌ قُتِل يوم بدر ! فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

وما أمر به الإسلام من البرّ والرحمة ، وما دعا إليه من عمل الخير ، وما فى عبادته من رياضة النفس والطبع ، وما يصل إليه الركوع والسجود فى الصلاة من قتل غرور القلب ، كل ذلك جعله الكمال الطبيعىّ للأديان التى سبقته ، وجعل الدعوة إليه للناس كافة .

دولتا الرومان والفرس

كان هِرقْل وكِسْرَى يومئذ على رأس دولتى الرومان والفرس أقوى دول العصر وصاحبتى الإملاء فى سياسة العالم ومصاير أممه جميعًا . وكانت الحرب سجالاً بين الدولتين كما رأيت ؛ وكانت الفرس صاحبة الغَلَب أوّل الأمر فاستولت على فِلَسْطين وعلى مصر ووضعت يدها على بيت المقدس ونقلت منه الصليب . ثم دارت على الفرس الدائرة ، فعادت أعلام بزنطية تخفق مرة أخرى على مصر وعلى سورية وفلسطين ، واستردّ هِرقل الصليب بعد أن نذر ، إن هو تم له النصر ، أن يحج إلى بيت المقدس ماشيًا حتى يردّ الصليب فيه إلى مكانه . ومن اليسير عليك إذ تذكر مكانة الدولتين أن تقدر ما يبعثه اسمهما

(١) سوره المائدة آيتا ٩٠ و ٩١ . (٢) سورة المائدة آية ٩٣ .

من الرهبة إلى النفوس ومن الهيبة إلى القلوب ، حتى لا تفكر دولة فى التعرض لهما ، ولا يدور بخَلَد أحد أن يفكر فى غير خطبة ودّهما . أمّا وذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعاً ، فقد كان أجدر ببلاد العرب أن يكون ذلك شأنها . فقد كانت اليمن والعراق تحت نفوذ فارس ، وكانت مصر والشام تحت نفوذ هرقل ؛ فكان الحجاز وسائر شبه الجزيرة محصوراً فى دائرة نفوذ الإمبراطوريتين . وكانت حياة العرب وقفاً على التجارة مع اليمن ومع الشام ، فكانوا بذلك محتاجين أشدّ الحاجة إلى مصانعة كسرى وهرقل جميعاً حتى لا يفسد بسلطانهما عليها تجارتهم . ثم إن العرب لم يكونوا يزيدون على قبائل تشتد الخصومة بينها حيناً وتهدأ حيناً آخر ، ولا تربط بعضها ببعض رابطة تجعل منها وحدة سياسية تستطيع أن تفكر فى مواجهة نفوذ الدولتين العظيمتين . ولذلك كان عجيباً أن يفكر محمد يومئذ فى أن يُرسل رسله إلى الملكين العظيمين وإلى غسَّان واليمن ومصر والحبشة يدعوهم إلى دينه ، دون خشية لِما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجرّ على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس أو بزنطية .

رسل محمد إلى الملوك والأمراء

لكن محمداً لم يتردَّد فى دعوة هؤلاء الملوك جميعاً إلى دين الحقِّ . بل خرج يوماً على أصحابه فقال : « أيها الناس ، إن الله قد بعثنى رحمةً للناس كافة فلا تختلفوا علىَّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم » . قال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ » . قال : « دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأمَّا مَنْ بعثه مبعثاً قريباً فرضىَ وسلَّم ، وأما مَنْ بعثه مبعثاً بعيداً فكرِه وجهه وتثاقل » . ثم ذكر لهم أنه مُرسِلٌ إلى هرقل وكسرى والمُقَوْقس والحارث الغَسَّانى ملك الحيرة والحارث الْحِمْيَرى ملك اليمن وإلى نجاشى الحبشة يدعوهم إلى الإسلام . وأجابه أصحابه إلى ما أراد . فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه : « محمد رسول الله » وبعث بكتبه يقول فيها ما نضع منه مثلا أمام القارئ كتابه إلى هرقل إذ جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله إلى هِرَقْل عظيم الروم . سلامٌ على من اتَّبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلِمْ تَسْلَمْ يؤتِك الله أجرك

مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] . « يـٰأهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلا الله ولاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

ودفع بكتاب هِرقْل إلى دِحْيَة بن خليفة الكلبي ، وبكتاب كسرى إلى عبد الله بن حُذَافة السَّهْمى . وبكتاب النجاشي إلى عمرو بن أُمَية الضَّمْرى ، وبكتاب المُقَوْقِس إلى حَاطب بن أبى بَلْتعة ، وبكتاب ملكى عُمَان إلى عمرو بن العاص السَّهْمى ، وبكتاب ملكى اليمامة إلى سَلِيط بن عمرو ، وبكتاب ملك البحرين إلى العَلاَء بن الْحضْرَمى ، وبكتاب الحارث الغسَّانى ملك تخوم الشام إلى شُجاع بن وهب الأسَدى ، وبكتاب الحارث الحميرى ملك اليمن إلى المهاجر بن أمَية المخزومى . وانطلق هؤلاء جميعاً كلٌّ إلى حيث أرسله النبى . انطلقوا فى وقت واحد على قول أكثر المؤرّخين ، وانطلقوا فى أوقات مختلفة على قول بعضهم .

فارس وبزنطية

أليس إرسال محمد هؤلاء الرسل عجباً يثير الدهشة ! أوليس أشد إثارة للدهشة ألا تمضى ثلاثون عاماً بعد ذلك حتى تصبح هذه البلاد التى أرسل محمد إليها رسله وقد فتحها المسلمون ودان أكثرها بالإسلام ! لكن هذه الدهشة ما تلبث أن تزول حين تذكر أن الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا تزعمان تحضير عالم ذلك العصر ، وكانت حضارتهما هى الغالبة على العالم كله ، إنما كانتا تتنازعان الغَلَب المادى ، على حين كانت القوة الروحية فيهما جميعاً قد انحلت واضمحلَّت . فقد كانت فارس مقسمة بين الوثنية والمجوسية . وكانت مسيحية بِزَنطية قد اضطربت بين مختلف المذاهب والفرق فلم تظل عقيدة سليمة تحرك القلوب وتقويها ، بل انقلبت رسوماً وتقاليد يهيمن بها رجال الدين على عقول السواد لحكمه واستغلاله . أما الدعوة الجديدة التى يدعو محمد إليها فكانت روحية صرفة وكانت ترتفع بالإنسان إلى أسمى مراتب الإنسانية ، وحيثما

(١) اختلف فى وزن هذه الكلمة ومعناها . ومن معانى الأريسيين الخدم والحشم . يريد أنه مسئول عن إثم رعيته لصده إياهم عن الدين . (راجع نهاية ابن الأثير ومعجمات اللغة مادة « أرس ») .

التقت المادة والروح ، وحيثما تعارض همُّ الحاضر وأمل الخلود ، انهزمت المادة وعنا وجه الحاضر .

ثم إن فارس وبزنطية كانتا ، على عظم سلطانهما ، قد فقدتا قوَّة الابتكار وملكة الإنشاء ، ونزلتا فى عالم التفكير وفى عالم الشعور وفى عالم العمل إلى دَرَك التقليد واحتذاء السلف ، واعتبار كل جديد بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

مزاوجة الإسلام بين الروح والجسد

والجماعة الإنسانية كالفرد الإنسانى وككل كائن حىّ ، تتجدد كل يوم ؛ فإما كانت ما تزال فتية شابة فكان تجددها خَلْقًا وإنشاء ومزيداً فى الحياة ، وإما كانت قد بلغت الذروة ولم تعد قادرة على الإنشاء والخلق فهى تنفق من رأس مال حياتها ؛ فحياتها لذلك فى نقص مستمر ، وفى انحدار إلى درك النهاية . والجماعة الإنسانية التى تنحدر إلى دَرَك النهاية مصيرها أن يخلقها عنصر خارجى ، فيه فتوة الحياة ، خلقًا جديداً . العنصر الخارجى الملىء بقوة الحياة الفتية إلى جانب فارس وبزنطية لم يكن فى ناحية الصين أو الهند ، ولا كان فى ناحية أواسط أوربا ؛ إنما كان هذا العنصر محمداً . كانت دعوته فى شباب فتوتها جديرة بأن تعيد إلى هذه النفوس ، المنهدم داخلها بحكم التقاليد الدينية والخرافات القائمة منها مقام الإيمان والعقيدة ، حياة فتية تجددها وتردها إلى الحياة . وشعلة الإيمان الجديد التى كانت تضىء نفس الرسول ، وقوةُ نفسه التى سمت فوق كل قوة ، هى التى هدت إلهامَه إلى أن يبعث هؤلاء الرسل يدعون عظماء الأرض بدعاية الإسلام دين الحق ، دين الكمال ، دين الله جل شأنه ؛ يدعوهم إلى الدين الذى يحرر العقول لترى ، والقلوب لتبصر ، والذى يضع للإنسان فى حياة العقيدة ، كما يضع له فى نظام الجماعة ، قواعدَ عامة توازى بين سلطان الروح وقوة المادة التى تنطوى على الروح ، لتبلغ بالإنسان من طريق هذه الموازاة إلى غاية ما يستطيع بلوغه من قوة على الحياة ، قوة لا يشوبها وهنٌ ولا غرور ، ولتبلغ بالجماعة الإنسانية بفضل ذلك النظام إلى خير مكان أُعِد لها بعد أن تسلك ما قدّر لها من ضروب التطوّر بين كائنات الوجود جميعًا .

القضاء الأخير على يهود شبه الجزيرة

أفيرسل محمد رسله إلى هؤلاء الملوك وهو ما يزال يخشى غدر اليهود الذين لا يزالون مقيمين شمال المدينة ؟ صحيح أنه قد عَهِد عهد الحُدَيْبية ، فأمِنَ

قريشًا وأمِنَ الجنوب كله ؛ لكنه لن يأمن من ناحية الشمال أن يستعين هِرْقل أو أن يستعين كِسرى بيهود خَيْبَرَ ، وأن يحرّك فى نفوسهم ثاراتهم القديمة ، وأن يذكّرهم إخوانهم فى الدين من بنى قُرَيْظة وبنى النَّضير وبنى قَيْنقَاع ، وقد أجلاهم محمد عن ديارهم بعد أن حصرهم بها وقاتلهم فيها وقتل منهم وسفك دماءهم . واليهود أشد من قريش عداوةً له ؛ لأنهم أحرص منهم على دينهم ، ولأن فيهم ذكاء وعلماً أكثر مما فى قريش . وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح كصلح الحديبية ، ولا أن يطمئن لهم وقد سبقت بينه وبينهم خصومات لم ينتصروا فى إحداها . فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا هم وجدوا من ناحية هرقل مدداً . لابد إذًا من القضاء على شوكة هؤلاء اليهود قضاء أخيراً حتى لا تقوم لهم من بعدُ ببلاد العرب قائمة أبداً . ولابد من المسارعة إلى ذلك حتى لا يكون لديهم من الوقت متسع للاستعانة بغَطَفَان أو بغيرها من القبائل المعادية لمحمد والموالية لها .

السير لغزوة خيبر

وكذلك فعل ؛ فإنه لم يُقِمْ بالمدينة بعد عوده من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة على قول ، وشهراً على قول آخر ، ثم أمر الناس بالتجهيز لغزو خَيْبَر على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية ، إلا أن يكون غازيًا متطوعًا ليس له من الغنيمة شىء . وانطلق المسلمون فى ألف وستمائة ومعهم مائة فارس ، وكلهم واثق بنصر الله ، ذاكرٌ قوله تعالى فى سورة الفتح التى نزلت فى عهد الحديبية : (سَيَقُولُ المخَلَّفُونَ إذا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً) [1] .

وقطعوا مراحل الطريق ما بين خيبر والمدينة فى ثلاثة أيام لم تكد خيبر تحسهم أثناءها ، حتى لقد باتوا أمام حصونها . وأصبح الصباح وغدا عمال خيبر خارجين إلى مزارعهم ومعهم مَسَاحيهم ومَكاتلهم ؛ فلما رأوا جيش المسلمين ولَّوا الأدبار يتصايحون : هذا محمد والجيش معه ! وقال الرسول حين سمع قولهم : « خرِبتْ

(١) سورة الفتح آية ١٥ .

خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صَبَاحُ المُنْذَرِين » .

تفكير اليهود

على أن يهود خيبر كانوا يتوقعون أن يغزوهم محمد ، وكانوا يودون أن يجدوا الوسيلة إلى الخلاص منه . أما بعضهم فنصح لهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادى القُرَى وتَيماء تغزو يَثرِب ، دون اعتماد على البطون العربية فى الغزو ، وأما آخرون غيرهم فكانوا يرون أن يدخلوا فى حِلف مع الرسول ، لعل ذلك يمحو ما ثبت من كراهيتهم فى نفوس المسلمين والأنصار منهم خاصة ، بعد اشتراك حُيَىّ بن أخْطَب وجماعة من اليهود معه فى تأليب العرب لاقتحام المدينة وأخذها عنوة فى غزوة الخندق . لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى ، حتى لقد سبق المسلمون قبل غزوة خيبر بقتل كلّ من سَلاّم بن أبى الْحُقَيق واليسير بن رَزّام من زعماء خيبر . لذلك كانت اليهود على اتصال دائم بغطفان ، ولذلك استعانوا بهم أول ما ترامى إليهم خبر اعتزام محمد غزوهم . ويختلف الرواة فيما كان من غطفان : أأعانتهم ، أم حالت جيوش المسلمين بينها وبين خيبر .

ضخامة القوتين المتقاتلتين

وسواء أكانت غطفان قد أعانت اليهود أم كانت قد وقفت بمعزل بعد أن وعدها محمد حظًّا من الغنائم ، فقد كانت هذه الموقعة من أكبر المواقع ، أن كانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأسًا ، وأوفرها مالا وأكثرها سلاحًا ، وأن كان المسلمون مؤمنين بأنه ما بقيت لليهود شوكة فى شبه الجزيرة فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغَلَب لهم ؛ لذلك ذهبوا مستقتلين لا يعرف التردُّد إلى نفوسهم سبيلا . ووقفت قريش ووقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلّعة إلى هذه الغزوة ؛ حتى لقد كان من قريش مَنْ يتراهنون على نتائجها ولمن يتم الغلب فيها . وكان كثيرون من قريش يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين ، لمَا عُرِف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال .

حصار حصون خيبر

وقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهبين كاملى العُدة . وتشاور اليهود فيما بينهم ، فأشار عليهم زعيمهم سَلاّم بن مِشْكَم ، فأدخلوا أموالهم

وعِيالهم حصنى الوَطِيح والسّلالِم ، وأدخلوا ذخائرهم حصن ناعم ، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب حصن نَطَاة ، ودخل سَلاّم بن مِشكَم معهم يحرضهم على الحرب . والتقى الجمعان حول حصن نطاة واقتتلوا قتالا شديداً ، حتى قيل : إنّ عدد الجرحى من المسلمين فى هذا اليوم بلغ خمسين . فكم كان إذاً عدد الجرحى من اليهود ! وتُوفى سلام بن مشكم ، فتولى الحارث بن أبى زينب قيادة اليهود ، وخرج من حصن ناعم يريد منازلة المسلمين ؛ فدحره بنو الخزرج واضطروه أن يرتد إلى الحصن على أعقابه . وضيق المسلمون الحصار على حصون خيبر واليهود يستميتون فى الدفاع إيمانًا منهم بأن هزيمتهم أمام محمد هى القضاء الأخير على بنى إسرائيل فى بلاد العرب . وتتابعت الأيام فبعث الرسول أبا بكر إلى حصن ناعم كى يفتحه ، فقاتل ورجع دون أن يفتح الحصن . وبعث الرسول عمر بن الخطاب فى الغداة ، فكان حظه كحظ أبى بكر. فدعا الرسول إليه علىّ بن أبى طالب ، ثم قال له : خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك . ومضى علىّ بالراية ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود فطرح تُرْسَه من يده ، فتناول علىٌّ بابًا كان عند الحصن فتترَّس به فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن ثم جعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية هذا الحصن . وإنما سقط حصن ناعم بعد أن قُتل قائده الحارث بن أبى زينب ، مما يدل على استماتة اليهود فى القتال واستماتة المسلمين فى الحصار وفى الهجوم .

فتح الحصون

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون القَمُوص بعد قتال شديد ، وبعد أن قلَّت المؤونة عندهم قِلَّة توجه بسببها جماعة منهم يشكون إلى محمد أمرهم ، ويطلبون إليه ما يسدون به رمقهم ؛ فلم يجد شيئًا يعطيهم إيَّاه ، وأذن لهم فى أكل لحوم الخيل . وقد رأى أحد المسلمين قطيعاً من الغنم يدخل إلى أحد حصون اليهود ، فاختطف منه شاتين فذبحوهما وأكلوهما . على أنه بعد أن تم لهم فتح حصن الصَّعْب بن مُعَاذ قلَّت حاجتهم ، أن وجدوا فيه طعاماً كثيراً مكن لهم من متابعة قتال اليهود وحصارهم فى سائر حصونهم . واليهود أثناء ذلك كله لا يسلِّمون فى شبر أرض ولا يسلمون حصنًا إلا بعد أن يدافعوا

استقتال اليهود

عنه دفاع الأبطال ، وبعد ألاّ يبقى لهم على صد هجوم المسلمين قوة . خرج مَرْحَب اليهودى من أحد الحصون وقد جمع للحرب سلاحه وأكمل عُدته وهو يرتجز :

قد علمتْ خَيْبَرُ أنى مَرْحَبُ شاكى السلاح بَطلٌ مجرَّبُ
أطعَنُ أحيانًا وحينًا أضربُ إذا الليوث أقبلت تُحَرَّبُ [1]
إن حِمَاىَ لَلْحِمَى لا يُقْرَبُ يُحْجم عن صَولَتِىَ المجربُ

فصاح محمد بأصحابه : مَنْ لهذا ؟ فقال محمد بن مَسْلمة : أنا له يا رسول الله . أنا والله الموتور الثائر ! قُتل أخى بالأمس . وقام إليه بإذن النبى وتصاولا حتى كاد مرحب يقتله ، لكن ابن مسلمة اتقى سيفه بالدَّرَقة فوقع السيف فيها فعضَّت به فأمسكته ، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله . وكذلك كانت هذه الحرب بين اليهود والمسلمين ضَروسًا قاسية ، وكانت مَنَعةُ حصون اليهود تزيدها شدة وقسوة .

مبدأ يأس اليهود

حاصر المسلمون حصن الزبير وطال حصارهم إياه وقاتلوا قتالا شديداً ، ومع ذلك لم يستطيعوا فتحه حتى قطعوا الماء عنه واضطروا اليهود فيه إلى الخروج منه وإلى قتال المسلمين قتالاً انتهى بالأولين إلى أن يلوذوا بالفرار . وكذلك جعلت الحصون تقع واحداً بعد الآخر فى أيدى المسلمين ، حتى انتهوا إلى الوَطِيح والسلاَلِم بمنطقة الكَتيبة وكانا آخر حصنين منيعين لهم . هنالك استولى على نفوسهم اليأس ، فطلبوا الصلح بعد أن حاز النبى أموالهم كلها بالشِّقِّ ونَطَاة والكَتِيبة ، على أن يحقن دماءهم . وقَبل محمد وأبقاهم على أرضهم التى آلت له بحكم الفتح ، على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم .

صلح خيبر وانهيار سلطانها السياسى

عامل محمد يهود خَيْبَر بغير ما عامل به بنى قَيْنُقَاع وبنى النَّضير حين أجلاهم عن أرضهم ؛ لأنه أمِن بسقوط خيبر بأس اليهود ، وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبداً . ثم إنَّ ما كان بخيبر من الحدائق والمزارع

(١) تحرب : تغضب . يقال : حربه إذا أغضبه .

والنخيل كان يحتاج إلى الأيدى العاملة الكثيرة لاستغلاله وحسن القيام على زراعته. ولئن كان أنصار المدينة أهل زراعة ، لقد كانت أرضهم بها فى حاجة إلى أذرُعهم كما أن النبىّ كان فى حاجة إلى جيوشه للحرب ، فهو لا يرضى أن يتركها للزرع . وكذلك ظلّ يهود خيبر يعملون بعد أن انهار سلطانهم السياسى انهياراً جنى على نشاطهم ؛ حتى لقد أسرعت خيبر من ناحية الزراعة نفسها إلى البوار والخراب ، مع ما كان من حسن معاملة النبى أهلها ، ومن عدل عبد الله بن رَوَاحة رسوله إليهم كل عام بينهم فى القسمة . وكان من إحسان النبىّ معاملة يهود خيبر أنه كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوها عِدَّة صحائف من التوراة ، فطلب اليهود ردها فأمر النبىّ بتسليمها لهم ، ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورِشَلِيمَ وأحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، ولا هو صنع صنيع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأنْدَلُس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة .

يهود فدك

ولمَّا طلب يهود خيبر الصلح ، أثناء محاصرة المسلمين إيَّاهم فى حصنى الوطيح والسّلاَلم ، بعث النبىُّ إلى أهل فَدَك ليُسلِّموا برسالته أو يُسلِّموا أموالهم . ووقع فى نفوس أهل فدك الرعب بعد الذى علموا من أمر خيبر ، فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال . فكانت خيبر للمسلمين لأنهم قاتلوا لاستخلاصها ، وكانت فَدَك خالصة لمحمد لأن المسلمين لم يُجْلَبوا عليها بخيل ولا رِكاب .

إذعان وادى القرى

وتجهَّز الرسول بعد ذلك كله للعود إلى المدينة عن طريق وادى القُرَى ؛ فتجهَّز يهودها لقتال المسلمين ، وقاتلوا . لكنهم اضطُرُّوا إلى الإذعان والصلح كما صنعت خيبر . أمَّا يهود تَيْماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال . وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبىّ ، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى شبه الجزيرة ، وأصبح محمد بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام ، كما صار من قبل ذلك بمأمن من ناحية الجنوب بعد صلح الحديبية . وبانهيار سلطان اليهود خفَّت بغضاء المسلمين، والأنصار منهم خاصة ، لهم ، وتَغاضَوْا عن رجوع بعضهم إلى يثرب ، ووقف النبىّ مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبىّ وعزّى ابنه ؛

وأوصى مُعاذ بن جبل بألا يفتن اليهود عن يهوديتهم ؛ ولم يفرض الجزية على يهود البَحْرَيْن وإن ظلوا متمسكين بدين آبائهم ؛ وصالح بنى غازية وبنى عريض على أن لهم الذمّة وعليهم الجزية . وعلى الجملة دان اليهود لسلطان المسلمين ، وتضعضع فى بلاد العرب مركزهم حتى اضطروا إلى مهاجرة تلك البلاد وكانوا من قبلُ بها أعزّة ، وحتى تمَّ جلاؤهم فى حياة الرسول على قولٍ ، وبعد وفاته على قول آخر .

إذعان اليهود لسلطان المسلمين

على أن إذعان أهل خيبر وسائر اليهود لمصيرهم فى شبه الجزيرة ، لم يقع مرّة واحدة بعد هزيمتهم ، بل لقد كانت نفوسهم فى أثر الهزيمة ملأى بالغلّ والغضب أخبث الغضب . أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشْكَم إلى محمد شاة – بعد أن اطمأن وبعد أن وقع الصلح بينه وبين أهل خيبر – فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها ، وتناول عليه السلام فلاك منها مُضغة فلم يُسِغْها ، وكان بِشْر بن البَرَاء معه قد تناول منها مثل ما تناول . فأمَّا بشْر فأساغها وازدردها . وأما الرسول فلفظها وهو يقول : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم . ثم دعا بزينب فاعترفت وقالت : لقد بلغتَ من قومى ما لم يَخفَ عليك فقلت : إن كان مَلِكًا استرحتُ منه ، وإن كان نبيًّا فسيُخْبَر . ومات بشر من أكلته هذه .

وقد اختلف الرواة ، فذكر أكثرهم أن النبى عفا عن زينب وقدّر لها عذرها بعد الذى أصاب أباها وزوجها . وذكر بعضهم أنها قتلت فى بشر الذى مات مسمومًا .

وقد تركت فعلة زينب فى نفوس المسلمين أعمق الأثر ، وجعلتهم فى أعقاب خيبر لا يثقون باليهود ، بل يخشون غدرهم أفراداً بعد أن قضى على جماعتهم القضاء الأخير . كانت صَفِيَّة ابنةُ حيىّ بن أخطب النَّضِيرية من بين السبايا اللائى أخذ المسلمون من حصون خيبر ، وكانت زوجًا لكنانة بن الربيع ، وكان عند كنانة مما يعرف المسلمون كنز بنى النضير . فسأله النبىّ عنه فأقسم لا يعرف مكانه . فقال له محمد : إن وجدناه عندك أأقتلك ؟ قال نعم . وكان أحدهم قد رأى كنانة يطوف بخربة وذكر أمره للنبى ، فأمر بالخربة فحُفرت فأخرج

منها بعض الكنز ، فقُتل فى إنكاره . فلما خَلصت صفيَّة إلى المسلمين وصارت بين الأسرى ، قيل للنبىّ : « صفية سيّدة بنى قُرَيظة والنَّضير لا تصلح إلا لك » ، فأعتقها وتزوجها مقتفياً بذلك أثر الفاتحين العظماء الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التى يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم . وقد خشي أبو أيوب خالد الأنصارىّ أن تتحرك فى نفسها الضغينة على الرسول الذى قتل أباها وزوجها وقومها ؛ لذلك بات حول الخيمة التى أعرس فيها محمد بصفيَّة فى طريق عودته من خيبر متوشحاً سيفه . فلما أصبح الرسول ورآه سأله : مالَكَ ؟ قال : خِفتُ عليك من هذه المرأة وقد قتلتَ أباها وزوجها وقومها وقد كانت حديثة عهد بكفر . على أن صفيَّة أقامت على الوفاء لمحمد حتى قبضه الله إليه . وقد اجتمع نساؤه حوله فى مرضه الأخير ؛ فقالت صفيَّة : أما والله يا نبىَّ الله لوَدِدتُ أن الذى بك بى . فتغامز بها أزواج النبى . فقال لهن : مَضْمِضْن . قلن : من أىّ شىء يا نبىّ الله ؟ قال : من تغامزكن بصاحبتكن ، والله إنها لصادقة . وبقيت صفية بعد النبىّ حتى خلافة معاوية ، وفيها توفيت ودُفنت بالبقيع .

زواج محمد صفية ابنة حيي بن أخطب

ماذا فعل الله بالرسل الذين أوفدهم محمد إلى هِرقل وكسرى والنجاشى وغيرهم من الملوك المحيطين ببلاد العرب ؟ ! هل سافروا قبل غزوة خيبر ، أو هم حضروها حتى تمّ النصر للمسلمين فيها ثم سافروا من بعدها كلٌّ إلى ناحيته ؟ يختلف المؤرخون فى ذلك اختلافاً كبيراً يصعب معه القطع فى الأمر بقول : وأكبر ظننا أنهم لم يسافروا جميعاً فى وقت واحد ، وأن منهم من سافر قبل خيبر ومنهم من سافر بعدها . فقد جاء فى غير رواية أن دِحْيَةَ بن خليفة الكلبىَّ حضر خيبر وهو مع ذلك الذى ذهب برسالة هِرَقْل . سافر إليه وكان هِرقل يومئذ عائداً يحفّ به النصر بعد أن تغلَّب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذى أخذ من بيت المقدس ، وآن له أن يتمَّ نذره وأن يحج إلى بيت المقدس ماشياً ليردّ الصليب الأعظم إلى مكانه ، وكان قد بلغ من سياحته مدينة حِمْص حين حُمِل الخطاب إليه . هل حمله إليه جماعة من رجاله بعد أن أسلم دِحْية الخطاب إلى عامله على بُصْرَى ، أو أنه اطَّلع عليه

رسول النبى إلى هرقل

بعد أن أدخل جماعة من البدو ودِحْية على رأسهم يقدّم إليه الكتاب بنفسه ؟ هذا ما تضطرب الرواية كذلك حوله . وتلى الخطاب عليه وتُرْجِم له ، فلم يغضب ولم تَثُرْ ثائرته ، ولم يفكر فى إرسال جيش يغزو بلادِ العرب ، بل ردّ على الرسالة ردًّا حسنًا جعل بعض المؤرخين يزعمون خطأً أنه أسلم .

جواب هرقل

وفى الوقت نفسه بعث الحارث الغسَّانىّ إلى هِرَقلْ يُخبره أن رسولاً جاءه من محمد بكتاب ، رأى هرقل شبهه بالكتاب الذى أرسل إليه يدعوه إلى الإسلام ويستأذن الحارثُ فى أن يقوم على رأس جيش لمعاقبة هذا المدَّعى النبوَّة . لكن هرقل رأى الخير فى أن يكون الحارث ببيت المقدِس حين زيارته إيَّاه ليزيد فى جلال الحفلات بردّ الصليب إليه ، ولم يعبأ بهذا الداعى إلى دين جديد ، ولم يَدُرْ بِخَلَده أنه لن تمضى سنوات قليلة حتى يكون بيت المقدس وتكون الشام فى ظل الراية الإسلامية ، وأن العاصمة الإسلامية ستنتقل إلى دمشق ، وأن النضال بين دول الإسلام والإمبراطورية الرومية لن تهدأ ثائرته حتى يستولى الأتراك على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ ، وحتى يحيلوا كنيستها الكبرى مسجداً يكتب فيه اسم هذا النبىّ الذى حاول هرقل أن يظهره مظهر من لا يحفل به أو يعنى بأمره ، وأن تظل هذه الكنيسة مسجداً عدّة قرون حتى يحيلها المسلمون الأتراك متحفًا للفن البزنطى .

كسرى وكتاب النبى

أمَّا كِسْرَى عاهل الفرس فإنه ما لبث حين تلى عليه كتاب محمد يدعوه إلى الإسلام أن استشاط غضباً وشق الكتاب ، وكتب إلى بازان عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذى بالحجاز . ولعله كان يحسب فى هذا ما يخفِّف من آثار هزائمه أمام هرقل . فلمّا بلغت النبىَّ مقالة كسْرى وما فُعل بكتابه قال : مزَّق الله ملكه . وأوفد بازان رسله برسالة إلى محمد . وفى هذه الأثناء كان كسرى قد خلفَه شِيرَوَيْه ، وكان النبىّ قد عرف ذلك فأخبر رسل بازان به ، وطلب إليهم أن يكونوا رسله إلى بازان يدعونه إلى الإسلام . وكان أهل اليمن قد عرفوا ما حلَّ بفارس من هزائم وقد شعروا بانحلال سلطانها عنهم ، وقد اتَّصلت بهم انتصارات محمد على قريش وقضاؤه على سلطة اليهود . فلما رجع رسل بازان إليه وأبلغوه رسالة النبىّ ، كان سعيداً بأن يُسلم وأن يبقى

عامل محمد على اليمن . وماذا ترى يطلب محمد إليه وما تزال مكة بينه وبينه ؟ إذاً فله الغُنْم بعد أن تقلَّص ظلٌّ فارس فى أن يحتمى بالقوَّة الناشئة الجديدة فى بلاد العرب من غير أن تطلب إليه هذه القوَّة شيئًا . ولعلَّ بازان لم يقدّر يومئذ أن انضمامه إلى محمد كان نقطة ارتكاز قوية للإسلام فى جنوب شبه الجزيرة ، كما دلَّت الأحوال عليه بعد عامين اثنين .

رد المقوقس

وكان ردّ المقوقس عظيم القِبْط فى مصر غير ردّ كسرى ، بل كان أجمل من ردّ هرقل . فقد بعث إلى محمد يخبره أنه يعتقد أن نبيًّا سيظهر ، ولكنه سيظهر فى الشام ، وأنه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام ، وأنه بعث معه بهديَّة : جاريتين وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض خيرات مصر . أمَّا الجاريتان فمَارِية التى اصطفاها النبى لنفسه والتى ولدت له إبراهيم من بعدُ ، وسِيرين التى أهديت إلى حسَّان بن ثابت . وأمَّا البغلة فأسماها النبىّ دُلْدَل ، وكانت فريدة ببياضها بين البغال التى رأتها بلاد العرب . وأمَّا الحمار فأسمى عُفَيْراً أو يعفوراً . وقبل محمد هذه الهدية ، وذكر أن المقوقس لم يُسلم خشية أن يسلبه الروم ملك مصر ، وأنه لولا ذلك لآمن ولكان من حظِّه الهدى .

رد النجاشى

وكان طبيعيًّا ، بعد الذى عرفنا من صِلات نجاشى الحبشة بالمسلمين ، أن يكون ردُّه جميلا ، حتى لقد ورد فى بعض الروايات أنه أسلم وإن أثارت طائفة من المستشرقين الشك حول إسلامه هذا . على أن الرسول بعث له غير كتاب دعوته إلى الإسلام بكتاب آخر يطلب إليه ردّ المسلمين الذين أقاموا بالحبشة إلى المدينة . وقد جهَّز لهم النجاشى سفينتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب ومعهم أمُّ حَبِيبَة رَمْلة بنت أبى سُفْيان بعد أن مات زوجها عبد الله بن جحش الذى جاء إلى الحبشة مسلماً ثم تنصّر وبقى على نصرانيته حتى مات . وقد أصبحت أمُّ حبيبة بعد عودها من الحبشة من أزواج النبى ومن أمهات المؤمنين . ذكر بعض المؤرخين أن النبى تزوَّجها ليرتبط مع أبى سفيان برابطة النسب توكيداً لعهد الحُدَيْبية . ورأى آخرون فى زواج رملة من محمد ، وأبوسفيان على وثنيته ، ما تألَّم له نفسه ويَغصُّ به حَلْقه .

وأمَّا أمراء العرب فقد ردَّ أمير اليمن وعُمَان على رسالة النبيّ ردًّا فاحشًا ورد أمير البحرين ردًّا حسنًا وأسلم . وردَّ أمير اليمامة مظهراً استعداده للإسلام إذا هو نُصب حاكماً ، فلعنه النبي لمطامعه . ويذكرون أنه لم يلبث إلا عاماً بعد ذلك ثم مات .

لماذا كانت ردود أكثر الملوك رقيقة ؟

يستوقف القارئ ما فى إجابات أكثر هؤلاء الملوك والأمراء من رفق ومن حسن رأى ، وأنه لم يقْتَل أحد من رسل محمد ولم يسجن ، بل عادوا إليه كلّهم بما حملوا من رسالات فى أكثرها رقة وعطف ، وفى بعضها غلظة وشدَّة . فكيف تَلَقى أولئك الملوك رسالة الدين الجديد من غير أن يتألبوا على صاحب الدعوة ، ومن غير أن يتضافروا على سحقه ؟ ذلك أن عالم يومئذ كان كعالمنا الحاضر ، قد طغت فيه المادَّة على الروح، وأصبح فيه التَّرفُ غاية الحياة ، وأصبحت الأمم تقتل حُبًّا فى الظفر ، وإرضاء لمطامع ملوكها وسادتها ، وشفاء لغرور أنفسهم ، أو طمعاً فى مزيد من الترف تبلغه وتستمتع به . ومثل هذا العالم تهوى فيه العقيدة إلى شعائر تقام فى العلن ولا تؤمن النفوس التى تؤديها بشىء مما وراءها ، ولا تُعنى إلا بأن تكون فى حكم صاحب السلطان الذى يطعمها ويكسوها ويكفل لها رخاء العيش وعِرَضَ الجاه وكثرة المال . ولا تستمسك بهذه الشعائر إلا بمقدار ما تدرُّ عليها من خير مادى . فإذا فاتها هذا الخير ، خارت عزيمتها ، وتضعضعت همَّتها ، ووهنت فيها قوَّة المقاومة . ولذلك لم يلبث الناس حين سمعوا دعوة جديدة للإيمان فيها بساطة وفيها قوَّة ، وفيها مساواة أمام ربٍّ واحد ، إيَّاه نعبد وإياه نستعين ، هو وحده الذى يملك ضرَّ النفوس ونفعها ، شعاعٌ من رضاه يبدّد غضب ملوك الأرض جميعاً ، ومخافةُ غضبه تزعزع النفس وإن أغرقها الملوك كلهم فى النعمة والرضا ، والرجاء فى مغفرته متَّصل لمن تاب وآمن وعمل صالحًا – لم يلبث الناس حين سمعوا هذه الدعوة ، ورأوا صاحبها يقوَى بها على الاضطهاد ، وعلى الظلم ، وعلى التعذيب ، وعلى كل ما فى الحياة الماديَّة من قوى ، ويمتدُّ بها سلطانه ، وهو اليتيم الفقير المحروم ، إلى ما لم يحلم به أحد من قبله فى بلده ولا بلاد العرب كلها ، حتى اشرأبت الأعناق ، وأرهفت الآذان ،

وشعرت النفوس بظمئها ، وتطلَّعت الأرواح لمورد رَيِّها ، لولا بقية من الخوف والشك تقوم بينها وبين الحقيقة ، حجاباً . لذلك رد من رد من الملوك فى رفق ورقة . وبذلك ازداد المسلمون إيمانًا على إيمانهم وقوَّة فى يقينهم .

عود المسلمين من الحبشة

عاد محمد من خيبر وعاد جعفر والمسلمون معه من الحبشة ، وعاد رسل محمد من حيث أوفدهم ، والتَقَوْا جميعاً بالمدينة كرَّة أخرى . والتقوا ليقضوا بقيَّة عامهم هذا مشوقين ليوم فى العام القابل يحجُّون فيه إلى مكة يدخلونها آمنين مُحَلِّقين رءوسَهُم ومُقَصِّرين لا يخافون . وقد بلغ من غبطة محمد بلُقيا جعفر أن ذكر أنه لا يدرى بأىّ هو أشد اغتباطًا : بالنصر على خيبر أو بلُقْيا جعفر . وفى هذه الفترة تجرى القصة التى تروى أن اليهود سحروا محمداً بفعل لبيد ، حتى كان يحسب أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله . وهى قصة اضطربت فيها الروايات اضطراباً شديداً يؤيد رأى القائل بأنها محض اختراع لاشىء فيها من الحق .

انتظار عمرة القضاء

وأقام المسلمون آمنين بالمدينة ، مستمتعين بالعيش ، ناعمين بفضل من الله ورضوان ، لا يفكرون من أمر الغزو فى أكثر من إرسال بعض السَّرَايا لمعاقبة من يفكر فى الاعتداء على حقهم أو سلب شىء من مالهم ومتاعهم . فلما استدار العام ، وكانوا فى ذى القعدة خرج النبىّ فى ألفين من رجاله لعمرة القضاء نفاذاً لعهد الحديبية ، وإطفاء لظمأ هذه النفوس الشديدة الظمأ لأداء فرائض البيت العتيق .

الفصل الثاني والعشرون

عمرة القضاء

ركب المسلمين إلى مكة – جلاء قريش عن مكة – نزول المسلمين بها – طواف محمد وهرولته – زواج محمد من ميمونة – رغبته إلى قريش أن يعرس بمكة ورفضهم ذلك – إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة .

خروج المسلمين إلى مكة

استدار العام بعد الحديبية ، وأصبح محمد وأصحابه فى حلٍّ بعهدهم مع قريش من الدخول إلى مكة ومن زيارة الكعبة . لذلك نادى الرسول فى الناس كى يتجهزوا للخروج إلى عُمْرة القضاء بعد أن مُنعوا من قبلُ منها . ومن اليسير عليك أن تقدّر كيف أقبل المسلمون يُلبُّون هذا النداء ، ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات ، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة وبهم إلى زيارة البيت الحرام هوى . لذلك زاد الركب إلى ألفين بعد أن كان ألفًا وأربعمائة فى العام الذى سبقه ، وتنفيذاً لعهد الحديبية لم يحمل أحدٌ من هؤلاء الرجال سلاحًا إلا سيفًا فى قِرابه . ولكن محمداً كان يخشى الغدر دائمًا . فجهَّز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مَسْلَمة ، وبعثهم طليعةً له على ألاّ يتخطُّوا حرم مكة ، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مَرَّ الظَّهران إلى واد قريب منها . وساق المسلمون الهَدْى أمامهم ستين ناقة وقد تقدَّمهم محمد على ناقته القصواء ، وساروا من المدينة يحدوهم شغف أىُّ شغف بالدخول إلى أمّ القرى والطواف ببيت الله ، ويرقب كل واحد من المهاجرين أن يرى البقعة التى وُلد فيها ، والبيت الذى شبَّ عن الطوق بين جدرانه ، والأصحاب الذين غادر ، وأن يتنسم عَرْف هذا الوطن المقدَّس وأن يلمِس فى إجلال وإعزاز ثرى القرية المباركة الميمونة التى أنجبت الرسول والتى نزل فيها أوّل ما نزل من الوحى . وتستطيع أن تتصوّر هذا الجيش من المسلمين وعِدتهم ألفان يغِذُّون سيرهم تطِفر[1] أمامهم قلوبهم وترقص جَذَلاً أفئدتهم ؛ فإذا أناخوا

(١) الطفر : الوثوب .

جعل كلٌّ منهم يقصُّ على أصحابه آخر عهده بمكة أو أيّام طفولته بها ، أو يحدّث عن أصدقائه فيها ، أو عن المال الذى ضحى به فى سبيل الله عند هجرته منها . تستطيع أن تتصور هذه المظاهرة الفذة من نوعها ، يُزْجِى سيرها الإيمانُ ، ويجذِب أصحابها إليه بيت جعله الله مَثابةً للناس وأَمْنًا . إنك إذاً لترى بعين بصيرتك أىّ طرب كان يستخفّ هؤلاء الذين حيل بينهم وبين هذا الفرض المقدّس إذ يسيرون إليه ليدخلوا مكة آمنين ، ومحلِّقين رءوسهم ومقصّرين ، لا يخافون .

إجلاء قريش عن مكة

وعرفت قريش بمَقْدَم محمد وأصحابه ، فجلَت عن مكة ، نزولاً على صلح الحديبية ، وصَعِدت فى التلال المجاورة لها حيث ضربت الخيام ، وحيث أوى منهم من أوى إلى فَىْء الشجر . ومن فوق أبى قُبَيْس وحِرَاء ، ومن فوق كل مرتفع مطل على مكة ، أطلَّ هؤلاء المكّيون ينظرون بعيون كلها تطلع إلى الطريد وأصحابه داخلين بلد البيت الحرام لا يصدُّهم عنه صادٌّ ، ولا يحول بينهم وبينه حائل . وانحدر المسلمون من شمال مكة وقد أخذ عبد الله بن رَوَاحةَ بخِطام القَصْواءَ ، وأحاط كبار الصحابة بالنبىّ عليه السلام . وسارت الصفوف من خلفهم ما بين راجل ومقتعد غاربَ بعيره . فلما انكشف البيت الحرام أمامهم ، انفرجت شفاه المسلمين جميعاً عن صوت واحد منادين : لبَّيْك لبَّيْك ! متوجهين بالقلوب والأرواح إلى وجه الله ذى الجلال ، محيطين فى هالة من رجاء وإكبار بهذا الرسول الذى بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والحق أنه كان مشهداً فذًّا من مشاهد التاريخ التى اهتزت لها أرجاؤه ، والتى جذبت إلى الإسلام قلوب أشَد المشركين صلابة فى وثنيته وفى عناده . وعلى هذا المشهد الفذّ كانت تقع عيون أهل مكة . وهذا الصوت المنبعث من القلوب يُدَوّى : لَبَّيْك ! لَبَّيْك ، كان يخترق آذانهم فيهزُّ قلوبهم هزًّا . ولما بلغ الرسول المسجد اضطبع [1] بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : اللهم ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة . ثم استلم الركن

المسلمون أمام البيت الحرام

الطواف بالكعبة

(١) الاضطباع : أن يأخذ الإنسان الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ويلقى طرفيه على كتفه اليسرى من جهتى صدره وظهره .

عند الحجر الأسود وهَرْوَل وهَرْوَل أصحابه معه ، فلمَّا استلم الركن اليمانيّ مشى حتى استلم الحجر الأسود مُهَرْولاً من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرها . والألفان من المسلمين يهرولون كلما هرول ، ويمشون كلما مشى . وقريش تنظر من فوق أبي قُبَيْس ، فيأخذها لهذا المنظر البَهْر[1] من كل مكان ، وتشهد أنها ، وكانت تحدّث عن محمد وأصحابه أنهم فى عُسر وشدّة وجهد ، قد رأت ما يمحو من أفئدتها كل وهم بِوَهْنِ محمد وأصحابه . وفى حماسة هذه الساعة أراد عبد الله بن رَوَاحة أن يقذف فى وجه قريش بصيحة حرب ؛ فصدّه عمر ، وقال له الرسول : « مَهْلاً يا بن رَوَاحة وقل لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده وأعزّ جنده . وخذَل الأحزاب وحده » أو كما قال ؛ فنادى بها ابن رواحة بأعلى صوته ، وردّدها المسلمون من بعده ، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادى ، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تسَنَّموا الجبال حوله .

ثلاثة أيام بمكة

ولما أتمَّ المسلمون الطواف بالكعبة انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فركب بينهما سبعًا ، كما كان يفعل العرب من قبل ، ثم نحر الهَدْىَ عند المروة وحلق رأسه وأتمَّ بذلك فرائض العُمْرة . ولما كان الغد دخل محمد إلى الكعبة وبقى بها حتى صلاة الظهر . ولقد كانت الأصنام ما تزال تعمرها . مع ذلك علا بِلالٌ سقفها وأذَّن فى الناس لصلاة الظهر عندها . وصلى النبى يومئذ بألفين من المسلمين صلاة الإسلام عند البيت الذى كان يُصَدّ من سبع سنين عن الصلاة عنده . وأقام المسلمون بمكة ثلاثة الأيام المفروضة فى عهد الْحُدَيْبية ، وقد خلت أمُّ القُرَى من أهلها . فجلس المسلمون خلالها لا يصيبهم فيها أذًى ولا يعترضهم أحد بسوء . والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويُزِيرون أصحابهم من الأنصار إيَّاها ، وكأنما هم جميعًا أصحاب هذا البلد الأمين ؛ وكلهم يسير سيرة الإسلام يُؤَدِّى إلى الله كل يوم صلواته فيقتل فى نفسه غرورها، ويُعِين قويهم ضعيفَهم، ،وَيَبَرُّ غنيهم فقيرهم ؛ والنبى يتنقل بينهم أبًا محبًّا محبوبًا يبسم لهذا ، ويمزح مع ذاك ، ثم لا يقول إلاّ

(١) البهر : العجب .

حقًّا . وقريش وسائر أهل مكة يُطِلون من منازلهم فوق السفوح على هذا المشهد الفذّ فى التاريخ ، يرون رجالا هذه أخلاقهم ، لا يشربون خمراً ، ولا يأتون معصية ، ولا يُغريهم الطعام ولا الشراب ؛ ولا تفتنهم فى الحياة فتنة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . أىّ أثر يترك هذا المنظر الذى سما بالإنسان إلى ما فوق أسمى مراتب الإنسان ؟ ! من اليسير عليك أن تقدّره حين تعلم أن محمداً عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين .

تزوج محمد بميمونة

كانت أمّ الفضل ، زوج العبَّاس بن عبد المطلب عم النبىّ ، موكَّلة من أختها ميمونة فى تزويجها ، وكانت ميمونة فى السادسة والعشرين من عمرها ، وكانت خالة خالد بن الوليد . وأقامت أمّ الفضل زوجها العبَّاس مُقامها فى تزويج أختها . ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين فى عُمْرة القضاء هوتْ إلى الإسلام نفسها ، فخاطب العبَّاس ابن أخيه فى أمرها وعرض عليه أن يتزوَّجها . وقبل محمد وأصدقها أربعمائة درهم . وكانت ثلاثة الأيام التى نص عهد الحُدَيْبية عليها قد انقضت ، لكن محمداً أراد أن يتخذ من زواجه ميمونة وسيلة لزيادة فى التفاهم بينه وبين قريش . فلما جاءه سُهَيْل بن عمرو وحُوَيْطِب بن عبد العزّى من قِبل قريش يقولان لمحمد : « إنه انقضى أجلك فاخرج عنا » ، قال لهما : « ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه » قال محمد ذلك وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء فى نفوس أهل مكة من أثر ، كيف سحرتهم وسكَّنت من خصومتهم ، ويعلم أنهم إن قبلوا دعوته إلى الطعام فتحدّث إليهم وتحدثوا إليه فتحت مكة أمامه أبوابها طائعةً . وهذا ما خشى سُهَيْل وحُوَيْطِب ؛ لذلك كان جوابهما : « لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنَّا » . ولم يتردَّد محمد فى النزول على رأيهما تنفيذاً لعهده مع قومهما ، فأذّن فى المسلمين بالرحيل ، وخرج والمسلمون من ورائه . وخلَّف أبا رافع مولاه على ميمونة حتى أتاه بها بسَرِفَ [1] فبنى بها . وميمونة أمّ المؤمنين آخر أزواج النبىّ ، عُمِّرت بعده

خروج المسلمين إلى المدينة

---

(١) سرف : موضع قريب من مكة ، اختلف فى تقدير ما بينهما بين ستة أميال واثنى عشر ميلا

خمسين سنة ، ثم طلبت أن تُدْفَن حيث بَنى بها رسول الله . وحمل محمد أختى ميمونة : سَلْمَى أرملة عمه حمزة ، وعمارة البكْر التى لم تتزوج .

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها ، ومحمد لا يشكّ فى عظم ما تركت عُمْرة القضاء من أثر فى نفوس قريش وفى نفوس أهل مكة جميعاً ، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة .

إسلام خالد ابن الوليد

وصدّقت الأيام تقديره ؛ فإنه ما كاد يتحمَّل راجعاً إلى المدينة حتى وقف خالد بن الوليد ، فارس قريش المُعْلَم وبطل أحُد يقول فى جمع منها : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأنّ كلامه من كلام رب العالمين . فحقّ على كل ذى لُبٍّ أن يتبعه » . وقد فزع عِكْرِمة بن أبى جهل لِما سمع ، فرد قائلاً : لقد صَبُؤْتَ يا خالد . ودار بينهما الحديث الآتى :

خالد — لم أصبؤ ولكنى أسلمت .

عكرمة — والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت .

خالد — ولم ؟

عكرمة — لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جُرِح ، وقتلَ عمك وابن عمك ببدر . فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلَّم بكلامك يا خالد . أمَا رأيت قريشاً يريدون قتاله ؟ !

خالد — هذا أمر الجاهليَّة وحميَّتها . لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق .

وبعث خالد إلى النبى بأفراسٍ وبعث إليه بإقراره بالإسلام وعِرفانه . وبلغ إسلام خالد أبا سُفيان ، فبعث فى طلبه وسأله : أحقٌّ ما بلغه عنه ؟ ولمَّا أجابه خالد أنه حقٌّ ، غضب وقال : « واللاَّت والعُزَّى لو أعلم أن الذى تقول حقٌّ لبدأت بك قبل محمد » . قال خالد : « فوالله إنه لحقّ على رغم من رَغِم » . فاندفع أبو سفيان فى غضبه نحوه ؛ فحجزه عنه عكرمة وكان حاضراً وقال : « مهلاً يا أبا سفيان فوالله لقد خِفْتُ للذى خِفْتَ أن أقول مثل

ما قال خالد وأكون على دينه . أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه وقريش كلها تبايعت عليه ! والله لقد خفتُ ألاّ يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم » . وخرج خالد من مكة إلى المدينة ، فانضم إلى صفوف المسلمين .

إسلام عمرو ابن العاص وعثمان ابن طلحة

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة . وقد أسلم بإسلام هؤلاء كثير من أهل مكة واتّبعوا دين الحق . وبذلك قويت شوكة الإسلام ، وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد أمراً لا محلّ لريبة فيه .

الفصل الثالث والعشرون

غزوة مؤتة

اتجاه نظر محمد إلى الشام – توجيهه ثلاثة آلاف لغزوها – لواؤهم لزيد بن حارثة ، فإن أصيب فلجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحة – الروم فى مائة ألف أو مائتى ألف – التقاء الجيشين بمؤتة – موت الثلاثة أصحاب اللواء على التعاقب – الراية لخالد بن الوليد – مداورته وانسحابه .

مناوشات صغيرة

لم يكن محمد يستعجل فتح مكة وهو يعلم أن الزمن فى صفّه ، كما أن عهد الحُدَيْبية لم يكن قد مضى عليه غير عام واحد ، ولم يكن قد جدّ ما يوجب نقضه . ومحمد رجلُ وفاء لا ينقض كلمةً قال ولا عهداً عقد . لذلك ذهب إلى المدينة فأقام بضعة أشهر لم تقع خلالهَا غير مناوشات صغيرة ؛ كإرسال خمسين رجلا إلى بنى سُلَيْم ليدعوهم إلى الإسلام وغَدْرِ بنى سُلَيْم بهم وقتلهم إيَّاهم بغياً بغير حق ، حتى لم يَنْجُ رئيسهم إلا بمحض المصادفة ؛ وكغزو جماعة من بنى اللَّيْث والظفر بهم والغنم منهم ؛ وكمعاقبة بنى مُرَّةَ على ما غدروا من قبلُ ؛ وكإرسال خمسة عشر رجلا إلى ذات الطَّلْح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام دعوةً كان جزاؤهم عنها القتل لم ينج منه إلا رئيسهم . وقد كانت ناحية الشام وهذه الجهات الشمالية مُتَّجَهَ نظر النبىّ منذ أمن الجنوب بعهده مع قريش وبإذعان عامل اليمن لدعوته . ذلك أنه كان يتوسَّم طريق انتشار دعوته إلى الإسلام أوّل مغادرتها حدود شبه الجزيرة ، فيرى الشام والبلاد المجاورة هى المنفذ الأوّل لهذه الدعوة . لذلك لم تمض أشهر على مقامه بالمدينة بعد عوده من عمرة القضاء حتى وجَّه ثلاثة آلاف هم الذين قاتلوا فى مُؤْتَة مائة ألف فى رواية ، ومائتى ألف فى رواية أخرى .

غزوة مؤتة

ويختلف الرواة فى سبب غزوة مُؤْتة هذه ؛ فيذهب بعضهم إلى أن قتل أصحابه فى ذات الطَّلح كان سبب الغزو لتأديب هؤلاء الغادرين ، ويذهب آخرون إلى أن النبىّ أرسل رسولا من رسله إلى عامل هِرَقْل على بُصْرَى وأن

أعرابيًّا من غُسَّان قتل هذا الرسول باسم هرقل ، فبعث محمد بالذين قاتلوا فى مؤتة لتأديب هذا العامل ومن ينصره .

وكما كان عهد الحُدَيْبِيَة مقدمة عمرة القضاء فَفَتْحِ مكة ، كانت غزوة مؤتة مقدمة تَبُوك وما كان بعد وفاة النبىّ من فتح الشام . وسواء أكان السبب الذى أدّى إلى غزوة مؤتة هو قتل رسول النبىّ إلى عامل بُصْرَى أم قتل رجاله الخمسة عشر فى ذات الطَّلْح ، فإنه عليه السلام دعا إليه ، فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سنة ٦٢٩ م) ، ثلاثة آلاف من خيرة رجاله ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رَوَاحة على الناس » . وخرج هذا الجيش وخرج معه خالد بن الوليد متطوّعًا ليدلّ بحسن بلائه فى الحرب على حسن إسلامه . وودع الناس أمراء الجيش والجيش ، وسار محمد معهم حتى ظاهر المدينة ، يوصيهم ألاّ يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ، ولا يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار . ودعا عليه السلام وَدعا المسلمون لهذا الجيش قَائلين : صَحِبَكم الله ودفع عنكم وردّكم إلينا سالمين ! وكان أمراء الجيش كلهم يفكرون فى أخذ القوم من أهل الشام على غِرَّة منهم ، على عادة النبى فى سابق غزواته ، فيسرع إليهم النصر ويعودون بالغنيمة . وسار القوم حتى بلغوا معان من أرض الشام وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم . لكن أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم . فقام شُرَحْبيل عامل هِرَقْل على الشام فجمع جموع القبائل ممن حوله ، وأوفد مَن جعل هرقل يمدّه بجيوش من الإغريق ومن العرب . وتذهب بعض الروايات إلى أن هرقل نفسه تقدم بجيوشه حتى نزل مآبَ من أرض البَلْقاء على رأس مائة ألف من الروم ، كما انضم إليه مائة ألف أخرى من لَخْم وجُذَام والقَيْن وبَهْراء وبَلِىّ . ويقال إن تيودُورَ أخا هرقل هو الذى كان على رأس هذه الجيوش لا هرقل نفسه . وبلغ المسلمين وهم بمَعَان أمرُ هذه الجموع ، فأقاموا بها ليلتين يفكرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذى لا قِبَل لهم به . قال قائل منهم : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدوّنا ؛ فإما يمدّنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

تجهيز الروم لمقاتلتهم

رأى ابن رواحة في مواجهة الروم

وكاد هذا الرأى يسود لولا أن تقدم عبد الله بن رَوَاحة ، وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعراً ، فقال : يا قوم ، والله إن التى تكرهون لَلتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعددَ ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ؛ فانْطَلِقُوا ، فإنما هى إحدى الحُسْنَيَيْنِ : إمَّا ظهور وإمَّا شهادة . وامتدَّتْ عدوى النخوة من الشاعر الشجاع إلى الجيش كله ؛ فقال الناس : فوالله صدَق ابن رواحة ! ومضوا ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها مَشَارِف . فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى قرية مُؤْتَة أن رأوها خيراً من مَشَارِف لتحصُّنهم بها . وفى مُؤْتَة بدأت المعركة حامية الوطيسِ بين مائة أو مائتى ألف من جيوش هرقل وثلاثة آلاف من المسلمين .

استشهاد زيد ابن حارثة

يا لجلال الإيمان ورَوْعة قوَّته ! حمل زيد بن حَارِثة راية النبىّ واندفع بها فى صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفرّ . لكن الموت فى هذا المقام هو الاستشهاد فى سبيل الله ! وليس إلا الاستشهاد دون النصر والظفر مكانًا . وحارب زيد حرب المستميت حتى مزّقته رماح العدوّ فتناول الراية من يده

استشهاد جعفر ابن أبى طالب

جعفر بن أبى طالب ، وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وهو شاب تعدِل وسامته شجاعته . وقاتل جعفر بالراية ، حتى إذا أحاط العدوُّ بفرسه اقتحم عنها فعقرها ، واندفع بنفسه وسط القوم منطلقًا انطلاقة السهم يهوى سيفُه برءوسهم حيثما وقع . وكان اللواء بيمين جعفر فقُطعت ، فأخذه بشماله فقُطِعت ، فاحتضنه بعَضُديه حتى قُتل . يقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين . فلمَّا قُتِل جعفر أخذ ابن رواحة الراية ، ثم تقدم

استشهاد ابن رواحة

بها وهو على فرسه ؛ فجعل يستنزل نفسَه ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمتُ يا نفسُ لَتنْزِلنَّـهْ لَتنزِلـنَّ أو لَتُكْرِهِنَّـهْ
إن أجلَبَ الناسُ وشدُّوا الرَّنَّـة مالى أراكِ تكرهين الجَنَّـةْ

ثم أخذ سيفه فتقدّم فقاتل حتى قُتل .

هؤلاء زيد وجعفر وابن رَوَاحة استُشهدوا ثلاثتهم فى سبيل الله فى موقعة واحدة . لكن النبىّ لمَّا علم بخبرهم كان على زيد وجعفر أكبر أسًى ، وقال :

لقد رُفعوا إلىّ الجنة فيما يرى النائم على سُرُر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير صاحبيه ؛ فسأل : لم هذا ؟ فقيل : مضيا ، وتردّد عبد الله بعض التردد ثم مضى . أترى إلى هذه العِبرة والموعظة الحسنة ! فإنما معناها أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو يخاف الموت فى سبيل الله ؛ بل يجب عليه ، كلما مضى فى أمر يؤمن بأنه لله والوطن ، أن يحمل حياته على كفّه ، وأن يُلقى بها فى وجه من يقف فى سبيله ؛ فإما فاز وظفِر فبلغ ما يؤمن به من حق الله والوطن ، وإمَّا استُشهد فكان المَثل الحىّ لمن بعده والذكر الباقى لروح عظيم عرف أن قيمة الحياة ما يُضَحَّى بالحياة فى سبيله ، وأن الإمساك على الحياة فى مذلة إهدارٌ للحياة ، فما يستحق صاحبها بعد ذلك فى الحياة ذكراً ؛ وأن الرجل يُلقى بيديه إلى التهلكة إذا هو عرّض حياته تعريضاً تذهب معه ضحية غرض وضيع ، وأنه كذلك يُلقى بيديه إلى التهلكة إذا هو أمسك على حياته حين يدعوه داعى الحق جلّ شأنه ليقذف بها فى وجه الباطل ليسحقه ، فيواريها هو بالحجاب ويخاف عليها الموت خوفاً هو شرٌّ من الموت . وإذا كان التردُّد القليل من ابن رواحة مع إقدامه بعد ذلك واستشهاده ، قد جعله فى غير مكانة زيد وجعفر اللذين اقتحما صفوف الموت اقتحاماً وطارا للاستشهاد فرحًا ، فما بالك بالذى ينكُص على عقبيه طمعاً فى جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة ! إنه إذاً للحَشرة الحقيرة وإن عَرُض عند السواد جاهُه ، وإن بَزَّ مالَ قارون ماله . وهل لنفس إنسانية أن تغتبط حقًّا لشىء اغتباطها للتضحية فى جانب ما تؤمن بأنه الحقّ ، حتى تنتهى من ذلك إلى الاستشهاد فى سبيل الحق ، أو إلى تمليك الحق الحياة !

المثل الحى والاستشهاد

قُتل ابن رواحة بعد تردد ثم إقدام ، فأخذ الراية ثابت بن أرْقم أحد بنى العَجْلان ، فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد . فأخذ خالد الراية مع ما رأى من تفرُّق صفوف المسلمين وتضعضع قوتهم المعنوية . وكان خالد قائداً ماهراً ومحرّكًا للجيوش قلَّ نظيره . لذلك أصدر أوامره ، فداور بالمسلمين حتى ضم صفوفهم ، ووقف من محاربة العدو عند مناوشات

مداورة خالد ابن الوليد

امتدّت به حتى أرخى الليل سدوله ، ووضع الجيشان السلاح إلى الصباح . أثناء ذلك أحكم خالد تدبير خُطّته ، فوزّع عدداً غير قليل من رجاله فى خط طويل من مؤخّرة جيشه أحدثوا ، إذا أصبح الناس ، من الجلبة ما أدخل فى رُوع عدوّه أن مدداً جاءه من عند النبى . وإذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل فى اليوم الأوّل وقتلوا منهم خلقًا كثيراً ، وإن لم يستطيعوا أن يثبتوا ، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذى جاء لا يدرى أحد عدّته ! ! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد وسُرُّوا بعدم مهاجمته إيّاهم ، وكانوا أكثر سروراً بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينة ، بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون وإن كان حقًّا كذلك أن عدوّهم لم ينتصر عليهم فيها .

لذلك ما كاد خالد والجيش معه يدنون من المدينة حتى تلقّاهم محمد والمسلمون معه . وطلب محمد فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه . أما الناس فجعلوا يَحْثُون على الجيش التراب ويقولون : يا فُرّار ، فررتم فى سبيل الله ! فيقول رسول الله : ليسوا بالفُرّار ، ولكنهم الكُرّار إن شاء الله . ومع هذه التأسية من محمد للعائدين من مُؤتة فقد ظلّ المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعَوْدَهم ، حتى كان سَلمة بن هِشام لا يحضُر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل مَنْ رآه : يا فرّار فررتم فى سبيل الله . ولولا ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤتة ، ومن فعال خالد بنوع خاص ، لظلّت مؤتة معتبرة بعض ما لطّخ به إخوانهم فى الدين جبينهم من عار الفِرار .

الفرار الكرار

وقد بلغ الألم من نفس محمد منذ علم بقتل زيد وجعفر ، وحزّ الأسى فى نفسه من أجلهما . لمّا أصيب جعفر ذهب محمد إلى منزله ودخل على زوجه أسماء بنت عُمَيس ، وكانت قد عجنت عجينها وغسلت بنيها ودهنتهم ونظفتهم ، فقال لها : ائتينى ببنى جعفر . فلما أتته بهم تشمّمهم وذرفت عيناه الدمع . قالت أسماء فى لهف وقد أدركت ما أصابها : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : نعم أصيبوا هذا اليوم ! وازدادت عيناه بالدمع تهتانًا . فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء إليها . أمّا محمد فخرج إلى أهله فقال : لا تُغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا

بكاء محمد المستشهدين

لهم طعامًا فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم . ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فربَّت على كتفيها وبكى . وأظهر بعضهم دهشة لبكاء الرسول على من استُشهد ؛ فقال ما معناه : إنما هى عبرات الصديق يفقد صديقه .

وفى رواية أن جثَّة جعفر حُملت إلى المدينة ودُفنت بها بعد ثلاثة أيام من وصول خالد والجيش إليها . ومن يومئذ أمر الرسول الناس أن يكفوا عن البكاء ؛ فقد أبدل الله جعفراً من يديه اللتين قُطعتا جناحين طاربهما إلى الجنة .

غزوة ذات السلاسل

أراد محمد بعد أسابيع من عود خالد أن يستردَّ هيبة المسلمين فى شمال شبه الجزيرة ، فبعث عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الشام ؛ ذلك أن أمًّا له كانت من قبائل تلك النواحى ، فكان من اليسير عليه أن يتألفهم . فلما كان على ماء بأرض جُذَام يقال له السلْسل ، خاف فبعث إلى النبىّ عليه السلام يستمِدُّه ، فأمدَّه بأبى عُبَيْدة بن الجرَّاح فى المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر . وخاف محمد أن يختلف عمرو ، وهو حديث عهد بالإسلام ، مع أبى عُبَيْدة من المهاجرين الأولين ؛ فقال لأبى عبيدة حين وجهه : لا تختلفا . وقال عمرو لأبى عبيدة : إنما جئتَ مدداً لى فأنا على قيادة الجيش . وكان أبو عبيدة رجلاً لينًا سهلاً هيِّنًا عليه أمر الدنيا ، فقال لعمرو : لقد قال رسول الله : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتنى أطعتك . وصلى عمرو بالناس ، وتقدّم بالجيش فشتَّت جموع أهل الشام الذين أرادوا محاربته ، وأعاد بذلك هيبة المسلمين فى تلك الناحية .

وفى هذه الأثناء كان محمد يفكر فى مكة ومآلها . لكنه ، كما قدّمنا ، كان وفيًّا بعهد الحُدَيبية ، فأقام ينتظر انقضاء السنتين . وجعل أثناء ذلك يبعث السرايا ليسكن بها ثائرة القبائل التى تحدّثها نفوسها بالثورة . على أنه كان فى غير حاجة إلى كبير عناء من هذه الناحية ؛ فقد بدأت الوفود ترد إليه من مختلف النواحى تُعلن إليه طاعتها وإذعانها . وإنه لكذلك إذ حدث ما كان مقدّمة لفتح مكة ، ولاستقرار الإسلام بها استقراراً أسبغ عليها إلى أبد الدهر أعظم التقديس .

الفصل الرابع والعشرون

فتح مكة

أثر موقعة مؤتة – نقض قريش عهد الحديبية – استعداء خزاعة النبي على قريش – سفارة أبي سفيان إلى النبي وإخفاقها – تجهيز المسلمين عشرة آلاف يسيرون إلى مكة – رجاء محمد أن يفتح أم القرى من غير إراقة الدماء – خروج العباس ومقابلته لأبي سفيان وأخذه إلى النبي بظاهر مكة – دخول المسلمين فاتحين – المكيون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد – عفو محمد عن خصومه جميعاً – تطهير الكعبة من الأصنام – إسلام أهل مكة .

أثر مؤتة واختلافه

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مُؤتة ولواؤهم لخالد بن الوليد . عادوا لا منتصرين ولا منكسرين ولكن راضين من الغنيمة بالإياب . وقد ترك انسحابهم بعد موت زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، أثراً مختلفاً أشدّ الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينة وعند قريش بمكة – أمّا الروم ففرحوا بانسحاب المسلمين وحمدوا ربهم أن لم يطل القتال بهم ، مع أن جيش الروم كان مائة ألف على قول ومائتي ألف على قول آخر ، في حين كانت عِدَّة المسلمين ثلاثة آلاف . وسواء أكان فرح الروم راجعاً إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماتة في الدفاع والقوة في الهجوم حتى لقد تحطَّمت في يده تسعة أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة ، أم كان راجعاً إلى مهارته في توزيع الجيش في اليوم الثاني وإحداث ما حدث من الجلبة حتى ظنّ الروم أن مدداً جاءه من المدينة ، فإن القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى فعال المسلمين بإعجاب أشد الإعجاب . وكان من ذلك أن أحد زعمائهم (فَرْوةَ بن عَمْرو الجُذاميَّ ، وكان قائداً لفرقة من جيش الروم) ما لبث أن أعلن إسلامه ؛ فقُبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة . وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية ، بل كان على استعداد أن يردَّه إلى مركز القيادة الذي كان فيه . لكن فروة أبى وأصرَّ على إبائه وعلى إسلامه فقُتِلَ . وكان من ذلك أيضاً أن ازداد الإسلام انتشاراً بين قبائل نَجْد المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم في ذروته .

انتشار الإسلام في شمال شبه الجزيرة

وزاد في انضمام الناس إلى الدين الجديد اضطراب أحوال الدولة البزنطية اضطراباً جعل أحد عُمّال هِرْقَل ، وقد كلف أن يدفع للجيش رواتبه ، يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في الحرب : « انسحبوا . فالإمبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلا بمشقة . وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه » . فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الإمبراطور وعن جنده ، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نوراً يهديهم إلى صدق الحقيقة السامية التي يبشر الناس بها . لذلك دخل في الإسلام هذه الفترة ألوف من سُلَيْم وعلى رأسهم العباس بن مِرداس ، ومن أشجع وغَطَفان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نُكب اليهود في خَيْبَر ، ومن عَبْس ومن ذُبْيَان ومن فَزَارَةَ . فكانت وقعة مؤتة بذلك سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام ، وفي ازدياد الإسلام عزة وقوة ومَنَعة .

لكن أثرها في نفوس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر ؛ فهم ما لبثوا حين رأوا خالداً والجيش معه عائدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل ، أن صاحوا في وجوههم : « يا فُرَّار ، فررتم في سبيل الله » . ولقد بلغ من خجل بعض رجال الجيش أن لزم بيته ، كيلا يؤذيه صبيان المسلمين وشبَّانهم بتهمة الفرار .

أمَّا أثر مؤتة في نفس قريش فكان أنها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم ، حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزناً . فلتعد الأمور كما كانت قبل عمرة القضاء . ولتعد الأمور كما كانت قبل عهد الحديبية . ولتعد قريشٌ حرباً على المسلمين ومَنْ في عهدهم من غير أن تخشى من محمد قِصاصاً .

نقض قريش عهد الحديبية

وصلح الحديبية كان قد قضى أنه مَنْ أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده فليدخل فيه ، ومَنْ أحبَّ أن يدخل في عهد قريش وعهدهم فليدخل فيه . وكانت خُزَاعةُ قد دخلت في عهد محمد ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش . وكانت بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة سكنت بعد صلح الحُدَيْبِية وانحياز كلّ من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين . فلمَّا كانت مؤتة وخُيل إلى

قريش أن المسلمين قُضى عليهم ، خُيل إلى بنى الدّيل من بنى بكر بن عبد مَنَاةَ أن الفرصة سنحت لهم ليصيبوا من خزاعة بثاراتهم القديمة ، وحرَّضهم على ذلك جماعة من قريش منهم عِكْرِمة بن أبى جهل وبعض سادات قريش وأمدوهم بالسلاح . وبينا خُزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوَتير إذ فاجأتهم بنو بكر فقتلوا منهم ، ففرّت خُزاعةُ إلى مكة ولجئوا إلى دار بُدَيْل بن ورقاء ، وشكوا إليه نَقْضَ قريش ونقضَ بنى بكر عهدَهم مع رسول الله ، وسارع عمرو بن سالم الخزاعىّ فغدا متوجهاً إلى المدينة حتى وقف بين يدى محمد وهو جالس فى المسجد بين الناس ، وجعل يقصّ ما حدث ويستنصره . قال رسول الله : « نُصِرتَ يا عمرو بن سالم » . ثم خرج بُدَيْلَ بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة ، فأخبروا النبىّ بما أصابهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم . عند ذلك رأى النبىّ أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقَابل له إلا فتح مكة ، وأنه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين فى أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على أهبة لإجابة ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء .

استنصار خزاعة بالنبى

مخاوف حكماء قريش

أمّا حكماء قريش وذوو الرأى فيها فما لبثوا أن قدّروا ما عرّضهم له عِكرمة ومَنْ معه من الشبان من خطر . فهذا عهد الحُدَيبية قد نُقِض ، وهذا سلطان محمد فى شبه الجزيرة يزداد بأساً وقوة . ولئن فكر بعد الذى حدث فى أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة لتتعرضنَّ المدينة المقدسة لأشدّ الخطر . فماذا تراهم يصنعون ؟ أوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليُثَبت العقد وليزيد فى المدة . ولعل المدة كانت سنتين فكانوا يريدونها عشراً . وخرج أبو سفيان قائدهم وحكيمهم يريد المدينة فلمَّا بلغ من طريقه عُسْفَانَ . لقيه بُدَيْل بن وَرْقاء وأصحابه ، فخاف أن يكون قد جاء محمداً وأخبره بما حدث ، فيزيد ذلك مهمته تعقيداً . وقد نفى بُدَيْلٌ مقابلته محمداً لكنه عرف من بعر راحلة بُدَيْل أنه كان بالمدينة . لذلك آثر ألا يكون محمد أول من يلقى ، فجعل وجهته بيت ابنته أمّ حَبِيبة زوج النبىّ .

أبو سفيان بالمدينة

ولعلها كانت قد عرفت عواطف النبىّ إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما اعتزمه فى أمر مكة . ولعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعاً . فقد

أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبيّ فطـــوته أمّ حبيبة . فلما سألها أبوها : أطَوَتْه رغبةً بأبيها عن الفراش ، أم رغبةً بالفراش عن أبيها ؟ كان جوابها : هو فراش رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحبّ أن تجلس عليه . قال أبو سفيان : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر ! وخرج مُغْضَباً . ثم كلَّم محمداً فى العهد وإطالة مدته ، فلم يردَّ بشىء . فكلَّم أبا بكر ليكلم له النبيّ ، فأبى . فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له فى الرد وقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ! فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به . ودخل أبو سفيان على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة ، فعرَض عليه ما جاء فيه واستشفعه إلى الرسول ؛ فأنبأه علىٌّ فى رفق أنه لا يستطيع أحد أن يرد محمداً عن أمر إذا هو اعتزمه . واستشفع رسول قريش فاطمة أن يجير ابنُها الحسنُ بين الناس . فقالت : ما يُجير أحد على رسول الله . واشتدّت الأمور على أبى سفيان فاستنصح علياً ؛ فقال له : والله ما أعلم شيئاً يُغنى عنك شيئاً . لكنك سيِّد بنى كِنَانَة ، فقم فأجِرْ بين الناس ثم الحَقْ بأرضك ؛ وما أظن ذلك مغنياً ، ولكنى لا أجد لك غيره . فذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنه أجار بين الناس . ثم ركب راحلته وانطلق ذاهباً إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقِى منِ هوان على يد ابنته وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة يرتجون منه نظرة عطف أو رضا .

إخفاق سفارة أبى سفيان

عاد أبوسفيان إلى مكة ؛ فقصَّ على قومه ما لقِى بالمدينة وما أجار بين الناس فى المسجد بمشورة علىّ ، وأن محمداً لم يجِزْ جواره . قال قومه : ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك . وعادوا فيما بينهم يتشاورون .

تجهيز المسلمين لفتح مكة

أما محمد فقد رأى ألا يترك لهم الفرصة حتى يتجهزوا للقائه . ولئن كان واثقاً من قوته ومن نصر الله إيَّاه ، لقد كان يرجو أن يَبْغَتَ القومَ فى غِرَّة منهم ، فلا يجدوا له دفعاً ، فيُسلموا من غير أن تُراق الدماء . لذلك أمر الناس بالتجهز . فلمَّا تجهزوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدّ ؛ ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف من سيرهم على نبأ .

كتاب ابن أبى بلتعة إلى قريش

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطِبُ بن أبى بَلْتَعة كتاباً أعطاه امرأةً

من مكة مولاةً لبعض بنى عبد المطلب تسمى سارة ، وجعل لها جُعْلاً على أن تبلِّغه قريشاً ليقفوا على ما أعد محمد لهم ، وحاطِبٌ كان من كبار المسلمين ، ولكن فى النفس الإنسانية جوانب ضعف تطغى فى بعض الأحيان عليها ، وتهوِى بها إلى ما لا ترضاه هى لنفسها . وما لبث محمد أن أحيط بالأمر خبْراً . فسارع فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوَّام فأدركا سارة فاستنزلاها ، فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً . فأنذرها علىّ إن لم تخرج الكتاب ليكشفنها . فلمَّا رأت المرأة الجِد منه قالت: أعرِضْ . فحلت ذوائب شعرها فأخرجت الكتاب منها ، فردَّاها إلى المدينة . ودعا محمد حاطباً يسأله ما حمله على ذلك ؟ قال حاطب : يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله وما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأً ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم . قال عمر بن الخطاب دعنى يا رسول الله فلأضْرِبْ عنقه ، فإن الرجل قد نافق . قال رسول الله : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطَّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم . وكان حاطب من أصحاب بدر . وإذ ذاك نزل قوله تعالى : (يـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) [١] .

مسيرة جيش المسلمين

وتحرَّك جيش المسلمين من المدينة قاصداً مكة ليفتحها ، وليضع يده على البيت الحرام الذى جعله الله مثابةً للناس وأمْناً . تحرَّك هذا الجيش فى عدد لا عهد للمدينة به ؛ فقد بعثت القبائل ، من سُلَيْم ومُزَيْنَة وغَطَفَان وغيرها مَنِ انضم إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم فى يَلَب [٢] الحديد يسيلون فى فسيح الصحراء ، حتى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر شىء . تحركوا وأغذَّ هؤلاء الألوف سيرهم ، وصاروا كلما تقدموا فيه انضم إليهم من سائر القبائل مَنْ زاد عددهم وزاد منعتهم ، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أن لا غالب لهم من دون الله . وسار محمد على رأسهم وأكبر همه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يهريق قطرة دم واحدة . وبلغ الجيش مرَّ الظَّهران [٣] وقد كملت عِدَّته عشرة آلاف

(١) سورة الممتحنة آية ١ . (٢) اليلب : الدروع . (٣) على أربعة فراسخ من مكة .

لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر ، فهى فى جَدَل مستمر ماذا تصنع لاتقاء عَدْوة محمد عليها . أما العباس بن عبد المطلب عم النبي فقد تركهم فى جَدلهم وخرج مع أهله حتى لقى محمداً بالجُحْفَة (١) . ولعل طائفة من بنى هاشم كانت بنبأ أو شِبْه نبأ من خروج النبىّ ، فأرادت أن تلحق به دون أن يصيبها أذى . فقد خرج سوى العباس أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبىّ ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عمَّته ، حتى اتصلا بجيش المسلمين بنيق العُقَاب ، واستأذنا على النبىّ ، فرفض أن يأذن لهما ، وقال لزوجه أمّ سلمة حين كلمته فى أمرهما : لا حاجة لى بهما . أما ابن عمى فقد أصابنى منه سوء . وأما ابن عمتى وصهرى فقد قال بمكة ما قال . وبلغ أبا سفيان هذا الكلام فقال : والله ليؤذَنَنَّ لى أو لآخذنْ بيد بَنِىّ هذا ثم لنذهبنَّ فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فرقَّ محمد ، ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما .

خروج بنى هاشم إلى النبى وإسلامهم

ورأى العبَّاس بن عبد المطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوتّه ما راعه وأزعجه . وهو إن كان أسلم فإن ذلك لم يُخْلِ قلبه من خشية ما يحل بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذى لا قِبَلَ لقوَّة فى بلاد العرب به . أوَ ليس قد ترك مكة منذ حين ، وله بها من الأهل والخُلاَّن والأصدقاء من لم يقطع الإسلام الذى دان به من وشائجهم ! ولعله أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول وسأله ؛ ماذا يصنع إذا ما طلبت قريش أمانه ؟ ولعل ابن أخيه سُرَّ بمفاتحة العبَّاس إيَّاه فى هذا ، ورجا أن يتَّخذ منه سفيراً يلقى فى قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفِك دماً ، وتظلَّ مكة حراماً كما كانت وكما يجب أن تكون . وجلس العباس على بغلة النبىّ البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحية الأراك ، لعله يجد حطَّاباً أو صاحب لبن أو أى إنسان ذاهباً إلى مكة ، يُحمله إلى أهلها

العباس ابن عبد المطلب

(١) ويذهب بعض كتاب السير إلى أنه لقى الجيش برابغ . أما آخرون فيقولون إن العباس ذهب إلى المدينة قبل التصميم على فتح مكة وأسلم وسار مع جيش الفتح . ويدحض كثيرون هذه الرواية ويزعمونها وضعت إرضاء للعباسيين الذين كتبت السيرة أول ما كتبت فى عهدهم . ويؤيدون رأيهم هذا بأن العباس ، على نصرته لابن أخيه مذ كان بمكة ، لم يتابعه على دينه ، لأن العباس كان تاجراً ومرابياً ، وكان يخشى ما يجره الإسلام على تجارته من مضرة . ويزيدون أنه لو كان العباس قد أسلم وهاجر ، لكان فى مقدمة من ذهب إليهم أبوسفيان للتحدث فى إطالة مدة عهد الحديبية لقرب عهده بمكة .

رسالة بقوّة المسلمين وبأس جيوشهم ، حتى يخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوةً . وكانت قريش قد بدأت ، منذ نزل المسلمون مَرَّ الظهران ، تشعر بأن خطراً يقترب منها ؛ فأرسلت أبا سفيان بن حرب ، وبُديْل بن ورقاء ، وحكيم بن حزام قريب خديجة ، يتنطسون الأخبار ، ويستطلعون مبلغ الخطر الذى تحس قلوبها . وإن العباس ليسير على بغلة النبىّ البيضاء إذ سمع حديثاً بين أبى سفيان بن حرب وبُدَيْل بن ورقاء كذلك يجرى :

أبو سفيان يستطلع لقريش

أبو سفيان – ما رأيت كالليلة نيراناً قطُّ ولا عسكراً .

بُدَيْل – هذه والله خُزاعة حَمَّشتها الحرب .

أبو سفيان – خزاعة أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

التقاؤه بالعباس

وعرف العبَّاس صوت أبى سفيان ، فناداه بكنيته قائلا : أبا حَنْظَلَةَ ! وأجاب أبو سُفْيان بدوره : أبا الفضل . قال العبَّاس : ويحك يا أبا سفيان ؟ هذا رسول الله فى الناس . واصباحَ قريش إذا دخل مكة عنوةً ! قال أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ فأركبه العباس فى عجز البغلة ورد صاحبيه إلى مكة وسار به . والناس إذا رأوا البغلة عرفوها وتركوها تمرُّ بمن عليها بين عشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب فى قلب مكة وأهلها . فلمَّا مرَّت بنار عمر بن الخطاب ورآها عرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يُجيره ، فأسرع إلى خيمة النبىّ وطلب إليه أن يضرب عنقه . قال العباس : إنى يا رسول الله قد أجرته . إزاء هذا الموقف فى تلك الساعة من الليل ، وبعد مناقشة لا تخلوا من حِدَّة بين العباس وعمر قال محمد : اِذْهَبْ به يا عباس إلى رَحْلك ، فإذا أصبحت فأتنى به . فلما كان الصَّباح ، وجىء بأبى سفيان فى حضرة النبىّ وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار ، جرى الحوار الآتى :

أبو سفيان فى حضرة الرسول

النبىّ – ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ !

أبو سفيان – بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمَك وأوصلك ! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعدُ .

النبىّ – ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ !

أبو سفيان – بأبى وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أمَّا والله هذه

فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً !

فتدخل العباس موجهاً القول إلى أبى سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضْرَبَ عنقه . ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم . فتوجَّه العبَّاس بالقول إلى النبىّ عليه السلام : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً . قال رسول الله : « نَعَمْ ! مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومَنْ أغلق بابه فهو آمن ، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن » .

أمصادفة حدث ذلك كله

هذه الوقائع واردٌ عليها اتفاق المؤرخين وكتاب السيرة جميعاً إلا أن بعضهم يُسائل : أهى قد حدثت كلها بمحض المصادفة ؟ فخروج العباس إلى النبىّ كان قصده منه أن يذهب إلى المدينة فإذا هو يلقى جيوش المسلمين بالجُحْفة ، وخروج بدَيْل بن ورقاء مع أبى سفيان بن حرب كان لمحض الاستطلاع ، مع أن بديلا ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقصَّ على النبىّ ما لقيت خزاعة وعرف من النبىّ أنه ناصرُها ، وخروج أبى سفيان كان جهلا منه بأن محمداً قد سار لغزو مكة ! أم أن شيئاً من الاتِّفاق ، قليلاً أو كثيراً ، كان قد حدث قبل ذلك ، وأن هذا الاتفاق هو الذى أخرج العباس للقاء محمد ، وأن هذا الاتفاق هو الذى جمع بين العباس وأبى سفيان ، وأن أبا سفيان كان قد وثق ، منذ ذهب إلى المدينة لْيمدّ فى عهد الحديبية ورجع صفر اليدين ، بأن لا سبيل لقريش إلى ردّ محمّد ، وأيقن أنه إذا مهد للفتح السبيل فستبقى له رياسته فى مكة ومقامه الكْبير فيها ، وأن الذى ربما كان وقع عليه الاتفاق من ذلك لم يتعدّ محمداً والأشخاص الذين يعنيهم الأمر ، بدليل ما همّ به عمر من قتل أبى سفيان ؟ من المغامرة أن نحكم . لكنا نستطيع أن نقرر – مطمئنة نفوسنا – أنه سواء أكانت المصادفة هى التى ساقت ذلك كله أم أن شيئاً من الاتفاق قد وقع عليه ، فالحالان تدلاّن على دقة محمد ومهارته فى كسب أكبر موقعة فى تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقة دماء .

عدة محمد لدخول مكة

لم يمنع إسلام أبى سفيان محمداً أن يتخذ لدخول مكة كل ما لديه من أهبة وحذرٍ . وإذا كان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، فإن الله لا يؤتى النصر إلا

من أعدَّ له كل عُدَّته ، واحتاط لكل دقيقة وجليلة قد تقف فى سبيله ، لذلك أمر أن يحبس أبو سفيان بمضيق الوادى عند مدخل الجبل إلى مكة ، حتى تمرَّ به جنود المسلمين فيراها ليحدث قومه بها عن بينة ، ولكى لا يكون فى إسراعه إليهم خيفة مقاومة أيًّا كان نوعُها . ومرّت القبائل بأبى سفيان ، فما راعه منها إلا الكتيبة الخضراء يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدَق من الحديد . فلما عرف أبو سفيان أمرهم قال : يا عباس ! ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ! ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته : يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وسار محمد فى الجيش ، حتى إذا انتهى إلى ذى طوى ، ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتائبه ، ووقف على راحلته ، وانحنى لله شاكراً ، أن فتح الله عليه مَهْبِطَ الوحى ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمين آمنين مطمئنين . وفيما هو كذلك طلب أبو قُحافة ، ولم يكن قد أسلم كابنه ، إلى حفيدة له أن تظهر به على أبى قُبَيْس ، وكان قد كُفّ بصره . فلما ارتفعت به الجبل سألها ما ترى ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : تلك الخيل دفعت إلى مكة ، فأسرعى بى إلى بيتى . ولم يصل إلى بيته حتى كانت الخيل قد زحفت وتلقّته قبل بلوغه إيَّاه .

توزيع الجيش

شكر محمد الله أن فتح عليه مكة ، ولكنه ظلَّ مع ذلك متَّخذاً حِذْرَه ؛ فقد أمر أن يفرق الجيش أربع فرق ، وأمرها جميعاً ألاّ تقاتل وألا تسفك دماً إلا إذا أُكرهت على ذلك إكراهاً واضْطرَّت إليه اضطراراً . وجعل الزُّبير ابن العوَّام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها ، وجعل خالدَ بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة ، وجعل سعد بن عُبَادَةَ على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربىّ . أما أبو عبيدة بن الجرَّاح فجعله محمد على المهاجرين ، وسار وإيَّاهم ليدخلوا مكة من أعلاها فى حذاء جبل هند ، وفيما هم يتأهبون سمع بعضهم سعد بن عُبَادَةَ

يقول : « اليومُ يومُ المَلْحَمَة ، اليومَ تسْتَحَلّ الحُرْمة . . . » وفى ذلك من نقض أمر النبى ألاّ يقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه . لذلك رأى النبىّ حين بلغه ما قال سعد أن يأخذ الراية منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس ، وكان رجلا ضخماً ، لكنه كان أهدأ من أبيه أعصاباً .

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد ؛ فقد كان يقيم فى هذا الحىّ من أسفل مكة أشدّ قريش عداوةً لمحمد ، ومن اشتركوا مع بنى بكر فى نقض الحُدَيْبية بالغارة على خُزاعة . هؤلاء لم يُرضهم ما نادى به أبو سفيان . بل أعدّوا عُدّتهم للقتال ، وأعدّ آخرون منهم عُدتهم للفِرار . وقام على رأسهم صَفْوان وسهَيْل وعِكرمة بن أبى جهل . فلمَّا دخلت فرقة خالد أمطروها نبالهم ، لكن خالداً لم يلبث أن فرَّقهم ، ولم يُقْتَلْ من رجاله إلا اثنان ضلاّ طريقهما وانفصلا عنه . أمَّا قريش ففقدوا ثلاثة عشر رجلا فى رواية ، وثمانية وعشرين فى رواية أخرى . ولم يلبث صفوان وسهيل وعكرمة حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن ولَّوا الأدبار ، تاركين وراءهم من حرَّضوهم على المقاومة يَصْلَون بأس خالد وبطش أبطاله معه . وبينما كان محمد على رأس المهاجرين يرقَى فى مُرْتَفَع ينزل منه إلى مكة مطمئن النفس لفتحها فى سكينة وسلم بَصُر بأمّ القرى وبما فيها جميعاً ، وبَصُر بتلماع السيوف أسفل المدينة وبمطاردة جيش خالد لمن هاجموهم . هنالك أسف وصاح مُغْضَباً يذكر أمره ألا يكون قتال . فلمَّا علم بما كان ، ذكر أن الخيْرَةَ فيما اختاره الله .

دخول مكة

ونزل النبىّ بأعلى مكة قُبالة جبل هند ، وهنالك ضُربت له قبَّة على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة . وسئل : هل يريد أن يستريح فى بيته ؟ فأجاب : كلا ! فما تركوا لى بمكة بيتاً . ودخل إلى القبَّة يستريح وقلبه مفعم بشكر الله أن عاد عزيزاً منتصراً إلى البلد الذى آذاه وعذّبه وأخرجه من بين أهله ودياره ، وأجال بصره فى الوادى وفى الجبال المحيطة به ، فى هذه الجبال التى كان يأوى إلى شِعابها حين يشتد به أذى قريش وتشتدّ به قطيعتها ، فى هذه الجبال ، ومن بينها حِراء حيث كان يتحنَّث حين نزل عليه الوحى أن : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [١] .

أجال بصره فى هذا الجبال وفى الوادى مبعثرة منازل مكة فيه يتوسَّطها البيت الحرام ، فبلغ من خضوعه لله أن ترقرقت فى عينه دمعة إسلام وشكر للحق لا حقَّ إلا هو ، إليه يرجع الأمر كله . وشعر ساعتئذ أن مهمَّة القائد قد انتهت ، فلم يُقم بالقبَّة طويلا بل خرج وامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة ، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بِمحْجَن [٢] . فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ، فوقف محمد على بابها وتكاثر الناس فى المسجد ، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى : (يَـأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [٣] .

ثم سألهم : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : « خيراً ، أخٌ كريم وابن أخ كريم ! » . قال : « فاذهبوا فأنتم الطلقاء » . وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعاً .

العفو العام

ما أجمل العفو عند المقدرة ! ما أعظم هذه النفس التى سمت كل السموّ ، فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان ! هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومَنْ عذّبوه وأصحابه من قبل ذلك . ومَنْ قاتلوه فى بَدْر وفى أُحُد ، ومن حصروه فى غزوة الخندق ، ومن أَلَّبوا عليه العرب جميعاً ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إِرْباً إِرْباً لما ونَوْا فى ذلك لحظة ! هؤلاء قريش فى قبضة محمد وتحت قدميه ، أمره نافذ فى رقابهم ، وحياتهم جميعاً معلَّقة بين شفتيه ، وفى سلطانه هذه الألوف المدجَّجة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها فى رجع البصر ! لكن محمداً ! لكن النبى ! لكن رسول الله ليس بالرجل الذى يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس . وليس هو بالجبَّار ولا

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ إلى ٥ . (٢) المحجن : عصا منعطفة الرأس .

(٣) سورة الحجرات آية ١٣ .

بالمتكبر . لقد أمكنه الله من عدوّه ، فقدر فعفا ، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعاً مثلاً فى البرّ والوفاء بالعهد ، وفى سموّ النفس سُمُوًّا لا يبلغه أحد .

الصور فى الكعبة

ودخل محمد الكعبة فرأى جدرانها صُوِّرت عليها الملائكة والنبيون ، ورأى إبراهيم مصوّراً فى يده الأزلام[1] يستقسم بها ، ورأى بها تمثال حمامة من عِيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض ، أمَّا صورة إبراهيم فنظر محمد إليها مَلِيًّا وقال : قاتلهم الله ! جعلوا شيخاً يستقسم بالأزلام ! ما شأن إبراهيم والأزلام ! ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . أمَّا الملائكة الذين صُوِّروا نساء ذات جمال ، فقد أنكر محمد صورهم أن ليست الملائكة ذكوراً ولا إناثاً . ثم أمر بتلك الصور كلها فطُمست . وكانت حول الكعبة الأصنام التى كانت تعبدها قريش من دون الله ، قد شُدّت إلى جُدُرها بالرصاص ، كما كان هُبَل فى داخل الكعبة ؛ فجعل محمد يشير إلى هذه الأصنام جميعاً بقضيب فى يده وهو يقول : (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)[2] .

تطهير الكعبة من الأصنام

وكُبَّتِ الأصنام على وجوهها وظهورها ، وطُهر البيت الحرام بذلك منها . وأتمّ محمد بذلك فى أوّل يوم لفتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة ، وما حاربته مكة أشدَّ الحرب فيه . أتمّ تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية فى البيت الحرام بمشهد من قريش ، ترى أصنامها التى كانت تعبد ويعبد آباؤها ، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرًّا .

مخاوف الأنصار وتبديدها

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كله ، ورأوا محمداً يقوم على الصفا ويدعو ، فخيل إليهم أنه تاركٌ المدينة إلى وطنه الأول وقد فتحه الله عليه ،

---

(١) الأزلام (واحدها زلم بفتحتين ، وبضم ففتح) هى القداح التى كانت فى الجاهلية مكتوب عليها الأمر والنهى : افعل ولا تفعل ، كان الرجل منهم يضعها فى وعاء ، فإذا أراد سفراً أو زواجاً أو أمراً مهما أدخل يده فى الوعاء بعد إجالتها وتحريكها فأخرج منها زلماً ، فإن خرج الأمر مضى لشأنه ، وإن خرج النهى كف عما اعتزم ولم يفعله . والاستقسام بها معرفة قسم الإنسان ، أى حظه ونصيبه .

(٢) سورة الإسراء آية ٨١ .

وقال بعضهم لبعض : أتَرَوْن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ ولعلهم كانوا على حق فى مخاوفهم . فهذا رسول الله . وبمكة البيتُ الحرام بيت الله ، وبمكة المسجدُ الحرام . لكن محمداً ما لبث حين أتم دعاءه أن سألهم ما قالوا ؟ فلمَّا عرف بعد تردُّد منهم مخافتهم قال : «معاذَ الله ! الْمَحْيا مَحْيا كم والممات مماتكم». فضرب بذلك للناس مثلاً فى البرّ بعهده فى بيعة العقبة ، وفى الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدة إلى جانبه ، برًّا ووفاء لا يُنسيهما وطن ولا أهل ولا تُنسيهما مكة البلد الحرام .

ولمَّا أن طهِّرت الكعبة من أصنامهما ، أمر النبيّ بلالاً فأذَّن فوقها ، وصلى الناسُ بإمامة محمد . ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر ، مدى أربعة عشر قرناً مضت لا تنقطع ، وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان ، كلَّ يوم خمسَ مرات من فوق مسجد مكة . ومدى أربعة عشر قرناً مضت من يومئذ يؤدِّى المسلمون فرض الصلاة لله والصلاة على رسوله ، متوجهين إلى الله بقلوبهم وعقولهم ، مستقبلين هذا البيت الحرام الذى طهَّره محمد يوم الفتح من أوثانه وأصنامه .

وأذعنت قريش لما حلَّ بها ، واطمأنت لعفو محمد عنها ، وأقامت تنظر إليه وإلى المسلمين من حوله بعيون كلها دهش وإعجاب يمازجها الخوف والحذر . لكن طائفة منها عدَّتُها سبعة عشر رجلا ، كان محمد قد استثناها من رحمته وأمر ساعة دخول مكة أن يُقْتَل رجالها ولو وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، كان قد آثر بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار . ولم يكن قرار محمد قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم ؛ فهو لم يكن يعرف الحقد ، ولكن لجرائم كبيرة ارتكبوها . فأحدُهم عبد الله بن أبى السرْح كان قد أسلم وكان يكتب لمحمد الوحى ، فارتدّ مشركاً إلى قريش زاعماً أنه كان يزيف الوحى حين يكتبه . وعبد الله بنَ خطلَ كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتد مشركاً وأمر جاريتيه فَرْتَنَى وصاحبتها فكانتا تغنيان بهجاء محمد ، فأمر بقتلهما معه . وعِكرمة بن أبى جهل وكان من أشدّ الناس لَدَداً فى خصومة محمد والمسلمين خصومة لم تهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها .

أمر محمد بعد دخول مكة ألا يُسْفَكَ بها دم أو يُقتل فيها أحد غير هذه الطائفة . لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرَّ منهم من فرَّ . فلمَّا استقر الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فسحة صدر الرسول ومن عفوه الشامل ما رأوا ، طمع بعض أصحابه فى أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يُقتَلوا . فقام عثمان بن عفَّان ، وكان أخا ابن أبى السَّرْح للرضاعة ، حتى أتى به النبىّ فاستأمن له . فصمت محمد طويلاً ، ثم قال : نعمْ ، وأمَّنه . وأسلمت أمُّ حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة بن أبى جهل الذى فرَّ إلى اليمن واستأمنت له محمداً فأمَّنه ، فخرجت فى طلبه وجاءت به . وعفا محمد كذلك عن صَفْوان بن أميَّة وكان قد صحب عكرمة فى فراره إلى ناحية البحر يستقلاّنه إلى اليمن ، فجىء بهما والسفينة التى تحملهما على أهبة إقلاعها . وعفا محمد كذلك عن هند زوج أبى سفيان التى مضغت كبد حمزة عم الرسول بعد استشهاده فى أُحد ، كما عفا عن أكثر مَن أمر بقتلهم . ولم يقتل منهم إلا أربعة ، منهم الحويرث الذى أغرى بزينب بنت النبىّ حين رجوعها من مكة إلى المدينة ، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وفرَّا راجعين إلى مكة مرتدّين إلى الشرك ، وإحدى قينتى ابن خَطَل اللتين كانتا تؤذيان النبىّ بغنائهما ، وفرّت الأخرى ، ثم استُؤمن لها .

العفو عمن أمر النبى بقتلهم

خلا أربعة قتلوا فى جرائمهم

وفى غداة يوم الفتح عثَرت خُزاعة على رجل من هُذَيْل وهو مشرك فقتلوه فغضِب النبىّ وقام فى الناس خطيباً فقال : « أيها الناس ، إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعَضِد[1] فيها شجراً ، لم تُحْلَل لأحد كان قبلى ولا تحلّ لأحد يكون بعدى ، ولم تُحْلَلْ لى إلاّ هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ . فمن قال لكم إنَّ رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلَّها لرسوله ولم يُحْلِلْها لكم يا معشر خُزاعة . ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع . لقد قتلتم قتيلاً لأديَنَّه . فمن قُتل بعد مقالى هذا

تحريم مكة على الناس جميعاً

(١) يعضد : يقطع .

فأهلُه بخير النَّظَرَيْن : إن شاءوا قَدمُ قاتِله ، وإن شاءوا فعَقْله »[1] . ثم ودَى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة ، وبهذا الخطاب وبتصرفه الذى زاد على السماحة والعفو أمس، كسب محمد قلوب أهل مكة بما لم يكونوا يقدّرون ، فأقبلوا على الإسلام ، ونادى مناد فيهم : « مَنْ كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك فى داره صنماً إلا حطمه » . ثم بعث جماعة من خُزاعة ليُصلحوا من العمد المحيطة بالبلد الحرام ، مما دلّ أهل مكة على مالها فى نفسه من التقديس وما زادهم له حبًّا . فلما أخبرهم أنهم خير أمَّة يحبّ ، وأنه ما كان ليتركهم أو يعدِل بهم ناساً لولا أنهم أخرجوه ، بلغ تعلقهم به غاية حدوده . وجاء أبو بكر بأبيه ، الذى ارتقى أبا قُبَيْس يوم الزحف ، يقوده حتى وقف بين يدى النبىّ . فلما رآه محمد قال : هلاّ تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتيه فيه ! قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحقّ أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت . فأجلس النبىّ الشيخ بين يديه ومسح صدره ثم قال له : أسْلِم . فأسلم وحسن إسلامُه . وكذلك أسرتْ أخلاق النبوّة السامية هذا الشعب الذى كان ثائراً على محمد أشدّ الثورة ، والذى أصبح اليوم يُجِلّه ويقدّسه . وكذلك أسلمت قريش رجالا ونساء وبايعت .

وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوماً ينظّم خلالها شئون مكة ويفقه أهلها فى الدين . وفى هذه الأثناء بعث السرايا للدعوة إلى الإسلام لا للقتال ، ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء . وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نَخْلة ليهدم العُزَّى – وكانت لبنى شَيْبَان – فلما هدمها خرج إلى جذيمة ، فلمَّا رآه القوم أخذوا السلاح ؛ فطلب إليهم خالد أن يضعوه فإن الناس قد أسلموا .

خالد بن الوليد فى جذيمة

قال رجل من جَذيمة لقومه : ويلكم يا بنى جذيمة ! إنه خالد . والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق . قال له قومه : أتريد أن تسفِك دماءنا ! إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس . وما زالوا به حتى وضع سلاحه . عند ذلك أمر بهم خالد فغُلوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم . فلمَّا انتهى الخبر إلى النبىّ رفع يديه إلى

(١) العقل : الدية .

السماء وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » . ثم بعث إليهم علىّ بن أبى طالب وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهليَّة تحت قدميك . وخرج علىّ ومعه مال أعطاه النبىّ إياه . فلمَّا بلغ القومَ دفع الدية عن الدماء وعما أصيب من الأموال ، حتى إذا لم يبق شىء من دم أو مال إلا وداه ، أعطاهم بقية المَال الذى بعث به رسول الله احتياطاً لرسول الله مما لا يعلم .

وفى الأسبوعين اللذين أقام محمد بمكة عفّى على كل آثار الوثنيَّة فيها . ولم ينتقل إلى الإسلام من مناصب البيت الحرام إلا سدانة الكعبة ، أقرَّها النبىّ فى عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلا ظالم ، وسِقاية الحاج من زمزم جعلها لِعمه العبَّاس .

وكذلك آمنت أمّ القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضَّاء .

الفصل الخامس والعشرون

حنين والطائف

تألب هوازن وثقيف بإمرة مالك بن عوف – تحصينهم بمضيق وادي حنين – خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم – دخول المسلمين من مضيق الوادى فى عماية الصبح – ضرب هوازن وثقيف إياهم من المرتفعات وارتدادهم منهزمين – ثبات محمد إلى الموت – صياح العباس بالمسلمين كى يعودوا – عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم – الفىء – المسير إلى الطائف – حصارها وعدم إمكان اقتحامها – تحريق نخيلها – استرحامها النبى – رجوعه عن الحصار – إسلام هوازن – حديث الشيماء – العود إلى الجعرانة وقسمة الفىء – العمرة – العودة إلى المدينة .

أقام المسلمون بمكة بعد فتحهم إيّاها فرحين بنصر الله إياهم ، مغتبطين أن لم يُسْفَكْ فى هذا النصر العظيم إلا الدم القليل ، مسارعين إلى البيت الحرام كلما أذّن بلالٌ بالصلاة ، متدافعين حول رسول الله حيث أقام وحيث ذهب . يغشى المهاجرون منهم دورهم ويتّصلون بأهليهم الذين هدى الله بعد الفتح ، ونفوسُهم جميعاً مطمئنة إلى أن الأمر قد استقرّ للإسلام ، وأن الجانب الأكبر من الجهاد قد كلل بالفوز والظفر . وإنهم لكذلك بعد خمسة عشر يوماً من مُقامهم بأمِّ القرى إذ ترامت إليهم أنباء أيقظت استنامتهم للغبطة ! تلك أن هوازن كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقى فى جبال هناك ، فلمَّا علمت بما تمَّ للمسلمين من فتح مكة ومن تحطيم أصنامها . خشيت أن تدور عليها الدائرة وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها ، ففكرت فيما تصنع لاتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع ولصدّ محمد والكفّ من غلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة وعلى ضمها كلها فى وحدة يُظلها الإسلام ، لذلك جمع مالك بن عوف النَّصْرِى هوازن وثقيفاً ، كما اجتمعت نَصْرٌ وجُشَم ، ولم يتخلف عن الاجتماع من هوازن إلا كَعْب وكِلاب . وكان فى جُشَم دُرَيْد بن الصُّمَّة . وكان يومئذ شيخاً كبيراً لا نفع منه فى الحرب ،

مسيرة مالك ابن عوف لقتال المسلمين

ولكنما كان الانتفاع برأيه بعد الذى عركه على السنين فى وقائعها . اجتمعت هذه القبائل كلها ومعها أموالُها ونساؤها وأبناؤها ، وتمَّ جمعها حين نزلت سَهل أوطَاس . فلما سمع دُرَيْد رُغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير وثُغَاء الشاء ، سأل مالك بن عوف : لِم ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وصغارهم ؟ فلما أجابه مالك بأنه إنما أراد أن يشجع بها المحاربين ، قال دُرَيد : وهل يردّ المنهزم شىء ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحْتَ فى أهلك ومالك . واختلف هو ومالك . وتبع الناس مالكاً ، وكان شابًّا فى الثلاثين من عمره قوىَّ الإرادة ماضى العزيمة ، وتابعهم دُرَيد ما يردّ لهم ، على رغم سابقته فى الحرب ، رأياً . وأمر مالك الناس أن ينحازوا إلى قِمَم حُنَيْن وعند مضيق الوادى ؛ فإذا نزل المسلمون واديه فليشدُّوا عليهم شَدَّةَ رجل واحد تُضعضع صفوفهم ، فيختلط حابلهم بنابلهم ويضرب بعضهم بعضاً ، وتدور عليهم الهزيمة ، ويزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكة ، ويبقى لقبائل حنين فى بلاد العرب جميعاً فخار النصر على هذه القوّة التى تريد أن تُظِلَّ بسلطانها بلاد العرب جميعاً . وامتثلت القبائل أمر مالك وتحصَّنت بمضيق الوادى .

تحصين القبائل بمضيق الوادى

أمَّا المسلمون فبادروا بعد أسبوعين من مُقامهم بمكة وعلى رأسهم محمد فى عُدَّة وعديد لم يكن لهم من قبل بها عهد قطّ . ساروا فى اثنى عشر ألفاً من المقاتلين ، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها ، وألفان ممن أسلم من قريش ، وبينهم أبو سفيان بن حرب ، وكلهم تلمع دروعهم ، وفى مقدّمتهم الفرسان والإبل تحمل الميرة والذخيرة . سار المسلمون فى هذا الجيش الذى لم تعرف بلاد العرب من قبلُ مثاله ، يتقدّم كلّ قبيلة عَلَمُها وتمتلئ النفوس كلها إعجاباً بهذه الكثرة ، وبأن لا غالبَ اليوم لها ؛ حتى لقد تحدّث بعضهم بذلك إلى بعض وجعلوا يقولون : لن نُغْلَب اليوم لكثرتنا . وبلغوا حُنيناً والمساءُ يقبل ، فنزلوا على أبواب واديها وأقاموا بها حتى بُكرة الفجر . هنالك تحرَّك الجيش ، وركب محمد بغلته البيضاء فى مؤخَّرته ، على حين سار خالد بن الوليد على رأس بنى سُلَيْم فى المقدَّمة ، وانحدروا من مضيق

مسيرة المسلمين إلى حنين

حُنين فى واد من أودية تِهَامةَ . وإنهم لكذلك منحطُّون إلى الوادى إذ شدّت عليهم القبائل بإمْرة مالك بن عوف شَدّة رجل واحد وأصلَوْهم وابلاً من النبال وهم جميعاً ما يزالون فى عماية الفجر . إذ ذاك اختلط أمر المسلمين واضطرب ، وعادوا منهزمين قد أخذ الخوف والفزع منهم كل مأخذ ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح ، وحتى قال أبو سفيان بن حرب وعلى شفته ابتسامة المغتبط لفشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر . وقال شَيْبة بن عثمان بن أبى طلحة : اليوم أُدرك ثأرى من محمد ، وكان أبوه قد قُتل فى غزوة أحد . وقال كَلَدَة بن حنبل : ألاَ بَطَل السحرُ اليوم ! فردَّ عليه أخوه صَفْوان : اسكت فضّ الله فاك ! فو الله لأن يَرُبَّنى [1] رجل من قريش أحبُّ إلىّ من أن يربَّنى رجل من هوازن . تقع هذه الأحاديث والجيش يختلط حابله بنابله والنبىُّ فى المؤخَّرة تمرُّ عليه القبائل واحدة بعد الأخرى مهزومةً لا تلوى على شىء .

قرار المسلمين

ماذا تراه يصنع ؟ أفتضيع تضحيات عشرين سنة فى هذه اللحظة من عماية الصبح ؟ أفتنحى عنه ربُّه وتخلى عنه نصر الله إياه ؟ ! كلا ! كلا ! لن يكون هذا ! دون هذا تبيد أمم وتفنَى أقوام ! ودون هذا الموت يدخل محمد فى غِماره لعل فى الموت لدين الله نصراً . وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، وثبت محمد مكانه ، وأحاط به جماعة من المهاجرين والأنصار ومعه أهل بيته ، وجعل ينادى فى الناس إذ يمرون به منهزمين : أين أيها الناس ! أين ! لكن الناس كانوا فيما هم فيه من هول الفزع لا يسمعون إلى شىء ولا يدور بتصوُّرهم إلا هوازن وثقيف منحدرتين من مُعْتَصَمهما بالقِمَم تطاردانهم حتى تأتيَا عليهم . ولم يخطئ تصوُّرهم ؛ فقد انحدرت هوازن من مَكانها يتقدّمها رجل على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف وأنصارهما منحدرون من ورائه يطعنون . وثارت بمحمد حميَّته ، فأراد أن يندفع ببغلته البيضاء فى صدر هذا السيل الدافق من رجال العدوّ ، وليكن بعد ذلك أمر الله . لكنَّ أبا سفيان بن

ثبات محمد وقوة عزيمته

---

(١) ربه : ملكه وساسه .

الحارث بن عبد المطلب أمسك بخطام بغلته وحال دون تقدُّمها .

نداء العباس في الناس

وكان العبَّاس بن عبد المطلب رجلا جسيماً جَهْوَرِى الصوت قويّه ، فنادى بما أسمع الناسَ جميعاً من كل فجّ : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! إن محمداً حىٌّ فهَلُمُّوا ! وكرر العباس النداء حتى تجاوبت فى كل جَنَبات الوادى أصداؤه .. وهنا كانت المعجزة : سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا محمداً وذكروا عهودهم وشرفهم . وسِمع المهاجرون اسم محمد فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم . وسمع هؤلاء وأولئك بسكينة محمد وثباته فى نفر قليل من المهاجرين والأنصار ، كثباته يوم أحُد ، فى وجه هذا العدوّ الزاحف ، صوَّرت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خِذْلانهم إياه من تغلُّب المشركين على دين الله . وكان نداء العباس أثناء ذلك ما يزال يدوّى فى آذانهم وتهتزُّ لأصدائه أوتار قلوبهم . هنالك تصايحوا من كل صوب : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ! وارتدُّوا إلى المعركة مستبسلين .

رجوع المسلمين واستماتتهم

وبدأت الطمأنينة تعاود محمداً حين رآهم يعودون ؛ فقد انحدرت هوازن من مكامنها وأصبحت وجهاً لوجه مع المسلمين فى الوادى . وقد أضاء النهار وطغى النور على عماية الفجر . واجتمع حول رسول الله بضع مئات استقبلوا القبائل وصبَروا لهم ، وقد أخذ يزداد عددهم وتشتدّ بعودتهم عزائم من خارت من قبل عزائمهم وجعل الأنصار يتصايحون يا لَلأنصار ! ثم تنادوا : ياللخزرج ومحمد ينظر إلى تناحر القوم ؛ حتى إذا رأى الصّدام اشتدّ ورأى رجالَه تسمو نفوسهم ويُطيحون بخصومهم ، نادى : الآن حَمِي الوطيس ، إن الله لا يُخْلِف رسوله وعده . ثم طلب إلى العباس فناوله حَفْنةً من الحصى ألقى بها فى وجوه العدو : قائلا : شاهت الوجوه . واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت فى سبيل الله ، مؤمنين بأن النصر لا محالة آت ، وأن من استشهد منهم فله من النصر أكبر من نصيب من بقى . وكان البلاء شديداً ؛ حتى إن هوازن وثقيفاً ومن معهم ما لبثوا ، حين رأوا كل مقاومة غير مجدية وأنهم معرضون للفناء عن آخرهم ، أن فروا منهزمين لا يلوون على شىء ، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم

انتصار المسلمين وما غنموا

وأموالهم غنيمة للمسلمين الذين أحصوها يومئذ اثنين وعشرين ألفاً من الإبل وأربعين ألفاً من الشاء وأربعة آلاف أوقية من الفضة . أما الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين إلى اودى الجِعْرانة حيث أَوَوْا إلى أن يعود المسلمون من مطاردة عدوّهم ومن حصار ثقيف بالطائف .

تعقب المسلمين عدوهم

وتابع المسلمون مطاردتهم لعدوهم . وزادهم إغراءً بهذه المطاردة أن أعلن الرسولُ أن من قَتَلَ مشركاً فله سَلَبُه . وأدرك ابن الدُّغُنَّة جملا عليه شجارٌ [١] ظن به امرأة طمع فى سَلَبها ، فأناخ الجمل فإذا شيخ كبير لا يعرفه الفتى هو دُرَيْد ابن الصِّمَّة . وسأل ربيعة : ما يريد به ؟ قال : أقتلك ، وأهوى عليه بسيفه فلم يُغن شيئاً . قال دريد : « بئس ما سلَّحتك أمك ! خذ سيفى هذا من مؤخَّر الرحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام واخفِض عن الدماغ فإنى كذلك كنت أضرب به الرجال . ثم إذا أتيت أمك فأخبِرْها أنك قتلت دُرَيد بن الصمة ، فرُب والله يوم قد منعتُ فيه نساءك » . ولمَّا رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها خبره قالت له : « حرق الله يدك ، فإنما قال ذلك ليذكرنا نعمه عليك . فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات فى غداة : أنا وأمى وأمُّ أبيك » وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوْطاسا ، وهناك أوقعوا بهم وهزموهم شرَّ هزيمة ، وسبَوْا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم إلى محمد . أما مالك بن عوف النصرى فقد ثبت هنيهة ثم فرَّ وقومَه مع هوازن حتى افترق عنهم عند نَخْلة ، ثم ولى وجهه نحو الطائف فاحتمى بها .

هزيمة المشركين تامة

وكذلك كان نصر المؤمنين مؤزَّراً ، وكانت هزيمة المشركين تامَّة بعد ذلك الفزع الذى أصاب المسلمين فى عماية الصبح ، وحين شدّ المشركون عليهم شَدَّة رجل واحد ضعضعت صفوفهم وخلطت حابلهم بنابلهم . كان نصر المسلمين مؤزَّراً بفضل ثبات محمد والفئة القليلة التى أحاطت به . وفى ذلك نزل قوله تعالى : (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِين .

(١) شجار : مركب مكشوف دون الهودج ، ويقال له مشجر.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جزاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (١)

ثمن النصر

على أن المسلمين لم يحرزوا هذا النصر المؤزّر رخيصاً ، بل دفعوا ثمناً غالياً لعلهم لم يكونوا يدفعونه لولا تخاذلهم الأوّل وتدافعهم مهزومين ، ليقول فيهم أبو سفيان : إنهم لا يردّهم إلا البحر . دفعوا الثمن غالياً من مُهَج الرجال وأرواح الأبطال الذين استُشهدوا فى الموقعة . ولئن لم تُحص كتب السيرة كلّ القتلى ، لقد ذكرت أن قبيلتين من المسلمين فنيتا أو كادتا ، وأن النبىّ صلى على أرواحهم رجاء أن يُدخلهم الله الجنة . لكنه كان النصر على كل حال : النصر التّامّ تغلّب فيه المسلمون على خصومهم وغنِموا منهم وأَسَروا ما لم يغنموا ولم يأسِروا من قبل . والنصر هو كل شيء فى النضال أيًّا كان الثمن الذى يُدفع فيه ما دام نصراً شريفاً . لذلك اغتبط المسلمون بما جزاهم الله ، وظلُّوا يرتقبون قسمة الفىء والعود بالغنيمة .

لكن محمداً كان يريده نصراً أكثر روعة وأعظم جلالا . وإذا كان مالك ابن عوف هو الذى قاد هذه الجموع ، ثم احتمى بعد هزيمتها مع ثقيف بالطائف ، فليحاصر المسلمون الطائف وليضيقوا عليها الحصار . وتلك كانت خطّة محمد فى خيْبَر بعد أُحد ، وفى قُرَيْظة بعد الخندق . ولعله ادّكر فى موقفه هذا يومَ ذهب إلى الطائف لسنوات قبل الهجرة يدعو أهلها إلى الإسلام ، فسخِروا منه وقذفه صبيانهم بالأحجار ، حتى اضطرّ إلى الاحتماء من أذاهم بحائط (٢) فيه كرم . ولعله ادّكر كيف ذهب يومئذ منفرداً ضعيفاً ، لا حول له ولا قوّة إلا حول الله وقوّته ، وإلا هذا الإيمان العظيم الذى ملأ صدره والذى يدكّ الجبال . وها هو ذا الآن يذهب إلى الطائف فى جمع من المسلمين لم تشهد جزيرة العرب فى ماضى تاريخها جمعاً مثله .

---

(١) سورة التوبة الآيات من ٢٥ إلى ٢٨ . (٢) الحائط : البستان .

حصار الطائف

أمر محمد أصحابه إذاً أن يسيروا إلى الطائف ليحاصروا بها ثقيفاً وعلى رأسها مالك بن عوف . وكانت الطائف مدينة محصّنة لها أبواب تغلق عليها كأكثر مدن العرب فى ذلك العصر . وكان أهلها ذوى دراية بحرب الحصار ، وذوى ثروة طائلة جعلت حصونهم من أمنع الحصون . وقد سار المسلمون إليها فمرّوا فى مسيرتهم بلِيَّة حيث يقوم حصن خاص لمالك بن عوف فهدموه ، كما خرَّبوا أثناء مسيرتهم كذلك حائطاً لرجل من ثقيف . وبلغ المسلمون الطائف ، فأمر النبيُّ عسكره فنزل على مقربة منها ، وجمع أصحابه ليفكروا فيما يصنعون . لكن ثقيفاً ما لبثت حين رأتهم من أعلى حصونها أن نالتهم بالنبل وقتلت جماعة منهم . ولم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجأوا إلى وسائل غير التى أَلِفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظة وخيبر . أتراهم إن هم اكتَفَوْا بالحصار يَصِلوا إلى تجويع ثقيف تجويعاً يحملها على التسليم ؟ وإذا هم أرادوا مهاجمتها فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التى يهاجمونها بها ؟ هذه أمور تحتاج إلى التفكير وإلى الوقت . فلينسحب العسكر إذاً بعيداً عن مرمى النبل لكى لا يصيبه فيُقْتَل رجال من المسلمين ، ثم ليفكر محمد فيما عسى أن يصنع . وأمر عليه السلام فنقل العسكر بعيداً عن مرمى النبل فى مكان أقيم به مسجد الطائف بعد أن سلَّمت الطائف وأسلمت . ولم يكن من ذلك بدٌّ وقد قتلت نبال ثقيف ثمانية عشر من المسلمين ، وجُرِح كثيرون ، بينهم أحد أبناء أبى بكر . وفى جانب من هذا المكان البعيد عن مرمى النبال ضُربت خيمتان من جلد أحمر لزوجتى النبىّ أمّ سلمة وزينب ، وكانتا تسيران معه فى كل هذه الوقائع منذ ترك المدينة . وبين هاتين الخيمتين كان محمد يقيم الصلاة . ولعل مسجد الطائف إنما أقيم فى هذا المكان .

مسجد الطائف

وأقام المسلمون ينتظرون ما الله صانع بهم وبعدوّهم . قال أحد الأعراب للنبىّ : إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جُحْره ، لا سبيل إلى إخراجه منه إلا بطول المكث ، فإن تركته لم يلحقك منه ضرّ . لكنَّما شق على محمد أن يعود أدراجَه دون أن يصيب من ثقيف شيئاً . وكان لبنى دَوْس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علمٌ بالرماية بالمنجنيق وبمهاجمة الحصون فى

حماية الدَّبابات . وكان أحد رؤسائها الطُّفَيْل قد صحب محمداً منذ غزا خَيْبَر ، وكان معه عند حصار الطائف ، فأوفده النبيّ إلى قومه يستنصرهم ؛ فجاء بطائفة منهم ومعهم أدواتهم فبلغوا الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إيَّاها ، ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ، وبعثوا إليها بالدّبابات دخل تحتها نفر منهم ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليَخرِقوه . لكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار . فقد أحْمَوا قطعاً من الحديد بالنار ، حتى إذا انصهرت ألقوها على الدّبابات فحرَّقتها ، ففرَّ جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا ؛ فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعة منهم . لم يُفلح هذا المجهود إذاً أيضاً ، ولم يستطع المسلمون التغلُّب على مناعة هذه الحصون

رمى الطائف بالمنجنيق

ماذا عساهم بعد ذلك يصنعون ؟ فكر محمد فى هذا وفكر طويلا . ولكن ألم ينتصر على بنى النَّضير ويُجْلِها عن ديارها بإحراق نخيلها؟ ! وكروم الطائف أكبر قيمة من نخيل بنى النَّضير ، فهى كروم لها من ذيوع الاسم فى بلادالعرب جمعاء ما تباهى به الطائف أخصب بلاد العرب ، وما جعل الطائف واحة كأنها الجنة وسط هذه الصحارى . وأمر محمد فبدأ المسلمون ينفِّذون ، يقطعون ويحرّقون الكروم التى ما يزال لها حتى اليوم مثل ما كان لها من شهرة وذيوع صوت . ورأى الثقفيُّون هذا وأيقنوا أن محمداً جادٌّ فيه ، فبعثوا إليه أن يأخذه لنفسه إن شاء وأن يدعه لله وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة . استمهل محمد رجاله . ثم نادى فى ثقيف إنه مُعْتِق من جاء إليه من الطائف . ففرَّ إليه قُرابة عشرين من أهلها . عرف منهم أن بالحصون من الذخيرة ما يكْفى أمداً طويلا . هنالك رأى أن الحصار سيطول أمده ، وأن جيوشه تودُّ الرجوع لاقتسام الفىء الذى كسبوا ، وأنه إن أصرَّ على البقاء فقد ينفد صبرهم . هذا وكانت الأشهر الحرم قد آذنت ولا يجوز فيها قتال . لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه . وكان ذو القعدة قد هَلَّ فرجع بجيشه معتمراً ، وذكر أنه متجهِّز إلى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم .

قطع الكروم وتحريقها

وانصرف محمد والمسلمون معه عن الطائف قافلين إلى مكة حتى نزلوا

وفد هوازن يستردون السبايا

الجِعْرانة حيث تركوا غنائمهم وأسراهم . وهنالك نزلوا يقتمسون . وفصل الرسول الخمس لنفسه ووزع ما بقى على أصحابه . وإنهم بالجِعْرانة إذ جاء وفدٌ من هوازن قد أسلموا وهم يرتجون أن يرد عليهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، بعد أن طال عنهم غيابهم ، وبعد أن ذاقوا مرارة ما حلَّ بهم . ولقى الوفد محمداً ، وخاطبه أحدهم قائلا : يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عمَّاتك وخالاتك وحواضنك اللواتى كن يكفلنك . ولو أنَّا مَلَحْنا[1] للحارث بن أبى شِمْر ، أو للنعمان بن المُنْذِر ، ثم نزل منَّا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته علينا ؛ وأنت خير المكفولين . ولم يخطئ هؤلاء فى تذكير محمد بصلته بهم وقرابته منهم ؛ فقد كانت بين السبايا امرأة تخطَّت الكهولة عُنف عليها الجند المسلمون ؛ فقالت لهم : تعلمُوا والله إنى لأخت صاحبكم من الرَّضاعة . فلم يصدّقوها وجاءوا بها محمداً ، فعرَفها فإذا هى الشَّيْماء بنت الحارث ابن عبد العُزَّى . وأدناها محمد منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، وخيَّرها إن أحبَّت أبقاها وإن أحبَّت متَّعها ورجَعها إلى قومها ؛ فاختارت الرجوع إلى قومها .

طبيعىٌّ وتلك صلة محمد بهؤلاء الرجال الذين أقبلوا عليه من هوازن مسلمين ، أن يعطف عليهم وأن يجيبهم إلى مطلبهم ؛ فقد كان ذلك دائماً شأنه مع كل من أسدى إليه يوماً من الدهر يداً . كان عِرْفانُ الجميل بعضَ شأنه ، والبرُّ بكليم القلب فى جِبِلّته . فلمَّا سمع مقالتهم سألهم : أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ! بل تردّ علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحبّ إلينا . فقال عليه السلامُ : أمَّا ما كان لى ولبنى عبد المطَّلب فهو لكم . وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأُعطيكم عند ذلك وأسأل لكم . ونفَّذت هوازن قول النبىّ ، فأجابهم : أمَّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وكذلك قال الأنصار . أما الأقْرَع بن حابس عن تميم وعُيَيْنَةُ بن حِصْن فرفضا ، ورفض

رد سبايا هوازن

(١) أى أرضعناه .

العباس بن مِرْداس عن بنى سُلَيْم ؛ لكن بنى سليم لم يُقِرُّوا العبَّـــاس على رفضه . هنالك قال النبىّ : أمَّا مَنْ تمسّك منكم بحقِّه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أوّل سبى أصيبه . وكذلك رُدّت نساءُ هوازن وأبْناؤها إليها بعد أن أعلنت إسلامها .

وسأل محمد وفد هوازن عن مالك بن عوف النَّصْرىّ . فلمَّا علم أنه ما يزال بالطائف مع ثقيف ، طلب إليهم أن يُبلغوه : أنه إن أتاه مسلماً ردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل . ولم يبطئ مالك حين علم بوعد الرسول أن أسرج فرسه فى سِرّ من ثقيف ، وأن نجا بها حتى لحق بالرسول ، فأعلن إسلامه فأخذ أهله وماله ومائة من الإبل . وأوجس الناس خيفة إن أفشى محمد هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص من قسمتهم من الفىء ، فألَحُّوا فى أن يأخذ كلٌّ فيأه وتهامسوا بذلك . فلمَّا بلغ الهمسُ النبىّ وقف إلى جانب بعير فأخذ وَبَرَة من سَنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها وقال : « أيها الناس ، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » . وطلب إلى كلّ أن يردَّ ما غنم حتى تكون القسمة العدل ، « فمن أخذ شيئاً فى غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عاراً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة » .

مخافة الناس نقص الفىء

قال محمد هذه العبارة مُغْضَباً بعد أن ردّوا إليه رداءه الذى أخذوا ، وبعد أن صاح بهم : رُدوا إلىَّ ردائى أيها الناس . فوالله لو أنَّ لكم بعدد شجر تهامةَ نَعَماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذَّاباً . ثم إنه خمَّس الغنيمة وأعطى من خُمسه الذين كانوا إلى أيَّام أشدّ الناس عداوة له نصيباً على نصيبهم ، فأعطى مائة من الإبل كلاّ من أبى سفيان وابنه معاوية والحارث بن الحارث بن كَلَدَةَ والحارث بن هشام وسُهَيْل بن عمرو وحُوَيْطب ابن عبد العُزَّى والأشراف ورؤساء العشائر ممن تألَّف بعد فتح مكة ؛ وأعطى خمسين من الإبل من كانوا دون هؤلاء شأناً ومكانة . وقد بلغ عدد الذين أعطاهم عشرات . وبدا محمد يومئذ غايةً من السماحة والكرم مما جعل أعداء الأمس تنطلق ألسنتهم بجميل الثناء عليه . ولم يَدَعْ لأحد من هؤلاء المؤلفة قلوبهم حاجةً إلا قضاها . أعطى عبَّاس بن مِرْداس عدداً من الإبل لم يُرضِه

وعاتبه على أن فضّل عليه عيَينة والأقرَعَ وغيرهما . فقال النبيّ اذهبوا به فاقطعوا عنّي لسانه . فأعطَوه حتى رضِي وكان ذلك قطعَ لسانه .

الأنصار وعطاء المؤلفة قلوبهم

على أن هذا الذى تألّف به النبيّ قلوبَ من كانوا إلى أمس أعداءه ، قد جعل الأنصار يتحدّث بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول ويقول بعضهم لبعض : « لقِي والله رسولُ الله قومَه » . ورأى سعد بن عُبَادة أن يُبلغ النبيّ مقالة الأنصار وَيؤيدهم فيها ؛ فقال له النبيّ : اجْمَع لى قومَك فى هذه الحظيرة فجمعهم سعد وأتاهم النبى ، فدار الحوار الآتى :

محمد — يا معشر الأنصار ، ما قالةٌ بلغتنى عنكم وجِدَةٌ وجدْتموها فى أنفسكم ؟ ! ألم آتِكم ضُلاّلاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم ؟

الأنصار — بلى ! الله ورسوله أمَنُّ وأفضل .

محمد — ألاتُجيبوننى يا معشر الأنصار ؟ !

الأنصار — بماذا نُجيبك يا رسول الله ولرسوله المَنّ والفضل .

محمد — أمَا والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقتم ولصُدِّقْتم ، أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك . أوَجدتم يا معشر الأنصار فى لُعاعة (١) من الدنيا تألّفتُ بها قوماً ليُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترْضوْن يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ! . فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار . ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

قال النبيّ هذه العبارات وكله تأثّر ، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزّوه ، حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار وقالوا : رضينا برسول الله قِسْماً وحظًّا .

---

(١) اللعاعة : الشيء اليسير.

وكذلك أظهر النبيّ رغبةً عن هذا المال الذى غنم فى حُنَيْن والذى بلغ ما لم يبلغه فىء من قبلُ . أظهر رغبته عنه ، وجعله وسيلة تُتألَّف بها قلوب الذين كانوا ، إلى أسابيع قليلة ، مشركين ليرَوْا فى الدين الجديد سعادة الدنيا والآخرة . وإذا كان محمد قد عنَّاه أمر هذا المال فى قسمته حتى لقد كاد المسلمون يتهمونه ، وإذا هو كان قد أغضب الأنصار بما أعطى المؤلَّفة قلوبهم ، فإنه قد أظهر من العدل ومن بعد النظر ومن حسن السياسة ما مكَّنه من أن يعود بهذه الألوف من العرب وكلهم راضيةٌ نفسه ، مطمْئن قلبه ، مستعدٌ لأن يهب حياته فى سبيل الله .

وخرج الرسول من الجِعْرانة معتمراً إلى مكة . فلما قضى عمرته استخلف عَتَّاب بن أُسَيْد على أمّ القرى ، وخلَّف معه مُعَاذ بن جَبَل ليفقّه الناس فى دينهم ويعلِّمهم القرآن ، وعاد هو والأنصار والمهاجرون قافلين إلى المدينة ليقيم النبيّ بها ريثما يرزقه الله ابنه إبراهيم ، وليطمئن إلى شىء من سكينة الحياة زمناً ثم يتجهز إلى غزوة تبوك بالشام .

الفصل السادس والعشرون

إبراهيم ونساء النبى

العودة إلى المدينة – بانت سعاد – وفاة زينب – مولد إبراهيم – غيرة نساء النبى من مارية – مظاهرة حفصة وعائشة – حديث المغافير – مارية فى دار حفصة – هجر النبى نساءه شهراً – حديث عمر مع النبى – سورة التحريم .

أثر الفتح فى شبه الجزيرة

عاد محمد إلى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره فى حُنَيْن وحصاره الطائف ، وقد ثبت فى نفوس العرب جميعاً أن لم يبق لأحد قِبَلٌ به فى شبه الجزيرة كلها ، وأن لم يبق للسان أن ينطق بإيذائه أو الطعن عليه . وعاد الأنصار والمهاجرون معه وكلهم مغتبط بفتح الله على نبيه بلدَ المسجد الحرام ، وبما هدى أهل مكة إليه من الإسلام ، وبما دان له العرب على اختلاف قبائلهم من الطاعة والإذعان . عادوا جميعاً إلى المدينة ليطمئنوا إلى شىء من سكينة الحياة ، بعد أن ترك محمد وراءه عَتَّاب بن أُسَيْد على أمّ القرى ومُعاذ بن جبل ليفقِّه الناس دينهم وليعلِّمهم القرآن . وقد ترك هذا النصر ، الذى لم يعرف له فى تاريخ العرب وفى رواياتهم نظير ، أثراً بالغاً فى نفوس العرب جميعاً : ترك أثراً فى نفوس العظماء والسادة الذين كانوا لا يتوهمون مجىء يوم يدينون فيه لمحمد بطاعة ، أو يرتضون دينه لأنفسهم ديناً ؛ وفى نفوس الشعراء الذين ينطقون بلسان هؤلاء السادة مقابل ما يلقَوْن من عطفهم وتأييدهم ، أو مقابل ما يلقون من تأييد القبائل ومؤازرتها ؛ وفى نفس تلك القبائل البادية التى لم تكن تعدِل بحرّيتها شيئاً ، ولا كان يدور بخاطرها أن تنضم تحت لواء غير لوائها الخاص أو تموت دون ذلك فى حرب وطعان تفنى خلالها فناء تامًّا . وماذا يُجدِى على الشعراء شعرُهم ، وعلى السادة سيادتهم ، وعلى القبائل احتفاظها بذاتيتها ، أمام هذه القوّة الخارقة للطبيعة ، لا تقف قوّة أمامها ولا يجرؤ سلطان على اعتراضها !

حديث كعب ابن زهير

وقد بلغ الأثر فى نفوس العرب أن كتب بُجَيْر بن زُهَيْر إلى أخيه كَعْب بعد مُنْصَرَف النبىّ عن الطائف يُخبره أن محمداً قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه ، وأن من بقى من هؤلاء الشعراء قد هربوا فى كل وجه ، وينصح إليه أن يطير إلى النبىّ بالمدينة ؛ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، أو ينجو بنفسه إلى حيث شاء من أغوار الأرض . وإنما قصّ بجيرٌ حقًّا ؛ فلم يُقْتَلْ بمكة أحدٌ بأمر محمد خلا أربعة ، منهم شاعِر آذى النبىّ هجاؤه ، ومنهم اثنان آذوا زينب ابنته حين أرادت بإذن زوجها أن تهاجر من مكة لتلحَق أباها . وأيقن كعب صدقَ أخيه ، وإنه إن لم يأت محمداً ظلّ حياته طريداً مشرداً ؛ لذلك أسرع إلى المدينة ونزل عند صديق له قديم . فلما أصبح غدا إلى المسجد واستأمن النبىّ وأنشده قصيدة :

بأنت سُعَادُ فقلبى اليوم متبولُ   مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ

فعفا النبى عنه وحسن من بعد ذلك إسلامه .

وفود القبائل على النبى

وكان من هذا الأثر كذلك أن بدأت القبائل تقبل على النبى تقدّم الطاعة بين يديه : قدِم وفد من طيئ وعلى رأسهم سيدهم زيد الخيْل ، فلما انتهوا إليه أحسن استقبالهم ، وتحدّث إليه زيد ؛ فقال النبى له : ما ذُكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كلَّ ما فيه . ودعاه « زيد الخير » بديلاً من « زيد الخيل » . وأسلمت طيٍّ وزيدٌ على رأسها .

زيد الخيل

وكان عَدِىّ بن حاتم الطائى نَصرانيًّا ، وكان من أشد العرب كراهية لمحمد . فلما رأى أمره وأمر المسلمين فى شبه الجزيرة ، تحمَّل فى إبله بأهله وولده ولحِق بأهل دينه من النصارى بالشام ، وإنما فرَّ عدى حين أوفد النبىّ علىَّ بن أبى طالب ليهدم صنم طيئ ، وهدم علىٌّ الصنم واحتمل الغنائم والأسرى ومن بينهم ابنة حاتم أخت عدى التى حبِست فى حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تُحبَس فيها . ومرّ بها النبى فقامت إليه وقالت : يا رسول الله هَلَكَ الوالد وغاب الرافد ، فامْنُنْ علىَّ منَّ الله عليك . وأعرض عنها النبىّ حين علم أن رافدها عدىٌّ بن حاتم الفارُّ من الله ورسوله . لكنها راجعته ، وذكر هو ما

كان لأبيها فى الجاهليَّة من كرم أعلى به ذكر العرب ، فأمر بتسريحها وكساها كسوة حسنة وأعطاها نفقتها وحملها مع أوّل ركب قاصد إلى الشام . فلمَّا لقيت أخاها وذكرت له ما أكرمها به محمد عاد إليه فألقى بنفسه إلى صفوف المسلمين .

وكذلك جعل السادة وجعلت القبائل تفد إلى محمد ، بعد فتح مكة وبعد انتصار حُنين وحصار الطائف ، تدين له بالرسالة وبالإسلام ، وهو فى مُقامه ذاك بالمدينة مطمئن إلى نصر الله وإلى شىء من سكينة الحياة .

موت زينب بنت النبى

لكنَّ سكينة حياته لم تكن يومئذ صفواً ؛ فقد كانت زينب ابنته إذ ذاك مريضة مرضاً خُشى منه عليها . وهى منذ آذاها الحُوَيْرِث وهبَّار حين خروجها من مكة أذًى أفزعها فأجهضها ، قد ظلَّت مهدَّمة العافية ، وانتهى المرض بوفاتها . وبموتها لم يبق لمحمد من عقبه إلا فاطمة ، بعد أن ماتت أمّ كلثوم كما ماتت رُقيَّة قبل زينب ، وحزن محمد لفقدها وذكر لها رقة شمائلها وجميل وفائها لزوجها أبى العاصى بن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسره ببدر ، وتفتديه مع ما كان من إسلامها وشركه ، ومع ما كان من محاربته أباها حرباً لو انتصرت قريش فيها لما أبقت لمحمد على حياة . ذكر محمد رقة شمائلها وجميل وفائها ، وذكر ما لاقت من ألم المرض طوال أيامها منذ عادت من مكة إلى حين وفاتها . وكان محمد يشارك كل ذى ألم فى ألمه ، وكلَّ ذى مصاب فى مصابه ، وكان يذهب إلى أطراف المدينة وإلى ضواحيها يعود المريض ، ويواسى البائس ، ويأسو جِراح الكليم . فإذا أصابه المقدار فى ابنته بعد ما أصابه من قبلُ فى أختيها وكما أصابه قبل رسالته فى أخويها ، فلا جرم أن يحزن ويشتدَّ به جوى الحزن ، وإن وجد من برِّ الله ورفقه به ما يعزِّيه كما يسلو .

مولد إبراهيم

ولم يطل انتظاره التأساء ؛ فقد رزقه الله من مارية القِبطية غلاماً دعاه إبراهيم تَيَمُّناً باسم إبراهيم جدّ الأنبياء الحنيف المسلم . وكانت ماريَّة إلى يومئذ ومنذ أهداها المقوقس إلى النبىّ فى مرتبة السرارى ؛ فلم يكن لها من أجل ذلك منزل بجوار المسجد كما كان لأزواج النبىّ أمهات المؤمنين ؛ بل أنزلها محمد بالعالية من ضواحى المدينة ، فى المحلّ الذى يقال له الآن مَشْرَبة أم إبراهيم ،

بمنزل تحيط به كروم ؛ وكان يختلف إليها فيه كما يزور الرجل ملك يمينه . وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس إليه مع أختها سيرين ، وجعل سيرين لحسان بن ثابت . ولم يكن محمد يرجو أن يعقب بعد أن ظلت أزواجه جميعاً من بعد وفاة خديجة ومنهن الفتاة الفتية ، ومنهن النَّصَف التى أعقبت من قبلُ لم تبشِّر إحداهن بخِصب عشرة أعوام متتابعة . فلما حملت مارية ثم ولدت إبراهيم ، وقد تخطَّى هو إلى الستين . فاضت بالمسرَّة نفسه ، وامتلأ هذا القلب الإنسانى الكبير أنساً وغبطة ، وارتفعت مارية بهذا الميلاد فى عينه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه ، وزادتها إلى ذلك عنده حظوة ومنه قرباً .

غيرة أزواج النبى

كان طبيعيًّا أن يدسَّ ذلك فى نفوس سائر أزواجه غَيْرةً تزايدت أضعافاً بأنها أمُّ إبراهيم وبأنهن جميعاً لا ولد لهن . ولم تكن نظرة النبىّ إلى هذا الطفل إلا تزيد هذه الغيرة كل يوم فى نفوسهن اشتعالاً . فهو قد أكرم سَلَمى زوج أبى رافع قابلة مارية أيَّما إكرام . وهو قد تصدق يوم ولد بوزن شعره وَرِقاً على كل واحد من المساكين . وهو قد دفعه لتُرضعه أم سيف وجعل فى حيازتها سبعاً من الماعز ترضعه لبنها . وهو كان يمرّ كل يوم بدار مارية ليراه وليزداد أنساً بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة ، ومسرَّةً بنموّه وجماله . أى شىء أشد من هذا كله إثارة للغيرة فى نفوس أزواج لم يلدن ؟ ! وإلى أى حدّ تدفع الغيرة أولئك الأزواج ؟

حمل النبىّ إبراهيم يوماً بين ذراعيه إلى عائشة وهو فياض بالبشر ، ودعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه . فنظرت عائشة إلى الطفل وقالت إنها لا ترى بينهما شبهاً . ولما رأت النبىّ فرحاً بنموّ الطفل لاحظت فى غضب أن كل طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيم يكون مثلَه أو خيراً منه نموًّا . وكذلك كان مولد إبراهيم سبباً أثار فى زوجات النبىّ امتعاضاً لم يقف أثره عند هذه الإجابات الجافية بل تعدّاها إلى أكثر منها . وترك فى تاريخ محمد وفى تاريخ الإسلام من الأثر ما نزل به الوحى وقدَّسه كتاب الله الكريم .

النبى ونساؤه

وكان طبيعيًّا أن يحدُث هذا الأثر ؛ فقد جعل محمد لنسائه من المكانة

ما لم يكن معروفا قط عند العرب . قال عمر بن الخطاب فى حديث له : « والله إنْ كنا فى الجاهليَّة ما نَعُدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم . فبينما أنا فى أمر آتمره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعتَ كذا وكذا ! فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا ، وما تكلُّفك فى أمر أريده ! فقالت لى : عجباً لك يا بن الخطاب ؟ ما تريد أن تُراجَع أنت ، وإنّ ابنتك لتُراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلَّ يومَه غضبان . قال عمر : فآخذ ردائى ثم أخرج مكانى حتى أدخلَ على حفصة فقلت لها : يا بُنَيَّة ، إنك لتَرَاجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنَّا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحَذِّرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بنيَّة لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنُها وحبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها . ثم خرجتُ حتى أدخُل على أمّ سَلَمة لقرابتى منها فكلَّمتها ؛ فقالت لى أم سلمة : عجباً لك يا بن الخطاب ! لقد دخلتَ فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال عمر : فأخذتنى أخذاً كسرتْنى به عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها . وروى مسلم فى صحيحه أن أبا بكر استأذن على النبى ودخل بعد أن أذن له ، ثم استأذن عمر ودخل بعد الإذن ، فوجد النبى جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكناً . فقال عمر : « لأقولن شيئاً أضحك النبى صلى الله عليه وسلم . ثم قال : يا رسول الله ، لو رأيتَ بنت خارجة (١) . سألتنى النفقة فقمتُ إليها فوجأت (٢) عنقها . فضحك رسول الله وقال : هنَّ حولى يسألنْنى النفقة . فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً شيئاً ليس عنده » .

وإنما دخل أبو بكر وعمر على النبىّ لأنه عليه السلام لم يخرج للصلاة : فتساءل المسلمون بعدها عما منعه . وفى حديث أبى بكر وعمر مع عائشة وحفصة

---

(١) كذا فى مسلم . وليس فى الطبرى ، وقد سرد من زوجات عمر ، من تسمى بابنة خارجة . وفى روح المعانى : « لو رأيتَ ابنة زيد . . . إلخ » .

(٢) وجأ عنقه : ضربه ولكزه .

نزل قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجراً عَظِيماً)[١] .

نساء النبي يأتمرن

ثم إن نساء النبيّ كن يأتمرن به . فقد كان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن . فدخل على حفصة فى رواية ، وعلى زينب بنت جحش فى رواية فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فأحدث ذلك الغيرة فى نفوس سائر نسائه . وقالت عائشة : « فتواطأْتُ أنا وحفصة أن أيَّتنا ما دخل عليها النبيّ صلى الله عليه وسلم فلتقل إنى أجد ريح مَغَافير . أكلْتَ مغافير » (والمغافير شىء حلوٌ له ريح كريهة ؛ وكان النبيّ لا يحبّ الرائحة الكريهة) فدخل على إحداهما فقالت له ذلك . فقال : بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له . وروت سَوْدةُ ، وكانت تواطأت على مثل ذلك مع عائشة ، أن النبيَّ لمَّا دنا منها قالت له : أكلتَ مغافير ؟ قال : لا . قالت : فما هذه الريح ؟ قال : سقتنى حفصة شربةً من عسل . قالت : جَرَسَتْ نَحْلُه العُرْفُط[٢] . ودخل على عائشة فقالت له ما قالت سودة ، ثم دخل على صفيَّة فقالت له مثل قولهما ، فحرّمه على نفسه . فلمَّا فعل قالت سودة : سبحانَ الله ! والله لقد حَرَمْناه . فنظرت إليها عائشة نظرة ذات مغزًى وقالت لها : اسكتى .

طبيعىّ وقد جعل النبي لأزواجه هذه المكانة ، بعد أن كنّ كغيرهن من نساء العرب لا رأى لهن ، أن يتغالين فى الاستمتاع بحرية لم يكن لمثيلاتهن بها عهد ، وأن تبلغ إحداهن من مراجعة النبيّ أن يظل يومَه غضبان . وكم أعرض عنهنّ وكم هجر بعضهن حتى لا يدفعهن رفقه بهنّ إلى مزيد من غلوهنّ ؛ وأن تخرج بإحداهن الغيرة إلى غير لائق بالسداد . فلما ولدت مارية إبراهيم خرجت

---

(١) سورة الأحزاب آيتا ٢٨ و ٢٩ .

(٢) أى رعت نحله شجر العرفط الذى يثمر المغافير .

الغيرة بأزواج النبيّ عما أدّبهنّ به ، حتى كان هذا الحديث بينه وبين عائشة إذ تُنكر عليه كل شبه بين إبراهيم وبينه ، ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبيّ براءتها منه .

ثورة نساء النبي

وحدث أن كانت حفصة يوماً قد ذهبت إلى أبيها فتحدثت عنده . وجاءت مارية إلى النبيّ وهو في دار حفصة وأقامت بها زمناً معه . وعادت حفصة فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها وهي أشدُّ ما تكون غيرَة ، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدّة . فلما خرجت مارية ودخلت حفصة على النبي ، قالت له : « لقد رأيتُ مَنْ كان عندك . والله لقد سببتنى . وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك » . وأدرك محمد أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت والتحدُّث به إلى عائشة أو إلى غيرها من أزواجه ، فأراد إرضاءها بأن حلف لها أن مارية عليه حرامٌ إذا هى لم تذكر مما رأت شيئاً . ووعدته حفصة أن تفعل . لكن الغيرة أكلت صدرها فلم تطق كتمان ما به ، فأسرّته إلى عائشة . وأومأت هذه إلى النبيّ بما رأى منه أن حفصة لم تَصُن سِرّه . ولعل الأمر لم يقف عند حفصة وعائشة من أزواج النبيّ . ولعلهن جميعاً وقد رأين ما رفع النبي من مكانة مارية قد تابعن عائشة وحفصة حين ظاهرتا على النبيّ على أثر قصة مارية هذه ، وإن تكن لذاتها قصة لا شيء فيها أكثر مما يقع بين رجل وزوجه ، أو بين رجل وما ملكت يمينه ، مما هو حِــــل له ومما لا موضع فيه لهذه الضجة التى أثارتها ابنتا أبى بكر وعمر محاولتين أن تقتصا لذاتيهما من ميل النبيّ لمارية . وقد رأينا أن شيئاً من الجفوة وقع بين النبي وأزواجه فى أوقات مختلفة بسبب النفقة ، أو بسبب عسل زينب ، أو لغير ذلك من الأسباب التى تدل على أن أزواج النبي كن يَجِدن عليه أن يكون لعائشة أحب ، أو أن يكون لمارية أهوى .

بين بنت جحش وعائشة

وبلغ من أمرهن أن أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش وهو عند عائشة تُصارحه بأنه لا يَعدل بين نسائه ، وأنه لحبه لعائشة يظلمهن . ألم يجعل لكل امرأة يوماً وليلة ! . ثم رأت سودة انصراف النبي عنها وعدم بشاشته لها ، فوهبت يومها وليلتها لعائشة إرضاء للرسول . ولم تقف زينب من سِفارتها عند

الكلام فى ميل النبى عن العدل بين نسائه ؛ بل نالت من عائشة وهى جالسة بما جعل عائشة تتحفّز للرد عليها لولا إشارات من النبى كانت تهدئ من حِدتها . غير أن زينب اندفعت ولج بها الاندفاع وبالغت فى النيل من عائشة ، حتى لم يبق للنبىّ بدٌّ من أن يدع لحُمَيْرائه أن تدافع عن نفسها . وتكلّمت عائشة بما أفحم زينب وسَرَّ النبى ودعاه إلى الإعجاب بابنة أبى بكر .

منازعات أمهات المؤمنين .

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين فى بعض الأحايين ، بسبب إيثاره بعضهن بالمحبة على بعض ، حداً هَمَّ النبىُّ معه أن يطلق بعضهن لولا أنهن جعلنه فى حِل أن يؤثر من يشاء منهن على من يشاء . فلما ولدت مارية إبراهيم لجّت بهن الغيرة أعظم لجَاج ، وكانت بعائشة ألج . ومدّ لهن فى لجَاج الغيرة بهن هذا الرفق الذى كان محمد يعاملهنّ به ، وهذه المكانة التى رفعهنّ إليها . ومحمد ليس خليًّا فيشغَلَ وقته بهذا اللَّجاج ويدع نفسه لعبث نسائه ، فلا بدَّ من درس فيه حزمٌ وفيه صرامة يردُّ الأمور بين أزواجه إلى نصابها ، ويدع له طمأنينة التفكير فيما فرض الله عليه من الدعوة إلى رسالته . وليكن هذا الدرس هَجْرَهن والتهديدَ بفراقهن ؛ فإن ثبن إلى رشادهن فذاك ، وإلا متعهن وسرحهن سَرَاحاً جميلاً .

هجر النبى نساءه

وانقطع النبى عن نسائه شهراً كاملا لا يكلِّم أحداً فى شأنهن ، ولا يجرؤ أحد أن يفاتحه فى حديثهن . وفى خلال هذا الشهر اتجه بتفكيره إلى ما يجب عليه وعلى المسلمين للدعوة إلى الإسلام ، ولمد سلطانه إلى ما وراء شبه الجزيرة . على أن أبا بكر وعمر وأصهار النبىّ جميعاً كانوا فى قلق أشدّ القلق على ما قُدِّر مصيراً لأمهات المؤمنين ، وما يتعرضن له من غضب رسول الله ، وما يجرُّ إليه غضب الرسول من غضب الله وغضب ملائكته ، بل لقد قيل : إن النبىّ طلّق حفصة بنت عمر ، بعد الذى كان من إفشائها ما وعدت أن تكتُمه . وقد سَرى الهمس بين المسلمين أن النبى مطلّق أزواجه . وأزواجه خلال ذلك مضطربات نادمات ، أن دفعتْهن الغيرة إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهنّ ، هو منهن الأخ والأب والابن وكل ما فى الحياة وما وراء الحياة . وجعل محمد يقضى أكثر

وقته فى خِزانة له ذات مَشْرَبة ، يجلس غلامُه رَبَاح على أسْكُفَّتها (١) ما أقام هو بالخزانة ، ويرقَى هو إليها على جذع من نخل هو الخشونة كل الخشونة .

عمر يسترضى النبى

وإنه لفى خِزانته يوم أوْفَى الشهر الذى نذر فيه هجر نسائه على التمام ، وقد أقام المسلمون بالمسجد مطرقين ينكُتون الحصى ويقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، ويأسَوْن لذلك أسى يبدو على وجوههم واضحاً عميقاً ، إذ قام عمر من بينهم فقصد إلى مقام النبىّ بخزانته ، ونادى غلامه رباحاً كى يستأذن له على رسول الله . ونظر إلى رباح يروم الجواب ، فإذا رباح لا يقول شيئاً علامة أن النبىّ لم يأذَن . فكرر عمر النداء ؛ ولم يجب رباح مرة أخرى . فرفع عمر صوته قائلا : « يا رباح استأذن لى عندك على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنى أظنه ظن أنى جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها » . وأذن النبىّ ، فدخل عمر فجلس ثم أجال بصره فيما حوله وبكى . قال محمد : ما يبكيك يا بن الخطاب ؟ وكان الذى أبكاه هذا الحصير الذى رأى النبىّ مضطجعاً عليه وقد أثَّر فى جنبه ، والخزانة لا شىء فيها إلا قبضة من شعير ومثلها من قَرَظ وأفيقٌ(٢) معلَّق . فلما ذكر عمر ما يبكيه علَّمه محمد من وجوب الإعراض عن الدنيا ما ردَّ إليه طمأنينته ، ثم قال عمر : يا رسول الله ، ما يشقُّ عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلَّقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . ثم انعكف يحدث النبىّ حتى تحسَّر الغضبُ عن وجهه وحتى ضحك فلما رأى عمر ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه ، فلما ذكر النبى أنه لم يطلقهن استأذنه فى أن يُفْضى بالأمر إلى أولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون . ونزل إلى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : لم يطلِّق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نساءه . وفى هذه القصة نزلت الآيات الكريمة : (يَاأَيُّهَا النَّبىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيم . قدْ فَرَضَ اللهُ لكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ واللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِىُّ إِلَى بَعْض

---

(١) أسكفتها : عتبتها . (٢) أفيق : جلد .

أَزْوَاجِهِ حدِيثاً فلمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ. إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْملَائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) (١) .

وبذلك انتهى الحادث ، وثاب إلى نساء النبى رشادهن ، ورجع هو إليهن تائبات عابدات مؤمنات ، وعادت إلى حياته البيتيَّة السكينة التى يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فُرض عليه أداؤه .

حكم النقد التاريخى النزيه

ما قصصت الآن ، عن هجر محمد نساءه وتخييره إياهن ومقدّمات هذا الهجر ونتائجه والوقائع التى سبقته وأدت إليه ، هو فى رأيى الرواية الصحيحة لتاريخ هذا الحادث . وهى رواية يتضافر على تأييدها ما جاء فى كتب التفسير وفى كتب الحديث ، وما جاء متفرقاً عن أخبار محمد ونسائه فى كتب السيرة المختلفة . بَيْدَ أنه لم تكن واحدة من هذه السير تقص الحوادث أو تضع المقدمات والنتائج بالصورة التى سردناها ههنا . وأكثر السير تمرّ بهذا الحادث مرًّا دون أن تقف عنده ؛ وكأنما تجده خَشِن الملمس فتخشى أن تَقْرَبَه . وبعضها يقف عند رواية خبر العسل والمغافير ، ولا يشير بكلمة إلى مسألة حفصة ومارية . فأمَّا المستشرقون فيجعلون مسألة حفصة ومارية وإفضاء حفصة إلى عائشة بما عاهدت النبىّ أن تكتمه ، سبب كل الذى وقع ؛ ليحاولوا بذلك أن يُضيفوا جديداً لِما يُلقون فى رُوع قرائهم عن النبىّ العربى من أنه كان رجلا مُحبًّا للنساء حبًّا معيباً . وعندى أن المؤرّخين المسلمين لا عذر لهم فى إغفال هذه الوقائع ولها مغزاها الدقيق الذى سُقنا شيئاً من أمره ، وأن المستشرقين يتخطَّون الدقة التاريخية متأثرين فى ذلك بهواهم المسيحىّ . فالنقد

(١) سورة التحريم الآيات من ١ إلى ٥ .

التاريخى النزيه يأبى كل الإباء على أىّ إنسان ، بَلْه عظيم كمحمد ، أن يجعل من إفضاء حفصة لعائشة بأنها وجدت زوجها فى بيتها مع مولاة له هى ملك يمينه ، فهى بذلك حِلٌّ له ، سبباً لهجر محمد نساءه جميعاً شهراً كاملاً ، وتهديدِه إياهنَّ جميعاً بأن يطلقهنَّ . والنقد التاريخى النزيه يأبى كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هذا الهجر والتهديد . فإذا كان الرجل عظيماً كمحمد ، رقيقاً كمحمد ، واسع الصدر طويل الأناة متصفاً بما لمحمد من سائر الصفات التى يُقِرُّ له بها مؤرخوه جميعاً على سواء ، كان اعتبار أىّ الحادثين لذاته سبباً لهذا الهجر والتهديد بالطلاق مما يَزْوَرُّ عند النقد التاريخىّ وينأى عنه بجانبه أشدّ النأى ، وإنما يطمئن هذا النقد ويستقيم منطق التاريخ إذا سِيقت الحوادثُ المَسَاق الذى لا مفرّ معه من أن تؤدّى إلى نتائجها المحتومة ، فتصبح بذلك أموراً طبيعيَّة يُسيغها العقل ويرضاها العلم . وما فعلنا نحن هو فى نظرنا المساق الطبيعىُّ للحوادث ، وهو الذى يتفق مع حكمة محمد وعظمته وحزمه وبعد نظره .

دفع اعتراض المستشرقين

ويتحدث بعض المستشرقين عما نزل من الآيات فى مستُهلّ سورة التحريم مما نقلنا هنا ، ويذكر أن كُتب الشرق المقدّسة جميعاً لم تُشِرْ إلى مثل هذا الحادث المنزلىّ على هذه الصورة . وما أحسبنا فى حاجة إلى أن نذكر ما ورد بالكتب المقدّسة جميعاً ، والقرآن من بينها ، عن قوم لوط ونقيصتهم ، وما كان من مجادلتهم الملكَين ضَيْفَى لوط ، ولا ما ورد فى هذه الكتب عن امرأته وأنها كانت من الغابرين . بل إن التوراة لتقص نبأ ابنتى لوط ، إذ سقتا أباهما حتى ثمِل ليلتين متتاليتين لِيَمَسَّ كلًّ واحدة منهما ليلة كيما يُخصبها فتلد ، مخافة فناء آل لوط بعد أن أنزل الله بهم من الجزاء ما أنزل . ذلك بأنّ الكتب المقدّسة جميعاً جعلت من قصص الرسل وسيرهم وما صنعوا وما أصابهم عبرةً للناس . وقد جاء فى القرآن كثير من ذلك ، قصّ الله فيه على رسوله أحسن القصص . والقرآن لم ينزل لمحمد وحده ، وإنما نزل للناس كافة . ومحمد نبىٌّ ورسولٌ خلت من قبله الرسل الذين قصّ القرآن أخبارهم . فإذا قصّ القرآن من أخبار محمد وتناول من سيرته ليكون للمسلمين مثلاً ، وليكون للمسلمين فيه

أسوةٌ حسنة . وأشار إلى حكمته فى تصرُّفاته فلا شىء من ذلك يخرج عما أوردت سائر الكتب المقدّسة وما أورد القرآن من سِير الأنبياء . فإذا ذكرتَ أن هجر محمد نساءه لم يكن لسبب منفرد من الأسباب التى رُوِيتْ فى شأنه ، ولم يكن لأن حفصة أفضتْ إلى عائشة بما فعل محمد مع مارية مما يَحِقُّ لكل رجل مع أزواجه وما ملكت يمينه ، رأيتَ فى هذه الملاحظة التى يُبديها بعض المستشرقين ما لا يثبت أمام النقد التاريخى ، ولا يتفق مع ما جرت به الكتب المقدّسة فى شأن الأنبياء وحياتهم وأخبارهم .

الفصل السابع والعشرون

تبوك وموت إبراهيم

الخراج وجبايته – أنباء تهيؤ الروم – نفير محمد فى المسلمين ليتهيئوا للقتال بالشام – الخوالف المنافقون – شدة محمد معهم – الجيش العرم – فى لظى الطريق إلى الشام – انسحاب الروم خوفاً من محمد – عهده ليوحنا ولأمراء الحدود – العود إلى المدينة – مرض إبراهيم ووفاته وبكاء محمد إياه .

لم يغيّر هذا الحادث المنزلى وهذا الإضراب والاضطراب بين النبى وأزواجه من سير الشئون العامة شيئاً . وكانت الشئون العامة بعد فتح مكة وإسلام أهلها قد بدأ يتضاعف خطرها ، وقد بدأت العرب جميعاً تحسّ جلال هذا الخطر . فالبيت الحرام كان بيتَ العرب المقدَّس يحجون إليه منذ أجيال طويلة . وهذا البيت الحرام وما يتصل به من سِدَانة ورِفادة وسِقاية وما يتصل بالحج من مختلف الشعائر ، قد أصبح فى حكم محمد وفى حكم الدين الجديد . فلا جَرَمَ إذاً أن تزداد شئون المسلمين العامة لفتح مكة ، وأن يزداد المسلمون إحساساً بسلطانهم فى كل ناحية من شبه الجزيرة . وازدياد الشئون العامة يحتاج بطبعه إلى مزيد فى النفقات العامة . لذلك لم يكن بد من أن يدفع المسلمون زكاة العشر ، وأن يدفع العرب الذين أصرُّوا على جاهليتهم ما يُفْرَض عليهم من خراج . قد يُحرجهم ذلك ، وقد يدعوهم إلى التذمّر وإلى أكثر من التذمُّر ؛ لكن ما اتصل بالدين الجديد من نظام فى شبه الجزيرة جديد لم يجعل من جمع العشر والخراج مخرجاً . ولهذه الغاية أوفد محمد عاشريه بعد قليل من عوده من مكة ليجمعوا له عشر إيراد القبائل التى دانت للإسلام من غير أن يتعرضوا لأصول أموالها . وذهب كل واحد من هؤلاء وجهته ، فتلقتهم القبائل بالترحاب ودفعت لهم زكاة العشر طيِّبة بدفعها نفوسهم ؛ لم يَنِدّ عن ذلك غير فرع من بنى تميم وغير بنى المصْطَلِق .. فبينما كان العاشر يقتضى قبائل فى جوار بنى تميم زكاة

اقتضاء الزكاة والخراج

العشر وهم يدفعونها من إبلهم وأموالهم ، سارعت إليه بنو العَنْبَر (فَخِذٌ من بنى تميم) قبل أن يطالبها بزكاتها تحمل نبالها وسيوفها وطردته من أرضها . فلمَّا بلغ الخبر محمداً بعث إليهم عُيَيْنَة بن حِصْن على رأس خمسين فارساً انقضّوا عليهم فى سِرّ منهم ففرّوا ، وأصاب المسلمون الأسرى والسبايا وهم يزيدون على خمسين رجلاً وامرأة وطفلا وعادوا موفورين إلى المدينة ، وحبس النبىُّ هؤلاء الأسرى . وكان من بنى تميم جماعة أسلموا وقاتلوا إلى جانب النبىّ عند فتح مكة وفى حُنَيْن . وكان منهم من لا يزال على جاهليّته . فلمَّا عرفوا ما أصاب أصحابهم من بنى العَنْبَر أرسلوا إلى النبىّ وفداً من أشرافهم نزلوا إلى المدينة ودخلوا المسجد ونادوا النبىّ من وراء حُجراته أن اخرُج إلينا يا محمد . وآذى نداؤهم النبىّ ، فما كان ليخرج إليهم لولا أن أذّن لصلاة الظهر . فلمَّا رأوه ذكروا ما صنع عُيَيْنَة بأهلهم ، كما ذكروا ما كان لمن أسلم منهم من جهاد إلى جانبه ، وما لقومهم من مكانة بين العرب . ثم قالوا له : إنا جئناك نفاخرك . فأذَنْ لشاعرنا وخطيبنا . فقام خطيبهم عُطَارد بن حَاجِب ؛ فلمَّا فرغ دعا رسول الله ثابت بن قَيْس ليردَّ عليه . ثم قام شاعرهم الزِّبْرقان بن بدر فأنشد ، وأجابه حسَّان بن ثابت . فلما انتهت المفاخرة ، قال الأقرَع بن حابس : وأبى إنّ هذا الرجل لَمُؤتَى له ، لَخَطيبه أخطب من خطيبنا ،ولَشاعره أشعر من شاعرنا ، وَلأصواتهم أعلى من أصواتنا . وأسلم القوم ؛ فأعتق النبىّ الأسْرَى وردّهم إلى قومهم ..

فأمَّا بنو المصطلق فإنهم لما رأوا الصبرف فرَّ هارباً خافوا عاقبة أمرهم ، وأوفدوا إلى النبىّ من ذكر له أن الخوف فى غير محلّ له هو الذى أدَّى إلى ما وقع من سوء الفهم .

ولم تكن ناحية من نواحى شبه الجزيرة إلا بدأت تحسّ سلطان محمد . ولم تحاول طائفة أو قبيلة أن تقاوم هذا السلطان إلا بعث النبى إليها قوة تحملها على الإذعان بدفع الخراج والبقاء على دينها ، أو الإسلام ودفع الزكاة .

تهيؤ الروم للغزو

وفيما كانت عَيْنُه على بلاد العرب جميعاً حتى لا ينتقض فيها منتقض ، وحتى يستتبّ الأمن فى ربوعها من أقصاها إلى أقصاها ، إذ اتَّصل به نبأ من

بلاد الروم أنها تهيئ جيوشاً لغزو حدود العرب الشمالية غزواً يُنسى الناس انسحاب العرب الماهر فى مُؤتة ، ويُنسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين الزاحف فى كل ناحية ليتاخم سلطان الروم فى الشام وسلطان فارس فى الحيرة . واتّصل به هذا النبأ مجسماً أيّما تجسيم . فلم يتردد هنيهة فى تقرير مواجهة هذه القُوَى بنفسه ، والقضاء عليها قضاء يقضى فى نفوس سادتها على كل أمل فى غزو العرب أو فى التعرُّض لهم . وكان الصيف لمّا يَنْته . والقيظ فى أوائل الخريف يصل إلى درجات تجعله أشدّ من قيظ الصيف فى هذه الصحارى إرهاقاً وقتلا . ثم إن الشقّة من المدينة إلى بلاد الشام طويلة شاقّة تحتاج إلى الجلَد وتحتاج إلى المؤونة وإلى الماء . إذاً لا مفر من أن يطالع محمد الناس بعزمه السير إلى الروم وقتالهم ، حتى يأخذوا لذلك عُدَّتهم . ولا مفرَّ من أن يخالف بذلك تقاليدَه فى سابق غزواته ، حين كان يتوجَّه فى كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحية التى إليها يقصد ، تضليلاً للعدوّ حتى لا يفشو خبر مسيرته . وأرسل محمد فى القبائل جميعاً يدعوها للتهيؤ كيما تُعِدّ أكبر جيش يمكن إعداده ، وأرسل إلى أثرياء المسلمين ليشاركوا فى تجهيز هذا الجيش بما آتاهم الله من فضله ، وليحرّضوا الناس على الانضمام إليه حتى يكون من الأهبة بما يدخل الروع فى نفوس الروم الذين عُرفوا بوفرة عُدتهم وكثرة عديدهم .

دعوة محمد لغزو الروم

تلقى المسلمين دعوة الرسول

بِم عسى أن يستقبل المسلمون هذه الدعوة إلى هجر أبنائهم ونسائهم وأموالهم فى شدَّة القيظ ليقطعوا فَيَافِىَ وصحارى مجدبة قليلة الماء ، ثم لِيَلْقَوْا عدوًّا غلب الفرس ولم يقهره المسلمون ؟ ! أفيدفعهم إيمانهم وحبهم للرسول وشديدُ تعلُّقهم بدين الله إلى الإقبال على دعوته متدافعين بالمناكب حتى يضيق بهم فضاء الصحراء ، دافعين أمامهم أموالهم وإبلهم ، مدرَّعين بسلاحهم مُثيرين أمامهم من النقع ما إن يكاد يبلغ العدوّ نبؤه حتى يولى الأدبار لا يلوى على شيء ؟ أم تمسكهم مشقّة الطريق وشدة الحرّ ومخافة الجوع والعطش فيتقاعسون ويتراجعون ؟ لقد كان فى المسلمين يومئذ من هؤلاء وأولئك : كان فيهم أولئك الذين أقبلوا على الدين بقلوب ممتلئة هدى ونوراً ، ونفوس غمرها ضياء الإيمان فلا تعرف غيره ، وكان فيهم من دخل دين الله رَغَباً ورَهَباً ؛ رغبـــاً فى

مغانم الحرب بعد أن أصبحت قبائل العرب كلها لا تثبت أمام غزو المسلمين فتُسلم لهم وتؤدّى إليهم الجزية عن يد وهى صاغرة ، ورهباً من هذه القوّة التى تضرب أمامها كل قوة ، ويخشى سلطانها كلُّ ملك . فأمَّا الأوَّلون فأقبلوا يلبون دعوة رسول الله خِفافاً مسرعين . ومنهم الفقير الذى لا يجد الدابَّة يحمل نفسه عليها ، ومنهم الغنىّ ماله بين يديه يقدّمه فى سبيل الله راضية نفسه طامعاً فى الاستشهاد والانحياز إلى جِوار الله ، وأمَّا الآخرون فتثاقلوا وبدءوا يلتمسون الأعذار ، وجعلوا يتهامسون فيما بينهم . ويهزءون بدعوة محمد إيَّاهم لهذا الغزو النائى فى ذلك الجوّ المحرق . هؤلاء هم المنافقون الذين نزلت فيهم سورة التوبة ، وفيها أعظم دعوة للجهاد وأشدُّ تخويف من عذاب الله يصيب من تخلف عن إجابة رسوله .

المنافقون

قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تَنْفِروا فى الحرّ ؛ فنزل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لاَ تَنْفِروا فى الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون﴾ [١] .

قال محمد للجَدّ بن قيس أحد بنى سَلمَة : « يا جَدّ ، هل لك العام فى جِلاد بنى الأصفر ؟ »... فقال : « يا رسول الله ، أوَ تأذَن لى ولا تَفتِنّى ، فو الله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشدّ عُجْباً بالنساء منى . وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألاّ أصبر » (وبنو الأصفر هم الروم) . فأعرض عنه رسول الله . وفيه نزلت هذه الآية : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِى وَلاَ تَفْتِنِّى أَلاَ فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِين﴾ [٢] .

وانتهز الذين تنطوى قلوبهم على بغضاء محمد هذه الفرصة ليزيدوا المنافقين نفاقاً وليحرّضوا الناس على التخلُّف عن القتال . هؤلاء لم ير محمد أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحل أمرهم ، ورأى أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . بلغه أن ناساً منهم يجتمعون فى بيت سُوَيْلِم اليهودىّ ، يُثبطون الناس ويلْقُون فى

---

(١) سورة التوبة آيتا ٨١ و ٨٢ .
(٢) سورة التوبة آية ٤٩ .

نفوسهم التخاذل والتّخلف عن القتال ؛ فبعث إليهم طلحة بن عُبَيد الله فى نفر من أصحابه ، فحرَّق عليهم بيت سُوَيْلم ، ففرّ أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم الباقون النار فأفلتوا ، ولكنهم لم يعودوا لمثلها ، ثم كانوا مثلا لغيرهم ، فلم يجرؤ أحد بعدهم على مثل فعلهم .

تجهيز جيش العسرة

وقد كان لهذه الشدّة فى أخذ المنافقين ومن معهم أثرُها ؛ فقد أقبل الأغنياء وذوو اليسار فأنفقوا نفقة عظيمة لتجهيز الجيش . أنفق عثمان بن عفّان وحده ألف دينار ، وأنفق كثيرون غيره ، كلٌّ فى حدود طاقته . وتقدّم كلُّ قادر على نفقة نفسه بعُدّته ونفقته . وأقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحمهلم النبىُّ معه ، فحمل منهم من استطاع ، واعتذر إلى الباقين وقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولَّوْا وأعينهم تفيض من الدمع حَزناً ألا يجدوا ما يُنفقون . ولبكائهم هذا أطلق عليهم اسم البَكّائين . واجتمع لمحمد فى هذا الجيش ، الذى سمى جيش العُسْرة لشدة ما لاقى منذ يوم تكوينه ، ثلاثون ألفاً من المسلمين .

اجتمع الجيش وقام أبو بكر فيه يؤمّ الناس للصلاة فى انتظار عوذ محمد من تدبير شؤون المدينة فى أثناء غيبته . وقد استخلف عليها محمدَ بن مَسْلَمة وخلّف عليَّ بن أبى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، وأصدر ما رأى أن يصدر من الأوامر ، ثم عاد إلى الجيش يتولّى قيادته . وكان عبد الله بن أُبَىّ قد خرج فى جيش من قومه يسير به إلى جانب جيش محمد . لكنَّ النبىَّ رأى أن يظلَّ عبد الله وجيشه بالمدينة ، لأنه كان بعدُ ضعيف الثقة به وبصحة إيمانه . وأمر فتحرّك الجيش ، وثار النقع ، وصَهلت الخيل ، وارتقت نساء

مسيرة جيش العسرة

المدينة سُقفُها يشهدن هذا الجَحْفَل الجرّار ، يتوجه مخترقاً الصحراء صوبَ الشام ، مستهيناً فى سبيل الله بالحرّ والظمأ والمَسْغَبة ، تاركاً وراءه القواعد والخوالف ممن آثروا الظلَّ والنَّعمة واللذَّة على إيمانهم وعلى رضا الله عنهم . ولقد حرَّك منظر الجيش يتقدّمه عشرة آلاف فارس ومنظر النسوة مأخوذات بجلاله وقوّته بعضَ نفوس لم تحرِّكها دعوة الرسول فتقاعست ولم تتبعه . رجع أبو خَيْثَمَة بعد أن رأى هذا المنظر ، فوجد امرأتين له قد رشَّت كل واحدة منهما

عَريشها وبَردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً . فلما رأى الرجل ما صنعتا قال : رسولُ الله فى الضِّحّ والريح والحرّ وأبو خيثمة فى ظلّ بارد وطعام مُهَيَّأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم ! . هَيئا لى زاداً حتى أَلْحَقَ به . فهيأتا له زاده ولحق بالجيش . ولعل جماعة من الخوالف قد فعلوا فعل أبى خيثمة ، بعد أن رأوا ما فى التقاعس والخوف من شنَار ومذلّة .

النزول بالحجر

وسار الجيش حتى بلغ الحِجْرَ ، وبها أطلالٌ لمنازل ثمود منقورة فى الصخر . هنالك أمر رسول الله بالنزول ، فاستقى الناس من بئرها . فلمّا راحوا قال لهم : لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضَّئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فأعلفوه الإبلَ ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرجنَّ أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له . ذلك أن المكان لم يكن أحدٌ يمرُّ به ، وكانت تعصِف فيه أحياناً عواصف الرمل تطمر الناس والإبل . ولقد خرج رجلان على خلاف أمر الرسول ، فاحتملت أحدهما الريح وطمرت الآخر الرمال . فلما أصبح الناس ألفَوْا هذه الرمال قد طمت البئر فلم يبق بها ماء ، ففزعوا خيفة الظمأ ، وقدَّروا هول ما بقى من طول الطريق . وإنهم لكذلك إذ مرَّت بهم سحابة أمطرتهم ، فارتووْا وأصابوا من الماء ما شاءوا وزايلهم الفزع ، وطار أكثرهم سروراً ، وأقبل بعض منهم على بعض يقولون إنها معجزة . أمَّا آخرون فقالوا : إنما هى سحابة مارَّة .

انسحاب الروم

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تَبُوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته ، فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجَّهت إلى حدودها ليحتمى داخل بلاد الشام فى حصونها . فلما انتهى المسلمون إلى تَبُوك وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونُمى إليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلاً لتتبُّعهم داخل بلادهم .

وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد . وكان يُوحَنَّا بن رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود . ولقد وجَّه إليه النبىّ رسالةً أن يذعن أو يغزوه فأقبل يوحنَّا وعلى صدره صليب من ذهب ، وقدّم الهدايا

والطاعة ، وصالح محمداً وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل الجَرْبَاء[١] وأذرُح[٢] وأعطوه الجزية . وكتب رسول الله لهم كتب أمْن ، هذا نص أحدها – وهو ما كتب ليُوحَنا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمَنَةٌ من الله ومحمد النبيّ رسول الله ليُوحَنة بن رؤبة وأهل أيلةَ سُفنهم وسيَّارتهم فى البر والبحر لهم ذمَّة الله ومحمد النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيِّب لمحمد أخذُه من الناس . وإنه لا يحلّ أن يُمْنَعوا ماءً يَردُونه ولا طريقاً يريدونه من برّ أو بحر » . وإيذاناً بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعاية ، بعد أن اتَّفق على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلثمائة دينار فى كل عام .

معاهدة أهل الحدود

غزوة ابن الوليد دومة

لم يبق محمد فى حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمْنه عودَة الجيوش البزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أُكَيْدِر بن عبد الملك الكِنْدىّ النصرانىّ أمير دُومةَ[٣] ، ومعاونته جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته . ولذلك بعث النبيّ إليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس وانقلب بجيشه راجعاً إلى المدينة . وأسرع خالد بالانتقاض على دُومة فى غفلة من مليكها الذى خرج فى ليلة مُقْمِرة ومعه أخ له يسمى حسَّان يطاردان بقر الوحش . ولم يلق خالد مقاومةً تذكر ، فقتل حسَّانَ وأخذ أكيدر أسيراً وهدّده بالقتل إن لم تفتح دُومة أبوابها . وفتحت المدينة الأبوابَ فداءً لأميرها ، وساق خالد منها ألْفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وَسْق من بُرّ وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أُكَيْدر حتى لحق بالنبيّ فى عاصمته . وعَرَض محمد الإسلام على أكيدر فأسلم وأصبح له حليفاً .

عودة المسلمين إلى المدينة

لم يكن عود محمد على رأس هذه الألوف من جيش العُسْرة من حدود

---

(١) الجرباء : قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام .

(٢) أذرح : بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز ، وهى قريبة من الجرباء .

(٣) دومة : هى المعروفة بدومة الجندل ، على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة .

الشام إلى المدينة بالأمر الهيِّن . فلم يُدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيْلة والبلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبير وزن لما حقَّقه محمد بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة ، وتحمَّلوا فى قطعها ما تحملوا من الأذى ، ثم عادوا لم يغنموا ولم يأسِروا ، بل لم يقاتلوا ؛ وكلّ الذى فعلوا أن أقاموا بَتبُوك قرابة عشرين يوماً . فهل لهذا قطعوا الصحراء فى شدّة القيظ فى حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها ؟ ! وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ؛ ونَقل من ملأ الإيمان قلوبهم نبأهم إليه . فأخذ المستهزئين بالشدَّة حيناً وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلاً إلى المدينة ومحمد يحفظ النظام فى صفوفه . حتى إذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحِقه بها ؛ لحقه ومعه أكيدر ، وما حمل من دُومةَ من إبل وشاة وبُرّ ودروع ، وعلى أكيدر حُلَّة من ديباج موشّى بالذهب بُهت أهل المدينة لمرآها .

المتخلفون

هنالك اضطرب الذين تخلَّفوا عن اتباعه اضطراباً ردَّ المستهزئين إلى صوابهم . جاء المتخلِّفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب . وأعرض محمد عما صنعوا تاركاً لله حسابهم . لكن ثلاثة صدَقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم واعترفوا بذنبهم . هؤلاء الثلاثة هم كعْب بن مالك ، ومُرارة بن الرَّبيع ، وهلال بن أميَّة . وهؤلاء الثلاثة أمر محمد فأعرض المسلمون عنهم خمسين يوماً لا يكلمهم أحد ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة . ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة وعفـــا عنهم ونزل فيهم قوله تعـــالى : ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [1]

---

(١) سورة التوبة آيتا ١١٧ و ١١٨ .

الشدة على المنافقين

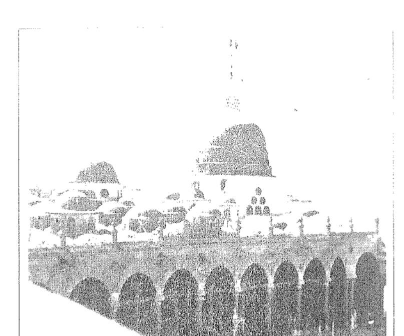
من يومئذ بدأ محمد يشتدّ فى معاملة المنافقين شدّة لم يألفوها من قبل ، ذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يُخْشَى منه ويجب تلافيه وعلاجه . ولم يقم بنفس محمد ريب ، بعد أن وعده ربّه لينصرنّ دينه وَلَيُعْلِينّ كلمته فى أنهم سيزدادون من بعدُ أضعاف زيادتهم اليوم ، وعند ذلك يصبح المنافقون خطراً عظيما . ولقد كان له من قبلُ ، حين كان الإسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجرى بين المسلمين . أمَّا وقد انتشر الدين فى أنحاء بلاد العرب جميعاً ، وها هو ذا يشارف الانتقال منها فكلٌّ تهاون مع المنافقين شرٌّ تخشى مغبته ، وخطرٌ ما أسرع ما يستشرى إذا لم تُجْتَثَّ جُرْثومته . بنى جماعة مسجداً بذى أَوَان ، بينه وبين المدينة نحو ساعة ؛ وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرّفوا كلام الله عن مواضعه . وأن يفرّقوا بذلك بين المؤمنين ضِرَارًا وكفراً . وطلبت هذه الجماعة إلى النبىّ أن يفتتح المسجد بالصلاة فيه . وكان طلبهم هذا قبل تَبُوك ، فاستمهلهم حتى يعود . فلما عاد وعرف أمر المسجد وحقيقة ما قُصِد إليه من إقامته أمر بإحراقه ، فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانزوَوْا ، ولم يبق لهم من يحميهم إلا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم .

إحراق مسجد الضرار

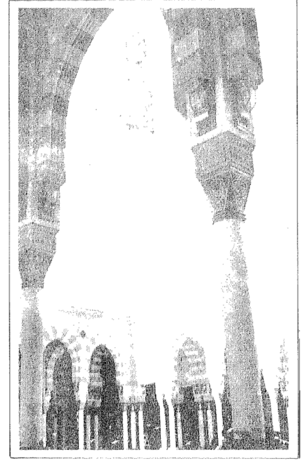
على أن عبد الله لم يُعَمَّرْ بعد تبوك غيرَ شهرين مرِض إثرهما ومات . ومع أن الحقد على المسلمين قد كان يأكل قلبه منذ نزل النبىُّ المدينة ؛ فقد آثر محمد ألا ينال المسلمون ابنَ أُبَىّ بسوء . ولم يلبث النبىّ حين دُعِى للصلاة عليه لمَّا مات أن صلى وقام على قبره إلى أن دُفن وفُرِغ منه . وبموته انهار ركن المنافقين . وآثر من بقِى منهم أن يُخلص لله توبتَه .

تبوك خاتمة الغزوات

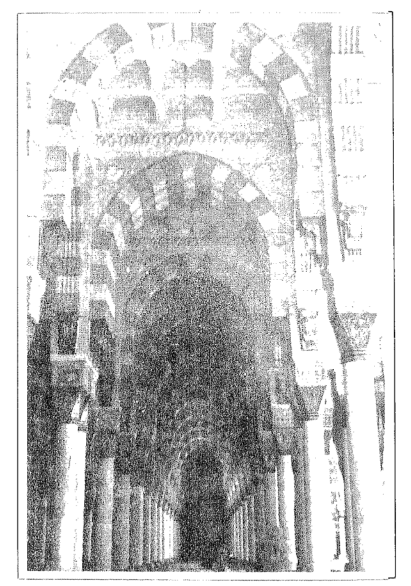
بغزوة تبوك تمّت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمِن محمد كلَّ عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الإسلام .



قبة المسجد النبوى مع الرواقات القديمة



إحدى المنارات الحديثة بالمسجد النبوى



جانب من داخل أحد الرواقات الحديثة بالمسجد النبوى

ولقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبيّ عليه السلام ومن بعدها أقام محمد بالمدينة مغتبطاً بما أفاء الله عليه . وكان ابنه إبراهيم قُرَّة عينه له ستةَ عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً ، فكان إذا فرغ من استقباله الوفود ، ومن القيام بأمر المسلمين ، ومن أداء حق الله ورسالته وحق أهله جميعاً لهم ، اطمأنت نفسه برؤية هذا الطفل الذى ظل يترعرع وينمو ويزداد شبهه بمحمد وضوحاً مما يزيد أباه له حبًّا وبه تعلقاً . وخلالَ هذه الأشهر جميعاً كانت حاضنته أم سيف ترضعه وتسقيه لبن الماعز التى أهداها النبى إليها .

غبطة النبى بإبراهيم

ولم يكن تعلّق محمد بإبراهيم لغاية فى نفسه لها اتصال برسالته أو بمن يخلفه ؛ فقد كان عليه السلام فى إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر فى ولده ولا فيمن يرثه ؛ بل كان يقول : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه صدقة » . إنما هى العاطفة الإنسانية فى أسمى معانيها ؛ العاطفة الإنسانية التى بلغت من السمو فى نفس محمد ما لم تبلغه فى نفس أحد غيره ؛ العاطفة الإنسانية التى جعلت العربى يرى فيمن يخلفه من الذُّكْران صورة من صور الخلود — هذه العاطفة الذى جعلت محمداً يخلع على إبراهيم كل هذا الحب ؛ ويرمُقه من العطف بما لا عطف بعده . ولقد زاد هذه العاطفة رقَّة وقوة فى نفسه أن فقد ولديه القاسم والطاهر وهما ما يزالان طفلين فى حجر أمهما خديجة ؛ وأنه فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجاً وأمهات ؛ فلم تبق له منهن غير فاطمة . هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فدفنهم بيده تحت صفائح الثرى ، تركوا فى نفسه قرحة ألم اندملت بمولد إبراهيم وأثمرت مكانها رجاء وأملا ؛ وكان حِلاًّ له أن يمتلئ بهذا الأمل غبطة واستبشاراً .

مرض إبراهيم

لكن هذا الأمل لم يكن ليطول إلا تلك الأشهر التى ذكرنا . فقد مرض إبراهيم بعدها مرضاً خيف منه على حياته ، فنُقل إلى نخل بجوار مَشْرَبة أم إبراهيم . وقامت من حوله مارية وأختها سيرين تمرّضانه . ولم يطل بالطفل المرض . فلما كان فى الاحتضار وأخبر النبيّ بأمره ، أخذ بيد عبد الرحمن بن

عوف يعتمد عليه لشدَّة ألمه ، حتى أتيا إلى النخل بجوار العالية التى تقوم المشربة اليوم مكانها . فوجد إبراهيم فى حجر أمه يجود بنفسه ، فأخذه فوضعه وقلبُه يجِف ويده تضطرب وقد ملك الحزنُ عليه فؤاده ، وبدت صورة الألم على قَسمات وجهه . وضعه فى حجره وقال : « إنا يا إبراهيم لا نُغنى عنك من الله شيئاً » . ثم وجم وذرفت عيناه ، والغلام يجود بنفسه ، وأمه وأختها تصيحان فلا ينهاهما رسول الله ! . فلما استوى إبراهيم جثماناً لا حراك به ولا حياة فيه ، وانطفأ بموته ذلك الأمل الذى تفتَّحت له نفس النبيِّ زمناً ، زادت عينا محمد تهتاناً وهو يقول : « يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حقٌّ ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحَق بأوّلنا ، لَحَزِنا عليك أشد من هذا » . وبعد أن وجَم هنيهة قال : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون » .

ورأى المسلمون ما بمحمد من حزن ، وحاول حكماؤهم أن يردوه عن الإمعان فيه ، فذكَّروه بما نَهى عنه ؛ فقال : « ما عن الحزن نَهيْتُ وإنما نَهيْتُ عن رفع الصوت بالبكاء . وإنَّ ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة . ومن لم يُبْدِ الرحمة لم يُبد غيره عليه الرحمة » أو كما قال . ثم إنه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته ، ونظر إلى مارية وإلى سيرين نظرة عطف ، وطلب إليهما أن تهوِّنا عليهما قائلا : « إن له لَمُرْضِعاً فى الجنة » . ثم إن أم بُردة غسلته — أو غسله الفضل بن عباس ، فى رواية أخرى — وحُمِل من بيتها على سرير صغير ، وشيعه النبى وعمه العباس وطائفة من المسلمين إلى البقيع حيث دُفن بعد أن صلى النبى عليه . فلما تم دفنه أمر محمد بسد القبر ثم سوَّى عليه بيده ورشَّ الماء وأعلم عليه بعلامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحى . وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يُتقنه » .

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس ؛ فرأى المسلمون فى ذلك معجزةً وقالوا إنها انكسفت لموته . وسمعهم النبى : أتُرَى فرط حبه لإبراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتعزى بسماع مثل هذه الكلمة ، أو يسكت على الأقل عنها ، أو يعذِر الناس إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة ؟ كلا ! فمثل هذا الموقف

إن لاق بالذين يستغلّون فى الناس جهالتهم ، أو لاق بالذين يُخرجهم الحزن عن رشادهم ، فهو لا يليق بالنزيه الحكيم ، فما بالك بالرسول العظيم ! . لذلك نظرمحمدإلى الذين ذكروا أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تُخْسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فافزَعوا إلى ذكر الله بالصلاة » . أيَّة عظمة أكبر من ألاّ ينسى الرسول رسالته فى أشدّ المواقف التى تملأ نفسه بالفجيعة والهول ! . لقد وقف مَنْ تناول من المستشرقين هذا الحديث لمحمد موقف الإجلال والإعظام ، ولم يستطيعوا كتم إعجابهم وإكبارهم وإعلان عِرفانهم بصدق رجل لا يرضى فى أدق المواقف إلاّ الصدق والحق .

تُرى ماذا كان شعور أزواج النبي بفجيعته فى إبراهيم وحزنه الشديد عليه ؟ أمّا هو فتعزّى بفضل الله ، وبمتابعته أداء رسالته ، وبازدياد الإسلام انتشاراً فى هذه الوفود التى كانت ما تفتأ تتوارد إليه من كل صوب ؛ حتى لقد دُعيت هذه السنة العاشرة من الهجرة سنة الوفود ، وهى السنة التى حج أبو بكر فيها كذلك بالناس .

الفصل الثامن والعشرون

عام الوفود وحج أبى بكر بالناس

دخول العرب أفواجاً فى دين الله – إسلام عروة بن مسعود الثقفى وقتل أهل الطائف له – أخذ القبائل المجاورة الطريق على ثقيف – وفدها إلى النبى وشروطه – إسلام الوفد وإسلام الطائف وهدم صنمها اللات – حج أبى بكر بالناس – لحاق على بن أبى طالب به – سورة براءة – أساس الدولة الإسلامية المعنوى – الجهاد فى الإسلام وتسويغه .

أثر تبوك

بغزوة تَبُوك تمَّت كلمة ربك فى شبه جزيرة العرب كلها ، وأمِن محمد كل عادية عليها . والحق أنه لم يكد يستقرّ بعد أن عاد من هذه الغزوة إلى المدينة حتى بدأ كل من أقام على شركه من أهل شبه الجزيرة يفكِّر . ولئن كان المسلمون ، الذين صحبوا محمداً فى مسيره إلى الشام كابدوا من صنوف المشاق واحتملوا من القيظ والظمأ أهوالاً ، قد عادوا وفى نفوسهم شىء من السخط أن لم يقاتلوا ولم يغنَموا بسبب انسحاب الروم إلى داخل الشام ليتحصنوا بمعاقلهم فيها – لقد ترك هذا الانسحاب فى نفوس قبائل العرب المحتفظة بكيانها وبدينها أثراً عمقاً ، وترك فى نفوس قبائل الجنوب باليمن وحَضْرَمَوْتَ وعُمَان أثراً أشدَّ عمقاً . أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس واستردُّوا منهم الصليب وجاءوا به إلى بيت المقدس فى حَفْل عظيم ، وفارس كانت صاحبة السلطان على اليمن وعلى البلاد المجاورة لها أزماناً طويلة ! فإذا كان المسلمون على مقربة من اليمن ومن غيرها من البلاد العربية جمعاء ، فما أجدر هذه البلاد بأن تتضامَّ كلها فى تلك الوحدة التى تستظلّ بعلم محمد ، علم الإسلام ، لتكون بمنجاة من تحكم الروم والفرس جميعاً ! وماذا يضرّ أمراء القبائل والبلاد أن يفعلوا وهم يرون محمداً يُثَبِّت مَنْ جاءه معلناً الإسلام والطاعة فى إمارته وعلى قبيلته ؟ ! فلتكن السنة العاشرة للهجرة إذاً سنة الوفود ، وليدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وليكن لغزوة تَبوك ولانسحاب الروم أمام المسلمين من الأثر أكثر مما كان لفتح مكة والانتصار فى حُنَين وحصار الطائف .

ميل العرب إلى الإسلام

ومن حسن صنيع القدر أن كانت الطائف – التى قاومت النبىّ فى أثناء حصارها ما قاومت حتى انصرف المسلمون عنها دون اقتحامها – هى أوّل من أسرع إلى إعلان الطاعة بعد تبوك ، وإن تردّدت طويلا فى إعلان هذه الطاعة . فقد كان عُرْوة بن مسعود ، أحد سادة ثقيف المقيمين بالطائف ، غائباً باليمن فى أثناء غزو النبىّ بلاده بعد موقعة حُنَيْن . فلمّا عاد إلى موطنه ورأى النبىَّ انتصر فى تبوك وعاد إلى المدينة ، أسرع إليه يعلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه للدخول فى دين الله . ولم يكن عروة ليجهل محمداً وعظم أمره ، وقد كان أحد الذين فاوضوه عن قريش فى صلح الحدَيْبية . وعرف النبىُّ بعد إسلام عروة اعتزامَه الذهاب إلى قومه يدعوهم إلى الدين الذى دخل فيه ، وكان النبىُّ يعرف من تعصُّب ثَقيف لصنمها اللّات ومن نخوتها وشدّتها ما جعله يحذّر عروة ويقول له : إنهم قاتِلوك ، لكن عروة اعتزَّ بمكانه من قومه فقال : يا رسول الله ، أنا أحَبُّ إليهم من أبصارهم . وذهب عروةُ فدعا قومه إلى الإسلام ؛ فتشاوروا فيما بينهم ولم يبدوا له رأياً . فلما كان الصباحُ قام على عِلِّية له ينادى إلى الصلاة . هنالك صدَقت فِراسة الرسول ، فلم يطِق قومه صبراً ، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم قاتِلٌ . واضطرب من حول عُروة أهله ، فقال وهو يُسلم الروح : « كرامةٌ أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلىَّ ، فليس فىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يرتحل عنكم » . ثم طلب أن يدفن مع الشهداء فدفنه أهله معهم .

إسلام عروة ابن مسعود

مقتل عروة

ولم يذهب دم عروة هَدَراً ، فإن القبائل التى تُحيط بالطائف كانت قد أسلمت كلها ، ولذلك رأت فيما صنعت ثَقِيف بسيد من سادتها إثماً ونكراً . ورأت ثقيف من أثر ذلك أنهم صاروا لا يأمن لهم سِرْبٌ ، ولا يخرج منهم رجل إلا اقتُطع ، وأيقنوا أنهم إن لم يجدوا سبيلاً إلى صلح أو هدنة مع المسلمين فمصيرهم لا ريب إلى الفناء . وأتمر القوم فيما بينهم ، وتحدثوا إلى كبير منهم (عبد يا ليل) ، كى يذهب إلى النبىّ يعرض عليه صلح ثقيف معه . وخشى عبد يا ليل أن يُصيبه من قومه ما أصاب عروة بن مسعود ، فلم يقبل أن يخرج

إلى محمد حتى أوفدوا معه خمسة آخرين ، اطمأنَّ إلى أن .. حرج معهم ثم عادوا شَغَل كلٌّ رجل منهم رهطة . ولقى المغيرة بن شُعْبة القومَ حين دَنَوْا من المدينة ، فأسرع يريد أن يخبر النبيّ خبرهم . ولقيه أبو بكر يشتدُّ فى السير ؛ فلما عرف منه ما جاء فيه طلب إليه أن يدع له هذه البشرى يزفَّها إلى رسول الله ودخل أبو بكر فأخبر النبيّ بقدوم وفد ثقيف .

وفد ثقيف إلى النبي

وكان هذا الوفد ما يزال يعتزّ بقومه ، وما يزال يذكر حصار النبيّ للطائف وانصرافه عنها . فمع ما علمهم المغيرة كيف يحيون النبيّ بتحية الإسلام لم يَرْضَوْا حين قابلوه إلا أن يحيوه بتحية الجاهلية ، ثم إنهم ضُربت لهم قبة خاصَّة فى ناحية من المسجد أقاموا بها يُصِرُّون على الحذر من المسلمين وعدم الطمأنينة إليهم . وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله فى مفاوضتهم إياه ؛ فكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند النبيّ حتى يأكل منه خالد . وقام هذا بالسفارة ، فأبلغ محمداً أنهم مع استعدادهم للإسلام ، يطلبون إليه أن يدع لهم صنمهم اللات ثلاث سنين لا يهدمها ، وأن يعفيهم من الصلاة . وأبى محمد عليهم ما طلبوا من ذلك أشدَّ إباء . ولقد نزلوا يطلبون أن يدع اللات سنتين ، ثم أن يدعها سنة ، ثم أن يدعها شهراً واحداً بعد انصرافهم إلى قومهم ، لكن إباءه ذلك كان حاسماً لا تردّد فيه ولا هوادة . وكيف تريد من نبيّ ، يدعو إلى دين الله الواحد القهار ويهدم الأصنام فلا يذر منها باقية ، أن يتهاون فى أمر صنم منها ، وإن كان لقومه من المنعة ما كان لثقيف بالطائف ! فالإنسان إمَّا أن يؤمن ، وإمَّا ألاَّ يؤمن ، وليس بين الطرفين إلا الارتياب والشكّ . والشكّ والإيمان لا يجتمعان فى قلب كما لا يجتمع الإيمان والكفر . وبقاء اللات طاغية ثقيف علمٌ على أنهم لا يزالون يداولون عبادتهم بينها وبين الله جلّ شأنه . وهذا إشراك بالله ، والله لا يغفر أن يُشْرَك به .

طلب الوفد بقاء صنمهم ورفض النبي ذلك

وطلبت ثقيف إعفاءها من الصلاة ؛ فرفض محمد قائلا : إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه . ونزل الثقفيون عن بقاء اللات وقبلوا الإسلام وإقامة الصلاة . لكنهم طلبوا ألا يَكْسِروا أوثانهم بأيديهم . إنهم حديثو عهد بإيمان ، وقومهم ما يزالون فى انتظارهم ليروا ما صنعوا ، فليجنبهم محمد تحطيم ما كانوا

طلب الإعفاء من الصلاة ورفضه

يعبدون وما كان يعبد آباؤهم . ولم ير محمد أن يشتد فى هذه ، فَسِيَّان أن يَكسر الثقفيون الصنم وأن يكسره غيرهم ؛ فهو سيهدم ، وستقوم فى ثقيف عبادة الله وحده . قال عليه السلام : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنُعفيكم منه ، ثم أمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص وكان من أحدثهم سِنًّا . أمَّره عليهم على حداثة سِنِّه ؛ لأنه كان أحرصهم على الفقه فى الإسلام وتعلم القرآن ، بشهادة أبى بكر والسابقين إلى الإسلام . وأقام القوم مع محمد ما بقى من رمضان ، وصاموا وإياه وهو يبعث لهم بفطورهم وسحورهم . فلما آن لهم أن ينصرفوا إلى قومهم أوصى محمد عثمان بن أبى العاص قائلا : « تجاوز فى الصلاة واقْدُر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » .

هدم اللات

وعاد القوم إلى بلادهم ، فوجَّه النبىّ معهم أبا سفيان بن حَرْب والمغيرة بن شُعْبة ، وكانت لهما بثقيف مودَّة وحرمة ، ليقوما بهدم اللات . وقَدِم أبو سفيان والمغيرة لهدم الصنم ، فهدمه المغيرة ونساء ثقيف حُسَّراً يبكين ، ولا يجرؤ أحد أن يقترب منه بعد الذى كان من اتفاق وفد ثقيف والنبىّ على هدمه . وأخذ المغيرة مال اللات وحليها فقضى منه ، بأمر الرسول وبالاتفاق مع أبى سفيان ، ديناً كان على عُروة والأسود . وبهدم اللات وبإسلام الطائف كانت الحجاز كلها قد أسلمت ، وكانت سطوة محمد قد امتدَّت من بلاد الروم فى الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت فى الجنوب . وكانت هذه البلاد الباقية فى جنوب شبه الجزيرة تتهيأ كلها لتنضمَّ إلى الدين الجديد ، ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها كل قوّتها . وكانت وفودها تسير لذلك من جهات مختلفة ، قاصدة كلها إلى المدينة لتعلن الطاعة ولتدين بالإسلام . .

الوفود تقبل تترى إلى المدينة

بينما كانت الوفود تُقْبِلُ تَتْرى إلى المدينة ، كانت الأشهر يتلو أحدها الآخر حتى اقترب موعد الحج ، ولم يكن النبىّ عليه السلام أدّى الفريضة على تمامها يومئذ كما يؤديها المسلمون اليوم ، أفتُراه يخرج فى عامه هذا شكراً لله على ما نصره على الروم ، وما أدخل الطائف فى حظيرة الإسلام ، وما جعل الوفود تجىء إليه من كل فج عميق ؟ إن شبه الجزيرة ما يزال بها من لم يؤمن بالله ورسوله ، ما يزال بها الكفّار وما يزال بها اليهود والنصارى . والكفار

على عهدهم فى الجاهليّة ما يزالون يحجون إلى الكعبة فى الأشهر الحرم . والكفار نجس . فليبق إذًا بالمدينة حتى يُتم الله كلمته وحتى يأْذَنَ الله له بالحج إلى بيته ، وليخرج أبو بكر فى الناس حاجًّا .

حج أبى بكر بالناس

وخرج أبو بكر فى ثلثمائة مسلم قاصداً إلى مكة . ولكن العام قد يتلو العام والمشركون ما يزالون يحجون بيت الله الحرام . أليس بين محمد وبين الناس عهد عامٌّ ألا يُصَدَّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يُخاف أحد فى الأشهر الحُرُم ؟ ! أليست بينه وبين قبائل من العرب عهود إلى آجال مسمَّاة ؟ ! . فما دامت هذه العهود فسيظل بيت الله يحج إليه من يُشرك بالله ومن يعبد غير الله ، وسيظل المسلمون يرون عبادة الجاهليّة تؤدى بأعينهم حول الكعبة وهم بحكم هذه العهود الخاصّة وهذا العهد العام لا قبل لهم بصدٍّ أحد عن حجّه وعبادته . وإذا كانت الأصنام التى يعبد العرب قد حُطم الكثير منها وحطم منها كل ما كان فى الكعبة أوحولها، فإن هذا الاجتماع فى بيت الله المقدّس ، اجتماعاً يضم الثائرين على الشرك وعلى الوثنية والمقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنية ، تناقض غير مفهوم . وإذا استطاع أحد أن يفهم حج اليهود والنصارى جميعاً إلى بيت المقدس على أنه أرض المَعاد لليهود ومولد المسيح للنصارى ، فلن يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين حول بيت تُحَطَّم فيه الأصنام وتعبد فيه الأصنام التى حُطِّمت . لذلك كان طبيعياً أن يحال بين المشركين وبين الاقتراب من البيت الذى طُهر من الشرك ومحيت منه كل معالم الوثنية . وفى هذا نزلت الآيات من سورة براءة . لكن موسم الحج بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كل فج يقضى مناسك حجه ، فليكن هذا الاجتماع أوان تبليغهم أمر الله بنقض كل عهد بين الشرك والإيمان إلا من عهد عُقِدَ لأجَل فإنه يبقى إلى أجله .

منع المشركين من الحج

ولهذه الغاية أوفد النبىّ علىّ بن أبى طالب كى يلحَق بأبى بكر . وكى يخطب الناس حين الحج يوم عرفة بما أمر الله ورسوله . وحضر علىّ ، فى أثر أبى بكر والمسلمين الذين برزوا إلى الحج معه ، كى يؤدّى رسالته . فلمَّا رآه أبو بكر قال له : أمير أم مأمور ! . قال علىّ : بل مأمور . وأخبره بما جاء

فيه ، وأنّ النبي إنما بعثه فى الناس لأنه من أهل بيته . فلما اجتمع الناس بِمنَى يؤدُّون مناسك الحجِّ ، وقف عليٌّ بن أبي طالب وإلى جانبه أبو هريرة ، فنادى عليٌّ فى الناس يتلو قوله تعالى :

(بَرَاءَةٌ منَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ منَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِين حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُم وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ المشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغه مَأْمَنَه ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمون . كَيْفَ يَكُونُ لِلمُشْرِكينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِين عاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ فمَا اسْتقامُوا لكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُون . اشْتَرَوْا بآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُم سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لاَ يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فإِنْ تَابُوا وَأَقامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِنْ نَكثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لعلَّهم يَنْتَهُونَ . أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكثُوا أَيمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرسول وَهُمْ بَدَءُوكم أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فاللهُ أَحَقُّ أَنْ تخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قاتِلُوهُم يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكم ويُخْزِهِمْ وَينصُرْكم عليهمْ وَيَشْفِ صدورَ قَومٍ مُؤْمِنِين . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قلوبِهِمْ ويتوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَم اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكم ولم يَتَّخِذُوا مِنْ دُون اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ ولا المُؤْمنينَ وليجَةً وَاللهُ

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ما كَانَ لِلمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مساجدَ اللهِ شاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى النَّارِ هم خالِدُونَ . إِنَّمَا يعْمُرُ مساجدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليومِ الآخرِ وأَقَامَ الصلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ولم يَخْشَ إلا اللهَ فعسَى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِين . أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاجِّ وَعِمَارَةَ المسجدِ الحرامِ كَمنْ آمَنَ بِاللهِ واليومِ الآخِرِ وجَاهَد فى سبيلِ اللهِ لاَ يسْتَوُون عِنْدَ اللهِ واللهُ لا يَهْدِى القومَ الظالمين . الَّذِينَ آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا فى سبيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ أَعظَمُ درجَةً عِنْدَ اللهِ وأُولئكَ هُمُ الفائزُون . يبشِّرُهم ربهم برحمة مِنه ورضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لهم فيَها نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خالدينَ فيها أَبداً إِن اللهَ عِنْده أَجْرٌ عظيمٌ . يَاأَيُّها الَّذِين آمنوا لا تتَّخذوا آباءَكم وإخوانَكم أَولِيَاءَ إِنِ استحَبُّوا الكفرَ على الإِيمانِ ومَنْ يتولَّهم مِنكم فأُولئكَ هم الظالمون . قُلْ إِنْ كان آباؤُكُمْ وأَبناؤُكم وإِخوانُكم وأَزواجُكم وعشِيرتُكم وأَموالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتجارةٌ تَخْشَوْن كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضونَهَا أَحَبَّ إِليكم مِن اللهِ ورسولِهِ وجِهادٍ فى سبيلِهِ فتربَّصُوا حتَّى يأْتِىَ اللهُ بأَمْرِهِ واللهُ لا يَهْدِى القومَ الفاسِقِين . لقد نَصَرَكم اللهُ فى مواطِنَ كثِيرَة ويوْمَ حُنَيْنٍ إِذ أَعجبتْكم كثْرَتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكُمُ الأَرْضُ بما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرين . ثم أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ على رسُولِهِ وعلى المؤْمِنِين وأَنزل جُنوداً لم تَرَوْها وعَذَّب الَّذِين كفَروا وذلك جَزاءُ الكَافِرِينَ . ثُمَّ يتُوبُ اللهُ مِن بعدِ ذلِكَ على مَنْ يشاء واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَاأَيُّها الَّذِين آمنوا إِنَّمَا الْمُشْركون نَجَسٌ فلاَ يَقْرَبوا المسجدَ الحَرَامَ بعد عامِهم هـذا وإِن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . قَاتِلُوا الَّذِين لا يُؤْمنونَ بِاللهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحرِّمون ما حَرَّمَ اللهُ ورسُولُهُ ولاَ يَدِينُون دِينَ الحَقِّ من الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُون . وقالتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالتِ النَّصارَى المَسِيحُ ابنُ اللهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِم يُضاهِئُونَ قَولَ الَّذِين كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يؤْفَكُون . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ وما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً وَاحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَما يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ

كَرِهَ الكافِرُون . هو الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى وَدِينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ولو كَرِه المُشْرِكون . يَاأَيُّها الَّذِين آمنوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ لَيَأْكلون أَموالَ الناسِ بِالْبَاطِل ويَصُدُّون عن سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذهبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونها فى سَبِيل الله فبَشِّرْهم بعذابٍ أَلِيم . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِها جِباهُهم وجُنُوبُهم وظُهُورُهم هذا ما كَنَزْتم لِأَنْفُسِكم فَذُوقُوا ما كُنْتُم تَكْنِزُون . إِنَّ عِدَّةَ الشهورِ عِند الله اْثنا عَشَرَ شهراً فى كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ مِنها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّين القَيِّمُ فلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِين)[١] .

وقف عليّ فى الناس وهم يؤدّون مناسك الحج بمنى ، فتلا عليهم هذه الآيات من سورة التوبة نقلناها هنا كاملة لغرض سنبينه . فلما أتم تلاوتها وقف هنيهة ثم صاح بالناس : « أيها الناس ! إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان . ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مُدّته » . صاح عليّ فى الناس بهذه الأوامر الأربعة ، ثم أجَّل الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كلّ قوم إلى مأمنهم وبلادهم . ومن يومئذ لم يحجّ مشرك ، ولم يَطُف بالبيت عُريان . ومن يومئذ وُضع الأساس الذى تقوم عليه الدولة الإسلامية .

الأساس المعنوى للدولة الناشئة

هذا الأساس هو الذى جعلنا نسجل هنا صدر سورة التوبة كلَّه . والحرص على أن يدرك العرب جميعاً هذا الأساس هو الذى دعا عليًّا إلى ألا يكتفى بقراءة هذه الآيات من براءة يومَ الحج ، على ما اتفقت عليه الرواية ، بل جعله يقرؤها على الناس من بعد ذلك فى منازلهم ، على ما جاءت به روايات كثيرة . وإنك إذ تتلو صدر « براءة » وتُعيد تلاوته بإمعان ورويَّة لَتشعر حقًّا بأنه الأساس المعنوى فى أقوى صورة لكل دولة ناشئة تقوم . ونزول « براءة » كلها بعد آخر غزوة من غزوات النبيّ ، وبعد أن جاء أهل الطائف يعلنون انضمامهم

(١) سورة التوبة الآيات من ١ إلى ٣٦ .

إلى الدين الجديد ، وبعدَ أن أصبح الحجاز كله ومعه تِهامة ونَجْد منضوياً تحت راية الإسلام ، وبعد أن أعلن كثير من قبائل الجنوب فى شبه الجزيرة الإذعان لمحمد والانضواء إلى دينه ، يجلو الحكمة التاريخية فى نزول الآيات التى تنتظم أساس الدولة المعنوىّ فى هذا الحين . فالدولة ، لتكون قوية ، يجب أن تكون لها عقيدة معنوية عامة يؤمن بها أهلوها ويدافعون جميعاً عنها بكل ما أوتوا من عَتَاد وقوّة . وأيَّة عقيدة أعظم من الإيمان بالله وحده لا شريك له ! أيَّة عقيدة أكبر سلطانا على النفس من أن يحس الإنسان نفسه تتصل بالوجود فى أسمى مظاهره ، لا سلطان عليه لغير الله ولا رقيب غير الله على ضميره ! فإذا وُجد الذين يقومون فى وجه هذه العقيدة العامَّة التى يجب أن تكون أساس الدولة ، فأولئك هم الفاسقون ، وأولئك هم نواة الثورة الأهلية والفتنة الماحقة ، وأولئك يجب لذلك ألا يكون لهم عهد ، ويجب أن تقاتلهم الدولة . فإن كانوا ثائرين على العقيدة العامَّة ثورة جامحة ، وجب قتالهم حتى يُذْعنوا . وإن كانت ثورتهم على العقيدة العامَّة غير جامحة ، كما هو شأن أهل الكتاب ، وجب أن يدفعوا الجزية عن يَد وهم صاغرون .

النظر إلى المسألة من الجهة التاريخية والجهة الاجتماعية يهدينا إلى هذا التقدير لمغزى الآيات التى تلاها القارئ ههنا من سورة التوبة ، وهو يهدى إلى هذا التقدير كل منصف نزيه القصد . لكن الذين أسرفوا فى أحكامهم على الإسلام وعلى رسوله يَذرون هذا النظر على نبأ ويَعْرضون لهذه الآيات القوية غاية القوة من سورة التوبة على أنها دعوة إلى التعصّب لا تتَّفق مع ما ترضاه الحضارة الفاضلة من تسامح ، دعوةٌ إلى قتال المشركين وقَتلهم حيث ثَقِفهم المؤمنون فى غير رفق ولا هوادة ، دعوة إلى إقامة الحكم على أساس البطش والجبروت . هذا كلام تقرؤه فى كثير من كتب المستشرقين . وهو كلام تهوى إليه الأذهان التى لم تنضَج فيها ملكة النقد الاجتماعى والتاريخى حتى من أبناء المسلمين وهو كلام لا يتَّفق مع الحقيقة التاريخية ولا يتفق مع الحقيقة الاجتماعية فى شىء . وهو لذلك يؤدى بأصحابه إلى تفسيرهم ما أوردنا من سورة التوبة ،

المسرفون فى أحكامهم على الإسلام والرسول

وما جاء من مُشَابِهه فى مواضع كثيرة من القرآن ، تفسيراً يأباه منطق الحوادث فى سيرة الرسول تمام الإباء ، وتأباه حياة النبىّ العظيم فى تسلسلها من يوم بعثه الله للدعوة إلى دين الحق إلى يوم اصطفاه الله إليه .

حرية الرأى والحضارة الغربية

ويجملُ بنا لبيان ذلك أن نسأل عن الأساس المعنوى للحضارة الحاكمة اليوم ، ثم نقيس به هذا الأساس المعنوى الذى دعا محمد إليه . فالأساس المعنوى للحضارة الحاكمة اليوم هو حريَّة الرأى حريَّة لا حدّ لها ، ولا حدَّ للتعبير عنها إلا بالقانون . وحريَّة الرأى هذه هى لذلك عقيدة يدافع الناس عنها ويضحّون فى سبيلها ويجاهدون لتحقيقها ويحاربون من أجلها ، ويعتبرون ذلك كله آية من آيات المجد التى يفاخرون بها الأجيال ويتباهَوْن بها على ما سبقهم من العصور . ومن أجل ذلك يقول المستشرقون الذين أشرنا إليهم : إن دعوة الإسلام لمقاتلة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر دعوة إلى التعصُّب تتنافى وهذه الحرية . وهذه مغالطة مفضوحة إذا عرفت أن قيمة الرأى الدعوةُ له والعمل به . والإسلام لم يدعُ إلى مناوأة المشركين من أهل الجزيرة ، إذا هم أذعنوا ولم يَدْعُوا إلى شركهم ولم يعلموا به ويقيموا عبادته . والحضارة الحاكمة اليوم تحارب الآراء التى تناقض مواضع العقيدة منها بأشدّ مما كان يحارب المسلمون المشركين ، وتفرض على من يعتبر كتابياً بالنسبة لهذه الحضارة الحاكمة ما هو شرٌّ من الجزية ألف مرة .

ولسنا نضرب المثل لذلك بما كان حين محاربة تجارة الرقيق ، وإن آمن الذين كانوا يقومون بهذه التجارة بأنها غير محرَّمة . لا نضرب هذا المثل حتى لا يقال : إننا لا نستنكر هذه التجارة وإن كان الإسلام لم يدعُ إلى أكثر من محاربة ما يستنكر . لكن أوربا اليوم ، أوربا صاحبة الحضارة الحاكمة تؤيدها أمريكا وتعززها قوَّات الجنوب فى آسيا والشرق الأقصى منها، قد حاربت البلشفية ، وهى مستعدَّة لمحاربتها أشدَّ الحرب . ونحن فى مصر مستعدُّون للاشتراك مع الحضارة الحاكمة لمحاربة البلشفية . والبلشفية ليست مع ذلك إلا رأياً

محاربة البلشفية وهى رأى اقتصادى

فى الاقتصاد يحارب الرأى الذى تدين به الحضارة الحاكمة اليوم . أفتكون دعوة الإسلام إلى محاربة المشركين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه دعوةً وحشيَّة إلى التعصب وضدَّ الحرية ، وتكون الدعوة إلى محاربة البلشفية الهادمة للنظام الاجتماعى فى الحضارة الحاكمة دعوة إلى الحرية فى العقيدة والرأى وإلى احترامها !

محاربة محلات العرى

ثم إن قوماً رأوا فى غير بلد من بلاد أوربا أن التهذيب النفسى يجب أن يتصل به التهذيب الجسمى ، وأن ما تواضع الناس عليه من ستر الجسم كله أو بعض أعضائه أشد إثارة للمعانى الجنسية فى النفس ، وأشد لذلك إفساداً للخلق من أن يسير الناس وكلهم عريان . وبدأ أصحاب هذا الرأى ينفذونه وأقاموا محلاَّت العرى فى بعض المدن ، وأقاموا أماكن يغشاها من شاء للتدرُّب على هذا التهذيب الجسمى . لكن هذا الرأى ما بدأ ينتشر حتى رأى القائمون بالأمر فى كثير من البلاد أن فى انتشار مظاهره إفساداً للتهذيب الخلقى يضر بالجماعة ؛ فحرموا « محلاَّت العرى » وحاربوا القائمين بالرأى ، ونهوا بالقانون عن إنشاء أماكن هذا التهذيب الجسمىّ . وما نشك فى أن هذا الرأى ، لو انتشر فى أمة بأسرها لكان سبباً لإعلان الحرب عليها من أمم أخرى على أنه مفسدة للحياة المعنوية فى الإنسان ، كما أثيرت حروب بسبب الرقيق ، وكما تثار حروب أو ما يشبهها بسبب تجارة الرقيق الأبيض وبسبب الاتجار بالمخدّرات . لماذا ذلك كله ؟ لأن حرّية الرأى على إطلاقها يمكن أن تُحتمل ما بقيت حبيسةً فى حدود القول الذى لا يتصل منه بالجماعة ضرّ أو أذى . فإذا أوشك هذا الرأى أن يثير فى الجماعة الإنسانية الفساد فقد وجبت محاربة هذه الثائرات ووجبت محاربة مظاهر الرأى جميعاً ، بل وجبت محاربة الرأى نفسه ، وإن اختلفت مظاهر هذه الحرب بمقدار ما يترتب على هذه المظاهر من فساد فى الجماعة يخشى منه على قوامها الخُلقىّ أو الاجتماعى أو الاقتصادى .

هذه هى الحقيقة الاجتماعية المعترف بها والمقرَّرة لدى الحضارة الحاكمة

التشريع قمع لحرية الرأى له ما يسوغه

اليوم . ولو أردنا أن نستقصى مظاهر ذلك وآثاره فى مختلف الشعوب لطال بنا البحث ، وليس ها هنا موضعه . على أنك تستطيع أن تقول إن كل تشريع يراد به قمع أية حركة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية إنما هو حرب للرأى الذى تصدر عنه هذه الحركة . وهذه الحرب تجد ما يسوّغها فى مبلغ ما يُصيب الجماعة الإنسانية من ضرر إذا نُفِّذت الآراء تُشَبّ الحرب عليها . فإذا أردنا أن نقدر دعوة الإسلام إلى مقاتلة الشرك وأهله وحربهم حتى يذعنوا ، وهل هذه الحرب مسوّغة أو غير مسوّغة ، وجب أن ننظر فيما تمثّله فكرة الشرك هذه وما تدعو إليه . فإن اتفقت الكلمة على فادح ضررها بالجماعة الإنسانية فى مختلف عصورها كان لإعلان الإسلام الحرب عليها ما يسوّغه بل ما يوجبه .

صورة من حياة المشركين

والشرك الذى كان موجوداً حين قيام محمد عليه السلام بالدعوة إلى دين الله الحق لم يكن يمثّل عبادة الأصنام وكفى ، ولو أنه كان كذلك لوجبت محاربته ؛ فمن الازدراء للعقل الإنسانى وللكرامة الإنسانية أن يعبد الإنسان حجراً . ولكن هذا الشرك كان يمثّل مجموعة من التقاليد والعقائد والعادات ، بل كان يمثّل نظاماً اجتماعيًّا هو شرٌّ من الرق وشرّ من البلشفية وشرّ من كل ما يتصور العقل فى هذا القرن المتم للعشرين . كان يمثّل وأدَ البنات ، وتعدّد الزوجات إلى غير حدّ ، حتى ليحلّ للرجل أن يتزوّج ثلاثين وأربعين ومائة وثلثمائة امرأة وأكثر من ذلك . وكان يمثّل الربا فى أفحش ما يستطيع الإنسان أن يتصوّر الربا . وكان يمثّل الإباحيَّة الخُلقية فى أسفل صورها ، وكانت جماعة الوثنيين العرب شرّ جماعة أخرجت للناس . ونودّ من كل منصف أن يجيب عن هذا السؤال : لو أن جماعة من الناس وضعت لنفسها اليوم نظاماً فيه من العقائد والعادات وأدُ البنات ، وتعدّد الزوجات ، وإباحة الرق لسبب أو لغير سبب ، واستغلال الأموال استغلالاً فاحشاً ، ثم قامت ثورة على ذلك كله تحاول تحطيمه والقضاء عليه ، أتُتَّهمُ هذه الثورة بالتعصّب وبالعمل ضدّ حرية الرأى ؟ ! وإذا افترضنا أن أمة اطمأنَّت إلى هذا النظام الاجتماعى المنحطّ وأوشكت العدوى أن تنتقل منها إلى غيرها من الدول فآذنتها هذه الدول بحرب ، أتكون الحرب

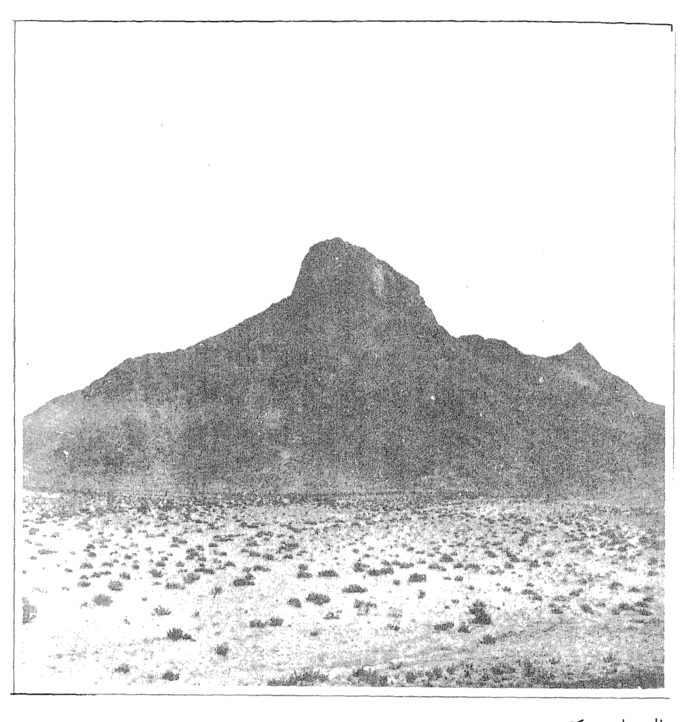
مسوّغة أم غير مسوّغة ؟ ! أوَلا تكون مسوَّغة أكثر من الحرب الكبرى الأخيرة التى طاحت بملايين من أهل هذا العالم لغير سبب إلا الشره والجشع من جانب دول الاستعمار؟! وإذا كان ذلك شأنها فما عسى أن تكون قيمة نقد المستشرقين للآيات التى تلاها القارئ من سورة براءة ، ولدعوة الإسلام إلى حرب الشرك وأهله ممن يدعون إلى إقامة نظام فيه ما ذكرنا وشرٌّ مما ذكرنا !

الثورة على الشرك مسوغه

وإذا كانت هذه هى الحقيقة التاريخية فى شأن هذا النظام الذى كان قائماً فى بلاد العرب يُظِلّه علم الشرك والوثنيَّة ، فهناك أيضاً حقيقة تاريخية أخرى مستمدّة من حياة الرسول . فهو قد أنفق منذ بعثه الله برسالته ثلاث عشرة سنة حسوماً يدعو الناس فيها إلى دين الله بالحجة ويجادلهم بالتى هى أحسن . وهو فيما قام به من غزوات لم يكن معتدياً قط ، وإنما كان مدافعاً عن المسلمين دائماً ، مدافعاً عن حرّيتهم فى الدعوة إلى دينهم الذى يؤمنون به ويضحُّون بحياتهم فى سبيله . هـذه الدعوة القويّة إلى قتال المشركين على أنهم نَجَسٌ ، وأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق ، وأنهم لا يَرْعَوْن فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، وإنما نزلت بعد آخر غزوة غزا النبىّ : تبوك . فإذا حلّ الإسلام ببلاد تفشى فيها الشرك وحاول أن يقيم فيها هذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الهدّام الذى كان قائماً فى شبه الجزيرة حين بُعِث النبىُّ ، فدعا المسلمون أهلَها إلى ترك هذا النظام ، وإلى الأخذ بما أحلَّ الله وتحريم ما حرَّم فلم يُذعنوا ، فليس من منصف إلا يقول بالثورة عليهم ، وبقتالهم حتى تتم كلمة الحق ، وحتى يكون الدين كله لله .

ولقد أثمر هذا الذى تلا علىٌّ من « براءة » وما نادى فى الناس بألا يدخل الجنة كافر ، وبألا يَحُجّ بعد العام مشرك ، وبألا يطوف بالبيت عُريان ، خيرَ الثمرات ، وأزال كل تردُّد من نفوس القبائل التى كانت ما تزال متباطئة فى تلبية دعوة الإسلام .

وبذلك دخلت فى الإسلام بلاد اليمن ومَهْرَة والبحرين واليمامة، ولم يبق من يناوئ محمداً إلا عدداً قليلاً أخذتهم العزة بالإثم وغرّهم بالله الغرور .



غار حراء — بمكة

عامر بن الطفيل

من هؤلاء عامر بن الطفيل الذى ذهب مع وفد بنى عامر ليستظّلوا براية الإسلام ؛ فلما كانوا عند النبىّ امتنع عامر ولم يُسلم ، وأراد أن يكون للنبى نِدًّا . وأراد النبىّ أن يقنعه كيما يسلم ، فأصرّ على إبائه ، ثم خرج وهو يقول : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً . قال محمد : اللّهمّ اكْفِنى عامر بن الطفَيْل ! وانصرف عامر يريد قومه . وإنه لفى بعض الطريق إذ أصابه الطاعون فى عنقه وقضى عليه وهو فى بيت امرأة من بنى سَلول ؛ قضى عليه وهو يردّد : « يا بنى عامر ! أغُدَّةً كغدَّة البعير وموتة فى بيت سَلوليَّة ! » . أمَّا أرْبَد بن قيس فقد أبى أن يسلم وعاد إلى بنى عامر ولم يطل به المقام بل أحرقته صاعقة حين خرج على جمل له يبيعه . ولم يمنع إباء عامر وأربد قومَهما من أن يسلموا . ومن هؤلاء بل هو شرٌّ منهم مكاناً مُسَيْلَمة بن حبيب ؛ فقد جاء فى وفد بنى حَنِيفة من أهل اليمامة وخلَّفه القوم على رحالهم وذهبوا إلى رسول الله فأسلموا وأعطاهم النبىّ ، فذكروا له مُسَيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر للقوم ، وقال : أما إنه ليس بشرّكم مكاناً ؛ وذلك لحفظه رحال أصحابه . فلمَّا سمع مُسيلمة قولهم ادّعى النبوة ، وزعم أن الله أشركه مع محمد فى الرسالة ، وجعل يسجَع لقومه ويقول لهم فيما يقول محاولا مضاهاة القرآن : « لقد أنعم الله على الحُبْلى . أخرج منها نسمة تسعى . من بين صفاق وحشا » : وأحلَّ مُسَيْلَمة الخمرَ والزنا ، ووضع عن قومه الصلاة ، وانطلق يدعو الناس إلى تصديقه . فأمَّا مَنْ عدا هؤلاء من العرب فأقبلوا يدخلون فى دين الله أفواجاً من أطراف شبه الجزيرة ، وعلى رأسهم رجال من أعزّ الرجال من أمثال عَدىّ بن حاتم وعمر ابن مَعْدى كَرِب . وبعث ملوك حِمْيَر رسولا بكتاب منهم إلى النبى يعلنون فيه إسلامهم فأقرّهم عليه وكتب إليهم بما لهم وما عليهم فى شرع الله . فلما انتشر الإسلام فى جنوب شبه الجزيرة ، بعث محمد من السابقين إلى الإسلام من يفقهُهُم فى دينهم ويثبّتهم فيه .

تسمية وفود العرب إلى النبى

لم نُطِل الوقوف عند وفود العرب إلى النبى كما فعل بعض الأقدمين من كتَّاب السيرة ، لتشابه أمرهم فى الانضواء تحت راية الإسلام . ولقد أفرد ابن

سعد فى طبقاته الكبرى لوفادات العرب على الرسول خمسين صفحة كبيرة ، نكتفى بأن نذكر منها أسماء القبائل والبطون التى أوفدتها . فقد جاءت وفود من : مُزَيْنة ، وأَسَد ، وتميم ، وعَبْس ، وفَزَارة ، ومُرَّة ، وثَعْلَبة ، ومُحارِب ، وسعد بن بكر ، وكِلاب ، ورُؤاس بن كلاب . وعُقَيْل بن كعب ، وجَعْدة ، وقُشَيْر بن كعب ، وبنى البكَّاء ، وكنانة ، وأشجَع ، وباهِلة ، وسُلَيم ، وهلال بن عامر ، وعامر بن صَعْصَعَة ، وثَقِيف . وجاءت وفود ربيعة من : عبد القَيْس ، وبكر ابن وائل ، وتَغْلِب ، وحَنِيفة ، وشَيْبان . وجاء من اليمن وفد من طيئ ، وتُجيب ، وخَوْلان ، وجعْفِىّ ، وصُدَاء ، ومُراد ، وزُبَيد ، وكِنْدَه ، والصَّدف ، وخُشَيْن ، وسعد هُذَيْم ، وبَلِىّ ، وبَهْراء ، وعُذْرة ، وسلامان ، وجهيْنة ، وكَلْب ، وجَرْم ، والأَزْد ، وغَسّان ، والحارث بن كعب ، وهَمْدان ، وسعد العَشيرة ، وعَنْس ، والداريين ، والرَّهَاويين (حى من مذجح) ، وغامِد ، والنَّخَع ، وبَجِيلة ، وخثْعَم ، والأشْعَرين ، وحَضْرَمَوْت ، وأزد عُمَان ، وغافِق ، وبارق ، ودَوْس ، وثُمَالة ، والحُدان ، وأَسْلَم ، وجُذام ، ومهرة ، وحِمْير ، ونَجْران ، وجَيْشان . وكذلك لم يبق فى شبه الجزيرة بطن أو قبيلة حتى أسلم إلا من قدمنا .

وكان ذلك شأن المشركين من أهل شبه الجزيرة ؛ سارعوا إلى الدخول فى الإسلام ، وتركوا عبادة الأوثان . وتطهرت بلاد العرب جميعاً من الأصنام وعبادتهم وتم ذلك كله بعد تبوك طواعية واختياراً ، من غير أن تزهق نفس أو يهراق دم . فماذا صنع اليهود والنصارى مع محمد ، وماذا صنع محمد معهم ؟

الفصل التاسع والعشرون

حجة الوداع

محمد وأهل الكتاب – موقفه من النصارى – مجادلته إياهم – وحدة موقف محمد منهم – بعث على بن أبى طالب إلى اليمن – دعوة محمد الناس للحج ومجيئهم إلى المدينة من كل صوب – مسيرتهم فى نحو مائة ألف إلى مكة – مناسك الحج – خطبة محمد .

حج أبى بكر بالناس

منذ تلا علىّ بن أبى طالب صدر سورة براءة على الحاجّ من مسلمين بعد ومشركين حين حجّ أبو بكر بالناس ، ومنذ أذَّن فيهم بأمر محمد حين اجتمعوا بمنى أن لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدّته ، أيقن المشركون من أهل بلاد العرب جميعاً أن لم يبق لهم إلى المُقام على عبادة الأوثان سبيل ، وأنهم إن يفعلوا فليأذَنوا بحرب من الله ورسوله . وكان ذلك شأن أهل الجنوب من شبه جزيرة العرب حيث اليمن وحضرموت ؛ لأن أهل الحجاز وما والاها شمالاً كانوا قد أسلموا واستظلّوا براية الدين الجديد . وكان الأمر فى الجنوب مقسَّما بين الشرك والمسيحية . فأمَّا المشركون فأقبلوا كما رأيت من قبلُ ، يدخلون فى دين الله أفواجاً ويبعثون وفودهم إلى المدينة فيلقون من النبيّ كل حفاوة بهم تزيدهم على الإسلام إقبالاً وتردّ أكثرهم إلى إماراته فتجعله أشدّ على دينه الجديد حرصاً . وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد نزلت فيهم مما تلا علىٌّ من سورة التوبة هذه الآيات : (قَاتِلُوا الَّذِين لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرون)[1] . إلى قوله تعالى : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ

تفريق الإسلام بين الوثنية والكتابية

---

(١) آية ٢٩ وما بعدها .

أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِين يَكْنِزُونَ الذَّهبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزتُم لأَنفُسِكُمْ فَذُوقوا مَا كُنتم تَكْنِزُون) .

يقف كثير من المؤرخين ، أمام هذه الآيات من سورة التوبة ختام ما نزل من القرآن ، يسائلون أنفسهم : هل أُمِر محمد عليه السلام فى شأن أهل الكتاب بغير ما أُمِر به من قبلُ أثناء سنى رسالته ؟ ويذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن هذه الآيات تضع أهل الكتاب والمشركين فيما يُشبه المساواة ؛ وأن محمداً ، وقد ظفر بالوثنيَّة فى شبه الجزيرة بعد أن استعان عليها باليهوديَّة والمسيحية ، معلنًا خلال أعوام رسالته الأولى أنه إنما جاء مبشراً بدين عيسى وموسى وإبراهيم والرسل الذين خلَوْا من قبلُ ، قد جعل وجهته إلى اليهود الذين بدءوه بالعداوة ، وظلَّ بهم حتى أجلاهم عن شبه الجزيرة ، وأثناء ذلك كان يتودّد إلى النصارى وتنزل عليه الآيات تشيد بحسن إيمانهم وجميل مودَّتهم ، وينزل عليه قوله تعالى : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) [١] .

وها هو ذا الآن يجعل وجهته إلى النصرانية يريد بها ما أراد باليهودية من قبل ، فيجعل شأن النصارى كشأن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ؛ وهو يصل إلى ذلك بعد أن أجار النصارى من اتَّبعه من المسلمين حين ذهبوا إلى الحبشة يستظلون بعدل نجاشيّها ، وبعد أن كتب محمد لأهل نَجرَان وغيرهم من النصارى يُقرّهم على دينهم وعلى القيام برسوم عبادتهم . ويذهب أولئك المستشرقون إلى أن هذا التناقض فى خُطَّة محمد هو الذى أدَّى إلى استحكام العداوة بين المسلمين والنصارى من بعدُ ، وأنه هو الذى جعل التقريب بين أتباع

---

(١) سورة المائدة آية ٨٢ .

عيسى وأتباع محمد غير ميسور إن لم يكن فى حكم المستحيل .

والأخذ بظاهر هذه الحجة قد يغرى الذين يستمعون إليها إلى أنها تصف جانبًا من الحقّ ، إن لم تُغْرِهم بتصديقها ؛ فأما تتبع التاريخ والتدقيق فى أحوال نزول الآيات وأسباب نزولها ، فلا يدع محلا للريب ألبتة فى وحدة موقف الإسلام وموقف محمد من الأديان الكتابية منذ بدء رسالته إلى ختامها . فالمسيح ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم . والمسيح بن مريم عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبيًّا وجعله مباركًا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيًّا ؛ ذلك ما نزل به القرآن منذ بدء الرسالة إلى ختامها . والله أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحدٌ ؛ ذلك روح الإسلام وأساسه منذ اللحظة الأولى ، وذلك روح الإسلام ما دام العالم . ولقد ذهب وفد من نصارى نجران إلى النبى يجادلونه فى الله ، وفى بنوة عيسى لله من قبل أن تنزل سورة التوبة بزمن طويل ، ويسألون محمداً : إن عيسى أمه مريم فمن أبوه ؟ وفى ذلك نزل قوله تعالى :

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِنْ ربِّكَ فَلاَ تَكُن مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ من بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بالْمُفْسِدِينَ . قُل يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمون)[1] .

وفى هذه السورة ، سورة آل عمران ، يتوجَّه الجديث حديثًا معجزاً إلى أهل الكتاب يعاتبهم لِمِ يصدُّون عن سبيل الله من آمن ، ولِم يكفرون بآيات الله وهى هى التى جاء بها عيسى وجاء بها موسى وجاء بها إبراهيم ، قبل

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ٥٩ إلى ٦٤ .

أن تحرَّف عن مواضعها وقبل أن يوجهها التأويل بما تهوى أغراض هذه الحياة الدنيا ومتاعها الغرور . وفى كثير من السور توجيه للحديث على النحو الذى وجه به فى سورة آل عمران . ففى سورة المائدة يقول الله تعالى : (لقدْ كفرَ الَّذِينَ قالُوا إنَّ اللهَ ثالِثُ ثلاثة وَمَا مِنْ إلٰهٍ إلاَّ إلهٌ وَاحِدٌ وَإنْ لمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُون لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كفرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ . أَفلا يَتُوبُون إِلى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا المَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)(١) . وفى سورة المائدة كذلك يقول تعالى : (وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ)(٢) . إلى آخر الآيات التى نقلنا فى تقـــديم هذا الكتاب : وسورة المائدة هى التى من بين آياتها الآية التى يحتج بها المؤرخون من النصارى ، ويتَّخذونها دليلاً على تطوّر موقف محمد منهم لتطوُّر أحواله السياسية ؛ إذ يقول تعالى : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَودَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـــارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَـــاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)(٣) .

والآيات التى نزلت فى سورة براءة وتحدّثت عن أهل الكتاب لم تتحدَّث عنهم فى إيمانهم بالمسيح بن مريم ، وإنما تحدّثت عنهم وعن شركهم بالله وفى أكلهم أموال الناس بالباطل وفى كنزهم الذهب والفضة . والإسلام يرى ذلك خروجاً من أهل الكتاب على دين عيسى ، يجعلهم يُحِلُّونَ ما حرّم الله ويصنعون صنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . وهو مع ذلك يجعل من إيمانهم بالله ، على الرغم من ذلك كله ، شفيعاً لهم لا تجوز معه مساواتهم

---

(١) الآيات من ٧٣ إلى ٧٥ .
(٢) آية ١١٦ .
(٣) آية ٨٢ .

بالوثنيين ، ويكفى معه ، إن هم أصروا على أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة وعلى أن يُحلّوا ما حرّم الله ، أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

تتابع الوفود

كانت هذه الدعوة التى أذّن علىٌّ بها ، يومَ حجِّ أبى بكر بالناس ، آية إسلام الناس من أهل الجنوب فى شبه الجزيرة ودخولهم فى دين الله أفواجاً . فقد توالت الوفود تَتْرَى على المدينة كما قدّمنا من قبلُ ، ومن بينها وفود من المشركين ووفود من أهل الكتاب . وكان النبيّ يُكرم كل وافد عليه ويردّ الأمراء مكرمين إلى إماراتهم . من ذلك ما سبق لنا ذكره فى الفصل الماضى ، ومنه أن الأشعث ابن قيس قدِم فى وفد كِنْدة فى ثمانين راكبًا ، دخلوا المسجد على النبيّ وقد رجَّلوا لمَمهم وتكحَّلوا ولبسوا جُبَب الحِبَرَ بَطَّنوها بالحرير ، فلما رآهم النبى قال : ألم تُسلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما هذا الحرير فى أعناقكم ، فَشَقّوه . وقال له الأشعث : يا رسول الله ، نحن بنو آكل المُرَار وأنت ابن آكل المرَار فتبسم النبيّ ونسب ذلك إلى العبَّاس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث . وقدِم وائل بن حُجْر الكندىّ مع الأشعث وكان أمير بلاد الشاطئ من حَضْرَمَوت فأسلم ، فاقره النبى فى إمارته على أن يجمع العشر من أهـــل بلاده ليرده إلى جُباة الرسول . وكلَّف النبى معاوية بن أبى سفيان أن يصحب وائلاً إلى بلاده . وأبى وائل أن يردفه أو أن يعطيه نعليه يتّقى بهما حَمَارَّة القيظ مكتفيًا بأن يدعه يسير فى ظلّ بعيره . وقبل معاوية ذلك على مخالفته لِما جاء به الإسلام من التسوية بين المسلمين ومن جعل المؤمنين إخوة ، حرصًا على إسلام وائل وقومه .

وحدة العرب فى ظل الإسلام

ولما انتشر الإسلام فى ربوع اليمن ، أوفد النبى مُعاذاً إلى أهله يعلّمهم ويفقههم وأوصاه قائلاً : « يَسِّرْ ولا تعسِّر . وبشِّر ولا تنفِّر . وإنك ستقوم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنَّة ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » . وذهب مُعاذ ومعه طائفة من المسلمين الأولين ومن الجباة يعلِّمون الناس ويقضون بينهم بقضاء الله ورسوله . وبانتشار الإسلام فى ربوع شبه الجزيرة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، أصبحت أمة واحدة يظلها لواء واحد هو لواء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتدين

كلها بدين واحد هو الإسلام ، وتتجه قلوبها جميعاً إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ هذا بعد أن كانت إلى قبل عشرين سنة قبائل متنافرة ، تشن إحداها الغارة على غيرها كلما وجدت فى ذلك مغنماً . وبانضوائها تحت لواء الإسلام طهُرت من رجس الوثنية واستراحت إلى حكم الواحد القهار . وبذلك هدأت الخصومات بين أهلها ؛ فلم يبق لغزو أو خصومة موضع ، ولم يبق لأحد أن يستل سيفه من قِرابه إلا أن يُدافع عن وطنه أو يدفع المعتدى على دين الله .

إسلام أهل الكتاب

على أن جماعة من نصارى نَجْران احتفظوا بدينهم ، مخالفين فى ذلك الأكثرين من قومهم بنى الحارث الذين أسلموا من قبلُ . إلى هؤلاء وجَّه النبى خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام كى يسلَموا من مهاجمته ولم يلبثوا حين نادى فيهم خالد أن أسلموا ؛ فبعث خالد وفداً منهم إلى المدينة لقيه النبى فيها بالترحيب والمودة . ثم إن جماعة من أهل اليمن عز عليهم أن يخضعوا للواء الإسلام ، لأن الإسلام ظهر بالحجاز ، ولأن اليمن اعتادت أن تغزو الحجاز فلم يغزها الحجاز من قبل قط . إلى هؤلاء أرسل النبى علىّ بن أبى طالب يدعوهم إلى الإسلام ، وقد استكبروا أول الأمر وقابلوا دعوة علىّ بمهاجمته ؛ فلم يلبث علىٌّ أن شتتهم على صغر سنه وإن لم يكن معه إلا ثلثمائة فارس . وارتدّ المنهزمون ينظمون من جديد صفوفهم . بَيْدَ أن عليًّا أحاط بهم وأوقع فى صفوفهم الرعب ، فلم يجدوا من التسليم بدًّا ، وسَلَّموا وأسلموا وحسن إسلامهم ، وأنصتوا إلى تعاليم مُعاذ وأصحابه ، وكان وفدهم آخر وفد استقبله النبى بالمدينة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

آخر الوفود إلى المدينة

تجهز النبى للحج

بينما كان علىٌّ يتأهب للعودة إلى مكة كان النبى يتجهز للحج ويأمر الناس بالتجهز له . ذلك أن أشهر السنة استدارت وأقبل ذو القعدة وأوشك أن يولى ولم يكن النبى قد حج الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدى الحج الأصغر قبل ذلك مرتين . وللحج مناسك يجب أن يكون عليه السلام قدوة المسلمين فيها . وما كاد الناس يعرفون ما صحّ عليه عزم النبىّ ودعوته إيَّاهم للحج معه حتى انتشرت الدعوة فى كل ناحية من شبه الجزيرة ، وحتى أقبل الناس على المدينة ألوفًا ألوفا من كل فج وحَدَب: من المدائن والبوادى ، من الجبال والصحارى ، من كل بقعة فى هذه البلاد العربية المترامية الأطراف ، التى استنارت كلها

بنور الله ونور نبيه الكريم . وحول المدينة ضربت الخيام لمائة ألف أو يزيدون جاءوا تلبية لدعوة نبيّهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتمُّ السلام . جاءوا إخوة متعارفين تجمع بينهم المودَّة الصادقة والأخوّة الإسلامية ، وكانوا إلى سنوات قبل ذلك أعداء متنافرين . وجعلت هذه الألوف المؤلَّفة تجوس خلال المدينة ، وكلٌّ باسم الثغر ، وضَّاح الطلعة ، مشرق الجبين ، يصفُ اجتماعهم انتصارَ الحق وانتشار نور الله انتشاراً ربط بينهم وجعلهم جميعاً كالبنيان المرصوص .

سيرة المسلمين إلى الحج

وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة سار النبيّ وأخذ نساءه جميعاً معه ، كلٌّ فى مِحَفَّتها . سار وتبعه هذا الجمع الزاخر . يذكر طائفة من المؤرّخين أنه كان تسعين ألفاً ، ويذكر آخرون أنه كان أربعة ومائة ألف . ساروا يحدوهم الإيمان وتملأ قلوبهم الغبطة الصادقة لسيرهم إلى بيت الله الحرام يؤدون عنده فريضة الحجّ الأكبر . فلمَّا بلغوا ذا الحُلَيْفة نزلوا وأقاموا ليلتهم بها . فلما أصبحوا أحرم النبيُّ وأحرم المسلمون معه ، فلبس كلٌّ منهم إزاره ورداءه وصاروا ينتظمهم جميعاً زِىٌّ واحد هو أبسط ما يكون زيًّا ، وقد حققوا بذلك المساواة بأسمى معانيها وأبلغها . وتوجَّه محمد بكل قلبه إلى ربه ونادى ملبياً والمسلمون من ورائه : « لَبَّيك اللهم لبَّيك ، لبَّيك لا شريك لك لبيك . الحمد والنعمة والشكر لك لبَّيك . لبَّيك ، لا شريك لك لبيك » . وتجاوبت الأودية والصحارى بهذا النداء تلبى كلها وتنادى بارئها مؤمنة عابدة . وانطلق الركب بألوفه وعشرات ألوفه يقطع الطريق بين مدينة الرسول ومدينة المسجد الحرام ، وهو ينزل عند كل مسجد يؤدّى فيه فرضه ، وهو يرفع الصوت بالتلبية طاعةً لله وشكراً لنعمته ، وهو ينتظر يوم الحج الأكبر نافد الصبر مشوق القلب ممتلئ الفؤاد لبيت الله هوى ومحبة ، وصحارى شبه الجزيرة وجبالها وأوديتها وزروعها النضرة فى دهش مما تسمع وتتجاوب به أصداؤها مما لم تعرف قطّ قبل أن يباركها هذا النبيّ الأميّ عبد الله ورسوله .

الإحرام والتلبية

الإحلال بالعمرة

فلما بلغ القوم سَرِفًا ، وهى مَحَلَّة فى الطريق بين مكة والمدينة ، قال محمد لأصحابه : من لم يكُن منكم معه هَدْىٌ فأحبَّ أن يجعلها عمرةً فليفعل ، ومن كان معه هَدْى فلا .

وبلغ الحجيج مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجَّة ، فأسرع النبيّ والمسلمون من بعده إلى الكعبة ، فاستلم الحجر الأسود فقبَّله ، وطاف بالبيت سبعاً هَرْوَل فى الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل فى عمرة القضاء . وبعد أن صلى عند مقام إبراهيم عاد فقبَّل الحجر الأسود كرة أخرى ، ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصَّفا ، ثم سعى بين الصفا والمَرْوة . ثم نادى محمد فى الناس أن لا يبق على إحرامه من لا هَدْىَ معه ينحره . وتردّد بعضهم ، فغضب النبيُّ لهذا التردُّد أشد الغضب وقال : ما آمركم به فافعلوه . ودخل قُبَّته مغضباً . فسألته عائشة : ما أغضبك ؟ فقال : ومالى لا أغضب وأنا آمر أمراً فلا يُتَّبَع ! . ودخل أحد أصحابه وما يزال غضبان ، فقال : من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار . فكان جواب الرسول : أوما شعرت أنى أمرتُ الناس بأمر فإذا هم يتردّدون ! ولو أنى استقبلتُ من أمرى ما استدبرت ما سُقت الهَدْى معى حتى أشتريه ، ثم أحِل كما حلَّوا . كذلك روى مسلم . فلما بلغ المسلمين غضبُ رسول الله حلَّ الألوف من الناس إحرامهم على أسف منهم ، وحَلّ نساء النبيّ وحَلَّت ابنته فاطمة مع الناس ، ولم يبق على إحرامه إلا من ساق الهدى معه .

عود علىّ من اليمن

وبينما المسلمون فى حجِّهم أقبل علىٌّ عائداً من غزوته باليمن وقد أحرم للحج لمَّا علم أن رسول الله حج بالناس . ودخل على فاطمة فوجدها قد حلَّت إحرامها . فسألها فذكرت له أن النبى أمرهم أن يحلوا بعمرة . فذهب إلى النبى فقصَّ عليه أخبار سفرته باليمن . فلما أتمَّ حديثه ، قال له النبى : انطلق فطُفْ بالبيت وحِلّ كما حَلَّ أصحابك . قال علىّ : يا رسول الله ، إنى أهللتُ كما أهللتَ . قال النبى : اِرجع فاحِلِل كما حَلَّ أصحابُك . قال علىّ : يا رسول الله إنى قلت حين أحرمتُ : اللهم إنى أهِلّ بما أهَلَّ به نبيك وعبدك ورسولك محمد . فسأله النبىّ : أمعه هَدْى ؟ فلما نفى علىٌّ أشركه محمد فى هديه ، وثبت علىٌّ على إحرامه وأدَّى مناسك الحج الأكبر .

أداء مناسك الحج

وفى الثامن من ذى الحجة يوم التروية ذهب محمد إلى مِنًى ، فأقام بخيامه فيها وصلى فروض يومه بها وقضى الليل حتى مطلع الفجر من يوم الحج ، فصلى الفجر وركب ناقته القَصْواء حين بزغت الشمس ويمَّم بها جبل عَرَفات والناس

من ورائه . فلمَّا ارتقى الجبلَ أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه فى مسيرته ، ومنهم الملبِّى ومنهم المكبِّر ، وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء . وضُربت للنبى قبة بنَمِرة ، (قريةٌ بشرق عَرَفات) ، وكان ذلك بعض ما أمر به . فلمَّا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرُحِلت ، ثم سار حتى أتى بطنَ الوادى من أرض عُرَنة ، وهناك نادى فى الناس وما يزال على ناقته بصوت جَهْوَرىّ كان يردّده مع ذلك من بعده ربيعة بن أميَّة بن خَلَف وهو يقف بين عبارة وأخرى قائلا بعد أن حمِد الله وأثنى عليه :

خطبة الرسول الجامعة

« أيها الناس : اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس ، إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تَلْقَوْا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا .

« وإنكم ستلقَوْن ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلَّغتُ .

« فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها .

« وإنَّ كل ربًا موضوع[1] ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون .

« قضى الله أنه لا ربًا ، وأن ربا عبَّاس بن عبد المطلب موضوع كلّه .

« وأن كل دم كان فى الجاهليَّة موضوع ، وأن أوّل دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . . .

« أمَّا بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبَد بأرضكم هذه أبداً . ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تَحقِرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

« أيها الناس ، إنّ النسىء زيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلونه عامًا ويحرّمونه عامًا ليواطئوا عدَّة ما حرم الله فيُحِلّوا ما حرم الله ويحرّموا ما أحل الله .

---

(١) أى مهدر .

« وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُمٌ ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

« أمَّا بعد ، أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا ، لكم عليهن ألاّ يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألاّ يأتين بفاحشة مبيِّنة . فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرّح . فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عَوَان[1] لا يملكن لأنفسهن شيئًا . وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

« فاعقِلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلَّغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تَضلوا أبداً أمراً بينًا : كتاب الله وسنَّةَ رسوله .

« أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقِلوه . تَعَلَّمُنَّ أنَّ كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحلُّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُنَّ أنفسكم .

« اللهم هل بلغت ! » .

كان النبي يقول هذا وربيعة يردّده من بعده مَقْطَعًا مقطعًا ، ويسأل الناس أثناء ذلك ليحتفظ بيقظة أذهانهم . فكان النبي يكلّفه أن يسألهم مثلا : إن رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر . فيقول النبي : قل لهم إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا . فلما بلغ خاتمة كلامه وقال : اللهم هل بلَّغت ، أجاب الناس من كل صوب . نعم . فقال : « اللَّهم اشْهَدْ » .

اليوم أكملت لكم دينكم

ولما أتم النبي خطابه نزل عن ناقته القصواء ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ثم ركبها حتى الصَّخَرات ؛ وهناك تلا عليه السلام على الناس قول الله تعالى :

---

(١) عوان : أسرى أو كالأسرى ، الواحدة عانية .

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (١) .

فلما سمعها أبو بكر بكى أن أحس أن النبي وقد تمت رسالته قد دنا يومه الذى يلقى فيه ربه .

وترك النبي عرفات وقضى ليله بالمزدلفة ، ثم قام فى الصباح فنزل بالمشعر الحرام ؛ ثم ذهب إلى مِنًى وألقى فى طريقه إليها الجمرات ؛ حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثًا وستين ناقة ، واحدة عن كل سنة من سنى حياته ، ونحر علىٌّ ما بقى من الهدى المائة التى ساق النبي منذ خروجه من المدينة . ثم حلق النبىٌّ رأسه وأتم حجه . أتم هذا الحج الذى يسميه بعضهم حِجَّة الوداع ، وآخرون حِجَّة البلاغ ، وغيرهم حِجَّة الإسلام . وهى فى الحق ذلك كله ؛ فقد كانت حجة الوداع ، رأى فيها محمد مكة والبيت الحرام للمرة الأخيرة . وكانت حجة الإسلام ، أكمل الله فيها للناس دينه وأتم عليهم نعمته . وكانت حجة البلاغ ، أتم النبي فيها بلاغه للناس ما أمره الله ببلاغه . وما محمد إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون .

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

الفصل الثلاثون

مرض النبي ووفاته

تفكيره فى غزو الروم – جيش أسامة – بدء مرض النبى – ذهابه إلى مقابر المسلمين وصلاته على أهل أحد – شكواه من وجع رأسه – الحمى – أمره أبا بكر أن يصلى بالناس – صحو الموت – اختيار الرفيق الأعلى .

حجة الوداع

تمَّت حِجَّة الوداع وآن لعشرات الألوف ممن صحبوا النبىَّ فيها أن يعودوا إلى ديارهم ، فأنجد منهم أهل نجد ، وأتْهم أهل تِهامة ، وانحدر إلى الجنوب أهل اليمن وحضر موت وما حاذاها . وسار النبى وأصحابه ميممين المدينة حتى إذا بلغوها أقاموا بها فى أمن من شبه الجزيرة كلها ، وفى تفكير متصل من جانب محمد فى أمر البلاد الخاضعة للروم والفرس بالشام ومصر والعراق . فهو قد أمِن من ناحية شبه جزيرة العرب جمعاء بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وبعد أن جعلت الوفود تُقْبِل تَتْرَى إلى يثرب تُعلن الطاعة وتتفيأ ظِلاَلَهَا تحت لواء الإسلام ، بعد أن انحاز العرب جميعًا إليه فى حِجَّة الوداع . وكيف لا يُخْلِص ملوك العرب فى ولائهم للنبىّ ولدينه ولم يُبْقِ لهم أحد ما أبقاه لهم النبىّ الأمىّ من سلطان واستقلال ذاتى . أوَ لم يُبْقِ بَدْهان عامل فارس على أرض اليمن فى ملكه حين أعلن بَدْهان إسلامَه وحَرَص على وحدة العرب وألْقى نِيرَ المجوس ؟ ولم يكن ما يقوم به بعضهم فى أنحاء من شبه الجزيرة من حركات تُشبه الانتقاض ليستغرق من النبى شيئًا من التفكير أو ليثير فى نفسه شيئًا من المخاوف ، بعد أن انبسط سلطان الدين الجديد على كل الأنحاء ، وعَنَت الوجوه للحىّ القيوم ، وآمنت القلوب بالله الواحد القهار .

لذلك لم يُثِرْ قيامُ الذين قاموا إذ ذاك يدَّعون النبوَّة عناية محمد ولا اهتمامه .

مدعو النبوة طليحة والأسود ومسيلمة

صحيح أن بعض القبائل القاصية عن مكة كانت تسرع ، بعد الذى عرفت عن محمد ونجاح دعوته ، إلى الاستماع لمدَّعى النبوَّة من أهل قبيلتهم ، وتودُّ لو يكون لها من الحظ ما أوتيت قريش ، وأن هذه القبائل كانت لبعدها عن مقرّ الدين

الجديد لا تعرف كل أمره . لكن الدعوة الحق إلى الله كانت قد تأصلت فى بلاد العرب ، فلم تكن مقاومتها أمراً يسيراً . وما لاقى محمد فى سبيل هذه الدعوة كان قد انتشر فى الآفاق خبره ، ولم يكن مستطاعاً لغير ابن عبد الله احتماله . وكل ادّعاء أساسُه البهتان لا مفرّ أن ينكشف سريعًا بهتانه . فكل ادّعاء للنبوّة لم يكن مقدَّراً له أى نجاح ذى بال . قام طَلَيْحة ، زعيم بنى أسد وأحد أشاوس العرب فى الحرب ومن ذوى السلطان بنجد ، وزعم أنه نبىٌّ ورسول ، وأيَّد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء فى يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم . لكنه بقى خائفاً من الانتقاض على محمد طوال حياة محمد ، ولم يعلن الثورة إلا بعد أن قبض الله إليه رسوله . وهزم ابن الوليد طليحة فى ثورته هذه ، فانضم من جديد إلى صفوف المسلمين وحسن إسلامه . ولم يكن مُسَيْلِمة ولا كان الأسود العَنْسىّ خيراً مكاناً من طليحة طِيلة حياة النبى . بعث مسيلمة إلى النبى عليه السلام يقول : إنه نبىٌّ مثله ، « وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم لا يعدِلون » . فلما تلا الخطاب نظر النبى لرسولَىْ مسيلمة وأبدى لهما أنه كان يأمر بقتلهما لولا أنَّ الرسل فى أمن ، ثم أجاب مسيلمة بأنه سمع إلى كتابه وما فيه من كذب ، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين . والسلام على من اتبع الهدى .

وأمَّا الأسود العَنْسىّ ، صاحب اليمن بعد موت بَذْهان ، فقد جعل يدَّعى السحر ويدعو الناس إليه خفية ، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرَد عمال محمد على اليمن ، وتقدَّم إلى نَجْرَان وقتل فيها ابن بذْهان ووارثَ عرشه ، وبنى بزوجه ، ونشر فى تلك الأصقاع سلطانه . ولم يُثِر استفحالُ أمره عناية محمد ، ولا استدعى من اهتمامه أكثر من أن بعث إلى عمَّاله باليمن كى يحيطوا بالأسود أو يقتلوه . ونجح المسلمون فى تأليب اليمن من جديد على الأسود ، وقتلته زوجه انتقاماً منه لقتله زوجها الأوَّل ابن بدهان .

التفكير فى غزو الروم

كان تفكير محمد وكانت عنايته متجهين إذاً إلى الشمال بعد عوده من حجة الوداع ، وكان من ناحية الجنوب آمنًا مطمئنًّا . والحق أنه منذ غزوة مُؤْتة ، ومنذ عاد المسلمون قانعين من الغنيمة بالإياب ، مكتفين بما أبدى خالد بن

الوليد من مهارة فى الانسحاب ، كان محمد يحسب لناحية الروم حسابها ، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا يعود إليها الذين جَلَوْا عن شبه الجزيرة إلى فلسطين يناوئون أهلَها . ولهذا جهَّز الجيش العَرِم الذى جهَّز حين بلغه تفكير الروم فى مهاجمة حدود شبه الجزيرة ، وسار هو على رأسه حتى بلغ تبوك ، فألفى الروم قد انسحبوا إلى داخل بلادهم وحصونهم من هيبته . لكنه مع هذا ظلَّ يقدّر لناحية الشمال أن تثور الذكريات بحماة المسيحية وأصحاب الغَلَب فى ذلك العصر من أهل الإمبراطورية الروميَّة ، فيعلنوا الحرب على من أجْلَوا النصرانية عن نَجْرَان وغير نجران من أنحاء بلاد العرب . لذلك لم يَطُلْ بالمسلمين المُقَام بالمدينة بعد عودهم من حِجَّة الوداع بمكة حتى أمر النبىّ بتجهيز جيش عرم إلى الشام ، جعل فيه المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر ، وأمَّر على الجيش أسامة بن زيد بن حارثة .

وكان أسامة بن زيد يومئذ حدَثًا لا يكاد يعدو العشرين من سنّه ؛ فكان لإمارته على المتقدمين الأوَّلين من المهاجرين ومن كبار الصحابة ما أثار دهشة النفوس لولا إيمانها الصادق برسول الله . والنبىّ إنما أراد بتعيين أسامة بن زيد أن يقيمه مقام أبيه الذى استشهد فى موقعة مؤتة ، وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد ، وما يبعث إلى جانب ذلك فى نفس الشباب الهمة والحميَّة ، ويعوّدهم الاضطلاع بأعباء أجسم التبِعات . وأمر محمد أسامة أن يُوطِئَ الخيل تُخوم البلْقاء والداروم من أرض فلسطين على مقربة من مُؤْتة حيث قُتل أبوه ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عَمَاية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وأن يتمّ ذلك دِرَاكًا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فإذا أتمَّ الله النَّصر لم يُطِل بقاءه بينهم ، وعاد غانماً مظفراً .

وصية النبى لأسامة

وخرج أسامة والجيش معه إلى الجُرْف (على مقربة من المدينة) يتجهَّزون للسفر إلى فلسطين . وإنهم لفى جهازهم إذ حال مرض رسول الله ، ثم اشتداد المرض به ، دون مسيرهم . وقد يسأل إنسان : كيف يحول مرض رسول الله دون مسيرة جيش أمر بجهازه وسفره ؟ لكن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أياماً طويلة ليست بالأمر الهين ولم يكن يسهل على المسلمين ، والنبى

أحبّ إليهم من أنفسهم ، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض . ثم إنهم لم يعرفوا قط من قبل أنه شكا مرضاً ذا بال ، فهو لم يُصَبْ من المرض بأكثر من فقد الشهيَّة فى السنة السادسة من الهجرة حين قيل كذباً إن اليهود سحروه ، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاة المسمومة فى السنة السابعة من الهجرة . ثم إن حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكل من يتَّبعها عن المرض . فهذا الزُّهد فى الطعام ونيل القليل منه ، وهذه البساطة فى الملبس والعيش ، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء ويحبها محمد ويحرص عليها ، حتى لَيقول : إنه لولا خيفته أن يشق على قومه لفرض عليهم السِّواك فى اليوم خمس مرات ، وهذا النشاط الدائم ؛ نشاط العبادة من ناحية ونشاط الرياضة من ناحية أخرى . وهذا القصد فى كل شىء ، وفى الملذات قبل كل شىء . وهذا السموّ عن عبث الأهواء ، وهذه الرفعة النفسيَّة لا تُدانيها رفعة ، وهذا الاتصال الدائم بالحياة وبالكون فى خير صور الحياة وأدق أسرار الكون — هذا كله يجنب صاحبه المرض ويجعل الصحة بعض حظه . فإذا كان سليمَ التكوين ، قوى الخَلْق ، كما كان محمد ، جفاه المرض ولم يعرف إليه سبيلا . فإذا مرض كان طبيعيًّا أن يخاف محبوه وأصحابه ، وكان طبيعيًّا أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال عشرين سنة متتابعة . فهو منذ بدأ يجهر بدعوته فى مكة منادياً الناس بعبادة الله وحده لا شريك له وبترك الأصنام مما كان يعبد آباؤهم ، قد لقِى من العنت ما تنوء به النفوس مما شتَّت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا إلى الحبشة ، وما اضطرَّه للاحتماء بشعاب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته . وهو حين هاجر من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقبة قد هاجر فى أدقّ الأحوال وأشدها تعرُّضاً للخطر ، وهاجر وهو لا يعرف ما قدر له بالمدينة . وقد كان بها فى الفترة الأولى من مُقامه موضع دسّ اليهود وعبثهم . فلما نصره الله وأذِن أن يدخل الناس من أنحاء شبه الجزيرة فى دين الله أفواجاً ، ازداد عمله وتضاعف مجهوده وظلّ تعهُّدُ ذلك كله يقتضيه من بذل الجهود ما ينوء بالعصبة أولى القوة ، وإن له — عليه الصلاة والسلام — فى بعض الغزوات لمواقف تشيب من هولها الولدان . وأىُّ موقف أشدُّ هولاً من موقفه يوم

مرض الرسول وحيلولة ذلك دون مسيرة الجيش

أُحد حين ولى المسلمون ، وسار هو يصعد فى الجبل ورجال قريش يشتدُّون فى تتبعه ، ويرمونه حتى كسرت رَبَاعِيتهُ ! وأىٌّ موقف أشدُّ هولاً من موقفه يوم حُنَين حين ارتدَّ المسلمون فى عماية الصبح مولّين الأدبار ، حتى قال أبو سفيان : إن البحر وحده هو الذى يردّهم ، ومحمد واقف لا يرتد ولا يتراجع وينادى فى المسلمين : إلى أين ، إلى أين ! إلىّ ! إلىّ ، حتى عادوا وحتى انتصروا ! . والرسالة ! والوحى ! وهذا المجهود الروحى المضنى فى اتصاله بسرّ الكون وبالملأ الأعلى ، هذا المجهود الذى رُوى بسببه عن النبىّ أنه قال : شيَّبتنى هودٌ وأخواتها ! رأى أصحاب محمد هذا كله ، ورأوه يحمل العبء صُلْبًا قويًّا لا يعرف المرض إليه طريقًا . فإذا مَرِض من بعد ذلك ، فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهَّلوا فى السير من معسكرهم بالجُرْف إلى الشام ، حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيه ورسوله .

وحادثٌ وقع جعلهم أشد خوفًا ؛ فقد أرِق محمد ليلةً أوّل ما بدأ يشكو وطال أرقه ، وحدّثته نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام ، أيام الصيف الرقيقة النسيم ، فيما حول المدينة ، وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلا مولاه أبا مُوَيْهِبة. أفتدرى أين ذهب ؟ ذهب إلى بقيع الغَرْقَد حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة . فلمَّا وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها : « السلامُ عليكم يأهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أقبلت الفِتَن كقِطَع الليل المظلم يتبع آخرها أوّلَها ، الآخرة شرٌّ من الأولى » . حدّث أبو مُوَيْهِبة أن النبىّ قال له أوّل ما بلغا بقيع الغَرْقَد : « إنى أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلِق معى » . فلمَّا استغفر لهم وآن له أن يؤوب ، أقبل على أبى مُوَيْهِبة فقال له : « يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والْخُلود فيها ثم الجنة ، فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة » . قال أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى ! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال محمد : « لا والله يا أبا مويهبة ! لقد اخترتُ لقاءَ ربى والجنَّة » .

خطاب النبى أهل المقابر

تحدّث أبو مويهبة بما رأى وما سمع ؛ لأن النبىّ بدأ يشكو المرض غداة تلك الليلة التى زار فيها البقيع ، فاشتد خوفُ الناس ولم يتحرّك جيش أسامة .

صحيح أن هذا الحديث الذى يُرْوَى عن أبى مُوَيْهِبة يلقاه بعض المؤرخين بشىء من الشك ، ويذكرون أن مرض محمد لم يكن وحده هو الذى حال دون تحرّك الجيش إلى فلسطين ، وأن تَذمرَ الكثيرين من تعيين حَدَث كأسامة على رأس جيش يضم جِلّة المهاجرين الأوّلين والأنصار ، كان أكبر من مرض محمد فى عدم تحرُّك الجيش أثراً . وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون فى تدوين رأيهم هذا على وقائع يتلوها القارئ فى هذا الفصل . وإذا كنا لا نناقش أصحاب هذا الرأى رأيهم فى تفاصيل هذا الذى روى أبو مُوَيْهِبة ، فإننا لا نرى مسوّغاً لإنكار الحادث من أساسه ، وإنكار ذهاب النبيّ إلى بقيع الغرقد واستغفاره لأهل المقابر من ساكنيه ودقة إدراكه اقتراب ساعته ، ساعة الدنو من جوار الله . فالعلم لا ينكر فى عصرنا الحاضر مناجاة الأرواح على أنها بعض المظاهر النفسية (Psychique) . ودقّة الإدراك لدنوّ الأجل يؤتاها الكثيرون حتى ليستطيع أى إنسان أن يقص مما عرَف من وقائع ذلك شيئاً غير قليل . ثم إن هذه الصلة بين الأحياء والموتى ، وهذه الوحدة بين الماضى والمستقبل ، وحدة لا يحدُّها زمان ولا مكان ، قد أصبحت مقررة اليوم وإن كنا بطبيعة تكويننا تقصُر عن استجلاء صورتها . فإذا كان ذلك بعض ما نرى اليوم وبعض ما يقرّه العلم ، فلا محلَّ لإنكار هذا الحادث الذى روى أبو مويهبة من أساسه ، ولا محل لهذا الإنكار بعد الذى ثبت من اتصال محمد النفسىّ والرُّوحىّ بعوالم الكون اتصالاً يجعله يدرك من أمره أضعاف ما يدرك الموهوبون فى هذه الناحية .

يداعب عائشة على رغم مرضه

وأصبح محمد فى الغداة ومرّ بعائشة ، فوجدها تشكو صُداعاً فى رأسها وتقول : وا رَأساه . فقال لها وقد بدأ يُحِسُّ ألم المرض : بل أنا والله يا عائشة وا رأساه . لكن شكْوَه لم يكن قد اشتدّ إلى الحدّ الذى يلزمه الفراش ، أو يحول بينه وبين ما عوَّد أهله وأزواجه من تلطّف ومفاكهة . وكرَّرت عائشة الشكوى من صُداعها حين سمعته يشكو ؛ فقال لها وما ضرَّك لو مُتّ قبلى فقمتُ عليك وكفنتك وصلَّيتُ عليكِ ودفنتك ! وأثارت هذه الدُّعابةُ غيرة الأنوثة فى نفس عائشة الشابة كما أثارت عندها حبّ الحياة والحرص عليها ، فأجابت : « ليكن ذلك حظَّ غيرى . والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد

رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك » . وتبسَّم النبىّ وإن لم يمكّنه الألم من متابعة الدعابة ، فلمَّا سكن عنه الألم بعض الشىء قام يطوف بأزواجه كما عوَّدهن . لكن الألم جعل يعاوده وتزداد به شدَّته ، حتى إذا كان فى بيت ميمونة لم يُطق مغالَبته ، ورأى نفسه فى حاجة إلى التمريض . هنالك دعا نساءه إليه فى بيت ميمونة واستأذنهنَّ ، بعد أن رأين حاله ، أن يُمرَّض فى بيت عائشة . وأذِن له أزواجه فى الانتقال ؛ فخرج عاصباً رأسه ، يعتمد فى مسيرته على علىٍّ بن أبى طالب وعلى عمه العباس ، وقَدَماه لا تكادان تحمِلانه حتى دخل بيت عائشة .

اشتداد الحمى

وزادت به الحمى فى الأيام الأولى من مرضه ، حتى لكان يشعر كأن به منها لهباً . لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل الحمى من أن يمشى إلى المسجد ليصلى بالناس . وظلَّ على هذا عدَّة أيام ، لا يزيد على الصلاة ولا يقوَى على محادثة أصحابه ولا خطابهم ، وإن لم يحل ذلك دون أن يصل الهمس إلى أذنه بما يقول الناس إنه أمَّر غلاماً حَدَثًا على جِلَّة المهاجرين والأنصار لغزو الشام . ومع أنه كان يزداد وجعه كل يوم شدّة ، لقد شعر من هذا الهمس بضرورة التحدّث إلى الناس حتى يعهد إليهم ؛ فقال لأزواجه وأهله : « هَريقوا علىَّ سبع قِرَب من آبار شتَّى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم » . وجىء بالماء من آبار مختلفة ، وأقعده أزواجه فى مِخْضَب[1] لحفصة ، وصَببنَ عليه ماء القرب السبع حتى طفِق يقول : حَسْبُكم حسبكم . ولبس ثيابه وعصَب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر ، فحمد الله ثم صلى على أصحاب أُحُد واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم ، ثم قال : « أيها الناس أنْفِذوا بَعْثَ أسامة . فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله . وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها » . وسكت محمد هنيهةً خيَّم الصمت على الناس أثناءها . ثم عاد إلى الحديث فقال : « إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله » . وسكت محمد من جديد والناس كأنما على رءوسهم الطير . لكن أبا بكر أدرك أن النبى

خروجه إلى المسجد

(١) المخضب : الطست .

إنما يعنى بهذه العبارة الأخيرة نفسه ، فلم يستطع لرقّة وجدانه وعظيم صداقته للنبي أن يمسك عن البكاء ، فأجهش وقال : بل نحن نَفْديك بأنفسنا وأبنائنا ! وخشى محمد أن تمتد عَدْوى التأثر من أبى بكر إلى الناس ، فأشار إليه قائلاً : على رِسْلِك يا أبا بكر . ثم أمر أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا بابَ أبى بكر فلمّا أقفلت قال : « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاءُ إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » . ونزل محمد عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة ، على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال :

إيصاؤه المهاجرين بالأنصار

« يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ؛ فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد . وإنهم كانوا عَيْبَتى [1] التى أويت إليها ، فأحْسِنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مُسِيئهم » .

ودخل محمد بيت عائشة . لكن المجهود الذى أنفقه يومئذ وهو فى مرضه قد كان من شأنه أن زاد وطأة المرض شدّة . وأى مجهود بالنسبة لمريض تساوره الحمى يخرج بعد أن تصبّ عليه سبع قربٍ من الماء ، ويخرج تثقله أكبر الشواغل : جيش أسامة ، ومصير الأنصار من بعده ، ومصير هذه الأمة العربية التى ربط الدين الجديد بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها . لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلى بالناس كما عوَّدهم ، فإذا هو لا يقدر . إذ ذاك قال : مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس . وكانت عائشة تحرِص على أن يؤدّى النبىُّ الصلاة لما فى ذلك من مظهر الصحة ، فقالت : إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن . قال محمد : مُروه فليصل بالناس ، فكررت عائشة قولها . فصاح محمد بها والمرض يهزّه : إنَّكن صواحبُ يوسف ! مروه فليصلّ بالناس . وصلى أبو بكر بالناس كأمر النبى . وإنه لغائب يوماً إذ دعا بلال إلى الصلاة ونادى عمر أن يصلى بالناس مكان أبى بكر . وكان عمر جهير الصوت ؛

---

(١) عيبتى : خاصتى وموضع سرى . والعرب تكنى عن القلوب والصدور بالعياب ، لأنها مستودع السرائر كما أن العياب مستودع الثياب .

فلما كبّر فى المسجد سمعه محمد من بيت عائشة فقال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » . ومن هنا ظنَّ بعضهم أن النبىَّ استخلف أبا بكر من بعده أن كانت الصلاة بالناس أول مظهر للقيام مقام رسول الله .

ابنته فاطمة وحديثه لها

وبلغت به شدة المرض حدًّا آلمه . ذلك أن الحمَّى زادت به حتى لقد كانت عليه قطيفةٌ ، فإذا وضع أزواجه وعوَّاده أيديهم من فوقها شعروا بحرّ هذه الحمَّى المضنية . وكانت ابنته فاطمة تعوده كل يوم ، وكان يحبها ذلك الحب الذى يمتلئ به وجود الرجل للابنة الواحدة الباقية له من كل عَقِبه . لذلك كانت إذا دخلت على النبىّ قام إليها وقبَّلها وأجلسها فى مجلسه . فلمَّا بلغ منه المرض هذا المبلغ دخلت عليه فقبَّلته ؛ فقال : مرحبًا بابنتى ، ثم أجلسها إلى جانبه وأسرَّ إليها حديثًا فبكت ، ثم أسرَّ إليها حديثًا آخر فضحكت . فسألتها عائشة فى ذلك ؛ فقالت : ما كنت لأفشى سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلمَّا مات ذكرت أنه أسرَّ إليها أنه سيُقْبَض فى مرضه هذا فبكت ، ثم أسرَّ أنها أول أهله يلحقه ، فضحكت . وكانوا لاشتداد الحمَّى به يضعون إلى جواره إناء به ماء بارد ، فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه . وكانت الحمَّى تصِل به حتى يُغْشى عليه أحيانًا ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب ؛ حتى قالت فاطمة يومًا وقد حزَّ الألم فى نفسها لشدة ألم أبيها : واكَرْب أبَتَاهُ ! فقال : لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم . يريد أنه سينتقل من هذا العالم عالم الأسى والألم .

وحاول أصحابه يومًا تهوين الألم على نفسه ، فذكروا له نصائحه ألاّ يشكو المريض . فأجابهم : إن ما به أكثر مما يكون فى مثل هذه الحال برجلين منهم .

أراد أن يكتب لهم كتاباً فاختلفوا

وفيما هو فى هذه الشدَّة وفى البيت رجال قال : « إيتونى بدواة وصحيفة أكتبْ لكم كتابًا لا تَضِلوا بعده أبداً » . قال بعض الحاضرين : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، وحَسْبُنا كتابُ الله . ويذكرون أن عمر هو الذى قال هذه المقالة . واختلف الحضور ، منهم من يقول : قرّبوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده . ومنهم من يأبى ذلك مكتفيًا بكتاب الله ، فلمَّا رأى محمد خصومتهم قال : قوموا ! ما ينبغى أن يكون بين يدى النبىّ

خلاف . وما فتئ ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئًا كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابة ما أراد النبيّ إملاءه . أمّا عمر فظلّ ورأيه ، أن قال الله فى كتابه الكريم : (ما فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىْءٍ) [١] .

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبى ، حتى هبط أسامة وهبط الناس معه من الْجُرف إلى المدينة . ودخل أسامة على النبىّ فى بيت عائشة ، فإذا هو قد أصْمت [٢] فلا يتكلم . فلما بصُر بأسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدّعاء له .

غضبه لمعالجة أهله إياه

ورأى أهله وهذه حاله أن يُسْعِفوه بعلاج ، فأعدّت أسماء قريبة ميمونة شرابًا كانت عرفت أثناء مُقامها بالحبشة كيف تُعِدّه ، وانتهزوا فرصة إغماءة من إغماءات الحمَّى فصبّوه فى فيه . فلما أفاق قال : مَنْ صنع هذا ؟ ولِمَ فعلتموه ؟ ! . قال عمه العبَّاس : خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب . قال : ذلك داء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به ! . ثم أمر بمن فى الدار ، خلا عمّه العباس ، أن يتناولوا هذا الدواء لم تُسْتَثْن منهم ميمونة على رغم صيامها .

وكان عند محمد أوّل ما اشتد به المرض سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده ، فأمر أهله أن يتصدّقوا بها . لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام فى خدمته واطّراد المرض فى شدّته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم : ما فعلوا بها ؟ فأجابت عائشة إنها ما تزال عندها . فطلب إليها أن تُحضرها ، ووضعها فى كفه ثم قال : « ما ظنُّ محمد بربه لو لقىَ الله عنده هذه » . ثم تصدق بها جميعًا على فقراء المسلمين .

وقضى محمد ليله هادئًا مطمئنًّا نزلت عنه الحمَّى ، حتى لكأن الدواء الذى سقاه أهله قد فعل فعله وقضى على المرض عنده . وبلغ من ذلك أن استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصبًا رأسه معتمداً على علىّ بن

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٨ .

(٢) أصمت العليل : اعتقل لسانه .

أبى طالب والفضل بن العباس . وكان أبو بكر ساعتئذ يصلى بالناس . فلما رأى المسلمون النبىّ وهم فى صلاتهم قد خرج إليهم كادوا يُفْتَنون فرحًا به وتفرّجوا ، فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم . وسُرَّ محمد بما رأى من ذلك أكبر سرور واغتبط له أعظم الغبطة . وأحسَّ أبو بكر بما صنع الناس ، وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ، فنكص عن مصلاّه يريد أن يتخلّى لمحمد عن مكانه . فدفعه محمد فى ظهره وقال : صلّ بالناس ؛ وجلس هو إلى جنب أبى بكر فصلَّى قاعداً عن يمينه . فلمّا فرغ من صلاته أقبل على الناس رافعًا صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال : « أيها الناس ؛ سعرت النار وأقبلت الفِتن كقِطَع الليل المظلم ، وإنى والله ما تَمسَّكون علىَّ بشىء . إنى والله لم أحِلَ إلا ما أحلّ القرآن ولا أحَرِّم إلا ما حرّم القرآن . لعن الله قومًا اتَّخذوا قبورهم مساجد » .

غبطة المسلمين بظاهرة إبلاله

ولقد عظُم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر التقدم فى صحة النبىّ ، حتى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذنه فى مسيرة الجيش إلى الشام ، وحتى مَثل بين يديه أبو بكر قائلا : يا نبىّ الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحبُّ ، واليوم يوم بنت خارجة ، أفآتيها ؟ فأذن النبىّ له فى ذلك ، وانطلق أبو بكر إلى السنْح بأطراف المدينة حيث تقيم زوجه . وانصرف عمر وعلىّ لشئونهما . وتفرّق المسلمون وكلهم سعيد مستبشر ، بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتّصل بهم من أخبار النبىّ ومرضه واشتداد الحمّى به وإغمائه . وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه ، وإن كان يحس جسمه ضعيفًا غاية الضعف ، وعائشة تنظر إلى هذا الرجل الذى يمتلئ قلبها تقديساً لجلال عظمته ، وقد ملكها الإشفاق عليه لضعفه ومرضه ، فهى تودّ لو تبذل له حشاشة نفسها لتردّ إليه القوّة والحياة .

الصحو الذى يسبق الموت

لكن خروج النبىّ إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذى يسبق الموت . فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت فى كل لحظة ضعفًا ، وكان يرى الموت يدنو ، ولم يبق لديه ريب فى أنه لم يبق له فى الحياة إلا سُوَيعات . ترى ماذا عساه

كان يشهد فى هذه السويعات الباقية له على فراق الحياة ؟ أفكان يستذكر حياته منذ بعثه الله هاديًا ونبيًّا ، وما لاقى فيها ، وما أتم الله عليه من نعمته ، وما شرح به صدره من فتح قلوب العرب لدين الحق ؟ أم كان يقضيها مستغفراً ربه متوجهاً إليه بكل روحه على نحو ما كان يفعل كلّ حياته ؟ أم كان يعانى هذه الساعات الأخيرة من آلام النزع ما لم يُبق لديه قوّة الاستذكار ؟ تختلف الروايات فى ذلك اختلافاً كبيراً وأكثرها على أنه دعا فى هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيرة ، ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م ، بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه ؟ وأن رجلا من آل أبى بكر دخل على عائشة وفى يده سواك ، فنظر إليه محمد نظراً دل على أنه يريده ، فأخذته عائشة من قريبها ومضغته له حتى لان وأعطته إياه فاستنّ به[١] ؛ وأنه وقد شق عليه النزع ، توجَّه إلى الله يدعوه : اللهم أعِنى على سَكَرات الموت . قالت عائشة ، وكان رأس النبى فى هذه الساعة فى حجرها : « وجدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقُل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخَص وهو يقول : « بَل الرفيق الأعلى من الجنة » . قلت : خُيرت فاخترتَ والذى بعثك بالحق . وقُبض رسول الله بين سَحْرى[٢] ونَحْرى ودولتى لم أظلِم فيه أحداً . فمن سَفَهى وَحداثة سِنِى أنه صلى الله عليه وسلم قُبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى » .

بل الرفيق الأعلى من الجنة

أمات محمد حقًّا ؟ ذلك ما اختلف العرب يومئذ فيه اختلافاً كاد يثير بينهم الفتنة ، وما تؤدى الفتنة إليه من حرب أهلية ، لولا أن أراد الله بهم وبدينه الحق الحنيف خيراً .

---

(١) استن به : استاك به .

(٢) السحر : الرئة ، أى أنه كان مستنداً إلى ما يحاذى الرئة من صدرها .

الفصل الحادى والثلاثون

دفن الرسول

اختلاف المسلمين هل مات محمد – عمر يخطب الناس بأنه لم يمت – أبو بكر يعود فيخطبهم بأنه مات ويتلو عليهم القرآن – اقتناع المسلمين بقول أبى بكر – خوف الاختلاف فيمن يقوم بأمر المسلمين – بيعة السقيفة ، ثم البيعة العامة لأبى بكر – تجهيز النبى وغسله – مرور الناس به رجالا فنساء فصبياناً – دفنه حيث قبض – إنفاذ جيش أسامة إلى الشام وانتصاره – آخر ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

ذهول المسلمين لخبر الوفاة

اختار النبىُّ عليه السلام الرفيق الأعلى فى بيت عائشة ورأسه فى حجرها ، فوضعت رأسه على وسادة وقامت تلتدم وتضرب وجهها مع النساء اللاتى أسرعنَ إليها لأوّل ما بلغهن الخبر . وفوجئ المسلمون بالمسجد بهذه الضجة ؛ لأنهم رأوا النبىّ فى الصباح وكل شىء يدلُّ على أنه عوفى ، مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجه بنت خارجة بالسنْح . لذلك أسرع عمر إلى حيث كان جثمان النبىّ وهو لا يصدّق أنه مات . ذهب فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به : فحسبه فى غيبوبة لابدَّ أن يُفيق منها . وعبثًا حاول المغيرة إقناعه بالحقيقة الأليمة ؛ فقد ظلَّ مؤمنًا بأن محمداً لم يمت فلما ألحَّ المغيرة قال له : كذبتَ . وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تُوُفى ؛ وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . والله ليَرجعَنَّ رسول الله كما رجع موسى ، فلَيقطعنَّ أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات » . واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحدة تلو الأخرى وهم فى حال أشبه شىء بالذهول ، ألاَ إنْ كان محمد قد مات حقًّا فواحَرَّ قلباه ؟ ويالَلهمّ الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له ، وآمنوا بالله الذى بعثه بالهدى ودين الحق ، همّ يذهل القلب ويذهب باللبِّ . وإن كان محمد قد ذهب إلى ربه ، كما يقول عمر ، فذلك أدعى

عمر يكذب الوفاة

للذهول ؛ وانتظارُ أوبته حتى يرجع كما رجع موسى أشدّ إمعاناً فى العَجَب . لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى إلى تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله لم يمت . وكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يرونه ويسمعون إلى صوته الجَهَورى وإلى دعائه واستغفاره ! . وكيف يموت وهو خليل الله الذى اصطفى لتبليغ رسالته ، وقد دانت له العرب كلها ، وبقى أن يدين له كِسْرى وأن يدين له هِرَقْل بالإسلام ! . وكيف يموت وهو هذه القوة التى هزّت العالم مدى عشرين سنة متوالية ، وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرف التاريخ ! . لكن النساء هناك ما زلن يلتدمن ويضربن وجوههنّ علامة أنه مات . ولكنّ عمر ها هنا فى المسجد ما فتئ ينادى بأنه لم يمت ، وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، وبأن الذين يقولون بموته إنما هم المنافقون ؛ هؤلاء المنافقون الذين سيضرب محمد أيديهم وأعناقهم بعد رجعته . أى الأمرين يصدّق المسلمون ؟ لقد أخذهم الفزع أول الأمر ، ثم ما زالت بهم أقوال عمر تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبي حتى كادوا يصدّقون أمانيهم ، ويصوّرون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها .

مجىء أبى بكر من السنح

وإنهم لكذلك إذ أقبل أبو بكر آتياً من السنْح وقد بلغه الخبر الفادح . وبصُر بالمسلمين وبعمر يخطبهم ، فلم يقف طويلا ولم يلتفت إلى شىء ، بل قصد إلى بيت عائشة فاستأذن ليدخل ، فقيل له : لا حاجة لأحد اليوم بإذن . فدخل فألفى النبيّ مسجّى فى ناحية من البيت عليه بُرد حبَرة[1] ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال : ما أطيبَك حيًّا وما أطيبَك ميتاً ! . ثم إنه أخذ رأس النبي بين يديه وحدَّق فى معارف وجهه التى بقيت لم يُنكرها عُدوان الموت عليها ، وقال : بأبى أنت وأمى ! أمَّا الْمَوتة التى كتب الله عليك فقد ذقتَها ، ثم لن تُصيبك بعدها موتة أبداً . ثم أعاد الرأس إلى الوسادة وردّ البرد على وجهه وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويُقنعهم بأن محمداً لم يمت . وفسح الناس لأبى بكر طريقاً . فلما دنا من عمر ناداه : على رِسْلِكَ يا عمر ! أنصت ! . لكن عمر أبى أن يسكت أو يُنصت واستمر

(١) برد حبرة (بالوصف وبالإضافة) : برد يمان موشى مخطط .

يتكلم . فأقبل أبو بكر على الناس وأشار إليهم بأنه يكلمهم . ومَنْ كأبى بكر فى هذا المقام ؟ ! أليس هو الصّدّيقَ صَفيَّ النبيّ ومن لو اتّخذ خليلا لاتّخذه خليلا ؟ ! لذلك أسرع الناس إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر . فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحمدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خلتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ انقلبتم عَلَى أَعقابِكم وَمن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشاكرين ﴾[1]

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات

وكان عمر قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبى بكر ؛ فلمَّا سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خرّ إلى الأرض ما تحمله رجلاه موقنًا أنَّ رسول الله قد مات . وأمَّا الناس فقد أخذوا من قبلُ بأقوال عمر ، حتى لقد ألفَوْا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت . وكذلك زايل القلوبَ كل شك فى أن محمداً قد اختار جِوار الرفيق الأعلى ، وأن الله قد ضمَّه إليه .

أفات محمد حقاً

أفكان عمر غاليًا حين اقتنع بأن محمداً لم يمت ، وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه ؟ كلا ! وإن العلماء ليحدّثوننا اليوم بأن الشمس ستظل تتناثر على حقب الدهور حتى يجيء يوم تفنى فيه . أفيصدق أحد هذا الكلام من غير أن تساوره الشكوك فى إمكانه ؟ هذه الشمس التى تُرسل من ضيائها ومن حرارتها ما يحيا العالم به ، كيف تفنى وكيف تنطفئ ثم يبقى العالم بعدها يوماً ؟ ومحمد لم يكن أقلّ من الشمس ضياء ، ولا حرارة ، ولا قوة . وكما أن الشمس مُحْسِنةٌ ، فقد كان محمد محسنًا . وكما أن الشمس تتصل بالكائنات كلها ، فقد كان روح محمد يتصل بالكائنات جميعًا ، وما زال ذكره صلى الله عليه وسلم يعطّر الكون كله . فلا عجب إذا اقتنع عمر بأن محمداً لا يمكن أن يموت . وهو حقًّا لم يمت ولن يموت .

رجوع الجيش إلى المدينة

وكان أسامة بن زيد قد رأى النبيّ صباح ذلك اليوم حين خرج إلى المسجد

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

وظن كما ظن المسلمون جميعاً أنه تعافى ، فذهب ومن كان قد عاد إلى المدينة من الجيش المسافر إلى الشام ولحِق بالمعسكر بالجُرْف ، وأمر الجيش بالتجهز للمسير . وإنه لكذلك إذ لحق به الناعى نذيراً بوفاة النبى ، فعاد أدراجَه وأمر الجيش فرجع كله إلى المدينة ؛ ثم ذهب هو فركز علَمه عند باب عائشة ، وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد .

في سقيفة بني ساعدة

وفى الحقّ أنّ المسلمين كانوا من أمرهم فى حيرة. فهم لم يلبثوا حين سمعوا أبا بكر وحين أيقنوا أن محمداً قد مات ، أن تفرَّقوا ، فانحاز حىٌّ من الأنصار إلى سعد بن عُبادة فى سَقيفة بنى ساعدة ، واعتزل علىّ بن أبى طالب والزُّبير ابن العوّام وطلحة بن عُبَيد الله فى بيت فاطمة ، وانحاز المهاجرون ومعهم أسَيدُ بن حُضَيْر فى بنى عبد الأشهل إلى أبى بكر . وإن أبا بكر وعمر لكذلك إذ أتى آت ينبئهما بنبأ الأنصار الذين انحازوا إلى سعد بن عبادة ، ثم يُردف النبأ بقوله : فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته لم يُفرَغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله . قال عمر موجهاً حديثه إلى أبى بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه . وإنهم لفى طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلان صالحان ، فذكرا للمهاجرين ما تمالأ عليه القوم وسألاهم : أين يريدون ؟ فلمَّا علما أنهم يريدون الأنصار قالا : لا عليكم ألاّ تقربوهم ؛ يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم . قال عمر : والله لنأتينَّهم . وانطلقوا حتى نزلوا بهم فى سقيفة بنى ساعدة فإذا بين ظَهْرَانَيْهم رجل مزمَّل . قال عمر بن الخطاب : مَنْ هذا ؟ قالوا : سعد بن عبَادة ، به وجع . فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أمَّا بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دَفَّتْ دافَّةٌ من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر .

مقالة أبي بكر للأنصار

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبىّ . لذلك لم يكد عمر يسمع هذا الكلام حتى أراد أن يدفعه : فأمسك به أبو بكر مخافة شدّته وقال : على رِسْلك يا عمر ! ثم قال موجهاً كلامه للأنصار : « أيها الناس ! نحن المهاجرين أوَّلُ

الناس إسلامًا ، وأكرمهم أحسابًا ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهًا ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رَحِمًا برسول الله : أسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِين اتَّبعوهم بِإِحْسَانٍ) [١] .

فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ؛ إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدوّ . وأما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعًا . فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . فمِنَّا الأمراءُ ومنكم الوزراء » . هناك استشاط أحد الأنصار غضبًا وقام فقال : « أنا جُذَيْلُهَا[٢] المحَكَّك ، وعُذَيْقُها المرَجَّب . منَّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش » . قال أبو بكر : بل منا الأمراء ومنكم الوزراء ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم ؛ وأخذ بيد عمر ابن الخطاب وبيد أبى عُبَيْدة بن الجرّاح وهو جالس بينهما . هنالك كثر اللغط وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف ؛ فنادى عمر بصوته الجَهْورىّ : ابْسُطْ يدك يا أبا بكر . فبسط أبو بكر يده فبايعه وهو يقول : « ألم يأمرك النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ! فأنت خليفته ؛ ونحن نبايعك فنبايع خير من أحبّ رسول الله منا جميعًا » . ومست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت معبّرة حقًّا عما ظهر من إرادة النبى حتى هذا اليوم الأخير الذى رآه الناس فيه ؛ فقضى ذلك على ما بينهم من خلاف ، وأقبلوا فبايع المهاجرون ثم بايع الأنصار .

بيعة أبى بكر بالسقيفة

وإذ كان الغد من ذلك اليوم ، جلس أبو بكر على المنبر ، وتقدّم ابن

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٠ .

(٢) الجذيل : تصغير الجذل وهو أصل الشجرة . والمحكك : الذى تتحكك به الإبل الجربى . والعذيق : تصغير العذق (بفتح العين) وهو النخلة . والمرجب : الذى جعل له رجبة وهى دعامة تبنى حوله من الحجارة ، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف . يريد أنه قد جربته الأمور وله رأى وعلم يشتفى بهما ، كما تشتفى الإبل الجربى باحتكاكها بالجذل .

الخطاب فتكلَّم قبل أبى بكر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنّى قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إلىّ رسول الله ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبّر أمرنا ويبقى ليكون آخرَنا . وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى رسولَه . فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه » . فبايع الناس أبا بكر البيعة العامَّة بعد بيعة السقيفة .

البيعة العامة بعد بيعة السقيفة

وقام أبو بكر بعد أن تمَّت البيعة فألقى فى الناس هذا الخطاب الذى يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب . قال رضى الله عنه بعد أن حمِد الله وأثنى عليه : « أما بعد ، أيها الناس ، قد وَليتُ عليكم ولستُ بخيركم . فإن أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأتُ فقوّمونى . الصدقُ أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله . والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

خطاب أول الخلفاء الراشدين

وبينما المسلمون يختلفون ثم يتفقون على بيعة أبى بكر بيعة السقيفة ثم البيعة العامَّة ، كان جثمان النبى حيث كان على سرير موته يحيط به الأقربون من أهله . فلما تمَّت البيعة لأبى بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله كى يدفنوه . وقد اختلفوا فيما بينهم أين يدفن . قال جماعة من المهاجرين : يدفن فى مكة مسقط رأسه وبين أهله . وقال غيرهم : بل يدفن فى بيت المَقْدِس حيث دُفن الأنبياء قبله . وما أدرى كيف قال أصحاب هذا الرأى ، وبيت المقدس كان ما يزال بأيدى الروم ، وكان بين الروم والمسلمين عـــداوة منذ مؤتة وتبوك حتى جهز رسول الله جيش أسامة للثأر . ولم يرض المسلمون هذا الرأى ولا هم رضوا أن يدفن النبىّ بمكة ، ورأوا أن يدفن بالمدينة التى آوته ونصرته والتى استظلت قبل غيرها بلواء الإسلام . وتحدثوا أين يدفن ؟ قال فريق منهم : يدفن بالمسجد حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلى بهم ؛ ورأى هؤلاء

أين يدفن جثمان الرسول ؟

أن يدفن حيث يقوم المنبر أو إلى جانبه . لكن هذا الرأى لم يلبث أن رُفِض ؛ لِما روى عن عائشة أن النبىّ كان عليه رداء أسود حين اشتدّ به وجعه ، فكان يضعه مرّة على وجهه ويكشفه عنه مرة وهو يقول : قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ! ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما قُبض نبىٌّ إلا دُفن حيث يُقْبَض . ثم تقرر أن يُحفَرَ له مكان الفراش الذى قُبض فوقه .

غسل النبى

وتولى غسل النبىّ أهله الأقربون ، وفى مقدمتهم علىٌّ بن أبى طالب والعباس ابن عبد المطلب وولداه الفضل وقُثَم وأسامة بن زيد . وكان أسامة بن زيد وشُقْران مولى النبىّ هما اللذان يصبَّان الماء عليه وعلىّ يغسله وعليه قميصه ؛ فقد أبوا أن ينزعوا عنه القميص . وكانوا أثناء ذلك يجدون به طيباً حتى كان علىٌّ يقول : بأبى أنت وأمى ! ما أطيبَك حياً وميتاً ! . ويذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الرائحة الذكية ترجع إلى ما اعتاد النبىّ طَوال حياته من التطيُّب حتى كان يرى الطيب بعض ما حبب إليه من هذه الحياة الدنيا . فلمَّا فرغوا من غسله وعليه قميصه كفن فى ثلاثة أثواب : ثوبين صُحَاريَّين[1] وبُرْد حبَرَة أدرج فيه إدراجاً . ولمَّا تمَّ الجهاز على هذا النحو تُرِكَ الجثمان حيث كان ، وفتحت

وداع الجثمان الطاهر

الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحية المسجد يطوفون ، يُلقون على نبيهم نظرة الوداع ، ويصلُّون على النبىّ ، ثم يخرجون وقد هوى الحزن بنفوسهم إلى قرارسحيق .

وامتلأت الحجرة حين دخل أبو بكر وعمر يصليان مع المسلمين لا يؤمُّهم فى صلاتهم هذه أحد . فلما استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . نَشهد أن نبى الله ورسوله قد بلَّغ رسالة رَبِّه وجاهد فى سبيله حتى أتمَّ الله النصر لدينه ، وأنه وفَى بوعده ، وأمر ألاّ نعبد إلا الله وحده لا شريك له . وكان المسلمون يجيبون عند كل جملة من كلام أبى بكر فى هيبة وخشوع : آمين آمين . فلما فرغ الرجال من صلاتهم وخرجوا أدخل النساء ، ثم أدخل الصبيان

---

(١) صحارى : نسبة إلى صحار قرية باليمن ، وقيل : هو من الصحرة وهى حمرة خفيفة كالغبرة ، يقال : ثوب أصحر وصحارى .

من بعدهم . وهؤلاء وأولئك جميعاً كلٌّ واجف قلبه محزون فؤاده يَفْرِى الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين ، وتساوره على دين الله أشد الخشية من بعده .

من ساعات التاريخ الرهيبة

وإنى لأستعيد الساعة ، بعد أكثر من ألف وثلثمائة سنة من ذلك اليوم ، صورة هذا المشهد الرهيب المهوب فتمتلئ نفسى هيبة وخشوعاً ورهبة . هذا الجثمان المسجَّى فى ناحية من الحجرة التى ستصبح غداً قبراً والتى كانت إلى أمس بساكنها حياة ورحمة ونوراً ؛ وهذا الجثمان الطاهر لذلك الذى دعا الناس إلى الهدى والحق ، وكان لهم المثلَ الأعلى فى البِر والرحمة والإقدام والإباء وإنصاف المظلوم والانتصاف من كل معتد أثيم ؛ وهذه الجموع تمر به كاسفة البال كسيرة الطَّرْف ، وكل رجل وكل امرأة وكل صبىّ يذكر فى هذا الرجل الذى اختار جوارَ ربه أباه وأخاه وصاحبه ووفيه ونبى الله ورسوله ! أىُّ شعور تمتلئ به تلك القلوب العامرة بالإيمان الممتلئة إشفاقاً مما يخبئ الغد بعد موت الرسول – أستعيد الساعة صورة هذا المشهد الرهيب ، فأرانى شاخصاً له مأخوذاً به ممتلئ القلب من جلال هيبته ، أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سبيلاً .

تبلبل عقائد المستضعفين

وكان من حق المسلمين أن تُساورهم الخشية . فمنذ ذاع النَّبأ بموت النبىّ فى المدينة وترامى إلى قبائل العرب المحيطة بها ، اشرأبَّت اليهودية والنصرانية ، ونجَم النفاق ، وتبلبلت عقائد المستضعفين من العرب . وهمَّ أهل مكة بالرجوع عن الإسلام ، بل أرادوا ذلك ، حتى خافهم عَتَّاب بن أسيد عامل النبى على أمّ القرى فتوارى منهم . ولولا أن قام سُهيْل بن عمرو بينهم ، فقال بعد أن ذكر وفاة النبى : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابَنا ضربنا عنقه ؛ ثم قال : يأهلَ مكة ، كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أوّل من ارتدّ ، والله ليُتِمَّن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجعوا عن ردَّتهم ؟

وقد كان للعرب فى حفر قبورهم طريقتان : إحداهما لأهل مكة يحفرون القبر مسطَّح القاع ، والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوَّساً . وكان أبو عُبَيْدَه بن الجرَّاح يَضْرح كحفر أهل مكة ، وأبو طَلْحَة زيد بن سَهْل

هو الذى يحفر لأهل المدينة . وحار أهل النبى أىّ الطريقتين يسلكون فى حفر قبره . فبعث عمه العباس رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة ويدعو الآخر أبا طلحة . فأمَّا المبعوث إلى أبى عُبَيْدة فلم يعد به وجاء المبعوث إلى أبى طلحة به ، فلحَّدَ لرسول الله على طريقة أهل المدينة فلمَّا كان المساء وبعد أن مرَّ المسلمون بالجثمان الطاهر وودّعوه الوداع الأخير ، اعتزم أهل النبى دفنه ، فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل ، وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبى يلبسه ، ثم أنزله الذين تولَّوْا غسله إلى المقرّ الأخير لرفاته ، وبنوا فوقه باللبن وأهالوا التراب فوق القبر . قالت عائشة : ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المَسَاحى من جوف الليل ، وقالت فاطمة مثل هذا القول . وكان دفنه ليلة الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ، أى بعد يومين من اختياره الرفيق الأعلى .

دفن النبى

عائشة وحجرة القبر

وظلَّت عائشة من بعد ذلك تعيش بمنزلها فى الحجرة المجاورة لحجرة القبر سعيدة بهذا الجوار الكريم . ولمَّا مات أبو بكر دُفِن إلى جوار النبى ، كما دُفن عمر إلى جواره من بعدُ . ويروى أن عائشة كانت تزور حجرة القبر سافرة إلى أن دُفن عمر بها إذ لم يكن بها يومئذ غير أبيها وزوجها . فلما دُفِن عمر كانت لا تدخل إلا محتجبة لابسة كامل ثيابها .

إنفاذ جيش أسامة

ولم يكد المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ودفنه حتى أمر أبو بكر أن ينفذ جيش أسامة لغزو الشام تنفيذاً لما كان قد أمر رسول الله به . وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدَوْا أيَّام مرض النبىّ . وانضم عمر إلى المعترضين ورأى ألا يُشتَّت المسلمون ، وأن يُحْتَفظ بهم فى المدينة مخافة أمر قد يدعو إليهم . لكن أبا بكر لم يتردّد لحظة فى تنفيذ أمر الرسول ، ورفض أن يستمع إلى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسنَّ من أسامة وأكثر منه فى الحرب دُرْبة . وتجهَّز الجيش عند الجُرْف وأسامة على رأسه ، وخرج أبو بكر يودّعه . هنالك طلب إلى أسامة أن يُعفى ابن الخطاب من الذهاب معه ليبقى بالمدينة يشير على أبى بكر . ولم تمض عشرون يوماً على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البَلقاء ، وحتى انتقم أسامة للمسلمين ولأبيه الذى قُتِل

بمؤتة أشدّ انتقام . وقد كانت صيحة الحرب فى تلك الأيام المظفَّرة : « يا منصور أمِتْ » . وكذلك نفّذ أبو بكر ونفّذ أسامة أمر النبى ، وعاد بالجيش إلى المدينة ممتطيًا الجواد الذى قُتل أبوه بمؤتة عليه ، يتقدمه اللواء الذى عقده رسول الله بيده .

الأنبياء لا يورثون

ولمَّا قُبض النبىّ طلبت فاطمة ابنته إلى أبى بكر أن يردَّ عليها ما ترك من أرض بفَدَك وخَيْبَر . لكن أبا بكر أجابها بقول أبيها : « نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث ، ما تركناه صدقة » . ثم قال لها : فأمَّا إن كان أبوك قد وهب لك هذا المال فإنى أقبل كلمتك فى ذلك وأنفذ ما أمر به ، وأجابت فاطمة بأن أباها لم يُفْضِ إليها بشىء من ذلك ، وإنما أخبرتها أمُّ أيمن بأن ذلك كان قصده . عند ذلك أصرّ أبو بكر على استبقاء فَدَك وخيبر وردَّهما إلى بيت مال المسلمين .

الميراث الروحى العظيم

وكذلك خرج محمد من هذه الحياة الدنيا لم يترك شيئًا من عَرَضها الزائل لأحد بعده ؛ خرج منها كما دخل إليها وقد ترك فيها للناس هذا الدين القيِّم ، ومهَّد فيها لهذه الحضارة الإسلامية الكبرى التى تفيَّأ العالم ظلالها من قبلُ وسيتفيأ ظلالها من بعدُ ، وأقرَّ فيها التوحيد ، وجعل فيها كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقضى فيها على الوثنية فى كل صورها ومظاهرها القضاء المبرم ، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البرّ والتقوى لا على الإثم والعُدوان ، وترك من بعده كتاب الله هدًى للناس ورحمة ، وكان فيها المثلَ الأسمى والأسوة الحسنة . وكان من آخر ما ضرب للناس من الأمثلة أن قال للناس يوم كلَّمهم أثناء مرضه . « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستَقد منِّى . ومن كنت شتمت له عِرْضاً فهذا عرضى فليستقد منه . ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء فهى ليست من شأنى » . وادّعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه عوضها . ثم ترك العالم بعد ذلك مخلفًا هذا الميراث الروحى العظيم الذى لا يزال ينتشر فى العالم حتى يتمَّ الله كلمته ، وينصر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .

صلى الله عليه وسلم .

خاتمة فى مبحثين

١ – الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن

خلَّف محمد هذا الميراث الروحى العظيم الذى أظلّ العالم ووجَّه حضارته خلال عدة قرون مضت ، والذى سيُظِلّه من بعدُ ويوجه حضارته حتى يتم الله فى العالم نوره . وإنما كان لهذا الميراث كل هذا الأثر فيما مضى ، وسيكون له مثله وأكثر منه من بعدُ ، لأنه أقام دين الحق ووضع أساس حضارة هى وحدها كفيلة بسعادة العالم . والدّين والحضارة اللذان بلَّغهما محمد للناس بوحى ربه ، يتزاوجان حتى لا انفصال بينهما . ولئن قامت هذه الحضارة الإسلامية على أساس من قواعد العلم وهدى العقل ، واستندت فى ذلك إلى ما تستند إليه الحضارة الغربية فى عصرنا الحاضر؛ ولئن استند الإسلام من حيث هو دين إلى التفكير الذاتى ، وإلى المنطق التجريدى (الميتافيزيقى) – إن الصلة مع ذلك وثيقة بين الدين ومقرَّراته والحضارة وأساسها . ذلك بأن الإسلام يربط بين التفكير المنطقى والشعور الذاتى ، وبين قواعد العقل وهدى العلم ، برابطة لا مفرَّ لأهله من البحث عنها والاهتداء إليها ليظلّوا مسلمين وطيداً إيمانهم . وحضارة الإسلام تختلف من هذه الناحية عن الحضارة الغربية المتحكمة اليوم فى العالم ، كما تختلف عنها فى تصوير الحياة والأساس الذى يقوم هذا التصوير عليه . وهذا الاختلاف بين الواحدة والأخرى من هاتين الحضارتين جوهرىّ إلى الحدّ الذى يجعل أساس كل واحدة منهما نقيض الأساس الذى تقوم عليه الأخرى .

الحضارتان الإسلامية والغربية

يرجع هذا الاختلاف إلى أسباب تاريخية ، أشرنا إليها فى تقديم هذا الكتاب وفى تقديم طبعته الثانية . فقد أدَّى النزاع فى الغرب المسيحى بين السلطتين الدينية والزمنية – وبعبارة هذا العصر : بين الكنيسة والدولة – إلى الفصل بينهما وإلى إقامة سلطان الدولة على إنكار سلطان الكنيسة . وكان لهذا

الغرب وتنازع الكنيسة والدولة فيه

التنازع على السلطان أثره فى التفكير الغربى كله . وفى مقدّمة النتائج التى ترتبت على هذا الأثر ما كان من تفريق بين الشعور الإنسانى والعقل الإنسانى ، وبين منطق العقل المجرّد ومقررات العلم الواقعى المستندة إلى الملاحظة المادّية . وكان لانتصار التفكير المادىّ أثره البالغ فى قيام النظام الاقتصادى أساساً رئيسيًّا للحضارة الغربية . فقد نشأ من ذلك أن قامت فى الغرب مذاهب تريد أن تجعل كل ما فى عالمنا خاضعاً لحياة هذا العالم الاقتصادية ، كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الإنسانية فى أديانها وفنّها وفلسفتها وتفكيرها وعلمها بوحى ما كان من مدّ أوجزر اقتصادى فى أممها المختلفة . ولم يقف أمر هذا التفكير عند التاريخ وكتابته ، بل أقامت بعض مذاهب الفلسفة الغربية قواعد الخلق على أسس نفعية مادية بحتة . ومع ما بلغته هذه المذاهب من براعة فى التفكير وقوّة فى الابتكار ، لقد أمسكها التطوّر الفكرى فى الغرب فى حدود المنفعة المادية المشتركة ، تُقيم عليها قواعد الخُلق جميعاً ، وترى ذلك من المقتضيات المحتومة للبحث العلمى . فأمّا المسألة الروحية فهى فى نظر الحضارة الغربية مسألة فردية صرفة ، فلا محلَّ لأن يُعنى الناس أنفسهم جماعة بها . ومن ثَمّ كانت الإباحة فى العقيدة بعض ما قدَّسه أهل الغرب ، وكانوا أشدّ تقديساً لها من تقديسهم الإباحة فى الخُلق ؛ وهم أشدُّ تقديساً للإباحة فى الخُلق منهم لحرية الحياة الاقتصادية المقيدة بالقانون تقييداً ينفذه الجندى وتنفذه الدولة بكل ما أوتيت من قوّة .

النظام الاقتصادى أساس الحضارة الغربية

فى اعتقادى أن حضارة تجعل الحياةَ الاقتصادية أساساً ، وتقيم قواعد الخلق على أساس هذه الحياة الاقتصادية ، ولا تقيم للعقيدة وزناً فى الحياة العامة ، تقصُر عن أن تمهِّد للإنسانية سبيل سعادتها المنشودة . بل إن هذا التصوير للحياة لجدير أن يجرَّ على الإنسانية ما تعانيه من محن فى هذه العصور الأخيرة ، جدير أن يجعل كل تفكير فى منع الحرب وفى توطيد أركان السلام فى العالم قليلَ الجدوى غير مرجوّ الثمرة . فما دامت صلتى بك أساسُها الرغيف الذى آكل أنا أو تأكل أنت وتَنَازُعُنا عليه ونضالُنا فى سبيله ، قائمةً بذلك على أساس القوّة الحيوانية فى كلّ منا ، فسيظل كلٌّ منا يرقب الفرصة التى يُحسنْ فيها الاحتيال للحصول على رغيف صاحبه ؛ وسيظلُّ كلٌّ منا ينظر إلى

قصور الحضارة الغربية عن إسعاد الإنسانية

الآخر على أنه خصمه لا على أنه أخوه ، وسيظلُّ الأساس الخلقى الكمين في النفس أساسًا حيوانيًّا بحتًا ، وإن بقى كمينًا حتى تدفع الحاجة إلى ظهوره ، وستظل المنفعة وحدها قوامَ هذا الأساس الخلقى ، على حين تنزلق عليه المعانى الإنسانية السامية والمبادئ الخُلقية الكريمة ، مبادئ الإيثار والمحبة والأخوَّة ، فلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلَق به .

وما هو واقع فى العالم اليوم خير مصداق عملى لما أذكر ؛ فالتنافس والنضال هما المظهر الأول للنظام الاقتصادى ، وهما لذلك أوَّل مظهر لحضارة الغرب . وهما كذلك فى المذهب الفرديّ وفى المذهب الاشتراكى على سواء . فى المذهب الفردى ينافس العاملُ العاملَ ، وينافس رب المال رب المال ، والعامل ورب المال فيه خَصمان يتنافسان . وأرباب هذا المذهب يرون فى هذا التنافس وهذا النضال كلَّ خير للإنسانية ولتقدُّمها . فهما عندهم الحافز للإتقان والحافز لتقسيم العمل ، وهما المعيار العادل لتوزيع الثروة . أمَّا المذهب الاشتراكى فيرى فى نضال الطوائف ، نضالاً يفنيها جميعا حتى يُرَدَّ الأمرُ كله للعمال ، بعضَ ما تحتمه الطبيعة ، وما دام التنافس والنضال على المال هما جوهر الحياة ، وما دام النضال بين الطوائف طبيعيًّا ، فالنضال بين الأمم طبيعى كذلك ، وللغاية التى يقع من أجلها نضال الطوائف . ومن ثَمَّ كانت فكرة القوميات أثراً محتوماً بحكم الطبيعة لهذا النظام الاقتصادى . أمَّا ونضال الأمم فى سبيل المال طبيعيّ ، أمَّا والاستعمار لذلك طبيعيّ أيضاً ، فكيف يمكن أن تمتنع الحرب ويستقرّ السلام فى العالم ؟ ! لقد شهدنا فى هذا القرن المتم للعشرين المسيحى وما نزال نشهد البينات على أن السلام فى عالَم هذا أساسُ حضارته حلم لا سبيل إلى تحقيقه ، وأمنية معسولة ، ولكنها سراب كذوب .

أساس الحضارة الإسلامية

تقوم الحضارة الإسلامية على أساس هو النقيض من أساس الحضارة الغربية ؛ فهى تقوم على أساس روحى يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كل شىء . فإذا بلغ من هذا الإدراك حد الإيمان ، دعاه إيمانه إلى إدامة تهذيب نفسه وتطهير فؤاده ، وإلى تغذية قلبه وعقله بالمبادئ السامية : مبادئ الإباء والأنفة والأخوة والمحبة والبر والتقوى . وعلى أساس

هذه المبادئ ينظِّم الإنسان حياته الاقتصادية . هذا التدرّج هو أساس الحضارة الإسلامية كما نزل الوحى بها على محمد . فهى حضارة روحية أولا . والنظام الروحى فيها هو أساس النظام التهذيبى وأساس قواعد الخلق . والمبادئ الخلقية هى أساس النظام الاقتصادى ، فلا يجوز أن يضحَّى بشىء من مبادئ الخلق فى سبيل التنظيم الاقتصادى .

هذا التصوير الإسلامى للحضارة هو فى يقينى التصوير الجدير بالإنسانية الكفيل بسعادتها . ولو أنه استقر فى النفوس ، وانتظم الحياة انتظام الحضارة الغربية اليوم إياها ، لتبدَّلت الإنسانية غير الإنسانية ، ولانهارت مبادئ يؤمن الناس اليوم بها ، ولقامت مبادئ سامية تكفل معالجة أزمات العالم الحاضر على هدى نورها .

والناس اليوم فى الغرب والشرق يحاولون حل هذه الأزمات دون أن يتنبه أحد منهم ، ودون أن يتنبه المسلمون أنفسهم إلى أن الإسلام كفيل بحلّها ؛ فأهل الغرب يتلمسون اليوم جِدة روحية تنقذهم من وثنية تورطوا فيها ، وكانت سبب شقائهم وعلَّة ما ينشَب من الحروب بينهم ؛ تلك عبادة المال . وأهل الغرب يتلمسون هذه الجِدة فى مذاهب الهند والشرق الأقصى على حين هى قريبة منهم ؛ يجدونها مقرَّرة فى القرآن ، مصورة خير صورة فيما ضربه النبىَّ العربى للناس من مثل أثناء حياته .

لست أطمع فى أن أصور هنا هذه الحضارة الإسلامية ونظامها ؛ فهذا التصوير يقتضى بحثًا مستفيضًا ، ويستغرق كتابًا فى حجم هذا الكتاب أو أكثر منه ؛ وإنما أريد أن أجمل صورة هذه الحضارة ، بعد أن أشرت إلى الأساس الروحى الذى تقوم عليه ، لعلى بذلك أصوِّر الدعوة المحمدية فى مجموعها وأمهِّد بهذا التصوير لمباحث أكثر استفاضة وعمقًا . وإنى ليجمل بى قبل ذلك أن أشير إلى أن تاريخ الإسلام خلا من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية أى بين الكنيسة والدولة ، فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع فى تفكير الغرب وفى اتجاه تاريخه . وترجع نجاة الإسلام من هذا النزاع وآثاره إلى أنه لم يعرف شيئًا اسمه الكنيسة أو السلطة الدينية على نحو ما عرفت المسيحية . فليس لأحد من

لا نزاع فى الإسلام بين الدين والدولة

المسلمين ، ولو كان خليفة ، أن يفرض أمراً على الناس باسم الدين ، وأن يزعم أنه قدير مع ذلك على الغفران لمن خالف هذا الأمر . وليس لأحد من المسلمين ، ولو كان خليفة ، أن يفرض على الناس غير ما فرضه الله فى كتابه . بل المسلمون أمام الله سواسية ، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى . وليس لولىّ الأمر على مسلم طاعة فى معصية ولا فيما لم يأمر الله به . يقول أبو بكر الصديق حين خطب المسلمين يوم بايعوه بالخلافة : أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . ومع ما آل إليه الأمر فى الإسلام بعد ذلك من ملك عَضُوض ، ومع ما قام بين المسلمين من ثورات أهلية ، لقد أقام المسلمون على تمسكهم بهذه الحرية الذاتية العظيمة التى قررها لهم دينهم ؛ هذه الحرية التى جعلت العقل حَكَماً فى كل شىء ، والتى جعلته حكماً فى الدين وفى الإيمان نفسه . لقد تمسكوا بهذه الحرية حتى بعد أن ادعى أمراء المؤمنين أنهم خلفاء الله لا خلفاء رسوله على الأرض ، وأنهم يملكون من أمر المسلمين كل شىء حتى الحياة والموت . يشهد بذلك ما حدث فى عصر المأمون حين اختلف على القرآن أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ فقد خالف الكثيرون رأى الخليفة مع علمهم بما يستهدف له المخالف من عقاب وغضب .

جعل الإسلام العقل حكماً فى كل شىء ، وجعله حكماً فى الدين وفى الإيمان نفسه . يقول تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١) .

الإسلام يجعل العقل حكماً فى كل شىء

ويفسر الشيخ محمد عبده هذه الآية فيقول : « إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين ، وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن رُبِّى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحاً بغير فقه ، فهو غير مؤمن . فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشرّ لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرّته » .

(١) سورة البقرة آية ١٧١ .

وهذا الذى يقوله الشيخ محمد عبده تفسيراً لهذه الآية قد جاء به القرآن صريحاً فى آيات كثيرة غيرها . فهو يدعو الناس إلى النظر فى الكون ومعرفة أنبائه ليهديهم نظرُهم إلى وجود الله ووحدته جلّ شأنه ، يقول الله سبحانه وتعالى : (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [١] . ويقول تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُون ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُون وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُون . وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ) [٢] .

والدعوة إلى النظر فى الكون لاستنباط سننه وللاهتداء إلى الإيمان ببارئه يكررها القرآن مئات المرات فى سوره المختلفة ، وكلها موجّهة إلى قُوَى الإنسان العاقلة تدعوه إلى التدبر والتأمل ليكون إيمانه عن عقل وبينة ، وتحذّره الأخذَ بما وجد آباءه عليه من غير نظر فيه وتمحيص له وثقة ذاتية بمبلغه من الحق .

هذا هو الإيمان الذى دعا الإسلام إليه ، وهو ليس هذا الإيمان الذى يسمونه إيمان العجائز ، إنما هو إيمان المستنير المستيقن الذى نظر ونظر ، ثم

(١) سورة البقرة آية ١٦٤ .

(٢) سورة يس من الآية ٣٣ إلى ٤٤ .

قوة الإيمان

فكّر وفكّر ، ثم وصل من النظر والتفكير إلى اليقين بالله جلّت قدرته ، وما أحسب رجلا نظر بعقله وقلبه ثم لم يهتد إلى الإيمان . وهو كلما أنعم نظره وأطال تأمله وتدبره ، وحاول الإحاطة بالزمان والمكان وما تشتمله وحدتهما التى لا نهاية لها من عوالم دائمة المَوْر ، شعر بنفسه ذرّةً من هذه العوالم تجرى كلها على سنن تمسكها ، وإلى غاية عند بارئها علمُها ، وتيقن من ضعفه وقصور علمه إذا لم يستعن على إدراك هذا الوجود بقوّة فوق حسه وفوق عقله ، تصل بينه وبين هذه العوالم جميعاً ، وتجعله يشعر بمكانته منها . وتلك قوّة الإيمان .

الإيمان بالله

فالإيمان إذاً شعور روحى يحسّ به الإنسان يملأ نفسه كلما اتصل بالكون وفنِى فى لا نهاية المكان والزمان ، وامتثل الكائنات كلها فى نفسه ، فرآها تجرى كلها على سنن تمسكها ، ورآها كلها تسبح بحمد ربها ، بارئها ومنشئها . أمّا أنه جلّ شأنه ماثل فيها متّصل بها ، أو هو مستقلّ بنفسه منفصل عنها ، فهذه مضاربات جَدَليَّة عقيمة تُضِل ولا تهدى ، وتضرّ ولا تنفع . وهى بعدُ لا تزيدنا علماً . ولقد طالما أجهد الكتاب والفلاسفة أنفسَهم يحاول بعضهم حلّها ، ويحاول بعضهم معرفة جوهر الخالق جلّ شأنه ، فذهب جهدهم عبثاً ، وأقرّ بعضهم بأنها فوق ما نُطيق إدراكه – ولئن قَصَر عقلنا دون هذا الإدراك ليكونن هذا القصور أدنى إلى تثبيت إيماننا . فشعورنا اليقينى بوجوده جلّ شأنه وبإحاطته بكل شىء علماً ، وبأنه الخالق المصوّر إليه يرجع الأمر كله ، من شأنه أن يُقنعنا بأنا لن نستطيع أن نُدرك كنهه على شدّة إيماننا به . وإذا كنا حتى اليوم لا نُدرك ما الكهربا وإن شهدت أعيننا آثارها ، وكانت تكفينا هذه الآثار لنؤمن بالكهربا والأثير ، فما أشدّنا غروراً ونحن نشهد كل يوم من بديع صنع الله إذا نحن لم نؤمن به حتى نعرف كنهه ، تنزّه جلّ شأنه عما يصفون . والواقع فى الحياة أن الذين يحاولون تصوير ذاته جلّ شأنه هم الذين يعجز إدراكهم عن السموّ إلى تصوّر ما فوق حياتنا الإنسانية ، والذين يريدون أن يقيسوا الوجود وخالق الوجود بمقاييسنا النسبية المحصورة فى حدود علمنا القليل . أمّا الذين أوتوا العلم حقّاً فيذكرون قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ

أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً) [١] وتمتلئ قلوبهم إيماناً بخالق الروح وخالق الكون كله ، ثم لا يزجّون بأنفسهم فى مضاربات عقيمة لا ثمرة لها ولا نتيجة .

ويفرق القرآن بين الإسلام بعد الإيمان والإسلام دون إيمان . يقول تعالى : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ) [٢] .

الإيمان أسس الإسلام

فمثل هذا الإسلام إذعان لدعوة الداعى عن رغبة أو رهبة أو إعجاب وتقديس دون امتثال النفس هذه الدعوة وفهمها إيَّاها إلى حدّ الإيمان بها . فصاحبه لم يهده الله للإيمان عن طريق النظر فى الكون ومعرفة سننه ، والاهتداء من هذا النظر وهذه المعرفة إلى خالقه ، وإنما أسلم لرغبة أو هوًى أو لأنه وجد آباءه مسلمين . وهو لذلك لم يدخل الإيمان فى قلبه على رغم إسلامه . من أمثال هذا المسلم مَنْ يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً . وهؤلاء الذين يسلمون دون إيمان ، وإنما يسلمون عن رغبة أو رهبة أو هوى ، تظل نفوسهم ضعيفة وعقائدهم مزعزعة وقلوبهم مستعدّة للإذعان للناس والخضوع لأمرهم . فأمَّا الذين تصل عقولهم وقلوبهم إلى أن تؤمن بالله من طريق النظر فى الكون إيماناً صادقاً ، يدعوهم إلى أن يُسلموا لله وحده أمرهم ، فأولئك لا يعرفون لغير الله خضوعاً ولا إذعانا . وهم لا يمنُّون على أَحد إسلامهم ، (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [٣] .

فمن أسلم وجهه لله وهو مؤمن فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك لا يخافون فى الحياة فقراً ولا مذلة لأن الإيمان غاية الغنى وغاية العزَّة . والعزَّة لله جميعاً وللمؤمنين .

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٥ .
(٢) سورة الحجرات آية ١٤ .
(٣) سورة الحجرات آية ١٧ .

والنفس الراضية المطمئنة إلى هذا الإيمان لا تستريح إلا فى الدأب لمعرفة أسرار الكون وسننه كيما تزداد بالله اتّصالاً . وسبيلها إلى هذه المعرفة البحث والنظر فى خلق الله مما فى الكون نظراً علميًّا دعا القران إليه وجدَّ المسلمون الأوّلون فيه ، وهو الطريقة العلمية الحديثة فى الغرب . على أن الغاية منه تختلف فى الإسلام عنها فى الحضارة الغربية . فهى فى الإسلام ترمى إلى أن يجعل الإنسان من سنَّة الله فى الكون سُنَّتَهُ ونظامَه ، على حين ترمى فى الغرب إلى الاستفادة المادية مما فى الكون . وهى فى الإسلام ترمى أوّلاً وقبل كل شىء ، إلى حسن العرفان بالله عرفاناً كلما ازداد زادنا إيماناً به جل شأنه . وهى ترمى إلى حسن العرفان من جانب الجماعة كلها لا من جانب الفرد وحده . فالكمال الروحى ليس مسألة فردية صرفة ، فلا محلّ لأن يعنًى الناس أنفسَهم جماعة بها ، بل هو أساس الحضارة للجماعة الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها . وواجب لذلك على الإنسانية أن تدأب فى سبيل هذا الكمال الروحى أكثر من دأبها للوقوف على حقيقة المحسوسات ، وأن تجعل من معرفة أسرار الأشياء وسنن الكون وسيلَتها إلى هذا الكمال أكثر مما تجعل من هذه المعرفة وسيلة للسلطان المادىّ على الأشياء .

الاستعانة بالله للاهتداء إلى سنة الكون

ليس يكفى لبلوغ هذه المرتبة من الكمال الروحى أن نستعين بمنطقنا وحده ، بل يجب أن نمهد لقلوبنا وعقولنا سبيل الوصول إلى أسمى ما نستطيع الوصول إليه من هذا المنطق . وإنما يكون ذلك بالتماس العون من الله واتجاه الإنسان إليه تعالى بقلبه وروحه ، إيَّاه يعبد ، وإيَّاه يستعين ، للاهتداء إلى أسرار الكون وسنن الحياة . وهذا هو الاتصال بالله شكراً لله على نعمته ، ليزيدنا اهتداء إلى مالم نهتد إليه . قال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١) . وقال جل شأنه : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ . الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٦ . (٢) سورة البقرة آيتا ٤٥ ، ٤٦ .

الصلاة هى هذا الاتصال بالله إيماناً به والتماساً للعون منه . وليس القصد منها حركات الركوع والسجود ، وتلاوة ما يتلى من القران ، أو تلاوة التكبير والتعظيم لله جل شأنه ، دون أن تمتلئ النفس إيماناً به والقلب تقديساً له والفؤاد سموًّا إليه ، وإنما القصد منها ، ومما فيها من تكبير وتلاوة وركوع وسجود إلى هذا السموّ والتقديس والإيمان ، وإلى عبادته عبادة خالصة لوجهه نور السموات والأرض . يقول تعالى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعهدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [1] .

فالمؤمن الصادق الإيمان هو من يتوجَّه بقلبه إلى الله ساعة الصلاة ، يُشهده على تقواه ويستعينه على أداء واجب الحياة ، ويستمدّ منه هدايته ، ويستلهمه توفيقه لإدراك سرّ الكون وسننه ونظامه .

والمؤمن الصادق الإيمان بالله يشعر بنفسه أثناء صلاته ، ويشعر بها دائماً شيئاً ضئيلا أمام عظمة الله العلىّ الكبير . إننا إذ نرتفع فى طائرة من الطائرات ألفاً أو بضعة آلاف من الأمتار ، نرى الجبال والأنهار والمدن مظاهر صغيرة على هذه الأرض ، ونراها ترتسى أمام باصرتنا وكأنها خطوط مرسومة على خريطة من الورق ، وكأنها قد تساوى سطحها فلا ارتفاع لجبل ولا لبناء ، ولا انخفاض لبئر ولا لنهر . ولا شيء أكثر من ألوان تتوالى وتتمازج وتزداد تمازجاً كلما ازددنا نحن ارتفاعاً . وأرضنا كلها ليست إلا كوكباً صغيراً فى عالم ألوف الأفلاك والكواكب ، وليست إلا كمًّا ضئيلا جدًّا فى لا نهاية هذا الوجود . فما أصغرنا وما أضعفنا شأناً أمام بارئ هذا الوجود ومدبّره جلت عن أفهامنا عظمته !

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ .

التساوى أمام الله

وما أجدرنا ، ونحن نتوجَّه بقلوب خالصة إلى جلال قُدسه الأسمى نلتمس منه العون لتقوية ضعفنا وهدايتنا إلى الحق ، أن نرى مبلغ تساوى الناس جميعاً فى الضعف الذى لا يشدّ من أزره أمام الله مال ولا جاه ، وإنما يشدّ من أزره الإيمانُ الصادقُ والخضوعُ لله والبرُّ والتقوى .

شتَّان ما بين هذه المساواة التامة الصحيحة أمام الله ، وبين ما كانت تتحدَّث عنه الحضارة الغربية فى العصور الأخيرة من المساواة أمام القانون . ولقد بلغَتْ هذه الحضارة الآن أن كادت تُنكر هذه المساواة أمام القانون ، ولا توجب احترامه على طائفة من الناس . شتان ما بين هذه المساواة أمام الله ، مساواةً تمسّها حقيقة ملموسة فى ساعة الصلاة وتهتدى إليها برأيك الحرّ ، وبين مساواة فى النضال لكسب المال نضالاً يبيح الخديعة والنفاق ، ثم ينجو صاحبه من سلطان القانون ما مهر فى التحايل عليه وبرع فى حسن العبث به .

هذه المساواة أمام الله تدعو إلى الإخاء الصادق ؛ لأنها تُشعر الناس جميعاً بأنهم إخوة فى العبودية لخالقهم والعبودية له وحده . وهذا إخاء يقوم على تقدير سليم ونظر حرّ وتدبُّر فرضه القران . وهل حرية وإخاء ومساواة أعظم من وقوف هذا الجمع أمام الله تعنو له جميعاً جباههم ، إيَّاه يكبّرون وله يركعون ويسجدون ، لا تفاوت فى ذلك بين أحدهم وأخيه ، وكلهم مستغفرٌ تائب مستعين ، وليس بين أحدهم وبين الله إلا عمله الصالح وما قدَّم من برٍّ وتقوى . إخاء هذا شأنه يصفى القلوب ويطهرها من قَذَى المادة ، ويكفل للناس السعادة كما يؤدّى بهم إلى إدراك سنة الله فى الكون ما هداهم الله بنوره إلى هذا الهدى .

الصوم

الناس جميعاً ليسوا سواء فى القدرة على ما أمر الله به من التقوى . فقد يثقل جسمُنا روحَنا وتطغى ماديَّتنا على إنسانيتنا إذ لم نُدمْ رياضة الروح ولم نتوجه بقلوبنا لله أثناء صلواتنا ، واكتفينا بأوضاع الصلاة من ركوع وسجود وتلاوة ؛ لذلك وجب جهدَ الطاقة أن نكفّ عما يجعل الجسم يُثقل الروح ويجعل المادّية تطغى على الإنسانية . ولذلك فرض الإسلام الصوم وسيلةً لبلوغ مرتبة التقوى .

قال تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (١) . والتقوى والبرّ سواء ، فالبرّ من اتّقى ، والبرّ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين ، وقام بما ورد فى الآية التى أسلفنا .

وإذا كان القصد من الصوم ألاّ يُثقل الجسمُ الروحَ ، وألاّ تطغى مادّيتنا على إنسانيتنا ، فالوقوف به عند الإمساك من الفجر إلى الليل والإمعان بعد ذلك فى الاستمتاع باللّذّات تفويتٌ لهذا القصد . فالإمعان فى الاستمتاع مفسدةٌ لذاته ومن غير صيام ، ما بالك به إذا صام المرء اوأمسك طِيلَة نهاره عن كل طعام وشراب ولذّة ، فإذا انقضى وقت الصيام أسلم نفسَه لما يحسبها حُرِمَتْه أثناء النهار من نعمة ! إنه إذاً لَيُشهِدُ الله على أنه لم يصم تطهيراً لجسمه وسموًّا بإنسانيته ، ولم يصم لذلك مختاراً إيماناً منه بفائدة الصوم فى حياتنا الروحية ، بل صام أداءً لفرض لا يدرك بعقله ضرورته ، ويرى فيه حرماناً له من حرية سرعان ما يستردُّها آخر النهار حتى ينهمك فى لذاته استعاضة عما حُرِم بالصوم منها . ومن يفعل ذلك فشأنه كشأن من لا يسرق لأن القانون يحرّم عليه السرقة ، لا لأنه يسمو بنفسه عنها ويحرّمها على نفسه وعلى غيره مختاراً .

الصوم ليس حرماناً

وفى الحق أن النظر إلى الصيام على أنه حرمان وحَدٌّ من حرية الإنسان نظر خاطئ يجعل الصيام عبثاً لا محلّ له . إنما الصيام طهور للنفس يوجبه العقل عن اختيارٍ من الصائم كى يستردَّ به حرية إرادته وحريّة تفكيره . فإذا استردَّهما استطاع السمو بهما إلى عليا مراتب الإيمان الحق بالله . وهذا هو المقصود بقوله تعالى ، بعد ذكره أن الصيام كُتب على المؤمنين كما كُتِبَ على الذين من قبلهم : (أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فمنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الذينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ فمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٢) .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٨٤ .

قد يبدو غريباً ما أقول من أنَّا نستردُّ بالصيام حرية الإرادة وحرية التفكير إذا قصدنا من الصيام إلى ما فيه من خير لحياتنا الروحية . وهو إنما يبدو غريباً لأن التفكير الحديث أفسدَ فى أذهاننا صورة الحرية ، حين هدم حدودها الروحية والنفسية ، ثم استبقى حدودها المادية التى ينفذها الجندى بسيف القانون . فالإنسان ليس حرًّا بحكم هذا التفكير الحديث فى أن يعتدى على مال غيره أو على شخصه ، ولكنه حرٌّ فى أمر نفسه وإن جاوز فى ذلك كل ما يقره العقل أو تُمليه قواعد الخُلق . والواقع فى الحياة غير هذا . والواقع أن الإنسان عبد العادة ؛ فهو معتاد أن يتناول طعامه فى الصباح وفى الظهيرة وفى المساء ؛ فإذا قيل له : بل تناوَلْه فى الصباح وفى المساء فقط ، اعتبر هذا اعتداء على حريته ، فى حين هو اعتداء على عبوديته لعادته ، إن صح هذا التعبير . ومن اعتاد أن يُدَخن إلى حد استعباد التدخين إيَّاه ؛ فإذا قيل له اقضِ نهارك لا تدخن اعتبر هذا اعتداء على حريته ، فى حين هو لا يزيد على أنه اعتداء على عبوديته لعادته . ومنهم من اعتاد تناول القهوة أو الشاى أو غيرهما من ألوان الشراب فى أوقات معينة له ؛ فإذا قيل له اعدل عن هذه الأوقات إلى غيرها عَدَّ الاعتداء على عبوديته لعادته اعتداء على حرِّيته . وهذه العبودية للعادة مفسدة للإرادة ، مفسدة للفكرة الصحيحة من الحرِّية فى صورتها الصادقة . وهى بعدُ مفسدة لسلامة التفكير ؛ لأنها تُخضعه للتأثر بضرورات الجسم المادية التى طبعتها العادة فيه . ولهذا يعكُف كثيرون على ألوان مختلفة من الصوم يزاولونها فى فترات من كل أسبوع أو من كل شهر . لكن الله أراد بالناس اليسر ، إذ كتب عليهم الصيام أياماً معدودات يكونون أثناءها جميعاً سواء ، وإذ جعل لهم الفدية وإذ أعفى من كان منهم مريضاً أو على سفر على أن يؤدِّى هذا الصيام فى أيام أخر.

ولفرض الصيام أياماً معدودات من توطيد معنى الإخاء والمساواة أمام الله ماله من رياضة روحية . فالناس إذ يمسكون جميعاً من مطلع الفجر إلى الليل ، تتم بينهم المساواة كما تتم فى صلاة الجماعة ، ويشعرون خلال ذلك بإخائهم شعوراً يُضعفه تفاوتهم فى الاستمتاع بما رزق الله كلا منهم من أسباب الاستمتاع فى الحياة . ومن ثمَّ كان الصيام موطداً لمعانى الحرية والإخاء والمساواة فى نفس

الإنسان مثلما توطدها الصلاة .

إذا أقبلنا على الصيام مختارين ، مدركين أن أمر الله لا يمكن أن يختلف عن حكم العقل ما أدرك العقل أغراض الحياة فى أسمى صورها قدرنا ما فى الصيام من تحرير لنا من رقّ العادة ، ومن رياضة لإرادتنا وحريتنا ، وذكرنا أن ما يفرضه الإنسان على نفسه بإذن الله ، من حدود روحية ونفسية لحريته بالتحرير من بعض عاداته وشهواته ، هو خير ما يكفل لتفكيره أن يبلغ مراتب الإيمان العليا . وإذا كان التقليد فى الإيمان ليس إيماناً بل هو إسلام من غير إيمان ، فالتقليد فى الصوم ليس صوماً ، ولذلك يعتبره المقلد حرماناً وحداً من حريته ، بدل أن يدرك ما فيه من تحرير من قيود العادة ومن غذاء نفسىّ وروحىّ عظيم .

الزكاة

إذا بلغ الإنسان ، من طريق هذه الرياضة الروحية ، أن اهتدى إلى سنن الكون وأسراره ، وأن عرف مكانه ومكان بنى الإنسان منه ، ازداد لإخوانه بنى الإنسان حبًّا ، وتحابّ بنو الإنسان جميعاً فى الله ، وتعاونوا على البرّ والتقوى ، ورحم قويُّهم ضعيفَهم ، ونزل غنيُّهم لفقيرهم عن حظّ من ماله . وهذه هى الزكاة والمزيد عليها هو الصدقة .

والقرآن يقرن الزكاة إلى الصلاة فى كثير من المواضع . وقد تلوت قوله تعالى : (وَلكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْملائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى والْيَتَامى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيل وَالسَّائِلينَ وَفى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزكاة) [1] . ويقول تعالى : (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِين) [2] ويقول جلَّ شأْنه : (قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فى صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ . والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . والذِينَ هُمْ للزكَاةِ فَاعِلونَ) [3] .

والآيات التى تقرن الزكاة إلى الصلاة كثيرة .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ . (٢) سورة البقرة آية ٤٣ .
(٣) سورة المؤمنون الآيات من ١ إلى ٤ .

وما ورد فى القرآن عن الزكاة وعن الصدقة مستفيض قوىٌّ غاية القوّة . وهو يضع الصدقة فى المكان الأول من فعل الخير الذى يُجْزَى الإنسان عليه الجزاء الأوْفَى. بل هو يضعها إلى جانب الإيمان بالله حتى لتَشعر بأنها تكاد تعدله بقوله تعالى : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثمَّ الجحيم صَلُّوه . ثم فى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ. إنَّه كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ العَظِيمِ . وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسكين) [1] . ويقول جلَّ شأْنه : (. .وبَشِّر المُخْبِتِينَ . الَّذِين إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهمْ وَالصَّابرينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ والمُقِيمى الصلاةِ وَمما رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون) [2] . ويقول تبارك وتعالى : (الَّذِين يُنْفِقُونَ أَمْوالهُم باللَّيل والنهار سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [3] .

أدب الصدقة

ولا يقف القرآن عند ذكر الصدقات ، ومثوبة صاحبها عند الله كمثوبة من آمن به وأقام الصلاة ، بل ينظم أدب هذه الصدقات تنظيماً هو السموّ كله . يقول تعالى : (إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِنْ تُخْفوها وَتُؤْتوها الفُقَرَاءَ فَهوَ خَيْرٌ لَكُم) [4] . ويقول : (قَولٌ مَعْرُوفٌ وَمغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى واللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ . يَـٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأَذى) [5] . ويقول جل شأْنه فى بيان من تكون لهم هذه الصدقات : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينَ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقابِ والغارِمِينَ وفِى سَبِيلِ اللهِ وابْنِ السبيل فَرِيضةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيم) [6] .

الزكاة عبادة

الزكاة والصدقة فريضة من فرائض الإسلام ، وركن من أركانه ، لكن أعبادةٌ هذا الفرض ، أم هو أدخل فى الأخلاق وتهذيبها ؟ هو عبادة لا ريب ؛

---

(١) سورة الحاقة الآيات من ٣٠ إلى ٣٤ .
(٢) سورة الحج آيتا ٣٤ و ٣٥ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٧٤ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٧١ .
(٥) سورة البقرة آيتا ٢٦٣ و ٢٦٤ .
(٦) سورة التوبة آية ٦٠ .

فالمؤمنون إخوة ، ولا يتم إيمان المرء حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه . فالمؤمنون يتحابون بنور الله بينهم . وفريضة الزكاة والصدقة تتصل بهذا الإخاء ، ولا تتصل بالأخلاق وتهذيبها ولا بالمعاملات وتنظيمها . وما اتصل بالإخاء اتصل بالإيمان بالله . وكل ما اتصل بالإيمان فهو عبادة . ولذلك كانت الزكاة ركناً من أركان الإسلام الخمسة.ومن أجل ذلك قام أبو بكر بعد وفاة النبيّ يطالب المسلمين بأدائها ، فلمَّا رأى بعضهم النكولَ عنها ، رأى خليفة محمد فى هذا النكول ضعفاً فى إيمانهم وتفضيلا للمال عليه ، وخروجاً على النظام الروحى الذى نزل به القرآن ، وارتداداً بذلك عن الإسلام ، فكانت حروب الردّة التى ثبَّت بها أبو بكر رسالة الإسلام كاملة ، والتى بقيت فخراً على الأيام .

واعتبار الزكاة والصدقة فرضاً متصلا بالإيمان ، يجعلهما بعض النظام الروحى الذى يجب أن ينتظم حضارة العالم . وهذا أسمى ما تبلغ إليه الحكمة وما يكفل للناس سعادتهم . فالمال والحرص عليه والاستكثار منه واتخاذه وسيلة لاستعلاء الإنسان على الإنسان ، كان ولا يزال سبباً لشقاء العالم ومصدراً للثورات والحروب فيه . وعبادة المال كانت ولا تزال سبب التدهور الخُلُقى الذى أصاب العالم ، والذى لا يزال العالم يرزح تحت أعبائه . والاستكثار من المال والحرص عليه هو الذى قضى على الإخاء الإنسانى ، وجعل الناس بعضَهم لبعض عدوًّا . ولو أنهم كانوا أصح نظراً وأسمى تفكيراً ، لرأوا الإخاء أدعى للسعادة من المال ، ولرأوا بذل المال للمحتاج أكبر جاهاً عند الله والناس من إذلال الناس لهذا المال . ولو أنهم آمنوا بالله حقًّا لتآخوا فيما بينهم ، ولكان أدنى مظاهر تآخيهم إغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاج ، ومحو الشقاء عمن تجرّ المتربة ويجرّ الفقر عليهم هذا الشقاء . وإذا كانت بعض الدول السامية الحضارة ، فى وقتنا الحاضر ، تقيم شعوبُها المستشفيات والمنشآت الخيرية لإيواء البائس ، والبرّ بالمحروم ، ورعاية الفقير ، باسم الشفقة والإنسانية ، فإن إقامة هذه المنشآت بدافع الإخاء والتحابّ فى الله والشكر له على نعمته أسمى فى الفكرة وأدعى إلى سعادة الناس جميعاً . قال تعالى : (وابْتَغِ فيما آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ

المال والحرص عليه

إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)[1]

الحج

هذا الإخاء الإنسانى يزيد الناس بعضهم لبعض محبة . وليس يجوز فى الإسلام أن تقف هذه المحبة عند حدود وطن بالذات ، ولا أن تنتهى إلى حدود قارّة من القارّات ، بل يجب ألا تعرف حدوداً البتّة .

لذلك يجب أن يتعارف الناس من أطراف الأرض جميعاً ، ليزداد بعضهم لبعض فى الله محبة ، ولتزيدهم محبتهم هذه بالله إيماناً . ووسيلة ذلك أن يجتمعوا من أطراف الأرض فى صعيد واحد . وخير مكان يجتمعون فيه ، إنما هو المكان الذى انبثق فيه نور هذه المحبة ، وهذا المكان هو بيت الله بمكة ؛ وهذا هو الحج . والمؤمنون إذ يجتمعون فيه وإذ يؤدون شعائره ، يجب أن تكون حياتهم مثلاً أثناءه سامياً للإيمان بالله وإخلاص القصد فى التوجه إليه . يقول تعالى : (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الأَلْبَابِ) [2] .

فى هذا الصعيد الذى يحج المؤمنون إليه ليتعارفوا ، وليرتبطوا بأقوى روابط الإخاء فيزيدهم إخاؤهم إيماناً ، يجب أن تسقط كل الفوارق وألا يكون بين هؤلاء المؤمنين جميعاً تفاوت ما ، ويجب أن يشعروا بأنهم جميعاً أمام الله سواسية ، وأن يتوجهوا إليه بقلوبهم مستجيبين لدعوته ، مؤمنين بوحدانيته ، شاكرين لنعمته . وأيّة نعمة أكبر من نعمة الإيمان به جلّ شأنه مصدر كل خير ونعمة ! أمام نور هذا الإيمان تنقشع أوهام الحياة ، ويزول باطل غرورها من مال وبنين وجاه وسلطان . وبفضل نوره يصل الإنسان إلى إدراك ما فى الوجود من حق وخير وجمال ، وما يجرى عليه الكون من سُنن الله الخالدة لا تحويل لها ولا تبديل . وهذا الاجتماع العام يحقق معانى الإخاء والمساواة بين المؤمنين جميعاً فى أوسع صورها وأكثرها سموًّا وصفاء .

قواعد الخلق فى الإسلام

هذه قواعد الإسلام وفرائضه كما نزل بها الوحى على محمد عليه السلام .

---

(١) سورة القصص آية ٧٧ .

(١) سورة البقرة آية ١٩٧ .

وهى أركان الإيمان كما رأيت فى الآيات التى أثبتناها هنا ، وأركان الحياة الروحية الإسلامية . ومن اليسير عليك أن تقدر بعد ذلك ما يمكن أن تقوم على هذا الأساس من قواعد الخُلق . هى قواعد سامية غاية السموّ ، بلغت من ذلك ما لا نظير له فى أيّة حضارة من الحضارات ولا فى أى عصر من العصور . وقد نص القرآن فيها على ما يصل بالإنسان إلى غاية كماله إذا هو هذّب نفسه على موجبها وأدّبها بأدبها . وهى لم ترد فى سورة واحدة من سور القرآن ، بل وردت متفرّقة فيه ، فلا تكاد تتلو سورة منه حتى تسمو بنفسك إلى ذروة من الرقىّ لم تبلغها حضارة من قبل ولا يمكن أن تبلغها حضارة من بعد . وحَسْبُك قيام أدب النفس على أساس روحى مصدره الإيمان بالله ورياضة العقل والقلب على هذا الأساس ، دون النظر إلى أية منفعة ماديَّة يجنيها الإنسان من وراء التأدُّب بهذا الأدب ، لترى رفعة هذه الذروة التى بلغتها .

الرجل الكامل فى القرآن

لقد طالما صوّر الكتَّاب فى مختلف العصور والأمم صورة الرجل الكامل . صوَّره الشعراء والكُتَّاب والفلاسفة والمسرحيون . صوَّروا هذه الصورة فى العصور القديمة وما يزالون يصورونها حتى اليوم . مع ذلك لن تجد صورة لهذا الرجل الكامل كهذه الصورة الفذة التى وردت فى سياق سورة الإسراء ؛ وهى ليست إلا بعض ما أوحى الله إلى رسوله من الحكمة ، لا يقصد بها إلى تصوير الرجل الكامل ، وإنما يقصد بها أن يذكر الناس بعض ما يجب عليهم . يقول تعالى :

(وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِما يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْكِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لهُما قَوْلاً كَرِيماً . وَاخفِضْ لَهُما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كما رَبَّيَانى صَغِيراً . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّه كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً . وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً . وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ

فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً . وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً . وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَق وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً . وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَاد كل أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا . وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّك لَنْ تخْرِقَ الأَرْض وَلَنْ تَبْلُغ الْجِبَال طُولاً . كلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبّكَ مَكْرُوهاً)[1]

أيُّ سمو بالنفس كهذا السمو ، وأيُّ كمال لها كهذا الكمال ، وأيّ طهر للذيل كهذا الطهر ، إن كل آية من هذه الآيات لتقف قارئها أمامها ، مقدّساً لما جمعت بين القوة والروعة وسحر البيان وسمو المعنى والإعجاز فى التصوير . وليت المقام هنا يتّسع لهذه الوقفات ! ولكن كيف يتسع والحديث عما تنطوى عليه هذه الآيات الست عشرة جدير بأن يستوعب مؤلفاً ضخماً .

القرآن وأدب النفس

ولو شئنا أن نجيء بطرف مما فى القرآن فى أدب النفس ، وتهذيب الأخلاق ، لانفسح المجال إلى ما لا تنفسح له خاتمة الكتاب . وحسبُنا أن نذكر أنه ماحض كتاب على الخير والفضل ما حض القرآن ، وما سما كتاب بالنفس الإنسانية ماسما بها القرآن ، وما تحدث كتاب عن البر والرحمة ، وعن الإخاء والمودة ، وعن التعاون والوفاق ، وعن الصدقة والإحسان ، وعن الوفاء وأداء الأمانة ، وعن سلامة القلب وصدق الطوية ، وعن العدل والمغفرة ، وعن الصبر والثبات ،

---

(١) سورة الإسراء الآيات من ٢٣ إلى ٣٨ .

وعن التواضع والإذعان ، وعن الخير والمعروف ، وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بالقوة والإقناع والإعجاز فى الأداء ، ما تحدث القرآن . وما نهى كتاب عن الضعف والجبن ، وعن الأثرة والحسد ، وعن البغض والظلم ، وعن الكذب والنميمة ، وعن التبذير والبخل ، وعن البهتان واللمز ، وعن الاعتداء والإفساد ، وعن الغدر والخيانة ، وعن كل رذيلة ومنكر ، ما نهى القرآن ، وبالقوة والإقناع والإعجاز التى نزل بها الوحى على النبىّ العربىّ . وما من سورة تتلوها إلا وجدت فيها من الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتوجه إلى الكمال ، ما تسمو به نفسك غاية السموّ. اسمع إلى قوله تعالى فى التسامح : (ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ) [١] . ويقول تعالى : (وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ) [٢] . لكن هذا التسامح الذى يدعو القران إليه لا يدفع إليه ضعف ، وإنما يدفع إليه الخلُق وحرصٌ على استباق الخيرات وترفُّع عن الدنايا . يقول تعالى : (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) [٣] . ويقول : (وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِين) [٤] . وهذا صريحٌ فى أن الدعوة إلى التسامح دعوة إلى الفضل لا شىء من الضعف فيها ، وإنما هى السمو النفسانى الذى لا تشوبه شائبة .

هذا التسامح الذى يدعو القرآن إليه عن فضل ، إنما أساسه الإخاء الذى جعله الإسلام دعامة حضارته . والذى أراد به أن يكون إخاء بين الناس كافّة فى مشارق الأرض ومغاربها . والإخاء الإسلامى يتضافر فيه العدل والرحمة من غير ضعف ولا استكانة . وهو إخاء متساو فى الحق والخير والفضل غير متأثر

(١) سورة المؤمنون آية ٩٦ .

(٢) سورة فصلت آية ٣٤

(٣) سورة النساء آية ٨٦ .

(٤) سورة النحل آية ١٢٦ .

بالعاجلة من المنافع ، بل يُؤثِر الآخذون به على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . والآخذون به يخشون الله ولا يخشون غيره . وهم لذلك الإباء والأنفة . وهم مع ذلك التواضع الجم . وهم الصادقون المُوفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرون فى البأساء والضراء وحين البأس ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا يصعّر أحدهم خدَّه ولا يمشى فى الأرض مرحاً ، وقاهم الله شُحَّ أنفسهم ، لا يقولون على الله ولا على عباده الكذب ، ولا يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يستغفرون ، يكظمون غيظهم ويعفون عن الناس ، يجتنبون كثيراً من الظن ولا يتجسسون ولا يغتاب بعضهم بعضاً ، لا يأكلون أموالهم بينهم بالباطل ولا يُدلون بها إلى الحكام ليأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم ، تتنزّه نفوسهم عن الحسد وعن الخديعة وعن لغو القول وعن كل منقصة .

وهذه الصفات والأخلاق التى يقوم عليها أدب النفس ويُهَذَّب الخلق على مقتضاها ، إنما تستند – كما قدّمنا – إلى النظام الروحى الذى نزل به القرآن والذى يتصل بالإيمان بالله . وهذا هو الأمر الجوهرىّ فيها . وهذا هو ما يكفل تَمَكن هذا النظام الخُلقى من النفس وبقاءه مطهَّراً من كل دنس ، بعيداً عن أن تتسَّرب إليه أسباب تفسده . فالأخلاق التى تقوم على أساس من المنفعة وتَبَادُلِها يُسرع إليها الضعف ما اطمأنت إلى أن هذا الضعف لا يجرّ على منافعها أذى . وهذه الأخلاق القائمة على تبادل المنفعة يغلب فى صاحبها أن يكون باطنُه غير ظاهره ، ومكنونُ أمره غير ما يبدو للناس به ؛ فهو يصطنع الأمانة وليس ما يمنعه أن يتخذها ذريعة لتصيُّد المنافع . وهو يتظاهر بالصدق ، ولا يصدّه عن مجافاته شيء ما كان فى مجافاته جلب منفعة له . أخلاقُ ذلك ميزانها ما أسرع ما يضعف صاحبها أمام المُغريات ، وما أسرع ما يجرى وراء الأهواء والغايات !

النظام الخلقى والمنفعة

وهذا الضعف هو الظاهرة البادية للعيان فى عالَمنا الحاضر . فما أكثر ما يسمع الناس بفضائح تقع فى بلد أو فى آخر من بلاد العالم المتحضّر ، سببُها الحرص على المال وعلى السلطان أكثر من الحرص على الخُلق الكريم وعلى

الإيمان الصادق . وكثيرون من هؤلاء الذين ينحدرون إلى مهاوى هذه المآسى الخلقية والذين يرتكبون أتعس الجرائم ، تراهم أوّل أمرهم على خُلق كريم ، لكن المنفعة كانت أساس هذا الخلق . كانوا يرون النجاح فى الحياة رهناً بالاستقامة ، فاستقاموا لينجحوا ، لا لأن الاستقامة متصلة بعقيدتهم ؛ فهم يقفون عند حدودها ولو جنت عليهم . فلمَّا رأوا الاستهانة بالاستقامة بعضَ أسباب النجاح فى حضارة هذا العصر استهانوا بها . ومنهم من يظلّ أمره مستوراً عن الناس ، فلا تناله الفضيحة وسيظل مرمَوقاً بعين الإكبار ، ومنهم من ينكشف أمره فيفتضح وتصل به الفضيحة إلى الانتحار أحياناً .

بناء النظامَ الخُلقىّ على المنفعة يُعرِّضه ، إذاً ، لهذا البلاء ما بين حين وحين . أمَّا بناؤه على هدى النظام الروحىّ على نحو ما نزل به القرآن ، فهو الكفيل ببقائه متيناً لا يتسرَّب إليه وهن . فالنية التى يصدر العمل عنها هى قوام هذا العمل والمقياس الذى يجب أن يقاس به . والرجل الذى يشترى ورقة نصيب لبناء مستشفى من المستشفيات لا يشتريها بنية فعل الخير وبقصد الإحسان ، بل يشتريها طمعاً فى الربح . والرجل الذى يعطى لأن سائلا ألحف عليه فى المسألة فأراد التخلص منه ، ليس كمن يعطى من تلقاء نفسه أولئك الذين لا يسألون الناس إلحافاً يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . والرجل الذى يقول الحق للقاضى مخافة عقاب القانون لشاهد الزور ، ليس كمن يقول الحق لأنه يؤمن بفضيلة الصدق . ولن تكون الأخلاق التى تقوم على أساس المنفعة وتبادلها فى متانة الأخلاق التى يؤمن صاحبها بأنها متصلة بكرامته الإنسانية ، متصلة بإيمانه بالله ، قائمة فى نفسه على الأساس الروحى الذى يقوم عليه الإيمان بالله .

حكمة تحريم الخمر والميسر

وقد حَرص القرآن على أن يظلّ حكم العقل سليماً ، لا يتسرَّب إليه ما يؤثر فى حسن تصوُّره الإيمان والخُلق . لذلك اعتبر الخمر والميسر رجساً من عمل الشيطان ؛ ولئن كان فيها منافع للناس لإثمهما أكبر من نفعهما ، ومن ثَمَّ وجب اجتنابهما . فالميسر يصرف ذهن المقامر عما سواه ، ويستنفد من وقته ويغريه بما يلهيه عن موجب الخُلق الفاضل . والخمر تُذهب العقل والمال على حدّ تعبير عمر بن الخطاب حين دعا أن يبيِّن الله فيها . وطبيعى أن يضلَّ

حكم العقل إذا ذهب أو تغيَّر ، وأن يهوّن ضلاله على صاحبه مؤاتاة الدنيّة بدل أن يسمو عن أن يمرَّ به طيف الفاحشة .

هذا النظام الخلقى الذى نزل به القرآن للمدينة الفاضلة ، لا يدعو إلى حرمان النفس مما خلق الله من أنعم ، حتى لا يؤدى بها الحرمان إلى ما يؤدى إليه الإمعان فى التقشف من انصراف عن التفكير فى الكون ، وزهد فى العلم بما فيه . وهو لا يرضى أن يسلم الإنسان نفسه للاستمتاع حتى لا يُغرقها فى لجة الترف وينسيها كل ما سواه . بل هو يجعل الناس أمة وَسَطاً ، ويوجههم وجهة الفضيلة الخالصة ووجهة المعرفة للكون وكل ما فيه . والقرآن يتحدَّث عما فى الكون من خلق الله حديثاً يوجِّهنا إلى غاية ما نستطيع معرفته من أمره . فهو يتحدَّث عن الأهلَّة ، وعن الشمس والقمر ، وعن الليل والنهار ، وعن الأرض وما خلق فيها ، والسماء وزينة كواكبها ، وعن البحر يُزْجِى الله الفلك فيه لنبتغى من فضله ، وعن الأنعام التى نركبها وزينة ، وعن كل ما فى الكون من علم وفن . يتحدَّث القرآن عن هذا كله ، ويدعو إلى النظر فيه وإلى دراسته ، وإلى الاستمتاع بآثاره وثمراته شكراً لله على نعمته . أمَّا وقد أدَّب القرآن الناس بأدبه ودعاهم إلى السعى وإلى الدأب لمعرفة كل ما فى الكون ، فما أجدرهم أن يصلوا من نظرهم من طريق العقل إلى غاية ما يستطيع العقل إدراكه ! وما أجدرهم أن يقيموا نظامه الاقتصادى على أساس فاضل !

القرآن والعلم

النظام الاقتصادى

النظام الاقتصادى ، الذى يقوم على ما قدَّمنا من أسس خلقية وروحية ، جدير بأن يصل بالناس إلى السعادة ، وبأن يمحو من الأرض الشقاء . فهذه المبادئ السامية التى يحرص القرآن على أن تحلّ من النفس محل العقيدة والإيمان تأبى على صاحبها أن يرى فى الأرض شقاء أو نقصاً يستطيع إزالته ثم لا يزيله . وأوَّل ما ينكره مَنْ تأدَّب بهذا الأدب ، الربا : أساس الحياة الاقتصادية الحاضرة ، ومصدر شقاء الناس جميعاً . ولذلك حرّمه الإسلام تحريماً قاطعاً .

تحريم الربا

يقول تعالى : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الربَا لاَ يَقُومونَ إلا كما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطه الشيطَانُ مِنَ المَس)[1] ويقول : (وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فى أَمْوَالِ النَّاسِ

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وما آتَيْتُم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئكَ هُمُ المُضْعِفُونَ) [١] .

تحريم الربا قاعدة أساسية للحضارة التى تكفل للعالم سعادته . فالربا فى أقل صوره ضرراً إنما هو اشتراك رجل لا يعمل فى ثمرات عمل غيره بلا سبب إلا أنه أقرضه مالا ، بحجة أنه أعان هذا الغير بما أقرضه على إدراك هذه الثمرات ، وأنه لو لم يفعل لما استطاع مدينه أن يعمل وأن يجنى هذه الثمرات . ولو أن هذه الصورة كانت وحدها صورة الربا لما كانت مع ذلك مسوّغة له . فلو أن الذى يُقرض المال كان قديراً على أن يُثَمِّره بنفسه لما أقرضه غيره . ولو أنه أبقاه عنده لبقى معطَّلاً لا يؤتى ثمرة ، ولأكله صاحبه شيئاً فشيئاً . فإذا أراد الاستعانة بغيره فى تثمير ماله مقابل الحصول على حظ من ثمرته ، لم تكن وسيلة ذلك أن تُفْرَضَ لرأس المال فائدة معينة ، وإنما تكون وسيلته أن يشارك صاحب المال من يُثَمّر هذا المال فى مقابل حصته من الثمرة . فإن ربح المثمِّر كان لرب المال من ذلك الربح نصيبه ، وإن خسر كان عليه من الخسارة نصيبه . فأما أن تُفرض لرأس المال فائدة ولو لم يُفِدْ مَنْ ثَمَّره شيئاً فذلك هو الاستغلال غير المشروع .

الربا فى أقل صوره ضرراً

ولا يعترض بأن المال عرض كغيره يؤجّر كما تؤجر الأرض أو كما تؤجر الدابة ، وأن فائدة النقد تقابل إيجار غيره من العروض ؛ فبين المال الذى يصلح للإنفاق كما يصلح للتثمير والذى ينتفع به فى الخير وتجلب به أسباب الإثم ، وبين غيره من الأموال الثابتة والمنقولة فرق كبير . فالإنسان لا يستأجر أرضاً أو بيتاً أو دابة أو أيًّا من العروض إلا لينتفع به فيما يصلح له مالم يكن سفيهاً أو معتوهاً لا تلزمه تصرفاته . فأما رءوس الأموال فأكثر ما تقترض فى خير الوجوه للتجارة . والتجارة عرضة دائماً للكسب والخسارة . أما إجارة العقار أو المنقول لاستغلاله فقلَّ أن تتعرض للخسارة إلا فى أحوال شاذة لا يوضع التشريع العادى لها . فإذا حدثت هذه الأحوال الشاذّة تدخَّل المشروع بين الملاك والمستأجرين على نحو ما حدث فى بلاد العالم كله غير مرَّة لرفع الحيف عن المستأجر ، وإنقاذه

---

(١) سورة الروم آية ٣٩ .

من أن يأكل المالك ثمرة عمله . فأمّا تحديد فائدة النقد بسبعة أو تسعة فى المائة أو بأكثر من ذلك أو أقل ، فلا يغيّر من أن المقترض معرَّض لخسارة رأس المال نفسه فضلا عن تعرضه لخسارة عمله . فإذا طولب مع ذلك بالفائدة كان هذا هو الإثم ، وكان من أثر ذلك أن تقوم الشحناء بين الناس مقام الإخاء ، وأن تحلّ البغضاء بينهم محلّ المحبة ؛ وذلك مصدر الشقاء ، ومبعث ما تعانيه الإنسانية فى عصرنا الحاضر من أزمات .

أكثر الإثم

صور أخرى للربا

وإذا كان هذا شأن الربا فى أقل صوره ضرراً ، وكانت هذه بعض النتائج التى تترتب عليه ، فكيف به فى صوره الأخرى حين يكون المقرض أدنى إلى الوحش المفترس منه إلى الإنسان ، أو حين يكون المقترض فى حاجة إلى المال لسبب غير التثمير؟! فقد يكون فى حاجة إلى المال لإقامة أَوده ولإنفاقه فى قوته وفى قوت عياله . حينذاك يكون إنظاره إلى ميسرة ، حتى يتهيأ له عمل يطمئن به إلى العيش ويستطيع أن يردّ منه ديونه ، بعضَ ما توجبه الإنسانية فى أولى مراتبها ؛ وذلك ما يفرضه القرآن الكريم . أليس الإقراض بالربا فى مثل هذه الأحوال عملاً وحشياً ، وجريمة كجريمة القتل سواء ؟! وأشنع من هذه الجريمة التحايل من طريق الربا على سلب ثروات الضعفاء الذين لا يحسنون القيام على أموالهم . هذا التحايل لا يقل إثماً عن السرقة الدنيئة ، ويجب أن يعاقب من يقدُم عليه عقاب السارق أو أشدّ منه .

الربا والاستعمار

والربا هو بعض ما جرّ على العالم مصائب الاستعمار ، وما أدّى الاستعمار إليه من شقاء . فالاستعمار يبدأ أكثر أمره بطائفة من المرابين أفراداً أو شركات ينزلون بلداً من البلاد يقرضون أهله أموالهم ، ثم يتغلغلون حتى يصلوا إلى وضع أيديهم على منابع الثروة فيه فإذا أفاق أهله وأرادوا الذود عن أنفسهم وأموالهم ، استعدى هؤلاء الأجانب عليهم دولهم ، فدخلت باسم حماية رعاياها ، ثم تغلغلت هى كذلك ، ثم وضعت يدها مستعمرة ، وفرضت إرادتها حاكمة ، وحرمت الناس حرّيتهم ، واستولت على الكثير مما رزقهم الله فى بلادهم . لذلك تضيع سعادتهم ، ويخيم الشقاء على ربوعهم ، ويمدّ البؤس يده إلى قلوبهم ، وَيرين الضلال على عقولهم ، فتضعف أخلاقهم ، ويتضعضع إيمانهم ، وينزلون

عن مرتبة الإنسانية الصحيحة إلى مكان من الضعة لا يرضاه لنفسه من يؤمن بالله ، وبأن الله وحده هو الذى تجب له العبادة .

والاستعمار مصدر الحروب ، ومصدر الشقاء الذى ينيخ بكلكله على الإنسانية كلها فى هذا العصر الحاضر . وما دام الربا ، وما دام الاستعمار ، فلا أمل فى العود إلى عهد إخاء ومحبة بين الناس ؛ ولا أمل فى العود إلى مثل هذا العهد إلا أن تقوم الحضارة على الأساس الذى جاء به الإسلام ، ونزل به الوحى فى القرآن .

الاشتراكية الإسلامية

وفى القرآن اشتراكية لم تُبحث بعدُ . وهى اشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف ، شأن الاشتراكية اليوم فى الحضارة الغربية ، وإنما تقوم على أساس خُلُقى سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البرّ والتقوى لا على الإثم والعدوان . ومن اليسير أن يرى الإنسان قيام هذه الاشتراكية على الإخاء فيما فرضه القرآن من زكاة ومن صدقة ، وأن يقدر أنها ليست اشتراكية تسود فيها طائفةٌ طائفةً أو تتحكم بها جماعة فى جماعة .

فالحضارة التى صوّر القرآنُ لا تعرف سيادة ولا تحكما ، بل أساسها الإخاء الصادق عن إيمان ثابت بهذا الإخاء ؛ إيمان يجعل من التحدُّث بنعمة الله إعطاء الفقير والبائس والمحروم ما يحتاجون إليه من غذاء ومأوى ودواء وتعليم وتهذيب ، وإعطاءهم ذلك من غير مَنّ ولا أذى . بذلك يزول الشقاء ويُتِمّ الله نعمته على الناس وتسودهم السعادة .

لا تلغى التملك إطلاقاً

والاشتراكية الإسلامية لا تقتضى إلغاء التملك إطلاقاً ، كما تقتضيه الاشتراكية الغربية . وقد أثبت الواقع فى روسيا البلشفية وفى كل بلاد سادتها الاشتراكية ، أن إلغاء التملك أمر غير ممكن . لكن المرافق العامَّة يجب أن تكون ملكاً عامًّا مشاعاً بين الناس جميعاً . وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة .

ولذلك وقع الخلاف على هذا التحديد منذ الصدر الأول للإسلام ؛ فكان من بين أصحاب النبىّ غُلَاةٌ فى الاشتراكية يجعلون كل ما خلق الله ملكاً مشاعاً

ومَرْفقاً عاماً ولذلك يجعلون شأن الأرض وما تحتويه شأن الماء والهواء ، لا يجوز تملك شيء منه . وإنما يقع التملك على الثمرات ينال منها كلٌّ على قدر سعيه ومجهوده . وكان منهم من لا يرون هذا الرأى ، ويقولون بجواز تملك الأرض ، ويعتبرونها من العروض التى يقع عليها التبادل .

قاعدة اشتراكية مقررة

على أن الاتفاق منعقد بينهم على قاعدة اشتراكية مقرَّرة اليوم فى أوربا ، تقضى بأنه يجب على كل إنسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته ، ويجب على الجماعة أن تبذل لكل فرد منها ما يسدّ حاجاته . فلكل مسلم حق فى أن ينال من بيت مال المسلمين ما يكفل حاجاته وحاجات من يعول ما دام لا يجد عملاً يرتزق منه ، أو ما دام العمل الذى يزاوله غير كاف لرزقه ورزق عياله . وما دامت قواعد الخُلق التى قرّر القرآن هى ما قدّمنا فلن يكذب أحد ، ولن يزعم أحد أنه متعطل على حين هو فى الحقيقة لا يريد أن يعمل ، ولن يزعم أحد أنه لا يجد من عمله ما يكفيه على حين يدرّ عليه الكفاية . وقد كان أمراء المؤمنين فى الصدر الأول يفرضون على أنفسهم أن يتفقدوا أمور المؤمنين ليبذلوا للمحتاج منهم حقه ، وليدفعوا عنه عادية الحاجة .

الاشتراكية قوامها الإخاء

ومن ثَمّ نرى الاشتراكية فى الإسلام ليست اشتراكية المال وتوزيعه ، وإنما هى اشتراكية عامة أساسها الإخاء فى الحياة الروحية ، وفى الحياة الخلقية وفى الحياة الاقتصادية . وإذا كان المرء لا يكمل إيمانه حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه ، فالمرء لا يكمل إيمانه إذا لم يحضّ على طعام المسكين ولم ينفق للخير العام مما رزقه الله سرًّا وعلانية . وكلما ازداد المرء إيثاراً على نفسه كان أقرب إلى الله وأدنى إلى رضاه ، وكانت نفسه أكثر طمأنينة وقلبه أشدّ غبطة . وإذا كان الله قد جعل الناس بعضهم فوق بعض درجات ، وكان يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِر فإن الناس لا صلاح لهم إلا إذا وقَّر صغيرهم كبيرهم ، ورحم كبيرهم صغيرهم ، وأعطى غنيّهم فقيرهم ، ابتغاء وجه الله وشكراً لله وتحدُّثاً بنعمته .

ما أحسبنا فى حاجة إلى ذكر ما جاء فى القران من تفاصيل النظام الاقتصادى فى المواريث والوصية والعقود والتجارة وما إليها . فمحاولة الإشارة أوجزَ الإشارة إلى ما جاء فيه من هذه الشئون الفقهية ومن الشئون الاجتماعية ، تقتضى عدة

فصول كهذا الفصل . وحسبُنا أن نذكر أن ما ورد فيه من ذلك لم يرد إلى اليوم ما هو خير منه فى أية شريعة من الشرائع . بل إن الإنسان لتأخذ منه الدهشة كل مأخذ حين يجد بعض تفاصيل ، كالكتابة فى الديْن إلى أجل مسمى إلا أن تكون تجارة ، وكإرسال الحكمين إذا وقع الشقاق بين الزوجين خيفة الفرقة ، وكالقيام بالإصلاح بين طائفتين اقتتلوا ، ومقاتلة الطائفة التى تبغى ولا ترضى الصلح حتى تفىء إلى أمر الله – تأخذ الإنسان الدهشة إذ يرى هذه الأمور ، ويوازن بينها وبين ما ورد فى الشرائع المختلفة ، فإذا أحسن التشريع ما وافق هذه القواعد التى وضعها القرآن . فلا عجب إذاً – وما ذكرنا عن الربا وعن الاشتراكية الإسلامية هو أساس النظام الاقتصادى المصوّر فى القرآن ، وهذه التفاصيل التشريعية هى خير ما وصل التشريع إليه فى مختلف العصور – أن تكون الحضارة الإسلامية هى الحضارة الجديرة بالإنسانية الكفيلة حقًّا بإسعادها .

ما ربما يعترض به الغرب

ربما ذهب بعض كتَّاب الغرب ، بعد اطلاعهم على ما قدّمنا من تصوير القرآن للحضارة وأساسها ، إلى أن طبيعة الإنسان لا تألف هذا النظام الذى يكلِّفها من السموّ إلى ما فوق فطرتها ما لا تطيق ، وأن نظاماً ذلك شأنه ليس مقدوراً له أن يحيا أو أن يطول بقاؤه . فالإنسان فى رأيهم إنّما يحركه الخوف والرجاء ، وتحركه الأهواء والشهوات ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان ، وهو بعدُ حيوان ناطق . فحملُ الإنسانية على الأخذ بنظام كالذى صوَّره الإسلام للحضارة أمر غير مستطاع ، أو هو على الأقلّ غير ميسور . وغاية ما نطيق فى نُظُم هذه الحياة للجماعة الإنسانية أن نهذّب الشهوات ، وأن نُحسن توجيه فكرة الخوف والرجاء من الناحية الاقتصادية المادِّيَّة البحتة . فأمَّا ما وراء ذلك فأمر لا قِبَلَ للجماعة به . ولعل الدليل عندهم على ذلك أن النظام الإسلامى ، على النحو الذى صوَّره القرآن وحاولتُ إيجازه هنا ، لم يستقرّ فى الجماعة الإسلامية نفسها إلا أيام النبى وفى الصدر الأوَّل . ولو أن النظام كان صالحاً للحياة لاستقرّ فى تلك الجماعات الإسلامية الأولى ولانتشر منها فى أنحاء العالم . أما وذلك لم يحدث ، بل حدث نقيضه ، فالزعم بأن هذا النظام أجدر بالإنسانية وأكفل بسعادتها زعمٌ لا يصدّقه الواقع .

إدحاض الاعتراض

ويكفى لإدحاض هذا الاعتراض اعتراف أصحابه بأن النظام الإسلامى قام وطُبِّق فى عهد النبي وفى الصدر الأوَّل . ولقد كان محمد خير أسوة فى تطبيقه . واتبع خلفاؤه الأوَّلون أسوته الحسنة وساروا بهذا النظام إلى حيث يجب أن يبلغ كماله . لكن الدسائس والأهواء ما لبث بعد ذلك أن طغت شيئاً فشيئاً على أسسه الصحيحة من طريق الإسرائيليات تارة ، ومن طريق الشعوبية أخرى . وكان من أثر ذلك أن عاد الناس شيئاً فشيئاً إلى تغليب المادة على الروح ، والحيوانية على الإنسانية ، وإلى الوقوف فى دائرة الحدود التى تقف المدنية الحاضرة فيها اليوم ، والتى تجرُّ على الإنسانية شرَّ أهوال الشقاء .

أسوة محمد

كان محمد خير أسوة فى تطبيق الحضارة كما صوّرها القرآن . وقد رأيتَ من ذلك خلال هذا الكتاب كيف كان إخاؤه لبنى الإنسان جميعاً إخاء تامًّا صادقاً . كان إخوانه بمكة متساوين وإياه فى احتمال البأساء والضرّاء ؛ وكان هو أشدّ منهم للبأساء والضراء احتمالا . فلمَّا هاجر إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار فيها إخاءً جعل له حكم إخاء الدم . وكان إخاء المؤمنين عامَّة إخاء محبَّة لإصلاح دعامة الحضارة الناشئة فى ذلك العهد ؛ وكان يقوّى هذا الإخاء إيمان صادق بالله بلغ من قوَّته أن كان محمد يسمو به إلى الاتصال بالله جل شأنه . وموقفه فى غزوة بدر حين ناشد ربه النصرَ الذى وعده إيَّاه ، وجعل يستنجزه هذا النصر ، ويذكر له أن فئة بَدْر إن هُزِمَتْ لم يُعْبَدْ ، مظهر قوىٌّ من مظاهر هذا الاتصال . ومواقفه فى غير بدر من المواطن تدل على أنه كان دائم الاتصال بالله فى غير الساعات التى ينزل فيها عليه الوحى . وكان اتصاله هذا من طريق إيمانه الصادق إيماناً جعله يستهين بالموت ويُقبل عليه ويتمنَّاه . فكل صادق فى إيمانه لا يهاب الموت بل يتمنَّاه . فلكل أجل كتاب . والناس أينما يكونوا يدركهم الموت ولو كانوا فى بروج مشيَّدة . وهذا هو الذى جعل محمداً يثبُت حين فرَّ المسلمون منهزمين عند ما بدأت غزوة حُنَيْن ، ويدعو الناس إليه غير آبه للموت المحيط به وبالعدد القليل الذين ثبتوا معه . وهذا الإيمان هو الذى جعله يعطى عطاء من لا يخشى فاقة ، ويبرُّ اليتيم وابن السبيل وكل بائس وكل محروم ، ويسموْ إلى ذروة ما دعا إليه كتاب الله من فضائل . ذلك كله ،

واحتذاء المسلمين مثالَه فى الصدر الأول ،جعل الإسلامَ يُسرع إلى الانتشار فى العقود الأولى من السنين التى تلت اختيار الله نبيَّه إلى جواره؛ وينتشر لينشر فى كل قطر رفرفت عليه أعلامه أسمى ماقرّرته هذه الحضارة ، ولينشئ بذلك من هذه الأمم المنحلَّة المتهدّمة شعوباً قوية وَدُوَلاً ذات بأس تُقبل على العلم وتصل من طريقه إلى الاتصال بكثير من أسرار الكون ، وتبدع لذلك فى الحياة من المنشآت ما تفاخر به هذا العصر الحاضر الذى يزعمونه عصر النور والعلم ، من غير أن يجنى ذلك على سعادة الإنسانية بسبب عبادة المادة وضعف الإيمان بالله .

العلماء المضلون

وإنما اندسَّت فى الحضارة الإسلامية أهواء الشعوبية والإسرائيليات ، كما اندسَّت فى غيرها من الحضارات لأن طائفة من العلماء الذين يجب عليهم أن يكونوا ورثة الأنبياء ، قد آثرت السلطان على الحق ، والجاه على الفضيلة ، فاتخذت من عِلمها وسيلة تضلل بها سواد الناس وناشئتهم ، كما يضلِّل كثيرون من علماء هذا العصر سواد أهله وناشئته . هؤلاء العلماء هم أنصار الشيطان ، وهم لذلك أثقل الناس تَبِعَة أمام الله . وأول واجب على كل عالم مخلص حقًّا لعلمه ولله أن يحاربهم وأن يستأصل بذور فسادهم . لأنهم يفتِنون الناس عن الحق والهدى ويُضِلُّونهم عن سواء السبيل . وإذا جاز أن يكون لهؤلاء العلماء المضلِّين مجال حيث تقتتل الكنيسة والعلم على السلطان فى الغرب ، فلا مجالَ لهم فى البلاد الإسلامية حيث تُزاوج الحضارة بين الدين والعلم ، وحيث يكون الدين بغير علم كفراً ، والعلم بغير دين تجديفاً . ولو أن العالَم استظلّ بحضارة الإسلام على ما صوَّرها القرآن ، ولم تجن عليه فتوح المغول وغيرهم ممن دخلوا فى الإسلام ولم يعملوا بمبادئه ولا عملوا على نشرها ، بل اتخذوه وسيلة لحكم سواد المسلمين على مبادئ تناقض مبادئ الإخاء الإسلامى ، لتبدّل الأمر فى العالم غير الأمر ، ولنجت الإنسانية من كثير مما ترزح اليوم تحته من أهوال الشقاء .

كيف تقوم الحضارة الإسلامية فى عالمنا الحاضر

وإنى لواثق أن تسود الحضارة التى صوَّرها القرآن العالم إذا قام جماعة من العلماء يدعون إليها على طريقة علمية بعيدة عن الجمود والتعصب . فهذه الحضارة تخاطب القلب كما تخاطب العقل ، وتكفل إقبال الناس من كل

الأمم عليها إقبالاً لن تستطيع مطامع أصحاب المطامع صدّه . ولا يطلب إلى هؤلاء العلماء أكثر من أن يكونوا مؤمنين حقًّا ، يدعون الناس إلى الله وإلى هذه الحضارة مخلصين له الدين حنفاء . يومئذ يسعد الناس بالإخاء فى الله كما سعِدوا به فى عهد النبىّ .

وما كان فى عهد النبىّ وفى الصدر الأوّل ، ينهض دليلاً على ما قلته فى مقدّمة هذا الكتاب من أن البحث العلمى فى الثورة الروحية التى أفاض محمد على العالم ضياءها جدير بأن يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى تتلمسها ، وأنا لا أرتاب فى ذلك لحظة . لكن لعلماء الغرب بعض اعتراضات يُبدونها ، ينسبونها إلى الروح الذى صدرت عنه فكرة الحضارة الإسلامية ، ويقيمون على أساسها حكمهم بأن الإسلام كان سبباً فى تدهور الأمم التى دانت به . وأهمّ هذه الاعتراضات ما يذهبون إليه من أن الجبرية الإسلامية أضعفت همة المسلمين ، وقعدت بهم عن الكفاح فى الحياة ، فهانوا وذلّوا . ودَفْع هذا الاعتراض وما يجرى مجراه هو موضوع المبحث الثانى من هذه الخاتمة .

٢ – المستشرقون والحضارة الإسلامية

اعتراض المستشرقين

واشنجتون إيرفنجْ من أعلام الكتاب الذين فاخرت بهم الولايات المتحدة الأمريكية غيرها من الأمم فى القرن التاسع عشر المسيحى . وقد كتب سيرة النبى العربى فى كتاب عرض فيه هذه السيرة عرضاً فيه قوّة بيانية تملك قارئه فى كثير من أجزائه ، وفيه إلى جانب هذه القوة إنصاف أحياناً وتحامل أحياناً أخرى . وقد وضع للكتاب خاتمة عرض فيها لقواعد الإسلام وما حسبه المصادر التاريخية التى استندت إليها هذه القواعد ، وفى مقدمتها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ثم قال : « القاعدة السادسة والأخيرة من قواعد العقيدة الإسلامية هى الجبرية . وقد أقام محمد جُل اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شئونه الحربية . فقد قرر أن كل حادث يقع فى الحياة قد سبق فى علم الله تقديره ، فكُتِب فى لوح الخلد قبل أن يبرأ الله العالم ، وأنَّ مصير كل إنسانٍ وساعة أجله قد عُيِّنت تعييناً لا مردَّ له ، فلا يمكن أن تتقدّم أو أن تتأخر بأىّ مجهود من مجهودات الحكمة الإنسانية أو بعد النظر . بهذا الاقتناع كان المسلمون يخوضون غمار المعارك دون أن ينال منهم الخوف . فما دام الموت فى هذه المعارك هو عِدْل الاستشهاد الذى يسرع بصاحبه إلى الجنة فقد كانت لهم الثقة بالفوز فى حالى الاستشهاد أو الانتصار .

إيرفنج والجبرية الإسلامية

« هذا المذهب الذى يقرّر أن الناس غير قادرين بإرادتهم الحرَّة على اجتناب الخطيئة أو النجاة من العقاب ، يعتبره بعض المسلمين منافياً لعدل الله ورحمته . وقد تكوَّنت عدّة فرَق جاهدت وما تزال تجاهد لتهوين هذا المذهب المحيِّر وإيضاحه . لكن عدد هؤلاء المتشككة قليل . وهم لا يعتبرون من أهل السُّنة .

« وقد أُلهم محمد مذهب الجبرية من وحى الساعة ، فكان ذلك إلهاماً معجزاً لحدوثه فى أنسب أوقاته . فقد حدث توًّا بعد غزوة أُحُد المنكودة التى ذهبت فيها أرواح عدد غير قليل من أنصاره ، ومن بينهم عمه حمزة . عندئذ ، وفى ساعة

وجوم وهَلَع تحطَّمت أثناءها قلوب أصحابه المحيطين به ، أصدر هذا القانون يُنبئهم أن لا مفر لإنسان من أن يُتَوفى فى ساعة أجله ، فى فراشه كان أو فى ساحة الوغى .

« أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعاً وحشيًا ؛ إذ يقنعهم عن يقين بالفىء لمن يبقى ، والجنة لمن يموت ! . ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب ؛ لكنها احتوت كذلك السم الذى يقضى على سلطانه . فمنذ اللحظة التى كفّ فيها خلفاء النبى عن أن يكونوا غزاة فاتحين ، ومنذ أغمدوا سيوفهم بصفة نهائية بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام ، فقد أرهف السلم أعصاب المسلمين كما أرهفها المتاع المادىُّ الذى أباحه القرآن ، والذى يفصل فصلا حاسماً بين مبادئه ودين المسيح دين الطهر والإيثار . فصار المسلم ينظر إلى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ما قدر الله عليه وما لا مفر منه ، ومَا يجب الإذعان له واحتماله ، ما دام كل جهد وكل حكمة إنسانية عبثاً لا نفع له .

ولم تكن قاعدة « أعِن نَفْسَك يُعِنْك الله » مما يرى أتباع محمد تنفيذه ، بل كان عكسها نصيبهم . من ثَمَّ مَحق الصليب الهلال . وبقاء الهلال إلى اليوم فى أوربا حيث كان يوماً ما بالغاً غاية القوة إنما يرجع إلى اختيار الدول المسيحية الكبرى ، أو يرجع بالأحرى إلى تنافسها . ولعل الهلال باق ليكون دليلا جديداً على أن « مَنْ أخَذَ بالسيف فبالسيف يُؤخذ » .

خطأ هذا الاعتراض

هذا كلام واشنجتون إيرفنج . وهو كلام رجل لم تمكنه دراسته من إدراك روح الإسلام وأساس حضارته ، فذهب هذا المذهب الخاطئ فى تأويل مسألة القضاء والقدر وكتاب الأجل . ولعل له من العذر أنه وقف فى بعض الكتب الإسلامية على ما جعله يذهب هذا المذهب : فأما القرآن فلا تقاس إلى جانب ما ورد فيه عبارة « أعِنْ نَفْسَك يُعِنْك الله » ، من حيث القوة فى الدعوة إلى التعويل على الذات ، وأن الناس مجزيون بأعمالهم وبالنية التى تصدر هذه الأعمال عنها . قال تعالى : (قُلْ يٰأيُّهَا النَّاسُ قد جاءَكم الحَقُّ مِنْ رَبكُمْ فَمَن اهْتَدَى

القرآن وإرادة الإنسان فى أعماله

فإنَّمَا يهتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) [١] . وقال تعالى : (مَنِ اهْتَدَى فإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فإنَّمَا يَضِلُّ عليها ولا تزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) [٢] . وقال : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ومَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) [٣] وقال : (إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [٤] .

ومثل هذا فى القرآن كثير . وهو صريح فى الدلالة على أن إرادة الإنسان وعمله هما مصدر مثوبته وعقابه . وقد حَضَّ الله الناس أن يسعَوا فى مناكب الأرض وأن يأكلوا من رزقه ، وأمرهم بالجهاد فى سبيله بآيات قوية غاية القوّة تلونا شيئاً منها فى أثناء هذا الكتاب . وهذا لا يتفق وما يقوله إيرفنج وما يقول بعض رجال الغرب من أن الإسلام دين تواكل وقعود ، وأنه يعلِّم أهلَه أنهم لا يملكون لأنفسهم بعملهم نَفْعاً ولا ضرًّا ، فلا فائدة لهم من السعى والإرادة ؛ لأن السعى والإرادة معلَّقان بمشيئة الله ؛ فإذا سعينا وكان مقدَّراً ألاّ يثمر سعينا لم يثمر ، وإذا لم نسع وكان مقدَّراً أن نصبح أغنياء أو أقوياء أو مؤمنين أصبحنا كذلك من غير سعى ولا عمل . فالآيات التى قدَّمنا تناقض هذا الرأى وتنفيه .

القرآن والقضاء والقدر

ألم يعتمد هؤلاء الذين ينسبون تواكل المسلمين فى هذه العصور الأخيرة إلى دينهم على ما جاء فى القرآن من آيات القدر ، كقوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً) [٥] . وكقوله : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) [٦] . وكقوله : (ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ

---

(١) سورة يونس آية ١٠٨

(٢) سورة الإسراء آية ١٥ .

(٣) سورة الشورى آية ٢٠

(٤) سورة الرعد آية ١١ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٤٥

(٦) سورة الأعراف آية ٣٤ .

نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) [١] . وكقوله : (قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إلاَّ ما كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُون) [٢] .

إن يكن ذلك ما يعتمدون عليه فقد فاتهم معنى هذه الآيات وأمثالها ، وما تصوره من صلة وثيقة بين العبد وربه ، ودعاهم ذلك إلى الظن بأن الإسلام يدعو إلى التواكل مع أنه الدين الذى يدعو إلى الجهاد وإلى الاستشهاد وإلى الإباء والأنفة ، كما يقيم حضارته على أساس من الإخاء والرحمة .

والواقع أن هذه الآيات وما جرى مجراها تصور حقيقة علمية قرَّرتها كثرة فلاسفة الغرب وعلمائه وأطلقوا عليها مذهب الجبرية كذلك ، ونسبوا الجبر فيها إلى سنَّةِ الكون ومجموع الحياة فيه بدل أن ينسبوها إلى الله وعلمه وقدرته . وهذا المذهب الذى تُقرّه كثرة فلاسفة الغرب أقلّ سعة وتسامحاً وانطباقاً على خير الجماعة الإنسانية من المذهب الفلسفى الذى يُستخلص من القرآن الكريم ، كما سنرى من بعدُ . وهذه الجبرية العلمية تذهب إلى أنّ ما لنا من اختيار فى الحياة إنما هو اختيار نسبي ضئيل القدر وأن القول بهذا الاختيار النسبي يرجع إلى ضرورات الحياة الاجتماعية من ناحية عملية أكثر مما يرجع إلى حقيقة علمية أو فلسفية . فلو لم يتقرر مذهب الاختيار لتعذَّر على الجماعة أن تجد أساساً تقيم عليه تشريعها وحدودها ، وتنظم بذلك حياتها ، وتفرض به على كل إنسان جزاء تصرُّفاته جزاء جنائيًّا أو مدنيًّا . صحيح أن بين العلماء والفقهاء من لا يقيمون أساس الجزاء على الجبر ولا على الاختيار ، وإنّما يقيمون على ما يحدث من ردّ الفعل الذى تقوم به الجماعة محافظة على كيانها، كما يقوم الفرد بمثله محافظة على كيانه . وسيان عند الجماعة إذ تقوم برد الفعل هذا أن يكون الفرد مختاراً وأن يكون غير مختار . على أن الاختيار فى التصرف ما يزال الأساس للجزاء عند أكثر الفقهاء ، ودليلهم عليه أن مسلوب الحرية والاختيار ، كالمجنون والصغير والسفيه ، لا يُجْزَى عن عمله ما يُجْزَى الرشيدُ الذى يميز بين الخير والشر . فإذا تخطينا هذه الاعتبارات

---

(١) سورة الحديد آية ٢٢

(٢) سورة التوبة آية ٥١ .

العملية فى الفقه والتشريع وأردنا أن نخلُص إلى الحقيقة العلمية والفلسفية ، ألفينا الجَبْرية هى هذه الحقيقة . فليس لأحد اختيار للعصر الذى يولد فيه ، ولا للأمة التى يولد من أبنائها ، ولا للبيئة التى ينشأ بينها ، ولا لأبويه وفقرهما وغناهما وفضلهما ونقصهما ، ولا لأنه ذكر أو أنثى ، ولا لما يحيط به من أحداث لها ، أغلبَ الأمر ، الأثر الأكبر فى توجيه أعماله وحياته . وقد عبَّر الفيلسوف الفرنسى « هيبُّوليت تِيْن » عن هذا المذهب بقوله : « المرء ثمرة بيئته » . وقد ذهب غير واحد من العلماء والفلاسفة فى تأييد ذلك إلى حدّ القول بأن علمنا لو استطاع أن يصل من معرفة سنن الحياة الإنسانية وأسرارها إلى مثل ما وصل إليه من معرفة سنن الأفلاك ، لاستطاع أن يحدِّد بالدقَّة مصير كل فرد وكل أمة ، كما يحدّد الفلكيون بالدقة مواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر . مع ذلك لم يقل أحد فى الغرب ولا فى الشرق بأن هذا المذهب الجبرى يحول بين المرء والسعى للنجاح فى الحياة أو يحول بين الأمم والوثوب إلى خير مكان ، ولم يقل أحد بأن هذا المذهب يؤدّى إلى تدهور الأمم التى تأخذ به . هذا مع أن المذهب الجبرىّ فى الغرب لا تؤيِّده فى السعى والعمل آيات كالتى تلوت من آيات القرآن عن تَبِعة الإنسان عن عمله ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ ما سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى﴾ . أفلا ينهض هذا وحده دليلا على تحامل المستشرقين الذين يزعمون أن جَبْريَّة الإسلام قد أدّت إلى تدهور الأمم الآخذة به ؟

بل إن الجبرية الإسلامية لأكثر حضًّا على السعى إلى الخير والفضل وإلى ابتغاء الرزق من الجبرية الغربية . فكلتاهما متَّفقة على أن للكون سنناً لا تحويل لها ولا تبديل ، وأن ما فى الكون جميعاً خاضع لهذه السنن ، وأن الإنسان خاضع لها خضوع سائر ما فى الكون . لكن الجبرية الغربيَّة تُخضع المرء لبيئته ووراثته خضوع إذعان لا محيص عنه ولا مفرَّ منه وتجعل إرادة الإنسان بعض ما يخضع لبيئته ، فلا سبيل له لذلك إلى أن يغير نفسه . فأمَّا القرآن فيدعو إرادة كل فرد لتتوجَّه بحكم العقل إلى ناحية الخير، ويذكرهم أنه إذا كان قد قدّر لهم الخير فيما كسبت أيديهم ، وأنهم لا ينالون هذا الخير اعتباطاً من غير سعى .

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

يقول تعالى : (إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم)(١) . فى مقدورهم إذاً أن يفكروا وأن يتدبَّروا بعد أن هداهم الله بكتبه إلى الواجب عليهم ، وبعد أن دلَّهم أنبياؤه ورسله على طريق الحق ، وبعد أن دُعوا إلى النظر فى الكون وتدبُّر سننه ومشيئة الله فيه . ومن يؤمن بهذا ، ومن يوجّه نفسه وجهته، فلن يصيبه إلا ما كتَبَ الله عليه . فإذا كان قد كتب عليه أن يموت فى سبيل الحق أو الخير الذى أمر الله به فلا خوف عليه ، وهو وأمثاله أحياء عند ربهم يُرْزقون . أية دعوة إلى الإقدام وإلى السعى وإلى الإرادة كهذه الدعوة ؟ وأين فيها ما يزعم إيرفنج والمستشرقون من تواكل ؟!

التواكل ليس من التوكل على الله فى شىء . فالتوكل على الله لا يكون بقعود المرء والتخلف عن أمر ربه ، بل بالعمل الجدّىّ لما أمر به . وذلك قوله تعالى : (فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) . فالعزم والإرادة يجب إذاً أن يسبقا التوكل . وأنت ما عزمتَ ثم توكلت على الله بالغٌ نهاية أمرك بفضل منه . وأنت ما ابتغيت وجهه وحده ، وما خشيته وحده ، وما سلكت سبيله وحده ، مهتد إلى الخير بحكم سنَّة الله فى الكون ، وسنَّة الله لا تحويل لها ولا تبديل. وأنت بالغ هذا الخير ، أدّى بك سعيك إلى النجاح والفوز ، أو أدى بك إلى الموت . وما ينالك من الخير فمن عند الله . أمَّا ما يُصيبك من مكروه فبما كسبت يداك وباتباعك سبيلاً غير سبيل الله . فالخير كله بيد الله ، والضلال والشر من نزغ الشيطان وعمله . . .

أمَّا علم الله بكل ما يقع فى الوجود قبل أن يبرأ الله الوجود ، وأنه جل شأنه (لاَيَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فى السَّمَـٰوَاتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلا فى كِتَابٍ مُبِينٍ)(٢) فيرجع إلى أن الله برأ للكون سنناً لا تحويل لها ويجب أن تنشأ عنها آثارها . وإذا كان العلماء يذهبون إلى ما قدمنا من أن العلم الواقعى يستطيع إذا عرف أسرار الحياة الإنسانية وسننها ، أن يعرف ما قدّر لكل فرد ولكل أمة على وجه اليقين ، كما يعرف مواقيت الكسوف والخسوف ، فإن الإيمان بالله يقتضى حتماً الإيمان بعلمه بكل شىء من قبل أن يبرأ العالم . وإذا كان

---

(١) سورة الرعد آية ١١ .
(٢) سورة سبأ آية ٣ .

المهندس الذى يصنع « تصميم » دار أو قصر ويراقب تنفيذ هذا التصميم ، يستطيع أن يعلم مدى ما يعيش هذا البناء وما قد تتعرض له أجزاؤه المختلفة على مضىّ السنين ، وكان علماء الاقتصاد يذهبون إلى أن السنن الاقتصادية تهديهم على سبيل القطع إلى معرفة ما ينشأ فى حياة العالم الاقتصادية من أزمة أو رخاء ، فإن مناقشة علم الله بكل صغيرة وكبيرة مما خلق فى الكون تجديف لا يقبله عقل منطقى . وهذا العلم لا يصح أن يقف الناس عن التفكير فى مآلهم ، والعمل جهد الطاقة لاتباع جادة الحق وتنكب طريق الضلال ؛ فعلم الله غيب عليهم وهم مهتدون آخر الأمر إلى الحق ولو بعد حين . والله قد كتب على نفسه الرحمة ، وهو يقبل توبة التائب من عباده ويعفو عن كثير . وما دامت رحمته وسعت كل شىء فليس لإنسان أن ييأس من الاهتداء إلى الحق والخير ما دام ينظر فى الكون ويتدبر ما فيه . وليس لإنسان أن يقنط من رحمة الله إذا هداه نظره آخر الأمر سبيل الله . وإنما الويل لمن ينكر إنسانيته ويستكبر عن النظر والتفكير ابتغاء الهدى . أولئك يعاندون الله ولا يبتغون وجهه ، وأولئك ختم الله على قلوبهم ، فلهم جهنم ولهم سوء الدار .

أفيرى أولئك المستشرقون سمو الجبرية الإسلامية وانفساح مداها ؟! وهل يرون فساد ما يزعمونه من أنها تدعو إلى القعود عن السعى أو قبول المذلة أو الرضا بالخضوع لغير الله !؟ ثم هى من بعدُ تجعل باب الرجاء فى مغفرة الله ورحمته مفتوحاً دائماً لمن تاب وأناب . فما يزعمونه من أنها تدعو المسلم إلى النظر لما يصيبه من خير أو شر على أنه بعض ما كتب الله فيقعد لذلك صابراً محتملاً الضرّ والمذلة ، بعيدٌ عن الحقيقة فى أمر هذه الجبرية التى تدعو إلى دوام الدأب ابتغاء رضا الله ، وإلى عزم الأمر قبل التوكل على الله . فإذا لم يوفق الإنسان للخير اليوم ، فليعمل لعله يوفق له غداً ؛ وله من دائم الرجاء فى الله أن يسدد خطاه وأن يتوب عليه وأن يغفر له ، خير حافز إلى التفكير المتصل والسعى الدائب لبلوغ الغاية من رضا الله . إيّاه يعبد وإياه يستعين ، منه جل شأنه الهدى ، وإليه يرجع الأمر كله .

ما أعظم القوّة التى تبعثها هذه التعاليم السامية إلى النفس ! وما أوسع أفق

الرجاء الذى تفتحه أمامها ! فأنت موفق للخير ما ابتغيت بعملك وجه الله . وأنت إن أضلك الشيطان مقبولة توبتك ما غالب عقلك هواك فغلبه وعاد بك إلى الصراط المستقيم . والصراط المستقيم هو سنة الله فى خلقه ، سنة نهتدى إليها بقلوبنا وعقولنا ، وبتفكيرنا فيما خلق الله ، وبدأبنا فى السعى لمعرفة أسراره . فإذا ظلّ من الناس بعد ذلك من يشرك بالله ، ومن يبغى الفساد فى الأرض ، ومن يُعميه الاستئثار عن كل معنى من معانى الأخوة ، فإنما هو المثل الذى يضربه الله للناس ليروا عاقبة أمر الله فيه لتكون لهم العبرة من مثله . وهذا عدل الله فى الناس ورحمته بهم جميعاً ، لا يحول دونهما ولا يحدّ منهما أن يضلّ ضال فيناله العذاب جزاء ما قدمت يداه .

ولكن ! لماذا يفكر الناس ولماذا يعملون والموت لهم بالمرصاد ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ؟ ولماذا يفكر الناس ولماذا يعملون وقد كتب للسعيد منهم أن يكون سعيداً وعلى الشقى منهم أن يكون شقيًّا ؟هذا تكرار للسؤال الذى أجبنا عنه سقناه قصداً ، لننظر فى مسألة كتاب الأجل من ناحية أخرى : فما كتب الله إنما هو سنَّة الكون من قبل أن يبرأ الكون ، ومن قبل أن يقول له كن فيكون ، ولا أدلّ على دقة هذا التصوير من قوله تعالى : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) . ومعنى هذا أن الرحمة صفة لله وسنَّة من سننه فى الكون وليست فرضاً فرضه على نفسه ؛ فالفرض لا يجوز عليه جلّ شأنه . ويقول الله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) . فإذا ضلَّ قومٌ لم يبعث الله لهم رسولاً قضت سنَّة الله ألا يعذّب منهم أحداً . وعلم الله بآثار سنته فى الكون بديهىّ لكل من آمن بأن الله هو الذى خلق الكون . فإذا بعث الله لقوم رسولاً ثم قضت سنَّة الكون ومشيئة الله فيه أن يصرَّ إنسان من هؤلاء القوم على الضلال بعد إذ دُعى إلى الهدى ، فإساءته على نفسه وهو لغيره عبرة ومثل .

ومن السذاجة القول بأن هذا الذى ضلّ فجوزى بضلاله قد ظُلم ما دام الضلال قد كُتب عليه . نقول من السذاجة بدل أن نقول من التجديف ؛ لأن أبسط قسط من التفكير يهدينا إلى أن من ضلّ يظلم نفسه ولا يظلمه الله . وقد يكفينا فى بيان

من ضل فقد ظلم نفسه

ذلك مثل الأب البار العطوفُ يدنى النار من طفله ، فإذ أراد أن يمسكها بَعُد بها عنه مشيراً إليه أنها تحرقه . ثم هو يدنيها منه مرّة بعد مرة ، ولا بأس بأن تحترق إصبع الطفل كى يكون له من حسه الذاتى ما ينبهه إلى الحقيقة الملموسة التى تظل ماثلة أمامه طِيلَة حياته . فإذا أقدم بعد رشاده فأمسك بالنار أو ألقى بنفسه فيها فجزاؤه ما يصيبه منها،ولا تثريب على أبيه ، ولا يطلب أحد إلى هذا الأب أن يحول بينه وبينها . كذلك مثل الأب الذى يدل ابنه على مضرَّة القمار أو الخمر ، فإذا بلغ الابن رشاده واجترح مانهاه عنه أبوه فأصابه الشر لم يكن أبوه ظالماً إياه ، وإن كان فى مقدوره أن يحول بينه وبين ما يصنع . وأبوه أبعد عن ظلمه إن كان فى ترك الابن يجترح من ذلك ما يجترح مُزْدَجَرٌ وعبرة لأهله وإخوته ، فإذا كان الأهل والإخوةُ يعدُّون بالمئات أو بالألوف فى مدينة كثرت فيها أسباب الغواية بطبيعة نواميسها ، فمن الخير ومن العدل أن يكون فيما يصيبُ بعضَ هؤلاء من الآثار المحتومة جزاء أعمالهم ما تستقيم به أمور هذه الجماعة على أسفٍ منها لما أصاب الظالمين من أبنائها . وهذه أبسط صور العدل على ما نتصوره فى جماعتنا الإنسانية ، فما بالك بها حين نتصورها بالنسبة للعالم كله وملايين الملايين من خلائقه فى لا نهايات الزمان والمكان ! إن ما يُصيب فرداً أو جماعة بظلمهم ، فى هذه الصورة التى يكاد يعجز عن تصورها خيالنا ، إنما هو العدل فى أبسط صوره .

مثلنا فى حياتنا الشخصية

لو أننا نسبنا الظلم لأب ترك ابنه الذى ضل يلقّى جزاء ضلاله ما دام الضلال قد كتب عليه ، لحق علينا أن ننسب الظلم لأنفسنا لأننا نقتل برغوثاً يؤذينا اتقاء وخوفاً من عدوى ينقلها إلينا قد تكون وبالا علينا وعلى الجماعة إذا انتقلت منا إلى غيرنا ، أو لأننا نفتِّت حصاة فى المرارة أو الكلَى خيفة ما تجره علينا من آلام وشقوة ، أو لأننا نبتُر عضواً من أعضائنا مخافة أن يستشرى منه الفساد إلى سائر الجسم فيقتله . ولو أننا لم نفعل ، لأن ذلك قد كُتب علينا ، ثم شَقِينا أو هلكنا فلا نلومنَّ إلا أنفسنا بما يصيبنا من السوء ما دام الله قد فتح لنا باب الشفاء كما فتح للمذنب باب التوبة . والجاهلون وحدهم هم الذين يقبَلون الألم والشقاء زعماً منهم أنه كُتب عليهم ؛ وذلك حماقة منهم وسخف . فكيف بنا ونحن نرى

قتل البرغوث واستئصال الحصاة وبتّر العضو المريض عدلاً كل العدل ، وإن كان قد كُتب فى سنة الكون أن يؤذى البرغوث وأن ينقل إلى الإنسان العدوى وأن تفسِد الحصاة وأن يُفسد العضو المريض سائر الجسد فيقضى عليه -كيف بنا ونحن نرى هذا ألا نعتبر سذاجة بلهاء لا مسوّغ لها إلا الاستئثار الضيق الأفق أن نقف من أمر هذه العدالة عند ذواتنا ، وألاّ نعدّيها إلى الجماعة الإنسانية كلها ، وألاّ نعدّيها أكثر من ذلك إلى الكون كله !؟

عمل الخير عبادة

وما البرغوث وما الحصاة وما الإنسان إلى جانب الكون ؟! بل ما الإنسانية كلها إلى جانب الكون ؟ هذا الكون الفسيح يحاول خيالنا العاجز تصوير حدوده بالزمان والمكان وبالأزل والأبد ، وبأمثال هذه الألفاظ التى لا سبيل لنا غيرها إلى أن نرسم لأنفسنا صورة من الكون ناقصة غاية النقص ، يتفق نقصها مع ما أوتينا من العلم ، وما أوتينا من العلم إلا قليلا . وهذا القليل قد هدانا إلى أن سنَّة الله فى الكون سنَّة نظام وعدل لا تبديل لها ولا تحويل . وإنما نهتدى إلى هذه السنَّة وقد جعل الله لنا السمع والأبصار والأفئدة لنشهد بديع صنعه ونقف فى الكون على سنَّته ، فنسبِّح بحمده ونعمل الخير بأمره . وعمل الخير عن إيمان هو أرقى مظهر لعبادة الله لقوم يعقلون .

الموت خاتمة حياة وبدء حياة

فأمَّا الموت فخاتمة حياة وبدء حياة . لذلك لا يجزع منه إلا الذين ينكرون الحياة الآخرة ويخشونها لسوء صنيعهم فى الحياة الدنيا .أولئك لا يتمنَّون الموت بما كسبت أيديهم ؛ وإنما يتمنى الموت صدقاً المؤمنون حقًّا والذين عملوا فى الدنيا صالحاً .

يقول تعالى : (الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) [١] . ويقول جل شأنه مخاطباً نبيَّه : (وَمَا جَعَلْنَا لبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ . كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكمْ بالشَّر والْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) [٢] . ويقول : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ

(١) سورة الملك آية ٢ . (٢) سورة الأنبياء آيتا ٣٤ ، و ٣٥ .

يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً . بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهِ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . ولاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) [١] . ويقول : (وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثم إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثم يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [٢] .

هذه الآيات قويَّة غاية القوَّة تنقض ما يقال عن دعوة الجبرية الإسلامية للقعود وعدم السعى . فالله خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيُّهم أحسن عملاً . وعملهم فى الحياة ، وجزاؤهم عنه بعد الموت . فإذا لم يعملوا ، وإذا لم يمشوا فى مناكب الأرض ويأكلوا من رزق الله ، وإذا لم يَصَّدَّقوا مما آتاهم الله ، وإذا لم يؤثروا على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ، عَصَوُا الله ، وكان من يفعل ذلك كله أحسن منهم عند الله عملا وأحسن فى الآخرة جزاء ومثوبة . والله يبلونا فى الحياة بالخير والشرّ فتنة . وعلينا أن نميِّز بعقولنا بين الخير والشرّ . فمن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرَّة شرًّا يره . ولئن لم يصبنا إلا ما كتب الله لنا ليكونن ذلك أشدّ إمعاناً بنا فى سبيل الخير لنرى الخير . وسواء علينا بعد ذلك اختارنا الله إليه أقوياء عاملين مجاهدين ، أم رُددنا إلى أرذل العمر لكيلا نعلم من بعد علم شيئاً . فليس مقياس الحياة عدد السنين التى يقضى المرء فيها ، وإنما مقياسها ما يقوم به الإنسان فيها من أعمال باقيات صالحات . والذين يُتَوَفَّوْن فى سبيل الله أحياء عند ربهم ، وهم أحياء بيننا بذكرهم . وكم من أسماء باقية على مرّ الدهور والقرون لأن أصحابها وهبوا أنفسهم ومجهوداتهم للخير ؛ فهم بيننا معشرَ الأحياء وإن كان الله قد اختارهم إليه منذ مئات السنين .

(فإِذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) . هذا هو الحق ،

(١) سورة الجمعة الآيات من ٥ إلى ٧ .

(٢) سورة الأنعام آية ٦٠ .

وهو وحده الذى يتفق مع سنَّة الكون . فللإنسان أجلٌ لا يعدوه ، كما أن للشمس وللقمر مواقيت للكسوف والخسوف لا تتغير ، لا تستقدم ولا تستأخر . وهذا الأجل المحتوم أدعى إلى أن يسارع الإنسان إلى الخيرات ، وأن يعمل صالحاً ، وأن يبذل فى ذلك كل جهده ؛ فهو لا يدرى متى تكون منيَّته ، فإذا جاءت فجزاؤه ما قدَّم . وإن أمامنا كل يوم لدليلاً على أن الأجل قَدَرٌ لا مفرّ منه ، فمن الناس من يأتيه الموت فجأة ولا يعرف أحد له مرضاً . ومنهم المريض الذى يكافح مرضه ويئن من أهواله عشرات السنين حتى يُردّ إلى أرذل العمر . وطائفة من الأطباء اليوم يقولون إن الإنسان يولد وفى تكوينه جرثومة انتهاء حياته ، وإن الأمد الذى تعمل فيه هذه الجرثومة لِتبلغ غايتها يمكن معرفته لو استطعنا معرفة الجرثومة نفسها . ومعرفة هذه الجرثومة ليس بالأمر المستطاع ، فهى قد تكون مادية فى الجسم كامنة فى عضو من أعضائه الرئيسية أو غير الرئيسية ، وقد تكون معنوية فى التفكير متصلة بتلافيف المخ تدفع صاحبها إلى المغامرة وإلى المخاطرة ، أو إلى الشجاعة والإقدام . والله الذى أحاط بكل شىء علماً ، عنده علم الساعة التى تحين فيها منية كل إنسان بحكم سنَّة الكون التى لا تحويل لها ولا تبديل .

رسل الله من أبناء الشعب

ومن آيات رحمته جلّ شأنه أنه لا يعذّب حتى يبعث رسولا يهدى الناس إلى الحق ويبين لهم سبيل الخير ، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابَّة ، لكنه يؤخّرهم إلى أجل مسمًّى ليسمعوا إلى الرسل فيتَّبعوا الهدى ولا تغرّهم الحياة الدنيا بزخرفها . . ولم يبعث الله رسله من الملوك ولا من الأغنياء وذوى الجاه ولا من العلماء ؛ وإنما بعثهم من أبناء الشعب . فإبراهيم نجَّار وأبوه نجَّار . وعيسى نجَّار الناصرة .وغير واحد من الأنبياء كانوا رُعاة غنم ؛ ومن هؤلاء خاتمهم عليه الصلاة والسلام . وإنما يبعث الله رسله من أبناء الشعب ليدلّ عباده على أن الحقيقة ليست فى ملك الأغنياء ولا الأقوياء بل هى فى ملك من يبتغى الحق لوجه الحق وحده . والحقيقة الأزلية الخالدة أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ؛ وقل اعملوا فسيرى

الله عملكم ولا تُجْزَوْن إلا ما كنتم تكسبون . والحقيقة الكبرى أن الله حق ، لا إله إلا هو .

الموت خاتمة حياة وبدء حياة ؛ خاتمة الحياة الدنيا وبدء الحياة الآخرة . ولسنا نعلم من أمر الحياة الدنيا إلا قليلا . لسنا نعلم إلا ما تتصل به حواسّنا ، وترشدنا إليه عقولنا ، وتكشف لنا عنه قلوبنا . أمَّا الحياة الآخرة فلا علم لنا من أمرها إلا ما علَّمنا الله منه . وسنن الكون فيها غَيْبٌ علينا ، علمُه عند عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . فحسبُنا ما ذكر الله فى كتابه العزيز من أمرها وأنها دار الجزاء ، ولنُعِدّ أنفسنا فى الدار الدنيا بعملنا وبعزمنا أمورنا وبتوكلنا بعد ذلك على الله لهذا الجزاء العدل ؛ فأمَّا ما وراء ذلك فأمره لله وحده .

أفيرى الذين يلفون لفّ واشنطون إيرفنج من المستشرقين وغير المستشرقين مبلغ خَطَئهم فى تصوير الجبرية الإسلامية ؟ إننا لم نثبت هنا شيئاً غير ما ورد فى القرآن الكريم ؛ لأننا لا نريد أن نضع الأمر موضع مجادلة فى آراء المتكلمين والمتصوّفة وغيرهم من فِرَق المسلمين وفلاسفتهم . وإيرفنج أبلغ خطأ حين يزعم أن القضاء والقدر وكتاب الأجل إنما نزل ما نزل من القرآن فيه بعد غزوة أحُد ومقتل حمزة سيّد الشهداء فيها . فمن الآيات التى اقتبسنا هنا آيات مكية نزلت قبل الهجرة وقبل أن تبدأ غزوات المسلمين . وإنما يقع إيرفِنج ومن على شاكلته فى هذا الخطأ لأنهم لا يُعَنُّون أنفسهم ببحث مسألة هذا مبلغ خطرها بحثاً علميًّا دقيقاً ، بل يصوّرون لأنفسهم عن الإسلام الفكرة التى تتفق مع ميولهم المسيحية ثم يلفقون لها الدليل بما تهوى أنفسهم ، ظنًّا منهم أن دليلهم يُقنع قرّاءهم ثم لا يفنّده بعدهم أحد .

الفكرة الفلسفية فى الجبرية الإسلامية

ولو أدرك المستشرقون الجبرية الإسلامية على نحو ما صوَّرناها هنا لقدّروا فكرتها الفلسفية البالغة غاية السموّ ، العميقة غاية العمق ، والتى تصوّر الحياة تصويراً يصف أدق النظريات العلمية والفلسفيّة التى وصل إليها التفكير فى مختلف عصوره ، وما ناله فيها من تطوُّر وتقدُّم . وهذه الفكرة الفلسفيَّة الإسلامية فكرة توفيقية لا تضيق بالجبرية العلمية ، ولا بالعالم كإرادة وتمثّل ، ولا بالتطور

المنشئ[١] ، بل هى تُسلك هذه المذاهب جميعاً فى نظامها على أنها بعض سنن الكون والحياة . ولئن لم يتَّسع المقام هنا لبسط هذه الصورة لأحاولنّ مع ذلك إيجازها بكل ما أستطيع من دقة ووضوح . وأحسب الذين يتلون ما أكتب يوافقوننى على أن سموّ الفكرة وانفساح مداها وعمقها قد بلغ الغاية من كلِ ما نعرف من نظريات حتى اليوم ، وأنها تفسح الطريق إلى ما قد يسمو إليه الفكر الإنسانى من بعد .

وأريد قبل أن أبدأ هذا الإيضاح الوجيز أن أثبت هنا ملاحظتين أرجو ألاّ ينساهما فى هذا المقام أحد : أولاهما أننى لا أقصد من ذلك إلى معارضة نظرية مسيحية . فما جاء به عيسى قد أقرّه الإسلام كما ذكرت غير مرة فى غضون هذا الكتاب . وإنما جاء الإسلام جامعاً ومتوّجاً للنبوّات والرسالات التى سبقته . ولقد أثبتت الأناجيل قول المسيح لأصحابه : « ماجئت لأنقض الناموس ولكن جئت لأكمله » . كذلك أثبت القرآن إيمان المسلمين بإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين من قبل . وإنما جاء الإسلام مكملاً لما أرسلهم الله به ، مصححاً لما حدث من تحريف أتباعهم الكلم عن مواضعه والثانية أن المذهب الفلسفى الإسلامى الذى استنبطته من القرآن قد سبقنى إليه غيرى ، ولكن على نحو غير النحو الذى أقرره اليوم ؛ وإنما اهتديت فى هذا النحو بهدى القرآن ونهجت فيه نهج الطريقة العلمية الحديثة . فإن وفَّقنى الله للصواب فله جل شأنه الفضل والمنة . وإن جفانى التوفيق فى شىء منه كان من أكبر التحدث بنعمة الله أن يهدينى أولو العلم إلى ما جفانى التوفيق فيه .

وأوّل ما يقرّره القرآن أن لله فى الكون سنناً ثابتة لا تحويل لها ولا تبديل . والكون ليس أرضنا وما عليها وكفى ، ولا هو محصور فيما يقع عليه حسّنا من كواكب وأفلاك ، وإنما الكون مجموع ما خلق الله من محسوس وغير محسوس ، حاضر وغيب . وحسبك أن تتصورّ هذا لتدرك حقًّا أننا لم نؤتَ من العلم إلا

(١) الجبرية العلمية ، والعالم كإرادة وتمثل ، والتطور المنشئ ، مذاهب فلسفية غربية يقول بأولها الفلاسفة الواقعيون (Positivistes)، ويقول شوبنهور بالثانى ، ويقول برجسن بالثالث ، ولا يتسع المقام لشرحها .

قليلا . فهذا الأثير بيننا وبين الكواكب ، وهذه الكهربا التى تملأ الأثير وتملأ أرضنا ، وهذه الأبعاد الشاسعة التى تفصل بيننا وبين الشمس وما هو أبعد من الشمس من أفلاك . وما وراء الأفلاك التى تبعد عن الشمس بألوف السنين الضوئية ؛ ثم ما وراء ذلك من لا نهايات لا سبيل لخيالنا أن يحيط بها وعند الله علمها – هذا كله يجرى على سنَّة ثابتة لا تتغير . وما نعرفه من هذا كله معرفة علمية ، على حدّ تعبيرنا اليوم ، قليل يختلط فيه الخيال بالواقع ، ثم يتضاءل الواقع إلى جانب الخيال حتى يبلغ غاية الضآلة ، ثم يبقى هذا الواقع مع ذلك غاية ما نعلم وما نقيم عليه أقيستنا وما نقرّر على ضوئه ما نسميه سنن الكون والحياة . ولو أننا أردنا أن نطلق للخيال عنانه لنتصوّر ضآلة هذا الذى نعرف لانفسح أمامنا مجال الأمثال بما يضيق عنه هذا المقام . افترض مثلاً أن أهل المرّيخ أقاموا عندهم « مذيعاً » قوّته مائة مليون كيلوات ليسمعونا أهلَ الأرض ما يدور عندهم وليُرُونا إياه من طريق (التليفيزيون) أتُرانا بعد ذلك نستطيع أن نمسك علينا عقولنا ؟ والمرّيخ ليس أبعد الكواكب عنا ولا أشدّها ازوراراً عن الاتصال بنا .

وهذا الكون الذى لم نؤتَ من علمه إلا قليلا يؤثّر كلٌّ ما فيه فى وجود أرضنا وما عليها . فلو أنّ واحداً من هذه الأفلاك اختلف بقَدَرٍ من الله مداره ، لتغيَّرت سنَّة الكون ، ولتغيرت لذلك حياتنا القصيرة الضئيلة المتأثرة بكل ما حولنا ، وبأتفه ما حولنا . وهى أكثر تأثراً وخضوعاً بطبيعة الكون لعظائم ما فى الكون وجلائله . وهى فى تأثرها ذاك قد تسلك سبيل الخير وقد تنحرف عنها . وهى فى سلوكها هذه السبيل وفى انحرافها عنها لا تندفع فى هذه أو تلك من الناحيتين بحكم ما يؤثر فيها من عوامل الحياة وحده ، بل بحكم استعدادها كذلك لتلقّى آثار الحياة ، وسلطانِها على ذاتها فى تلقى هذه الآثار . ورب عامل معيَّن أثر فى نفوس كثيرين آثاراً مختلفة ، فاندفعت كل واحدة منها إلى ناحية ، كانت إحداها الفيصل بين الخير والشر ، ثم كانت سائرها درجاتٍ نحو الخير ودرجات نحو الشر .

الخير والشر

فما فى الحياة من خير أو شرّ إنما هو أثر لما يقع بين عوامل الحياة والنفس الإنسانية من تفاعل . ومن ثمّ كان الخير والشر بعض ما فى الكون من آثار

سننه الثابتة ، وكانا لذلك من مستلزمات وجوده ، كما أن السالب والموجب من مستلزمات وجود الكهربا ، وكما أن وجود بعض المكروبات من مستلزمات الحياة لجسم الإنسان .

وليس شيء شرًّا لذاته ولا خيراً لذاته ، بل للغاية التى يوجَّه إليها ، وللأثر الذى يترتب عليه . فما يكون شرًّا أحياناً يكون ضرورة ملحَّة وخيراً محضاً أحياناً أخرى . ومن المدمِّرات التى تستعمل فى الحروب لإهلاك ملايين بنى الإنسان وتخريب أبدع ما أقام الناس من الآثار ما له أيام السلم أكبر الفائدة . فلولا الديناميت لتعذَّر شق الأنفاق ومدّ السكك الحديدية خلالَها ؛ ولتعذَّر الكشف عن المناجم التى تحتوى أثمن الكنوز وأنفس الأحجار والمعادن . والغازات الخانقة التى يُلقِى المحاربون قذائفها على الوادعين من أبناء الأمة التى تحاربهم ، والتى تعتبر لذلك عاراً وشناراً على الإنسانية ومظهراً من مظاهر وحشيتها وجبنها ؛ هذه الغازات تصلح فى السلم لأغراض نافعة أعظم النفع ، منقذة للإنسانية من كثير من الأمراض المعدية وأهوالها . فمن هذه الغازات ما تنقى به المياه من المكروبات الضارَّة كغاز الكلور ، ومنها ما يصلح فى حياة السفن إذ يقتل بعضه الجرذان فيها ، ويدلّ بعضه على مواطن الغازات الأخرى التى تعرّض حياة الملاّحين للخطر .

وقديماً خُيِّل إلى الناس أن من الحشرات والطيور والحيوان ما لا فائدة البتة من وجوده ، ثم تبين لهم بعد البحث والدرس ما لهذه الحشرات والطيور والحيوان من فائدة للإنسان ، حتى لقد صدرت فى ممالك مختلفة قوانين تحمى هذه الخلائق من القتل أو الصيد تقديراً لخيرها للإنسانية . والذين درسوا هذه الخلائق قد لاحظوا أنها أشدّ حرصاً على مسالمة الحياة المحيطة بها فى حدود الاحتفاظ بوجودها كى تقوم بقسطها من الخير الذى فُطِرت على القيام به ، وأنها لا تؤذى إلا دفاعاً عن نفسها حين يهاجمها مهاجم أو يُغريها مُغْر بالأذى .

أعمال بنى الإنسانية

وأعمالنا نحن بنى الإنسان ليست خيراً كذلك لذاتها ولا شرًّا لذاتها ، بل للغاية التى توجَّه إليها والأثر الذى يترتب عليها . أليس القتل إثماً محرَّماً ! لكن

الله مع ذلك إذ يحرِّم القتل يقول : (ولا تقتلوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ الله إلاَّ بالحَق) . والقتل بالحق لا إثم فيه . (وَلكمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاة يَا أُولِى الأَلْبَاب) . والجلاّد الذى يقتل مجرماً حكم عليه بالقتل ، والرجل الذى يقتل نفساً دفاعاً عن نفسه ، والجندى الذى يقتل دفاعاً عن وطنه ، والمؤمن الذى يقتل حتى لا يفتِنه أحد عن دينه ، هؤلاء جميعاً لا يرتكبون إثماً ولا معصية حين يقتلون . هم إنما يؤدّون لله حقًّا فرضه الله عليهم ولهم عنه جزاء المحسنين . وما يقال فى القتل يقال كذلك فى غيره من الأعمال المتداولة بين الخير والشر . فالعالم الذى يكتشف بعض المدمرات للدفاع عن وطنه أو لما تفيد هذه المدمرات العالم حين السلم ، وصانع الأسلحة وكل عامل وكل إنسان على الأرض ، إنما يعمل الخير أو يرتكب المعصية حسب الوجهة التى يولى وجهه شطرها والأثر الذى يترتب على عمله .

هذه إرادة الله وهى سنَّته فى الكون ، ولمَّا كان الله قد خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات فى الاستعداد لإدراك هذه السنَّة ، فجعل منهم من يحصرون كل نشاطهم فى البقعة التى ينشأون فيها وهى تثميرها والقيام عليها ، ووهب آخرين موهبة الصناعة ، وجعل لغير هؤلاء وأولئك من المواهب فى الأعمال والفنون والعلوم ما لا يتيسَّر لهم معه الاهتداء إلى هذه السنَّة ، ولمَّا كانت معرفتها أساسية للإنسان كى يهتدى فى الحياة ، فقد وهب لأفراد موهبة النبوَّة واصطفى آخرين لرسالاته ليبينوا لنا الخير والشر ، ووهب لآخرين مواهب العلم والمنطق ليكونوا ورثة الأنبياء فيهدونا إلى ما يجب علينا أن نعمله وما يجب علينا أن نتجنبه ، وركَّب فينا قوى العقل والعاطفة لندرك ما يُلْقَى إلينا من التعاليم ، فنروض أنفسنا برياضتها كى نحسن التوجه فى الحياة إلى الخير وكى نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . فإذا التبس الأمر مع ذلك على بعض الناس فارتكبوا المعصية فجزتهم الجماعة عن معصيتهم ، احتفاظاً بكيانها أن تجنى هذه المعصية عليه ، لم يكن ذلك سَدًّا بينهم وبين التوبة والأوبة إلى الحق . فمن ارتكب الخطيئة أو الإثم بجهالة ثم حاسب نفسه وغيَّر ما بها وعاد إلى الله طائعاً منيباً ، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وتاب عليه . ومن ثم كان للخاطئ والآثم أن يستفيد من عِبَر الأيام

باب التوبة

وأن يطهّر قلبه ، وأن يرجع إلى طريق الحق تائباً فيقبل الله منه ؛ إنه هو التَّواب الرحيم .

هذا التصوير للحياة . يوفِّق ما بين مذاهب فلسفية شتى يحسب أصحابها أن لا سبيل إلى التوفيق بينهما . فهو صريح فى أن الوجود إرادة (إِنَّمَا أَمْرُنا لِشيءٍ إذا أَرَدْناهُ أَن نقولَ لهُ كنْ فيَكون) . والكون يمثل ما يقع عليه الحس وما ينقطع الحس دونه . وللكون سنن ثابتة نستطيع فى حدود علمنا الواقعىّ أن نقف منها على ما يهدينا العقل إليه ، وما يزداد بازدياد مجهودنا للكشف عنه . والخير قِوام الكون . ولكن الشرّ يغالبه فيه ويكاد يتغلَّب عليه أحياناً . ومغالبة الخير للشر هى هذا التطوّر المنشئ الذى خطا بالكون وبالإنسانية خطوات واسعة حتى بلغت من طريقها إلى الكمال ما بلغته اليوم .

التطور الروحى فى الحياة

وأنت ترى أن هذا التصوير ينطوى على فكرة التقدّم إلى الكمال كخير ما عرف التفكير الفلسفى تصويراً من نوعه . يدلّك على ذلك ، فضلا عما سبق تصوير القرآن للتطور الروحى فى الحياة منذ خلق الله الأرض ومن عليها . فقد خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش . أفهذه الأيام الستة من أيامنا على الأرض أم هى أيام يصح فيها قوله تعالى : (وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِما تَعُدون) [1] . ليس هذا محل بحثنا وإن وَجدت فيه نظريَّة التطوّر ، وإنه بعض سنة الله فى الكون ، مجالا للقول فسيحاً . وخلق اللهُ آدم وحواء وقال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . ولم يردّ إبليس عن إبائه أن علَّم الله آدم الأسماء كلها . قال تعالى : (وَيَا آدَمُ اسْكنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنةَ فكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَانهاكُمَا رَبُّكُمَا عنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا ملكَيْن أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وقَاسَمَهُمَا

(١) سورة الحج آية ٤٧ .

إنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلاَّهُمَا بغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سوْآتهما وطَفِقَا يَخْصِفَان عليهما مِنْ وَرَق الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبينٌ . قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرين . قَالَ اهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الأَرْض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفيهَا تَمُوتُونَ ومِنْهَا تُخْرَجُونَ . يا بَنِى آدَمَ قد أنزلنا عليكم لِبَاساً يُوَارى سَوْآتِكُمْ وَريشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ الله لَعَلَّهُمْ يَذَّكرون . يا بنى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوآتِهمَا إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَروْنَهُمْ إنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)[1] . وهبط آدم وحوّاء من الجنة بعضُ ذرّيتهما لبعض عدوٌّ . هبطوا يجاهدون فى الحياة بما وهب لهم الله من قوّة ، وتتعاقب فيها أجيالهم حتى تتم كلمة ربك .

القسوة والتعصب أول الأمر

وكانت القسوة وكان التعصُّب أوّلَ مظهر لحياة الإنسان على الأرض . يقول تعالى : (واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ ابْنَىْ آدَمَ بالْحَقِّ إذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الآخر قال لأَقْتُلَنَّكَ قال إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بباسِطٍ يَدِىَ إلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إنِى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بإثْمى وَإثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِين . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارى سَوْأَةَ أَخِيهِ قال يا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذا الْغُرَاب فَأُوَارىَ سَوْأَةَ أَخى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ . مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كتَبْنَا عَلَى بَنى إسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ

---

(١) سورة الأعراف الآيات من ١٩ – ٢٧ .

فِى الأَرْض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً . وَلَقَـدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالْبَيِّنَاتِ ثم إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْـدَ ذَلِكَ فِى الأَرْض لَمُسْرِفُونَ) .

وظاهرٌ ما فى قتل الأخ أخاه من استئثار وحسد وقسوة طبع وغلظة كبد . لكن الأخ التقىّ الذى يخاف الله لم يرِدْ ، حين قال له أخوه : لأقتلنَّك ، أن يستغفر الله له ، بل قال له : إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وهذه غلبة الطبيعة الإنسانية ومنطق القصاص على السموّ الروحى وجمال العفو .

وكثُر بنو آدم على الأرض وأرسل الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين . لكنهم أصرّوا على ضلالهم ، وبقيت حياتهم الروحية جامدة وقلوبهم مُقفلة . أرسل نوحاً إلى قومه فنادى فيهم : أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فكذّبه قومه وما آمن معه إلا قليل . وتواترت النبوّات بعد نوح ، وتواترت الرسالات بالدعوة إلى الله وحده ؛ فتغلب جمود الناس عليها وقعدت عقولهم دون إدراكها واتخذوا من مظاهر الخلق آلهة . وكلما جاءهم رسول من عند ربهم ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون . لكن جمودهم تزعزع بتواتر الرسالات التى كانت بذوراً صالحة أبطأ نباتها ، غير أنها تركت مع ذلك أثرها . وهل ذهبت كلمة الحق ضياعاً أو هباء فى يوم من الأيام ! . ولئن دفع الغرور الناس لينأوا بجانبهم عنها وليستهزئوا أكثر الأمر بصاحبها لقد كانوا يستعيدونها إذا خلَوا إلى أنفسهم يسألونها عن مبلغ الحق فيها . وكان الذين يدركون ما تنطوى عليه من حق قلةً وكانوا يستكبرون .

كانت مصر على عهد الفراعنة يؤمن كهنتها بالوحدانية ، ويعلِّمون الناس غيرها ويعددون لهم آلهتهم . وإنما دعاهم إلى ذلك حرصهم على الاحتفاظ

---

(١) سورة المائدة الآيات من ٢٧ – ٣٢ .

بسلطانهم على الناس وجاههم فيهم ؛ حتى لقد حاربوا موسى وأخاه هارون حين جاءا يدعوان فرعون إلى الله ويطلبان إليه أن يرسل معهما بنى إسرائيل .

ويذكر القرآن نبأ هؤلاء الأنبياء الذين تعاقبوا على الإنسانية أجيالا طوالاً فظلَّت ممعنة فى الضلال إلا قليلا هدى الله إلى الحق . وفى قصص الأنبياء ظاهرة يقف عندها النظر ، ويحسُن بنا ، لبيانها ، أن نرجع إلى عهد موسى وعيسى وما كان بعدهما من رسالة محمد عليه السلام .

حكم العقل والإيمان بالخوارق

هذه الظاهرة هى الانفصال أو ما يشبهه أول الأمر بين حُكم العقل ومنطقه والإيمان القائم على المعجزات والخوارق . فقد آزر الله كلا من أنبيائه بمعجزة لقومه حتى يصدقوه ، ولم يصدقه مع ذلك منهم إلا قليل . ولم تكفهم عقولهم ومنطقها ليدركوا أن الله خلق كل شيء ، وأنه الملك الحق لا إله إلا هو.

ولمَّا قضى الله أن يبعث موسى من مصر ، خرج منها قبل بعثه خائفاً يترقبُ حتى ورد ماء مدين وتزوّج من أهلها . فلما أذِن الله له أن يعود (. . . نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فى الْبُقْعَةِ المبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمين . وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلمَّا رَآهَا تَهتزُّ كأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يامُوسى أَقْبلْ وَلاَ تَخفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنِين . اسْلُكْ يَدَكَ فى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جنَاحَكَ مِنَ الرَّهْب فَذَانِكَ بُرْهَانَان مِنْ رَبِّك إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوماً فَاسِقِينَ)[1] . ولم يؤمن سَحَرة فرعون بدعوة موسى حتى لَقِفَتْ عصاه ما صنعوا . إذ ذاك أُلْقِيَ السحرة سُجَّداً قالوا : آمنَّا بربِّ هارون وموسى . ومع ذلك ظلَّ بنو إسرائيل فى غيهم حتى قالوا لموسى أرنَا الله جَهْرَةً . ولما قُبِضَ موسى عادوا يذكرون عبادة العجل . وجاءهم أنبياؤهم من بعد موسى يدعونهم إلى الله فقتلوهم بغير حق . فلما عادوا من بعد ذلك إلى ذكر الله انتظروا أن يقوم فيهم نبي يرد إليهم ملْكاً يحكمون به العالم حكماً زمنيًّا .

---

(١) سورة القصص آيات من ٣٠ إلى ٣٢ .

وليس هذا الحادث بالبعيد عنا فى ظلمات التاريخ ؛ فهو لا يرجع إلى أكثر من خمسة وعشرين قرناً . وهو مع ذلك صريح فى الدلالة على غلبة منطق الحس على منطق العقل ، والتصوُّر المادى على التصوّر الروحى ؛ وبعد أن انقضت عليه خمسة قرون أو ستة جاء عيسى يدعو قومه إلى الله يؤيده الله بروح القُدس من عنده . ولما كان عيسى يهوديًّا ، حسِب اليهود أول ما نمى إليهم خبره ، أنه نبيهم المنتظر ليرد إلى أرض المَعَاد ملْكها المضاع ، وكانوا أكثر لهفة على هذا الملك بعد أن طال عليهم حكم الرومان وقسوتهم . على أنهم انتظروا ليتبينوا الحق من أمر عيسى . أفتراه خاطبهم بمنطق العقل وحده ؟ كلا ! بل كانت المعجزة طريقه إلى إقناعهم . ولئن صحت الرواية المسيحية لقد كان تحويله الماء خمراً فى عُرْس « قانا الجليل » أول ما لفت نظر الناس إليه . وبعد ذلك كانت معجزة الأرغفة والسمكات ومعجزات إبراء المرضى وإحياء الموتى هى التى طوّعت له أن يقوم بتعليم الناس من طريق القلب والعاطفة دون أن يكون للعقل ومنطقه الحظ الأوّل فى تعاليمه . لكن هذا الحظ كان مع ذلك أوفر من حظّ مَنْ سبقه من الرسل . كانت تختلط فى تعاليمه دعوة العاطفة إلى الرحمة والمغفرة والمحبة بدعوة عقلية غير مدعومة بالدليل المنطقىّ إلى ملكوت الله . فإذا تسرب الشك إلى النفوس فى أمر هذه الدعوة العقلية أذن الله بمعجزة جديدة تزيد الناس بالمسيح تعلقاً وعليه إقبالاً . وكان من معجزاته إبراء الأبرص والأكمه وإحياء الميت أن بلغت بمن اتَّبعوه فى تعلُّقهم به مدًى بعيداً ، حتى حسبه بعضهم ابن الله ، وحَسب آخرون أنه الله تجسد على الأرض ليفتدى خطايا البشر . وهذا صريح فى الدلالة على أن منطق العقل لم يكن إلى ذلك العهد قد بلغ من النضج ما يجعله وحده قديراً على إدراك الحقيقة العليا فى أمر الخالق جلّ شأنه ، وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد .

العلوم العقلية

فى هذا الزمن الذى جاء فيه موسى وعيسى كانت علوم مصر الفرعونية وفلسفتها وتشريعها قد انتقلت إلى اليونان وإلى رومية ، وغزت بسلطانها وبمنطقها الأفكار ، وأوحت إلى الفلسفة اليونانية وإلى الأدب اليونانى خير ما فيهما .

وكانت يقظة العقل ومنطقه قد نبَّهت الناس إلى أن الخوارق لا تنهض بذاتها دليلاً عقليًّا على شيء . وكان من أثر ذلك أن جعلت الفلسفة اليونانية من جوارها للمسيحية فى مصر وفلسطين والشام ما عدّد مذاهب المسيحية ، على ما أشرنا إليه فى أثناء هذا الكتاب . وقد كتب الله فى سنته أن يكون منطق العقل تاج هذه الحياة الإنسانية ، على ألاّ يكون منطقاً جافياً خالياً من العاطفة ومن الروح ، بل على أن يكون منطقاً توفيقيًّا ، ينتظم العقلَ والعاطفة والروح جميعاً حتى يستطيع اكتناه غاية ما تستطيعه الإنسانية من أسرار الكون . وكذلك كتب الله فى لوح هذا الوجود أن يقوم نبىّ الإسلام داعياً إلى الحق بمنطق العقل تؤازره العاطفة والروح ، وأن تكون معجزة هذا المنطق البالغة فى الكتاب الكريم الذى أوحاه إلى نبيه ، به أكمل الله للناس دينَهم وأتمّ عليهم نعمته ، وبه توّج الرسالات وختَمها . وإنما كان ذلك بعد هذا المجهود العظيم المتصل الذى قام به الأنبياء والرسل ووجَّهوا به الإنسانية فى تطوُّرها الروحى حتى بلغت الدعوة الإسلامية إلى صفاء التوحيد وإلى الإيمان بالله وحده .

ولتكْمل هذه العقيدة أحيط الإيمان بها بما ذكرنا من فرائض فى البحث الأوّل من هذه الخاتمة . وليصل المؤمن إلى الذروة منها يجب أن يدأب للوقوف على سنَّة الله فى الكون دأباً يتصل حتى يبعث الله الأرض ومن عليها . وهذا ما بدأ به المسلمون فى الصدر الأوّل وفى العصر الذى تلاه حتى آن للزمن أن يدور دورته .

هذه الحجج التى قدّمت تُدْحض ما أوّل به المستشرقون الجبريَّة الإسلامية ، وما أوّلوا به ما جاء فى القرآن عن القضاء والقدر وكتاب الأجل . وهى تُثبت بوجه لا يحتمل أىّ ريب ، أن الإسلام دين سعى وكفاح وجهاد فى نواحى الحياة الروحية والعلمية والدينية والدنيوية جميعاً ، وأن الله كتب فى سنَّة الكون أن الإنسان إنما يُجزَى بعمله ، وأنه جلّ شأنه لا يظلم أحداً ولكن الناس أنفسَهم يظلمون . وهم يظلمون أنفسهم حين يظنون أنهم يصلون إلى رضا الله بالقعود والتواكل باسم التوكل على الله .

المال والبنون والباقيات الصالحات

ومع أن هذه الحجج دامغة فى الغرض الذى سقتها له ، فإننى لا أستطيع

أن أغفل حجة أخيرة أعتبرها بالغة ؛ تلك هي الحجة المستفادة من قوله تعالى :
(المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً) [1] .

فليس شيء فى الحياة يحفزنا للعمل والسعى كما يحفزنا كسب الرزق وطلب المال . ففى سبيل الله ينفق الأكثرون من الناس أعظم الجهد ويقومون بما يفوق الطاقة أحياناً . ونظرةٌ يلقيها الإنسان على عالمنا الحاضر تنبئ عما يهتز به هذا العالم من دأب ومشقة ، ومن سلم وحرب ، ومن ثورات واضطرابات ، فى سبيل المال . فى سبيله تُقلب الملوكيات جمهوريات ، وفى سبيله تُراق الدماء وتزهق الأنفس والبنون ! أفلاذ أكبادنا التى تمشى على الأرض ، أيّة مشقة لا نحتملها من أجلهم ! وأىّ مُرّ لا يحلو مذاقه ما دام يؤدى إلى طمأنينتهم وإلى كفالة رخائهم ومجدهم !! كل عسير يصبح فى جانب سعادتهم يسيراً ، وكل صعب يصبح فى سبيل رضاهم سهلا . بل إن من الناس من يستهين فى سبيل المال والبنين بما يحسبه مستحيلا عليه لولا المال والبنون . ومن الناس من يُبالغ فى ذلك ليُضحى فى سبيله بهناءته ، بل بحياته .

ومع ذلك فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا . وليست الزينة شيئاً إلى جانب الجوهر . ولا يضحِّى بالجوهر فى سبيل الزينة إلا الجهلاء والحمق : إلا المرأة التى تستهين بصحتها لتظهر جميلة سويعة أو سويعات من زمان ، وإلا الشابّ المغرور الذى يضحى بعقله وبكرامته وسط صحب يسخرون منه حين يحسب أنه سيدهم لأنه يبعثر بينهم ماله ، وإلا أمثال هؤلاء من المأفونين الذين يخدعهم المظهر عن الحقيقة ، واليومُ عن الغد . والذين يسعون لزينة الحياة من مال وبنين وينسون ما سواهما ليسوا أقل من هؤلاء أفْناً وحمقاً . فالمال والبنون زينة . أمَّا جوهر الحياة فالباقيات الصالحات من أعمال الخير . ولهذه الباقيات الصالحات يجب أن نبذل من السعى والجهد أكثر مما نبذل لزينة الحياة من مال وبنين .

أرأيت سمو الغاية التى تصوّرها هذه الآية من الذكر الحكيم ؟ فأنت إذا

---

(١) سورة الكهف آية ٤٦ .

بذلت جهودك ودمك فى سبيل الزينة ، وجب أن تبذل روحك وقلبك فى سبيل الجوهر ، ووجب أن تخضع الزينة للجوهر ووجب لذلك أن تجعل كل حياتك وكل مالك وكل بنيك مقصوداً بها هذا الجوهر من الباقيات الصالحات ، فهى خير عند ربك ثواباً وخير أملا .

كيف انقلب تفكير المسلمين

كيف انقلب الأمر فى تفكير المسلمين من هذا المنطق السليم الواضح إلى اعتقادات لا تتفق معه فى شيء ؟ أشرنا إلى ذلك لمَاماً فى البحث الأول من هذه الخاتمة حين أشرنا إلى تبدّل الأمر عند المسلمين بحكم الغُزاة الذين توالوا على الإمبراطورية الإسلامية منذ انتهاء العهد العباسى ، كما أشرنا فى تقديم الطبعة الثانية إلى ما كان من تبدُّل من الشورى فى الصدر الأوَّل إلى ذلك الملك العضوض أيام الأمويين ، فإلى الحق الإلهىِّ أيام العباسيين . وندع الكلمة الآن فى شيء من تفصيل ذلك إلى المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ إذ يقول فى كتاب « الإسلام والنصرانية » ما نصه :

أقوال الشيخ محمد عبده

« كان الإسلام ديناً عربيًّا ، ثم لحقه العلم فصار علماً عربيًّا بعد أن كان يونانيًّا ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيراً له . ظن أن الجيش العربى قد يكون عوناً لخليفة عَلَوىّ ؛ لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم . فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبيًّا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفى سعة أحكام الإسلام ما يبيح له ذلك . هنالك استعجم الإسلام وانقلب عجمياً .

« خليفةٌ عباسىّ أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه . أكثر من ذلك الجند الأجنبى وأقام عليه الرؤساء منه ؛ فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلَّب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدّوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة فى قبضتهم . ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام ، والقلب الذى هذّبه الدين ، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم . لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم . وكثير منهم

كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته . ثم عدا على الإسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولّى أمره . أيّ عدوّ لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرّف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سِيَرهم ! فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم ، أمّا العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة . وحملوا كثيراً من أعوانهم أن ينتظموا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله لِيُعَدُّوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه . ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين . زعموا الدين ناقصاً ليكملوه ، أو مريضاً ليعلِّلوه ، أو متداعياً لِيَدْعَموه ، أو يكاد أن ينقضّ ليقيموه .

« نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه . لكنهم نجحوا فى إقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره . والغوغاء عون القائم ، وهم يد الظالم ؛ فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنُّوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدّم ، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول . ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يُقنع العامة بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فُرِض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ؛ ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرّض لما لا يعنيه ؛ وأن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يُعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات والضعاف ما شدّ أزرهم فى بث هذه الأوهام . وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلِّين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبِّطاً للعزائم ،

وغلاًّ للأيدى عن العمل . والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة فى الدين وموافقة الهوى . أمورٌ إذا اجتمعت أهلكت . فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم ، كما يقال .

« هذه السياسة ، سياسة الظلمة وأهل الأثرة ، هى التى روّجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات . . . فجُلُّ ما تراه الآن مما تسميه إسلاماً فهو ليس بإسلام ، وإنما حفِظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الأقوال قليلاً منها حرِّفت عن معانيها . ووصل الناس بما عرض على دينهم من البِدَع والخرافات إلى الجمود الذى ذكرته وعدّوه ديناً . نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه . فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام وإنما هو شىء آخر سمَّوه إسلاماً » [1] .

مذهب المتأخرين من المسلمين

هذه الحال التى صوّرها الشيخ محمد عبده أدّت إلى ذيوع مبادئ متناقضة نشرها أصحابها على أنها من الإسلام وأنها بعض ما أمر به الله ورسوله . من هذه المبادئ مذهب الجبرية الذى صوّره المتأخرون تصويراً يخالف ما جاء فى القرآن . قد رأيت تصوير القرآن لهذا المذهب فيما سبق . أمّا أولئك المتأخرون فدعوا إلى القعود والاستسلام ، وقالوا إن العيش ليس بالسعى ولا التدبير ، وإنما هو بالرزق وبالتقدير ، دون أن يكون لعمل الإنسان فيه فضل . وهذه جبرية مخطئة أتاحت لبعض أهل الغرب أن يتَّهم الإسلام بها باطلاً من غير حق . ومن هذه المبادئ مذهب ازدراء المادة وعدم الأخذ منها بأىّ نصيب . وهذا مذهب الرواقيين اليونانيين ، وهو مذهب انتشر فى بعض العصور عند طوائف من المسلمين مع مخالفته لقوله تعالى : (ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا) . ومع هذه المخالفة كان لهذا المذهب أدب مترامى الأطراف فى العصر العباسىّ وما بعده ، والقرآن إنما يدعو إلى قصد السبيل ؛ فلا يرضى هذا الحرمان ، كما أنه لا يرضى

(١) الإسلام والنصرانية من صفحة ١٢٢ إلى ١٢٥ .

الإباحية التى زعم إيرفنج أنها غمست المسلمين فى الترف وصرفتهم عن الجهاد ، وهوت بالأمم الإسلامية إلى حيث هى اليوم .

الإسلام والمسيحية وقصد السبيل

ويزعم الكاتب الأمريكى أن المسيحيَّة تدعو إلى الطهر والإيثار على نقيض ما يتقوّله هو على الإسلام . ولست أريد أن أوازن بين الإسلام والمسيحية فى هذه المسألة ، لأنهما فيها متفقان غير مختلفين . وكثيراً ما تجرّ الموازنة إلى جدل وتنابز لا خير للمسيحية ولا للإسلام فيه . لكنى ألاحظ ، وأقف عند الملاحظة ، أن بين سيرة عيسى عليه السلام وما ينسب إلى المسيحية ، من دعوة إلى الرواقية والإمعان فى الزهد ، اختلافاً بيناً . فلم يكن المسيح رِواقيًّا ؛ بل كانت أولى معجزاته أن أحال الماء خمراً فى عرس « قانا الجليل » حيث كان مدعوًّا ، وحيث أراد ألا يُحْرَمَ الناس الخمرَ بعد نفادها . وهو لم يكن يأبى دعوة الفريسيين إلى مآدبهم الفخمة ولا كان يأبى على الناس أن يستمتعوا بأنعُم الله . وسيرة محمد فى ذلك أشدّ إمعاناً فى قصد السبيل . صحيح أن عيسى كان يدعو الأغنياء إلى البرّ بالفقراء ومحبتهم من غير مَنّ . والقرآن فى هذا وفى الدعوة إليه أبلغ ما عرف البشر . وقد تلا القارئ من ذلك عند الكلام عن الزكاة وعن الصدقة ، ما يغنينا عن معاودة القول فيه .

وحسبُنا ردًّا على إيرفنج وأمثاله أن القرآن دعا إلى قصد السبيل فى كل شىء .

من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ

بقيت العبارة الأخيرة من كلام إيرفنج : هذه العبارة التى يعيرنا الغرب بمثلها على حين هى عار الغرب ووصمته وجرثومة القضاء على كبريائه وعلى حضارته . يقول إيرفنج : « إن بقاء الهلال حتى اليوم فى أوربا ، حيث كان يوماً مَّا بالغاً غاية القوّة ، إنما يرجع إلى اختيار الدول المسيحية الكبرى ، أو يرجع بالأحرى إلى تنافسها . ولعل الهلال باق ليكون دليلاً جديداً على أن . « مَنْ أخَذَ بالسيف فبالسيف يُؤْخَذ » .

« من أخَذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » ، هذه آية الإنجيل يوجهها إيرفنج باسم المسيحية إلى الإسلام . يا عجباً ! لعل لإيرفنج من العذر أنه قالها منذ قرن مضى حيث لم يكن الاستعمار الغربىّ فى تعبيرنا ، المسيحى فى تعبيره ، قد بلغ من الشره والجشع ومن الأخذ بالسيف ما بلغ اليوم . ولكن الماريشال أللّنْبى ،

الذى استولى على بيت المقدس فى سنة ١٩١٨ باسم الحلفاء ، قد قال مثل هذه العبارة إذ نادى عند هيكل سليمان : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » . وقال الدكتور بيترسن سميث فى كتابه عن سيرة المسيح : « إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها » . ولقد يكون من الحق أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين ، وإنما نجح بمجهود اليهود الذين سخَّروهم ليحققوا حلم إسرائيل القديم فيجعلوا أرض المعاد وطناً قوميًّا لليهود .

الإسلام لم يأخذ بالسيف

« من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » . لئن صدقت كلمة الإنجيل هذه على قوم لهى أشدّ ما تكون صدقاً اليوم على أوربا المسيحية . أما الإسلام فلم يأخذ بالسيف ، ولن يؤخذ لذلك بالسيف . وأوربا المسيحية قد أخذت بالسيف فى العصر الأخير إمعاناً فى الإباحية والترف مما ينسبه إيرفنج باطلاً للإسلام والمسلمين . أوربا المسيحية تقوم اليوم بالدور الذى قام به المغول والتتار حين اتشحوا ظاهراً برداء الإسلام ثم فتحوا الممالك دون أن يبعثوا بتعاليم الإسلام فيها ، فحقّت عليهم وعلى المسلمين الكلمة ، وكان هذا التدهور والانحلال الذى أصاب الشعوب الإسلامية . وأوربا المسيحية اليوم أقلّ فضلاً من أولئك التتار والمغول . فالممالك التى فتحها هؤلاء سرعان ما دخلت فى الإسلام حين رأت عظمته وبساطته . أمَّا أوربا فلا تغزو لتنشر عقيدة ولا لتدعو إلى حضارة . إنما هى تريد استعماراً ، وتريد أن تجعل من العقيدة المسيحية مطية هذا الاستعمار . لذلك لم تنجح الدعاية التبشيرية الأوربية لأنها دعاية غير مخلصة . وهى لم تنجح ولن تنجح فى الأمم الإسلامية خاصة ؛ لأن عظمة الإسلام وبساطته وأخذه بحكم العقل والعلم لا تجعل لأية دعاية دينية أملاً فى النجاح بين أبنائه .

« منْ أخَذَ بالسيف فبالسيف يؤخذ » . هذا حق . وهو إن انطبق على المتأخرين من المسلمين الذين غزوا ليفتحوا الممالك وليستعمروا لا ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم ، لهو اليوم أشدّ انطباقاً على هذا الغرب الذى يغزو ويفتح ليذلّ الشعوب ويستعمرها . فأمَّا المسلمون الأولون من عهد النبى وخلفائه ومن جاءوا بعدهم فلم يغزوا للفتح والاستعمار ، وإنما غزوا دفاعاً عن عقيدتهم

حين هدّدتها قريش وحين هدّدها العرب ، ثم حين هدّدها الروم وهدّدها الفرس . وهم فى هذا الغزو لم يفرضوا على أحد دينهم ؛ فلا إكراه فى الدين . وهم فى هذا الغزو لم يقصدوا إلى الاستعمار، فقد ترك النبى ملوك العرب وأمراءَها على إماراتهم وممالكهم ؛ إنما أرادوا حرية الدعوة للعقيدة . ولما كانت العقيدة الإسلامية قوية بالحق الذى تنادى به ، قوية بأنها لا تجعل فضلاً لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وبأنها لا تجعل لغير الله على الإنسان سلطاناً ، أسرعت إلى الانتشار فى ربوع الأرض كلها كما تسرع كل حقيقة صادقة إلى الانتشار . فلمّا جاء المتأخرون ممن دخلوا فى الإسلام وغزوا [illegible] وأخذوا بالسيف أُخذوا من بعد ذلك بالسيف . لكن الإسلام لم يأخذ بالسيف [illegible] يؤخذ بالسيف . هو لم يأخذ بالسيف شيئاً قط ، بل استولى على العقول والقلوب والضمائر بقوّة سلطانه . لذلك تعاقبت على أُممه دول حكمتها وقهرتها وتحكمت فيها ؛ فلم يغير ذلك من إسلامها ولا غير من إيمانها . وما تزال أوربا اليوم تحكم الشعوب الإسلامية وتتحكم فيها ، ولن يغير ذلك من إيمانها بالله شيئاً . فأمّا الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فصيرهم ، كى تصدّق عليهم كلمة الإنجيل ، أن يؤخذوا بالسيف جزاءً وفاقا .

ردّ النبى الأمراء إلى إماراتهم والملوك إلى ممالكهم . ولقد كانت بلاد العرب فى آخر عهده عصبة أمم عربية إسلامية ، ولم تكن فيها مستعمرة خاضعة لمكة أو ليثرب . كان العرب يومئذ جميعاً سواسية أمام الله فى إيمانهم المتين به وكانوا جميعاً يداً واحدة على من اعتدى عليهم أو حاول فتنتهم عن دينهم . وظلت الأمم الإسلامية من بعد ذلك وإلى عهد الانحلال عصبة أمم إسلامية ، مقرّ الخليفة فيها هو مقرُّ العصبة . لم تستأثر دار الخلافة بالسلطة الروحية ولا استأثرت بالعلم ونوره ؛ بل كانت كل الأمم الإسلامية لا تعرف سلطة روحية غير أمر الله . وكانت العواصم الإسلامية كلها عواصم للعلم والفن والصناعة ؛ وظلّ ذلك شأنها حتى تغير المسلمون للإسلام ، وأنكروا مبادئه الكريمة ، ونسوا أخوّة المؤمنين ، ونسوا أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه . هنالك غلَبت عليهم الأثرة . وهنالك لعبت السياسة المدمرة أدوارها فصار السيف حكماً . ومن يأخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ . لذلك نهضت أوربا المسيحية منذ القرن

عصبة الأمم الإسلامية

الخامس عشر الميلادى إلى حياة روحية جديدة ، ربما كانت تفيد العالم حقًّا لولا أن أسرع إليها الفساد الذى لم يكن منه بدٌّ بسبب تفرُّق المسيحية شيعاً . على أنها فى فترة النهوض هذه واجهت الأمم الإسلامية التى نسيت الإسلام فأخذتها بالسيف وظلَّت ممعنة فى أخذها به ، ثم جعلته بينها وبين الأمم الإسلامية حَكَماً . ومتى حكم السيف فقل على العقل وعلى العلم وعلى الخير وعلى المحبة وعلى الإيمان بل على الإنسانية نفسها العفاء .

وحكم السيف العالم اليوم هو سبب هذه الأزمة الروحية والنفسية التى يجتازها العالم ويئن من هولها . وقد آمنت الدول التى تحكم العالم بالسيف أثناء الحرب الكبرى الماضية ، أى منذ عشرين سنة ، بهذه الحقيقة فأرادت أن تقرّ حكم السلام فى العالم ، وأقامت عصبة الأمم لتحقيق هذه الغاية . وعهدة هذه العصبة تتلخص كلها فى قوله تعالى : (وإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [١] .

روح السلام فى العالم

لكن روح السلام لم تسد العالم بعدُ ؛ لأن أساس الحضارة الغالبة فيه هو الاستعمار ؛ الاستعمار القائم على أساس القوميات وتنافسها ومحاولة كل دولة قويَّة استغلال الدول الضعيفة . ومن حق كل أمة مغلوبة على أمرها ، بل أوّل واجب عليها أن تعمل لتحطيم نير الغالب . ولذلك كان الاستعمار بذرة الثورة والحرب ونواتهما . فما بقى الاستعمار فلن يكون للسلام الغَلَب ولن تضع الحرب أوزارها إلا ظاهراً ، وستظل الأمم ينظر بعضها إلى بعض نظرة التوجُّس والحذر ، بل نظرة التربُّص للاغتيال . وأنَّى يكون سلام وهذه النفسية باقية ! إنما يكون السلام يوم يغيِّر الناس فى مختلف أمم الأرض ما بأنفسهم ، ويوم يؤمنون بالسلام

(١) سورة الحجرات آيتا ٩ و ١٠ .

إيماناً حقًّا ، ويقيمون على أساسه تعاليمهم ، ويجمعون أمرهم بإخلاص على الوقوف فى وجه كل محاول تعكير صفوه .

وإنما يكون ذلك يوم لا يكون الاستعمار أساس حضارة العالم ، ويوم يرى الناس جميعاً فى مختلف بقاع الأرض أن واجبهم الأوّل أن يُعين قويُّهم ضعيفَهم ، وأن يرحم كبيرهم صغيرهم ، وأن يهذّب عالمهم جاهلهم وأن ينشروا لواء العلم فى نواحى الأرض جميعاً ، حرصاً على أن يسعد الناس به ، لا على أن يُتَّخَذ أداة لاستغلال الشعوب باسم العلم ، وباسم الصناعة التى تستفيد من العلم .

يوم يؤمن العالم كله بهذا المبدأ ، ويوم يشعر الناس جميعاً بأن العالم كله وطن لهم وأنهم جميعاً إخوة يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه — يومئذ يسود بين الناس التسامح وتسود بينهم المودّة ، ويومئذ يتخاطبون بلغة غير التى يتخاطبون اليوم بها ، ويتبادلون الثقة فيما بينهم وإن بعد بينهم المزار ، ويعملون الخير جميعاً لوجه الله ؛ ويومئذ تنتفى الخصومة والبغضاء ، وتعلو كلمة الحق ويسود السلام الوجود كله ، ويرضى الله عن الناس ويرضون عنه .

يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [1] .

السمو فى التسامح أساس السلام

أرأيت فى باب التسامح أفسح من هذا الأفق !! من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، لا فرق بين المؤمنين ومن لم تبلغهم دعوة الإسلام على حقيقتها من غير تشويه من اليهود والنصارى والصابئين [2] .

---

(١) سورة البقرة آية ٦٢ .

(٢) روى الطبرى فى تفسير هذه الآية : أن الذين آمنوا هم الذين صدقوا رسول الله ، والذين هادوا هم اليهود ، وإنما سموا اليهود من قولهم إنا هدنا إليك أى تبنا . والنصارى هم أتباع عيسى ؛ وتسميتهم النصارى هى فى قول نسبة إلى الناصرة وهى القرية التى ولد بها عيسى بفلسطين وفى قول آخر لقول عيسى من أنصارى إلى الله ، فسمى أنصاره نصارى . والصابئون هم فى رأى : الذين يعبدون الملائكة . آخر : قوم يقولون لا إله إلا الله وليس لهم كتاب ولا نبى ولا عمل إلا قول لا إله إلا الله . ثالث : أن الصابئين لا دين لهم . وفسر ابن جرير الآية بأنه تعالى يعنى بقوله (من آمن بالله واليوم

ويقول جل شأنه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [1] .

أين هذا مما يسود العالم اليوم باسم الحضارة الغربية ، من تعصب للقومية وللدين وما يجرّه هذا التعصب من حروب وكوارث !

هذا الروح السامى فى تسامحه هو الذى يجب أن يسود العالم إذا أريد أن تستقر فى العالم كلمة السلام ليسعد الناس به . وهذا الروح هو الذى يجعل كل دراسة لحياة من أوحى الله هذا الكلام إليه ، دراسة علمية خالصة لوجه العلم وحده ، جديرةً بأن تجلو أمام العلم من المسائل النفسية والروحية ما يهدى الإنسانية طريقها إلى الحضارة الجديدة التى تلتمسها . وكل تعمق فى هذه الدراسة يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل إلى تعليلها تعليلا علمياً ، ثم إذا مباحث علم النفس تفسرها وتجلوها واضحة للمتعقلين . فحياة محمد ، كما رأيت ، حياة إنسانية بلغت من السموّ غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ ، وكانت

حياة محمد وسموها

= من صدق وأقر بالبعث بعد الممات يوم القيامة وعمل صالحاً فأطاع الله فلهم أجرهم عند ربهم ، أى فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم . وأما قوله ، (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فإنه يعنى بهجل ذكره ، لاخوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وعيشها عند معاينتهم ما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده . وقد أورد بن جرير بعد ذلك أن هذه الآية نزلت فى نصارى هدوا سلمان الفارسى إلى دينهم وذكر له أحدهم أن نبياً سيظهر فى بلاد العرب ودله على أمارات نبوته ونصح له أن يتبعه إن لحقه . فلما أسلم سلمان وذكر للنبى أمر هؤلاء النصارى قال له النبى : هم يا سلمان من أهل النار ، فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية : (إن الذين آمنوا والذين هادوا) إلخ . وفى رأى : أن الله نسخ هذه الآية بقوله : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) . لكن ابن جرير يضيف : إن الذى قلنا من التأويل الأول أشبه بظاهر التنزيل لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان بعض خلقه دون بعض منهم . والخبر بقوله من آمن بالله واليوم الآخر عن جميع ما ذكر فى أول الآية . وربما أمكن القول تأييداً لرأى ابن جرير فى تأويل الآية : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) أنها إنما تنصرف إلى المسلمين الذين يبتغون غير الإسلام ديناً بعد أن ولدوا فى الإسلام أو آمنوا به . فأما من ولد غير مسلم ، ولم تبلغه رسالة الدعوة الإسلامية على حقيقتها من غير تشويه ، فشأنه شأن الذين سبقوا رسالة محمد أو عاصروه ولم يعرفوا رسالته على حقيقتها (راجع تفسير الطبرى الجزء الأول صفحة ٢٥٣ إلى ٢٥٧) .

(١) سورة آل عمران آية ١٩٩

لذلك أسوة حسنة لمن هداه القدر أن يحاول بلوغ الكمال الإنسانى من طريق الإيمان والعمل الصالح . أىّ سموّ فى الحياة كهذا السموّ الذى جعل حياة محمد قبل الرسالة مضرب المثل فى الصدق والكرامة والأمانة ، كما كانت بعد الرسالة كلها التضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به ، تضحية استهدفت حياته من جرائها للموت مرّات ، فلم يصده عنه أن أغراه قومه ، وهو فى الذروة منهم حسباً ونسباً ، بالمال وبالملك وبكل المغريات !

بلغت هذه الحياة الإنسانية من السموّ ومن القوّة ما لم تبلغه حياة غيرها ، وبلغت هذا السموّ فى نواحى الحياة جميعاً . فما بالك بحياة إنسانية اتصلت بحياة الكون من أزله إلى أبده ، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفرة ! ولولا هذا الاتصال ، ولولا صدق محمد فى تبليغ رسالة ربه ، لرأينا الحياة على كر الدهور تنفى مما قال شيئاً . لكن ألفاً وثلثمائة وخمسين سنة انقضت وما يزال بلاغ محمد عن ربه آية الحق والهدى . وبحسبنا على ذلك مثلا واحداً نضربه : ذلك ما أوحى الله إلى محمد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين . انقضت أربعة عشر قرناً لم يقل أحد خلالها إنه نبيٌّ أو إنه رسول رب العالمين فصدّقه الناس. قام فى العالم أثناء هذه القرون رجال تسنّموا ذروة العظمة فى غير ناحية من نواحى الحياة فلم توهب لأحدهم هبة النبوّة والرسالة . ومن قبل محمد كانت النبوّات تتواتر والرسل يتتابعون فيُنذر كلٌّ قومه أنهم ضلّوا ويردّهم إلى الدين الحق ، ولا يقول أحدهم إنه أرسل للناس كافة أو إنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، أمّا محمد فيقولها فتصدّق القرون كلامه . ما كان حديثاً يُفتَرَى ولكن تصديق الذى بين يديه وهدى ورحمة للعالمين .

وغاية ما أرجو أن أكون قد وُفقت لما قصدت إليه من هذا البحث ، وأن أكون قد مهّدت به السبيل إلى مباحث فى موضوعه أكثر استفاضة وعمقاً . ولقد بذلت من الجهد فى ذلك ما وسعته طاقتى وما يسّره الله لى . ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا

أَو أَخْطَأْنا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كمَا حمَلْتَه عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنا فانْصُرْنا عَلَى القَوْمِ الْكافِرينَ) [١] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

تقدير وشكر

نوهت ، فى آخر الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، بما بذله لى المغفور له محمد طلعت حرب باشا ، وكان يومئذ مدير بنك مصر وشركاته ، من مختلف صور العون ، فكان له فضل معاونتى أكبر المعاونة فى الإسراع إلى إصدار الكتاب وفى أن أجعل من نسخ تلك الطبعة العشرة الآلاف ألفاً للجمعية الخيرية الإسلامية . ونوَّهت كذلك بتأنُّق المرحوم محمود بك خاطر مدير مطبعة مصر يومئذ تأنقاً أظهر الكتاب لقرَّائه فى خير ثوب له . وذكرت معاونة المرحوم الأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بدار الكتب فى تصحيح الكتاب وضبط الأعلام والآيات فيه ، كما ذكرت ما للأستاتذة الخطاطين محمد حسنى ، وسيد إبراهيم ، والمرحوم مصطفى بك غزلان من فضل فى تنسيق صحفه الأولى ، وما للأساتذة إبراهيم الأبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى والشيخ أحمد عبد العليم البردونى ، وعلى أحمد الشهداوى ، المصححين بدار الكتب ، من مجهود فى وضع فهارسه . وأشرت إلى الأستاذ على فودة الذى كان عونى وعون الأستاذ عبد الرحيم محمود فى التصحيح . واعتذرت لسائر من عاونونى عن عدم ذكر أسمائهم مخافة أن يجنى النسيان على بعضهم ، وكررت الشكر لهؤلاء جميعاً حين صدرت الطبعة الثانية .

وقد تواتر العون منذ ظهور الطبعة الأولى إلى أن تمت الطبعة الثانية من كثيرين لا أنسى لهم فضلهم . فقد تفضل الأستاذ الشيخ أحمد مصطفى المراغى وكان يومئذ مدرساً بكلية اللغة العربية بالأزهر ، فراجع الكتاب فى نسخته الخاصة وبعث بها إلىَّ وعلى هوامشها بعض ملاحظات لغوية أخذت بالكثير منها فى الطبعة الثانية . كذلك أرسل إلىَّ غير واحد مثل هذه الملاحظات ، فأعرتها ما هى جديرة به من العناية . وأرسل إلىَّ بعض الأصدقاء مؤلفات لهم راجعتها ، واستعنت بها . من ذلك كتاب صديقى الفلسطينى الأستاذ إسعاف النشاشيبى (الإسلام الصحيح) . ومنها كتابان للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ،

أحدهما (مفتاح كنوز السنة) الذى ترجمه عن المستشرق فنسنك ثم أكمله ، والآخر (تفصيل آيات القرآن الحكيم) الذى وضعه على نظام المستشرق چول لابوم . وهذا الكتاب الأخير جم الفائدة لكل من أراد الرجوع إلى القرآن فى مباحثه ؛ فهو يجمع ما جاء فى الكتاب فى كل موضوع جمعاً دقيقاً نظامه غاية الدقة . وقد رجعت فيما خلا ذلك إلى كتب أخرى أضفتها إلى سجل المراجع .

ومنذ بدأت الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب رأيت رجال الدار جميعاً يبدون من العناية بالكتاب ما لا يبدى إنسان أكثر منه لو أن الكتاب كان كتابه . كان ذلك شأن مدير الدار يومئذ الأستاذ محمد (بك) أسعد برّاده ، ومدير المطبعة الأستاذ محمد نديم ، وشأن القسم الأدبى كله بدار الكتب برياسة المرحوم الأستاذ أحمد زكى العدوى . وكم من مرة شاركنى رجال هذا القسم الأدبى فى تحقيق بعض مسائل اختلفت عليها كتب الحديث وكتب السيرة ، كى تصل إلى غاية ما يستطاع من الدقة والضبط وكم من مرة اشتركنا فى تحقيق لفظ من الألفاظ ، أو تركيب من التراكيب من حيث اللغة وعلومها ، لتنقى كل دخيل على الكتاب ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . والقسم الأدبى هو الذى وضع من هوامش الكتاب التنبيه إلى مواضع الآيات من سور القرآن ، وشرح بعض الألفاظ اللغوية التى رآها فى حاجة إلى الشرح .

وقد تفضل المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فاطلع على ما جدّ فى الطبعة الثانية من فصول .

أما العناية بالطبع وإخراج الكتاب لقرائه على ما رأوه من دقة وتأنق فيرجع فضلها إلى الأستاذ محمد نديم مدير المطبعة وإلى أعوانه من رجال الفن فى الطباعة . وهم فى ذلك إنما يعملون بقوله عليه السلام : « إن العبدَ إذا عملِ عملاً أحبّ الله أن يُتقنه » .

ورأيت حقًّا علىّ ، عند الطبعة الثالثة ، أن أضاعف الشكر لرجال دار الكتب وللقائمين على مطبعتها . فقد حالت مشاغلى دون الاشتراك فى هذه الطبعة بأكثر من مراجعة التجارب الأخيرة والإذن بالطبع .. فأما ما خلا ذلك من وضع عناوين

الصفحات ومن المزيد فى دقة الضبط ، فالفضل فيه لهم ، ولما بينى وبين رجال الدار جميعاً ، وعلى رأسهم مديرها يومئذ الدكتور منصور فهمى باشا من مودّة صادقة .

لذلك فإن كل شكر أبذله لهم وكل تقدير منى لجميلهم دون مجهودهم قدراً . فليتولَّ الله جزاءهم على حسن صنيعهم . وعنده جلّ شأنه حسن الجزاء .

واليوم ، ولمناسبة هذه الطبعة الرابعة التى طبعت من جديد بمطبعة مصر ، أرى حقًّا علىّ أن أشكر للأستاذ يوسف بهجت مدير المطبعة وللأستاذ محمد إبراهيم عثمان رئيسها ولجميع رجال مطبعة مصر ما بذلوا من همة وعناية ، حتى خرج الكتاب فى هذا الثوب القشيب من الدقة وجمال الطبع وأناقته . كما أشكر للأستاذ أحمد عبد العليم البردونى معاونته الصادقة فى ضبط فهرس هذه الطبعة .

وفى هذه الطبعة الخامسة يسرنى أن أشكر للدكتور سيد نوفل مدير الإدارة التشريعية بمجلس الشيوخ ، دقة المراجعة لتجاربها ولتجارب الطبعة الرابعة .

وأحمد الله وأرجو أن يوفقنا للخير ولحسن أداء واجبنا فى الحياة .

محمد حسين هيكل

فهارس الكتاب

أولا : فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(١) ورد في بعض المواضع بضم الهمزة وفتح السين . وصوابه فتح الهمزة وكسر السين .

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

ثانياً : فهرس الأمم والقبائل والجماعات

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

ثالثاً ـ فهرس الأماكن

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

رابعاً – فهرس الأيام والغزوات والوقائع

(ف)

(و)

(ى)

خامساً ـ فهرس الكتب

(ك)

(م)

(ن)

(و)

(ى)

سادساً ــ فهرس الموضوعات

تقديم الكتاب

تقديم الطبعة الثانية

الفصل الأول : بلاد العرب قبل الإسلام

الفصل الثانى : مكة والكعبة وقريش

الفصل الثالث : محمد من ميلاده إلى زواجه

الفصل الرابع : من الزواج إلى البعث

الفصل الخامس : من البعث إلى إسلام عمر

الفصل السادس : قصة الغرانيق

الفصل السابع : مساءات قريش

الفصل الثامن : من نقض الصحيفة إلى الإسراء

الفصل التاسع : بيعتا العقبة

الفصل العاشر : هجرة الرسول

الفصل الحادى عشر : أول العهد بيثرب

الفصل الثانى عشر : السرايا والمناوشات الأولى

الفصل الثالث عشر : غزوة بدر الكبرى

الفصل الرابع عشر : بين بدر وأحد

الفصل الخامس عشر : غزوة أحد

الفصل السادس عشر : آثار أحد

الفصل السابع عشر : أزواج النبي

الفصل الثامن عشر : غزوتا الخندق وبنى قريظة

الفصل التاسع عشر : من الغزوتين إلى الحديبية

الفصل العشرون : عهد الحديبية

الفصل الخامس والعشرون : حنين والطائف

الفصل السادس والعشرون : إبراهيم ونساء النبى

الفصل السابع والعشرون : تبوك وموت إبراهيم

الفصل الثامن والعشرون : عام الوفود وحج أبي بكر بالناس

الفصل التاسع والعشرون : حجة الوداع

الفصل الثلاثون : مرض النبي ووفاته

الفصل الحادى والثلاثون : دفن الرسول

خاتمة فى مبحثين

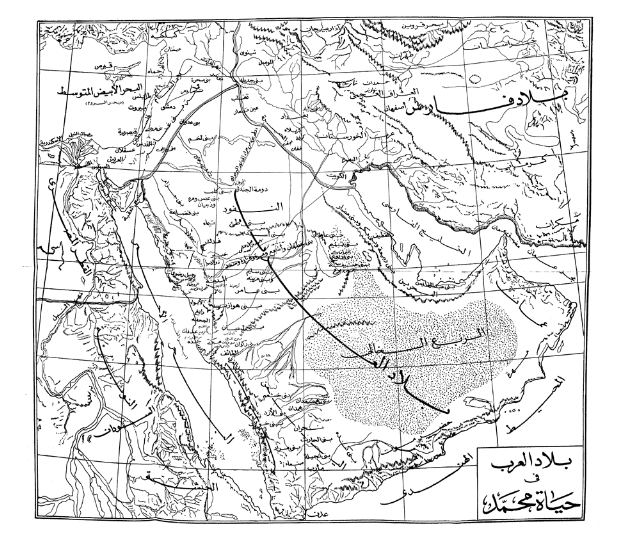
١ ــ الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن :

٢ ــ المستشرقون والحضارة الإسلامية :

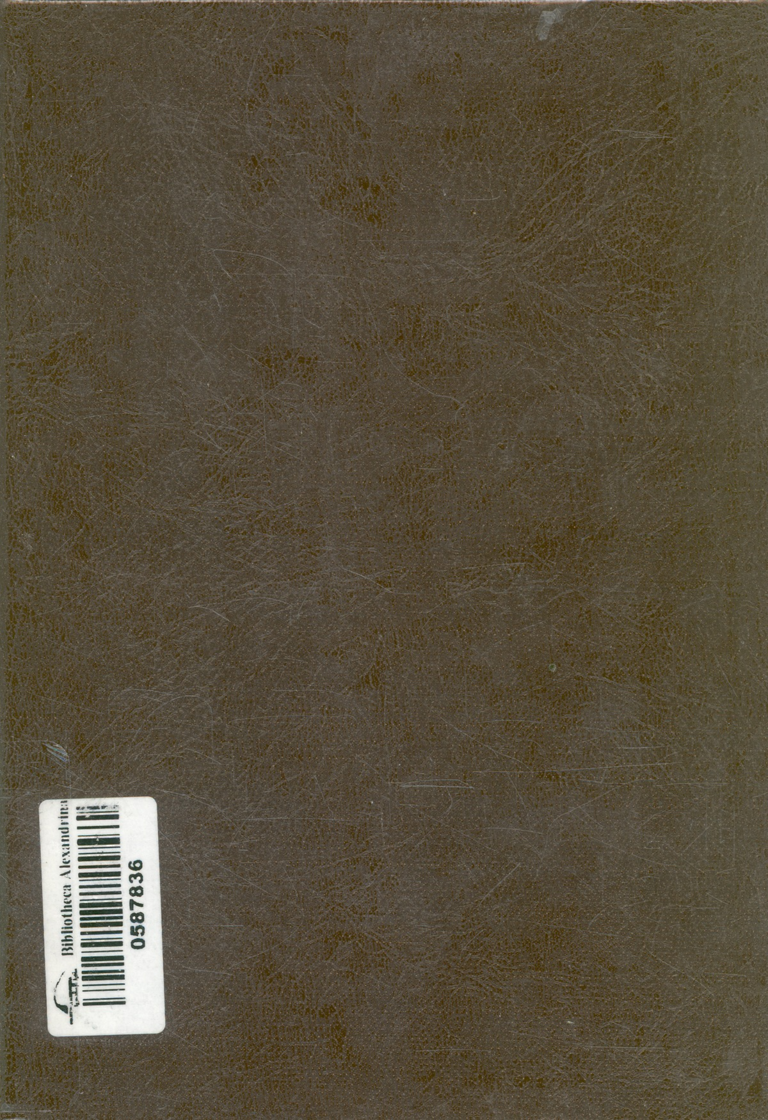
رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٣٩٩٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧١٧-٤	ISBN

١ / ٨٦ / ١٤٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بلاد العرب
في
حياة محمد
البحر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)
قبرص
بلاد فارس
العراق العجمي
اصفهان
الخورستان
كرمان
مكران
الخليج الفارسي
الكويت
بغداد
الموصل
نينوى
تغلب
دمشق
بيروت
حماه
القدس
عسقلان
العريش
الاسكندرية
دومة الجندل
بنى كلب
النفود
تيماء
بنى طى
بنى عامر
بنى هوازن
الطائف
نجران
بنى الحارث
مأرب
عدن
الربع الخالي
بلاد العرب
الهند
المحيط
السودان
الحبشة
بحر قزوين
خراسان


Bibliotheca Alexandrina
05587836